أحمد أوميت
AHMET ÜMIT

صروح أسطنبول

İstanbul Hatirasi





İstanbul Hatirasi

رواية

أحمد أوميت

AHMET ÜMIT

ترجمة

مروان سعدالدين


THAQAFA ثقافة
للنشر والتوزيع
Publishing & Distribution L.L.C.



تم إصدار هذا الكتاب بدعم من برنامج SPOTLIGHT ON RIGHTS
"أضواء على حقوق النشر" في أبو ظبي.
This edition has been produced with a subsidy by the Spotlight on Rights programme in Abu Dhabi

يتضمن هذا الكتاب ترجمة النسخة التركية
HATIRASI İSTANBUL
نشر هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة والسياحة في الجمهورية التركية ضمن مشروع
Translation is sponsered by TEDA



T.C. Kultur ve Turizm Bakanligi
Kutuphaneler ve Yayimlar Genel Mudurlugu
Fevzi PaŞa Mahallesi Cumhuriyet Bulvarı No:4 (Eski sayıŞtay Binası)
06030 Ulus/ANKARA/TURKEY
e-mail: teda@kulturturizm.gov.tr - Web: www.tedaproject.com

الطبعة الأولى: 1434 هـ - 2013 م

ISBN: 978-614-02-0725-7

THAQAFA ثقافة للنشر والتوزيع
Publishing & Distribution L.L.C.

أبوظبي هاتف: (+971-2) 6345404 فاكس: (+971-2) 6345407
دبي هاتف: (+971-4) 2651623 فاكس: (+971-4) 2653661
بيروت هاتف: (+961-1) 786233 فاكس: (+961-1) 786230

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف (+9611) 785107
الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف (+9611) 786233

"سانا دن بير تبدن باكتيم عزيز إسطنبول..." [1] .

يحيى كمال

بيزنطية - مدينة الملك بيزاس الأسطورية

كان بوسيدون ينظر إلى الملك في أثناء طقس الاحتفال، ويوم الشكر، ولحظة التقدير؛ وقت الوقار. كان قد منحهم تلك الأرض التي تندفع في البحر بفخر مثل رأس نسر على أنها هبة، وكانت الريح قد ملأت أشرعتهم بقوة لا يمكن إيقافها، والتربة الخصبة قد أنتجت غلالاً تثير البهجة، والبحر السخي قد أعطاهم أشهى أطعمته. كان قد حماهم من النـزاع والمعاناة، وحان دورهم الآن للقيام بواجباتهم، ويجب على الملك فعل ما كان مطلوباً منه، والوفاء بوعوده، لذا أمسك بسيفه الضخم.

كان بوسيدون ينظر إلى الملك، فيما ضوء أزرق باهت يغمر منطقة الاحتفال، وشذا البحر يعبق في الجو. شعر الملك بالقشعريرة؛ قشعريرة أحس بها الثور اليافع المقيّد على المنصة، فأرسلت موجات ذعر عبر جسده الضخم. شعر الجنود الأربعة الذين يكافحون لتثبيت الثور في مكانه، والعرّاف أيضاً الواقف على بعد بضع خطوات خلفهم برعشات خوف. وقف الملك، على كل حال، ثابتاً رغم القشعريرة وهبّات الريح التي تنذر بالسوء، ورفع سيفه واقترب خطوة.

كان بوسيدون ينظر إلى الملك الذي رفع رأسه تحية له، وثبّت بصره على الرمح ثلاثي الشُّعب في يد بوسيدون، على ذلك السلاح القادر على إرسال المملكة كلها إلى قاع البحر بضربة واحدة. وتحوّل التوقير في قلبه إلى خوف بسرعة؛ ما جعله يتفادى النظر إليه. للحظة، توقف كل شيء تماماً؛ الريح القادمة من البحر، والثور الذي كان جسده الأسود يرتفع وينخفض بغضب بالكاد يخفيه، فيما الجنود يثبّتونه في مكانه. أطبق عليهم صمت ثقيل للحظة، وعرف أنه إذا اضطر إلى الانتظار لوقت أطول، فسيشعر بغضب عارم، وسيصبح الصمت لعنة أبدية. أدرك أن لا مجال للتأخير، وأن الأمر يجب أن يبدأ فوراً.

صرخ الملك بصوتٍ مملوء رهبة: "تحيات لك يابوسيدون، تحيات لك ياسيد البحار، ومزلزل الأرض. تحيات لك ياابن كرونوس وريا، وشقيق زيوس وحادس. تحيات لك. نقدم لك ألف شكر!

لك، أنت من لم يخذلنا مطلقاً. لك، أنت من لم يتخلَّ عنا قطّ منذ غادرنا أرض ميغارا، وتولّى مصيرنا بحمايته، ولم يصبَّ علينا جام غضبه، أو يطلق عواصفه على سفننا، أو يرفع رمحه الرهيب فوق رؤوسنا. لك، أنت الذي جعلت البحار تهدأ فأضحت ساكنة ومثمرة.

تحيات لك ياحاكم البحار الأسمى، وحامي شعب ميغارا. بفضلك، وضعنا أيدينا على هذه الأرض الخصبة، المحاطة من ثلاث جهات بهذا البحر الجميل، وبنعمة منك أسسنا هذه المدينة التي تنبثق من باطن الأرض؛ وكأنها علامة على ذكائك. وبفضلك، ازدهرنا على اليابسة وفي البحر. نتوسل إليك، يامن يحبنا مثل أولاده، ويا من حمانا، أن تقبل هذا؛ قرباننا، علامة على ولائنا وطاعتنا. نناشدك أن تحمينا وتراقبنا، فقوتك ورأفتك من دون حدود".

بقيت نظرة بوسيدون المتجهمة ثابتة على بيزاس؛ الملك الشاب في تلك المملكة حديثة العهد؛ وكأن الكلمات التي نطقها الملك اليافع قد ذهبت أدراج الرياح. جثا الملك - الذي بقي رابط الجأش رغم عدم اكتراث بوسيدون - على ركبتيه، وأحنى رأسه باحترام مطلق وقدّم تحياته، ثم نهض، وبتصميم محارب يواجه خصمه، اقترب من الثور الذي يثبّته الجنود الأربعة. لمع ضوء الشمس على سيف الملك، ودخل مجال رؤية الثور؛ وكأن الشمس نفسها تمنّت تنبيه هذا المخلوق لمصيره. بدأ الحيوان، المتململ أساساً من تقييده، يشد الحبال، ويحاول الهرب من تلك الساحة الغارقة بشذا البحر وتلك الحبال ووميض السيف الذي يضرب عينيه، وكافح ليتخلّص من آسريه وليحرّر نفسه من قيوده، لكن الجنود أمسكوا بالحبال بقوة وثبّتوه.

كان بوسيدون ينظر إلى الملك بيزاس وهو يقترب من الثور. وعندما شمَّ الحيوان رائحة الملك، تململ وبدأ غضبه يتصاعد، في حين كافح الجنود لإبقائه في مكانه. بدأ العرّاف يتمتم، ويداه الممتدتان تحملان أقداحاً لملْئها بدم القربان، وقبل أن يستلَّ بيزاس سيفه من غمده لذبح الحيوان، توقف وحدّق إلى المخلوق بتبجيل، فبادله الثور النظرات توقعاً؛ وكأنه أحس بما سيحدث. أمسك الملك - الذي كان يعرف أنه ينبغي ألا يجعل بوسيدون أو القربان ينتظر - مقبض سيفه العريض وتقدم خطوة نحو الثور، ثم وضع النصل تحت عنقه وحزّها. وعندما سال دم الثور إلى أوعية العرّاف، بقي ساكناً لجزء من الثانية قبل أن يترنّح إلى الخلف متألّماً، ويحاول أن يرمي نفسه إلى الأمام ويحرر جسده من القيود، لكن سواعد الجنود القوية أعادته إلى الخلف حتى استنفد آخر مخزون من قوته، وسقط على قائمتيه الخلفيتين المرتعشتين، ثم انهار على جانبه مطلقاً صرخة أخيرة.

كان بوسيدون ينظر إلى الملك المتأثر بغزارة الدماء التي لطّخت كسوته، والذي كان يحدّق آنذاك إلى الحيوان الذي ذبحه للتو. لم تكن عينا الثور ممتلئتين غضباً، وظهر عليه تعبير ذهول وألم مبرّح، وشعر الملك

غير النادم بهدوء رجل أنجز واجبه، لكنه لم يستطع التوقف عن التحديق إلى عيني قربانه اللتين اختفى وميض الحياة منهما بسرعة.

الهلال والنجمة

كانت عينا الضحية تحدّقان إلى أتاتورك. بدا الرجل في الخمسين من عمره. ذراعاه ممتدتان فوق رأسه، ويداه موثقتان معاً، وراحتاه مطبقتان على بعضهما؛ وكأنه يصلي، وقدماه متجهتان نحو البحر، وشعره الطويل الأشيب يفترش القاعدة الرخامية للصرح، وقميصه العاجي وياقة سترته الجلدية البنية ملطّخان ببقع من الدماء. حجبت اللحية الرمادية الخفيفة الجرح العميق في حنجرته عن الأنظار؛ الذي افترضتُ أنه على الأرجح سبب الموت. وعلى الرغم من أن مثل هذا المنظر لم يكن غريباً بالنسبة إليّ، إلا أنني شعرت ببعض الغثيان حين نظرت إلى الجثة، وربما يعزى السبب إلى أن الوقت كان مطلع النهار أو إلى العمر ببساطة؛ لا أدري. استدرت ونظرت بدلاً من ذلك إلى البحر؛ الامتداد الأزرق العميق الذي يتغير لونه كل ثانية مع انبلاج الصبح.

مخرت معدّيتان عتيقتان متهالكتان عباب البحر، مثل يدين بحريتين تكابدان المشاق منذ أمدٍ بعيد؛ تاركتين خطي زبد على السطح الأزرق المتموّج قليلاً. غمر ضوء خافت ونسيم عليل سارايبورنو؛ كمرافقين لطيفين لشذا البحر الذي يملأ الهواء. وخلفي، كانت الأشجار التي تحيط بالطريق الإسفلتي المؤدي إلى المكان قد بدأت تزهر. استعدت ذكريات الأيام الخوالي؛ أيام الماضي الرائعة عن إسطنبول طفولتي، تلك الصور المتنافرة والأصوات البعيدة والمشاهد من ذكريات أضحت ضبابية الآن... لكن، إذا حاولت إحياءها بالقوة، فستفقد صفاءها السابق.

شعرتُ فجأة بعيني شخص تحدقان إليّ، فرفعت رأسي والتقت نظراتنا، ولاحظت أنه يمعن النظر إليّ تحت ضوء القمر الذي يذبل شيئاً فشيئاً؛ يذوي لكن يبدو أنه يزداد سطوعاً مع مرور كل لحظة. شعرت بقشعريرة برد تسري في عظامي، وأشحت بصري بعيداً عن ضوء القمر، ورفعت ياقة معطفي.

"إذاً، ما رأيك؟ أهي مجرد مصادفة غريبة؟".

ترددت أصداء الصوت الضعيفة في أرجاء الساحة، ثم اختفت مع ارتفاع صوت أمواج البحر الصغيرة. كان عليّ هو السائل، وكان يقف محدّقاً إلى تمثال أتاتورك البرونـزي. لم يكن السؤال موجهاً إلى أيٍّ منّا على وجه الخصوص، لكن زينب هي التي أجابت.

"ماذا تعني بقولك مصادفة ؟".

بدت قلقة؛ وكأنها قد غفلت عن تفصيل مهم. أشار علي إلى التمثال بجهاز اللاسلكي الصغير الذي يحمله، والذي يصدر ضجيجاً على نحو مسموع.

"أقصد ترك الضحية هنا أمام التمثال". استدار ونظر إلي. "ما رأيك أيها المدير؟ هل تُركت الجثة هنا بمحض الصدفة؟".

لم تكن لديّ أي فكرة. مشيت إلى هناك لأتفحّص التمثال، ورأيت مصطفى كمال، مرتدياً ثوباً مدنياً مزخرفاً، وقد وضع يديه على وركيه محدّقاً إلى البحر، ومستغرقاً في تفكير عميق. عندما رأت زينب أن لا جوابَ جاهزاً لديّ، تكلمت: "هل تعني أنّه قُدّم إلى أتاتورك كقربان؟".

"لِمَ لا؟". كان صوت علي هادئاً؛ وكأنه يناقش مسألة يومية. "لدينا مجانين كفاية في البلاد إذا جاز التعبير".

لم يكن مخطئاً. لكنني لم أسمع من قبل أن شخصاً- كائناً بشرياً- قد قُدّم قرباناً إلى مصطفى كمال.

تمتمت زينب حين شرعت تفحص الجثة مجدداً: "أشك في هذا، وأعتقد أنها محض صدفة. لو أن الضحية كان سيُقدّم كقربان، لكان قد قُتل هنا". وأشارت إلى القاعدة الرخامية تحت رأس الضحية. "انظرا، لا توجد بقع دماء. لقد أُحضر إلى هنا بعد أن قُتل. لا أظن أن لهذا أي علاقة بأتاتورك".

قال علي: "لست واثقاً تماماً". لكن صوته اختفى حين صدح بوق معدّية. وسرعان ما تلاشى الصفير الذي ذكّرنا بصرخة حزينة لوحش برّي من سالف العصر والزمان. قالت زينب وهي تحاول أن تعرف ما يوجد بين كفي الضحية الموثقتين: "يوجد شيء ما هنا، شيء معدني... مهلاً، ها هو، أظن أنني قد حصلت عليه".

حدّقنا إلى الشيء الذي حملته بين إبهامها وسبابتها.

قالت باستغراب: "إنها قطعة نقود، وتبدو عتيقة".

تفحّص علي النقوش على سطح قطعة النقود المعدنية وقال: "توجد بعض الكلمات المنقوشة على حافتها، وشكل أو رمز في الوسط... ما هذا؟".

لم يكن من الممكن أن أتوثق من أي شيء من دون أن أضع نظارتي؛ وتحديداً إذا كان علي- ثاقب البصر مثل نسر- يواجه مثل تلك الصعوبة. مددت يدي إلى جيب سترتي بحثاً عن نظارتي، لكن لم يكن هناك داعٍ إلى ذلك؛ لأن زينب شرعت فوراً في تفسير الرموز.

"أليست هذه نجمة؟ وهذا يبدو مثل هلال...". استدارت ونظرت إليّ بدهشة، ثم تابعت قائلة: "إنه هلال أيها المدير، مع نجمة في الوسط".

صمتت قليلاً، ثم همست بصوت خافت على نحو غريب: "مثل علمنا تماماً".

بيزنطية

كانت صورة القطعة النقدية معروضة على شاشة في المختبر المظلم عديم النوافذ. لم تقلّل الأثلام الصغيرة الموجودة على الجانبين من روعتها وبهائها اللذين تميّزت بهما طوال آلاف السنين، وبدا واضحاً أنّ هناك نقشاً مكوّناً من تسعة حروف يحيط بالهلال والنجمة.

سألت زينب: "ما هذه اللغة؟". كانت تشير إلى الكلمة التي تظهر على الشاشة بمسطرة طويلة. "إنها بالتأكيد ليست تركية. أهي روسية؟".

قلت بحزم: "لا، إنها إغريقية".

لم تستدر زينب فقط، وإنما استدار علي الواقف بجانبـي أيضاً، ونظرا إليّ بدهشة.

فشرحت لهما: "تعلّمت الأبجدية الإغريقية في منـزل العم ديمتري الذي كان قسيساً أرثوذوكسياً. عاش مع زوجته سولا في المنـزل قبالة منـزلنا في بلاط، وكنت دائماً موضع ترحيب في بيتهما؛ إذ لم يكن لديهما أولاد، لذا دللاني كثيراً. تعلّمت الأبجدية الإغريقية من الكتب الموجودة في منـزلهما؛ كتب مصوّرة كانا قد أحضراها من اليونان. حسناً، أقول إنني تعلّمتها في الماضي، فقد انقضى وقت طويل على ذلك الآن، وقد نسيت بعض الحروف، لكن لا يزال بمقدوري التعرّف إلى الحروف حين أراها".

قالت زينب، وعيناها لا تزالان ثابتتين على النقش: "حسناً، ماذا كتب بهذه الحروف أيها المدير؟". مشيت نحو الشاشة، وأشرت إلى الحروف.

"إنها تقول بيزنطية ".

تمتم علي وهو غير مرتاح لأنه يواجه شيئاً لا يستطيع استيعابه: "إذاً، ما الذي يعنيه هذا؟ شيء بيزنطي ؟ كأنه معقّد أو متشابك؟". نظرت زينب إليّ بقلق مثله تماماً.

قلت عابساً: "ماذا؟ لا تقولا لي إنكما لا تعرفان!".

اندهشا من ردة فعلي القاسية، وأشاحا بنظرهما بعيداً؛ وكأنهما قد فشلا في ملاحظة تفصيل حاسم.

"حقاً أيها الشابان، لا تخبراني أنكما لا تعرفان؟ أنتما تمزحان، أليس كذلك؟ بيزنطية، بالصوت العالي! بيزنطية! إنها المدينة التي تعيشان فيها! اسم إسطنبول الأصلي!".

التزم علي الصمت؛ محرجاً من جهله الموضوعَ، لكن زينب هي التي تكلمت في النهاية.

"ألم تكن إسطنبول تدعى أساساً القسطنطينية؟".

هززتُ رأسي محبطاً وأنا أجيب: "طبعاً لا. كان أول أسماء إسطنبول هو بيزنطية، وأصبح القسطنطينية بعد عدّة قرون".

تغيّر العرض على الشاشة فجأة، وظهرت صورة جانبية لامرأة؛ شعرها معقود نحو الخلف، والتجاعيد على وجهها بالغة الوضوح. كان علي قد عرض صورة الجانب الآخر من القطعة النقدية على الشاشة، ربما في محاولة منه لإيقاف محاضرتي عن التاريخ قبل أن أسترسل في كلامي. "هل هذه المرأة هي بيزات، بيزنط..."، تلعثم غير قادر على لفظ الكلمة. "ماذا كان الاسم مجدداً أيها المدير؟".

صرخت ساخراً تقريباً: "بيزنطية ياعلي، بيزنطية!".

قال وهو يكبت ضحكته: "تلك هي. لا بد أن هذه المرأة أميرة بيزنطية إذاً".

لم أكن واثقاً، وبعد أن حدّقت إلى صورة المرأة التي تظهر على الشاشة بصمت لبعض الوقت، مشيت باتجاه مفتاح الضوء وقلت: "لا أدري. تخميني ليس أفضل من تخمينك. أفضل شيء بإمكاننا فعله هو التكلم مع الخبراء".

اختفت الصورة عن الشاشة حين سطع ضوء النيون القوي. في الوقت نفسه، وصلت رائحة لم أشمّها مطلقاً في المختبر إلى أنفي، فنظرت حولي باحثاً عن مصدرها. كانت هناك، في زهرية بسيطة متواضعة؛ باقة من ياقوتية بنفسجية على طاولة زينب.

تمتمتُ: "إنها أزهارٌ جميلةٌ، من أرسلها؟".

كان السؤال موجهاً إلى زينب، لكنني رأيت "علي" بطرف عيني يتورد خجلاً. أجابت زينب، وصوتها يشي بفرحتها: "أحضرها لي علي أيها المدير".

كانت هذه مفاجأة حقيقية. علي الأخرق، الذي يضايق زينب دائماً، ويتشاجر معها على الدوام، ويجد سبباً ليزعجها، يشتري لها أزهاراً الآن! ولدهشتي، رأيته يزداد توردا ويشيح بصره بعيداً. كنت على وشك أن أسخر منه، لكن تلك النظرة البائسة التي ظهرت على وجهه بدت محببة جداً، فلم أستطع إرغام نفسي على فعل ذلك.

قلت: "نعم، إنها جميلة". ثم غيّرت الموضوع بسرعة واستدرت نحو زينب. "يجب أن نتصل ببعض الخبراء لمساعدتنا في هذا؛ مؤرخين، خبراء في النقود، علماء آثار؛ الأشخاص الذين لديهم معلومات وافية عن هذه الأشياء".

"سأعمل على ذلك فوراً ياسيدي".

بدا علي مرتاحاً لتغيير الموضوع، وقال سعيداً بقدرته على المشاركة في ذلك: "لنبدأ مع خبراء النقود. لا بد أن هناك صلة بين الهلال والنجمة المنقوشين على القطعة النقدية وإلقاء الجثة عند قاعدة تمثال أتاتورك".

كانت لديه وجهة نظر؛ قطعة نقدية سُكّت قبل آلاف السنين ونُقِش عليها نجم وهلال، ومصطفى كمال... هل هذه رسالة سياسية من نوعٍ ما؟ هل من فعل ذلك إرهابيون يستخدمون القتل كاستراتيجيّة؟ لم تبدُ لي هذه الفكرة معقولة؛ إذ لم تستخدم أيّ مجموعة إرهابية، في اليسار أو اليمين، مثل هذه الطريقة من قبل، وكانت أفعال المجموعات الإرهابية دائماً موجهة نحو تحقيق غاية واضحة وملموسة، إلا طبعاً إن كانت تُدار سراً من قبل إحدى وكالات الاستخبارات الحكومية. لم أعمل قط في قسم الجرائم السياسية ، لكنني أعرف أن أجهزة استخبارات الدولة تدير معظم المنظمات الإرهابية.

"يبدو أن كل أفراد الفريق هنا". كان شفيق، الرئيس الصفيق لوحدة البحث الجنائي ، واقفاً عند باب المختبر مراقباً إيّانا، وتكشيرة وقحة مرتسمة على وجهه. لكن، عندما رأى تعابير وجوهنا الجادّة توقف عن المزاح فوراً وقال: " احم ، لقد تعرّفنا الفقيدَ ياكبير المفتشين".

على الأقل كان لديه نبأ جيد لنا.

"هل وجدتم بطاقة هويته؟".

اقترب مني وهو يحمل كيساً شفافاً. "وجدنا محفظته على بعد نحو مئة متر من المكان، وبطاقة هويته داخلها. وجدنا أيضاً هاتفاً خلوياً محطماً على قارعة الطريق".

سألت وأنا أمسك الكيس: "هل وجدتم المحفظة والهاتف في المكان نفسه؟".

"نوعاً ما... كانت المسافة بين الهاتف والمحفظة عشرة أمتار تقريباً على الطريق من سارايبورنو إلى إيمينونو، أمام قصر سبتسيلر. لا بد أن القتلة قد ألقوهما هناك حين تخلّصوا من الجثة...".

توقعت ما سيُجيب به لكنني سألت على كل حال؛ فقط لأتوثق. "قتلة؟ كيف تعرف أن الجريمة لم ينفذها شخص واحد؟".

"لقد حُملت الجثة إلى هناك ياكبير المفتشين. لو أن عنق الضحية قد حُزّت هناك، لبدت المنطقة مثل مسلخ، وأنت تعرف هذا. لا يستطيع شخص واحد حمل تلك الجثة إلى هناك". صمت قليلاً ثم أضاف متذكراً تفصيلاً مهماً: "هل تحدّثتم إلى أي شخص هناك؟ أي شهود محتملين؟".

أجاب علي؛ لأنه كان الشخص الذي أجرى مقابلات مع أولئك الذين كانوا موجودين في المنطقة في ذلك الوقت.

"قال الجنود المناوبون في الثكنة الموجودة على الطرف الآخر من الشارع، بالإضافة إلى الرجل المسؤول عن موقف السيارات إنهم لم يروا شيئاً. كما قال المتشردون المحليون إنهم لم يلاحظوا شيئاً غير معتاد أيضاً. تكلمنا مع جميع من كانوا في سارايبورنو في ذلك الوقت، لكن لم يلاحظ أحد شيئاً غريباً".

تمتم شفيق- لنفسه تقريباً- وكأنه يمعن التفكير في التفاصيل: "لا بد أن القتلة محترفون. إذ لم يكن هناك شيء بجانب التمثال أو على مقربة منه؛ لم نعثر على أدلّة مفيدة أو شيء يمكن أن نعتمد عليه".

جعلتني ملحوظة شفيق أفكّر في احتمال- إن كان موجوداً أصلاً- أن يكون للاستخبارات دور في الحادثة، لكن الحقيقة تبقى أنهم لا يتركون مثل هذه الرسائل عَرَضاً، إلا إن كانت نيتهم تضليل المحققين عمداً.

"إذاً، لماذا تمثال أتاتورك؟". أثار علي، المصرُّ كالعادة، المسألةَ مجدداً.

قال شفيق: "الأمر غريب". بدا محتاراً جداً مثلنا جميعاً. "غريب جداً. هل أراد القاتل أن يترك لنا رسالة من نوعٍ ما؟".

كان بمقدورنا الجلوس هناك لساعات، والجدال من دون أن نصل إلى نتيجة؛ خاصة مع الأدلّة المحدودة التي لدينا. لذا، بدلاً من الانغماس في تخمينات متطرفة، أفرغت محتويات الكيس على الطاولة. ركّزنا جميعاً على المحفظة ذات اللون البني الفاتح والهاتف الخلوي المكسور.

قال علي وهو يبدو مستمتعاً بوقته: "إنها محفظة جميلة مكتنـزة. يبدو أن الفقيد كان ميسوراً".

قال شفيق وهو يُشير إلى المحفظة المنتفخة بالأوراق النقدية: "من الصعب معرفة ذلك. لكن، يبدو أنه كان يحمل مبلغاً كبيراً من المال. يوجد هنا ألف ومئتان وخمس وعشرون ليرة بالضبط".

أثار هذا اهتمام زينب. "أتعني أن القاتل لم يمسَّ المال؟".

"أشك في ذلك. لا أعرف إن كان الرجل المسكين يحمل معه المزيد من النقود في ذلك الوقت أم لا، لكن ألفاً ومئتين وخمساً وعشرين ليرة لا تعتبر مبلغاً صغيراً".

لم يكن المال ما أثار اهتمامي وإنما هوية الفقيد. وفيما كانت زينب تتابع حساباتها، أخرجت بحرص بطاقة الهوية من المحفظة، وأنا حريص على ألاّ أمس منطقة السطح قدر الإمكان لأتفادى إلحاق الضرر بأي بصمات أو

أدلّة محتملة.

"إذاً، لم يُقتل من أجل المال...".

ردَّ شفيق: "هذا ما يبدو". لكن أياً منا لم يكن يستمع إليه؛ لأننا جميعاً كنا مشغولين جداً في تفحّص بطاقة الهوية التي أحملها. كان شعر الرجل يبدو في صورة بطاقة هويته أقصر قليلاً، لكن لا يمكن إنكار الشبه، والاسم نجدت دينيزل، مولود في 12 آب عام 1959 في إسطنبول، وعازب.

"مُحاضر جامعي...".

رآنا شفيق نستدير نحوه، فأشار إلى بطاقة الأعمال التي كان قد أخرجها من الكيس.

"هذا ما يقال هنا. د. نجدت دينيزل، عالم آثار ومؤرخ فني ".

لم تكن بطاقة الأعمال التي يشير إليها شفيق تشبه معظم البطاقات التي يحملها جُلُّ أساتذة الجامعات. ويمكن القول حتى من دون لمسِها إنها طُبعت على ورق مقوّى عالي الجودة. على كل حال، كانت مهنة الفقيد هي التي أثارت اهتمام علي وليس الورق المقوّى الذي طبعت عليه المعلومات.

"إذاً، عالم آثار؟! يبدو أن الضحية ربما كان لديه اهتمام بهذا المكان البيزنطي الذي تحدّثت عنه أيها المدير".

قلت متفقاً معه: "إذاً، سيكون أول مكان نتوثق منه هو منـزله. وبهذه الطريقة، سنعرف المزيد عن نجدت دينيزل هذا، والمزيد عن بيزنطية".

استغرب شفيق: "بيزنطية؟ ما هي بيزنطية بالله عليكم؟".

نظر إليه علي بازدراء وقال: "عارٌ عليك يا شفيق! ألا تعرف؟ بيزنطية هي الاسم الأصلي للمدينة التي تعيش فيها!".

أنقذت زينب "شفيق" من المزيد من الارتباك والإحراج. "هل تتذكر القطعة النقدية التي وجدناها بين راحتي يدي الضحية؟ كانت الكلمة المنقوشة على القطعة النقدية يا شفيق هي بيزنطية".

سماتيا

كان العنوان على بطاقة الأعمال سماتيا؛ وهي منطقة عند سفح إحدى تلال إسطنبول السبع. وعلى الرغم من أنها ليست مثل بلاط، إلا أنني لطالما شعرت تجاهها بمودّة خاصّة؛ فهي إحدى تلك المقاطعات التاريخية التي جعلت من إسطنبول المدينة التي هي عليها الآن. كانت جالية أرمينية كبيرة تسكن في المنطقة سابقاً، وكنت أتوقف مع يفغينا فيها أحياناً حين نشعر بأننا نود احتساء كأس من الشراب في مكان مختلف، وهي تدعوها باسمها الإغريقي بسماثيا؛ وتعني رمليًّا أو من الرمال . لكن، بالنسبة إليّ، سماتيا تعني دائماً أشعة الشمس التي تنعكس عن سطوح المنازل الحجرية القديمة التي تُترك نوافذها مفتوحة على الدوام ليدخلها شذا البحر المُسكر، والمساجد القديمة، والكنائس العتيقة، والشوارع الضيقة بخاناتها الأثرية المريحة، وقطارات الضواحي عتيقة الطراز؛ تلك التي يبدو أنها لا تتعب أبداً من حمل الآلاف من سكان المدينة كل يوم إلى الخارج؛ والتي تقف هناك صامدة منذ آلاف السنين. لكن مثل بلاط، تبدو سماتيا قديمة وبالية، ولذا لم أتوقع قطّ أن يكون منـزل الفقيد الخشبـي المكوّن من طابقين بتلك الروعة. مشينا تحت شجرتين قديمتين ضخمتين وعبر البوابة الحديدية التي عُلّقت فوقها باقات أزهار بنفسجية أنيقة، ووصلنا إلى شجرة تين؛ جذعها منحنٍ ومعقوف، في حديقة تعيد المرء إلى العهد البيزنطي. فاحت رائحة حريق خفيفة في الحديقة، في حين تابعت الشمس ارتقاءها فوق رؤوسنا، وصراخ النوارس الحاد والخشن يختلط مع أصوات الأطفال من الشارع خلف المنـزل.

همس علي، وهو يحدق حوله مذهولاً: "هذا المكان لا يُصدّق. يبدو أن أجور علماء الآثار جيدة...".

كانت زينب تتقدم على علي بضعة أمتار، وتقف بجانب الباب تقريباً، لكنها لم تُضع وقتاً في الرد عليه. "إما ذلك أو أنه عثر مصادفة على كنـز كبير في إحدى رحلات التنقيب التي قام بها".

"ربما لقي حتفه لهذا السبب؛ لأنه وجد غنيمة ولم يقتسمها مع الآخرين".

لم أعرف إن كان جاداً أم يمزح فحسب.

قالت زينب وهي تجاريه في الحديث: "إذاً، لنتوثق من زملائه أيضاً. في الواقع، لنبحث في كل ملفاتهم ونقيّم كل ثرواتهم وممتلكاتهم".

"لا أعرف إن كان قد عثر على كنـز أم لا، لكنني أدرك أننا ربما نضطر إلى فعل كل ما اقترحته للتوّ".

توقفت زينب عن الابتسام، وحوّل علي اهتمامه بعيداً عن إبرة الراعي التي كان مستغرقاً بالنظر إليها، فقد حان وقت الجد. وفيما كنت على وشك الطلب منهما المضي قدماً لدخول المنـزل، رنَّ هاتفي الخلوي، وشعرت ببعض القلق حين رأيت اسم يفغينا يظهر على الشاشة.

قلت: "دقيقة واحدة، انتظراني". ورجعت إلى الخلف بضع خطوات حتى وصلت إلى الشجرتين الكبيرتين عند المدخل.

"مرحباً يا يفغينا...".

"مرحباً يا نوزت".

"كيف حالك؟".

"بخير، أنا بخير...".

لا، لم تكن بخير، ولا يمكن أن تكون بخير ؛ لأنها ستأتي إلى منـزلي للمرة الأولى هذه الليلة. كانت ستحضر إلى بيتي وتراني على سجيتي مع هياكلي العظمية وأشباحي، وألمي وحزني، ولا بد أنها تشعر بالتوتر؛ لأنني كنت موضع ترحيب في منـزلها، وفي خانها، وحياة أصدقائها وبيوتهم، وفي الجالية اليونانية عموماً، في حين انتظرت - من جهة أخرى - كل تلك السنين قبل أن أدعوها إلى منـزلي. كانت يفغينا صبورة ومسامحة على نحو رزين دائماً، وقد تجاوزت جداراً عاطفياً - عائقاً مشيداً من شبح الموت - حين حاولت التقرّب مني وولوج عالمي الداخلي الذي اعتادت عليه طبعاً، ولم تلمّح إلى ذلك قطّ، فضلاً عن التحدّث عنه، ولهذا عندما دعوتها لم يكن الأمر مفرحاً بالنسبة إليّ أن أشعر أنها خائفة.

سألَتْ: "هل أنت واثق يا نوزت؟ هل أنت واثق من هذا؟".

رددت عابساً: "طبعاً أنا واثق. بالتأكيد أنا كذلك. لو لم أكن واثقاً لما دعوتك، أليس كذلك؟".

لكن، هل كنت واثقاً تماماً؟ لا، بالرغم من أنني يجب أن أكون كذلك. إلى متى سيبقى الأمر على تلك الحال؟ كانت يفغينا صديقتي الحميمة، وأكثر إنسانة أثق بها على هذه الأرض، والأهم من ذلك كله أنها المرأة التي أحب... إذاً، أين يترك ذلك غوزيد وآيسون، زوجتي العزيزة وابنتي الراحلتين؟ ظلاّهما، شبحاهما، مقتنياتهما، شذاهما، صوتاهما اللذان لا أزال أسمعهما يترددان بين الجدران؛ كلها ترافقني... لا أزال أعيش مع ذكراهما، لكن يجب أن أقبل الحقيقة؛ بغض النظر عن قسوتها، أو

محاولتي جاهداً التشبث بذكرياتي عنهما. يجب أن أتقبّل أن غوزيد وآيسون لم تعودا بجانبي، وأنهما قضتا نحبهما في ذلك الانفجار المروّع، لكن الحياة يجب أن تمضي قدماً؛ فنلتقي أشخاصاً جدداً ونغرم بهم ونتعلّم أن نحبهم، سواء أأردنا هذا أم لم نرده، والحب الذي نشعر به تجاه هؤلاء الناس ينبغي ألا يضعف صلاتنا بأولئك الذين رحلوا. كنت أعرف أنني أحاول فقط أن أخدع نفسي بقول كل هذا وتصديقه، لكن الحقيقة هي أن الحياة تمنح أولوية للأحياء، فيبدأ الراحلون - ظلالهم، أطيافهم، أصواتهم، روائحهم، الذكريات عنهم - يتضاءلون ويتراجعون ببطء في نهاية المطاف. هذا شيء يفطر الفؤاد، لكن ليس لدينا على الأرجح خيار آخر. والبشر ليسوا الكائنات الأكثر وفاءً، خاصة حين يتعلق الأمر بالماضي. المهم هو أن تكرّم الراحلين وتتذكّرهم وتتقبّلهم وتجعلهم جزءاً من ذاتك، وتطمئن نفسك بالقول إنهم يعيشون في قلبك... أقول: تطمئن نفسك ، لكن مهما حاولت جاهداً مراراً وتكراراً أن تتخطى ذلك، فالحقيقة المرّة هي أن ذكرى الراحلين التي نكافح لاستعادتها تخبو في النهاية وتتلاشى في وجه حقائق الحياة الملحّة والضاغطة.

لم يكن بمقدوري تحدّي الحقيقة وقتاً أطول، فقد وصلت إلى مفترق طرق، وكنت على وشك الاستسلام حين وجدَتني. كانت يفغينا تنتظرني هناك عند مفترق الطرق ذاك، وبمساعدتها انتشلت نفسي من الحضيض، وتعلّمت كيف أتابع دربي؛ بالرغم من الأسى الذي أشعر به. إذا كان هناك من يُدعى بالشخص العادي أو الأشخاص العاديين، فقد حاولت أن أكون واحداً منهم. ولأشكرها على مساعدتها لي فعلت ما كان يجب أن أفعله قبل عدّة سنوات: دعوتها إلى منزلي. قبلتْ أخيراً، لكنها لم تستطع تحرير نفسها من القلق بشأن حقيقة أنني قد أبدّل رأيي في أي لحظة، أو أنها ستتعذّب من تصرّفاتي، ولذا كان صوتها متوتراً ومتلهّفاً حين اتصلت، ويجب أن أُطمئنها.

قلت متلهّفاً: "أنتِ لا تتصلين لتخبريني أنك لن تأتي الليلة، أليس كذلك؟".

"بالطبع لا يا نوزت؛ وهل من الممكن أن أفعل شيئاً كهذا؟!". كان التوتر في صوتها قد اختفى. "أنا أتصل فقط لأقول لك إن بمقدوري، كما تعرف، وإذا أردت مني فعل هذا، أن أجلب بعض تلك المازة التي لدينا والتي تحبّها كثيراً...".

لعبت دوري بإتقان وقلت: "هذا مستحيل يا يفغينا، علامَ اتفقنا؟ لن تفعلي شيئاً الليلة، اتركي كل شيء لي".

"لا بأس، لا بأس". بدت أكثر ارتياحاً. يبدو أنني قد استطعت إقناعها، لكنني لم أكن واثقاً بقدرتي على إقناع نفسي. سألتني بمرح: "إذاً، ما الطيّبات التي تخبئها لي الليلة؟".

تباهيت قائلاً: "أخبّئ لك طعاماً لم تتذوقي مثله في حياتك من قبل. لن أتفاجأ إن طلبتِ مني العمل في مطبخ الخان بعد أن تأكلي منه".

ضحكت بصوت خافت وقالت: "يمكن أن أطلب منك ذلك من دون أن أتذوق الطعام يانوزت، وليذهب أولئك الوحوش والقتلة إلى الجحيم". أصبحت نبرة صوتها هادئة ومتوسلة تقريباً. "أنا جادّة، لماذا لا تتقاعد من سلك الشرطة وتأتي للعمل معي في تاتافلا؟".

كانت تطرح عليّ هذا السؤال للمرة الألف، على الرغم من معرفتها الأكيدة أنني لا يمكن أن أقبل عرضها، لكنني تابعت على المنوال نفسه. "لا يمكنك أن تطلبي مني هذا ببساطة وتوظفيني على هذا النحو. أريد عضوية في الاتحاد، وتأميناً، ومعاشاً تقاعدياً، وإجازات مدفوعة؛ الحزمة كلها، وراتباً مُرضياً أكثر مما أحصل عليه من الدولة".

قالت وهي تجاريني في الحديث: "اتفقنا". ربما لم تكن تجاريني فحسب، وإنما تتصرف بكل جدّيتها المعتادة. أضافت: "ما دمنا نعمل جنباً إلى جنب". فضحكتُ بهدوء.

قلت: "يجب أن أفكّر في هذا، وستمنحك دعوتي اليوم الفرصة لتتوثقي من كفاءة موظفك الجديد. ينبغي ألا يجري توظيف الطهاة عشوائياً، أليس كذلك؟".

لم تضحك هذه المرة، وبدت الرقة في صوتها واضحة. "لا أريد التوثق من أي شيء إن كان أنت من نتكلم عنه".

والأمر نفسه بالنسبة إليك ياعزيزتي يفغينا ، هذا ما كان ينبغي لي قوله لكنني لم أفعل. كان بمقدوري على الأقل قول بضع كلمات لطيفة لجعلها تشعر بارتياح أكبر، لكن اهتمامي تحوّل إلى زينب وعلي اللذين وصلا إلى جانب الباب، وكانا يقفان هناك بانتظاري.

كل ما استطعت قوله هو: "شكراً، إنه أمر لطيفٌ أن تكون الموافقة صادقة. على كل حال، لا تتأخري الليلة، اتفقنا؟ سأنتظرك عند الثامنة".

"لن أتأخر، سأصل إلى منـزلك عند الثامنة".

لم يكن هناك ما يشير إلى وجود امتعاض في صوتها، وبدا رقيقاً مثل نسمة ربيع على وجهي، وثابتاً مثل الأسوار خلفنا التي حمت المدينة آلاف السنين. لكن، عندما أنهيت المكالمة ومشيت نحو المنـزل، انتابني إحساس

عميق بالخوف لا يمكن تفسيره.

الملك بيزاس

كان داخل المنـزل معتماً، على عكس الجو المشمس في الحديقة. عندما دخلنا، شممنا شذا الخزامى التي كان نجدت دينيزل يستخدمها على الأرجح لإخفاء رائحة الرطوبة والعفن النفّاذة التي تفوح في الأماكن القريبة جداً من البحر. تجاوزنا الردهة الضيقة واتجهنا نحو باب تدخل أشعة الشمس منه، ثم سمعنا الصوت.

"مرحباً... اسمي الملك بيزاس... أهلاً بكم في قصري...".

بدا الصوت غريباً ومكتوماً، فمددنا أيدينا إلى أسلحتنا. لم يكن من المفترض وجود أحد في المنـزل، فوفقاً لما عرفناه، كان الفقيد يعيش وحيداً، وأقرب شخص إليه موجود في أنقره. تقدمنا بحذر بمحاذاة الجدار نحو الغرفة التي صدر الصوت منها. وعندما وصلنا إلى الباب، صدح الصوت مجدداً.

"مرحباً... اسمي الملك بيزاس... أهلاً بكم في قصري...".

وقفنا نحن الثلاثة هناك محدقين إلى بعضنا. أشرت إلى علي بأن يفتح الباب، وإلى زينب بأن تبقى في الخلف وتحمينا. دفع علي الباب بقوة، ولم أُعر الضوء الذي سطع في عيني على نحو مؤلم اهتماماً كبيراً، وصوّبت مسدسي إلى الجهة التي كان الصوت يصدر منها.

صرخت: "لا تتحرّك! شرطة!".

مجدداً، سمعنا الصوت واضحاً، من دون أي أثر للخوف فيه.

"مرحباً... اسمي الملك بيزاس... أهلاً بكم في قصري...".

بدأت أضحك حين تعوّدت عيناي الضوء، فقد رأيت في قفص كبير ببغاء أحمر الذيل، رمادي الريش يكرّر لازمته، فيما مسدسي مصوّب باتجاهه.

"مرحباً... اسمي الملك بيزاس... أهلاً بكم في قصري...".

شاطرني علي وزينب الضحك حين دخلا الغرفة وشاهدا ما يجري.

ثمّ كبت علي ضحكته: "إذاً، هذا هو الملك بيزاس الشهير، هه. يمكننا الآن أن نكتشف ما حدث قبل آلاف السنين".

أخفضت زينب مسدسها، وسمحت لنفسها بأن تقهقه قليلاً أيضاً. "كنت تتساءل لماذا استخدم الإغريق الهلال والنجمة كرمزين ياعلي. هذه فرصتك، اسأل الطائر".

قال علي وهو يمشي باتجاه القفص وينحني؛ وكأنه أمام حاكم فعلاً:

"لدي فكرة أفضل. أيها الملك الحكيم والقوي، هلاّ تتفضّل وتخبرنا عمّن قتل نجدت".

خفق الملك بيزاس بجناحيه، لكنه اختار أن يكرّر الكلام بدلاً من الإجابة عن السؤال.

"من قتل نجدت؟ من قتل نجدت؟".

عندما ابتعدت زينب وهي تكتم ضحكتها، فتح علي باب القفص ومدَّ يده إلى الداخل وأخرج الوعاء ثم ملأه بذوراً من علبة قريبة.

"لا نعرف ياصاحب الجلالة. كنا نأمل أن تخبرنا".

رفرف الطائر بجناحيه بإثارة حين رأى ذلك الغريب يملأ وعاءه ويعيده إلى القفص.

"نأمل أن تخبرنا... نأمل أن تخبرنا...".

تمتمت زينب وهي تشاهد "علي" الذي يتكلم مع الطائر: "عالم آثار فقط سيطلق على ببغاء اسماً مثل بيزاس".

أجاب: "لكن، يبدو أن الملك بيزاس لا ينوي مساعدتنا اليوم".

زعق الطائر وكأنه يشكر "علي" على إطعامه: "مساعدتنا اليوم...".

قال علي وهو يدير ظهره إلى الطائر: "يبدو أننا سنحلُّ لغز هذه القضيّة بأنفسنا. لن نحصل على الكثير من هذا الببغاء".

بدأنا بتفتيش الغرفة المنارة بقوة، والتي تحتوي على مقعد طويل بني، وأريكة تبدو مريحة، وتلفاز ذي شاشة عريضة، وجهاز موسيقى، ومشغّل أقراص مدمجة. إلا أن ما أثار انتباهي كان اللوحات السبع على الجدار؛ إذ تصوّر الأولى عرضاً عسكرياً أمام قصر السلطان في سارايبورنو، ويبدو فيها السلطان جالساً على عرشه بكل بهائه في حين يقف عدّة مسؤولين حكوميين من القصر وبعض الإنكشاريين أمامه توقيراً له، وبانتظار أمره. أما اللوحة الثانية فتصوّر نشاط الحياة اليومية أمام عمود قسطنطين [2] . إلى اليسار، على الجدار الذي يحمل ستائر زرقاء شاحبة، توجد لوحة تبرز معالم حشدٍ من الناس- دينهم، وعشيرتهم، وعرقهم مجهولة- في ساحة أعظم دار عبادة في المدينة، وأحد أعظم الصروح في العالم أيضاً؛ الكنيسة التي حُوّلت إلى مسجد ثم إلى متحف؛ المبنى الذي احتضن عبادة مؤمني الديانتين الرئيستين في العالم: آية صوفيا. وإلى جانبها لوحة تظهر فيها دار عبادة رائعة أخرى؛ ألا وهي جامع الفاتح [3] ، رمز فتح إسطنبول. وتماماً مثل لوحة آية صوفيا، كان الفنان قد صوّر الجامع من الخارج، وأظهر سكاناً من مدينتي قبل قرون خَلَت وهم يتحدّثون عن موضوعات تلك

الأيام، ويتوضأون، ويستعدون للصلاة، أو للمضي قدماً في حياتهم اليومية. كانت اللوحة على الجدار المقابل عبارة عن صورة للمنطقة المعروفة اليوم باسم سالي بازاري ، ليست لدار عبادة وإنما لقصر توبكابي؛ مقر السلالة السلطانية، ويبدو بأبراجه وقببه ومداخنه مثل سفينة شراعية تطفو على سطح بحرٍ صافٍ تقريباً، في حين تظهر على اللوحة إلى يساره تحفة المعماري سنان؛ جامع السليمانية. وعلى الرغم من فخامة الجامع الرائع، إلا أن مآذنه الأربع لا تزال تشبه شخصاً يتضرّع رافعاً يديه إلى السماء... وتُظهر اللوحة الوحيدة المعلقة بجانب الباب المفتوح إلى القسم الآخر من حجرة الجلوس "يديكول"، مع رجل يحمل غلّته على ظهره أمام المبنى في سلّة كبيرة، وخلفه تماماً صبيّان عاريا الساقين، لكن لا يُعرف إن كانا ابنيه أو اثنين من أيتام إسطنبول الذين لا يُعدّون...

"يبدو نجدت دينيزل هذا خبيراً بالمساحة من نوعٍ ما أو شيئاً من هذا القبيل أيها المدير...".

كان علي واقفاً أمام الخزانة تحت لوحة قصر توبكابي؛ حاملاً ملفاً سميكاً أزرق.

"تحمل كل هذه التقارير توقيعه في الأسفل".

تصفّحتُ التقارير التي سلّمني علي إيّاها، ولاحظت توقيع دينيزل على عددٍ من الأوراق الممهورة بتواقيع عدّة لجان ومفوّضين.

قلت: "يبدو أنه كان مهمًّا أيضاً، فاسمه يظهر على تقارير كثيرة".

"كُتب على هذه الورقة أنه تمّ إيقاف تشييد فندق ما...".

كنت على وشك أن أقرأ ما كتب في الملف الذي سلّمني إيّاه حين قاطعتنا زينب. "سيدي... سيدي...".

كان صوتها صادراً من الغرفة المجاورة. متى ابتعدت عنا وذهبت في ذلك الاتجاه؟

"هل يمكنك المجيء وإلقاء نظرة على هذا؟".

لم يكن هناك ذعر أو إثارة في صوتها، ولكنها ما كانت لتنادينا إن لم تعثر على شيء مهم. وجدناها في الحمّام، تحمل سكين جيب، وتشير إلى السائل البني الكثيف على النصل.

قالت فيما كنت وعلي نتفحّص السّكين: "ربما يكون قد قُتل هنا. انظرا، إنّ الجص بين قطع الآجر في الأعلى لا يزال أبيض، في حين أنه بني مائل إلى الأحمر الداكن في الأسفل. ربما يكون دم الضحية سبب تغيّر اللون هذا".

قال علي: "أو ربما غسل هنا سروالاً متسخاً بالطين، أو صبغ شعره، أو هذا مجرد سخام، من يعرف؟".

بدا ذلك منطقياً، لكن زينب أشارت إلى المنظّف. "لقد تمّ تنظيف الأرضية هنا بمطهّر. ألم تلاحظا أن رائحة الخزامى تفوح في المكان كله؟".

انحنيت إلى الأسفل لإلقاء نظرة على القارورة، وقرأت ما كان مكتوباً على اللصاقة: خزامى. بدأت أظن أن زينب تفكّر في شيء ما حين تدخّل ذلك الفظ.

"هذا لا يثبت شيئاً".

ها نحن ذا ، سيحصل ما توقعته؛ سيتشاجران ... لحسن الحظ، قرّرت زينب ألاّ تقع في المصيدة.

"سنرى من المحقّ بشأن ذلك ياعلي. كل ما نحتاج إليه هو زيارة إلى المختبر".

لم يخفِ تحليلها المنطقي حقيقة أنها تعرف أن فرضيتها صحيحة. إذا كانت الفرضية بسيطة جداً كما تبدو، فسنحدّد المكان الذي اقتُرفت فيه الجريمة، وسيساعدنا ذلك على تعقّب القاتل.

"كم سيطول الوقت قبل أن نتوثق يازينب؟".

"ليس كثيراً أيها المدير".

"جيد. في هذه الحال، ابدئي أنتِ بجمع عينات من الجص، وسنذهب نحن لإلقاء نظرة على ما يوجد في الداخل". عندما غادرنا، لاحظت أن الباب المقابل مفتوح قليلاً، والضوء المنبعث من الحمّام الذي كنا فيه يدخل الغرفة ويضيء لوحة على الجدار. اتجهت وعلي نحو الباب، ثم أنرت الغرفة، ونظرنا إلى مصطفى كمال أزرق العينين الذي كان يحدّق إلينا إلى الأسفل. بدا منـزعجاً تقريباً؛ وكأنه يقول: لا علاقة لي بوفاة عالم الآثار ذاك .

قال علي محبطاً: "يبدو أن الرجل كان معجباً كبيراً بأتاتورك. إذا كانت هذه هي الحال، تبدو فكرة تقديمه قرباناً لمصطفى كمال عبثية".

على الرغم من أنني لم أكن مهتماً كثيراً بذلك الاحتمال في المقام الأول، إلا أنني اضطررت إلى توضيح الخطأ في افتراض علي. "لماذا تعتبر الأمر سخيفاً ياعلي؟ ربما يكون الرجل قد قُدّم قرباناً إلى أتاتورك؛ لأنه تحديداً معجب به كثيراً".

لم يقل علي شيئاً. في الواقع، بدا سعيداً لأنني أخذت افتراضه على محمل الجد. لكن، كما أقول دائماً: من الخطأ القفز إلى استنتاجات مسبقة.

ألقيت نظرة في أرجاء الغرفة، ورأيت طاولةً عليها حاسوب، وخزانةَ كتب مثبّتة بالجدار، وبدا لي أن نجدت قد استخدم هذه الغرفة كما لو أنها مكتب من نوعٍ ما. وفيما كان علي يفتش المكتبة المقابلة، تحرّكت إلى خلف الطاولة، وفتحت الدرج العلوي، واكتشفت أنه يضم ملفات تشبه تلك التي رأيناها في حجرة الجلوس؛ تقارير عن مواقع أثرية وطنية ومبانٍ تاريخية. كان هناك شيء مختلف في الدرج الثاني على كل حال؛ صورة مؤطّرة، وجهها إلى الأسفل. أثارت انتباهي فقلبتها، ورأيت امرأة شعرها قصير ورملي اللون، وعظمتا وجنتيها ناتئتان قليلاً، وعيناها بنيتان جريئتان تحدّقان إليّ من الصورة. بدت معرفة عمرها أمراً صعباً. ربما كانت في أواخر العقد الثالث أو في بداية العقد الرابع. لكن، بغض النظر عن سنّها لم يكن هناك شك في أنها امرأة جذّابة، والغريب أنها بدت مألوفة.

قال علي: "سيدة جميلة". لم يكن قد عثر على شيء مفيد في خزانة الكتب، لذا اقترب مني، وكان آنذاك يلقي نظرة استحسان على الصورة من فوق كتفي. "ما رأيك أيها المدير؟ أهي حبيبة سابقة؟".

"لا فكرة لديّ، هذا ما سنكتشفه".

قلبت الإطار وأخرجت الصورة ونظرت إلى قفاها؛ لكن لم يكن هناك أيّ تاريخ. على كل حال، بدا واضحاً، من حقيقة أن الألوان لا تزال زاهية نسبياً والورقة لم تصفر، أن الصورة لم تُلتقط منذ وقت بعيد.

"لنلقِ نظرة على محتويات هذه الأدراج، ولنرَ إن كانت تحتوي على المزيد من الصور".

كانت هناك صور كثيرة للمرأة ذات العينين العسليتين الجميلتين مع الفقيد، لكن إحداها أثارت اهتمامنا بشكل خاصّ؛ إذ كانت صورة قديمة باهتة يرتدي فيها الفقيد بذلة أنيقة، فيما تبتسم هي بخجل إلى آلة التصوير وقد ارتدت فستان زفاف أبيض. بدا كلاهما أصغر سنًّا بعشر سنوات وسعيدين وقانعين بوقوفهما أمام آلة التصوير.

قال علي؛ متذكراً شيئاً مهماً: "ذُكر في بطاقة هويته أنه ليس متزوجاً. هل تظن أنهما تطلّقا أو انفصلا؟".

كان ذلك مرجحاً، لكن بدا واضحاً أيضاً أن نجدت لم ينسَ حبيبته القديمة مطلقاً.

قال علي مشيراً إلى مغلّف بجانب الصور: "انظر أيها المدير، ربما تكون وثيقة الزواج".

فتحت المغلّف وألقيت نظرة على محتوياته. كان محقاً، فقد وجدت

وثيقة زواج قديمة كُتب عليها اسم المرأة قبل الزواج، وإلى جانب اسميهما كُتب التاريخ والتوقيع الرسمي.

"ليلى باركين... هذا الاسم مألوف".

أومأ علي موافقاً. "الشيء نفسه بالنسبة إلي، أظن أنني قد سمعت بهذا الاسم من قبل في مكان ما. هل كانت كاتبة؟".

"من؟ من التي كانت كاتبة؟". كانت زينب واقفة في المدخل وهي تحمل كيساً يحتوي على عينات أخذتها من المنـزل.

"هذه المرأة، طليقة الرجل الميت. اسمها ليلى باركين".

مالت زينب إلى الأمام وحدّقت إلى الصورة ثم إليّ وقالت: "إنها ليست كاتبة أيها المدير، وإنما مديرة متحف توبكابـي. لا بد أنك تتذكّرها، فقد التقيتها قبل سنتين حين كنا نحقق في وفاة أحد حرّاس أمن المتحف".

عرض جديد

عند الظهر، أوصلنا زينب إلى المختبر، ثم تابعنا طريقنا إلى شارع السلطان أحمد. ولأننا نعرف أن المتحف يُغلق أبوابه أيام الثلاثاء، اضطررنا إلى إجراء بعض المكالمات الهاتفية. وأخيراً حصلنا على عنوان منـزل ليلى باركين، وكانت تقيم في الطابق العلوي في بناء مكوّن من طابقين في شارع آية صوفيا.

كانت عمتي سعدية تعيش في منـزل خشبـي قديم في الشارع نفسه قبل سنوات، واعتدت الذهاب إلى هناك في أثناء الأعياد الدينية لتحيتها. يتميز البيت بثلاث ذكريات رائعة بالنسبة إليّ: منظر قبة آية صوفيا الصغيرة التي تبدو من النافذة، ورائحة الفانيليا المتغلغلة في الأثاث، وأفضل حلوى بودنغ نشوية على وجه الأرض. وفي ما يخص عمي "منيب"، كان رجلاً عظيماً، ولم يعاملني قطّ بطريقة مختلفة عن معاملته لابنته سهيلة، وقد منحني دائماً ثروة صغيرة في تلك الأعياد والاحتفالات. كلاهما- ليرحمهما الله- ميتان الآن. انتقلت سهيلة إلى كندا، واشترى أحدهم الأرض وحوّلها إلى فندق فخم.

عاشت ليلى باركين في أحد تلك المباني الخشبية عتيقة الطراز التي تعود إلى حقبة أخرى في إسطنبول؛ حقبة بدأت تذوي منذ أمدٍ بعيد. لنصل إلى شقتها- المجدّدة مثل منـزل طليقها- اضطررنا إلى تجاوز متجر كبير لبيع التذكارات في الطابق الأرضي، ثم صعدنا على السلالم الحديدية التي أُضيفت إلى البناء بعد وقت طويل من بنائه. عندما رأيتها، أدركت أنها كما أتذكّرها تماماً: واثقة بنفسها، ومتحفّظة، ومتشامخة. كان شعرها- الذي لم يعد قصيراً كما بدا في الصورة- ينسدل على كتفيها، وكانت لا تزال جميلة.

قالت على نحو رسمي حين عرفت من أكون: "نعم، ماذا تريد؟". بدا واضحاً من نبرتها أنها قد انـزعجت من تطفّلنا؛ وبدا أنّ الانـزعاج يزيدها جمالاً.

أجبتها: "إنها قصة طويلة. وربما يمكننا أن نتكلم في الداخل".

تردّدت ونظرت إلينا من أعلى رأسينا إلى أخمص أقدامنا، ثم قالت بنـزق: "اعذراني، لكنني بحاجة إلى إعلامي مسبقاً؛ فأنا امرأة مشغولة. أشعر بالدهشة لأنكما استطعتما العثور علي في المنـزل؛ لأنني أكون عادة في المتحف".

كانت محققة، لكن لم يكن بمقدورنا تحديد مواعيد لمقابلة المشتبه فيهم في تحقيق جنائي.

"نحن مشغولون أيضاً ياآنسة باركين". حرصت على أن تبدو نبرة صوتي رسمية بما فيه الكفاية لجعلها تعرف أن الوضع جدّي. "لم يكن لدينا وقت كافٍ لتحديد موعد".

ظننت أنها على وشك أن تنفجر غضباً، ولكنها عوضاً عن ذلك نظرت إليّ وكأنها تحاول أن تتذكر إن كانت قد التقتني في مكان آخر.

"عذراً، ولكن ألم نلتقِ من قبل؟".

كانت ذاكرتها جيدة جداً.

"جئنا إلى المتحف قبل سنتين للتحقيق في وفاة حارس أمن؛ ذاك الذي وقع عن السور. أردنا حينها أن نعرف إن كانت قضية جنائية أم لا، لكن تبين أنها حادثة".

هزّت رأسها بأسًى وقالت. "نعم، هذا صحيح... سيناسي رجل مسكين، لديه طفلان. كانت حادثة مأساوية فعلاً". تحرّكت جانباً وسمحت لنا بالدخول. "من هنا، من هذه الطريق ياسيد أكّان". ابتسمت برقّة. "أنت السيد أكّان، أليس كذلك؟ كبير المفتشين نوزت أكّان؟".

ربما كان الجليد قد بدأ يذوب...

قلتُ فيما كنا نتوجّه إلى حجرة الجلوس الفسيحة: "حسناً ياآنسة باركين، لم أكن أظن أنكِ ستتذكرين".

توقفت في منتصف حجرة الجلوس المضاءة بأشعة شمس الظهر التي حوّلت شعرها الرملي إلى لون عينيها العسلي نفسه.

"إذا كنت تعمل في متحف كبير كما أفعل أنا، فيجب أن تكون لديك ذاكرة جيدة. هناك تفاصيل كثيرة... ينبغي أن تحفظها كلها، وتعالجها وتخزّنها...". استدارت لتنظر إلى الشاب الوسيم الذي يقف بجانبي. "وأنت من تكون...؟".

تمتم وحشنا الصغير: "علي، المفتش علي غورمن". لم يزعج نفسه حتى بمدّ يده، لكن بدا أنها لا تأبه لذلك.

قالت ببساطة: "أهلاً". وأشارت إلى كرسيين بذراعين. "اجلسا من فضلكما".

استطعنا أن نرى من مقعدينا قبة المسجد الرصاصية عبر النافذة الكبيرة. تمتمَتْ حين لاحظت اهتمامي الشديد بالمنظر: "إنه مسجد آية صوفيا. بناء قديم جداً، يعود تاريخه إلى أكثر من ألف وخمس مئة سنة".

سأل علي؛ فظاً على نحو بريء كالمعتاد: "ما هو إذاً؟ أهو مسجد أم كنيسة؟".

"بني أصلاً ليكون كنيسة؛ كنيسة القديسين سرجيوس وباخوس. وقد شُيّد بناءً على أوامر من جستنيان؛ الإمبراطور الذي بنى هذه المدينة. ووفقاً للأسطورة، دبّر جستنيان الشاب مكيدة لقتل الإمبراطور جوستن الأول. على كل حال، ظهر القدّيسان سرجيوس وباخوس له في الحلم، وأقنعاه ببراءة الإمبراطور، فتخلّى جستنيان عن محاولة الاغتيال. وعندما أصبح إمبراطوراً أمر ببناء الكنيسة تخليداً لذكرى القدّيسين. ولقد حوّل العثمانيون الكنيسة إلى جامع لاحقاً وتغير اسمها إلى آية صوفيا، نظراً إلى شبهها بمبنى آية".

كنت قد سمعت القصة من قبل من عمي منيب، لكنني قررت ألاّ أخبرها ذلك.

"إنها قصة جميلة. لا بد أن العيش أمام هذا المبنى الرائع أمر ممتع".

ظهرت ابتسامة زائفة على وجهها. "كان صوت المؤذّن السابق مريعاً، ويفسد سكوننا، لكنه لم يمكث طويلاً لحسن الحظّ، واستُبدل بشاكر أفندي الذي يمتلك صوتاً يستحقه مسجد عمره أكثر من ألف وخمس مئة سنة".

وعندما لم ترَ أي تعبير على وجهينا، شدّت قامتها، واعتمدت أسلوباً أكثر رصانة.

"إذاً، كيف يمكنني مساعدتكما؟".

قلت بتهذيب قدر المستطاع: "اجلسي من فضلك؛ لأن هذا سيكون أفضل".

"لماذا؟ ماذا حدث؟".

"الأمر يتعلق بنجدت دينيزل، طليقك".

ضاقت عيناها وتسمّرت في مكانها. "لماذا؟ ماذا حدث لنجدت؟".

أجاب علي عن سؤالها بسؤال آخر. "هل كنت على اتصال به؟".

"طبعاً، فهو صديقي. لماذا؟ ماذا حدث لنجدت؟".

لم يُجب علي عن سؤالها، ولم يسمح لي بالرد أيضاً؛ فقد طرح عليها سؤالاً آخر: "متى رأيته آخر مرة؟".

تورّد وجهها، وبدأ ذقنها يرتعش. "لماذا تطرح هذه الأسئلة؟ ماذا حدث لنجدت؟".

يُعتبر إبلاغ الناس بوفاة حبيب لهم أحد أصعب الأمور في عملنا. لكن، إذا تولّى علي الأمر فإنّه يصبح أكثر صعوبة، لذا اضطررت إلى التدخل

سريعاً.

استطعت القول: "لقد وجد ميتاً".

سمعت ما قلته، لكن لم يبدُ أنها فهمته أو استوعبته. "ماذا؟".

"نعم، لسوء الحظ، إنّ السيد دينيزل قد وُجد ميتاً هذا الصباح".

تلاشى الغضب من وجهها، وارتخت كتفاها، وارتمت إلى الخلف على كرسيها.

قالت وهي تحدّق إلينا ببلاهة: "هل أنت واثق؟ هل أنت واثق أنّه ليس هناك خطأ من نوعٍ ما؟".

وفيما كنت أراقب ردة فعلها وأفكّر في أن كربها يبدو حقيقياً- ربما لا يزال لنجدت مكان في حياتها- تدخّل علي من دون أن يتأثر بحزنها، وبعدم لباقته وفظاظته المعتادة، وتكلم عن التفاصيل.

"ليس هناك خطأ ياآنسة. وُجد طليقك ميتاً في الساعات الأولى من صباح اليوم في سارايبورنو".

تحوّل حزنها إلى ذهول. "في سارايبورنو؟!".

قال علي وهو يراقبها بحرص كما أفعل؛ محاولاً أن يُقيّم ردود أفعالها: "هذا صحيح. بعيداً عدّة مئات الأمتار عن مكان عملك، عن متحف توبكابـي".

بقيت ساكنة لبعض الوقت، لا تدري ماذا تقول. فكّرتُ في قرارة نفسي أنها ستبكي في أي لحظة الآن ، لكنها حافظت على هدوئها.

"كيف حدث هذا؟ كيف مات؟".

قال علي بلطف: "لقد قُتل؛ حُزّت عنقه".

كل ما فعلته هو أنها كشّرت، ولا شيء آخر. عبست، ثم دفعت الشعر الذي كان قد انسدل على وجهها إلى الخلف.

"من فعل هذا؟". كان صوتها هادئاً مثل صوت علي. "من فعل هذا؟".

"لا نعرف، وكنا نأمل أن تكون لديك معلومات قد تساعدنا".

"أنا!!". مالت على كرسيها إلى الخلف؛ وكأنها تتراجع إلى ملاذ آمن. "ماذا سأعرف؟".

"اسمعي ياآنسة باركين، هذه ليست قضية جنائية بسيطة بين أيدينا، فكما يبدو نحن نتعامل مع محترفين قساة جداً. إذا شاطرتنا أي معلومات لديك عن السيد دينيزل، فربما سيساعدنا هذا في القبض عليهم بسهولة أكبر".

تنهّدت بعمق؛ وكأنني طلبت منها المستحيل. "أود أن أساعدك؛ لكننا انفصلنا قبل خمس سنوات".

"لكنكِ قلت إنكما لا تزالان صديقين!".

"كنا..."، وصمتت وكأنها تذكّرت شيئاً مفيداً، ثم أشاحت عينيها بسرعة، وبدا واضحاً أنها لا تريد أن تشاطرنا أفكارها. "كنا نتقابل، ولكنْ ليست لديّ أي فكرة عن نوع العمل الذي كان يؤديه، أو الأشخاص الذين كان يعمل معهم".

قال علي مكرراً سؤاله الأول: "متى رأيته آخر مرة؟ يبدو أنه كان لا يزال يكنّ مشاعر تجاهك، فقد وجدنا صوراً لكما في درج مكتبه".

اختلج وجهها. "ربما كان كذلك. ذلك خياره، لا أدري. لكن، لا شيء غير معتاد في احتفاظه بتلك الصور، وأنا أيضاً أحتفظ بصوره".

"لكنك أنهيت علاقتك العاطفية معه، أليس كذلك؟".

أومأت برأسها. "فعلت ذلك بكل تأكيد، وانتهى الأمر. كان نجدت بالنسبة إليّ مجرد صديق".

قال علي وهو يمسح ذقنه: "كل هذا جيد، ولكنك لم تجيبي عن سؤالي".

رمقته بنظرة قاسية وقالت: "وأي سؤال ذاك؟".

"متى رأيته آخر مرة؟ لقد طرحت هذا السؤال عليك عدّة مرات حتى الآن، لكن يبدو أنك لا تودّين الإجابة عنه".

بدا الأمر وكأن مساعدي الشاب يتهمها آنذاك. مرة أخرى، ظننت أنها ستفقد رباطة جأشها، ولكنها بقيت هادئة.

"أعتذر حقاً، فأنا مضطربة قليلاً. المرة الأخيرة التي التقيت نجدت فيها كانت مساء الأحد".

"أين؟".

"في المطعم في سبتسيلر".

"سبتسيلر؟!". تكلمت أنا وعلي في الوقت نفسه ونحن مندهشان؛ وهذا رد فعل لم تفشل في ملاحظته. سألتُ: "أتعنين القصر في سارايبورنو؟".

"نعم، ذلك هو. القصر الذي بناه داوود آغا بأمر من السلطان مراد الثالث، ورُمّم في عهد محمد الأول". تكلمت مثل مدرّسة تشعر بالملل والسخط من تعليم تلاميذ غير مهتمين. "بكلمات أخرى، إنّه المبنى القديم الموجود على اليمين حين تمشي على الطريق من سارايبورنو إلى سيركسي".

قلت وأنا أنظر إلى عينيها مباشرة؛ متجاهلاً حقيقة أنها تعاملنا مثل

أحمقين: "بكلمات أخرى، تناولت العشاء مع نجدت على بعد نحو مئة متر عن المكان الذي اكتُشفت جثته فيه، أليس كذلك؟".

ظهرت نظرة رعب على وجهها، وقالت متسائلة: "الجثة... وُجدت... هناك؟". بدا قلقها واضحاً، لكنها دافعت عن نفسها بسرعة. "اختار نجدت قصر سبتسيلر مكاناً للقائنا. إذا سألتني عن رأيي، فأنا على الأرجح ما كنت لأختاره. كان مجرد قبولي دعوة العشاء تلك غلطة، فقد تجادلنا".

قال علي ظناً منه أنه وضع يده على دليل: "تجادلتما؟! بشأن ماذا؟". غير أن رد فعلها كان حازماً وجريئاً.

"اسمع، أنا لم أقتل نجدت. صحيحٌ أنني غضبت منه، لكنّ هذا لا يعني أن أقتله. لست من الأشخاص الذين يظنون أن المشكلات يمكن أن تُحلَّ بقتل الناس".

كنا قد رأينا الكثير من القتلة الذين يبدون مسالمين بمرور السنين. وعلى الرغم من تصريحها ذاك، إلا أنني و"علي" لم نقتنع تماماً، لكنْ لم تكن هناك فائدة في إثارة توتر أكبر غير ضروري وفي إزعاج المرأة، لذا رمقت "علي" بنظرة تحذير، وأشرت إليه أن يبقى دمثاً. "لا أحد يتهمك باقتراف الجريمة، وإنما نحاول فقط أن نعرف المزيد عن نجدت حتى نكوّن على الأقل فكرة ما عن القاتل".

بدا أن غضبها قد انحسر، وقالت وهي تحاول أن تهدّئ نفسها: "أنتما تقومان بعملكما فقط، لكن يجب أن تفهما أنني قد أُبلغت للتو بمقتل الرجل الذي عشت معه وكنت زوجته سنوات عديدة".

كان علي يعرف أنه ليس بمقدوره لعب دور الشرطي المتفهّم حتى إن حاول ذلك، لذا اختار البقاء صامتاً.

"يمكن أن نعود في وقت آخر إن كان هذا ملائماً أكثر. فكّري في الأمر وأعلمينا بقرارك".

نجحت خدعتي، وردّت فوراً بلطف: "لا، لا بأس بهذا. لا أريد أن تتجشّما عناء اجتياز كل الطريق إلى هنا مجدداً. أنا بخير، لنتابع من فضلكما. ماذا كنا نقول؟".

"كنتِ تخبريننا عن لقائك الأخير بالسيد دينيزل".

بدا على وجهها ألم مرير؛ كما لو أنها تتذكر تجربة شاقة. "هذا صحيح، أتذكر تلك الليلة، ليلة الحادي والثلاثين من أيار؛ ذكرى زواجنا".

منعطف آخر في الحكاية؛ الاحتفال بذكرى زواجهما المنهار. عندما رأت النظرة التي بدت على وجهي، شَعَرت بحاجة إلى تفسير الأمر.

"أنت تظن أنه أمر سخيف أن يجتمع زوجان مطلّقان للاحتفال بذكرى زواجهما، وأنا أظن هذا أيضاً. في الواقع، لم نكن نحتفل حقاً، فقد أبلغني نوزت أن لديه شيئاً بالغ الأهمية يريد إطلاعي عليه، ولو لم يصرّ كثيراً لما كنت قد قبلت الدعوة. لم أسأله حتى أين سنلتقي فقد اصطحبني من المتحف".

"أتعملين أيام الأحد أيضاً؟".

ابتسمت بحزن وأجابت: "أنا في المنـزل اليوم فقط؛ لأنني أنتظر زواراً من الجامعة في وقت لاحق، وإلا كنت سأذهب إلى المتحف. العمل مستمر؛ كل يوم من أيام الأسبوع، وفي العطلات والإجازات. العمل لا يتوقف أبداً، وعلى الرغم من الساعات التي نجدولها، إلا أننا لا نحظى بوقتٍ كافٍ أبداً. العطلات حلم بعيد المنال بالنسبة إلينا نحن الذين كرّسنا حياتنا للمتحف. على كل حال، رافقني نجدت من باب الهمايون - البوابة السلطانية - في القصر. جاء لاصطحابـي في سيارة رياضية حمراء، لطالما أحب القيادة بسرعة، وأبلغته أنني لن أركب فيها إن كان سيسعى إلى لفت الأنظار، لكنه أخبرني أنه لن يجتاز مسافة طويلة وسيقود بحرص؛ لذا صعدت بجانبه. عندما انطلقنا نحو قصر سبتسيلر أدركت إلى أين نتجه، فقد اختار الموقع متعمداً، وبدا أنه المكان المناسب لعرضه".

قلت بفتور: "عرض زواج جديد، أليس كذلك؟".

تورّدت خجلاً وأجابت: "شيء من هذا القبيل. أراد أن نبدأ مجدداً، واختار أن يقدّم عرضه في كنف صرحٍ تاريخي؛ تماماً كما فعل أول مرة. قبلت عرضه الأول، لذا افترض أنني سأَقبل الثاني".

"لكنك لم تفعلي".

"بالطبع لا".

"لِمَ لا؟".

وجَدَت سؤالي تطفلياً وغير ملائم.

لذا أضفتُ بسرعة: "آمل ألاّ تمانعي في أن أطرح عليك هذا السؤال. إن لم يكن الأمر مزعجاً جداً...".

قالت وهي تشبك ذراعيها أمام صدرها: "لم يعد أي شيء يزعجني. لم أقبل عرض نجدت؛ لأنه لم يعد الرجل الذي كنت أعرفه؛ الرجل الذي تزوجته سابقاً".

"كيف كان ذلك الرجل؟ أقصد الشخص الذي تزوجته سابقاً؟".

"كان مثالياً، ويُؤثِر الآخرين على نفسه؛ شخصاً سيضحّي بحياته من

أجل العلم والمعرفة".

"إذاً، أتقولين إن نجدت قد تغير قليلاً؟".

"وكيف لا؟ لقد تحوّل ذاك الرجل الذي وقف مرة مكسواً بالغبار تحت أشعة الشمس الحارقة من دون أن يتوقع غنى أو ثروة، وهو يبحث بمثابرة عن دلائل لمعرفة أسرار الماضي إلى تاجر؛ إلى رجل أعمال مثير للشفقة يحاول أن يحوّل كل ما يمسّه إلى ذهب، وكل ما يحبه إلى مال. كان التاريخ سابقاً كل شيء بالنسبة إليه؛ كان معنى حياته وسببها، لكنه أضحى وسيلة لتحقيق الثراء. ليس بمقدوري أبداً العيش مع مثل هذا الرجل، ولو وافقت على أن نعيش معاً مجدداً، لكانت حياتي قد أصبحت جحيماً حياً".

بدت جادّة، ولم تعد هناك تلك المسافة من التحفّظ الرسمي الذي قابلتنا به حين وصلنا. فقد بدت كما لو أنها تعبّر عن مكنونات قلبها أمام صديقيها؛ بدلاً من أن ترغم نفسها على إفشاء معلومات شخصية لشرطيين بالكاد تعرفهما.

قلت بلطف، محاولاً جهدي ألا أزعجها أو أؤذي مشاعرها: "أتخيّل أن رفضك لم يلقَ قبولاً حسناً لدى نجدت".

"كان متفهماً، أو على الأقل بدا كذلك. نجدت رجل متزن وراشد، ويعرف كيف يسيطر على مشاعره. فضلاً عن ذلك، كان صبوراً جداً، وبغض النظر عن صدّي إياه، أو ثقتي بنفسي، كان سيواظب على المحاولة حتى ينال ما يريده".

كانت قد بدأت آنذاك تستخدم صيغة الماضي حين تتكلم عن نجدت، ولم يكن من المعتاد بالنسبة إلى شخص قد أُبلغ للتو بموت محبوبه أن يتقبّل وفاته بتلك السرعة والسهولة.

سأل علي منتهزاً الفرصة: "هل كنت أنتِ من بدأ الجدال حين رأيتِ أنه احتفظ بهدوئه بعد ذلك؟".

ابتسمت ابتسامة متحفّظة، وردّت بلطف: "لكل شخص حدٌّ أيها المفتش علي". التزمت الصمت لبعض الوقت ثم تابعت: "نعم، أنا بدأت الجدال، لكنه هو من زاد حدّته".

كانت على الأرجح ستخبرنا عن سبب الجدال من دون أن نسأل، لكنّ "علي" شعر بالحاجة إلى إجراء تحقيق.

"إذا لم يكن الأمر شخصياً جداً، فهل تمانعين إبلاغنا بما حدث؟".

قالت: "إنه شخصي"، ثم ابتسمت. "لكن لا يهم. في الواقع، الأمر

بسيط جداً. عندما اقترح نجدت أن نعود إلى بعضنا، أخبرته ببساطة شديدة أنني لم أعد أشعر أنه بمقدوري الوثوق به. قلت له: انسَ الأمر، لا أريد أن أمضي يوماً واحداً معك . ولم أكن أمزح، وقلت ذلك بأقسى طريقة ممكنة. كان أي شخص آخر سيشعر بأنه تعرض للإهانة وسينهض ويغادر المكان، لكن ليس نجدت. فقد أخبرني أنني محقة وأنه قد أساء معاملتي، ولكنّه تعلّم درسه ولن يرتكب الأخطاء نفسها مجدداً، وقال إن زواجنا هذه المرة سيكون جيداً، وإنّه لن يخيّب أملي أبداً. لكنني أعرف نجدت، لم يكن قد تغيّر وما كان ليتغير. أخبرته أن ذلك لن يجدي نفعاً، وأن لديّ حياة جديدة؛ حياة لا أريد أن يحطّمها، لكنه لم يفهم. حاول أن يلعب دور الرجل اللطيف، لكنه كلما حاول، أصبح أكثر إثارة للاشمئزاز. وفيما كان جالساً هناك بدأت أنـزعج حقاً، ولكنه لم يلحظ ذلك. حاولت التزام الهدوء والحفاظ على آداب اللياقة، وبقيت على تلك الحال إلى أن بدأ يتحدث عن الماضي وأوقاتنا السعيدة معاً. بدت الطريقة التي تكلّم بها غريبة جداً، وتنطوي على نفاق كبير، فناشدته أن يتوقف، وأبلغته أنني لا أريد التحدّث عن تلك الأوقات، لكنه لم يصغِ إليّ وتابع حديثه، وتكلم عن لحظاتنا الحميمة والشخصية كما لو أنها طُعم، فتوسلت إليه، وطلبت منه ألاّ يسيء إلى ذكرى ماضينا لكنه لم يستجب لتوسلاتي، وبدأ يتكلم عن لقائنا الأوّل وكأن شيئاً لم يحدث، وكأننا لم ننفصل قطّ، أو لم يكن هو المسؤول عن طلاقنا. عندها، شعرت بغضب شديد، وصرخت: ألا تخجل من هذا الكلام؟ ألست الرجل الذي تركني؟ كيف يمكن أن تتكلم هكذا، وأن تقول هذه الأشياء؟ كان الزبائن الآخرون يحدّقون إلينا، لكنني فقدت رباطة جأشي تماماً ولم أعد أكترث لذلك، فصحت بصوت أعلى: وتطلب مني الآن أن أعود إليك! فيما أنا أشتم اليوم الذي التقيتك فيه! لكن على الأقل، كان لا يزال هناك بعض الرجولة فيه، وشيءٌ من الكبرياء، فجأر ليسكتني، وصرخ قائلاً: أنتِ لست امرأة، وإنما مجرد آلة. لقد فقدت حريتك وروحك، وأصبحت ركاماً يُرثى له . المضحك أنه كلما صرخ أكثر، شعرت براحة أكبر، وبدا لي أن كل شتائمه وإهاناته هي ما أريده. انتظرت حتى قال كل ما يريد قوله، ثم هدّأت أعصابـي ونهضت. لكن، قبل أن أغادر أظهرت له أنني لست من النوع السهل بأن سكبت شرابـي فوق رأسه، ثم خرجت من المطعم فوراً".

وعلى الرغم من أنها حاولت أن تصف ما حصل بطريقة موضوعية ومرحة تقريباً، إلاّ أنه بدا واضحاً أن الألم لا يزال يعتمل في صدرها،

وارتعش صوتها غضباً. كانت تتشبث بشعورها بالكرامة، وإدراكها ذاتها.

"لماذا أراد السيد دينيزل أن تعودا إلى بعضكما؟". كسر سؤال علي فترة الصمت التي تلت كلامها، فأغمضت عينيها ثم فتحتهما بسخط.

"قال إنه لا يزال يحبني".

"حقاً؟!".

تلألأت عيناها وقد فاضتا دموعاً.

قالت وهي تتنهد: "لا أعرف، ولا أريد أن أعرف". ثم غطّت وجهها بيديها وأجهشت بالبكاء. لكن لم يدم ذلك وقتاً طويلاً، إذ سرعان ما استعادت رباطة جأشها وقالت: "آسفة، لم أستطع السيطرة على مشاعري. لا أكترث إن كان يحبني أم لا، فتلك مشكلته".

أطبق صمت ثقيل على الغرفة، وفيما كنت أفكّر في طريقة مناسبة لطرح السؤال التالي، اندفع الثور الذي كنت أعمل معه وأحاول تقييده إلى الأمام؛ نحو محل الخزف الصيني.

"لماذا انفصلتما في المقام الأول؟".

"ماذا؟ ماذا قلت؟".

"ما سبب الانفصال؟ هل كان بسبب التغيير الذي رأيته في نجدت؟".

ظهرت نظرة أسى عابرة على وجهها حين تذكّرت تلك اللحظات المؤلمة.

"نوعاً ما". نظرت إلى علي والتحدي بادٍ في عينيها. "كان يقيم علاقة مع مساعدتي؛ امرأة أصغر مني بخمس عشرة سنة". بانت ابتسامة متكلّفة على وجهها وهي تتابع: "هذا صحيح، عاشر مساعدتي؛ وكأنه لا توجد امرأة أخرى في العالم".

كانت القطع المفقودة من الأحجية قد بدأت تنتظم في أماكنها، ولم نعد نتعرّف الفقيد فقط، وإنما المرأة الجالسة أمامنا أيضاً، لكننا بحاجة إلى المزيد.

"أود أن أسألك عن العرض الأول". هذه المرة كنت أنا من حطّم جدار الصمت. "أين عرض عليك السيد دينيزل الزواج للمرة الأولى؟ ذكرت صرحاً".

تريّثت لحظة، ضائعة في ذكرياتها ثم أجابت: "عرض عليّ الزواج في المرة الأولى في سارايبورنو".

"هل تمّ ذلك في قصر سبتسيلر؟".

"لا، بل في معبد بوسيدون".

رأت تعابير وجهينا التي تدل على عدم الفهم فابتسمت.

"طبعاً، المعبد ليس موجوداً اليوم. تبادلنا الخاتمين في المكان الذي ظننا أن المعبد كان قائماً فيه قبل ألفين وسبع مئة سنة. فعندما أنشأ المستوطنون من ميغارا مدينتهم بيزنطية، بنوا سلسلة من المعابد على الشاطئ، وخصّصوا أحدها لبوسيدون؛ إله البحر".

أرهف علي السمع حين سمع كلمة بيزنطية. "هل كان للسيد دينيزل أي اهتمام ببيزنطية هذه؟".

"كان أحد خبراء البلاد البارزين في هذا المجال، وكتب أطروحته عن بيزنطية".

"ألهذا السبب سمّى ببغاءه بيزاس؟".

أشرق وجهها. "إذاً، هل التقيتما بيزاس؟ يظن المخلوق المسكين أنه إنسان، لكنه فاتن جداً".

علّق علي بعد أن وجد أخيراً شيئاً مشتركاً بينه وبين المرأة الجالسة أمامه: "إنه كذلك بالتأكيد، إنه طائر رائع".

سألتُ مقاطعاً الثرثرة عن الطيور في بدايتها قبل أن يخرج الأمر عن السيطرة: "إذاً، ماذا عن القطع النقدية؟ هل كانت النقود القديمة محط اهتمام السيد دينيزل أيضاً؟".

ظهر تعبير ذهول على وجهها؛ وكأنها تتساءل عن كيفية معرفتي ذلك. شعرتُ أننا قد عثرنا على شيء مهم، لذا كرّرت السؤال.

سألت: "هل درس النقود البيزنطية؟".

"في الواقع، لم تكن النقود مجال خبرته، ولكنه بدأ مؤخراً يظهر اهتماماً بها، وقد كدّس مجموعة منها".

هل كانت قطعة نقدية من مجموعته الخاصة تلك التي وُضعت بين يديه؟ إذا كان هذا صحيحاً، فلا بد أننا على وشك اكتشاف شيء ما.

سألت: "أين يحتفظ بمجموعته؟ من الواضح أنه لم يكن يعرض القطع النقدية على الملأ ليراها العالم كله".

"لا أعرف المكان الذي يحتفظ بها فيه، ولكنها في المنـزل على الأرجح".

لم نكن قد رأينا صندوقاً أو خزانة من أي نوع حين كنا هناك. لا بد أنه قد احتفظ بالصندوق في مكان آمن وسري، وهذا يعني أن علينا القيام بزيارة أخرى إلى منـزله. سَألتْ متشكّكة فيما كنت أمعن التفكير في الحقائق: "لماذا الاهتمام بالقطع النقدية؟ هل هي مهمة بأي حال؟".

حان الوقت لنضع أوراقنا على الطاولة ونقيّم ردة فعلها.

"وجدنا قطعة نقدية على الجثة".

بدت مندهشة؛ وضاقت عيناها وسألتني عن نوع القطعة النقدية.

"هناك هلال ونجمة على أحد الوجهين تحت كلمة بيزنطية، في حين توجد على الوجه الآخر صورة امرأة، شعرها معقود إلى الخلف".

أخبرتنا النظرة التي بدت في عينيها أنّ الموضوع ليس غريباً بالنسبة إليها.

تمتمت وكأنها تتحدث إلى نفسها تقريباً: "قطعة نقدية بيزنطية، قطعة سُكّت في أثناء العهد الروماني".

"هل تعرفين شيئاً عن هذه النقود؟".

نهضت وسارت ببطء إلى خزانة كتب موجودة قبالتنا، وأخرجت مجلداً ضخماً. لم تعد إلى كرسيها وإنما جلست بيني وبين علي، ثم وضعت الكتاب أمامنا على طاولة صغيرة تبدو غالية الثمن. برزت القطع النقدية أمامنا حين قلّبت الصفحات الباهتة بيديها الخبيرتين.

"هل كانت مثل هذه؟".

أشارت إلى قطعة نقدية على الطرف الأيمن الأعلى من الصفحة، تشبه تلك التي وُجدت بين يدي طليقها الفقيد، وبجانبها تماماً صورة الوجه المنقوشة على الجهة الخلفية للعملة.

"أجل".

"هل كانت أصلية؟".

قلت وأنا أهزُّ كتفيَّ: "لا ندري. يمكن لخبير فقط أن يخبرنا ذلك".

"هل تمانعان أن أفحصها؟".

"لا أبداً. إذا جئت إلى مقر قيادة الشرطة فسنكون سعيدين بجعلك تفحصينها".

أشرت إلى الصورة الظاهرة على الصفحة. "من هذه المرأة؟".

"إنّها هيكات؛ وبعضهم يساوونها بأرتيمس. يقال إن هيكات حمت بيزنطية. في الواقع، تقول الأسطورة إنه عندما أرسل فيليب المقدوني، والد الإسكندر الكبير، قواته في ليلة مظلمة لا تبزغ فيها نجمة ولا قمر لتطويق بيزنطية استعداداً لشن هجوم مباغت عليها، أشرقت السماء فجأة وسطع الضوء، وبدأت النجوم تلمع وتضيء المدينة ومحيطها كما لو أن الوقت نهار. وعندما رأت الكلاب القمر والنجوم؛ وهي العلامات المرتبطة بهيكات، بدأت تعوي فاستيقظت المدينة كلها. وعند رؤية جيوش فيليب وهي تقترب، اتخذت المدينة الإجراءات الضرورية، وهكذا أُنقذت المدينة بمساعدة

هيكات".

قال علي وهو لا يزال يكافح لحلّ المشكلة التي بقيت تزعجه منذ اكتشاف القطعة النقدية: "إذاً، هذا هو سبب وجود الهلال والنجمة. هل كان من أسّس مدينة بيزنطية تركياً؟ بالمحصلة، لقد نُقش هلال ونجمة على القطعة النقدية".

"تركي!". ضحكت الآنسة باركين ساخرة وقالت: "بارك الله فيك ياسيد غورمن. نحن نتكلم عن فترة ترجع إلى ألفين وسبع مئة سنة خلت. آنذاك، كان أسلافنا لا يزالون يمتطون الخيول في سهول آسيا الوسطى".

لم يحصل علي على النتائج التي كان يرجوها، وبدأ قلقه يزداد. "إذاً، من كان أولئك القوم؟".

"كانوا إغريقاً".

كان ذلك أكثر مما تخيّله، فبدا الإحباط على وجهه. "إغريق!؟".

"نعم، هذا صحيح". لا بد أنها شعرت بخيبة أمله لأنها قالت بنبرة أكثر رقة ولطفاً: "لكن، لا داعي إلى القلق. إن ظهور هلال ونجمة في سماء الليل قريبين من بعضهما إلى هذا الحد ليس شائعاً جداً، ولهذا تبنّت حضارات كثيرة قبل آلاف السنين من وجود الأتراك- مثل السومريين- الفكرة على أنها رمز. وظنَّ البيزنطيون أن هيكات تأتي لنجدتهم في الأوقات العسيرة؛ كما كان بوسيدون يفعل، لذا اعتبروا ارتباط الهلال والنجمة مبجلاً".

لم يبدُ علي مقتنعاً. "إنها أول مرة أسمع فيها عن أولئك الإغريق وعمّا فعلوه".

بقيت ليلى هادئة رغم جهله الكامل.

"أخشى أن هذه هي الحقيقة ياسيد غورمن. كان المهاجرون من بلدة ميغارا الإغريقية هم الذين أسسوا مدينة بيزنطية، عام ست مئة وستين قبل الميلاد تقريباً. كلمة بيزنطية تعني مدينة بيزاس ".

سأل: "هل تعنين الملك بيزاس نفسه الذي سُمّي الببغاء تيمناً به؟ من كان ذاك الرجل إذاً؟".

"كان قائد المهاجرين الإغريق، وشخصية أسطورية. يقال إنه مؤسس هذه المدينة".

قلّبت صفحات الكتاب حتى وصلت إلى صفحة تظهر عليها قطعة نقدية أخرى عليها كلمة بيزاس فوق صورة محارب ملتحٍ، يعتمر خوذة.

"هذا هو. الصورة مجرد تخمين لمظهره الحقيقي؛ لأن الرومان سكّوا هذه القطعة النقدية بعد نحو ست مئة عام من تأسيس المدينة. اضطرت

المدينة أن تبدأ بسكّ عملتها الخاصة في أثناء عهد بيزاس، وكانت آنذاك مجرد مدينة صغيرة".

أشارت إلى رسم توضيحي على الجدار يبرز حدود قصر توبكابي. "لم تكن حدود المدينة تتعدّى عقارات القصر الحالي. ازدهرت بيزنطية في عهد الرومان وأصبحت مركزاً حضرياً رئيساً".

تسمّرتُ وعلي في مكانينا؛ مذهولين من كل تلك المعلومات الجديدة. كنت أعرف أن هذه المدينة؛ مدينة أجدادي، قد سُمّيت بيزنطية في بادئ الأمر، لكن كل هذه التفاصيل كانت جديدة بالنسبة إليّ. وفيما كنا نحاول استيعاب كل ذلك، أعادنا سؤال الآنسة باركين إلى الحاضر.

"أين وُجدت القطعة النقدية؟".

كانت نبرتها هادئة، لكنها تخلّت عن قناع الموظف الحكومي، وصارت تنظر إلينا بمزيج من الأسى والقلق.

"بين راحتي يديه".

لم يكن هناك استنكار من قِبَلها، وإنما مجرد إيماءة بالرأس؛ وكأننا نناقش موضوعاً مألوفاً.

سألتُ متمنياً أن تشاركنا بعض خبرتها: "هل تظنين أن القاتل استخدم القطعة النقدية ليحاول أن يرسل إلينا رسالة ما؟ هل هناك أي معنى في ترك تلك القطعة النقدية بين كفّيه؟".

قالت وهي تدفع شعرها وتعيده إلى الخلف: "من الصعب معرفة ذلك. إذا نظرنا إلى الفعل من وجهة نظر الأساطير، فبإمكاننا القول إن القتلة كانوا يحاولون إسداء نجدت خدمة. ففي الأسطورة الإغريقية، كان المال يُترك على عيون الموتى أو على جثثهم كي يستطيعوا أن يدفعوا إلى شارون؛ قائد عربة هيديس، لينقلهم عبر نهر أشرون. وكان أولئك الذين لا يمتلكون نقوداً يُتركون ليهيموا على وجوههم في مستنقعات العالم السفلي".

كانت النظرة المتجهمة على وجه علي كافية لتخبرنا أنه لم يقتنع. "لا أظن أن لهذا علاقة بالأسطورة الإغريقية، وإنما بالمافيا، فهم يقتلون من أجل المال. الأمر بسيط جداً؛ قتلوه وتركوا قطعة نقدية هناك لتكون بمثابة رسالة".

ربما كان محقاً. لكن، بدا من المبكر جداً تكوين فرضية متماسكة.

قلت بلطف ورقّة تقريباً: "أعرف أننا قد أهدرنا وقتك الثمين يا آنسة باركين. لكن، لدينا سؤالان إضافيان فقط. نريد أن نعرف أين كنتِ؟ وماذا كنت تفعلين في الليلة الماضية؟ من أجل سجلاتنا".

قالت غاضبة: "لا أصدّق هذا! هل أنا موضع شك فعلاً!؟".

قلت وأنا أهزُّ رأسي: "لا، على الإطلاق، إنه مجرد إجراء روتيني. ليس لدينا سبب لنشك فيك".

قالت محاولةً أن تبدو عادية؛ لكنها كانت لا تزال منـزعجة من التلميحات: "كنت في المنـزل مع حبيبـي نامق؛ إن كنت تريد أن تعرف". وأشارت إلى صورة في إطار على طاولة جانبية. "نامق قرمان".

كانت تظهر في الصورة مبتسمة في منـزل نجدت دينيزل، ولكن مع شخص آخر هذه المرة؛ رجل أجعد الشعر، وشاربه متدلٍّ على طرفي فمه، وعيناه داكنتان متقدتان.

وفيما كان علي يدوّن الاسم على دفتر ملحوظاته، سألها من دون تكلّف عمّا يفعله ليكسب قُوته.

ردّت واثقة: "إنّه جرّاح في مركز كابا الطبـي".

"إذاً، سنجده في المستشفى".

قالت متضايقة: "لا، ستجده في النادي، في زيرك. لكنه ربما يعقد اجتماعاً الآن. فقد حصل على إجازة ليشارك في مسيرة احتجاج، وهم يجتمعون لمواجهة تدمير إرث إسطنبول المعماري والتاريخي".

الملك، ابن بوسيدون

لم يكن إمضاء النهار في منـزل ليلى باركين- بانتظار انتهاء اجتماع نامق قرمان- خياراً جيداً. لذا، ودّعناها وغادرنا شارع آية صوفيا، وانطلقنا عبر دروب الحي القديم الضيقة؛ موطن الكثير من القصور والكنائس والتماثيل العتيقة الرائعة، واتجهنا نحو شارع السلطان أحمد.

كانت مجموعات السيّاح المحتشدة في المضمار القديم؛ ساحة السلطان أحمد الآن، تحدّق إلى كنوز تلك الساحة متعجبة: المسلّة المسوّرة التي نُهبت سبائكها البرونـزية في أثناء الغزو والاحتلال اللاتيني، وعمود الثعبان مبتور الرؤوس الآن، ومسلّة ثيودوسيوس التي نقلها أحد السلاطين من مصر إلى العاصمة العثمانية.

كنت قد سمعت أسطورة عمود الثعبان للمرة الأولى من والدتي التي جعلتني قصصها أحب التاريخ والخرافة والأساطير. كان العمود سابقاً- كما يقال- جزءاً من معبد أبولو في دلهي، ويحمي المدينة من الأفاعي والعقارب والحشرات وكل أنواع الطفيليات الأخرى، وتقول الأسطورة إنه عندما يبتر شخص معتوه أو أحمق رأس ثعبان من دون لياقة أو تقدير، تُصاب المدينة بالبلاء. وفي ما يخص رؤوس الثعبان الآن، يُعرض أحدها في متحف الآثار الذي زرته مع والدتي حين كنت طفلاً، والثاني في متحف في لندن، في حين أن الثالث ضاع بمرور الوقت.

تابعنا طريقنا وتجاوزنا المسلتين، ثم العمود الذي تعلوه مساحة مسطحة لا معنى لها؛ حيث كانت رؤوس الثعبان تتطاول بفخر سابقاً، وسلكنا طريقاً متعرجاً بين حافلات السيّاح وصولاً إلى متنـزه جولهان. في المتنـزه، سرنا في درب بديع وفاتن تحفّه أشجار دُلب ضخمة تُؤاوي عدداً كبيراً من أعشاش اللقلق، ووصلنا إلى قصر سبتسيلر. على كل حال، لم يكن النُدل الذين عملوا ليلة الأحد وشهدوا على ما دار بين ليلى باركين وطليقها موجودين. لذا، بدلاً من الجلوس وإضاعة الوقت عدنا إلى مقرّ قيادة الشرطة. كانت شمس بعد الظهر تغمر الساحة وتدعونا إلى الجلوس في ظل شجرة الخوخ القديمة، لكننا تجاوزناها مباشرة وتابعنا طريقنا إلى المختبر المظلم الذي لا يرى الشمس. رأينا زينب جالسة أمام شاشة الحاسوب؛ محدّقة إليها حيناً، ومسجّلة بضع ملحوظات على دفتر صغير أمامها على الطاولة حيناً آحر. حتى إنها لم تلحظ دخولنا.

قلتُ بمرح: "نحن نستغرق في عملنا فعلاً، أليس كذلك يا زينب؟

تبدين جادّة جداً. لا تخبريني أنك قد حللت القضية؟".

انتبهت من غشيتها واستدارت إلى الخلف، ثم ابتسمت حين رأتني. همّت بالوقوف، لكنني أشرت إليها بأن تبقى جالسة وتتابع عملها.

قالت: "أتمنى لو كان هذا صحيحاً أيها المدير. لكن، لا أظن أن القضية ستكون بهذه البساطة".

كان علي، مثلي، يتساءل عمّا تتفحّصه على الشاشة.

قال وهو يتوجّه نحو الشاشة: "إذاً، ما كل هذه الملحوظات؟ هل وجدت آثاراً من دم الضحية على عينات الجص التي حصلنا عليها من الحمّام؟".

قالت محبطة: "لا شيء من هذا القبيل كما أخشى. جاءت نتائج الاختبار سلبية، لم أعثر على دم على الإطلاق".

قال علي منتهزاً الفرصة ليستمتع قليلاً آنذاك بعد أن ثبت صواب رأيه: "إذاً، لم يُقتل في الحمّام. ما الذي سبّب اختلاف ألوان الآجر في الحمّام إذاً؟ أهي القشرة؟ أو ربما كان يحب أن يصبغ شعره؟ ما رأيك؟".

أجابت بنكد: "لا أعرف ياعلي، لكنني أعرف أنه لم يكن دماً".

سألتُ: "هل أخذت عينات من ذلك الجص من أماكن مختلفة؟ إذا كنتِ قد أخذتِ عينات من مكان واحد فقط، فربما نغفل عن بعض التفاصيل المهمة".

"حرصتُ على جمع عينات من أماكن مختلفة في الحمّام ياسيدي. لا أظن أن الجريمة قد وقعت في...".

"وما هذا بالله عليك؟". دوّى صوت علي في المكان، ما جعلني وزينب نصمت تماماً، ورأيت أنه يحدّق إلى شاشة الحاسوب. "ماذا يفترض بهذا أن يكون؟".

رأيت ما يسأل عنه علي حين اقتربت؛ إذ ظهر على الشاشة رسم تخطيطي يشبه شكل رأس نسر ضخم. كانت عينا علي ثابتتين على الرسم وهو يحاول أن يفهم ما يمثّله. سألته زينب على نحو ساخر عن رأيه في ذلك؛ مستفيدة من صمته.

"كيف لي أن أعرف؟ يبدو مثل طائر. حسناً، يبدو كما لو أنه رأس طائر لأكون أكثر دقة. إنه قديم نوعاً ما".

"صحيح، إنه قديم، وعمره آلاف السنين أيضاً". ثم استدارت وسألتني: "ما رأيك ياكبير المفتشين؟ ماذا يفترض به أن يكون؟".

لم تكن لديّ أيّ فكرة، لكن عندما رأيت الخطوط الدقيقة المتوازية

في الوسط وحول الحواف، تذكّرت خرائط تبدو على الشكل نفسه أيضاً: مناطق عند مستوى سطح البحر محدّدة باللون الأبيض، وتلك الأبعد قليلاً محدّدة بنقاط، وتلك البعيدة جداً عن سطح البحر محدّدة بخطوط.

"هل هو خريطة من نوعٍ ما؟".

"بالضبط أيها المدير. إنها خريطة طبوغرافية. لكن، هل لديك ياعلي أي فكرة عن المكان الذي تصوّره؟".

"كيف لي أن أعرف؟". بدا علي محبطاً. "ربما تكون لأي مكان".

ظهرت شرارة استمتاع في عيني زينب وهي تقول: "هيا ياعلي، لن تستسلم الآن، أليس كذلك؟ أنت تعمل في قسم جرائم القتل. استخدم دماغك قليلاً...".

صحيح، استخدم دماغك ياعلي، حتى حين يكون مديرك غافلاً عمّا يجري.

قرّرت أن تزوّدنا بمعلومة فقالت: "ما القضية التي نعمل عليها حالياً؟".

كانت خلايا دماغ مساعدي التي لا تزال يافعة وموثوقة نسبياً، هي التي بدأت العمل أوّلاً واكتشفت العلاقة.

فصرخ وهو يضرب راحتي يديه ببعضهما: "طبعاً، إنها سارايبورنو، أليس كذلك؟".

قالت زينب: "ما توصّلت إليه ليس دقيقاً جداً، ولكنه صحيح نوعاً ما". كانت متحفّزة؛ وكأنها قد اكتشفت المدينة بنفسها وتعرّفُنا بها. "إنها بيزنطية ومحيطها، المدينة التي نُقش اسمها على القطعة النقدية التي عثرنا عليها بين كفّي الضحية".

نظرت إلى الرسم عن كثب. لم يكن هناك مجال للشك، فقد كان رأس شبه الجزيرة يبدو مثل طائر فعلاً؛ وكأنه نسر غريب يبرز رأسه من أرض أوروبا الواسعة، ويحدّق من فوق الفوسفور إلى سهول آسيا.

بدا واضحاً أن زينب لم تكن مشغولة فقط بتحليل العينات في أثناء وجودنا في منـزل ليلى باركين، وإنما في معرفة المزيد عن مدينة بيزنطية.

"أسّس بيزنطية أيها المدير شخص يدعى بيزاس...".

هزَّ علي- وذراعاه متشابكتان أمام صدره- رأسه ساخراً وقال: "لكننا نعرف كل هذا. كان قائد المهاجرين الذين جاءوا من اليونان". حدّقت زينب إليه مذهولة، فيما تابع قائلاً: "كلمة بيزنطية تعني مدينة بيزاس ".

كان علي يتألق بفضل انتصاره الثاني في ذلك اليوم. "كل ما فعلته

من دون جدوى ياعزيزتي زينب. تلقينا درس تاريخ من الآنسة باركين، وأخبرتنا كل شيء عن الملك بيزاس هذا، أليس كذلك أيها المدير؟".

طبعاً لم يكن مضطراً إلى إشراكي في ذلك كما لو أنني بطاقته الرّابحة، لكن زينب التي لا تستسلم بسهولة أبداً كانت مستعدة، فبادرته بهجوم مضاد.

"هل أبلغتكما أيضاً أنه يُعتبر ابن بوسيدون؟". لم يستطع علي الذي لا يمتلك خبرة في مثل هذه الأمور أن ينبس بكلمة. استدارت زينب إلي بعد أن تولّت أمر ذلك المغرور. "هناك عدد من الأساطير المتعلقة بتأسيس مدينة بيزنطية ياسيدي".

لم أكن أتابعها جيداً- كان لا يزال يتوجب عليّ أن أذهب إلى زيرك لأتكلم مع ذلك الرجل نامق، ثم إلى المنـزل في وقت مناسب لتناول العشاء مع يفغينا- لكنني أستمتع دائماً بسماع قصص عن إسطنبول، وإذا كانت لتلك الأساطير علاقة بالقضية التي نعمل عليها، فلا يمكن أن أتجاهلها.

قلت وأنا أجلس على أحد الكراسي الصغيرة بجانب الطاولة: "هاتِ ما عندك إذاً، لنسمع". أشرت إلى علي المحبط أن يجلس أيضاً. "هيا ياعلي، اجلس. ليس هناك شيء تخجل منه، ولا خطب في أن تتعلم شيئاً أو آخر أحياناً".

دمدم: "أفترض هذا". وجلس بجانبـي.

لم يكن هناك افتراض من أي نوعٍ على الإطلاق، ولم يكن قد قبل حقيقة أنه تعرض للهزيمة، وأنّه لا شيء لديه ليرد الصاع صاعين، فاختار البقاء صامتاً في ذلك الوقت. فهو سيهاجم زينب حين تسنح له الفرصة من دون شك، وستفعل هي الشيء نفسه. اتضح لي أخيراً أن الشجار والجدال المستمرين اللذين كنت أتدخّل فيهما غالباً، هما طريقتهما في المغازلة، وعرض مشاعرهما تجاه بعضهما. لذا، عندما يبدآن تلك الخلافات الانفعالية، ونوبات النـزاع المتقدة، أقرّر ألاّ أتدخل إلاّ إن كانت مفيدة للتحقيق وتساعدني على رؤية الأمور من زاوية مختلفة.

ألقت زينب نظرة سريعة على دفتر ملحوظاتها قبل أن تستأنف كلامها: "كان ما سمعتماه على الأرجح أول أسطورة. فقد جعلت الحروب شعب ميغارا في اليونان القديمة مرهقاً ومعدماً. وعندما ذهب الملك بيزاس إلى دلفي وطلب النصيحة، نقلت تعليمات أبولو إليه: جهّز سفنك، وامخر عباب البحر، واستقر في ″مدينة العميان″ . وفعلاً، التزموا بهذه التعليمات

واستقروا على الشواطئ قبالة "مدينة العميان"؛ بكلمات أخرى، هبطوا واستقروا في سارايبورنو اليوم".

تمتم علي مذهولاً مما سمعه: "ما مدينة العميان تلك؟". لذا، تدخّلت حتى يترك زينب وشأنها لبعض الوقت.

"كاديكوي ياعزيزي علي، كاديكوي [4] . أنا أعرف على الأقل هذا الجزء من القصة. العميان هم الشعب الذي عاش في ما يدعى كاديكوي اليوم؛ ويسمّون العميان؛ لأنهم قرروا الاستيطان هناك بدلاً من الطرف الآخر الأفضل من المضيق. أساساً، كان أهل ميغارا يسخرون منهم، ويقولون: لا بد أنكم عميان؛ لأنكم لا ترون مثل هذا المكان المدهش".

قالت زينب: "لم يكن جمالها هو السبب فحسب ياسيدي، وإنما سهولة الدفاع عنها أيضاً، فالبحر يحيط بها من ثلاثة جوانب. كانت تتمتع بقيمة استراتيجية أيضاً، فالسفن التي تعبر المضيق تدفع ضريبة للسكان الذين يقيمون في ذلك الجانب".

همهم علي، مستخدماً اللغة التي اعتاد عليها: "بكلمات أخرى، إنه ابتزاز؛ مثل دومرول [5] العجوز المجنون".

"وكميات كبيرة من السمك... مصدر الطعام الأساسي للمدينة... إسقمري، تونا، قنبر...".

تمتمت لنفسي تقريباً: "من يعرف أنواع الأسماك الأخرى التي كانت موجودة في تلك الأوقات؟ في أثناء طفولتي كانت أسماك القنبر موجودة حتى في القرن الذهبي، لكن أعدادها لم تعد كبيرة الآن، فقد انقرضت تقريباً".

"إذاً، كما تعرفان، كانوا يُدعون العميان لأنهم لم يروا الفوائد التي تقدّمها سارايبورنو، واختاروا الاستقرار على الطرف الآخر بدلاً من ذلك. أُطلق اسم كالكيدون على المنطقة التي استقروا فيها".

قال علي الذي كان جالساً باسترخاء إلى جانبي آنذاك: "لا بد أنهم كانوا عمياناً. لماذا سيعيش شخص في كاديكوي في حين يمكنه أن يذهب بسهولة ليعيش في سارايبورنو؟ ياالله! سأود أن أعيش هناك لأستمتع بالمنظر فقط".

أومأت زينب التي انتقل بصرها إلى شكل منقار النسر على الشاشة موافقة.

"أنا أيضاً. أعني، فكّرْ في الأمر ياعلي. آنذاك كان المكان غابة عذراء، ولا توجد مبانٍ قبيحة، أو حشود من الناس، وانسَ صفوف السيارات وأميالاً

من حركة المرور؛ فلم تكن هناك حتى دروب ملائمة. ربما كانت هناك بعض مراكب الصيد والقوارب الشراعية الصغيرة في البحر، لكن ذلك كل شيء. كانت المدينة أساساً ميناءً صغيراً وقلعة يحيط بها البحر والغابة".

حاولت للحظة أن أتخيّل المدينة التي تصفها زينب، لكنني لم أستطع، فالأبنية الإسمنتية الضخمة والمشوّهة لن تسمح لي ببساطة أن أتصوّر تلك المدينة القديمة والجميلة. التزمت زينب وعلي الصمت أيضاً، وتساءلت إن كانا يحاولان ترك إسطنبول اليوم القاسية وتخيّل المدينة القديمة الرائعة.

قال علي بغرور ما أخرجني من حلم يقظتي: "أهذا كل شيء إذاً؟ عمل رائع يازينب، لكننا نعرف كل هذه الأشياء على كل حال".

"لا تستعجل ياعلي، فنحن لم نبدأ بعد. ستصبح الأمور أفضل". استدارت نحوي، وتابعت كلامها. "ترجع هذه الأسطورة إلى زيوس ياسيدي المشهور بحبه للنساء".

سخر علي؛ وكأنه خبير بعلم الأساطير: "كل الأساطير الإغريقية تعود إلى زيوس". لكن زينب تجاهلته.

"يقال إن زيوس رأى مصادفة في أحد الأيام أيو، ابنة إناكوس، المعروفة بجمالها الذي يحبس الأنفاس، ووقع في حبها من اللحظة التي وقع فيها بصره عليها. طبعاً، لم ينقضِ وقت طويل قبل أن يصل النبأ إلى هيرا التي استشاطت غضباً من مغازلة زيوس لنساء أخريات، وقرّرت أن تعاقب أيو. حاول زيوس أن يُفسد خطط هيرا بتحويله نفسه إلى غيمة بيضاء ومحبوبته الجديدة إلى بقرة صغيرة، لكن الخدعة لم تنطلِ على هيرا وطلبت من زيوس أن يسلّمها أيو. كلّفت هيرا أرغوس بمراقبتها لكن زيوس- المثابر دائماً- أرسل هيرميس ليقتل أرغوس، ما أرغم أيو على أن تهيم على وجهها في الأرض. أرسلت هيرا، غير الراضية بالعذاب الذي تكابده أيو في أثناء ترحالها، ذبابة لتلسعها وتسبب لها الجنون. حاولت أيو يائسة الهروب من الحشرة البائسة، وركضت أميالاً حتى وصلت إلى المضيق؛ مضيقنا هنا في إسطنبول، حيث غطست في الماء وسبحت إلى الطرف الآخر. هذه هي الأسطورة التي منحت المضيق اسمه: بوس- فور كلمة إغريقية تعني مخاضة البقرة . على كل حال، في محاولتها إخفاء نفسها عن الذبابة، انتهى الأمر بأيو على شاطئ القرن الذهبـي، حيث ولدت ابنة؛ كيروسا، التي ربّتها الحورية سمسترا. فُتن بوسيدون لاحقاً بكيروسا وبدأ بإغوائها، ولم تستطع مقاومة إغوائه فأنجب الثنائي ابناً سمياه بيزاس، وأصبح لهذا السبب ملكاً أسطورياً، وأنشأ مدينة بيزنطية الأسطورية. لقد وجدنا قطعة نقدية

تخصّ تلك المدينة بين راحتي يدي القتيل".

قال علي: "ليس تماماً يا زينب. لم تكن تلك القطعة النقدية بيزنطية في الواقع، وإنما سكّها الرومان، ويمكن أن أضيف أنهم فعلوا ذلك بعد مئات السنين أيضاً".

ها نحن ذا؛ جدال على وشك أن يبدأ...

قلت: "لديه وجهة نظر يا زينب. متى بالضبط استولى الرومان على بيزنطية؟ هل استطعت الحصول على أي معلومات بهذا الشأن؟".

تورّد وجهها، وبدت مثل طالبة أدّت كل فروضها.

"فعلت ذلك أيها المدير، لكنني لا أضمن دقتها؛ لأنني حصلت على معظمها من الإنترنت". رمقت "علي" بنظرة تأنيب وتابعت: "ربما كانت المعلومات التي حصلتما عليها من ليلى باركين أكثر دقة، لكن المواقع التي دخلتها...". تردّدت مجدداً، وتوثّقت من ملحوظاتها. "نعم، ها هي. أُسّست بيزنطية عام ست مئة وستين قبل الميلاد، وبقيت دولة مدينة نحو سبع مئة سنة حتى 73 ميلادية؛ حين أصبحت جزءاً من ولاية بيثينة بونتوس الرومانية".

قلت متأثراً: "عجباً! إذاً لم يظهر الرومان على الساحة طوال سبع مئة سنة. ظننت أن ذلك حدث في وقت أبكر".

"يظن كثيرون هذا، وأنا من بينهم". التزمت زينب الصمت للحظة، ثم بدا أنها تورّدت قليلاً. "أخجل من قول هذا، لكنني كنت أظن أن الإغريق والرومان كانوا من العشيرة نفسها".

كان ذلك اعترافاً جريئاً ومحرجاً، فنحن لا نعرف شيئاً تقريباً عن تاريخ مدينتنا وبلادنا. وبغضّ النظر عن الإغريق والرومان، لا يبدو أن لدينا أي معلومات حين يتعلق الأمر بالعثمانيين. وعلى الرغم من جهلنا المطلق بهم وبتاريخهم، نحب أن نتباهى ونتفاخر بشأن المآثر البطولية لأسلافنا.

وفيما كنت أمعن التفكير في هذه الحقائق المحزنة، خطرت لي فكرة غريبة فجأة؛ نحن نجلس هنا- نحن ضباط الشرطة الذين يعملون على جريمة قتل لم تُحل بعد- وبدلاً من استنباط أفكار مبتكرة، والتفكير في الحقائق والفرضيات، ومناقشة التخمينات المختلفة والجدال بشأنها؛ أي عملنا المعتاد، ها نحن نفعل ما يفعله علماء آثار يسبرون أغوار أسرار المدينة الخفية والعتيقة. لم يكن ذلك يعني أنني لا أستمتع بالأمر، لكن هناك قضية جنائية شائكة ينبغي أن تُحل.

قلت وأنا أنهض: "إذاً، متى ستُشرّح الجثة يا زينب؟".

"غداً ياسيدي، وأظن أننا سنتلقى النتائج عند الظهر تقريباً".

"جيد، أظن أيضاً أنها ستكون فكرة سديدة أن نفتّش منـزل الفقيد مجدداً. فربما سنجد مجموعة القطع النقدية التي ذكرتها ليلى باركين. يجب أن نعرف هذا الرجل، نجدت: ما الذي كان يسعى إليه؟ أين عمل؟ أي نوعٍ من الأشخاص هو؟ هل لا يزال في الجامعة أم يعمل في مكان آخر؟ كل شيء. بدت طليقته مبهمة حين تكلمت عنه، وهناك احتمال كبير بأنها تخفي بعض المعلومات. يجب أن نتوثق من الملفات ونرى إن كانت لديه أي مخالفات قانونية. إذا لم يكن هناك شيء، يجب أن نكتشف إن كانت قد أُقيمت ضده أي قضايا".

"ألن نتوثق من ذلك الرجل الجرّاح أيها المدير؟".

"بلى، سنفعل ياعلي. حسناً، أنا سأفعل هذا، وسأذهب إلى النادي لأتحدث إليه الآن".

بدا قلقاً. "سآتي معك أيضاً، فليس هناك ما نفعله هنا".

"أريد منك أن تذهب إلى المطعم بجانب قصر صانعي السلال الليلة وترى إن كان النُدل الذين عملوا هناك ليلة الأحد موجودين الآن. إذا كانوا هناك، فاكتشف إن كانت ليلى باركين موجودة ليلة الأحد في المطعم، وإن كان الجدال الذي ذكرته قد حدث أم لا. حاول أن تعرف قدر المستطاع عمّا حدث بينهما في تلك الأمسية".

لم يبدُ راضياً عن ذلك. "لا بأس أيها المدير، لكن المساء لا يزال طويلاً. دعني أرافقك إلى النادي ثم سأتابع طريقي إلى المطعم".

بدا صعباً بالنسبة إليّ معرفة إن كان قلقاً بشأني، أم قلقاً بشأن وقوعي في ورطة، أم إن كان يريد متابعة القضية عن كثب.

"حسناً، لنذهب".

كنت قد قطعت عدّة خطوات فقط حين رأيت بطرف عيني الأزهار التي أحضرها علي إلى زينب، وشممت شذاها الذي لا يزال يملأ الغرفة. ربما سيتعلّمان في نهاية المطاف كيف يغازلان بعضهما من دون شجار...

سألت عرَضاً: "زينب، لماذا لا تنضمين إلى علي هذا المساء؟".

لمعت عيناها الداكنتان فرحاً بالفكرة؛ رغم إحراجها البادي للعيان. "حسناً، كما تريد أيها المدير".

كانت تعرف ما أعنيه، لكنني تكلمت بنبرة رسمية لتفادي أي ألفة غير ضرورية. "يمكن أن يستجوب كلاكما أولئك النّدل. اكتشفا ما حصل في ذلك اليوم قدر المستطاع، وتكلما مع مالك المطعم، فربما كان يعرف نجدت

دينيزل".

حاول الماكر إخفاء مشاعره لكنه كاد يقفز فرحاً لدى سماعه عرضي.

"سآتي وأصطحبك هذا المساء يازينب". وتفاديا التواصل البصري.

"الآن وقد أنهينا هذا الأمر، سأذهب وأكتشف العلاقة بين نجدت ونامق".

"لا بأس أيها المدير".

قلت متظاهراً بأن ذلك قد خطر لي للتو: "بالمناسبة، لماذا لا تتناولان الطعام معاً في قصر صانعي السلال، نظراً إلى أنكما ستكونان هناك؟ كنت سأود الانضمام إليكما، لكنني سأستقبل ضيوفاً الليلة. إنه مكلف قليلاً، لكن المنظر بديع".

رابطة الدفاع عن إسطنبول

كان المنظر الذي يُطلّ عليه النادي بديعاً. فالمشهد الرائع يتضمن مياه القرن الذهبـي الساكنة وجامع السليمانية الذي تتطاول مآذنه لتلامس الغيوم. كنت وعلي قد قطعنا جسر يونكباني، وتجاوزنا الأسوار العثمانية، وسلكنا طريقنا عبر الشوارع بين منازل إسطنبول القديمة؛ من أجل ارتقاء التلة الصغيرة التي استقبلنا على قمتها مقامٌ عتيق في الساحة الرئيسة: دير بانتوكراتور، المعروف الآن بأنه جامع زيرك. كان النادي يقع في الطابق الثالث من مبنى سكني بشع قبالة الدير.

تمّ تشييد الوحش الإسمنتي الذي يضم النادي على الأرجح عقب تدمير المباني الخشبية القديمة في الحي؛ نتيجة اشتعال النيران فيها، أو غباء شخص أحمق قام بإحراقها عمداً. كنت ألهث طالباً الهواء حين وصلت إلى الباب الفولاذي في الطابق الثالث؛ بعد وقت طويل من وصول علي الذي قفز صاعداً على تلك الدرجات شديدة الانحدار من دون أي عناء. وبعد أن رنَّ الجرس عدّة مرات، واجهنا مفاجأة مزعجة؛ فقد بدا المكان خاوياً، وبدا لنا أن أعضاء النادي قد أنهوا عقد اجتماعهم. كنت أستعد للعودة نـزولاً على تلك الدرجات، وربما لمواساة نفسي على هذه الرحلة التي ذهبت سُدى بالجلوس على الأقل في مقهى قريب والاستمتاع بالمنظر، لكننا توقفنا فجأة حين سمعنا ضوضاء على السلالم، وعرفنا أن مجموعة من الناس تصعد عليها بصخب. كان عدد الأفراد في المجموعة ثمانية أشخاص، فضلاً عن طفلة بين ذراعي امرأة قصيرة الشعر. وكان باقي أفراد المجموعة يحملون لوحات عليها صور لأحد منازل زيرك القديمة التي كنا قد رأيناها قبل دقائق فقط. كان المنـزل الذي يظهر في اللوحة يقف على دعاماته الأخيرة، وعبارة أنقذوا فنّ العمران في إسطنبول مطبوعة تحت بعض الصور، في حين تحمل الصور الأخرى عبارة توجد إسطنبول واحدة فقط! ساعدوا في إنقاذ المدينة . كانوا بالتأكيد الأشخاصَ الذين نبحث عنهم. بدوا جميعاً أشخاصاً محترمين ومثقفين، نظراً إلى ثيابهم الفاخرة وسلوكهم. عندما ساروا نحو الشقة، جاء إلينا أحدهم؛ رجل طويل داكن البشرة، شاربه متدلٍ عند طرفي فمه، وشعره أجعد، وعيناه لامعتان.

كان هو؛ حبيب ليلى باركين، الجرّاح "نامق" قرمان.

سأل بتهذيب: "هل يمكنني مساعدتكما؟".

قال علي: "نحن من الشرطة. نريد أن نتحدث إليك".

تلاشى الفضول المهذّب عن وجه نامق، وقال بفظاظة: "إذا كان الأمر يتعلق بما حدث في القرن الذهبـي، فقد أدليت بإفادتي للشرطة سابقاً".

قلتُ بهدوء: "الأمر لا يتعلق بتلك الحادثة تحديداً ياسيد قرمان. نحن من إدارة الأمن الجنائي، واسمح لي بالتعريف بنفسي. أنا المفتش نوزت أكّان، وهذا هو المفتش علي غورمن، ونحن هنا للتحقيق في جريمة قتل".

تغيرت النظرة على وجهه، وبدا مرتبكاً. "جريمة قتل! أي جريمة؟".

"هل يمكننا أن نتحدث في الداخل؟".

لم يكن واثقاً ممّا ينبغي له فعله. فمن ناحية، تملكه الفضول حين سمع بنبأ الجريمة. وفي الوقت نفسه، لم يكن يرغب في أن يسمح لنا بالدخول مثل ليلى باركين.

"في الواقع، نحن على وشك عقد اجتماع لمناقشة...".

قلتُ بنبرة رسمية هذه المرة: "سيد قرمان، لا أظن أنك تفهم تماماً، نحن نتكلم عن جريمة قتل هنا. إذا لم تكن تريد التعاون معنا، فعندها أخشى أننا سنطلب منك مرافقتنا إلى المخفر لتجيب عن بعض الأسئلة".

رفض الرجل أن يتراجع. "ما علاقة هذا بـي؟".

"كل شيء؛ لأن الرجل الذي قُتل هو طليق ليلى باركين".

اتسعت عيناه رعباً. "ماذا؟ كيف؟ نجدت؟ نجدت مات؟".

واجهت صعوبة في معرفة ما إن كان مصدوماً حقاً أم يمثّل.

قلت مصححاً له: "قُتل، لقد حُزّت عنقه".

ترنّح على قدميه؛ وكأن نجدت قد قُتل أمام عينيه.

قال علي بحزم، مستنداً إلى الباب: "لهذا يجب أن نتكلم، وربما يمكنك أن تعقد اجتماعك في وقت آخر".

الغريب أنه استطاع - مثل ليلى - التغلب على شعوره الأوّلي بالصّدمة بسرعة. "حسناً، لكن الأمر لن يستغرق وقتاً طويلاً، أليس كذلك؟".

قلت وأنا أتجه نحو الباب: "لا، على الإطلاق. طبعاً، هذا يعتمد على مدى رضانا عن إجاباتك".

استسلم أخيراً وقال: "حسناً، من هنا".

كان أول شيء رأيناه حين دخلنا قاعة اجتماعات النادي صورة جوّية لقصر توبكابـي. وعلى الرغم من أنني ذهبت إلى هناك عدّة مرات، إلا أنني ذُهِلْت بمساحته الواسعة في الواقع، ولم يسعني إلا أن أحدّق إلى الصورة بإعجاب. كنت الشخص الوحيد الذي أبدى اهتماماً بالمكان. وعندما رأيت "علي" و"نامق" يجلسان على أريكتين، انتزعت نفسي من ذهولي

وانضممت إليهما.

كانت غرفة الانتظار تفضي إلى حجرة جلوس كبيرة؛ مثل منزل ليلى باركين تماماً. وكان الجدار على اليسار يحمل رفوفاً من الأرضية إلى السقف؛ كُدّست عليها كتب من كل الأشكال والأحجام، ومن لغات مختلفة عن إسطنبول. إذا نحّيت رفوف الكتب جانباً، فسيبدو الأثاث متواضعاً. فقد كانت هناك كراسٍ خشبية، وطاولة صغيرة، وطاولة بلاستيكية كبيرة في وسط الغرفة. كان الآخرون - أربعة رجال وثلاث نساء - قد جلسوا حول الطاولة؛ معظمهم في منتصف العمر، باستثناء فتاة قصيرة الشعر وشاب قوي البنية أحمر الشعر. استدار بعضهم لينظروا إلينا حين دخلنا، لكن الشاب فقط بدا عصبياً؛ مثل قطة شاردة تجد نفسها بين قطيع من الذئاب.

"ماذا يجري يا نامق؟". أخفض الشاب رأسه وشدَّ قبضتيه، وبدا بوضوح مستعداً للقتال، لكن "نامق" قرمان هدّأ من روعه.

"لا شيء يا كمال. يجب أن أتحدث مع هذين السيدين من الشرطة لبعض الوقت".

استدار الآخرون طبعاً، وحدّقوا إلينا بغضب حين سمعوا أننا من الشرطة. فيما مالت الفتاة قصيرة الشعر على الأريكة وكأنها تحمي شيئاً ما. وعندما حدّقت إلينا بعدائية واضحة، لاحظتُ الطفلة التي رأيناها تحملها في الخارج. لكن ما بدا عصياً على الفهم هو السبب الذي جعلها تشعر بالحاجة إلى حماية الطفلة حين سمعت أننا من الشرطة. كان من الواضح أننا لسنا موضع ترحيب هنا، ولاحظ نامق ذلك أيضاً.

"لا علاقة لهذا بالنادي يا شباب، وإنما بشيء آخر؛ شيء مختلف تماماً، ولن يستغرق وقتاً طويلاً".

لم تتغيّر تعابير وجوههم، ولم تكن نظراتهم العدائية تزعجني على الإطلاق، وإنما الطفلة الباكية التي لا تفعل شيئاً لتخفيف التوتر. لحسن الحظ، حملتها والدتها وجعلتها تهدأ.

قال علي ساخراً: "لا بد أنه اجتماع مهم جداً ما تريدون عقده هنا، فحتى الطفلة ترغب في المشاركة".

لاحظ نامق الازدراء في صوت علي لكنه لم ينـزعج من الإساءة، وقادنا عبر باب إلى الطرف الآخر من حجرة الجلوس.

"تفضلا من هذه الطريق، يمكن أن نتكلم هنا".

كانت الصور على الجدار مدهشة، لكنها هذه المرة لم تكن لمبانٍ عتيقة وصروح ضخمة، وإنما صور الأضرار التي أحدثها بناء فندق خمس

نجوم في موقع القصر البيزنطي، والكتابة التي تزيّن جدران جامع السليمانية، والآثار المهملة الآن لقصر بوكاليون البيزنطي الذي بات شبيهاً بكومة نفايات وليس قصراً سكنه ملوك، بالإضافة إلى صور منازل خشبية قديمة في كاديرجا على وشك الانهيار الآن، وأعمدة رومانية قديمة من القسطنطينية يستخدمها بائع متجوّل لعرض ملابس نسائية داخلية، والحالة الكئيبة لموقع تنقيب مرمرة؛ المحطّم والمتداعي نتيجة أعمال تشييد نفق تحت الأرض، والحالة المأساوية للنافورة العثمانية التي نُقشت على رخامها المزخرف عبارة جيشنا هو الأعظم ، والأسلحة العتيقة الصدئة، والتماثيل، والمصنوعات اليدوية المحطّمة في قصر توبكابـي؛ بكلمات أخرى، كانت الصور إثباتاً على تدميرنا الهمجي لتاريخنا. كانت هناك لوحة ضخمة على الجدار الأصفر الفاقع إلى يمين الممر المؤدي إلى الحجرة الداخلية، تحمل العبارة التالية: "سنان، لن يجرؤ إلا أولئك الذين يمتلكون مواهبك الفذّة وقد استفادوا من معرفتك وإرشاداتك على أن يدعوا أنفسهم معماريين!" مكتوبة بأحرف حمراء طويلة مائلة بخط تركي عثماني فوق ختم السلطان سليم الثاني؛ ابن السلطان سليمان. عندما دخلنا الحجرة، لم يسعني إلا أن أسأل.

"ما الذي تفعلونه هنا تحديداً ياسيد قرمان؟ ما الذي تسعى إليه رابطة الدفاع عن إسطنبول؟".

قال متذمراً ومتردداً في الإجابة: "رابطة الدفاع عن إسطنبول منظمة أهلية غير حكومية تُعنى بصون تاريخ المدينة وفنّ العمران فيها وحمايتهما". أشار إلى زوجٍ من الكراسي الخشبية الصغيرة قائلاً: "تفضلا بالجلوس".

كانت إحدى اللوحات- التي استخدمت من دون ريب في أثناء مسيرة احتجاجية- على الكرسي الذي كدت أجلس عليه، وتعرض الموضوع نفسه. إذ ظهرت فيها صور منازل خشبية قديمة في المدينة، وتحتها كلمة حماية . حملت اللوحة بحرص ووضعتها على طاولة صغيرة، ثم جلست على الكرسي المتداعي، ورأيت أن "علي" قد جلس آنذاك قبالتي. وعندما جلس نامق إلى طاولته، لاحظت صورة على الجدار لصبيّين يافعين يبدوان شقيين يبتسمان لآلة التصوير، وأسنانهما المفقودة تزيد من جمالهما، ووالدهما جالس وقد وضع ساقاً فوق الأخرى على بساط رخيص، وهو يلفُّ لفافة تبغ، فيما والدتهما الشابة تطهو وجبتهم على فرن غاز صغير، وجميعهم يجلسون بجانب أسوار المدينة القديمة.

قال نامق، ملاحظاً نظرتي إلى الصورة: "هذه الصورة هي الأكثر إثارة للشفقة على الإطلاق. يتشبث هؤلاء الأشخاص الذين لا يمتلكون منازل

خاصة بهم بالحياة، وكم هو مؤلم أن ما نراه تاريخاً يرونه ملاذاً وملجأ. إن الرعب الحقيقي الذي يكمن خلف كل هذا يتجلى في أولئك الذين يجنون ثروة من جراء ذلك". سحب نفساً عميقاً، محاولاً أن يهدّئ غضبه المتصاعد. "على كل حال، نعود إلى رابطة الدفاع عن إسطنبول".

تحدّث باستخفاف؛ وكأنه لا يأخذنا على محمل الجد. وجعلت حقيقة أنه لم يكن حتى يحاول إخفاء ازدرائه غضبَ علي يزداد.

قال علي ساخراً: "رابطة الدفاع عن إسطنبول، هه. وضد من تحديداً تدافعون عن المدينة؟".

أجاب نامق باقتناع: "نحن نحاول التصدي للهمجيين والسارقين واللصوص الذين يدمّرون ثلاثة آلاف سنة من التاريخ".

بدا متحمساً وكاد يمضي قدماً لو لم يتدخل علي قائلاً: "ومن طلب منك أخذ هذه المهمة على عاتقك؟ وفقاً لما نعرفه، خلفيتك هي الطب، لذا ما هذا الاهتمام بالمدينة وتاريخها؟ هل جاء أحدٌ ما إليك وطلب منك إنقاذ المدينة؟".

حاولت أن أشير إليه خفيةً بأن يلتزم الصمت، لكنه كان مركّزاً على الجرّاح تماماً ولم يلحظ أنني رفعت حاجبي لتحذيره. عرف نامق ما يحاول علي فعله، فوضع مرفقيه على الطاولة مجيباً:

"نعم، فعل أحدٌ ما ذلك". وأشار إلى الجامع في الخارج. "هناك، هل ترى ذلك؟".

تمتمتُ: "جامع زيرك".

قال مندهشاً لأنني أعرف اسم المبنى: "هل تعيش في الجوار أيها المفتش؟".

"ليس بعيداً جداً، في بلاط".

"فهمت. حسناً، سأرفع قبعتي لك على كل حال أيها المفتش أكّان؛ فباستثناء جوامع السليمانية والفاتح وأيوب، لا يعرف الناس شيئاً عن الصروح أو المساجد خارج أحيائهم. هذا صحيح، أنا أتكلم عن جامع زيرك، أو كنيسة بانتوكراتور، إن أردت استخدام اسمه السابق. إنه موجود هنا منذ ألف سنة تقريباً، وقد بني في القرن الثاني عشر في اثنتي عشرة سنة فقط. لا أعرف التفاصيل بالضبط، لكنني أظن أن لذلك علاقة بالحواريين الاثني عشر. حُوّلت الكنيسة إلى مدرسة أولاً ثم إلى جامع، وحصل الجامع على اسمه من الشيخ الذي علّم في المدرسة الدينية".

سأل علي ساخراً: "هذا رائع. لكن، لماذا تخبرنا به؟ من يهتم بتاريخ

جامع؟".

"أحاول أن أجيب عن سؤالك، لكن ينبغي لك أن تتحلى ببعض الصبر وتسمح لي بالمتابعة". لم يكن غاضباً أو منـزعجاً على الأقل. "كما ترى، المبنى يتداعى، ولا يزال بحاجة إلى بعض الرعاية والترميم. في بعض الليالي، عندما يتطلب عمل الرابطة بقاءنا هنا، أرى غالباً- خاصة تحت ضوء البدر- شبحاً يخرج من دار العبادة القديمة هذه ويرتقي نحو الأعلى. ربما يكون طيف الإمبراطورة إيرين كومنينا، التي أمرت ببناء الكنيسة، أو طيف الملا زيرك. من يعرف؟ لكنني أسمع الشبح يصرخ قائلاً: لماذا لا تفعل شيئاً؟ لماذا لا تمنع تحطيم تلك الكنوز المبجّلة ولا تمنع تدميرها؟ لماذا لا تدافع عنا؟ ولهذا السبب ينتابني إحساس بأنني مُلزم بمهمة الحفاظ على هذا المبنى وكل الأبنية التاريخية الأخرى في هذه المدينة. إذا شعرت، في سرير موتي، بأنني قد فعلت شيئاً لهذه المدينة، فسأرحل عن هذا العالم بسلام، وسيتركني شبح جامع زيرك وشأني. لكن، إذا لم أفعل، ونحّيت نفسي جانباً، ولم أقم بشيء، فسيلاحقني ذلك الشبح، ذلك الطيف، حتى النهاية". ظهرت تلك الابتسامة على وجهه مرة أخرى. "إذاً، أيها المفتش غورمن، لأجيب عن سؤالك أقول إن ذلك الشبح هو الذي يدفعني إلى فعل هذا؛ شبح الجامع، شبح هذا الحي، هذه المقاطعة، هذه المدينة تحديداً...".

قال علي على نحو قاطع: "لا يعني مثل هذا الهراء شيئاً بالنسبة إلي". كان يتظاهر بأنه لم يتأثر بما سمعه، ولكنني عرفت أنه أثار اهتمامه، رغم أنه لن يعترف بذلك أبداً. "إذاً، ما الذي تفعله تحديداً لحماية هذه المدينة؟".

بدا نامق قرمان مكتئباً. "في الحقيقة، نحن لا نفعل شيئاً. هناك دائماً شيء ما يقف حجر عثرة في طريقنا؛ عائق ما، أو شخص ما يحاول وضع العصي في العجلات. يتلقى رئيس الوزراء وبعض الوزراء الرشى، ويُستخدم صحفيون ليسردوا جانبهم من القصة فقط، ويُدفع المال إلى مستشارين وخبراء، فيما المحاكم وشركات القانون مخترقة، أو مُراقبة، أو مُسيطرٌ عليها. إنهم يلجأون إلى كل خدعة قذرة، ولا تعني مواقع ذات قيمة تاريخية أو مناطق ذات جمال طبيعي شيئاً لأصحاب الدوافع الخفية، فهم ببساطة لا يكترثون".

كان جاداً هذه المرة، وألمه بادٍ للعيان.

قلت وأنا أعرف كم أن الوضع ميؤوس منه، ولكنني أريد أن أصدّق أنه يمكن إنجاز شيء ما: "لكن، لا بد أن هناك بعض الأشخاص المحترمين؛

أشخاصاً يحبون هذه المدينة، ويريدون الحفاظ عليها".

هزَّ رأسه متعباً. "هم موجودون فعلاً، مثل الأشخاص هنا مثلاً، ودينيز؛ طفلة ياسمين. لا بأس. إذا لم نستسلم للكآبة والشك، فبإمكاننا القول إن هناك عدّة آلاف آخرين، لكن هذا كل شيء؛ بضعة آلاف في مدينة تعداد سكانها خمسة عشر مليوناً. لا أحد يهتم بإسطنبول بتاتاً. مستقبلنا يُسرق من بين أيدينا، وكل ما يفعلونه هو النظر حولهم وكأنهم يقولون: نعم، لكن لماذا ينبغي أن أفعل شيئاً؟ الناس في هذه المدينة همجيون، وبغيضون، وجاهلون، ويفتقرون إلى أي وازعٍ أو ضمير، وكل ما يهتمون به هو اللحظة الآنية وتلبية احتياجاتهم الدنيوية. طبعاً، الجميع يحبّون أن يصرخوا ويصيحوا، لكن عندما يتعلق الأمر بفعل شيء ملموس حقاً، فكلّ ما يكترثون له هو أنفسهم فقط. كل ذلك الكلام عن إنقاذ المدينة، وأن إسطنبول عاصمة الثقافة الأوروبية مجرد هراء وتزييف؛ كلها أكاذيب. مجلس المدينة، ومجالس الدوائر الانتخابية، ومكتب المحافظ، والحكومة، والشعب، والدولة؛ كلهم كاذبون ومخادعون".

قاطعه علي فوراً، وجأر مهدداً: "توقف الآن، ماذا يُفترض بهذا أن يعني؟ أتظن أن الجميع مختلّون وأشرار وأنتم الصالحون فقط؟ هل هذا ما تقوله؟".

هزَّ نامق رأسه، منـزعجاً من إساءة تفسير كلامه. "هذا لا يتعلّق بالصالح والطالح، وإنما بقضية العناية بمدينتنا؛ المدينة التي نعيش فيها. هذا كل ما نحاول فعله". ونظر إليّ متأملاً. "لكن، كلما حاولنا فعل شيء ما، وجدنا الشرطة تعترض مسيرتنا".

قال علي بتجهّم: "إذا عملتم ضمن حدود القانون، فلن تجدوا أحداً يعترض على نشاطاتكم. لكن، إذا خرقتم القانون، فمن الطبيعي أن تجدونا في انتظاركم. بالمناسبة، أخبرنا عن تلك المسيرة في القرن الذهبـي، إن لم تكن تمانع".

قال نامق بحدّة: "كانت إخفاقاً كبيراً للعدالة. كنا نحتج على إنشاء جسر الميترو المفترض فوق القرن الذهبـي لأنه سيحجب أفق المدينة الشهير وسيُفسد منظر جامع السليمانية".

كان محقاً، إذ سيخرّب ذلك الجسر المقرّر إنشاؤه؛ ذاك الهيكل الإسمنتي والمعدني القبيح، سحرَ المنطقة وجمالها الطبيعي، وسيفسد منظر الأفق المشهور عالمياً. لم يعنِ أيٌّ من ذلك شيئاً لعلي بالطبع، فقد ردَّ على نحو أخرق وغير مهني أبداً.

"حسناً، آسف ياسيد، توجد قواعد وقوانين. أنت نظّمت مظاهرة غير قانونية وشاركت فيها".

قلتُ بلطف: "لا بأس ياعلي، لنعد إلى العمل". كان يجب عليّ أن أجعله يهدأ وإلا سيخرج كل شيء عن السيطرة. "الآن ياسيد قرمان، هل كنت تعرف نجدت دينيزل؟".

كان سماع اسم الرجل كافياً لرفع ضغط دمه. "عرفته. ولأكون صادقاً لم أحبّه أيضاً".

"لِمَ لا؟".

"لأنه كان وغداً".

حذّره علي قائلاً: "اعذرني، هذه ليست طريقة مناسبة للتكلم عن شخص ميت".

تركته هذه المرة يتكلم بحرّية؛ لأنّ لديه وجهة نظر صائبة. ربما كان نامق متهوراً قليلاً، فقد قال بهدوء: "إنّ حقيقة أن الرجل قد مات لا تعني أنه لم يكن وغداً". لم يكن يقصد الإزعاج أو الاستفزاز، وإنما كان ببساطة يوضح وجهة نظره المبدئية. "سنموت جميعاً يوماً ما. لكن، هل هذا يعني أن كل أخطائنا ستُمحى من الذاكرة فوراً؛ في اللحظة التي نقضي فيها نحبنا؟ هل ستُزال الجرائم التي نفّذناها من السجل فجأة؛ وكأنها لم تحصل قطّ؟ إذا كان الشرير يتخلّص من خطاياه عند احتضاره، فماذا عن أفعال الخير والإحسان التي يقوم بها أشخاص محترمون؟ ماذا عنها؟". مال وحدّق إلى عيني علي، ليس تحدّياً وإنما تفسيراً. "الموت لا يغيّر ما فعله الأشرار أيها المفتش غورمن، ووحدها الأعمال الطيبة يمكن أن تمحو الآثام التي اقترفها المرء. عندما تكون حسناتك أكثر من سيئاتك فسيُغفر لك. أنا آسف، لكن نجدت دينيزل لم يكن رجلاً صالحاً في أثناء حياته، وموته لا يبدّل تلك الحقيقة".

كان يجب أن أتدخّل مجدداً؛ لأحول دون مهاجمتهما بعضهما.

قلتُ وأنا أراقبه بحرص: "هل أنت واثق أنك لا تقول هذه الأشياء لأن نجدت دينيزل كان طليق ليلى باركين؟ ربما تشعر بنوع من الغيرة...".

"صدّقني ياكبير المفتشين، لا علاقة لما أقوله بذلك. لقد انفصل عن ليلى منذ سنوات، ولا أكنُّ له ضغينة شخصية. كان السبب الوحيد الذي جعلني لا أطيقه هو أنه أحد أولئك الأشخاص المسؤولين عن سلب هذه المدينة وتدميرها. وعلى اعتبار أنه مؤرخ وعالم آثار، فذلك يجعل أفعاله لا تُغتفر أبداً".

"إذاً، بكلمات أخرى، أنت تعتقد أنه استحق الموت، أليس كذلك؟".

انعطافة غريبة للأحداث... كان علي قبل بضع دقائق مستعداً لضرب الرجل، لكنه استطاع الآن أن يسيطر على غضبه، وها قد بدأ يسبر ذهن الجرّاح...

"لا أحد يستحق القتل أيها المفتش غورمن". بدا أن "نامق" لن يبتلع الطعم بسهولة كبيرة. "أنت محقّ؛ يستحق نجدت العقاب، ولكنّه لا يستحقّ القتل. كان يجب أن يلقى عقابه وفقاً للقانون، وليس على أيدي أولئك الذين لا يمتلكون السلطة المطلوبة".

سألتُ: "وإذا فشل القانون؟ قلت بنفسك إن القانون ومن يمثلونه من رجال الشرطة يقفون في وجوهكم؛ إذاً ماذا ستفعلون عندها؟".

"دعني أقول لك الآن إننا لن نكون أبداً الأشخاص الذين يفرضون أي نوعٍ من العدالة. لن نقتل أحداً مطلقاً أو نلجأ إلى العنف؛ فمن دون الناس لن يكون للمدينة وجود؛ بغض النظر عن جمال تماثيلها وروعة تاريخها. فعندها، لن تكون المدينة إلا كومة من الخشب والحجارة والحديد. الناس هم الذين يبنون المدن والتاريخ أيها السيدان، ومن دون الناس لم نكن لنرى بيزنطية أو القسطنطينية أو إسطنبول. وعندما نحمي المدينة وندافع عنها، فنحن في الواقع نحمي الناس وندافع عنهم وعمّا يبدعونه. كما تعرفان أيها السيدان، الغاية لا يمكن أن تبرّر أبداً القضاء على حياة أي إنسان".

كانت ليلى باركين قد ألقت على مسامعنا عظة مثالية مشابهة؛ مملوءة رومانسية وأفكاراً نبيلة. يبدو خطاباهما رائعين، لكن ما يهم هو إن كانا يطبّقان ما يقولانه.

"هل التقيت نجدت دينيزل يوماً؟ أعني وجهاً لوجه؟".

"عدّة مرات...".

"كيف كانت طبيعة علاقتك به؟".

"كان يعرف أنني لا أحبّه". عبس لأنه اضطر إلى تذكر تلك اللحظات البغيضة كلها. "ولم يكن مغرماً بـي أيضاً".

"هل وصفك بالوغد يوماً؟". كان علي الأحمق قد بدأ مجدداً. "لأنك بدوت مرتاحاً جداً حين وصفته بالوغد".

جأر نامق ضحكاً.

"ربما فعل ذلك. لكنه على الأرجح قال إنني أحمق. كان يظن أن الأشخاص أمثالنا، الذين لا يسعون إلى تحقيق كسب شخصي، ليسوا إلا

حمقى". شرد لحظة ثم تابع: "أظهر لي العداء بسبب ليلى. أظن أنه كان لا يزال يحبها. لا تشاطرني ليلى الرأي نفسه، لكنني أعتقد أنه كان يكن مشاعر تجاهها".

"والآنسة باركين، هل لا تزال تكن تجاهه أي مشاعر؟". بدا أن "علي" قد ضرب على وتر حساس، فقد حملق إليه نامق غاضباً. "فبالمحصلة، لقد قبلت دعوته إلى العشاء".

"سألتني أولاً إن كان بمقدورها الذهاب أم لا". كان علي- الثعلب الماكر- قد جعل الرجل يبدأ أخيراً بالكشف عن بعض المعلومات. لكن، حين أوشك على الاستمتاع بذلك، أطلق نامق فقاعته: "طبعاً أنت محق، فالناس غريبون".

تنهّدتُ مدّعياً التعاطف معه: "هم كذلك، والنساء خاصة لغز محيّر. لا يعرف المرء أبداً ما يفكّرن فيه، أو ما سيفعلنه لاحقاً".

"إنها ليست قضية رجال ونساء أيها المفتش أكّان، فجميعنا بشر. لكن، لا أظن أن ليلى تبالي كثيراً بمثل هذه الأفكار. ولو أنها فكّرت فيها، لكانت قد أخبرتني بالتأكيد".

كان يلامس شاربه بأصابع يده اليمنى؛ محاولاً أن يبدو هادئاً، لكن الارتباك ظهر واضحاً عليه.

قلتُ: "على كل حال، ماذا كنت تفعل مساء أمس؟ تقول الآنسة باركين إنها قضت الأمسية معك".

قال منتبهاً من حلم يقظته: "كنا في النادي. عقدنا اجتماعاً انتهى عند العاشرة تقريباً، وحضرته ليلى أيضاً".

"ما كان موضوع الاجتماع؟".

"خطة تحويل حي السلطان أحمد إلى متحف كبير. فبعد سنوات من المحاولات، استعادت وزارة الثقافة رشدها أخيراً وقرّرت أن تناقش اقتراحاتنا".

قال علي: "وماذا بشأن الطعام؟ لا بد أنكم شعرتم بالجوع عند الساعة العاشرة، أليس كذلك؟".

نظر نامق إلى علي من أعلى رأسه إلى أخمص قدميه بإعجاب ساخر. "أنت لا تنسى شيئاً؛ حتى أدقَّ التفاصيل، أليس كذلك أيها المفتش؟ تناولنا الطعام طبعاً. طلبنا البيتزا؛ بالخضار لليلى، وبالسجق لي. يمكن أن أُريك الوصل إن أردت".

"حسناً، ربما سنراه إن كان ذلك ضرورياً. وبعد ذلك".

"ماذا تقصد بقولك وبعد ذلك؟". شرع ذلك المغرور يتكلم معنا

باستخفاف مجدداً.

قال علي وهو يكافح لكي يبقى هادئاً: "بعد الاجتماع، بعد أن ترككما أصدقاؤكما وأصبحتما بمفردكما".

"غادرنا المكان أيضاً، لكننا لم نذهب إلى المنـزل فوراً، وإنما إلى الشاطئ لنتنـزه قليلاً. كانت أمسية جميلة، والناس في كل مكان يستمتعون بالطقس المعتدل؛ فالربيع على الأبواب. عندما وصلنا إلى المنـزل، كانت الساعة الحادية عشرة تقريباً. كتبت ليلى رسالة إلى وزارة الثقافة السويدية، فيما قرأت كتاباً". ضحك بصوت خافت. كانت "رواية بوليسية، للكاتبة آغاثا كريستي بعنوان جريمة على متن قطار الشرق . إنها عن تحقيق في جريمة قتل شخص بائس؛ وغد إن شئت".

بدا التحدّي واضحاً، فقد كان يرمي القفّاز.

قلت: "أعرفها. إنها رواية جيدة، وتبدأ في أحد أحياء إسطنبول القديمة أيضاً كما أظن، في محطة قطارات سيركجي". نظرت إلى عينيه مباشرة حين تكلمت لأقيّم ردة فعله. "على بعد بضع مئات الأمتار من المكان الذي وجدنا فيه جثة نجدت دينيزل".

لم تظهر عليه أي إشارة إلى التوتر أو الخوف، أو اختلاجات أو إيماءات يمكن أن تجعلنا نشتبه فيه.

"هل وجدتم الجثة في سيركجي؟".

صرخ علي: "ألم تسمعه؟ قال كبير المفتشين إننا عثرنا على الجثة على بعد بضع مئات الأمتار من سيركجي. ليس في سيركجي وإنما في سارايبورنو. بكلمات أخرى في بيزنطية؛ كما تعرف، حيث تأسست هذه المدينة التي تحاول جاهداً الحفاظ عليها".

عارف أسطه

عندما اقتربت من بلاط، كانت الشمس تغرب وتضيء التلال المكللة بتلك المباني البشعة على الطرف البعيد من المدينة. قبل أن أدير سيارتي الرينو القديمة المتهالكة لأتجه إلى المنـزل، استدرت ونظرت مرة أخرى إلى ماء القرن الذهبـي الصافي. مددت عنقي فرأيت المياه الزرقاء الداكنة تتدفق بهدوء نحو سوتلوس، وفكّرت في أسطورة أيو، وفي كيروسا التي ولدتها أيو في تلك التلال فوق المياه هناك، وفي ابنها بيزاس مؤسس هذه المدينة وأول ملوكها. عندما خَبَت أشعة الشمس، وغرقت المباني البغيضة التي كنت أحدّق إليها في الظل والعتمة، وجدت نفسي أصدّق أسطورة بيزاس. بدا ذلك غريباً، لكنني شعرت فجأة بأنني على علاقة وثيقة بكيروسا؛ مثل علاقتي بجارتي ناديد خانم وابنها تونك، وبدأت كلمات يحيى كمال- سادي بير سمتيني سيفمك بيل عمر ديج [6] - تبدو منطقية. أدركت أنني محظوظ جداً؛ لأنني ولدت وعشت- مثل يحيى كمال [7] - المهيب، في إسطنبول رغم كل قبحها وزحمتها وسخامها وتلوّثها. بدأت أشعر بشيء يشبه الفخر يخرج من أعماق قلبـي.

توقفت عند مطعم عارف أسطه قبل أن أتجه إلى المنـزل؛ لأن لديه مفاتيح منـزلي. كان عارف أسطه هو البطل الحقيقي للمأدبة التي أعدّها من أجل يفغينا هذا المساء. كنت قد أخبرتها أنني بارع في الطهي، وتباهيت بعدد الأطباق الشهية التي سأحضّرها لها، لكن الحقيقة هي ألا فائدة تُرجى مني حين يتعلق الأمر بالطهي، ولذا التمست مساعدة عارف أسطه. كان واقفاً هناك يحييني كالمعتاد بكل لطف واحترام في اللحظة التي دخلت فيها المطعم.

"مساء الخير ياسيدي كبير المفتشين".

في الحقيقة، كان عارف رجلاً ودوداً ومفعماً بالحيوية، لكنه يحتاج إلى كأسين من شراب قوي لكي تنفرج أساريره المتجهّمة وينطلق لسانه، وسيصبح بعدها الرجل الأكثر مرحاً وإسهاباً في الكلام الذي يمكن للمرء أن يقابله في حياته.

رددت بمرح: "ومساء الخير لك ياأسطه. كيف تجري الأمور؟ هل كل شيء جاهز؟".

كان مدهشاً رغم أنه لم يكن قد تناول قطرة بعد- فهو لا يحتسي الشراب أبداً حين يعمل- فقد ابتسم.

"بالتأكيد، حتى أدق التفاصيل ياكبير المفتشين. لقد عدنا من منـزلك قبل أقل من نصف ساعة، ونأمل أن تكون راضياً عمّا حضّرناه. لا أعرف من هم ضيوفك الليلة، ولكن يمكنني أن أؤكّد لك أنهم سيجدون وليمة شهية بانتظارهم".

"أنا واثق بذلك، شكراً لك ياعارف".

"على الرحب والسعة ياسيدي. لقد ساعدتنا مرات عديدة بنفسك، ومن دواعي سرورنا أن نردَّ لك الجميل. لقد أُعدّت الطاولة كما ينبغي، و المازة والسلطات جاهزة للتقديم، وكذلك الشراب. كل ما عليك فعله هو أن تضع السمك في الفرن، وكما قلت اتركه لبعض الوقت حتى ينضج في مرقه، لكن لا تبقِه في الفرن أكثر من نصف ساعة، وإلا فسيكون مذاقه غريباً قليلاً".

سألتُ وأنا أمد يدي إلى جيبي: "بكم أدين لك؟".

"هذه المرة على حسابي".

"قطعاً لا". مددت يدي ووضعتها على كتفه. "لقد ناقشنا هذا. أنت تسديني معروفاً كبيراً، لذا دعني على الأقل أعوّضك عن الوقت الذي خصصته لي".

كان يعرف عنادي الشديد، لذا لم يطل المسألة.

"كما تريد أيها المدير. سأقبل، ولكن ليس اليوم؛ لأنني لا أعرف التكلفة بعد. سأعرف غداً، وسنتوصل إلى شيء ما".

"اسمعني الآن ياعارف، إذا كنت تحاول أن تخدعني...".

قاطعني عارف وهو يمد يده إلى صندوق النقود ويسلّمني مفاتيحي قائلاً: "لا شيء من هذا القبيل أيها المدير. ماذا تظنّني؟ أتظنّ أنني أحمق من نوعٍ ما؟". وانفرجت أساريره؛ تماماً كما يحدث بعد أن يتجرّع قارورة شراب صغيرة. "غداً، أعدك...".

قبل أن يفتتح عارف مطعمه، عمل في خانٍ قديمٍ متداعٍ. كان المكان الذي عمل فيه متداعياً، لكن المازة فيه ليست من هذا العالم. وقد اكتسب شهرة كبيرة منذ ذلك الحين؛ ويعزى سبب ذلك إلى أنه قد خطا خطواته الأولى في هذه المهنة في مطعم كوكو في مودا، وتدرّب بعد ذلك في مطبخ إمروز في بيوغلو، ثم شحذ مهاراته تحت رعاية كور آغوب في كومكابي، وأصبح طاهياً من الطراز الأول. على كل حال، بدلاً من العمل لمصلحة الآخرين، أراد افتتاح مكانٍ خاصٍ به، لذا استأجر محلاً صغيراً قرب مخرج محطة قطارات كومكابي لن يزعج صاحب أي من المطاعم الكبيرة

نفسه حتى بالنظر إليه. وطوال ثلاث سنوات عمل بشغف ومشقّة، وطبخ كل الأطباق و المازة والوجبات الرئيسة بنفسه، وسرعان ما شرع في جني الثمار؛ إذ بدأ الزبائن يصلون جماعات، وأصبح العثور على طاولة خاوية أمراً صعباً، حتى في أثناء عطلات نهاية الأسبوع. لكن، في يومٍ صافٍ دخل محلّه ثلاثة مشاغبين، ثملين تماماً، وقرروا إثارة القليل من الفوضى. لم يفعل النُدل شيئاً؛ لأن "عارف" كان قد أخبرهم بمرور السنين مراراً وتكراراً أن الزبون دائماً على حق، لكن الشبان الثلاثة بدأوا يزيدون إساءاتهم حين فشلت حماقاتهم في إثارة أي رد فعل، لذا ذهب عارف بنفسه إلى طاولتهم ليطلب منهم الهدوء، وعرض عليهم احتساء الشراب على حساب المحل، لكنهم لم يصغوا إليه. وعندما وضع أحدهم يديه الوسختين على سيدة ألمانية كانت جالسة إلى الطاولة المجاورة جُنَّ عارف وصفع المراهق على وجهه بقوة، فأسقطه أرضاً هناك. هاجم الغبيان الآخران "عارف" طبعاً، لكنه استطاع أن يحرّر نفسه ويمسك سكيناً، وبدأت المعمعة آنذاك. ولو لم يمنعه النُدل، لكان قد قتل الثلاثة في ذلك الوقت. في نهاية المطاف، تلقى اثنان منهم طعنات في الظهر، في حين تعرض الثالث إلى جرح بليغ في يده، فرفعوا دعوى ضده، وأمر القاضي- الذي كان شخصاً عقلانيًّا- بحبس عارف لمدة شهرين. لم تكن المدة طويلة، لكن "عارف" أمعن التفكير في الأمر داخل السجن وقرّر أن يبيع المكان. أخبرنا- أنا، ومحسن من المجلس المحلي، وأيهان الحلاق- عن قراره فيما كنا نحتسي معاً بضع كؤوس من الشراب في نُزل أغورا؛ قبل إغلاقه طبعاً. قال وهو منـزعج تماماً؛ كما لو أنه قد فعل ذلك حقاً: "ماذا كان سيحصل لو أنني قتلت أحدهم؟ كان ذلك سيسبب لي خزياً كبيراً. الأولاد المساكين لديهم أسر أيضاً، وآباء وأمهات يحبونهم. وماذا لو قتلوني؟ فكّروا في هذا. لدي أسرتي، وولدان أعيلهما؛ لا يزال أحدهما في المدرسة الابتدائية. لا أيها الرجال، لم يعد بمقدوري القيام بهذا، وليفعل المولى القدير ما يشاء، لكنني لن أمضي قدماً في هذا فقد اكتفيت". وهذا ما كان، لكنه يدير الآن مطعماً ومقهى صغيراً للعمّال المحليين، ولا يجني أموالاً طائلة وإنما ما يكفيه ليؤمن قوته وقوت عائلته كما يقول. لا أعرف إن كان سعيداً، لكنه يبدو قانعاً.

تركت "عارف" وخرجت من المكان. كنت أفتح باب السيارة حين ربّت شخص ما على كتفي برغيف خبز طازج، وتبين لي أنه عارف.

"نسيت الخبز أيها المدير، وأنا نسيت أمره وسط كل ذلك الصخب. آسف بشأن هذا".

شكرته، وركبت في السيارة ثم انطلقت بها، ووصلت بعد بضع دقائق إلى تلك الأحياء المتواضعة التي استطاعت أن تقاوم عوامل الزمن؛ إلى المكان الذي أدعوه بيتاً. رأيت الكلب بختيار هناك، وجسده المكسو بالفرو ممدد على البساط الطري، فيما كان يحدّق بعيداً كالمعتاد. تثاءب بتكاسل حين رآني ونهض؛ منـزعجاً تقريباً لأنني وصلت وأفسدت غفوته. وبينما كنت أغلق باب السيارة، اقترب مني بتمهّل، ودفع خطمه الضخم إلى الأمام، وشمّ رائحة الخبز في يدي. بدا المخلوق المسكين جائعاً. كان يتوجب عليّ أن أطلب من عارف بعض العظام حين كنت هناك لكنني نسيت، لذا قسمت قطعة من رغيف الخبز وقدّمتها له. لم يكن عادة يأكل أي شيء عاديّ- فقد أفسدته محبة السكان المحليين وعطفهم عليه، وحوّلاه إلى ما يشبه كلب بودل الطبقة المخملية الذي يترفّع عن كل ما ليس فاخراً- لكنه قفز هذه المرة إلى الأعلى، والتقط قطعة الخبز، ثم ابتلعها بسرعة. لحسن الحظ، لم أكن أنا أو يفغينا نأكل الكثير من الخبز أو نرى خطباً في مشاركة الرغيف مع كلب محبوب. بدا بختيار قانعاً بتلك الكسرة من الخبز، وتنحّى جانباً ليسمح لي بالدخول.

كان أول ما لاحظته حين دخلت المنـزل شيئاً بقي مفقوداً فيه طوال سنوات: رائحة الطهي المنـزلي. بقيت متسمراً في مكاني، مستمتعاً برائحة الطعام، حتى سمعت صوتاً يصدر من الداخل.

"نوزت، هل هذا أنت؟". كان الصوت رخيماً ومحباً؛ صوت امرأة تنتظر مجيء زوجها إلى المنـزل، صوت زوجتي الذي لا يُنسى... صوتاً لن أسمعه مجدداً أبداً. وكانت آيسون تخرج فرحة من تلك الغرفة في الزاوية وهي تجري لتعانقني وتمطرني بالقبلات؛ آيسون ابنتي الحبيبة...

شعرت بغصّة في حلقي. ومرة أخرى خرج ذلك الأسى الذي لم أتمكّن من التخلص منه طوال كل تلك السنين إلى السطح. أحسست بألم في جانبـي الأيسر، بجانب قلبـي، وبدأ رأسي يدور، وظننت أنني سأقع، فاستندت إلى الباب الذي كنت قد أغلقته للتو. بدأت الألوان في الغرفة- الصور على الجدار، أغطية الأرائك الخضراء الداكنة، الطاولة التي صنعها والدي بيديه، السجادة العتيقة على الأرضية- تمتزج ببعضها، وزاغ نظري. ما الذي يحدث لي؟ شرعت في البكاء؛ غافلاً تقريباً عن الدموع التي راحت تسيل على وجهي، وتبين أن الجرح الذي ظننت أنه شُفي قد فُتح مجدداً.

لا، لم أنسهما ولن أفعل أبداً. لم تكونا زوجتي وابنتي فحسب، وإنما شخصين بريئين أيضاً لقيا حتفهما على نحو همجي ووحشي ومروّع في

انفجار قنبلة أُعدّت لتنفجر بـي. ولو أن شخصاً ما كان يجب أن يموت في ذلك اليوم، فهو أنا... لكن سلسلة الأحداث تلك غير المتوقعة، أو التي لا يمكن تفسيرها أو سبر أغوارها، والتي تدعى المصير - أو القضاء والقدر، أو التدبير الإلهي، أياً تكن التسمية التي تريد إطلاقها عليها- لا تجري وفقاً لآمال المرء ورغباته.

لم يكن بمقدوري البقاء على تلك الحال، أو أن أفعل هذا بيفغينا أو نفسي. لم تكن غوزيد أو آيسون سترغبان في أن أفعل هذا بنفسي... أليس كذلك؟ لا أدري. لكن، لم تكن هناك فائدة أيضاً في أن أعذّب نفسي على هذا النحو، والأمر واضح للجميع. الألم، الظلام، الظلم القاسي، وخزات الضمير؛ كلها أكثر من أن تُحتمل، ولهذا السبب كانت يفغينا مترددة جداً في المجيء إلى منـزلي، وقد سألتني عدّة مرات إن كنت واثقاً بذلك تماماً. كانت المرأة تعرفني أكثر مما أعرف نفسي.

كنت بحاجة إلى أن أستجمع شتات نفسي، وبسرعة؛ لأن يفغينا ستصل بعد ساعة. تركت مسدسي وقرابـي والخبز على الطاولة في ردهة المدخل، وذهبت إلى الحمّام في الطابق الأسفل لأغسل يديَّ ووجهي، وأنا عاقدُ العزم على وضع حدٍّ لذلك الهراء، وعلى انتشال نفسي من الحضيض فوراً. لكن، عندما نظرت إلى المرآة في الحمّام، اكتشفت أن كل تصميمي قد اختفى. كان الشرطي الهادئ والحصيف والجدّي، الذي استجوب ليلى باركين وضيّق الخناق على نامق قرمان قبل بضع ساعات فقط، المفتش الواثق بنفسه، وسريع البديهة الذي اعتاد على إصدار الأوامر في مقرّ الشرطة، الرجل الذي لم يفقد رباطة جأشه مطلقاً ويسيطر على نفسه دائماً قد استُعيض عنه بشخصٍ متعب ويائس ومثير للشفقة؛ عيناه غائرتان وكتفاه منحنيتان، رجلٍ لا يستطيع التخلص من الماضي، ويعاني أسىً مزمناً وعضالاً، في حين يستطيع أن يكون شخصاً يملأ الفرح قلبه. كان بائساً جداً، ذلك الرجل الذي رأيته على صفحة المرآة، ويُرثى له، ما جعل عينيّ تفيضان بالدموع مجدداً.

كان الألم الناجم عن فقداني زوجتي وابنتي، الألم الذي بقيت أكافحه سنوات قد أفلت من عقاله، ويحاول السيطرة على ذهني وجسدي، وليس على قلبـي الحزين فقط. إذا استسلمت له فسأتهاوى. إذا تخلّيت عن المقاومة، فسيكون ذلك تصرّفاً جائراً بالنسبة إليّ وإلى يفغينا. فتحت الصنبور، ووضعت يديَّ تحت الماء البارد مثل الجليد، ثم رشّشت الماء على وجهي، فانتابني إحساس جيد؛ وكأن ريحاً جليدية عاتية تلفح وجهي المحترق. فعلت ذلك مرة ثانية ثم ثالثة، لكن ذلك لم يكن كافياً، واحتجت إلى

المزيد، لذا، وضعت رأسي تحت الصنبور وبقيت ساكناً من دون حراك، وتركت الماء يغسل الألم والأسى اللذين تغلغلا إلى أعماق جلدي وخلاياي، وصولاً إلى روحي.

النار التي تلتهم كل شيء

لم يُزِل الماء شيئاً، وكنت لا أزال أشعر بأنفاس الموت. ولو أن يفغينا رأتني الآن لعرفت فوراً ما الخطب. ذهبت إلى الطابق الأعلى، وجففت نفسي، ثم بدّلت ثيابي وتناولت جرعة من قارورة شراب كنت أحتفظ بها في ذلك المكان، فبدأت أحس بأنني أفضل حالاً فيما كان دفؤها الناري يسري في عروقي ويصل إلى دمي. جررت نفسي إلى حجرة الجلوس، وكان الجو غسقاً في الخارج، وضوء مصابيح الإنارة الذي يسقط على السجادة في الغرفة متعة للعين. ومن دون أن أتجشم عناء إلقاء نظرة على طاولة العشاء التي قدّم عليها عارف طيّباته، استرخيت على الكرسي ذي الذراعين بجانب النافذة، وارتشفت ببطء كأساً من الشراب تحت الضوء الخافت.

بدا طعم الشراب لذيذاً. ومع كل رشفة ازددت استرخاء، وشعرت بالتعب والإرهاق يتلاشيان. تمكّنت من رؤية المداخن المتداعية، والأسقف المتصدّعة، والجدران الباهتة والمقشّرة لمنازل جيراني عبر النافذة المفتوحة. كان هذا غريباً، فأنا عادة لا أحب التحديق إلى منظر قبيح، لكنني شعرت بالسكينة حين نظرت إلى تلك المباني البسيطة والمتواضعة، وإلى أولئك القوم البسطاء والمتواضعين تحت السماء الحالكة، الذين يقبلون بصبر كل المشاق التي تصبُّها الحياة عليهم. جعلتني مشاهدتهم أدرك أن الحياة صعبة. استرخيت على الكرسي إلى الخلف، وارتشفت القليل من الشراب، وأنا أراقب الظلام ينتشر شيئاً فشيئاً؛ حتى نبّهني رنين ساعة عتيقة كنت قد ورثتها عن والدي إلى أن يفغينا على وشك أن تصل. كان يجب عليّ أن أستجمع قواي، وإذا لم أتمكّن من ذلك، ينبغي أن أظهر متماسكاً على الأقلّ. أول شيء فعلته هو إسدال الستائر؛ لأنه بغض النظر عن الراحة التي يجلبها ذلك المنظر لي شخصياً، لم أرغب في أن ترى يفغينا ذاك المنظر المكئب. وعندما أنرت الغرفة، دُهشت من براعة عارف أسطه.

كانت المائدة رائعة، وتمتلئ بكل ما لذّ وطاب. عندما أكّد لي عارف في وقت سابق أن ضيوفي سيُعجبون حقاً بالمأدبة التي حضّرها- رغم أنه لم يكن يعرف هوية ضيوفي- ظننت حينها أنه يبالغ. لكنني عندما رأيت الطاولة المملوءة بسخاء، لم يسعني إلا إلغاء ما فكّرت فيه. لم يكن هناك شيء- بدءاً من الأواني الفخّارية وأدوات المائدة، ووصولاً إلى الكؤوس والمناديل- قد تُرك للمصادفة، وكل ما ينبغي لي فعله هو وضع السمك في الفرن، وتركه حتى ينضج وفقاً لإرشادات عارف؛ نصف ساعة لا أكثر. وفيما

كنت أفكّر في ما يجب أن أدفعه إلى عارف مقابل جهوده، فزعت من قرع على الباب. لقد وصلت، ولم يعد هناك مجال للتراجع، وبخوف- أم إنها الإثارة؟- سحبت نفساً عميقاً ثم فتحت الباب.

كانت واقفة عند الباب، وقد ارتدت كنـزة بيضاء وفستاناً. كانت تقف هناك حاملة باقة أزهار كبيرة، ومبتسمة بعصبية، والتردّد يبدو واضحاً في عينيها الخضراوين. ابتسمتُ لها ابتسامة واسعة، مدّعياً ألا شيء مما تعرّضت له آنفاً قد حدث فعلاً.

"يفغينا... أهلاً، أهلاً بك... تفضلي...".

تلاشت نظرة الشك من عينيها وردّت: "شكراً". لكنها لم تدخل. نظرت إلى الأسفل نحو بختيار. "إنه جميل يانوزت، هل هو لك؟".

لم يكن هناك شيء زائف في محبتها الفورية لبختيار، فهي دائماً أكثر صدقاً وانفتاحاً مني.

"أتعنين بختيار؟".

"بختيار! ياله من اسم جميل!".

قلتُ شاكراً بختيار في سري ألف مرة لمساعدته إياي على كسر الجليد: "إنه لي نوعاً ما، لكننا جميعاً نعتني به؛ أعني كل من في الحي".

ابتسمت ابتسامة رائعة مثل الأزهار التي تحملها في يدها.

"إنه ينظر إليك بافتتان". ظننت أنها ستدخل آنذاك، لكنها بقيت واقفة في الخارج تحت ضوء المصباح، واستدارت لتنظر إلى المشهد حولنا. "حيّكم رائع يانوزت. لم تبقَ أماكن كثيرة مماثلة له في إسطنبول".

"إنه جميل، والناس رائعون، وبغض النظر عن الوقت يمكننا دائماً أن نـزور بعضنا لتناول كأس من الشاي وتبادل أطراف الحديث".

قالت وهي تدخل أخيراً: "كانت كورتولوس منذ وقت قصير على هذه الحال. كان حينا هكذا قبل عشر سنوات فقط، لكن الآن لا يعرف أحدٌ جيرانه الذين يقيمون إلى جواره، فما بالك بأولئك في المبنى السكني المجاور".

عندما دخلت غرفة الجلوس، توقفت في المكان نفسه الذي غمرتني فيه مشاعر الأسى المفاجئة والعميقة، وظهر تعبير ألم تقريباً على وجهها.

"كنت أفكّر فحسب في المنـزل الذي امتلكه والدي في هيبليادا". ألقت نظرة طويلة ومتفحّصة في أرجاء المكان؛ على الأريكة الخضراء، والبساط الكردي الخمري، واللوحات على الجدار. "كان منـزلنا مثل هذا تماماً؛ منـزلاً حجريًّا من طابقين. كنا نقضي الصيف هناك". استدارت، فرأيت وميضاً في

عينيها. "منـزلك جميل يانوزت، ويلائمك تماماً".

كان يجب أن أقول لها إن المنـزل أجمل الآن بعد أن دخلته لكنني لم أفعل، وكل ما استطعت قوله هو "شكراً"، فلامست ذراعي بلطف.

قالت: "أنا من يجب أن تشكرك على دعوتك إياي".

"لنصعد إلى الطابق الأعلى، ولنلقِ نظرة على طاولة العشاء. لنرَ إن كنت ستحبين ما سترينه".

ردّت متشوّقة: "لمَ لا؟ كيف نصل إليها؟".

قلت متباهياً: "من هنا ياسيدتي، لقد حجزنا أفضل طاولة لدينا من أجلك".

كما هي العادة طبعاً، قبل أن تخطو الخطوة الثانية بدأت السلالم تصدر صريراً فتوترت.

عندها، قلتُ لها لاعباً دور المضيف المرح بامتياز: "لا تقلقي، إنها فقط طريقة السلالم في الترحيب بك".

شاركتني مزاحي وقالت: "حقاً؟! شكراً لك! إذاً، الأثاث في هذا المنـزل يمكن أن يتكلم، أليس كذلك؟".

كانت تجاريني، لكن ما لم تعرفه هو أن الأثاث في المنـزل يتكلم حقاً، فهو ما فتحت له قلبـي حين لقيت زوجتي وابنتي حتفهما، وما شاطرني ألمي وحزني وغضبـي، وأصغى بصبر إلى مأساتي، وأضحى شاهداً على بؤسي. تلك الدرجات، وأُطر النوافذ الخشبية، والستائر المزخرفة والمزيّنة، والساعة العتيقة، والبُسط، وخزانة الكتب الصغيرة، والأزهار في الزهريات؛ كلّها شعرت بالغضب الذي شعرت به، وبكت كما بكيت، وشتمت كما فعلت. وفي مناسبات نادرة، حين استطعت تحمّل ذلك الحزن الفظيع، ذلك الشعور الذي لا يُطاق بالذنب ولوم النفس، تحمّل المنـزل بكلّ ما فيه جزءاً من ذلك. لكن طبعاً، لم تكن هناك طريقة مناسبة لأشرح فيها أيًّا من ذلك ليفغينا.

قلت: "إنها تستطيع فعل ذلك حقاً. انظري إلى هذه السلالم مثلاً، فمن الممكن أن ترحّب بك بحرارة. وفي اللحظة التي تطأها فيها قدماك، تبدأ بالأنين والتأوه". وأشرت إلى الثريا فوقنا. "ثم إن تلك الجميلة في الأعلى، المزدانة بذلك اللون الأخضر، لا تشتكي أبداً، وعندما تنيرينها، تبتسم لك ابتسامة كبيرة ومتألقة".

"وماذا بالنسبة إلى هذه الصورة؟".

كانت الصورة قد التُقطت لابنتي حين فازت بالجائزة الثانية في

مسابقة مدرسية، فلم أتمكّن من الرد فوراً.

قلت وأنا أكافح لإخراج الكلمات: "تلك الصورة، إنها تقول إنه يوجد في هذا العالم ما هو أكثر من هذا المنـزل، وإن هناك عالماً خارج ذلك الباب الأمامي". عندما نطقت تلك الكلمات، بدأت مشاعر الذنب تعتمل في داخلي مرة أخرى. "لكنها تطلب مني أيضاً ألاّ أنسى أن هذا المنـزل جزء من العالم".

شعرت يفغينا بأنّ شيئاً ما ليس على ما يرام بسبب صوتي المرتعش، فضعفت ابتسامتها تدريجياً حتى اختفت، وتجهّم وجهها. انتظرت أن تسألني عمّن التقط الصورة، لكنها لم تفعل. وبدلاً من مواجهة القضية، اختارت أن تُخفي مشاعرها؛ تماماً كما فعلت أنا.

قالت وهي تشيح بصرها بعيداً: "نظرة فلسفية حقاً. أخبرني، هل تتكلم دائماً بمثل هذه الألغاز؟".

"نعم، هذه نظرة فيلسوف عجوز حقاً. يقرر الآخرون أحياناً الانضمام إليه في مناقشات فكرية عميقة، لكن لا يستطيع أيٌّ منهم التغلب عليه".

بدا أننا عالقان هناك. وبغض النظر عن الجهد الذي بذلته، لم أتمكن من العثور على الكلمات المناسبة، وأدركت أن يفغينا واقعة في الورطة نفسها. بالتأكيد، كانت تبتسم وتتأمل المكان حولها، لكنها في الواقع تواجه مشكلة. صعدنا على السلالم بصمت حتى وصلنا إلى المدخل العريض للطابق الأول الذي أستخدمه كحجرة جلوس بديلة. قالت محاولة أن تكسر جدار الصمت: "عجباً، هذا المكان مثل منـزل جدتي على الجزيرة. لا تقل لي إن الرجل نفسه هو الذي بنى المنـزلين؟". جعلتها الطريقة التي ترغم بها نفسها على أن تبدو مرحة تشبه ممثلة سيئة.

قلت بغباء: "ربما، عمر هذا المنـزل نحو سبعين سنة".

قالت وهي تعرف أن ما تتفوّه به سخيف، لكنها مضت قدماً على كل حال؛ لأنها تعلم أنه مفيد لنا: "مثل المنـزل على الجزيرة تماماً، عمره ستون أو سبعون عاماً. هل تعرف من بناه؟".

"لا أعرف لسوء الحظ، لكن والدي الراحل كان يعرف، أتمنى لو أنني سألته. هل تعرفين من بنى المنـزل على الجزيرة؟".

أجابت وهي مستغرقة في تفكير عميق في ما قد يُعتبَر أصعب سؤال في العالم: "لا أعرف اسمه، لكنه كان صديق جدّي؛ كان أرمينيًّا عجوزاً داكن البشرة. اعتاد جدّي القول إنه رجل عنيد، ومفاوض قاسٍ حقاً. فعلى الرغم من كونه صديق جدّي، إلا أنه طلب الثمن كاملاً، ولم يمنحه أي

تخفيض في السعر على الإطلاق".

أومأت موافقاً. "من يعرف؟ ربما كان الشخص نفسه".

كرّرت وهي تمشي نحو النافذة، حاملةً الأزهار: "من يعرف؟". كنت على وشك أن أمدَّ يدي وآخذ باقة الأزهار منها حين سألتني: "كيف يبدو المنظر من هنا؟".

لم أكن في الواقع أريدها أن تشاهد المنظر في الخارج، لكنني شعرت بالراحة لأنها بدأت بفتح الستائر؛ فقد كنت مستعداً للتحدث عن أي شيء، بغض النظر عن الموضوع، إن لم يكن متعلّقاً بزوجتي وابنتي. فإذا تكلمنا عنهما، فأنا أخشى أن أفقد السيطرة على نفسي وأبدأ بالبكاء. أحسّت يفغينا بذلك، وبذلت قصارى جهدها لتكون مصدر عون؛ ليس لي فقط وإنما لنفسها أيضاً. أخمّن أنها شعرت بأنها اقترفت خطأ جسيماً بالمجيء؛ حتى قبل أن ترنَّ الجرس، لكنْ لم يكن لديها سبيل للتراجع آنذاك. كانت هي أيضاً قد اختارت إخفاء مشاعرها. لكن، إلى متى تستطيع أن تفعل هذا؟

قالت محافظة على ادّعائها: "البحر بعيد قليلاً. يمكن رؤية الميناء من حجرة الجلوس في المنـزل على الجزيرة، وينتابك شعور بأن المياه سترتطم بقدميك. كان عليَّ أن أحجب أشعة الشمس عن عينيّ في أثناء النهار، وضوء القمر في الليل. هذا منظر جميل، بطريقته الخاصة. لا أعرف السبب، لكن تبدو تلك الجدران والأسقف المتداعية والمداخن القديمة المسودّة، خاصة في المساء، مبهجة جداً".

"لن تصدّقيني، لكنني كنت أفكّر في الشيء نفسه تماماً قبل أن تأتي. المنظر فاتن حقاً، بطريقته الخاصة".

سحَبت الستائر، ثم استدارت وقالت بابتسامة شخص لا يخدعه الرياء: "ربما ما ننظر إليه ليس هو المهمّ، وإنما ما يثيره فينا". شعرتُ - لجزء من الثانية - بألفة كبيرة بيننا؛ حتى ظننت أنها ستأتي وتعانقني. لكنها لم تفعل، وبدلاً من ذلك مدّت يدها إليّ بالأزهار.

"أين يجب أن نضع هذه؟".

قلت وأنا أمدُّ يدي وأتناولها منها: "في المطبخ. سأذهب وأضعها في زهرية جميلة".

قالت حين اتجهتُ إلى المطبخ: "إذا كان هناك شيء يمكنني فعله...".

"لا شكراً. كل شيء جاهز، البيت بيتك". تذكرت بعد أن مشيت بضع خطوات مشغّل الأسطوانات فقلت لها: "يوجد مشغّل أسطوانات قديم لا يزال يعمل إلى اليمين، ويجب أن تكون هناك بعض الأسطوانات بجانبه.

ألقي نظرة عليها، وإذا أعجبك أيّ منها فشغّليه".

"مشغّل أسطوانات؟! آه، ها هو، لقد وجدته. ياه، لم أستمع إلى أسطوانة منذ وقت طويل!".

تركت يفغينا مع التسجيلات القديمة وذهبت إلى المطبخ لأعثر على زهرية. بدا رائعاً أن تكون هناك بعض الأزهار في منـزل افتقر إليها طوال سنوات آنذاك. لم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً، ووجدت زهرية بيضاء كنت قد اشتريتها لغوزيد قبل سنوات عديدة على الرف الثاني في إحدى الخزائن، وكانت مغطاة بالغبار، لذا وضعتها تحت المياه المتدفقة من الصنبور ونظّفتها. وعندما كنت أملأها بالماء، سمعت صوت مزيّن سينار [8] الرائع يصل إلى مسمعي من حجرة الجلوس:

زرت كل فنادق إسطنبول وخاناتها هذا المساء/ باحثاً عنك في العلامات التي تتركها الشفاه على الكؤوس/ أريد أن أشرب وأتحرّر من تلك القيود...

تمنيت لو أنها اختارت أغنية أكثر بهجة... وضعت الأزهار في الزهرية، ثم عدت إلى حجرة الجلوس، حيث رأيت يفغينا جالسة على الكرسي بجانب مشغّل الأسطوانات، وهي تقلّب بعضها.

"لقد اخترت أغنية أخرى، وهي لمزيّن أيضاً: النار التي تلتهم كل شيء . ما رأيك بهذه التي نسمعها؟".

"ستكون رائعة لو أنها أقل كآبة".

ردّت، وقد بدت نظرة حزن في عينيها: "إنها ليست كئيبة مثل الحياة نفسها ياعزيزي نوزت".

"صحيح. لكن، إذا استطعنا البقاء بعيدين عن مثل هذه المواضيع هذا المساء فسيكون هذا أفضل". نظرت إليّ؛ وكأنها تسألني إن كان ذلك ممكناً. "ما رأيك بأن نأكل؟".

استرخت قليلاً وقبلت عرضي، ثم سلكت طريقها نحو الطاولة، لكنها توقفت بعد بضع خطوات فقط.

"ما كل هذا يانوزت؟".

قلت غير مبالٍ: "مقبّلات، لماذا؟ ألم ترتقِ إلى مستوى توقعاتك؟".

"توقعاتي؟! نوزت، هذا رائع ومدهش تماماً! انظر إلى كل هذا! قاروس بحري متبّل، إسقمري... كيف فعلت كلّ هذا؟". وبدأت تعدّد الأطباق الأخرى حتى قبل أن أجيب. "بيض سمك، فاصولياء عريضة، حيدري [9] ، أرضي شوكي... ما كل هذا يانوزت؟ إمامبايليدي [10] ، سبانغ، أشنان... وما

هذا؟". سألتْ وهي تشير إلى طبق لم أتمكن من تعرّفه أنا أيضاً، ثم تذوّقَتِ القليل منه بشوكة وقالت: "مهلاً، لا تخبرني. همم، لنرَ... أعرف هذا! إنه زعتر، أليس كذلك؟! هذا صحيح، زعتر! الناس يحبون هذا في أنطاكيا. إنّه لذيذ جداً. ليس لدينا منه في تاتافلا! كيف حضّرت كل هذا؟".

كانت أكثر استرخاءً آنذاك، وساعدتني رؤيتها على تلك الحال في التغلّب على توتري.

قلت متباهياً: "انتظري حتى تتذوقي القاروس البحري، ثم سأطلعك على السر".

"من أين حصلت عليه؟".

"أرسله لي بعض الأصدقاء من فتحية. إنّ هذا النوع من الأسماك وحش من البحر المتوسط يزن خمسة أرطال".

"صدقاً يا نوزت، من حضّر كل هذا؟".

حان دوري لأعترف بالحقيقة؛ لكنني قرّرت أن أفعل ذلك كما يحلو لي.

قلت وأنا أضع الزهرية على إحدى الطاولات الصغيرة: "انتظري قليلاً، دعيني أضع هذه أولاً". كانت يفغينا لا تزال واقفة، وهي تراقب كل حركاتي. "لماذا لا تجلسين يا يفغينا؟".

سألت بتردد حين رأت الكراسي الأربعة حول الطاولة: "أين بالضبط تريد مني الجلوس؟".

"أينما تريدين، لن يكون هناك أحد غيرنا، فقط نحن الاثنان".

قرّرت أن تجلس على الكرسي الأقرب إلى النافذة، وجلستُ قبالتها.

قالت بنفاد صبر: "إذاً، أخبرني الحقيقة يا كبير المفتشين، من حضّر كل هذه الطيبات الشهية؟".

"هل ستصدّقينني إن قلت لك إنني أنا من فعل ذلك؟". هزّت رأسها ضاحكة. "في هذه الحال، سأخبرك إن ملأت هاتين الكأسين".

ابتسمت بمكر فيما كانت تمد يدها إلى إبريق الشراب، وقالت: "أعرف أنك لم تحضّر هذه المقبلات. ماذا عن قاروس البحر؟ هل هو من إعدادك؟".

"لا لسوء الحظ. لا أعرف شيئاً عن الطهي. حضّر صديق لي كلّ هذا؛ المازة، والسمك، وكل شيء آخر".

قالت وهي تسكب الشراب في كأسي: "وطلب منك أن تطهو السمك على درجة حرارة منخفضة، ولمدّة لا تزيد على نصف ساعة، أليس كذلك؟".

"بالضبط، هذا ما قاله، بالحرف الواحد".

سألت وهي تسكب لنفسها كأساً: "ومن هو هذا الصديق؟".

"اسمه عارف أسطه، وهو يعمل في مجالك نفسه؛ مثلك في الواقع، وجاء من تكيرداغ".

كرّرت وهي تعيد الإبريق الزجاجي إلى مكانه على الطاولة: "عارف أسطه؟ لا يبدو الاسم مألوفاً".

"ترك العمل في المطاعم منذ وقت طويل، لكنه يعرف والدك، ويتكلم بالحسنى دائماً عن خانك".

قالت وهي تتورد فخراً قبل أن تصبّ لي بعض الماء في كأسي: "أحضره معك في المرة القادمة حين تأتي إلى تاتافلا، وسنقدم له بعض المازة التي نعدّها لكي يستمتع بها".

قلت وأنا أرفع كأسي: "هذا تحية لك لكونكِ هنا. إنه من أجلك". أعادت كأسها إلى الخلف حين أوشكتُ أن أمسّها بكأسي.

قالت ونظرة تحدٍّ جريئة على وجهها: "لا يانوزت، إنّه ليس نخبي، وإنما نخب غوزيد وآيسون". ورنّت كأسها حين لامست كأسي. "من أجل زوجتك وابنتك".

دُهشت وانعقد لساني.

جلست هناك عاجزاً عن الحركة، من دون أن أتمكن من أن أنبس بكلمة. لقد شعرَتْ بما مررت به في اللحظة التي رأتني فيها عند الباب الأمامي، لكنها بدلاً من أن تواجهني بذلك، اختارت أن تنتظر الوقت المناسب لتتحدث عن المسألة، لكنني لم أكن مستعداً.

توقفت يدها في منتصف الطريق إلى فمها حين لاحظت أنني لم أشرب.

"لماذا لا تشرب نخب ذكراهما يانوزت؟ لماذا لا تتكلم عنهما؟". بقيت واجماً. "إنهما لا تزالان جزءاً من حياتك، جزءاً منك، وهما اللتان تجعلانك ما أنت عليه. إن ذكراهما وحضورهما هما اللذان جعلاك شخصاً رائعاً. والألم الذي تشعر به يجعلك ببساطة رجلاً أقوى. أنا لم أرك مستقلاً عنهما قطّ، ولن أحلم إطلاقاً بمثل هذا الشيء. لقد كانتا دائماً هنا، وهما هنا معنا الآن. هما عزيزتان عليّ؛ تماماً مثلما هما عزيزتان عليك. ألا تفهم هذا يانوزت؟ لقد أحببتهما دائماً كما أحبّك".

عندما كانت تتكلم، أدركت أن الشخص الوحيد الذي يصبح أقوى وأكثر روعة هو يفغينا نفسها.

تمتمت على نحو يثير الشفقة: "أعرف، أعرف، أعرف. الأمر لا يتعلق بك... أنتِ لست المشكلة".

قالت وعيناها تحدّقان إلي: "من إذاً؟ من المشكلة؟ أنت لم تخنهما يانوزت. كل ما فعلناه هو أن يعتني أحدنا بالآخر، ولا خطب في هذا. لم نقترف أي إثم، أو نكذب على أحد. أنا واثقة بأنهما تريدان أن تكون سعيداً أيضاً، فلماذا الشعور بالذنب؟".

لم أتمكن من النظر إلى عينيها، وجلست هناك محدّقاً إلى يديَّ على الطاولة كما لو أنهما شيء غريب.

كرّرت بائساً: "لا أعرف. ربما لأنني لم أستطع العثور على الشخص الذي قتلهما، وربما لأنني الشخص الذي كان يجب أن يلقى حتفه، وربما لأنني لم أتمكّن من إنقاذهما...". رفعت بصري متوسلاً بعض المساعدة؛ بعض التفهم. "الأمر قاسٍ يايفغينا. صدّقيني، أريد ألاّ أشعر بهذا الذنب، لكن لا يمكنني ببساطة التخلص منه. نعم، لم أكن مرتاحاً لمجيئك إلى هنا الليلة، لكنني في الوقت نفسه بأمسِّ الحاجة إلى مجيئك. لم أكن منصفاً معك، أعرف هذا، وأُقرُّ به".

قالت بعناد: "لا! أنت لم تظلم أحداً باستثناء نفسك، ولا حاجة إلى ذلك بكل تأكيد. لا تحاول إبعاد ذكرى زوجتك وابنتك عني. نستطيع نحن الأربعة أن نكون معاً، وهما من أسباب حبي لك منذ البداية".

أشحت ببصري بعيداً حتى لا ترى الدموع في عيني.

كانت كلمة شكراً قلتها بصوت ضعيف كل ما استطعت التفوّه به، ثم أطبق الصمت لبعض الوقت قبل أن أتابع. "أنت إنسانة رائعة. لا أعرف حقًّا ماذا يجب أن أفعل، ولا أدري ببساطة كيف أتخلص من هذا الهم، وأخرج من هذه المتاهة. لا أدري ماذا يجب أن أفعل، أنا أحمق".

قالت وهي تمسك يديَّ بيديها: "لا، لست كذلك. أنا لا أعرف ما ينبغي لي فعله أيضاً، ولا أعرف أحداً يعرف. لكن، ربما يمكننا أن نبدأ مجدّداً بأن نرفع كأسينا ونشرب نخب غوزيد وآيسون".

استدرت لأنظر إليها، فرأيت عينيها تفيضان بالدموع أيضاً، لكنها حبستها ورفعت كأسها.

"نخب زوجتك وابنتك، نخب اللتين جعلتاك ما أنت عليه".

رفعت كأسي.

"نخب غوزيد وآيسون...". كانت دموعنا تسيل، لكنني تمكنت من جعل كأسي تلامس كأسها، واستطعت إخراج الكلمات. "نخب زوجتي وابنتي

الراحلتين والرائعتين...".

وبينما كنا نرتشف شرابنا، تغيّرت الأغنية. مرة أخرى، ملأ صوت مزيّن سينار الحزين الغرفة:

أنا أحترق في النار، من دون رماد، من دون دخان/ إذا لم أحصل عليكِ، فلن يكون لدي مكان أذهب إليه، أو منـزل، أو بيت؛ لا شيء...

أحمق عاطفي

انقضت الأمسية سريعاً، ولم تمضِ يفغينا الليلة في منـزلي؛ إذ لم أكن مستعداً لذلك، ولا أظن أنها أرادت هذا أيضاً، لكن مجيئها إلى العشاء مثّل خطوة مهمة بحد ذاته.

استرخى كلانا قليلاً بعد أن شربنا نخب غوزيد وآيسون، وأخبرتها كيف التقيت غوزيد، كما أخبرتها عن ولادة آيسون، والمشاق التي واجهناها حين عُيّنت في وظيفة خارج إسطنبول، وصعوبات الانتقال، والمشكلة التي عانيتها في الانسجام مع الحياة في الريف بعيداً عن المدينة. أرهفت السمع بصبر، وعندما سألَتْ أجبت عن أسئلتها بصدق وصراحة؛ حريصاً على ألاّ أغفل أي تفاصيل. عندما يتكلم الرجل عن زوجته السابقة مع محبوبته، يجب أن يتوقع حصول توتر بينهما، لكنْ لا شيء من هذا القبيل حصل بيننا حين تحدّثت عن غوزيد؛ فهي لم تحكم علي أو تتجهم، كما أنني لم أشعر بالغرابة عندما تكلمت معها عن زوجتي الراحلة. ربما لم تكن علاقتنا علاقة عادية بين رجل وامرأة، وإنما صداقة حقيقية. يقال إن الصداقة تنتقص من الحب وتدمّر الشغف في العلاقة، لكن الناس الذين يقولون هذا لم يعرفوا مطلقاً شخصاً مثل يفغينا؛ وقد أبقت حماستها وحبها المخلص لي وتعلّقها بالحياة علاقتنا قوية وحبنا حياً. وفعلاً، بدّدت نفحة الهواء المنعشة التي أحضرتها معها الألمَ؛ ذاك الألم المبرّح الناجم عن القلق من الماضي، والذكريات التي تتسلل إلى قلب المرء وذهنه، وتخمد نشاطه، ولا تجلب معها سوى الأسى والحزن. منحتني يفغينا القوة لأستعيد ثقتي بالحياة وكل ما تقدّمه لي.

هذا ما حدث الليلة. وعلى الرغم من أنني لم أكن متحرراً تماماً من الشعور بالأسى المتجذّر والقاسي ذاك، إلا أن الوجبة التي بدأت بمثل ذلك التردد والتوتر تحوّلت في نهاية المطاف، بمساعدة الشراب، وأغنيات مزيّن سينار الرائعة، وطيّبات عارف أسطه الشهية، والسمك الذي طهته يفغينا بنفسها، إلى طقس عتق قرّبنا من بعضنا أكثر.

غسلت يفغينا أدوات المائدة، رغم اعتراضي، وتركتني أجفّف الأطباق. عرَفتْ أنني أواجه دوّامة من العواطف، لكنها تظاهرت بأنها لا تلاحظ. وعندما غادرنا، كان الليل قد انتصف تقريباً، وشعرَتْ بالسعادة حين رفضتُ بغضب اقتراحها أن تطلب سيارة أجرة لتقلّها إلى المنـزل؛ رغم إصرارها. قالت دائماً: "أسوأ شيء في العالم أن تكون مديناً لشخص ما يانوزت، خاصة

حين يكون حبيبك". رافقتها إلى الرينو القديمة المتهالكة، وبدا أنها تستمتع بكل لحظة. ورغم عدم إقرارها بذلك، إلا أنها أحبت أن تكون موضع اهتمام.

عندما أدرت المفتاح في مقبس التشغيل، غصّت السيارة وتوقف المحرك عن العمل، لكنه نبض بالحياة أخيراً؛ قبل أن يُسبب لي أي إحراج حقيقي لحسن الحظ. ربتُّ على المقود بعطف، ثم عشّقت التروس وضغطت برفق على دوّاسة الوقود، فانطلقت السيارة إلى الشارع المقفر، ويفغينا تراقبني وأنا أقود.

سألتْ: "أنت متعلّق جداً بمقتنياتك القديمة، أليس كذلك؟".

رددتُ، وعيناي ثابتتان على الطريق: "بالتأكيد، كهذه السيارة مثلاً. هناك عروة غامضة تقريباً بيننا".

قالت وعيناها على الطريق أيضاً: "أعرف هذا الشعور. كانت لدينا جارة في كورتولوس تدعى السيدة بينلوبـي انتقلت إلى سالونيك قبل خمس سنوات. لم يبقَ لديها أحد، فقد انتقل كل أولادها إلى اليونان واستقروا هناك، وأصبحت عجوزاً. ولو أنها بقيت هناك، لانتهى بها الأمر وهي تحتضر في المستشفى اليوناني، لذا أقنعها أولادها بالعودة إليهم. قالت: سأغادر وطني، لكنني على الأقل سأموت وأنا أعرف أن أولادي إلى جانبـي. ذهبنا جميعاً لنودّعها في يوم رحيلها. مسكينة السيدة بينلوبـي، فقد بدت مذهولة وهي تتجول في أرجاء المنـزل للمرة الأخيرة، وتلامس الأثاث وتربت عليه: الزهريات، والكراسي، والمرايا، والخزائن... وتبكي طوال الوقت؛ وكأنها تترك جزءاً منها خلفها. قلت لها حينها: لا تنـزعجي ياسيدة بينلوبـي، ستكونين مع أسرتك وأولادك . فأجابتني: لست منـزعجة، أنا حزينة بشأن هذا الأثاث. ماذا سيفعل بعد أن أغادر؟ ظننت حينها أنها تتداعى تحت وطأة إجهاد الانتقال فقلت: لكنها ليست سوى أشياء، ولا يمكنها أن تشعر بأي شيء . فأجابتني غاضبة: لا يمكن أن تشعر بأي شيء؟! أهذا ما تظنينه أيتها الشابة؟ كانت هذه المقتنيات والأثاث أسرة لي أكثر مما يدّعي أقاربـي من البشر. على الأقل، لقد بقيت معي، وهذا ما لم يفعله أولادي. فكيف يمكن أن تكون من دون أحاسيس؟ إذا أصغيتِ جيداً، فستسمعينها وهي تبكي حزناً على فراقي. وإذا لم تستطيعي سماعها، فتلك مشكلتك، لا مشكلتي . لم يكن هناك شيء يمكنني قوله، لذا مشيت مبتعدة عنها وتركتها تقضي لحظاتها القليلة الأخيرة مع تلك المقتنيات التي أمضت حياتها كلها معها".

كنت أعرف تماماً ما قد مرّت به السيدة بينلوبـي. "من الطبيعي بالنسبة إلى شخص يعيش وحيداً أن يشعر بمثل هذه الأحاسيس". تنهّدت. "أن يكون المرء وحيداً، من دون شخص آخر يشاطره الحياة، أمر فظيع يا يفغينا".

"إذاً، أنت تظن أنك وحيد؟".

لم يكن هناك تفاجؤ أو سخرية في صوتها. لم أُجب لكنها عرفت ما كنت أفكّر فيه.

"لا أصدّق هذا يا نوزت! أنت لست وحيداً، أنا إلى جانبك وعلي وزينب أيضاً".

لو أخبرتها عمّا كان يجول في خاطري في تلك اللحظات فعلاً لكانت قد شعرت بالإساءة، أو لحصل ما هو أسوأ، فلربما ظنّت أنني أفقد عقلي مثل السيدة بينلوبـي، لذا كذبت. "أعرف أنكِ إلى جانبـي. أنا لا أتكلم مع الأثاث أو أفعل شيئاً من هذا القبيل. كنت أقول فقط إنني أعرف ما تمرّ به السيدة بينلوبـي. ليس من السهل أن يفقد المرء أشياء كانت جزءاً من تجارب عديدة، وذكريات كثيرة. خذي هذه السيارة على سبيل المثال، لقد خضنا الكثير معاً، لكنها على وشك أن تنهار تماماً، حتى إذا لم أستطع أن أتخلّى عنها، فستتخلّى عني في النهاية".

عانقتني.

"أنت عجوز أحمق وعاطفي، أليس كذلك يا نوزت؟".

قلت بحدّة، متظاهراً بأنني غضبت: "هل من خطب في هذا؟".

ردّت: "لا، على الإطلاق. في الواقع، هذا مغرٍ قليلاً، لكنني لا أزال لا أفهم الأمر. هل ستنـزعج حقاً إن اضطررت إلى التخلّي عن هذه السيارة؟".

"لست واثقاً. ربما سأشعر بالانـزعاج؛ قليلاً. فكما تعرفين، يعتاد المرء على الأشياء. في الصباح، نستيقظ...". قاطعتني بتحذير مفاجئ.

"انتبه يا نوزت، هناك شيء ما على الطريق. يبدو حيواناً من نوعٍ ما".

رأيت على بعد أربعة أمتار أو خمسة أمامنا شيئاً كبيراً أسود يستلقي في وسط الطريق. أدرت المقود إلى اليمين بسرعة وأوقفت السيارة. لحسن الحظ، استجابت السيارة وتوقفنا في الوقت المناسب تماماً، وإلا كنا سنقضي عليه. سحبتُ المكابح اليدوية وخرجت من السيارة.

قلت ليفغينا: "ابقي في السيارة إن أردت".

قالت وهي تحدّق إلى الخارج نحو ذلك الشيء: "لا تكن سخيفاً، ربما يكون في ورطة".

خرجنا معاً ومشينا نحو ذاك الشكل، وسمعنا صوتاً خافتاً مثل أنين يصدر عنه. لم يكن إنساناً، وتعرّفته في اللحظة التي اقتربت منه فيها بما فيه الكفاية.

صرخت: "إنه بختيار! بختيار كلبنا! ماذا حدث هنا بحق الله؟".

كان المخلوق المسكين يتألم ويتنفس بصعوبة. حاول أن ينهض حين رآنا لكنه لم يتمكّن من فعل ذلك وبقي مستلقياً هناك وهو يئن. في بادئ الأمر، لم أعرف ماذا يجب أن أفعل، وتجوّلت في المكان محاولاً أن أفهم ما حدث.

"يبدو أن سيارة قد صدمته. هل جُرح؟".

قالت يفغينا وهي تشير إلى قائمتيه اللتين لا يستطيع تحريكهما: "انظر إلى قائمتيه. يبدو أن كلتيهما قد كُسرتا. يوجد دم هنا أيضاً".

كانت محقّة. بدا أن بختيار يحاول الوصول إلى كفّيه بلسانه لكنه لا يستطيع ذلك ويتلوّى ألماً.

"ماذا سنفعل يانوزت؟ هل نأخذه إلى المنـزل؟".

خطرت لي فكرة أفضل. "لا، لنأخذه إلى ديمير، وسيلقي نظرة عليه".

شغّلت محرك السيارة، وقدتها إلى بختيار ثم أخرجت بطانية من الصندوق.

"هيا، لننقله إلى السيارة بعد أن نمدّده على هذه".

مددنا البطانية أمامه وبدأنا نجرّه إليها، وكانت كل حركة نقوم بها تزيد ألمه، فحاول أن يبتعد عنها. ولو لم تكن يفغينا برفقتي، لكان نقله إلى السيارة كابوساً. ولكن، بعد جهد ومشقّة استطعنا وضعه على المقعد الخلفي.

قالت يفغينا: "سأجلس بجانبه. إذا استخدمت المكابح، فسأمسك به وأحول دون سقوطه. يا له من مسكين!".

"فكرة جيدة. عيادة ديمير ليست بعيدة، وهي عند الزاوية على بعد شارعين فقط".

قالت حين ركبنا السيارة: "من هو ديمير هذا؟ أهو طبيب أو شيء من هذا القبيل؟".

قلت وأنا أشغل المحرك: "بل أفضل، إنه طبيب بيطري".

"إنه من نحتاج إليه تماماً".

"إنه بيطري بارع أيضاً، ونحن صديقان منذ الطفولة".

"إذاً، لن يمانع أن نقرع بابه في منتصف الليل".

"لا، إطلاقاً. إنه يحب بختيار وقد أهداه بعض العظام".

كان بختيار المسكين يئن؛ وكأنه يفهم ما يقال. داعبت يفغينا رأسه بلطف لتهدّئه، وهمست له: "لا تقلق ياعزيزي، سينتهي هذا قريباً".

ضغطتُ على دوّاسة الوقود، فاستجابت السيارة القديمة المتهالكة بسرعة مفاجئة، وسلكنا طريقنا عبر شوارع بلاط حالكة الظلمة.

الشاعر والطبيب البيطري

ظننت أن ديمتر نائم؛ لأن "قصر بلاط"، المبنى الذي ورثه عن والده، والمكوّن مثل منـزلي من طابقين ويقع في أرض فسيحة، كان غارقاً في الظلام. خرجت من السيارة ورننت الجرس ثلاث مرات، شاخصاً ببصري إلى النافذة، ومحاولاً أن أسمع أيّ صوت يصدر من الداخل أو أرى مصباحاً يضيء، لكن شيئاً لم يحدث. فكّرت في قرارة نفسي: كيف يمكن لأي شخص أن ينام بمثل هذا العمق؟ رننت الجرس مجدداً، وانتظرت، ثم أطلقت شتيمة بصوت خافت. نظرت يفغينا إليّ في حين كانت تمسك بختيار في السيارة، فمددت يديَّ في إشارة إلى قلّة حيلتي ثم رننت الجرس للمرة الأخيرة، لكنني لم أتلق أيّ ردّ مجدداً، ولا أيّ إشارة إلى وجود حياة أو حركة. لذا، عدت إلى السيارة وأقحمت رأسي عبر النافذة.

قلت يائساً: "لا شيء، لا أحد في المنـزل. الله وحده يعلم أين هو".

"أليس لديك رقم هاتفه الخلوي؟".

هزّزت رأسي، وقلت: "ديمير يعيش في العصر الحجري، ولا يستخدم هاتفاً خلوياً". ثم خطرت لي فكرة. "مهلاً! ربما يكون مع يكتا".

"من هو يكتا؟ أهو قريبه؟".

"صديق مقرّب آخر".

"صديق مقرّب! هه، لم تذكر أمامي هذين الشخصين من قبل قطّ!".

قلت وأنا أركب السيارة: "إنها قصة طويلة، وسأخبرك بها لاحقاً. لنذهب إلى منـزل يكتا، فقد نجد ديمير هناك".

عندما عشّقت التروس، انعطفت سيارة بسرعة حول الزاوية، فبهرتني أضواؤها العالية.

صرخت بصوت عالٍ: "ما الذي يفعله هذا الأحمق؟". اقتربت السيارة منا، وتوقفت على بعد خمسة أمتار تقريباً. تعرّفت الشخصين اللذين كانا فيها حين أُطفِئت الأضواء.

قلت مشيراً إلى سيارة يكتا الجيب: "إنهما ديمير ويكتا، يبدو أننا محظوظان".

خرجت من السيارة مسرعاً، لكن يكتا وديمير بقيا جالسين فيها منتظرين. ألم يعرفاني؟ لا، سيكون هذا مستحيلاً، ففي اللحظة التي سيشاهدان فيها سيارتي، سيعرفان من أكون. وفيما كنت أقلّب كل ذلك في ذهني، فُتح كلا البابين وخرجا؛ جسد ديمير الضخم أولاً ثم جسد يكتا

النحيل. بدا التجهم على وجهيهما؛ على الأرجح بسبب رؤيتي عند باب ديمير الأمامي في منتصف الليل، وظهر يكتا قلقاً، في حين تصنّع ديمير الهدوء بالرغم من فضوله الواضح.

صرخت قائلاً لديمير: "أين كنت بحق الله؟ أنا أرنُّ الجرس منذ دهر!".

"ذهبنا لنصطاد السمك. لماذا؟ هل حدث شيء ما؟".

"بختيار مصاب. أظن أن سيارة قد صدمته".

صاح يكتا: "ماذا؟". لم يبدُ أن يكتا قد فهم ما قلته، فيما سألني ديمير: "هل وضعه خطر؟".

قلت وأنا أنظر إليه: "ربما تكون قائمتاه مكسورتين. أخشى أن يكون مصاباً بجرح داخلي".

سأل الطبيب البيطري ببساطة: "أين هو؟". لم تكن هناك أي إشارة إلى الخوف أو القلق على وجهه.

أشرت إلى سيارتي: "إنه هناك، فوق البطانية".

مشى نحو السيارة بخطوات واسعة، في حين سرت ويكتا في أعقابه، ثم دفع رأسه عبر النافذة. صُدم حين رأى يفغينا جالسة هناك، لكنه استجمع رباطة جأشه فوراً.

"مرحباً".

قالت: "إنه يتألم حقاً. المخلوق المسكين يئن باستمرار".

أخرج ديمير رأسه من النافذة. "أنِر المصابيح اللعينة من فضلك يا نوزت. لا يمكنني رؤية شيء".

أنرت المصابيح فصعد إلى السيارة.

"ماذا حدث لك يا بختيار، أيها العجوز؟".

أنَّ بختيار الذي تعرّف صوت الطبيب بهدوء، ملتمساً أن ينتهي الألم، فيما تابع ديمير التحدث إليه، وفي الوقت نفسه فحصه بحثاً عن إصابات أو جروح.

"لا بأس أيها العجوز. لا بأس، اهدأ وتحلّ بالشجاعة. سينتهي الأمر قريباً".

أنهى ديمير فحصه الأوّلي فاستدار وواجهنا. "لقد أُصيب بكسر في قائمته الخلفية اليسرى، لكنني لست واثقاً من حال قائمته اليمنى. آمل أن تكون مجرد كدمة. سأتمكّن من إلقاء نظرة أفضل في الداخل. نوزت، أمسك الطرف الآخر من البطانية وسنحمله إلى الداخل. يجب أن نتوخى الحرص

ونتوثق من ألاّ يهتز كثيراً".

خرجت يفغينا من السيارة حتى أستطيع التحرّك براحة أكبر. أمسكت البطانية من إحدى جهتيها، في حين أمسكها دميِر من الجهة الأخرى، ثم رفعناه إلى الأعلى. بعد ذلك، ثم تقدّمت ببطء من دميِر الواقف في الطرف الآخر من السيارة. أفلتت البطانية من يدي فسقط بختيار عنها وهو يئن ألماً.

قال دميِر مطمئناً: "لا بأس أيها العجوز بختيار، ابقَ حيث أنت فحسب، لن يطول الأمر الآن. ها أنت ذا، وكل شيء قد انتهى. الآن، لنأخذك إلى الداخل حتى تغفو قليلاً".

حملناه إلى الحديقة، وتجاوزنا أشجار الكستناء ونـزلنا إلى القبو حيث توجد عيادة دميِر، ثم وضعناه على طاولة في غرفة كبيرة في نهاية الرواق. حدّق بختيار بعصبية حين أنيرت الغرفة، فيما أخرج دميِر محقنة من خزانة زجاجية بجانب الجدار وغرز إبرتها بخبرة في فخذ بختيار اليسرى، ثم ارتدى بعد ذلك زوجاً من القفازات المطاطية، وسترة طويلة بيضاء وعاد إلى مريضه، فتوثق من بطنه وظهره، ومرّر يده في شعره. كان بختيار يزداد اضطراباً ويزمجر متوعداً، كاشفاً عن أنيابه.

صرخ دميِر وكأننا مساعدوه: "ثبّتاه في مكانه، فوراً! لِمَ تتسمّران في مكانيكما هكذا؟ ثبّتاه جيّداً وإلا سينتهي به الأمر بأن يلحق بنفسه ضرراً أكبر".

بذلت ويكتا قصارى جهدنا لتهدئته من دون أن نؤذيه، لكن الحيوان المسكين بدأ يتلوّى ويرتعش أكثر.

صرخ يكتا مذعوراً: "متى سيبدأ تأثير الدواء؟ المخلوق المسكين يعاني ألماً كبيراً! افعل شيئاً، حباً بالله!".

قال دميِر بهدوء: "لا تقلق. ثبّتاه فحسب، وسيغيب عن الوعي بعد بضع دقائق".

ثبّتناه جيّداً، وبعد بضع دقائق بدأ تلوّي بختيار وتململه يخفّان تدريجيًّا، وتلاشى أنينه؛ حتى فقد وعيه أخيراً، فارتحنا كثيراً.

قال دميِر هادئاً ورابط الجأش قدر المستطاع: "إنه محظوظ. لم يُصب بجراح في جسده، وإنما هناك كسر في قائمته اليسرى فقط وكدمات على فخذه اليمنى. حقنته بدواء على كل حال، تحسباً لوجود أيّ إصابات داخلية".

قلت: "بالمناسبة، لقد خمّنتما على الأرجح أن هذه يفغينا".

قال يكتا بتودد: "لطيف أن نلتقي أخيراً ياآنسة، لقد سمعنا عنك الكثير. عندما نخرج مع نوزت، فإن كل ما يفعله هو أن يتكلم عنك". لم يقل ديمير شيئاً، لكنه أومأ لها برأسه إقراراً بذلك.

قالت بحرارة: "تشرّفت بلقائكما أيضاً. لسوء الحظ، لم يذكر نوزت لي قط أياً منكما".

كان من الممكن أن يشعر يكتا وديمير بالإساءة من هذه الملحوظة، لكن بدا أن أياً منهما لم ينـزعج، خاصة ديمير الذي عاد ليفحص قائمتي بختيار. أجاب يكتا حتى يخفّف عني شدّة الوطأة.

"هذا لأنه لا يوجد ما يذكره. فأنا فاشل كسول ومتشرّد أعيش على ما تركه لي والدي من ميراث. أمّا ديمير فقد كرّس حياته لراحة الحيوانات، لذا ليس هناك حقاً شيء ممتع جداً في حياة كل منا، بخلاف حياتك طبعاً. سمعنا أنكِ تديرين خاناً في كورتولوس، لذا لا بد أنكِ تعرّفت كل أنواع الأشخاص الغرباء والرائعين الذين التقيتهم هناك".

ردّت بلباقة: "بصعوبة. إذ يخوض الجميع غمار حياة متنوعة بطريقة أو بأخرى. بالمحصلة، كم عدد الأشخاص- في مدينة ضخمة مثل إسطنبول- الذين لديهم أصدقاء مميّزون مثلكما؟".

ضاقت عينا يكتا الزرقاوان الفاتحتان، وتوقف ديمير عن فحص بختيار ورفع بصره إلى الأعلى؛ في إشارة إلى أنه ربما تأثر، لكنه بقي صامتاً مرة أخرى. فجأة، غمرتني ذكريات أيام طفولتنا، تلك الأيام المميزة التي أمضيتها برفقة ديمير ويكتا وهاندان. لم أتذكر أين كنا، أو ما كنّا نفعله، أو سبب اجتماعنا معاً، لكن تلك الصورة من الماضي انبثقت للعيان؛ ذكرى مثل كل الذكريات التي تفاجئ الناس وهم غافلون عنها. عندما امتزج شعوري بالحنين إلى الديار المؤلم بالكآبة التي اعتملت في داخلي، أعادني صوت يكتا إلى الحاضر.

قال: "أنتِ محقة في هذا. ربما لا أكون مفيداً لهذا العالم، لكن على الأقل لدي هذان الصديقان الرائعان".

لم يعد بمقدوري أن أتحمّل، فقلت: "لا تصغي إلى هذا الهراء يايفغينا، إنه يهذي. إنه الشاعر في داخله".

"حقاً!؟".

"أوه، نعم. إنه شاعر حقاً، ومعظم قصائده عن هذه المدينة. كما أنّه معماري أيضاً، ويعرف كل شيء عن إسطنبول، ويمكن أن يخبرك بكلّ ما تريدين معرفته عن مدينتنا الجميلة هذه: أماكن النوافير فيها، وأي سلطان

بنى هذا القصر، وأي معماري صمّم وشيّد ذاك الصرح. يستطيع أن يبلغك هذا بسرعة، وقد كتب عدّة دواوين أيضاً. لا أدري ماذا أفعل بها لكن والدي العجوز اعتاد القول إنه يتمتع بميزات شاعر".

كان يكتا يحب دائماً أن يُدعى شاعراً.

قال منحنياً بتواضع زائف، رغم أن استمتاعه بالمديح بدا واضحاً: "إنه يبالغ قليلاً ياسيدتي. إنها عبارات مشوّشة، هذا كل شيء، وهي بالكاد تدعى شعراً".

ردّت يفغينا: "لا يمكنني القول إنني أعرف الكثير عن الشعر. لقد سمعت عن شاعر يدعى كفافيس؛ يوناني. لا أدري إن كنت...".

ومضت عينا يكتا. "حقاً ياسيدتي؟! لقد كان شاعر الطبقة المخملية".

"كان جدّي يعرف بعض أقاربه الذين عاشوا في إسطنبول، وقد عرّفني بشعره".

"حسناً، إنه رائع". بدا أن مزاجه قد أصبح جيداً آنذاك. تنحنح وبدأ يسرد: "هذه المدينة ستلاحقك دائماً/ أنت ستمشي في الشوارع نفسها/ وستكبر في الأحياء عينها/ وستشيب في المنازل ذاتها/ إنها هذه المدينة التي سينتهي أمرك إليها دائماً/ لا تأمل في أي مكان آخر...".

تبادلتُ ويفغينا النظرات. بدت عيناها وكأنهما تسألان: هل هي مخيلتي فقط، أم إن هذه القصيدة عنك؟

قالت وهي تستدير نحو يكتا: "أتذكر هذه الأبيات. لكن، ماذا عن شعرك؟".

ابتسم بحياء. "شعري لا يرقى إلى هذا المستوى".

"تكوّن لديّ انطباع بطريقة ما أنك تظلم نفسك". ثم استدارت وسألتني: "ما رأيك يانوزت؟".

"أنتِ محقة، إنه غير منصف، فقصائده رائعة".

"هل يمكن أن نسمع واحدة؟".

"طبعاً يمكنك ذلك، والأفضل أنني سأرسل لك نسخة من أحد دواويني مع نوزت".

قال ديمير بعد أن قرّر أخيراً أن يتخلّى عن صمته: "يوجد واحد في خزانة الكتب في حجرة الجلوس. ماذا كان يدعى مجدداً؟ مذكّرات بلاط ، أو شيئاً من هذا القبيل، أليس كذلك؟".

" أخبار بلاط . ياالله! أنت لا تزال تجهل عنوان الديوان".

"أو عنوان أيّ من الدواوين الأخرى، فهناك عدد كبير منها". ثم

استدار وتحدّث إلى يفغينا: "ذلك أفضلها على كل حال، الديوان عن بلاط، أياً يكن عنوانه. إنه عبارة عن مجموعة قصائد عن بلاط القديمة؛ حي شبابنا، وعن القرن الذهبـي. يمكن أن تأخذي النسخة الموجودة في حجرة الجلوس إن أردت".

"شكراً، لكنني لا أريد أخذ نسختك".

غمزها ديمير بمكر قائلاً: "لا تقلقي، لدي الشاعر الحقيقي هنا معي. وهو يُلقي تلك القصائد على مسمعيّ سواء أأردت سماعها أم لا".

بدا الانـزعاج على يكتا.

قلتُ متدخلاً لأنقذ صديقي العجوز الحسّاس: "لا تكن سخيفاً، لا أظن أنه يُلقي تلك القصائد إن لم تكن مرغوبة".

تهللت أسارير ديمير القاسية مثل الحجر وتحوّلت إلى ابتسامة واسعة.

"أنا أمزح يا يفغينا. ليس من السهل جعله يُلقي قصائده، ويجب أن يكون مزاجه جيداً". توقف ليفكّر. "في الواقع، لماذا لا تأتيان لتناول الطعام معنا غداً؟ اصطدنا كمية كبيرة من السمك اليوم، ولدينا ثلاثة كيلوغرامات على الأقل من القاروس البحري هنا. يمكن أن نطهوها كلها مساء غد، وقد يتكرّم يكتا بإلقاء بعض الأبيات على مسامعنا".

ردّت يفغينا: "إذاً، مساء الأحد ستكونون ضيوفي. طبّاخنا بارع جداً في إعداد الأسماك أيضاً، رغم أنني أخمّن أنه ليس ماهراً مثلك. إذا جئتم، فبإمكان يكتا أن يلقي قصائده هناك".

قال يكتا: "ستكونين غداً مساءً ضيفتنا، ويوم الأحد سنحلُّ نحن جميعاً ضيوفاً عليك".

لم تكن يفغينا واثقة بما عساها تُجيب به، فنظرت إليّ مستفسرة، تريد مني قراراً.

قلتُ: "لِمَ لا؟". ثم بجدّية مصطنعة تابعت: "لكن فقط إن قرأت لنا بعض قصائدك يا يكتا".

"هذا عادل كفاية. لكن". أضاف بعصبية: "ليست غلطتي إن لم تعجبكم".

تأثرت يفغينا بحساسيته وقالت: "أشك في أن هذا سيحدث. أنا واثقة أن قصائدك رائعة جداً".

تمتم ديمير، من دون أن يرفع بصره: "لا تكوني واثقة جداً، انتظري حتى تسمعيها قبل أن تُطلقي حكمك".

بدا الانـزعاج واضحاً على يكتا، وكاد يسأله عمّا يعرفه طبيب بيطري

لعين عن الشعر، لكن ديمير جعله يهدأ فوراً. "لا تكن حساساً جداً يارجل، أنا أمزح فحسب". ورفع بصره إلى يفغينا قائلاً: "لا، قصائده موقرة جداً، ومقبولة تماماً".

ردّت بجدية: "لا أطيق صبراً لسماعها".

"في هذه الحال، سنتوقع مجيئكما عند الثامنة والنصف من مساء غدٍ".

"سيكون هذا من دواعي سرورنا. لكن، لا تنسيا أن العشاء مساء الأحد سيكون في خاني في تاتافلا".

صرخ يكتا: "تاتافلا! إذاً، الخان يدعى تاتافلا! هذا اسم كورتولوس القديم. إن الاسم الذي أطلقته على المكان رائع يايفغينا".

"والدي هو الذي اختار الاسم وليس أنا".

"حسناً، مرحى له. لقد منح المطعم اسماً ممتازاً. لقد أُزيلت أسماء المدينة وأسماء أحيائها القديمة كلها. هذه المدينة ترخي قبضتها على الماضي. والمدن كما تعرفون مثل الناس تماماً؛ إذا نسوا تاريخهم وفقدوا إحساسهم بالماضي، فسيفقدون أيضاً إحساسهم بذواتهم. وعندها، لن يبقى شيء؛ لا شخصية، ولا تميّز، وسيتشابه الجميع؛ من دون جاذبية أو فردية. لم تكن إسطنبول مدينة عادية قطّ، وهي دائماً...".

تمتم ديمير: "آه، ياالله! ها نحن ذا. لقد بدأ يحاضر مجدداً. اسمع، بدلاً من إلقاء محاضرة، افعل شيئاً مفيداً وناولني علبة القطن تلك".

"وهناك أيضاً هذا النوع ياآنسة يفغينا؛ الغافل عمّا يجري في مدينته. أنتِ تعرفين بالتأكيد أناساً من هذا النوع؛ الذين ندعوهم غالباً حمقى".

قال ديمير: "أسرع، يجب أن أضمّد قائمته وإلا سينـزف كثيراً".

قال يكتا ساخراً وهو يناوله القطن: "لولا هذه المدينة لما كنت هنا أصلاً، وأنت أيضاً يابختيار". قرّر ديمير ألا يتساهل معه فقال وهو يأخذ القطن: "أياً يكن". لكن ذلك لم يُعجب يكتا.

"إنه على هذه الحال دائماً يايفغينا، لا تدعيه يزعجك. على كل حال، سُررت بلقائك".

قالت ببساطة: "شكراً لك".

"ونحن سعيدان من أجل نوزت". لم يكن ذلك متوقعاً، لكن ديمير وضع عمله جانباً؛ وإن كان قد فعل ذلك للحظة واحدة فقط. "إنّه محظوظ لأنّه وجد امرأة رائعة مثلك".

قالت يفغينا وقد تورّدت خجلاً: "هذا لطف كبير منكما، لكنني أظن

أنه أكثر حظاً بوجود صديقيه الوفيين".

بدأت تلك المشاعر الجيّاشة تصبح مزعجة لي، وكدت أسأل عن حال بختيار لأبدّل الموضوع، حين رنَّ هاتفي الخلوي، وكان علي هو المتصل. كنت قد نسيت كل شيء عن الجريمة.

"نعم ياعلي، هاتِ ما لديك".

"لقد وجدنا جثة أخرى أيها المدير".

"ماذا؟".

"جثة أخرى ياسيدي".

"أين؟".

"عمود قسطنطين ياسيدي".

ماذا يجري؟ هل الجريمتان من الطبيعة نفسها؟ هل المجرم نفسه- أم المجرمون أنفسهم- من يقف خلف كلتا الجريمتين؟ كانت يفغينا وديمير ويكتا يراقبونني ويصغون إليّ باهتمام.

سألت وأنا لا أعير أي اهتمام للنظرات: "هل توجد قطعة نقدية على الجثة؟".

"نعم ياسيدي، في اليد".

كنت قد اقترفتُ غلطة جسيمة؛ فعندما وجدنا الجثة في سارايبورنو، لم يخطر ببالي أن هناك المزيد. يبدو أن المجرمين لن يتوقفوا.

"فهمت. علي، أين أنت الآن؟".

"أنا مع زينب عند العمود، وشفيق هنا أيضاً. لقد بدأ الجميع بعملهم الأوّلي".

"حسناً، أنا في طريقي إليكم".

سألت يفغينا، قلقة على نحو واضح: "هل قُتل أحد ما؟". طرحَت السؤال بطريقة جعلتني أشعر كما لو أن الجثة في الغرفة معنا. "هل وقعت جريمة قتل أخرى؟".

حاولت تبديد مخاوفها، وقلت معتذراً: "لسنا واثقين بعد، لكن يجب أن أذهب. تعالي، سأوقف سيارة أجرة من أجلك".

عرض يكتا: "لا تتفوّه بالهراء. سأقلّكِ إلى منـزلك يايفغينا".

"شكراً، لكنني لا أمانع العودة وحدي، فأنا معتادة على هذا. على كل حال، ربما يحتاج إليك ديمير هنا. في الواقع، سأكون سعيدة بالبقاء إن كان بمقدوري المساعدة".

قال ديمير بلطف وبحزم: "لا داعي إلى أن تهدري المزيد من وقت

راحتك. يمكن أن أعالج الأمر مع يكتا. اذهبـي أنتِ واستغرقي في نومٍ هانئ".

انتقلت نظرة يفغينا القلقة إلى بختيار المسكين، المستلقي هناك غافلاً عن كل ما يجري حوله.

قال ديمير بلطف: "لا تقلقي بشأنه، سيكون بخير، صدّقيني".

القسطنطينية عاصمة قسطنطين

أُقيم احتفال النصر؛ وقت تكريم الشجعان وتمجيد الانتصارات الرائعة. كان قد جاء من غابات الشمال الكثيفة، في أيامٍ ثقيلة الوطأة ولياللٍ حالكة، متغلباً على الجوع ومقاتلاً بالسيف والنار. لقد أتى قاهراً الدم والموت، رغم خيانة الشيوخ الرومان؛ ولم يفقد الأمل مرة، حتى في أحلك الساعات، مصحوباً ببطولة جنوده المجهولين. كان قد وصل من دون أن يستسلم لليأس، وتركيزه منصبٌّ على تحقيق النصر، وبإرادةٍ مثل درع فولاذية، إلى الجبال القاسية، عبر المستنقعات، وفوق السهول الواسعة والمنحدرات، وفي البحار الشاسعة؛ لقد جاء واضعاً نصب عينيه إرث أسلافه.

كان الإمبراطور قسطنطين يحدّق إلى أبولو الذي يمتد رأسه نحو السماء، ويغيب عن الأنظار وراء الغيوم المعلّقة في المساحة الزرقاء الفسيحة مثل أشرعة سفن حربية محتشدة تلقي ظلاً فوق أشعة ضياء أبولو السبعة. هل هذه علامة؟ فكّر الإمبراطور، هل يرسل أبولو إلينا إشارة مجدداً؟ جاء الجواب من الرياح، وانقشعت السحب واحدة تلو الأخرى؛ كاشفة عن بهاء أبولو مرة أخرى.

كان قسطنطين يحدّق إلى تمثال أبولو، وهبّت نسمة عليلة على المحتشدين، حاملة معها شذا أزهار الربيع. داعبت النسمة العطرة عباءة الإمبراطور البنفسجية الطويلة وهو ينظر إلى الأعلى نحو تاج أبولو، الذي صُمم تاجه على غراره، وأشعة ضيائه السبعة. حملق إلى الجبين العريض، وإلى العينين الثاقبتين، والفم المغلق بإحكام بزهوٍ وتحدٍّ... عندما رأى الإمبراطور انعكاس صورته على تمثال أبولو الضخم الذي ينظر إلى الأسفل نحو المدينة، ابتسم.

كان الإمبراطور ينظر نحو الأعلى، إلى تمثال أبولو الذي يمتد نحو السماء فوق العمود، لكنه لم يكن أبولو الذي حلم به الإمبراطور قرب روما، وإنما آخر لا يوازيه جسداً أو صوتاً أو شكلاً.

كان الإمبراطور ينظر إلى تمثال أبولو، لكنه لم يرَه، وإنما رأى قوته هو، وسلطانه الذي يمتد ليشمل القارات الثلاث، والفصول الأربعة. رأى في هذه الزاوية النائية من روما الموحدة حكمه مشمولاً برعاية أبولو وحمايته.

صرخ الإمبراطور: "روما واحدة! أبولو واحد! إمبراطور واحد!". انتقل صدى صوته وتردّد بين الحشود المجتمعة خلفه في الساحة. "روما واحدة! أبولو واحد! إمبراطور واحد!". دوّى الصوت بين الحشود وعبر الساحة؛ ممتداً

نحو الأعلى، حتى وصل إلى الأذنين الحجريتين للتمثال نفسه.

نظر قسطنطين إلى تمثال أبولو، في الحادي عشر من أيار؛ اليوم الأخير من الاحتفالات التي استمرت أربعين يوماً وليلة. كان ذلك اليوم اليومَ الذي حدّد فيه عمود جديد ولادةَ عاصمة جديدة.

كان ذلك اليوم اليومَ الذي سيخلّد فيه الرجل الذي غيّر مجرى التاريخ إنجازاته، اليوم الذي سيُظهر للجميع - أصدقاء وأعداء - أن روما لم تعد روما القديمة، وأن إمبراطورية جديدة، روما جديدة ذات مركز جديد وقلب جديد قد نشأت.

العمود

كانت الجثة ملقاة إلى شرق العمود، والمصابيح مطفأة كلها؛ لذا تمّت الاستعانة بأضواء سيارة علي ومركبة وحدة البحث الجنائي لإنارة المنطقة، لكن الضوء كان لا يزال خافتاً جداً؛ ما جعل رجال شفيق الثلاثة وزينب -الجاهزين كالمعتاد- يستخدمون مصابيحهم وهم يتقدمون في الظلام ببطء بحثاً عن أدلّة.

ألقيت نظرة على الجثة تحت الضوء الخافت الصادر عن مصباح زينب، ورأيتُ رجلاً متوسط العمر، خفيف الشعر، قصير الشارب، يرتدي بزّة زرقاء داكنة وقميصاً أزرق فاتحاً، وينتعل حذاءً جلدياً بنياً. كان هناك جرح بليغ في رأسه، شقٌّ عميقٌ في حنجرته، وبقع دم على ياقة سترته وقميصه؛ تماماً كالضحية الأولى. وبدت عيناه اللامعتان اللتان ظهرتا تحت ضوء القمر الباهت محدّقتين إلينا من فوق العمود؛ كما لو أنهما تنظران إلى مشهد رائع.

ألم يكن هذا القمر هو نفسه الذي رافقنا أمس في سارايبورنو؟ رفعت بصري إلى الأعلى، وشاهدت وهجه الشاحب وسط النجوم المتناثرة في السماء. بدا أكبر قليلاً مما كان عليه في الصباح. لكن، لا يزال هناك شيء حزين وكئيب بشأنه؛ مثل لوحة لم تكتمل.

قالت زينب مُعيدة تفكيري إلى عالم الواقع: "لقد سُكّت قطعة النقود التي وجدناها بين يدي الفقيد من أجل قسطنطين". وسلّمتني كيساً شفافاً يحتوي على القطعة. قالت، مشيرةً إلى حديثنا عن المدينة في الصباح: "لقد تمّ سكّها من أجل الإمبراطور الذي أسّس القسطنطينية. تحمل القطعة النقدية صورة رأسه على أحد وجهيها".

نحّيت تأملاتي بالقمر جانباً، ووضعت نظارتي، ثم فحصت القطعة النقدية، واستطعت تمييز رأس الإمبراطور على أحد الوجهين، وخلفه كلمة قسطنطين. بدا غريباً حقاً أن تكون زينب واثقة تماماً بأن القطعة النقدية قد سُكّت من أجل الإمبراطور قسطنطين الذي أسّس مدينة القسطنطينية، في حين أنني أعرف، من معلومات المدرسة الإعدادية، أن هناك أكثر من إمبراطور يُدعى قسطنطين، وربما تكون القطعة التي أحملها في يدي قد سُكّت في عهد أيٍّ من أولئك الأباطرة الآخرين، لكن زينب -كالمعتاد- كانت تسبقني بخطوة.

"نصب قسطنطين هذا العمود سنة ثلاث مئة وثلاثين قبل الميلاد

تقريباً؛ للإشارة إلى أن المدينة هي العاصمة الجديدة للإمبراطورية الرومانية". أشارت إلى العمود في الظلام الحالك وتابعت: "لقد أمر بجلب العمود من معبد أبولو في روما. وكان ارتفاع العمود الأصلي سبعة وخمسين متراً؛ لذا تمّ كسره ونقل القطع على متن سفن. وبعد إعادة تجميعه هنا، أمرهم بوضع تمثال له على هيئة أبولو ووقفته في الأعلى".

سألت مذهولاً من غنى معلوماتها: "كيف تعرفين كل هذا؟". فابتسمت بمكر.

قالت مشيرة إلى الطرف الشمالي من الصرح: "توجد لوحة معدنية هناك تحمل كل هذه المعلومات أيها المدير".

حُلَّ لغزٌ بدا مستحيلاً بمنتهى السهولة... عدت إلى الجثة، ولاحظت شيئاً كنت قد غفلت عنه في النظرة الأولى التي ألقيتها عليها؛ إذ كانت الجثة ممددة بالطريقة نفسها التي مُدّدت بها الجثة السابقة. فالساقان متباعدتان قليلاً، والذراعان مشدودتان إلى الخلف، واليدان موثقتان بحبال من النايلون، والراحتان مطبقتان على بعضهما؛ وكأنه يُصلي.

قالت زينب وهي تشدّ الحبل الذي قيّد يدَي الضحية: "هذه العقدة ليست مُحكمة". فُكّت العقدة فوراً. "لم يكن الحبل الذي أوثقت به يدا نجدت دينيزل محكماً أيضاً. كل ما توجب عليه فعله هو أن يشدَّ ذراعيه ويحرّكهما قليلاً ليحرّر نفسه؛ إن أراد ذلك وإن استطاع طبعاً". رفعت بصرها إليّ، وبدت نظرة مستفسرة في عينيها. "لماذا كانت أيدي الضحيتين موثقة إذاً أيها المدير إن لم يكن الهدف شلّ حركتهما؟ ما فائدة هذه الحبال؟".

كان السؤال مهماً وحاسماً، لكن لم يكن باستطاعتي الإجابة عنه. نظرت نحو الأسفل؛ إلى الضحية، وتأملت وضعية الساقين والقدمين...

تمتمتُ وأنا أفكّر بصوتٍ عالٍ؛ ضائعاً في أفكاري: "تبدو وضعية قدميه وساقيه مثل سهم". صرخت: "نعم، مثل سهم!". راقبت زينب ما يجري محتارة، في حين مشيت حول الجثة نحو القدمين وأشرت إلى اليدين. "انظري، لقد وضعه القتلة على شكل سهم! سهم يازينب، انظري!".

سارت نحو الجثة بطريقتها الحذرة المعتادة، وتأملتها من حيث أقف، ثم مشت حولها ونظراتها لا تفارقها، وتفحّصتها من كل زاوية ممكنة.

قالت أخيراً: "لا بأس، إنها مثل سهم، لكن لماذا؟ ماذا يُفترض بها أن تعني؟".

"إن القتلة يوجهون لنا رسالة يازينب؛ علامة تشير إلى المكان الذي

سنجد فيه الجثة التالية. فكّري في هذا: إلى أي اتجاه كانت يدا نجدت دينيزل تشيران؟".

قالت بعد لحظة تفكير: "سيركجي. إذا كنا سنرسم خطاً... نعم، سيصل إلى هنا، إلى العمود!".

سألتُ بقلق: "وإلى أين يشير هذا السهم؟". نظر كلانا في الاتجاه الذي تشير إليه اليدان.

قلت: "تجاهلي العمود، وانظري إلى ما وراءه، وربما حتى خلف كل تلك الأبنية".

بدا الأمر شبيهاً بالبحث عن إبرة في كومة قش، لكن عزيمة زينب لم تثبط.

اقترحَتْ: "ماذا عن ساحة بايزيد؟ إنها خلف العمود مباشرة".

قلت وأنا أهزّ كتفيَّ يائساً: "هذا ممكن. لكن، ربما تشيران إلى شيء مختلف تماماً؛ أي شيء. يحاول الشخص أو الأشخاص المسؤولون عن هاتين الجريمتين بعث رسالة لنا، ويجب أن نعرف هذه الرسالة".

كان نقاشنا الانفعالي قد أثار انتباه شفيق الذي جعلته قلنسوته وقفازاه ومعطفه يبدو مثل طاهٍ وليس مثل رئيس وحدة البحث الجنائي.

"هل وجدت شيئاً ياكبير المفتشين".

قلت ناظراً نحو الأسفل؛ إلى الجثة: "لا شيء ملموساً بعد. من هذا المسكين على كل حال؟".

أخرج شهادة قيادة القتيل من الكيس وسلّمني إيّاها.

"مقدّر كيناسي. لم نعرف عمله أو عنوانه بعد، لكننا نعمل على هذا، وكل ما عثرنا عليه حتى الآن هو شهادة القيادة هذه". أمسكتها من طرفها بحرص لتفادي ترك علامات أو بقع غير مرغوبة عليها. "إذاً، هذا كل ما لدينا حتى هذه اللحظة، ولا شيء آخر. لا هاتف خلوي، أو بطاقة هوية شخصية، أو بطاقة أعمال". ضاقت عيناه. "وفي هذا الظلام... نحن بالكاد نستطيع الرؤية هنا".

قال رجل يرتدي ثياباً مماثلة لثياب شفيق وهو ينضم إلينا: "لهذا السبب أطفأوا المصابيح؛ حتى يصعب علينا العثور على أدلّة".

قالت زينب: "لا أظن هذا. أعتقد أنهم أطفأوا المصابيح حتى لا يراهم أحد حين يضعون الجثة هنا. هؤلاء الأشخاص محترفون حقاً، ولا أعتقد أننا سنحصل على أدلة كثيرة نعتمد عليها في تحقيقنا".

قال صوت خلفنا: "لا تكوني واثقة جداً". كان علي يقف مع رجلين

يرتديان ثياباً رثّة نكصا على أعقابهما خوفاً حين شاهدا جثة الضحية.

قال أقصرهما: "توجد جثة هنا ياسيفان. انظر إلى وضعيته! الأوغاد! ألقِ نظرة!".

كشّر سيفان وأشاح ببصره بعيداً قائلاً: "مستحيل، لن أفعل هذا. لن أنظر أبداً إلى جثة ميت، فهذا النوع من الأشياء يخيفني ياسيلو". غير أن صديقه لم يبدُ منـزعجاً جداً من المنظر.

"يُفترض أن يكون التحديق إلى الميت ميموناً أيها الأحمق. طالما قُرئت الفاتحة [11] ، لا يمكن أن يسبب النظر إلى جثة ميت أي ضرر".

عندما فتح سيلو يديه الوسختين وبدأ يتمتم الآيات، اختلس صديقه نظرة إلى الجثة.

سأل: "قراءة الفاتحة أمر جيد. لكن، كيف تعرف أنه مسلم؟ ربما يكون نصرانياً، فقد تُرك أمام صرح نصراني بالمحصلة".

لم تكن لدى سيلو أي نية بالتوقف عن تلاوة الفاتحة، لذا أجبت بدلاً عنه.

قلت: "طبعاً هو مسلم. لماذا تظن أنه نصراني؟".

استدار ونظر إلى علي؛ لم يكن يعرف من أنا، ولم يكن واثقاً إن كان يجدر به التكلم أم لا.

قال علي مشجعاً إياه: "تابع، ليس هناك ما تخشى منه. إنه كبير المفتشين، أخبره".

استجمع سيفان رباطة جأشه فوراً وقال: "أرجو أن تعذرني ياكبير المفتشين لأنني لم أعرف من أنت". فاحت رائحة الشراب من فمه ما إن فتحه، وتابع قائلاً: "نحن لا نعرف طريقة عمل الشرطة، أليس كذلك؟ أعني...".

"تباً للأعذار و أعني وكل ما تقوله ياسيفان! أخبر كبير المفتشين فقط عن سبب اعتقادك أن الرجل نصراني".

لم يبدُ مقتنعاً، ونظر إلي من أعلى رأسي إلى أخمص قدميَّ، فقد كنت شرطياً بالمحصلة؛ لذا انتظر أن أثور أو أستشيط غضباً وأطلق الشتائم؛ وهذا أمر شائع يتكرّر كثيراً مع رجال الشرطة التركية. لكن، عندما أدرك أن مثل تلك الثورة ليست وشيكة، استرخى.

"طبعاً ياسيدي، فوراً. لا ياكبير المفتشين، حالاً. لن تسمع الأكاذيب مني. هذا مستحيل، أعني انظر إلينا. وُلد كلانا في إسطنبول وترعرعنا فيها، والحمد لله. نعيش هنا في هذه الشوارع؛ لذا هذه المدينة أمّنا وأبونا.

كانت إسطنبول مهدنا وستكون قبرنا. كما قلت، لا أكاذيب. كلما وجدنا بقعة هادئة، تكوّرنا فيها لننام ياكبير المفتشين". وأشار إلى بقعة مبهمة في الظلام وتابع قائلاً: "وجَدَنا المفتش الشاب الوسيم هناك".

لم يكن علي سعيداً بالأسلوب الذي يتكلّم به الرجل لكنه اختار مجاراته، وقال مشيراً إلى البقعة التي كانا ينامان فيها: "هناك ياسيّدي، في الرواق المقنطر بجانب العمود. إنهما ينامان بين أنقاض منـزل قديم مهجور".

قال سيفان، مشيراً إلى الأرض: "تلك هي البقعة أيها المدير. لكن في السنة الماضية كنا ننام هنا، في هذا الموقع، خلف هذه الصخرة الكبيرة. كانت هناك أعمال بناء تجري على قدمٍ وساق هنا، وكنّا نتسلل إلى المكان ليلاً. لم يكن سيلو موجوداً آنذاك، وإنما زكي الحصان...". لاحظ فجأة زينب الواقفة هناك فتورّد غضباً: "ألف اعتذار ياآنسة، لكن هذا ما دعوناه به؛ زكي الحصان، لأنّ... حسناً، على كل حال، أياً يكن، ليرحم الله روحه، فقد تجمّد الرجل المسكين حتى الموت في الشتاء الماضي. وجدوا جثته داخل تجويف في الجدران في كانكورتاران".

صرخ علي غاضباً: "أوقف هذه الثرثرة وقل ما لديك!".

"طبعاً أيها المفتش، كل ما تقوله مطاع، بالطبع، فوراً. على كل حال، نرى الكثير من السياح يأتون إلى هذه الأماكن. لن تصدّق الأمر ياكبير المفتشين، فهم يأتون من كل أصقاع العالم وبمختلف الأشكال والأحجام والألوان والمشارب؛ خاصة اليونانيين. يقف بعضهم هناك أمام العمود وهم يبكون، في حين يرسم آخرون رمز النصارى الديني أمام صدورهم، كما يفعل القس العجوز في كومكابـي. طبعاً، لم تكن لدينا أي فكرة عن سبب انـزعاجهم الشديد؛ لأننا لم نكن نفهم لغتهم. وفي أحد الأيام، جاءت مجموعة من السياح، معظمهم يافعون، يقودهم مرشد شاب وسيم، وقد راقبتهم، ولم أصدّق أذنيّ حين اكتشفت أن المرشد يتكلم التركية. مشيت إلى جانبهم، وأرهفت السمع، وفتحت أذنيَّ؛ تماماً كما يفتح القبطان رجب من كومكابـي أشرعة مركبه. على كل حال، سمعت هناك كل شيء. يبدو، ياكبير المفتشين، أن إمبراطوراً يدعى قسطنطين قد أمر بنصب هذا العمود. توجد لوحة فسيفساء تتعلّق بهذا الأمر في آيا صوفيا؛ هناك إلى جانب لوحات أخرى. على كل حال، لاختصار قصة طويلة، عندما جاء السلطان محمد وفرض حصاراً على هذا المكان، كان هناك رجل آخر يدعى قسطنطين يدير الأمور هنا، لكنه ليس قسطنطين الأول. وعندما استولى الأتراك على المدينة، لم يُعثر على قسطنطين هذا. توثّقوا من كل الأموات والجرحى، لكنهم لم

يعثروا على أثر له في أي مكان. تقول الأسطورة إنه يختبئ تحت هذا العمود منتظراً، وإن اليونانيين عندما يرغبون في الاستيلاء على إسطنبول مجدداً وإعادتها إلى النصرانية، سيستيقظ قسطنطين هذا، وسيعود مع سيفه ليشن حرباً ضدنا".

قال سيلو: "ما تقوله هراء. ما الذي تتكلم عنه؟ طرح المدير عليك سؤالاً وأنت تثرثر فقط!".

بدا واضحاً أن سيلو يظن أن هذر سيفان بغباء لا يجعلني أشعر بالملل فقط وإنما يعرّضهما لمشكلة أيضاً، لكنني وجدت هذه الثرثرة ممتعة جداً وفيها معلومات مفيدة، وكنت بحاجة إلى المعلومات؛ حتى إن جاءت من أساطير يقصّها متشرد ثمِل. ربما كان القاتل أو القتلة يعملون بالمحصلة على أساس أساطير وخرافات معروفة. والأهم أنني أحببت الطريقة التي يتكلم بها سيفان، إذ بدا إيقاع كلامه، ولغته العامية، ومعرفته المستقاة من الشارع رائعة. لم يكن ذلك متوقعاً، لكن المتشردين الهائمين على وجوههم أشخاص ضائعون في الحياة، ويعرفون أنهم منسيون. قد يكونون فُصحاء جداً، ويتمتعون بقريحة شعرية بطريقتهم الفريدة، ويمكن أن يعلمونا غالباً عن حقائق الحياة القاسية.

قلت لسيلو: "دعه يتكلم".

قال متراجعاً إلى الخلف عدّة خطوات: "كما تريد ياسيدي. أنا سأتنحّى جانباً، وسأترككم ياشباب كما تعرف، إحم...".

أشار إليه علي بأن يلتزم الصمت، وابتسم له سيفان بتكلّف قبل أن يستأنف كلامه.

"دُهشت من كلمات ذلك المرشد السياحي أيها المدير، لكنني- ويشهد الله علي- لم أصدّق كلمة منها. لم أصدق كلامه إلاّ بعد أن رأيت قسطنطين بعيني، فاقتنعت آنذاك".

لم يعد بمقدور علي تحمّل ذلك الهراء فسأله: "من قلت إنك رأيت؟".

ردّ متشرد سمبرليتس: "قسطنطين أيها المدير. رغم أنني لا أعرف أيًّا منهم؛ إن كنت ستسألني عنه. كانت ليلة ماطرة، وكنا أنا والحصان، آسف، زكي، ليرحم الله روحه، مكوّرين هناك عند قاعدة العمود، محاولين أن نحظى بقسطٍ من النوم. أعترف أننا قد تناولنا القليل في تلك الليلة، وكنا ثملين تماماً...". قلقاً من أن يُساء فهمه، أوضح الأمور فوراً. "أعني أننا احتسينا الشراب، فليس لدينا أي من تلك المادة الممنوعة أيها المدير. مستحيل، تلك المادة الثقيلة ليست مسموحة، ليس في قانوننا. ولماذا سأخفي

ما يعرفه المولى أصلاً؟ إذاً، كنا نحتسي الشراب في تلك الليلة، وكنا ثملين قليلاً، ومرتاحين، ونشعر بالدفء. لا بأس، ربما كانت رؤيتنا مشوّشة قليلاً آنذاك، لكن ذهنينا كانا يعملان جيداً. لا شيء مشوش هناك على الإطلاق، أوه لا، كان ذهني يعمل بأسطواناته الأربع كاملة، صدّقوني، ثم لمع ذلك البرق فجأة، وفُتحت السماء وهطل المطر؛ انهمر المطر غزيراً. كنت على وشك أن أجلب قطعة من المشمّع حين سمعت فرقعة عالية. وماذا حدث؟ لقد انطفأت كل مصابيح الإنارة، وغرق المكان كله في ظلام حالك. وقبل أن نحظى بوقتٍ كافٍ لننطق ببعض الشتائم المنتقاة، لمع البرق مجدّداً؛ على التاج مباشرة. طبعاً، عندما أقول على التاج فأنا لا أعني رأسينا، وإنما قمة العمود. وأرجو من الله أن يقنعكم إن كنتم تظنون أنني أكذب. بدأ هذا العمود الضخم يتوهج، ولمع مثل الأضواء على ماخور رخيص...". نظر إلى زينب مرة أخرى معتذراً وقال: "أعتذر أيتها الآنسة الشابة، لا تفهميني خطأ، لكن هذا ما بدا عليه حينذاك، إذ كان يلمع مثل... على كل حال، نظرت والحصان - أعتذر مرة أخرى أيتها الآنسة - إلى السماء، وفتحنا أيدينا تضرعاً إلى الخالق، ونحن نتوسل إليه ليحمينا، حين رأينا فجأة رجلاً يحمل سيفاً يقف في أعلى العمود. وعندما أقول رجلاً، فأنا أعني الإمبراطور نفسه... نعم، هذا صحيح، الإمبراطور. رأيت رمز النصارى الديني على صدره وتاجاً ذهبياً على رأسه، ولم يكن مجرد تاج، فقد بدا مثل الشمس نفسها التي تضيء تلال إسطنبول السبع. وهكذا افترقنا، وشعرت بشيء غريب في الهواء تلك الليلة، شيء داكن وشرير. تركنا كل شيء خلفنا واتجهنا مباشرة إلى جامع علي باشا، الموجود هناك. لا تفهمونا خطأ، لم نأخذ معنا أياً من الشراب، أوه لا؛ لأن هذا محرّم، لا ياسيدي، لم نفعل. ومنذ ذلك اليوم المشؤوم، بقيت بعيداً عن هذا العمود، شكراً جزيلاً لكم". رفع يده متحدّياً. "سيدي كبير المفتشين، قلت لنفسي في تلك الليلة، حين ظهر قسطنطين لنا، إن النصارى لن يتخلّوا عن القسطنطينية، لا ياسيدي. سيحاولون استعادتها وسيحوّلون حياتنا إلى جحيم في تلك الأثناء. والآن، عندما أرى هذا الرجل المسكين ملقى هنا، أفكّر في قرارة نفسي أنه ربما يكون أحد قدّيسيهم متنكراً، وقد وضعه قسطنطين هنا لتحذيرنا، وليطلب منا أن نثابر على العمل. كما ترى ياسيدي، هذا هو السبب الذي جعلني أسأل إن كان نصرانياً".

قلت مبتسماً وأنا أهزُّ رأسي: "لا بأس بهذا". استدرت إلى علي الذي كان يحمل لاسلكياً يخشخش. "إذاً ياعلي، هل هذا كل شيء؟ هل هذا ما

كانا سيبلّغان عنه؟".

قال مستجمعاً قواه: "لا ياسيدي. أظن أنهما ربما شاهدا بعض المشتبه فيهم". وحدّق إلى الرجلين. "الآن، أخبرانا عمّا رأيتماه".

كان سيفان على وشك أن يتكلم حين تدخّل سيلو. "حسناً، أنا رأيت يداً تبرز من الكيس".

قالت زينب بحدّة، وكلها آذان صاغية: "أي كيس؟ ما هذا الكيس؟ أين؟".

"كيس جامع القمامة ياآنستي. هل تعرفين أولئك الأشخاص الذين يخرجون في الليل ويفتشون في مكبّات النفايات؟ أحدهم. لديهم تلك العربات الضخمة ذات العجلتين التي يدفعونها في الأرجاء ويضعون عليها أكياساً وحقائب ونفايات قد جمعوها. إنهم يحشون تلك الأكياس بقوارير وعلب معدنية وقصدير وورق وكل ما يجدونه. حسناً، كان الرجل يدفع أمامه إحدى تلك العربات، وعليها كيس كبير من نوعٍ ما، وقد رأيت اليد هناك، تبرز من الكيس، وأشرت إلى سيفان حتى يراها. قلت: انظر أيها الأخرق الثمل اللعين! صديق ذلك الرجل هناك مرهق جداً؛ لذا ينقله إلى المنـزل مستعيناً بالعربة . كيف كان لنا أن نعرف أنها جثة ميت؟".

قال سيفان: "هذا صحيح، أنا رأيتها أيضاً. تجاوزَنا الرجل هناك ولم يرنا، لكننا رأينا الكيس...". توقف عن الكلام قليلاً ثم تابع: "أقول إنه كيس، ولكن ربما كان ملاءة من نوعٍ ما. كان الظلام حالكاً حينها، وكانت رؤية ذلك بوضوح أمراً صعباً".

سألت بنفاد صبر، وأنا أشعر بأننا قد اكتشفنا شيئاً: "هل رأيتما الرجل الذي كان يدفع العربة؟".

"طبعاً رأيناه. كان هناك أمامنا، يدفع العربة".

"كيف كان شكله، وكيف بدا؟".

قال سيفان وهو يحكُّ رأسه: "لست واثقاً. كان الظلام مخيماً؛ لذا لم أستطع رؤية وجهه على نحو ملائم، لكنه متوسط الطول كما أفترض، ومفتول العضلات وممتلئ".

تدخّل سيلو: "هراء". ثم استدار وخاطبني. "إنّه يقول كلاماً فارغاً أيها المدير. أنا من لفتُّ انتباه سيفان إلى الرجل في المقام الأول، وكنت أول من رآه. كان رجلاً نحيلاً وطويلاً، مثل عصا. لم نرَ وجهه بسبب اعتماره قبعة".

قال سيفان: "كانت قبعة عريضة لعينة. ليست كبيرة جداً، ولكنها

بدت أكبر حجماً بسبب المعطف الكبير الذي كان يرتديه".

كنت قد رفعت آمالي من دون جدوى. لم تكن لدى هذين الرجلين أي أدلّة أو معلومات لنا، وقد شاهدا على الأرجح جامع قمامة حقيقياً، لكنني كنت مضطراً إلى طرح السؤال.

"حسناً، لكن هل رأيتما الرجل مجدداً؟".

ردَّ سيفان فوراً: "طبعاً رأيناه". استدرت إليه ونظرت إلى عينيه متوعداً.

"أصغِ إلي جيداً الآن. من الأفضل أن تقول الحقيقة، فنحن لا نلعب هنا. لقد وقعت جريمة قتل، ولدينا جثة بين أيدينا". صمت قليلاً لأسمح له بأن يستوعب ذلك، ثم تابعت: "الآن أخبرني، هل رأيت الرجل؟".

تردّد وأشاح ببصره بعيداً. ثم قال وهو يستدير إلى صديقه طلباً للمساعدة: "نحن... رأيناه أيها المدير. أخبره ياسيلو، ألم نره حين عاد؟".

بحلول هذا الوقت، كان سيلو يرتعش خوفاً، ولم يستطع أن يقرر إن كان سيخبرنا الحقيقة أم سيمنحنا الجواب الذي ظنَّ أننا نريده. وكزه علي بمرفقه.

"ما الذي تنتظره؟".

صرخ متراجعاً إلى الخلف: "آه! لا بأس، لا بأس، سأخبركم بما رأيته". استجمع قواه وسحب نفساً عميقاً؛ مثل جندي على وشك أن يقدّم تقريراً إلى ضابط رفيع المستوى. "رأيناه أيها المدير. عاد مع العربة، وسار أمامنا مباشرة".

"هل رأيتما وجهه؟".

هزَّا رأسيهما.

"والحمولة على العربة، هل كانت لا تزال هناك؟".

لم أتلقَ رداً، وعرفت أنني قد اقترفت غلطة بالقسوة عليهما. كان كلاهما متحمسين للكلام قبل بضع دقائق، لكنهما أصبحا الآن مثل طفلين ضُبطا وهما يسرقان تفاحاً.

قلت بلطف، محاولاً تبديد قلقهما: "اسمعا، لا يوجد ما تخافان منه، ولا أحد يتهمكما بأي شيء. أخبرانا فقط بما رأيتماه".

كان سيلو أشجعهما، فسحب نفساً عميقاً وشرع يقول: "كان الكيس فارغاً أيها المدير. رأيناه على العربة، لكن البضائع كانت قد سُلّمت إلى العنوان المنشود".

دمدم علي: "أي عنوان لعين؟ ما الذي تتكلم عنه بحق الله؟".

"أعني أن الكيس قد أُفرغ ياسيدي. لم يبدُ ممتلئاً".

"هل أنت واثق؟".

"تماماً...".

حذّره علي: "اسمع، إذا كنت تكذب".

تراجع الرجل المسكين إلى الخلف خوفاً. "أنا أقول الحقيقة وأقسم على ذلك. إذا كنت أكذب، فاللعنة على أمي...". توقف ونظر إلى زينب مجدداً. "آسف لأنني استخدمت هذه اللغة ياآنستي، لكن المفتش الصالح هنا لا يصدّقني...". كان في حالٍ يرثى لها، فاستدار إلى صديقه ليستمد منه الطمأنينة. "لماذا لا تقول شيئاً أيها الأحمق؟ أخبرهم أن الكيس كان فارغاً حين عاد!".

قال سيفان أخيراً: "كان فارغاً أيها المفتش. أقسم على القرآن الكريم إنه كان فارغاً. لم يكن هناك شيء داخله؛ لا جثة، ولا قمامة، ولا شيء إطلاقاً...".

كأس الشّراب

قضينا ساعات في شوارع سمبرليتس المقفرة والمعتمة ونحن نبحث عن القاتل وعربة نفاياته، لكننا لم نجد جامع قمامة واحداً، فضلاً عن شخص غامض يمكن أن نستجوبه. يقولون إن الطائر الذي يستيقظ باكراً يلتقط دودة، ويقولون أيضاً إن شوارع إسطنبول معبّدة بالذهب، لذا لا بد أن تكون نفاياتها قيّمة بطريقة ما، وأولئك الذين يصلون أولاً يختارون ما يريدونه منها. ربما كان سيفان وسيلو يقولان الحقيقة؛ رغم رؤيتهما المشوّشة وهلوستهما بالإمبراطور قسطنطين المزعوم. وعلى الرغم من أن وصفهما للمشتبه فيه كان متناقضاً، إلا أنه أفضل من لا شيء؛ فعلى الأقل صارت لدينا صورة لرجل ينقل ضحيته في عربة نفايات في منطقة سمبرليتس.

عندما أنهى رجال وحدة البحث الجنائي عملهم، أعدناهم إلى المقر، ونُقلت الجثة إلى المشرحة، ثم اتجهنا إلى مطعم في السلطان أحمد يفتح أبوابه أربعاً وعشرين ساعة. لم نكن نتضوّر جوعاً فقط، وإنما أردت أيضاً أن أسمع ما سيقوله علي وزينب عن زيارتهما إلى المطعم في سبتسيلر- قصر صانعي السلال- في الأمسية السابقة.

عندما دخلنا، لاحظنا أن المطعم خاوٍ، باستثناء سائحين أشقرين كثّي الشعر لا يستطيعان على الأرجح تحمّل تكلفة فندق، لذا يغفوان وهما جالسان إلى طاولة، وثلاثة سائقي سيارات أجرة يستمتعون بتناول بعض أطباق الحساء. شدَّ السائحان قامتيهما بانـزعاج حين شاهدا ثلاثة من رجال الشرطة يدخلون المكان، لكنهما عادا إلى النوم فوراً عندما أدركا أننا لسنا مهتمين بهما مطلقاً. لم يُزعج سائقو سيارات الأجرة المنسجمون عادة مع الشرطة أنفسهم برفع أبصارهم إلينا. أتذكر ما كان سائق سيارة أجرة عجوز قد قاله لي مرة قبل عدّة سنوات: "لا تفهمني خطأ أيها المدير، لكن هناك ثلاثة أنواع من العاملين في العالم اليوم يشتركون في كل شيء؛ سائقي سيارات الأجرة، والغانيات، وأفراد الشرطة. إنهم يعملون جميعاً ليل نهار، ويغرقون في الأسى والكرب حتى آذانهم، ويقابلون كل أنواع البشر على الكوكب. ونحن نتعامل معهم جميعاً ياكبير المفتشين؛ مدمنين، وعاشقين تخلّى عنهم أحبّاؤهم، ومكتئبين، وأبرياء، ومنحرفين، ومروّجي ممنوعات، ومختلّين عقلياً. نحن نرى كل القذارة والبؤس الموجودين في العالم ونستوعبهما كلهما، وكل ذلك من أجل أجر زهيد أيضاً، بالكاد يكفينا لنضع طعاماً على الطاولة. أقول لك أيها المفتش إن العمل في هذه المهنة ليس سهلاً، وأرجو

من الله أن يمنحنا القوة...".

كان محقاً. فأفراد الشرطة والغانيات وسائقو سيارات الأجرة هم الذين يتعاملون مع حثالة المجتمع؛ مع أولئك الموجودين في القاع، ولا أعني فقط أولئك الذين يقتلون أو يلقون حتفهم من أجل بضعة قروش، وإنما أولئك الذين يفتقرون إلى الصحبة أو الشرف أو الضمير رغم ملايينهم؛ الدرك الأسفل من الناس. أسوأ شيء في ذلك أنه كلما ازداد تعاملنا معهم، أصبنا بالعدوى منهم، وأصبحنا أكثر فساداً. يقدّم المحتالون رشى إلى المفوضين؛ لإبقاء أبنائهم القتلة خارج السجن، أو يستفيدون من نفوذهم وعلاقاتهم مع أصحاب المناصب الرفيعة لتهديد أولئك الضباط الذين يحاولون مواجهتهم، أو يوقفوننا عن العمل إن كنا شجعاناً أو مختلّين كفاية لمواجهتهم. نعم، ليس هناك شك في أن عمل الشرطة قذر، وعندما يكون هناك أشخاص محترمون وصادقون يعملون في السلك، مثل علي وزينب، أبذل دائماً قصارى جهدي لحمايتهم وإبعادهم عن المشكلات.

جلسنا إلى طاولة في الزاوية، وطلبنا بضع شطائر وبعض الشاي وشرعنا في العمل. كانا قد أبليا حسناً؛ نظراً إلى قيود الوقت أيضاً، خاصة زينب التي اكتشفت بعض التفاصيل المقلقة عن الضحية الأولى.

قالت وهي ترتشف الشاي: "هناك احتمال كبير جداً بأن يكون نجدت دينيزل متورطاً في التجارة بطريقة غير شرعية بقطع نقدية أثرية. لقد وجهت له الجامعة التي يعمل فيها توبيخاً".

"مهلاً، إذا كان الرجل متورطاً في التهريب، فلِمَ لم تطرده الجامعة؟".

"لم يثبت شيء بعد، ليس من وجهة نظر قانونية على كل حال. في الواقع، كان جامع قطع نقدية، والنقود في مجموعته كلها موثّقة في متحف الآثار، فما إن يحصل على قطعة جديدة، حتى يبلغ المسؤولين في المتحف. لقد ادّعى أنه فعل هذا دائماً، لكن كل شيء تغيّر حين أخبر تاجر بضائع غير قانونية ومهرّبة الشرطةَ في أثناء توقيفه أنه باعه كمية جديدة من قطع النقود. عندها، فُتحت قضية ضد نجدت، لكن التاجر تراجع عن إفادته لسبب غير معروف، وأُطلق سراح نجدت للافتقار إلى الأدلّة. على كل حال، فتحت الجامعة تحقيقاً خاصاً بها في القضية، واعتبرت أفعاله مشينة، وأوقفته عن العمل ثلاثة شهور".

قلتُ وأنا أقضم لقمة من الشطيرة: "إذاً، كان نامق يخبرنا الحقيقة. يبدو أن عالم الآثار لم يكن نقياً مثل الثلج".

قال علي وهو يبتلع طعامه: "قد يكون هذا صحيحاً أيها المدير، لكن

"نامق" قرمان ليس بريئاً أيضاً. لقد أُدخل شرطيان إلى المستشفى بسببه، وأحدهما كاد أن يلقى حتفه".

كانت القصص تصبح أكثر إثارة.

قلت: "تابع".

قال بعد أن شرب جرعة كبيرة من الشاي: "تعرض منـزله للتفتيش".

شعرت ببعض الحيرة مما قاله فسألته: "متى؟".

"في بداية الثمانينيات، في أثناء حظر التجول بعد الانقلاب".

"علي، هل تتكلم عن شيء حدث قبل عشرين سنة؟".

"نعم ياسيدي، عام 1981 . كان نامق هذا إرهابياً. حسناً، في شبابه على كل حال. أغارت القوى الأمنية على المنـزل الذي كان يقيم فيه فأطلق النار، وأصاب شرطيين، ثم حاول أن يلوذ بالفرار. تعرض إلى إصابة في أثناء محاولته الهرب، وكانت خطرة أيضاً كما يبدو، وبقي في المستشفى لمدة شهرين. حُكم عليه بالسجن المؤبد حين خرج من المستشفى".

"السجن المؤبد!؟".

"لكنه لم يقضِ إلا عشر سنين في السجن، وقد أُطلق سراحه بعد العفو عنه. عاد إلى الجامعة، وتابع دراسته، وتخرّج طبيباً".

"وهل تورط في مثل هذا النوع من الأعمال مجدداً؟".

كاد أن يرد بالإيجاب، لكن زينب تكلمت أولاً وقالت: "ليس حقاً. لم يتورط في أي نشاط مسلح منذ إطلاق سراحه".

ردَّ علي بتهذيب: "وماذا عن المظاهرات والمسيرات غير القانونية...؟".

قالت زينب مدهوشة: "توقف عن هذا ياعلي، امنح الرجل فرصة. إن الصعود على متن مركب وإيقاف حركة الملاحة في البوسفور، وتقييد المرء نفسه إلى بوابات آيا صوفيا احتجاجاً على تشييد مبانٍ في مواقع تاريخية، وتنظيم مسيرات ضد بناء جسر مترو فوق القرن الذهبـي ليست أفعالاً تخريبية، فالجميع يفعلون هذا".

لم تكن لدي أي فكرة عن سبب حماستها الشديدة للدفاع عن الرجل، لكن لم يكن هناك شك في صحة ما تقوله. على كل حال، كانت عضوية نامق قرمان في منظمة مسلحة شيئاً يستحق الاهتمام.

"وماذا عن رفاقه القدامى؟ هل لا يزال على علاقة معهم؟ أم إن لديه علاقات بمجموعة أخرى؟".

"تفكّكت المنظمة القديمة أيها المدير إلى مجموعات منشقة ومبعثرة. ولا يبدو أن لديه علاقة بأي مجموعة إرهابية أخرى".

تمتم علي وهو يقضم لقمة من شطيرة ثانية: "إما هذا أو إن العلاقة لم توثّق. لن يكون الأمر مفاجئاً؛ فقد أطلق الرجل النار على رجال الشرطة، بحق الله".

كان منفعلاً وثائراً، ولكن لديه وجهة نظر سديدة. لم يكن هناك ما يشير إلى أن الجريمتين اللتين نحقق فيهما فرديتان بطبيعتهما، وتحملان كل صفات العمل المخطط له والمنظم الذي قام به أكثر من شخص واحد غاضب، لذا بدا من المنطقي مراقبة نامق قرمان. على الرغم من ذلك، اضطررت إلى الاحتفاظ بمثل تلك الأفكار لنفسي في ذلك الوقت.

سألتُ: "وماذا عن ليلى باركين؟ هل كانت تقول الحقيقة؟ هل تشاجرت مع نجدت دينيزل في مطعم قصر صانعي السلال؟".

قال علي: "يبدو أنها تقول الحقيقة أيها المدير. أكّد ثلاثة نُدل في المطعم ما قالته، وأخبرونا أنها أفرغت كأساً من الشراب فوق رأسه وغادرت المكان بسرعة".

كان واضحاً أن شيئاً ما قد حدث بين علي وزينب؛ فعندما وصف علي ما قد عرفه في المطعم، بدت متجهّمة. لا شك أنهما قد خاضا شجاراً آخر، لكن لم يكن مزاجي ملائماً للتعامل مع المشاكل في علاقتهما.

"هل ذهبتما معاً؟".

حدّقا إلى الأرضية بصمت.

قال علي أخيراً: "نعم ياسيدي. أنا تكلمت مع النُدل في حين استجوبت زينب مدير المطعم...".

لم يكن ذلك ما أردت سماعه، فحاولت مرة أخرى.

سألتُ وأنا أحرّك بعض السكر في فنجان الشاي: "والمنظر؟ كان رائعاً، أليس كذلك؟".

قالت زينب: "إنه كذلك أيها المدير". على الأقل كانا يتكلمان آنذاك، لكن لا يزال هناك خطب ما. "طبعاً، كان الشجار مع المفتش غورمن هناك يعني فرصة ضئيلة للإعجاب بالمنظر أو الاستمتاع بالطعام...".

أحمقان، لقد تشاجرا مجدداً.

"لماذا؟ ماذا حدث؟".

دفع علي طبق شطائره بعيداً عنه بعد أن فقد شهيته. "بسبب الشراب أيها المدير؟".

ما الذي يقصده هذا الأحمق؟

"عذراً؟".

قالت زينب، وهي تملأ على نحو مفيد الفراغات المبهمة: "الشراب، ذاك الذي أراقته ليلى باركين على رأس طليقها".

"نعم، نعم، ماذا عنه؟".

"شعر المفتش علي غورمن بالانـزعاج من تصرّفها ذاك. بدا واضحاً بالنسبة إليه أن التصرّف بمثل تلك الطريقة لا يلائم سيدة؛ خاصة واحدة في مثل مكانتها...".

قال: "حسناً، هل هذا ملائم أيها المدير؟ إنها مديرة متحف، ويجب أن تكون أكثر حرصاً في ما يتعلق بسلوكها، أليس كذلك؟ أعني، كيف يمكنها أن تتصرف على ذلك النحو وتسكب كأساً من الشراب على رأس الرجل علانية؟ هذا ليس تصرفاً مهذباً، وإنما اعتداء".

لم أستطع كبح جماح نفسي وبدأت أضحك؛ بصمت في البداية، ثم بصوتٍ عالٍ؛ الأمر الذي أثار دهشة سائقي سيارات الأجرة الثلاثة، والنُدل المتعبين في المناوبة الليلية، والسائحين اللذين استيقظا على صوت قهقهتي واستدارا آنذاك ليحدّقا إلينا.

صرخت وأنا لا أزال أضحك على نحو سخيف: "أيها الشابان، ماذا تظنان أنكما فاعلان؟".

سأل علي، وهو يحدّق إليّ بارتباك: "ماذا فعلنا!؟".

سألت: "ألا تعرفان حقاً؟". ونظرت إليهما بإمعان. "آسف، لكنكما...". كنت سأقول زوجاً من القرود ، لكن قلبـي لم يطعني بأن أقسو عليهما. لذا، قلت وأنا أكبت ضحكتي قليلاً: "سخيفان حقاً. كنتما في مطعم رائع يطل على منظر يحبس الأنفاس وانتهى الأمر بكما وأنتما تتشاجران معاً؛ لأن امرأة لا تعرفانها جيداً سكبت كأساً من الشراب على رجل لم تعرفاه قطّ! ما هذا بالله عليكما؟".

أخفض علي رأسه إحراجاً، فيما بدت زينب غاضبة.

شرعت تقول: "لكن، أيها المدير...".

قلت: "لكن، لا شيء يازينب. ما شأنكما إن سكبت ليلى باركين كأساً من الشراب على رأس نجدت دينيزل؟ إذا كان لهذا أي علاقة بتحقيقنا، فلا بأس في ذلك؛ امضيا قدماً. لكنهما زوجان مطلّقان يتشاجران بحق الله. أنتما الشخصان الوحيدان اللذان أثق بهما في السلك كله وانظرا إلى ما فعلتماه! من يقيم وزناً لشخصين آخرين؟ بدلاً من الجدال بشأن مشكلاتهما، لماذا لا تسوّيان العلاقة بينكما؟".

صمتُّ في اللحظة التي قلت فيها العلاقة بينكما ، وأدركت أنه كان

يجب عليّ أن أتفادى ذكر ذلك، كما أتجنّب إخبارهما أنني أعرف حقيقة مشاعرهما تجاه بعضهما. هل كنت محقاً في الحديث إليهما على ذلك النحو؟ بالمحصلة، لم أكن والدهما، وإنما قائدهما ومديرهما. في النهاية، ستفترق سبلنا، وسيعملان تحت إمرة شخص آخر. من كنت أنا لأتدخّل في حياتهما الخاصة؟ في علاقتهما العاطفية؟ إن كانا يحبان بعضهما أو كانت بينهما علاقة من نوعٍ ما فذلك ليس من شأني. ربما كنت مخطئاً على كل حال، وليست هناك مثل تلك العلاقة أو المشاعر أصلاً. وربما لم يكن هناك أي إعجاب بينهما على الإطلاق. نعم، هذا صحيح، لقد اقترفت خطأ. لم يكن هناك حب بين الاثنين، ولهذا السبب يتشاجران دائماً.

قلت محاولاً تفادي خطئي المحرج: "أياً يكن الأمر، فهذا ليس من شأني. ما عنيت قوله هو أن خلافكما لم يكن بسبب قضية مهمة، وإنما لشيء تافه".

رفع علي بصره. "في الواقع أيها المدير، أنت محق. لم يكن ذلك مهماً أو ضرورياً".

ربما لم يكن يحقّ لي التدخّل، لكن توبيخي الرقيق بدا على الأقل أنه قد أثمر، فنظرت إلى علي بإعجاب. عادة، كانت زينب هي التي تتحلّى بالمنطق، لكن "علي" هذه المرة هو الذي يحاول أن يتصرّف بعقلانية. كدت أهنئه على خطوته الجريئة حين تابع كلامه وأفسد كل شيء.

"كنا هناك في عمل رسمي، ولم يكن من المفترض أن نسمح لمشاعرنا الشخصية بأن تعطّله".

أياً يكن ياعلي، أحسنت ياعلي؛ أنت تمسك بالطرف الخاطئ من العصا، كالمعتاد. حان دور زينب آنذاك لتسيء فهم نواياي تماماً.

"أوافق على هذا ياسيدي. ما كان ينبغي لنا أن نتجادل بشأن قضايا شخصية، أو نسمح لذلك بأن يؤثر في عملنا".

ابتسمت مجدداً. لم يكن لدى الأحمقين المبتليين بالحب، هذين الصغيرين الجميلين، أي فكرة عمّا كنت أحاول أن أجعلهما ينطقان به.

"ماذا عساي أقول إذاً؟ ليسبغ الله عليكما ما تستحقانه".

قال علي غافلاً عن قصدي كالمعتاد: "شكراً ياسيدي، شكراً جزيلاً".

كلاهما أحمقان، ولا فائدة ترجى منهما. في أحد الأيام سيظهر شخص ما، رجل يتحلّى بالشجاعة والجرأة، وربما سيدفع زينب المسكينة إلى اتخاذ قرار كريه، ثم سيجدان نفسيهما مرتبطين من دون أن يتذوقا طعم الحب الحقيقي أبداً، وسينظران إلى الماضي والفرص الضائعة، ويفكّران من دون

طائل في قلبيهما المفطورين بأسى.

قلت محاولاً إظهار سخطي: "حسناً، لنذهب. كاد الصبح ينبلج، ونحن مرهقون. إذا لم ننل قسطاً من النوم، فسنكون في حالٍ يرثى لها غداً".

اتجهت إلى الرينو المتهالكة في حين ركبا سيارة علي. فكّرت في أنهما ربما سيتصالحان، بعد أن رأيت أنهما لم يتكلما مع بعضهما في أثناء خروجهما من المطعم، لكن ربما كانا يتصرفان على ذلك النحو لأنني معهما. عندما ركبت السيارة، لم يسعْني إلا أن أراقبهما من المرآة الجانبية. نعم، كان علي متجهاً إلى أكساراي لإيصالها، فهمست: "أيها الفتى السخيف، لماذا ستذهب إلى المنـزل؟ لا شيء هناك لك. خذها إلى سارايبورنو، إلى حيث أُقيم أول معبد في المدينة، وشاهد شروق الشمس الرائع فوق التلال مع المرأة التي تحبها...". لكنّه لم يفعل ذلك طبعاً، حتى إنّه لم يخطر له. فتى مسكين... في يوم ما، عندما يتلاشى انفعال الشباب وشغفه وتخمد نيران الجسد والقلب وتنطفئ في نهاية المطاف... سيدركان آنذاك فقط ما قد فرّطا فيه.

لكن، آنذاك سيكون الوقت قد فات...

الجلاد المجهول

رأيته جنوب العمود، بجانب محطة الترام، كما وصفه سيفان تماماً: مربوعاً وقوي البنية، ويعتمر قبعة عريضة داكنة تخفي وجهه. وقبل أن تسنح لي فرصة إيقافه، اختفى مع عربته في الظلال، لكنني تعقّبته. كان سريعاً، أسرع مني بكثير، وبحلول وقت وصولي إلى شارع ديفان يولو، رأيته آنذاك بجانب ضريح السلطان محمود الثاني، وهو لا يزال يدفع عربته. عرفت أنه شاب يافع؛ لأنه سريع جداً، فسحبت نفساً عميقاً، واستجمعت قواي وتبعته، لكن من دون جدوى؛ ففي المرة الأخيرة التي رأيته فيها، كان يختفي في زاوية بجانب دار العدل. وجدت نفسي ألهث بقوة، لذا توقفت لبعض الوقت، واستندت إلى شجرة دُلب كبيرة بجانب الطريق، وظننت أنني قد فقدته إلى الأبد. لكن، عندما انتظمت أنفاسي ومشيت إلى دار العدل، رأيته هناك بجانب باب حديدي ضخم يقف محدّقاً إليّ. وعندما توثق من أنني قد رأيته، استند إلى الباب وبدأ يدفعه.

صرختُ وأنا أحثُّ خطاي: "توقف! توقف! شرطة!".

لم يصغِ إليّ، وتابع دفع الباب الثقيل بكل قوته. لم أظن أنه سيتزحزح لكنه فتحه قليلاً، ثم استدار ليسخر مني تقريباً، وانسلَّ عبر الفتحة، وطقطق الباب بهدوء حين أُغلق خلفه.

لم يكن بمقدوري الاستسلام، فاستجمعت قواي مجدداً وركضت نحو الباب. كان قلبي يخفق بقوة، وشعرت بأن رأسي على وشك الانفجار من ذلك الجهد، لكنني تجاهلت الألم ووصلت إلى الباب، ثم أقحمت جسدي عبر الفتحة قبل أن يُغلق تماماً. لكن، ما الذي كان أمامي؟ وقبل أن تسنح لي الفرصة لاستعادة تركيزي، وقبل أن يُغلق الباب خلفي تماماً، أُضيء المكان كله، وأفسح ليل الربيع الحالك المجال لصباح صيف ساطع. بهر الضوء عينيَّ، وتردّد صدى أصوات مجموعة من الناس المتحمسين لإراقة الدماء حولي.

"قتل! قتل! قتل!".

ما الذي كان يجري؟ إلى أين دخلت؟ وفيما كنت أحاول تعوّد الضوء، امتدّت يدي إلى مسدسي من دون تفكير، لكنه لم يكن موجوداً، وفكّرت في أنه ربما سقط مني حين كنت أركض. وعندما ازداد قلقي، بدأ الضوء يخفت قليلاً، وشرعت عيناي بتمييز ما يحيط بي بوضوح أكبر.

كان الأمر جنونياً... وجدت نفسي في مضمار قديم يمتلئ بحشود من

آلاف الأشخاص. لم تعد ساحة السلطان أحمد موجودة، ويبرز مكانها مدرّج روماني، ومقاعده الحجرية المهيبة مملوءة بحشود تصرخ. عندما حاولت تحديد مكاني، رأيته مجدداً؛ ذاك الرجل الذي كنت أطارده. بدا هادئاً ومسترخياً، لا يخشى شيئاً أو أحداً. مشى بخطوات واثقة نحو وسط الساحة، ثم خلع رداءه ليكشف عن جسد قوي مفتول العضلات مكسوٍ بدرع سوداء. رفع يده وأمسك قبعته العريضة، وظننت أنه سيخلعها، وسأتمكن من رؤية وجهه أخيراً، لكن القبعة تحولت إلى خوذة، وتحوّل جامع القمامة إلى محارب شديد البأس. وقبل أن يتمكن أحد من ذكر الشيء الوحيد المفقود لإكمال هيئته، اقترب جنديان رومانيان منه وقدّما له فأساً مزدوجة النصل. وفيما كان كل ذلك يحدث، بقيت الحشود على المدرّجات صامتة، تراقب بأنفاس محبوسة. لكن عندما رفع الفأس في الهواء، ولمع الضوء على نصليها، واستدار محيّياً أولئك الذين يشاهدونه، صرخ المحتشدون بابتهاج شديد مجدداً، وتكرّر الطلب القاسي في كل أرجاء المدرج، وردّدت الجدران الحجرية الصوت:

"قتل! قتل! قتل!".

لكن، من الذي يُفترض قتله؟

لم ينقضِ وقت طويل قبل أن أكتشف ذلك. إذ أمسكتني يدان تشبهان ملزمتين من كتفي. وقبل أن أستوعب ما يجري، كان جنديان رومانيان عملاقان يجرّانني على الأرض. شعرت أنهما قويّان جدًّا، ولم يكن بمقدوري أن أحرّك ساكناً. سحباني إلى وسط الحلبة، وألقياني عند قاعدة مسلّة حجرية ضخمة كانت قد أحضرت من مصر، فسقطت هناك على كومة من التراب والغبار. شمَّ المحتشدون - حين رأوني أسقط - رائحة الدم، وبدأوا بالعواء مثل قطيع من الضباع وهم يهتفون:

"قتل! قتل! قتل!".

نهضت ببطء، وحاولت الوقوف على قدميّ، ثم زحفت إلى ظل العمود هرباً من أشعة الشمس الحارّة، لكن ركلة قوية على مؤخرتي جعلتني أقع على الأرض، وازدادت الضوضاء الصادرة من الجمهور الصاخب:

"قتل! قتل! قتل!".

وعندما رفعت رأسي، رأيت جامع القمامة الذي أصبح محارباً يمشي نحوي بخطوات تنذر بالسوء. كان يعدُّ نفسه للمعركة، وأنا حسبما يبدو سأكون خصمه...

صرختُ: "انتظر! انتظر! ما الذي يجري؟ ماذا تفعل؟".

توقف مذهولاً؛ لأنني أتكلم معه.

قلتُ وأنا أجلس على ركبتيَّ: "لن أقاتلك. وإذا أردت أن تقتل رجلاً أعزل، فامضِ قدماً، هيا اضرب".

مشى إلي مباشرة ووقف أمامي مثل عمودٍ ثانٍ، والخوذة لا تزال تخفي وجهه.

قال ساخراً: "أيها الأحمق، هذه ليست معركة. لو كنا سنخوض قتالاً، لكنت قد حصلت على سلاح، ولواجهت مقاتلاً، لكنني لست كذلك، وإنما أنا مجرد خادم بسيط".

أُصبت بدهشة وارتباك شديدين، ونسيت خوفي للحظة.

سألت فيما كنت أحاول الوقوف على قدميّ: "لكن لماذا؟ لماذا تريد أن تقتلني؟".

رمتني ركلة على بطني فوق التراب مرة أخرى.

قال الجلاد حين رفعت رأسي: "لقد أخبرتك، أنا مجرد خادم وأطيع الأوامر، وقد أُمرت بقتلك".

لم يكن هذا هو الوقت المناسب للخوف أو الضعف، لذا حاولت أن أستجمع قوتي.

صرخت وأنا أبصق الدم والتراب من فمي: "من؟ أوامر من؟ الإمبراطور؟ قسطنطين؟ من؟".

ضحك بقسوة وقال: "أي إمبراطور؟ أي قسطنطين؟ أنت أحمق ومعتوه وجاهل؛ تماماً مثل الآخرين. كنت أظن أنك رجل ذكي. أي إمبراطور؟ وهل هناك أباطرة في هذا الوقت؟ إنّ المدينة نفسها هي التي تريد مني أن أقتلك، روح المدينة...".

اعترضت وأنا أتأمّل المكان حولي: "أي مدينة؟ ما الذي تتكلم عنه بحق الله؟".

فخلع خوذته ورماها على الأرض.

عندها، رأيت وجه نامق قرمان، نامق نفسه الذي تكلمنا معه مساء أمس. كان هو، حبيب ليلى باركين، ورئيس رابطة الدفاع عن إسطنبول، والجرّاح "نامق" قرمان. لم يُدهش من ارتباكي، وقال ناظراً حوله أيضاً: "بيزنطية. بأيّ مدينة فكّرت؟ بيزنطية، القسطنطينية، المدينة التي نهبتها وسرقتها ودمّرتها. لقد حان الوقت لردّ الدين، وتريد المدينة تصفية حسابها معك".

رفع فأسه، ولمع الضوء في عينيَّ، فصرخت بأعلى صوتي: "لا تفعل!".

لكن المحتشدين شعروا بإثارة كبيرة حين شاهدوه وهو يرفع فأسه، ورأى أن اللحظة التي ينتظرها قد حانت، ولم أستطع سماع صرخاتي وسط صخبهم:
"قتل! قتل! قتل!".

كانوا يصرخون بغضب وحماسة، فشعرت للحظة بأن تقديمي قرباناً أمرٌ ضروري. فإذا كان ذلك العدد الكبير من الناس يصرخون من أجل سفك دمي، فيجب أن يُراق بالتأكيد؟ لكن، عندما رأيت الضوء ينعكس عن الفأس مزدوجة النصل، أفسح خوفي مجالاً لرغبة لا تقاوم في الحياة. وفي فعل يائس أخير، رميت نفسي عند قدمي نامق، ليس توسّلاً إليه، وإنما لأحاول أن أرميه أرضاً، لكنه كان مثل التمثال، وبركلة واحدة منه أعادني إلى مكاني مرة أخرى. كل ما استطعت فعله هو أن أرفع يدي وأنتظر تلك الفأس لكي تبتر ذراعي مثل غصن شجرة، وتحطّم جمجمتي إلى أشلاء.

انتظر الحشد المخبول على المدرّج حابساً أنفاسه، وأطبق الصمت على المكان، وأصبح باستطاعة المرء سماع وقوع دبوس. دوّت آنذاك ضوضاء صاخبة، ما هذا الصوت؟ هل هو أمر الإمبراطور بتنفيذ الإعدام؟ لا، كان صوت جرس، وهناك شخص بجانب باب المضمار. جرسٌ على باب حلبة قتال! ما الذي يجري؟ استمر الجرس بالرنين على نحو متواصل. وعانيت مشكلة في فتح عيني... لم تكن الفأس قد نـزلت بعد...

استطعت أخيراً أن أفتح عينيَّ قليلاً... فتدفّق الضوء الباهر نفسه عبر أهدابـي، وضرب إحساسٌ حارق بياض عينيَّ. تجاهلت الألم، وحاولت أن أكتشف ما يجري حولي، وكان أول شيء رأيته صورة زوجتي وابنتي المبتسمتين لي، ثم باقة ورود في زهرية، وخزانة ثياب، ثم ورق جدران أبيض وأرجوانيًّا... استدرت، وأوقفت عمل المنبّه الموضوع على الطاولة بجانب سريري، ثم استلقيت مجدداً على السرير، وذهني مركّز على الكابوس الذي استفقت منه للتو. ماذا يُفترض به أن يعني؟ ماذا يُفترض بـي أن أستنتج من هذا الكابوس؟ أأستنتج أنني أتهم "نامق" بلا وعيي؟ أو أنني أشعر بالإعجاب تجاه الرجل الذي كنا قد استجوبناه أمس لأنه يحاول أن يفعل شيئاً للمدينة، وقد وجدت ذلك أمراً رائعاً. هل دفعته محاولة نجدت دينيزل التودّد إلى ليلى باركين إلى الجنون؟ فضلاً على ذلك، كان يكره طبيعة عمل نجدت الجديدة، وهذا وحده كافٍ لنا لوضعه على قائمة المشتبه فيهم. لكن "نامق" بدا صادقاً معنا؛ على الأقل حين تعلق الأمر برأيه في نجدت، وكانت مشاعره تجاه طليق ليلى من الأسباب الرئيسة التي جعلتنا نشتبه فيه في المقام الأول، وهو الذي أطلق أساساً صافرة الإنذار

بشأن نفسه. طبعاً، ربما كانت تلك استراتيجية؛ طريقة يخبرنا بها أنه بريء، وإلا فلماذا تكلم بتلك الصراحة؟

وماذا عن الجريمة الثانية؟ لقد نُفذ الطقس نفسه؛ إذ حُزّت عنق الضحية، ثم نُقل من مسرح الجريمة وأُلقي- عُرض- في موقع ذي أهمية تاريخية، ووضعت قطعة نقود بين كفيه، ومُدّد جسده مثل سهم يشير إلى موقع الضحية التالية... لكن لماذا؟ لماذا يقوم القاتل- أو القتلة- باغتيال الناس؟ هل لذلك علاقة بما قاله نامق في كابوسي؟ هل حصل ذلك من أجل إسطنبول، ولحماية المدينة؟ أم إنّ هناك شخصاً ما يحاول تصفية حسابات نيابة عن المدينة نفسها، ويحاول أن يثأر للدمار والتدنيس اللذين تتعرّض لهما؟ تذكرت "نامق" الهادئ ورابط الجأش، ونظرة التصميم الفولاذية تلك في عينيه الداكنتين حين قال إنه يدافع عن المدينة ضد همجيين. كان هناك أشخاص حوله يصدّقونه أيضاً، أشخاص لديهم أسر وأطفال، وذلك الشاب الجريء أحمر الشعر الذي كلّم "نامق" باحترام كبير... بدا استعداده لفعل أي شيء يريده "نامق" واضحاً.

لو أنني تابعت التفكير بهذه الطريقة وتوصلت إلى النتيجة المنطقية، لكنت قد اعتقلت "نامق" قبل الغداء. لكن الوقت لا يزال باكراً جداً على ذلك. لم أكن قد اعتقلت أحداً بسبب حلم قطّ، ولن أشرع في هذا الآن؛ خاصة مع شخص مثل نامق، كان يحاول على الأقل أن يفعل شيئاً إيجابياً للمدينة. على كل حال، كنت أدرك حقيقة أنني بالكاد أعرف الرجل، وأن القاتل في قضية جنائية ليس بالضرورة أحد الأشرار دائماً.

مدينة الأسماء الألف

أوقفت السيارة قرب المقاعد الخشبية القديمة المتداعية تحت أشجار الخوخ في الساحة المقفرة لمقر قيادة الشرطة. وفيما كنت أتساءل عن وقت وصول علي وزينب، رنَّ هاتفي الخلوي، وتبين لي أنها يفغينا؛ الإنسانة الوحيدة في هذا العالم المليء بالمشاغل والصاخب والقاسي التي تبدو مهتمة بـي.

"كيف حالك يانوزت؟". كان صوتها نعساً وقلقاً في الوقت نفسه. "ماذا حدث في الليلة الماضية؟".

قلت وأنا أقطع الساحة: "ماذا تتوقعين؟ مجنون آخر، وجريمة أخرى. ياالله يايفغينا! الجرائم في هذه المدينة لا تتوقف أبداً".

"تبدو متعباً، هل وصلت إلى المنـزل في وقت متأخر؟".

كذبت: "ليس حقاً". لم أكن قد نمت إلا بضع ساعات فقط، لكنني لم أرغب في أن تشعر بالقلق عليّ. "نمت بعمق، ماذا عنك؟ كيف حالك؟".

"لا شيء مختلف. استيقظت منذ قليل، وسأتجه إلى الخان بعد مرور بعض الوقت. يجب أن أحضّر بعض الأشياء؛ لأننا مدعوّان إلى العشاء هذا المساء". توقفتْ عن الكلام للحظة، ثم تابعت: "إن صديقيك رجلان لطيفان، لكن هناك كآبة في عيونهما؛ وكأنهما قد واجها مشقّات كثيرة".

لم تكن كلمة مشقّات تفي وضعهما حقه... تذكرت هاندان؛ وجهها البشوش المبتسم، وعينيها اللامعتين...

لم يكن الوقت أو المكان مناسبين لاستعادة مثل تلك الذكريات؛ إذ يجب أن أذهب إلى العمل.

قلت: "لقد واجها مصاعب كثيرة، وسأخبرك عنها يوماً ما".

قالت مبدّلةً الموضوع: "إذاً، ماذا عن الليلة؟ هل نلتقي في مكان ما أولاً ثم نذهب معاً؟".

كنا نلاحق مجرماً قتل شخصين خلال يومين، ولم تكن لديّ أي فكرة عن المفاجآت التي تنتظرنا في الساعات القادمة.

"تعرفين طبيعة عملي يايفغينا، وقد يطرأ أي شيء. ما رأيك بأن نلتقي في منـزل ديمير؟".

قالت: "لا بأس بهذا، لكن لا تتأخر ياحبيبـي".

"لا تقلقي، لن أتأخر. هل ستتمكنين من الوصول إلى المنـزل بمفردك؟".

"طبعاً سأفعل، إن عدم كوننا من بلاط، لا يعني أننا حمقى...".

تذكرتْ فجأة وسألت بقلق: "بالمناسبة يانوزت، هل تكلمت معهما؟ كيف حال بختيار؟".

كان بخير. وأخبرتها أنني قد اتصلت بديمير في الصباح، فقال لي إنه بدأ يمشي في وقت أبكر مما توقّع. ارتاحت يفغينا لدى سماعها ذلك، لكنها لم تنهِ المكالمة من دون أن تذكّرني بخطط المساء مرة أخرى.

"من فضلك، لا تتأخر ياعزيزي".

أنهيت المكالمة واتجهت إلى مكتب علي، ورأيت "علي" وزينب هناك يحدّقان إلى الشاشة، والأهم أن التوتر بينهما قد زال كما يبدو. ليباركهما الله، فربما لم يكونا أحمقين جداً بالمحصلة... لا، هذان الاثنان لن يتركا بعضهما. فهما يتشاجران فقط مثل قط وفأر، لكنهما في النهاية لن يؤذيا أو يخونا بعضهما أبداً.

قلت بمرح: "صباح الخير، ماذا تحللان هنا؟".

انتبها فجأة؛ وبدَوَا مثل طالبين قد ضُبطا وهما يغشّان في الامتحان.

قال علي: "صباح الخير أيها المدير". وأشار إلى الشاشة، باذلاً قصارى جهده ليمحوَ الابتسامة العريضة المرسومة على وجهه من أذن إلى أخرى. "نحن ننظر إلى تمثال قسطنطين هذا".

"فهمت، وما المميز جداً في هذا التمثال؟".

قالت زينب وهي تحاول أيضاً كبت قهقهتها التي جعلتني أكثر فضولاً: "لا أظن أنك ستراه أيها المدير". مشيت إليهما، فأفسحا المجال لي أمام الحاسوب.

كانت تظهر على الشاشة صورة كبيرة لامرأة، صدرها مكشوف، وشعرها مخضّب بالأخضر والأصفر والأحمر وكل الألوان الجذّابة الأخرى. كانت عارية؛ باستثناء جوربين قرمزيين ترتديهما.

سألت وأنا لا أزال أحاول النظر إلى الصورة من كل الزوايا: "من هذه المرأة؟ وهل تجلس في حضن رجل أم ماذا؟".

قال علي بعد أن تلاشت ابتسامته: "هذه ليست امرأة عادية أيها المدير، وهي لا تجلس في حضن رجل وإنما في حضن تمثال. إنه تمثال قسطنطين".

"قسطنطين! أتعني قسطنطين مؤسس القسطنطينية؟".

"هو نفسه أيها المدير".

استطعت رؤية ما كان يتكلم عنه حين ألقيت نظرة متفحصة على الصورة. كان قسطنطين جالساً على عرش، وإحدى يديه تمسك مقبض سيف

مغروز في الأرض، والأخرى تمتد إلى جانبه، وأصابعُه ممدودة نحو الأسفل. وكانت المرأة تجلس في حجره، وبدا واضحاً أنها ثملة جداً. وقد صعدَت على الأرجح إلى التمثال بعد ليلة صاخبة. كان علي وزينب لا يزالان يضحكان، ولكنني لم أرَ شيئاً مضحكاً في ذلك. في الواقع، كان هناك شيء محزن ومؤلم تقريباً في تلك الصورة، ولا يتعلق الأمر بالفتاة؛ فقد رأيت في أثناء عملي وتعاملت مع عددٍ لا يُحصى من أمثالها، لكن كيف يمكنني وصف الأمر؟ لقد رأيت شيئاً في هذه الصورة أثار القنوط في نفسي... لكنني قرّرت ألاّ أزعج "علي" وزينبَ بذلك.

سألتُ ببساطة: "إذاً، أين هذا التمثال؟ أهو في متحف الآثار؟".

قالت زينب بجدية هذه المرة: "في يورك أيها المدير". كانت نبرة صوتي كافية بالتأكيد لتعرف أنني لا أجد دعابتهما مسلّية. "في إنكلترا يا سيدي".

بدا ذلك غريباً...

"في إنكلترا! ماذا يفعل تمثال قسطنطين في إنكلترا؟".

"قبل أن يصبح إمبراطوراً، قاتل مع والده في الغال وبريطانيا".

كان علي قد بدأ يُظهر آنذاك بعض الاهتمام بالتاريخ، فسأل: "هل كان والده إمبراطوراً أيضاً؟".

"بطريقة ما، لكن ليس مثله. حكم روما أربعة حكّام في تلك الحقبة، أحدهم والد قسطنطين؛ قسطنطيوس. عندما توفي قسطنطيوس فجأة، اختار جنوده ابنه قسطنطين خليفة له. كان واحداً من بين عدّة قادة حكموا روما ثماني عشرة سنة كاملة قبل أن يصبح الحاكم الوحيد، بعد أن تغلّب على منافسيه، ثم نقل عاصمته إلى بيزنطية".

قلت: "شيء جيد". لكن، جال سؤال آخر في ذهني: لماذا لا توجد تماثيل لقسطنطين في إسطنبول؟ لماذا لم يفكر أحد في صنع تمثال له؟ بالمحصلة، ألم يكن هو- مثل السلطان محمد الفاتح والسلطان سليمان القانوني- أحد الأشخاص الذين جعلوا هذه المدينة مثالاً للنفوذ والثروة والقوة؟

قالت زينب؛ غافلة عن أفكاري: "على كل حال، لم يعش طويلاً بعد أن نقل مركز إمبراطوريته إلى هنا. فقد حكم سبع سنوات أخرى فقط".

قلتُ وأنا أشعر بالملل من درس التاريخ: "هل استطعت الحصول على أي تفاصيل عن ضحية الجريمة الثانية؟". أردت أن أعيد تركيزي وفريقي إلى العمل على الجريمتين الموجودتين بين أيدينا. "ما كان اسم الرجل؟".

"مقدّر كيناسي أيها المدير".

"هذا هو، مقدّر كيناسي. هل عرفنا شيئاً عنه حتى الآن؟".

قالت زينب وهي لا تزال واقفة: "كان مخطط مدن، وعمل في وكالة مرتبطة بمجلس المدينة. يمتلك مبنى سكنياً من أربعة طوابق في كارسامبا".

قلت بحزن: "يمتلك مبنى سكنياً! هه؟ هذا كثير بالنسبة إلى موظف بلدية، أليس كذلك؟".

قال علي وهو يومئ موافقاً: "بالتأكيد. يبدو أن مقدّر كيناسي هذا كان يخفي شيئاً ما أيضاً، مثل السيد نجدت دينيزل تماماً".

قالت زينب وهي تُدلي بالتفاصيل المهمة كالعادة: "لكن، وفقاً لما استطعنا معرفته، ليس لديه سجل إجرامي من أي نوع، ويبدو شريفاً. إنه متزوج ولديه ولدان، أحدهما في المدرسة الثانوية والآخر في الجامعة".

"هل تمّ إبلاغ أفراد الأسرة؟ هل يعرفون بما حدث؟".

أومأت زينب. "إنهم يعرفون، فقد كانت الجريمتان الخبر الرئيس في نشرات الصباح. عرضت إحدى الصحف عنواناً يقول إنهما قدّما كقربان إلى أتاتورك".

دمدم علي، وغضبه يثور تحت السطح كالمعتاد؛ جاهزاً للانفجار: "أوغاد، حمقى، سيفعلون أي شيء ليبيعوا ورقهم الرث".

"لماذا هذا الغضب العارم ياعلي؟ كنت تقول الشيء نفسه أمس فقط، أليس كذلك؟".

"نعم، لكنني كنت فقط أفكر بصوتٍ عالٍ أيها المدير؛ محاولاً التعبير عن بعض الأفكار. أمّا هؤلاء الأشخاص فيقدّمون تخمينات لا طائل منها".

قالت زينب: "ويخيفون الناس أيضاً. كان أحد المتحدثين عبر إحدى القنوات يتكلم عن احتمال وقوع المزيد من الجرائم".

حان الوقت آنذاك لأخبرهما الحقيقة، فقلت: "كان محقاً، سيضرب القاتل، أو القتلة مجدداً".

حدّق كلاهما إليّ طويلاً، وكانت عالمة الجريمة اللامعة هي التي تكلمت أولاً.

"ما الذي يجعلك تفترض هذا أيها المدير؟".

"أنا لا أفترض شيئاً يازينب، وإنما أنا واثق تماماً بأن جرائم أخرى ستقع. انظري فقط إلى القطعتين النقديتين اللتين عثرنا عليهما. كانت هناك قطعة نقدية بيزنطية مع جثة الضحية الأولى، وقطعة نقدية من القسطنطينية مع الثانية، ولم نصل إلى إسطنبول بعد".

صرخ علي وعيناه تتسعان دهشة: "ماذا؟! هل تعني أننا سنجد ميتاً لكل حاكم لهذه المدينة؟".

"ليس تماماً. لكن إذا كنتُ محقاً، فستقع جريمة من أجل كلّ إمبراطور أو ملك أو سلطان حقق شيئاً مميزاً لهذه المدينة. لنرَ الآن؛ بيزاس أسّس المدينة، وجعلها قسطنطين عاصمته. كم سنة تفصل بين الأمرين يا زينب - سيم [12] ؟".

عبست قليلاً وهي تحسب الفترة الزمنية.

"لحظة واحدة... يُنظر عادة إلى تاريخ تأسيس بيزاس للمدينة على أنه حصل عام 660 قبل الميلاد تقريباً... فيما أعلن قسطنطين المدينة عاصمة له عام 330 ميلادية... هذا يجعل الفارق... نحو تسع مئة وتسعين سنة".

"ألف سنة تقريباً".

قال علي وهو لا يستطيع إخفاء تأثره: "إذاً هذا سهل، فكّرْ في الأمر أيها المدير. بيزنطية ثم القسطنطينية ثم إسطنبول. بكلمات أخرى، السلطان محمد الفاتح".

سألت زينب بتحدٍّ: "كيف ربطت إسطنبول بمحمد الفاتح فوراً؟". كان سؤالها محقاً بالتأكيد. "فهو لم يبدّل اسم المدينة حين فتح القسطنطينية".

ردَّ علي والشرر يتطاير من عينيه: "آه، حقاً! ألم يفعل ذلك؟".

"لا، لم يفعل يا علي، قرأت عن هذا أمس. كانت المدينة تدعى القسطنطينية حتى في أثناء العهد العثماني".

قلت مصححاً لها: "قسطنطينية في الواقع، لكنك محقة يا زينب. تُدعى المدينة قسطنطينية، وتعني بالعربية مدينة قسطنطين ، وهي القسطنطينية نفسها".

سأل علي: "إذاً، متى تغيّر اسمها وأصبح إسطنبول؟".

قلت: "لاحقاً يا علي، في وقت لاحق". كان يجب أن أدفع الحديث قدماً؛ لأن لدينا قضايا أكثر أهمية لنناقشها. "في العهد الجمهوري. لكن، ربما تكون محقاً بشأن السلطان محمد. فإذا كان القاتل ينفّذ جرائمه واضعاً بالحسبان الملوك والسلاطين الذين أسّسوا وبنوا وطوّروا المدينة، فقد تكون قطعة النقد التالية من حقبة السلطان محمد الفاتح. فقد وسّع المدينة أيضاً وحوّلها إلى حاضرة قوية". استدرت إلى زينب وسألتها: "إذاً، هل تظنين أن الجثة التالية ربما ستوضع في مكان قريب من جامع الفاتح؟".

لم تفهمني فأضفت: "فكّري في الضحية الأخيرة، وفي المكان الذي كانت يداه تشيران إليه".

رمقتنا معاً بنظرة شك ثم قالت: "لكنّ يدَي الضحية كانتا تشيران إلى عمود قسطنطين ياسيدي. ولا أعرف إن كنا سنصل إلى جامع الفاتح إن ذهبنا في ذلك الاتجاه".

لم أكن واثقاً بذلك أنا أيضاً. وكما فعل علي أمس، كنت أفكّر بصوتٍ عالٍ، لكن الأحمق وجد أفكاري مقنعة.

"المدير محق يازينب، يجب أن نرسل فرقة إلى هناك فوراً للتوثق من المكان". كان يتكلم بسرعة؛ وكأن القتلة في طريقهم إلى هناك آنذاك مع ضحيتهم الجديدة.

قالت زينب بلطف لجعله يهدأ: "يجب أن نفعل هذا فوراً. لكن، ألا ينبغي أن نتكلم مع أفراد أسرة الضحية الثانية أولاً؟ ربما سنحصل على بعض التفاصيل المهمة إذا تحدثنا إليهم".

"إنها محقة ياعلي. كل ما لدينا مجرّد شكّ في أنّ الضحيتين ربما كانا يعرفان بعضهما، ويجب أن نكتشف حقيقة هذا".

وفيما كنا نفكّر في ما يجب أن نفعله، رنَّ الهاتف على مكتبي، وأجاب علي.

"نعم، ماذا؟ نعم، إنّه هنا. امرأة؟ لا بأس، انتظر". غطّى السمّاعة بيده واستدار نحوي قائلاً: "ليلى باركين هنا لتراك ياسيدي. إنها تريد أن تتحدث إليك".

غريبٌ جداً... إذ إنّ المديرة المتغطرسة لمتحف توبكابي قد تجشّمت عناء قطع كل تلك المسافة لترانا. لقد حدثت بعض التطورات المهمة، أو تكاد تحصل...

"اطلب منهم أن يصطحبوها إلى مكتبي".

وفيما كان علي يخبرهم بما يجب أن يفعلوه، تكلمتُ مع زينب.

"هل لديك شيء مُلحٌّ تفعلينه حاليًّا؟".

"أنا بانتظار تَقريرَي التشريح ياسيدي".

"حسناً، ألقي نظرة على خلفيتي الضحيتين، واكتشفي ما يمكن أن تعرفيه عنهما، وغوصي عميقاً قدر المستطاع". ثم استدرت إلى علي الذي كان قد أعاد السمّاعة إلى مكانها: "وأنت اكتشفْ أين عاش مقدّر كيناسي هذا، وعندما أنتهي من مقابلة ليلى باركين، سنزور نحن الاثنان أسرته".

يبدو منطقياً

عندما كنت أفتح النافذة لأسمح بدخول بعض الهواء المنعش إلى الغرفة الخانقة، تساءلت عمّا تريد ليلى باركين أن تقوله لي. لم أضطر إلى التفكير طويلاً، فما إن جلست إلى طاولتي، حتى ظهرت عند الباب.

"مرحباً أيها المفتش أكّان، آمل أنني لا أزعجك".

كانت ترتدي سترة زرقاء داكنة فوق كنـزة بيضاء، وشعرها الذي كان أشعث جداً أمس يبدو معقوداً على نحو أنيق الآن؛ ما كشف عن ملامح وجهها المميزة. بدت امرأة جميلة حقاً.

رددت وأنا أقف وأهزُّ رأسي: "لا إطلاقاً يا آنسة باركين".

"كنت سأتصل بك هاتفياً، لكن لم يكن لديّ رقمك".

تكلمَتْ بحياء؛ وكأنها تذكّرني بزيارتنا المفاجئة لها قبل يوم. لكن هذه التفاصيل غير مهمة. كان الأمر المهمّ أنها اقتطعت وقتاً من جدولها المزدحم من دون شك لتأتي وتتكلم معنا.

قلتُ مشيراً إلى الكرسي أمام طاولتي: "لا على الإطلاق. لديّ متسع من الوقت. تفضلي بالجلوس".

"شكراً لك".

"هل تودين أن تشربـي شيئاً ما؟ ماذا يمكنني أن أطلب لك؟".

نظرت إلى قارورة الماء على طاولتي وقالت:

"سيفي الماء بالغرض، شكراً لك. لا أريد أن أهدر وقتك يا كبير المفتشين، فأنا أعرف كم أنت مشغول. ولا يزال لديّ عمل كثير ينبغي أن أعود إليه، فرئيس الوزراء السويدي سيزور المتحف بعد أسبوعين؛ لذا نحن مشغولون على نحو لا يُصدّق بالتحضيرات".

علّقت وأنا أسكب لها الماء في كأس نظيفة: "لا بد أنها زيارة مهمة".

قالت بعد أن مدّت يدها وأمسكت الكأس ثم تناولت منها رشفة: "حسناً، يمكنك قول هذا. في الواقع، هناك شيئان أردت أن أتكلم معك بشأنهما".

"تفضلي، قولي ما لديك".

وضعت الكأس على الطاولة.

"الأول يتعلق بنامق". استقرت عيناها البنيتان اللامعتان على وجهي، واكتشفت أنهما في الواقع أقرب إلى اللون الأخضر... درجة فاتحة من اللون الأخضر. ليست عيناها داكنتين مثل عيني يفغينا. "أنا واثقة أنك قد قرأت

ملفه". لم يكن صوتها حاداً وإنما متعباً. "دخل السجن؛ لذا لديه ملف. فقد قضى بعض الوقت في السجن في أثناء الحكم العسكري".

"أعرف. تعرّض شرطيان لإصابات، وكاد أحدهما يلقى حتفه".

"لم يكن الوحيد الذي أطلق النار. فالشرطة...". وأدركت خطأها فوراً، فأخفضت صوتها. "ما عنيت قوله هو أن "نامق" كاد يموت أيضاً، ولا تزال إحدى الرصاصات عالقة في ظهره. يعبّر زملاؤه الجرّاحون الماهرون عن شكوكهم حيال إمكانية إزالتها؛ لأن خطر الإصابة بالشلل لا يزال كبيراً".

تذكّرت وجه نامق المتشامخ والواثق أيضاً، ثم عبر سديم الوقت تذكرت حادثة كانت قد بقيت حيّة دائماً في ذهني؛ وفاة شاب والنظرة التي رأيتها على وجهه حين نظرت إلى جثته الخالية من الحياة. إذ بدت عيناه وكأنهما تسألاننا عبر حجاب الموت: كيف يمكن أن تفعلوا هذا بـي؟ حدث ذلك أمام مصنع في بيرم باشا، ولن أنسى ما حصل أبداً. كان الشاب يختبئ خلف إحدى بوابات المصنع الحديدية، وقد ضُيّق عليه الخناق في أثناء تثبيته ملصقات. قالوا إنه كان تابعاً لمنظمة أو أخرى. ولم يكن نظامنا القضائي فاعلاً حينها، وإنما القانون العسكري الذي أُعلن سريانه. وقد أشرف الجيش حينها على كل وحدات الشرطة؛ بمن فيهم الضباط في قسم المرور. كنا جميعاً نعمل لمصلحة "وحدة الجرائم السياسية"؛ كلنا. وقد تحوّلت إسطنبول برمّتها إلى أرض صيد للجنرالات، وكنا نحن الكلابَ الصغيرةَ التي تقوم بعملهم القذر... فإذا أبلغ أحد ما عن شيء في منطقتنا، كنا نخرج جميعاً، بغض النظر عن الشخص أو المكان. بدا أن مهمّتنا الوحيدة تتمثل في ملاحقة أولئك الشباب المساكين المصنّفين كإرهابيين، رغم أن معظمهم لا علاقة لهم بالإرهاب على الإطلاق. صنّف الجنرالات كل من يقف في وجوههم بأنه إرهابـي أو خائن، وانحصرت مهمتنا في إلقاء القبض على أولئك الأشخاص، وتعذيبهم حتى يعترفوا، ثم التخلص منهم. شعر بعض أفراد الشرطة بالكراهية تجاه ذلك كله، لكن معظمهم أنجزوا عملهم. على كل حال، كان ذاك الشاب مختبئاً خلف البوابة الحديدية، فاستعملنا المجهار وطلبنا منه الخروج، وقد تردّد في البداية، غير أنه وافق على الخروج ببطء من خلف البوابة حين ضغطنا عليه. رأينا أنه يحمل مسدساً يصوّبه إلى الأرض، ولم يزعج الشرطي الذي كان يقف بجانبـي نفسه حتى بأن يطلب منه إلقاء السلاح جانباً، ولم ينبس بكلمة واحدة أو يطرح سؤالاً واحداً، وإنما بدأ يطلق النار فقط. فزع الشاب المسكين وأطلق النار أيضاً، وأصاب أحد رجالنا بأول رصاصة أطلقها. طبعاً، جُنَّ رجالنا وأمطروه بوابل من

الرصاص... اهتز الشاب مثل ورقة في مهب الريح، ثم سقط على الأرض مثل كيس بطاطا... أظن أنه ربما لقي حتفه قبل أن يقع على الأرض. وعندما توجهت إليه للتأكد من إصابته، لم تكن النظرة في تينك العينين البنيتين تحت ذلك الجبين العريض توحي بالحزن على حياةٍ أُزهقت هباءً قبل أن تبدأ حقاً، وإنما كانت تعبّر عن ذهول شديد. كانت نظرته تقول: كيف يمكن أن تفعلوا هذا بـي؟ أخرجت بطاقة هويته، واكتشفت أن اسمه آيزك ساراكان، وعمره ست عشرة سنة.

"كانت تلك أياماً عصيبة". اختفى الكابوس القديم عندما تناهى إلى مسمعي صوت ليلى. "كان الناس يُردَون في كل مكان، ولا مكان يختبئ المرء فيه، أو يشعر بالأمان. كان ذاك فصلاً مظلماً ومخزياً في تاريخ أمتنا. كان نامق شاباً آنذاك، يافعاً وأحمقَ، وقد انضم إلى حركة مسلحة و... حسناً، كما قلت، كان يافعاً وأحمقَ، وقد ندم على ذلك كله لاحقاً".

فكّرت في ذلك الفتى، وفي حقيقة أنه ربما كان سيندم على قراراته وأفعاله أيضاً لو عاش، لكنني لم أسمح لمشاعري بأن تسيطر عليّ. جعلت الإنسان داخلي يلتزم الصمت وسمحت للشرطي بأن يتكلم بدلاً عنه.

"إذاً، هل ندم على ذلك بعد اعتقاله؟".

قالت وهي تهزُّ رأسها: "لا أبداً. انتابته الشكوك حين كان لا يزال مع المجموعة، وأراد أن يتركها لكنه عرف أن اسمه على قائمة المطلوبين، ولم يكن لديه مكان يذهب إليه؛ لذا لجأ إلى أحد منازل المجموعة الآمنة ليختبئ فيه، وقد أغارت الشرطة على ذلك المكان. ستعرف أنني أقول الحقيقة إذا قرأت إفادة الشرطي الذي أطلق النار عليه، فقد أصابه نامق في قدمه، وكان بمقدوره الإجهاز عليه آنذاك وقتله والهرب، لكن الشرطي توسّل إليه للإبقاء على حياته؛ قائلاً إن لديه زوجة وأطفالاً. تركه نامق وشأنه، واستدار ليهرب من المنـزل، وعندها أطلق الشرطي نفسه النار عليه من الخلف، فأُصيب نامق بطلقتين".

ربما كانت تقول الحقيقة - فقد سمعت عدداً لا يُحصى من القصص المماثلة - ولكن، في الواقع كنا نتكلم عن مشتبه فيه، وسيكون تعاطفي معه خطأً، وتصرفاً غير مهني أيضاً. لذا، تكلمت من دون أي شفقة أو تعاطف.

"إذاً، أتظنين أنه كان يتوجب على الشرطي أن يترك الرجل الذي هاجمه وزميله وجرحهما يلوذ بالفرار؟".

ربما كنت أطرح على نفسي السؤال نفسه.

قالت معبّرة عن أفكاري من دون أن تدرك ذلك: "أنت محق، كانت

غلطة نامق...".

على الرغم من أن الصوت داخلي لم يكن واثقاً جداً، إلا أن الشرطي العملي هو الذي تكلم، وسمعته يقول: "من يعش بالسيف، يمت به".

"بالتأكيد. وأنا أقدّر هذا الرأي... لكن... ما عنيت قوله هو... أن "نامق" ليس شخصاً سيئاً... هو...".

قلت منهياً جملتها بدلاً عنها: "لا يستطيع أن يقتل أحداً، ولذا لا يمكن أن يكون الشخص الذي قتل نجدت. هل هذا ما قصدتِ قوله؟".

قالت مرتاحة: "نعم. نامق شخص مسالم، ويكره العنف. إذا عرفته على نحو أفضل، فستكتشف ذلك أيضاً".

"أشك في أنه يريد أن يعرفنا على نحو أفضل؛ فهو لم يكن ودوداً معنا أمس".

قالت بيأس: "يرجع سبب ذلك إلى آرائه المسبقة فقط؛ أفكار نمطية سلبية متبادلة. ومع فائق الاحترام، أنتم أيضاً لديكم مثل تلك الآراء المسبقة".

"أنا؟".

"لا أعنيك شخصياً، وإنما رجال الشرطة على نحو عام. فعندما ننظم مسيرة، تعترض الشرطة سبيلنا".

سألت رغم معرفتي الأكيدة أنها تشير إلى رابطة الدفاع عن إسطنبول: "من تقصدين باعتمادك ضمير المتكلم الجمع؟".

"المجتمع، الرابطة. هدفنا الوحيد منع تدمير إرث مدينتنا التاريخي والثقافي، ووضع حد للتلوث المزمن. لكن، في كل مرة ننظم فيها مسيرة أو مظاهرة، نجد الشرطة هناك لتوقفنا، من دون أي سبب وجيه".

كنت قد بدأت أتعب من ذلك كله، فوضعت مرفقيَّ على الطاولة ومِلتُ إلى الأمام، فمالت إلى الخلف، ظنًّا منها أنني سأقول شيئاً قاسياً أو غير ملائم.

"هذا مؤسف، لكنك محقة يا آنسة باركين. هذا البلد مملوء أشخاصاً ضيقي الأفق ويحملون أفكاراً نمطية، ولسوء الحظ هذا يشمل بعض رجال الشرطة. سأكون صادقاً معك، لن يكون ماضي حبيبك السياسي أو إصابته شرطيين سبباً يدفعني إلى اعتقاله. هذه إدارة الأمن الجنائي، وليست وحدة الجرائم السياسية. لكن، دعيني أخبرك أيضاً أن القتل ليس أمراً سهلاً كما قد تظنين، ولا يستطيع معظم الناس أن يضربوا شخصاً آخر كما ينبغي. لكن السيد قرمان حاول قتل شخصين من قبل، ولم يكونوا مواطنين عاديين

أيضاً، وإنما ضابطَي شرطة. لذا، إذا اكتشفنا دليلاً أو معلومة أخرى، فأنا أخشى أنني سأصنّفه مشتبهاً فيه". رفّت بعينيها الجذابتين بأسى، فلجأت إلى الكذب لأجعلها وحبيبها- الذي سيردد بكل تأكيد على مسمعيه حرفياً كل ما سأخبرها به- يشعران بالارتياح. "لكن، أرجو ألاّ تجزعي، فليس هناك ما قد تقلقي بشأنه حالياً. آمل فقط أن نجد القاتل في أسرع وقت ممكن؛ حتى يستطيع السيد قرمان تفادي أي إزعاج آخر".

قالت شاكرة: "أقدّر صراحتك. شكراً جزيلاً لك. أنت... أنت رجل محترم".

لم يكن مزاجي ملائماً لمجاملات لا طائل منها فسألتها: "وما هي القضية الثانية التي أردت أن تتكلمي معي بشأنها؟".

قالت متحمسة: "نعم، طبعاً. لا أعرف مدى أهمية الأمر، لكن كان هناك رجل اعتاد نجدت أن يلتقيه؛ رجل ثري جداً". رأت نظرة الاهتمام في عينيَّ فتابعت: "رجل يدعى آدم يزدان".

لم أكن قد سمعت هذا الاسم من قبل.

"ومن هو؟ ما العلاقة التي تجمعه بنجدت؟".

"يزعم أنه يعمل في السياحة، لكنني أظن أن لديه نشاطاً آخر غير ذلك. أعتقد أنه متورط في شيء ما، وأن نجدت كان يساعده".

ها نحن ذا. أمس لم تأتِ حتى على ذكر ذلك، لكن الآن وبعد أن تمّ استجواب حبيبها، أصبحت متشوّقة للكشف عن معلومات جديدة.

سألتُ: "أي نوعٍ من المساعدة؟".

"لدى آدم يزدان خطط لشبه الجزيرة القديمة، خاصة السلطان أحمد. وهي تشمل كل شيء؛ بدءاً من سلاسل المتاجر والفنادق، ووصولاً إلى مجموعة ضخمة من المراكز التجارية. لكن الحصول على تراخيص للبناء أو التطوير العقاري في ذلك الموقع صعب جداً؛ لذا يحتاج إلى شخص يعرف المنطقة وتفاصيلها، شخص يمكن أن يعمل من الداخل، وذلك الشخص هو نجدت".

"هل كان نجدت يتلقى أجراً على هذا؟".

قالت بحزم وهي تعرف أن إجابتها تعني أن تصبح سمعة طليقها على المحك: "طبعاً تلقى أجراً. لم أكن لأفكّر في أن ينحدر نجدت إلى ذلك الدرك الأسفل، لكن في الليلة التي تشاجرنا فيها في المطعم، أدركت أنه قد تحول إلى شخص مريع. كان قد قال تلك الليلة، قبل الجدال: هل ستتابعين العمل في المتحف مقابل راتب زهيد؟ لم أنبس بكلمة رداً على

ذلك، فقال: أسدي إلى نفسك معروفاً ياليلى، هؤلاء الأشخاص في رابطة الدفاع عن إسطنبول ليسوا إلا حفنة من الفاشلين. ربما يكون لدى حبيبك البلشفي القديم سبب شخصي للانضمام إلى أولئك المتظاهرين السخفاء، لكنك إنسانة ذكية؛ ترين الحقائق كما أفعل أنا تماماً. هل تذكرين عمليات التنقيب عن الآثار في ريف الأناضول؟ هل تتذكرين كيف سخر السكان المحليون منا، وأغاروا على المواقع التي قضينا سنوات عديدة ونحن نعمل عليها بجهد كبير، وهم يأملون أن يضعوا أيديهم على كنـز ما؟ هل تتذكرين تلك القرية في قيصري قبل عشر سنوات، حين أصدر شيخ من إحدى الطوائف الدينية فتوى؟ هل نسيت كيفية هروبنا وإنقاذنا أرواحنا بشق الأنفس؟ لا ياليلى، الأمر لا يستحق العناء، ليس من أجل أمثال أولئك الناس. لا يأبه أحد في هذا البلد لتاريخه، ولا تعني أيٌّ من الكلمات: ثقافة وتراث وتاريخ شيئاً لهم. امضي قدماً، واخرجي إلى الشوارع واسأليهم، واسمعي ما سيقولونه حين تتكلمين عن التاريخ. سأخبرك بما سيقولونه، سيقولون لك: جاء أسلافنا من جبال الطائي. وهذا كل شيء، حتى إذا كان أحدهم فصيحاً وتمكن من تشكيل جملة في المقام الأول. بطولة، وعلم، وخيول، وسيوف؛ وهذا كل شيء. إنهم لا يعرفون حتى أبسط الأشياء عن تاريخ أو ثقافة أولئك الأجداد الذين يتباهون بهم بقوة. اسأليهم عن الثقافة وما تعنيه وسيقفون هناك غارقين في جهلهم. لا بأس، انسي الثقافة واسأليهم عن دينهم، اسأليهم عن معتقداتهم، وعن الإسلام، ولن يستطيعوا نسج فكرة واحدة مفهومة. كل ما ستسمعينه منهم هو الشعارات والأفكار نفسها: الحمد لله، نحن مسلمون، ومحمد نبينا، وكتابنا القرآن... إلخ. كم عدد الذين يستطيعون تلاوة الفاتحة على نحو ملائم؟ لكن لا، عندما يتعلق الأمر بالدين، يصبح أولئك الجاهلون أنفسهم مستعدين لحرق وتدمير وقتل كل من يقف في طريقهم . كنت أعرف ما قصده لكنني سألته على كل حال: إذاً، برأيك ماذا يجب أن نفعل؟ شجّعته كلماتي، أو على الأقل اهتمامي بما كان يقوله، فتابع بشغف: يجب أن نعتني بأنفسنا. كيف تتوقعين نوعاً من الاكتراث بالتاريخ في بلد لا يعرف مواطنوه شيئاً عنه؟ سيستغرق الأمر الذي أتكلم عنه- صحوة الضمير وإدراك ما يجري- قروناً، وسيتطلب ذلك أيضاً ضغطاً من هيئات مثل الاتحاد الأوروبـي واليونسكو. اتركي المتحف، فآدم يزدان يحتاج إلى أشخاص ومستشارين وخبراء. تعالي واعملي معنا... لم يسعني إلا أن أنظر إليه بشفقة، وسألته: ماذا حدث لك يانجدت؟ كيف يمكن أن تتغير إلى هذا

الحد؟ بدا محبطاً، وقال محاولاً أن يبدو هادئاً: أنتِ لا تفهمين ياليلى، نامق ذاك يعبث بذهنك، ولا مكان لوجهات نظره العتيقة والمتعجرفة تلك في عالم اليوم. لقد انتهى وقته، ولم يعد العالم يضم أغبياء مثله. يجب أن تفكري في نفسك أولاً، فكّري في ذاتك وكوني على سجيتك. دعيني أخبرك ما يحتاج إليه هذا البلد: إنه بحاجة إلى أفراد واثقين بأنفسهم، لا يسمحون بأن تعيقهم أيديولوجيا، أو دين، أو أخلاق، أو قانون بغيض. إذا أصبحنا هؤلاء الأفراد الأقوياء الواثقين بأنفسهم، فسيبدأ هذا البلد بصنع شيء لنفسه، وسيشرع في تخليد اسمه، وفي جعل صوته مسموعاً... لم يعد بمقدوري تحمّل الإصغاء إلى تبريراته الفلسفية الزائفة عن الجشع والخيانة الخسيسة، فقلت محاولةً أن أبدّل الموضوع: أفهم ما تقوله لكنني لا أوافق عليه . عندها، سألني بإصرار: وما رأيك في القضية؟ قلت بحزم: ليست لديّ النية بأن أصبح واحدة من أولئك الأفراد الذين وصفتهم. أفضّل أن أكون واحدة من الأشخاص الضعفاء الذين يصغون إلى ضميرهم بدلاً من أن أكون إحدى أولئك المتفوقات اللواتي تحرّرن من كل القيود والعوائق. وللراتب الزهيد الذي أحصل عليه من المتحف قيمة أكبر من جبال الذهب التي سيرميها آدم يزدان عند قدمي إن عملت لمصلحته . وحين أدرك أنني جادّة جداً، قرر أنه من الأفضل عدم متابعة الحديث في القضية لتفادي أي مواجهة. وقال وهو ينادي أحد النُدل: سنتكلم عن هذا لاحقاً . أنت تعرف ما حصل لاحقاً؛ فقد تشاجرنا".

سألتُ بنبرة شك: "ولماذا لم تخبرينا بهذا حين ذهبنا لرؤيتك أمس؟".

قالت وهي تنظر إلى عينيّ مباشرة: "لا أدري. كنت أتوخى الحذر، كما أفترض. ارتبكت، دُهشت، أياً تكن التسمية، لكنني لم أكن أُضمر أي نوايا سيئة".

قلت بحرارة مبتسماً: "عرفت هذا منذ البداية". كنت بحاجة إلى إبقاء علاقتي بها وبحبيبها جيدة. "ونحن نقدّر تعاونك حقاً".

مالت إلى الخلف على كرسيها، وظهرت نظرة ارتياح على وجهها. حان الوقت الآن لأطرح عليها السؤال.

"إذاً، ما رأيك بالجريمة الثانية؟". نظرت إليّ مذهولة. "ألم تسمعي بها؟ لقد وُجدت جثة أخرى أمس".

تمايلت قليلاً على كرسيها، وحدّقت إليّ بعينين مشدوهتين. "جثة أخرى!".

بدت مشدوهة حقاً، لكن من الصعب تحديد حقيقة مشاعرها.

قلت ببرودة: "جثة أخرى. إنه مخطط مدن اسمه مقدّر كيناسي".
"مقدّر؟".
"هل تعرفينه؟".
"عملنا معاً مرة في الهيئة الاستشارية نفسها. عمل لمصلحة مجلس المدينة... لكن، لماذا سيرغب أحدهم في قتل مقدّر؟". تذكرت فجأة تفصيلاً مهماً. "أين وُجدت الجثة؟".
"في سمبرليتس".
هل تحاول خداعي؟ أعدت الكرة إلى ملعبها مجدداً.
"أين تظنين أننا عثرنا عليها؟".
قالت من دون أن تتردّد لحظة: "بجانب عمود قسطنطين؟".
"بالضبط. عند قاعدة العمود".
أضافت بجرأة: "وتُركت قطعة نقدية بين كفّيه".
كانت هذه المرأة إما بريئة حقاً أو ذكية على نحو شرير.
قلت بإعجاب: "يبدو منطقياً أن تدركي هذا. لقد وُضعت القطعة النقدية بين كفيه؛ إنها قطعة نقدية من عهد قسطنطين".
كانت تنظر إليّ، لكن بدا واضحاً أنها لم تكن تلاحظ وجودي حين تمتمت لنفسها: "بيزاس إلى قسطنطين، بيزنطية إلى القسطنطينية...". وأفاقت من حلم يقظتها ونظرت إليّ مجدّداً.
"يبدو أن القاتل يرسلُ لنا رسالة".
إذاً، لقد توصّلت إلى ما توصلنا إليه قبلها. إما أن تكون متورطة في الجرائم أو إن إلمامها بالتاريخ يعني أنها تستطيع التوصل إلى الاستنتاجات الصحيحة. أياً يكن الأمر، فنحن نحتاج إليها إلى جانبنا.
قلت وأنا أسكب بعض الماء في كأسي: "بالتأكيد. يحاول القاتل أو القتلة - من دون شك - أن يخبرونا شيئاً، لكننا لم نستطع أن نعرف طبيعة تلك الرسالة بعد، وربما يمكن أن تساعدينا على اكتشاف ذلك".
كان بمقدورها أن ترفض فوراً وتقول: "أنا عالمة ولست محققة جنائية. لا أريد أن تكون لي أي علاقة بتحقيق في جريمة قتل". لكنها لم تفعل.
سألت وهي تحبس أنفاسها: "هل يمكن أن أرى القطعة النقدية؟".
كان بمقدوري عرضها عليها، لكنني كنت بحاجة إلى عذر لتزورنا أو نـزورها مجدداً.
"إنّ المفتش زينب أكسوي هي الضابط المسؤول عن هذه القضية تحديداً. ولسوء الحظ، ليست هنا الآن. سأطلب منها زيارتك ما إن تصل،

أو إذا كان الأمر ملائماً، يمكن أن تزورينا مجدداً بعد أن تُنهي عملك؛ في منتصف الليل، أو في الصباح الباكر، أو في نهاية اليوم، لا يهم". ابتسمتُ ابتسامة واسعة. "ما رأيك يا آنسة باركين؟ هل ستساعديننا في هذه القضية؟".

ردّت بعد لحظة تردد بما ظنّت أنه جواب ملائم. "أنت تعرف أنني موظفة حكومية؛ أي إنني أعمل لدى الدولة".

عندما تكلّمت، نظرت إلي متوسّلة ألا أُسيء فهمها؛ وكأنها تريد مني أن أقنعها بطريقة مختلفة.

قلت بلطف: "وكذلك نحن يا آنسة باركين". بدأت أصف ما ستتضمنه مساعدتها لأوفّر عليها عناء الاستفسار. "لا تقلقي من الإجراءات القانونية، سأتكلم مع مكتب المدّعي العام وأسوّي الأمر...".

"كل ذلك جيد، لكنني لست ضابط شرطة. ألن يكون مثل هذا الأمر خطراً؟".

لم تكن منـزعجة قطّ من فكرة الخطر أو المجازفة، وبدت - ولا أدري السبب - متحمّسة جداً لمساعدتنا.

"لن يكون الأمر خطراً أبداً. ستساعديننا في بعض القضايا الثقافية والتقنية كمستشارة، وسنستفيد من خبرتك في قضايا تتعلق بالتاريخ؛ كتقديم معلومات عن الإمبراطوريتين البيزنطية والرومانية، وشخصيات الأباطرة والملوك السابقين، ونواحٍ تقنية تخص أعمدة وصروحاً وتماثيل معمارية وأثرية أخرى".

"لا يبدو هذا صعباً جداً".

"هذا كل ما نريده".

قالت وهي تقف: "في هذه الحال، اتفقنا أيها المفتش أكّان. يجب أن أذهب، وأخشى أنه ليس بمقدوري المجيء مرة أخرى اليوم". مدّت يدها إلى حقيبتها وأعطتني بطاقة أعمال تخصّها. "يمكن أن نلتقي بعد العمل إن أردت. اتصل بـي من فضلك". ظهرت ابتسامة غريبة على شفتيها، ووميض غامض في عينيها. "في الحقيقة، أتحرّق شوقاً لرؤية القطعة النقدية التي ذكرتها".

كارسامبا

عندما غادرت ليلى باركين الغرفة، أمسكت الكأس التي شربت منها بمنديل ووضعتها في أحد أكياس الأدلّة. كانت لدينا كل التفاصيل عن نامق قرمان في ملف بسبب إداناته السابقة، لكننا لا نملك شيئاً عن ليلى، ونحتاج إلى بصماتها؛ لمقارنتها بتلك التي وجدناها في منـزل الفقيد.

قلت لزينب فيما كنت أغادر المختبر: "آدم يزدان يعمل في قطاع السياحة كما يبدو. اطرحي الأسئلة، واعرفي ما يمكن أن تكتشفيه عنه. تقول ليلى باركين إن نجدت كان يعمل معه".

تركنا زينبَ في المختبر، وسلكنا- أنا وعلي- طريقنا إلى خارج مقر قيادة الشرطة. انطلقنا للتوثق من منـزل الفقيد في كارسامبا، لكن، عندما انعطفنا إلى الشارع الرئيس في الفاتح، أصبحت القرقرة في معدتي لا تُحتمل.

"هل أكلت ياعلي؟ كل ما تناولته طوال يوم رغيف خبز".

قال مبتسماً: "وأنا أيضاً أيها المدير. يوجد مطعم هناك عند الزاوية. هل تريد مني أن أتوقف عنده؟".

"ليس الآن. دعنا نحصل على شيء سريع التحضير؛ شطيرة ربما".

"حسناً أيها المدير، أعرف مكاناً رائعاً على الطريق أمامنا".

بعد خمس دقائق، كنا نحاول أن نتقدم في طريقنا عبر حركة المرور المزدحمة نحو إديرنكبـي، وعلي يتناول شطيرة لحم، في حين أمضغ أنا لقمة من شطيرة جبن.

تمتم علي وهو يقود بإحدى يديه ويأكل بالأخرى: " لحم حلال ، هذا ما تقوله اللافتة المعلقة في مدخل المطعم. عندما يقال إن اللحم حلال أيها المدير، فهل يُقصد بذلك أنه لحم حيوان ذُبح وفقاً للشريعة الإسلامية، أم إنه حيوان يمكن أن يؤكل لحمه؟".

قلت بعد أن ارتشفت القليل من العيران [13] : "وكأنني الشخص المناسب ليُسأل عن مثل هذه الأشياء ياعلي. كيف لي أن أعرف؟ لم تكن أسرتي متدينة يوماً، ووالدي لم يُصلِّ إلا نادراً، ولم نذهب إلى المسجد إلا في أثناء الأعياد".

"الأمر نفسه بالنسبة إليّ أيها المدير". نظر إلى السياج الأبيض إلى اليمين وسألني: "أليس ذلك جامع الفاتح؟".

"هذا صحيح. ألم تره من قبل؟".

قال بمكر: "لا، لا أقصد عادة هذه الأماكن؛ إلا إن وقعت فيها

جريمة". وغمزني وقضم لقمة كبيرة من شطيرته.

"حسناً، يجب أن تزور المكان حين تسنح لك الفرصة، وأن تتعرّفه. إنّ ضريح السلطان محمد الفاتح هنا". رمقته بنظرة ساخرة وتابعت: "أنت تسأل عن أسلافنا دائماً، لذا يجب أن تزور مثل هذه الأماكن". تذكّرت فجأة. "مهلاً ياعلي، لقد نُشرت فرق بملابس مدنية في محيط الجامع، أليس كذلك؟".

"هذا صحيح أيها المدير. ثلاث فرق؛ كل منها مؤلف من شخصين حالياً، بقيادة أكرم. إذا أردت، يمكن أن نذهب ونتأكد من ذلك في أثناء وجودنا هنا، ومن أن كل شيء على ما يرام".

"لا حاجة إلى ذلك، فأكرم رجل جيد. لا أظن أنه سيفسد الأمور".

أكلنا بصمت حتى وصلنا إلى شارع السلطان سليم الأول. أنهى علي شطيرته وشرابه الغازي، لكن شطيرتي كانت أكبر من أن أتمكن من إنهائها كلها، لذا أعدت ما تبقى منها إلى الكيس. كان شارع السلطان سليم الأول هادئاً، لكن عندما استدرنا عند الزاوية اكتشفنا أن حركة المرور في كارسامبا مزدحمة. وعندما نظرت إلى الشارع الممتد من المخفر القديم عند الزاوية إلى جامع السلطان سليم، فكّرت في والدتي الراحلة التي عملت مدرّسة طوال سنوات في إحدى أفضل المؤسسات التعليمية في البلاد؛ في مدرسة داروسافاكا الثانوية في ذلك الحي. كنا قد زرنا مرة جامع السلطان سليم معاً، ورأينا ضريح السلطان ومقبرة الأميرات، إضافة إلى قبر سلطان عثماني آخر هو عبد الحميد. لكن أكثر ما أثار انتباهي ذلك اليوم كان منظر إسطنبول من ساحة الجامع؛ بجانب ضريح السلطان سليم الأول. فقد بدت مدهشة جداً؛ وكأن مدينة مختلفة تماماً تمتد أمام عينيّ، ومياه القرن الذهبي تتدفق مثل ذهب سائل ملتوية ومتعرجة إلى مدخل البوسفور. لم يكن جامع الفاتح القائم في موقع بعيد قليلاً منظوراً، لكن كان من الممكن رؤية آيا صوفيا وجامع سليمان القائمين في أعلى تلتين من تلال المدينة المعروفة.

أيقظني صوت علي فجأة من حلم يقظتي: "ما هذا بحق الله!". كان يحدّق إلى خمس نساء يرتدين البرقع في الشارع. "هل ينظّمن احتجاجاً من نوعٍ ما؟ لماذا اجتمعن هنا على هذا النحو؟".

لا بد أنها الزيارة الأولى التي يقوم بها هذا الرجل المسكين إلى كارسامبا.

"هذا ليس احتجاجاً ياعلي، وإنما هذه هي طبيعة الناس في هذا

الحي". كل ما فعلته هو زيادة حيرته.

"لقد سمعت عن هذا من قبل أيها المدير، ولكنني ظننت أنه مبالغ فيه. يبدو هذا المكان شبيهاً بإيران أكثر من شبهه بتركيا. هؤلاء الناس...". صمت قليلاً، وعيناه ثابتتان على رجل لحيته طويلة وغير مشذّبة، يرتدي قميصاً تحت رداء رمادي طويل. "هؤلاء الناس... ياالله! انظر إليهم ياسيدي. كلهم؛ الرجال والنساء جميعهم... إنهم جميعاً... لا أدري، مخيفون جداً".

أُصيب بالفزع حقاً، لكنني كنت أعرف ما يجدر بـي فعله، فقد رأيت ردود أفعال مماثلة من آخرين يزورون كارسامبا للمرة الأولى. أخبرته ما كانت والدتي مدرّسة التاريخ قد قالته لي.

"في الواقع، كان الدين مؤثراً دائماً في هذه المنطقة ياعلي. وقد شُيّد عدد من الأديرة والكنائس هنا في أثناء العهد البيزنطي، واستمر ذلك في أثناء الحكم العثماني، فأُقيمت المساجد، والمدارس، والمراكز الصوفية والأضرحة في كل مكان. وينحدر الكثير من السكان هنا من أسر تزخر بعلماء دين وأئمة وشيوخ مسلمين. بقي النصارى واليهود يقطنون في هذا الحي حتى بعد أن تناقصت أعدادهم، وتوجد بطريركية على سبيل المثال في آخر الطريق عند فينر، وستجد عدداً من القساوسة الأرثوذكس هناك. كما توجد كنائس أخرى أيضاً، إضافة إلى دور عبادة أرمينية، ويهودية، وكاثوليكية... هذه منطقة تتعايش فيها أديان متعددة منذ وقت طويل".

لم يبدُ مقتنعاً.

"لكن، هل يرتدي أبناء القساوسة الأرثوذكس ثياباً مثل ثياب آبائهم؟ وهل يمشي اليهود هنا مرتدين ملابس مثل اليهود في إسرائيل؛ تلك العباءات والقبعات السوداء وقد جدلوا شعرهم في ضفائر؟". كان قد بدأ يشعر بالانـزعاج، وأشار إلى فتاتين ترتديان البرقع . "انظر إلى هاتين الفتاتين أيها المدير، لا تزالان مجرد طفلتين. ماذا تعرفان عن الحجاب أو الإثم أو الدين؟ لماذا ستهتمان بهذا؟ من الواضح أن أهلهما يرغمونهما على ارتداء مثل هذه الثياب".

لم يكن هناك شيء يمكن أن أقوله رداً على ذلك، فقد كان محقاً. لكن في النهاية، لقد وُلدت هاتان الفتاتان لتينك الأسرتين، وسيكون من الخطأ انتزاعهما من أسرتيهما فقط لأنهما تلبسان البرقع، أو إرغام أهلهما على جعل بنتيهم ترتديان ثياباً نجدها نحن ملائمة. بعد أن جال ذلك في ذهني، فكّرت: هل يُظهر هؤلاء الناس- الذين يعيشون وفقاً لعقائدهم- التسامحَ نفسه تجاه أولئك الذين لا يشاطرونهم ورعهم؟ هل سيُظهرون

التسامح والمودة نفسيهما تجاه النصارى واليهود؟ انتابني شك كبير بشأن ذلك، وفكّرت في أن هذا هو سبب استياء علي. وكان أسوأ ما في الأمر أن عدداً كبيراً من الجرائم والمجازر قد اقتُرف لهذا السبب؛ ما يثبت أن شكوكه لها ما يبررها. لم يكن الحل في الازدراء والإقصاء، ورغم أن مخاوف علي كانت مفهومة، إلا أنني آثرت دائماً أن يكون المرء حراً في ممارسة تعاليم دينه من دون أي قيد أو إكراه، وتمنيت في الوقت نفسه أن يعامل هؤلاء الأشخاص المتدينون أولئك الذين يؤمنون بأديان ومعتقدات أخرى بالود والاحترام نفسيهما. لا ينبغي أن يكون الدين- مثل العرق والجنس- عامل تفرقة، فجميعنا لدينا صفة مشتركة: كلنا بشر. حتى إذا كانت لدينا معتقدات وخلفيات عرقية مختلفة، ووجهات نظر متباينة عن العالم، فنحن جميعاً لا نـزال بشراً. وهناك ميزة أخرى نشترك فيها مع هؤلاء الناس في كارساميا؛ ألا وهي أننا نعيش كلنا في إسطنبول، ونحن جميعاً جزء من المدينة، فدور عبادتنا- مساجدنا وكنائسنا وكُنسنا- كلها في هذه المدينة. نحن بشر ونعيش في إسطنبول؛ وهذان أساسان يوحّداننا...

فيما كنت مستغرقاً في تلك الأفكار، خطر لي فجأة أننا ربما تجاوزنا المبنى.

سألت قلقاً: "ألم نصل بعد ياعلي؟". غير أنّه كان يحدّق إلى السكان المحليين؛ وكأنهم من كوكب مختلف.

ردَّ وهو يشيح ببصره بعيداً عن المخلوقات الغريبة بجانب الطريق: "نكاد نصل أيها المدير. إنه يُقيم في شقة فوق متجر يدعى "جزّاري هاليس"، ويجب أن يكون المتجر هنا في مكان ما". مال إلى الأمام وحدّق إلى نهاية الشارع. "أعني، انظر فقط إلى هذا المكان. انظر إلى الأسماء؛ سوق التوحيد . هذا الحي مروّع".

لم تكن لدي أدنى فكرة أن "علي" لا يحب الأسماء الدينية إطلاقاً.

"لا تبدو معجباً كبيراً بالمسلمين ياعلي".

اعترض: "لا أكنُّ أي ضغينة ضد المسلمين أيها المدير. الحمد لله ، أنا مسلم أيضاً". لم يجد كلمات أخرى مناسبة لذا عاد للتحديق إلى الشارع أمامه، لكنه كان غاضباً جداً ولم يستطع التزام الصمت. "لكن بعض هؤلاء الناس يجعلون سمعة المسلمين سيئة، ويلطّخون الإيمان".

"أي إيمان هذا الذي يلطّخونه؟ هل التقيت مثل هؤلاء الرجال من قبل في مقر القيادة؟".

"في مقر القيادة أيها المدير نعم، لكنني تعاملت مع أمثالهم من

قبل".

توقف عن الكلام؛ محدّقاً إلى مكان بعيد، بعيد كثيراً.

"كنت طفلاً في الميتم في يوزغات. كان المدير رجلاً يدعى سرافتين سويغزر، وكان وغداً حقيقياً أيضاً".

رأيت أنه يرتعش.

"كان يتيماً أيضاً على ما يبدو، مثلنا، وقالوا إنه ترعرع في الميتم. اعتاد القول: لقد كرّست نفسي للالتزام بتعاليم الدين ، لكنني أظن أنه كاذب. ووفقاً لما أعرفه، أولئك الذين يكرّسون أنفسهم للالتزام بتعاليم الدين لا يكونون أشراراً أبداً. كان يحبسنا في الغرفة حتى يستطيع تعليمنا القرآن، ويجلب أئمة، وينظّم دروس تلاوة القرآن لنا جميعاً في الميتم. كنا لا نـزال أطفالاً، ونحاول تعلّم التركية، لكن البغيض لم يعر أدنى اهتمام لذلك. وعندما لم نكن نصغي جيداً أو نفهم ما يجري، كنا نتلقى عقاباً. قال إن الألعاب من صنع الكفّار، ولم يسمح لنا باللعب. كان لدينا تلفاز لكن الوغد لم يسمح لنا بمشاهدته. آنذاك، كان يُعرض برنامج رسوم متحركة على التلفاز يدعى الفايكنغ ، وكل الأطفال في الحي يتكلمون عنه. أردنا أن نعرف المزيد عن المغامرات التي يقوم بها أولئك الفايكنغ في برنامج الرسوم المتحرّكة الذي يتكلم عنه الأولاد؛ البرنامج الذي يشاهدونه في بيوتهم المريحة وهم في أحضان أمهاتهم، لذا صعد بعض الفتيان الأكبر سناً إلى مكتب المدير وطلبوا منه السماح لنا بمشاهدته. غير أنه لم يأذن لنا بذلك، وأعادنا جميعاً إلى مهاجعنا، لكنني كنت متشوقاً إلى مشاهدة البرنامج؛ لذا نـزلت إلى غرفة الاستراحة حين لم يكن أحد فيها وجلست أمام التلفاز. أيها المدير، تأثرت كثيراً بمغامرات ذلك الطفل الفايكنغ، ونسيت كل شيء آخر؛ نسيت خلال بضع لحظات سحرية أنني يتيم في ميتم سيئ يديره ذلك الوحش. نسيت نفسي في ذلك العالم الجميل والبريء عبر التلفاز، حتى أعادتني صفعة قوية على خدّي الأيسر إلى الواقع القاسي للعالم الحقيقي. صفعني بقوة كبيرة جعلتني أرى نجوماً. وقبل أن أحظى بوقت لأستعيد توازني، تلقيت صفعة أخرى على خدّي الأيمن وسقطت على الأرضية. كنت مجرد طفل صغير أيها المدير، وبهذا الطول فقط. عندما فتحت عينيَّ، وجدت نفسي في القبو، ووجنتاي تحرقانني، والدم ينـزف من أذني اليسرى، وشعرت بألم شديد، لكنني رفعت رأسي ونظرت عبر قضبان النافذة الحديدية. وعندما رأيت المقبرة، شُلّت حركتي خوفاً، فقد سمعت قصصاً عديدة عن الأشباح في ذلك المكان؛ قصصاً جعلت شعري ينتصب، وجسدي

يرتعش في اللحظة التي شاهدت فيها شواهد القبور تلك. قرعت على الباب برعب وأنا أصرخ للسماح لي بالخروج. لكن، ما من مجيب، ولم يأتِ أحد لمساعدتي. صرخت على أمل أن يُشفقوا على طفل خائف ويخرجوني: أقسم بالله إنني لن أشاهد التلفاز مجدداً أبداً، ولن أقترب منه مجدداً ، لكن ذلك الوغد لم ينـزل إلى القبو، أو يرسل أياً من الأطفال الآخرين. شعرت بتعب شديد من الصراخ والقرع على الباب، فسقطت منهاراً أمام ذلك الباب الموصد وبكيت. كانت شواهد القبور تلك تخيفني كثيراً؛ لذا تكوّرت على كيس بطاطا وظهري إلى النافذة وحاولت أن أخلد إلى النوم؛ لأنني إذا نمت فلن أشعر بالخوف، لكن من دون جدوى. فقد جعلني كل صوت أسمعه أقفز رعباً، وكلما ماءت هرّة ظننت أنها أشباح، وكلما نبح كلب ارتعشت خوفاً؛ ظاناً أنها الغيلان والعفاريت. استلقيت هناك لساعات متكوّراً، من دون أن أتحرك إطلاقاً. استطعت أن أغفو أخيراً، لكنني عندما استيقظت لاحظت رطوبة بين فخذيَّ، وعرفت أنني قد بلّلت نفسي. لم أهتم لذلك مطلقاً؛ لأن الشمس قد أشرقت، وسيُطلق سراحي قريباً. لكن ذلك المدير اللعين لم يكن ليسمح لي بالخروج، أليس كذلك؟ طبعاً لا. أولاً تعرّضت للضرب؛ لأنني بللت نفسي ولوّثت سروالي. ثم تحلّى الوغد بالشجاعة ليخبرني أن ذلك لمصلحتي. قال: حتى تتعلّم بعض الأخلاق والانضباط . أقسم أيها المدير إنني لو كنت أكبر قليلاً، لكنت قد قتلت ذلك الحقير هناك فوراً، لكن لم يكن بمقدوري حينها أن أنبس بكلمة. كان كل ما استطعت فعله هو البكاء في أثناء إلقائه محاضرته، وقد كرهت أمثاله منذ ذلك الوقت".

ماذا عساي أقول؟ فهو لم يعرف حتى اسمَي والده ووالدته، ولم يرَ وجهيهما؛ فقد رحلا عنه حين كان لا يزال طفلاً وتركاه ليترعرع في ميتم. لم يتكلم عن طفولته من قبل قطّ، وكانت هذه هي المرة الأولى التي أسمعه فيها يقول شيئاً عن ماضيه. من يعرف ماذا يكبت الرجل المسكين بداخله غير ذلك؟ وما الجروح الأخرى التي يخفيها؟ ومن سيعتني بتلك الجروح؟ ترقرقت الدموع في عينيَّ وأنا أصغي إليه، لكنني أخفيت دموعي؛ لأنها ستجعل حاله أسوأ.

قلت مخفياً حزني: "يوجد مسلمون صالحون ياعلي. خُذ العم باقي على سبيل المثال، كان إماماً في مسجد المئذنة الخشبية في بلاط، وليرحم الله روحه، كان رجلاً رائعاً. كان والدي العجوز يتناول الشراب في خان أغورا فيجلس العم باقي بجانبه ويتبادلان الفكاهات كل المساء. وعلى الرغم

من أنه لم يتناول قطرة في حياته قطّ، إلا أنه لم يسخر من أولئك الذين يفعلون هذا، وكان يعدّ نسخة مصغّرة عن اللطف بالنسبة إلى كلّ من حوله؛ حتى بالنسبة إلى أولئك الذين لم يضعوا قطّ قدماً داخل مسجد أو كنيسة. كان يقول للرجال في الخان مازحاً: قوّموا أنفسكم أيها السادة. الشراب ليس جيداً لكم في هذه الدنيا، ولن يكون مفيداً في الآخرة ، لكنه كان صديقاً للجميع في الحيّ، ومؤتمناً على أسرارهم؛ سواء أكانوا متدينين أو لا، وكان الناس جميعاً يحبونه".

"لقد التقيت أشخاصاً صالحين مثله أيها المدير، وإلا كان سينتهي بـي الحال- لا سمح الله- من دون إيمان. لكن، عندما أرى أشخاصاً مثل مدير الميتم سيرافتين؛ يبدون مسلمين ظاهرياً، غير أنهم ليسوا كذلك فعلاً، لا أحتمل ذلك، وأفقد السيطرة على نفسي، وأستشيط غضباً".

كان الغضب في صوته قد خفَّ قليلاً، وبدأ يهدأ آنذاك. نظرت حولي باحثاً عن منـزل الفقيد؛ كطريقة لتغيير الموضوع والتخفيف من حدّة التوتر، ورأيته هناك، أمامنا مباشرة: جزّاري هاليس.

قلت وأنا أشير إلى مبنى آجري أخضر مكوّن من أربعة طوابق فوق متجر الجزّار: "أليس ذاك هو المكان؟".

"نعم، إنه هو بالتأكيد... جزّاري هاليس".

"أوقف السيارة هناك، في تلك الفسحة أمام محلّ الجزّار".

أردته أن يوقف السيارة أمام المحل، لكن شاحنة بيضاء محمّلة باللحوم شغلت المساحة قبل أن تسنح لنا أي فرصة، وانتابني القلق من احتمال أن يثور علي غاضباً مجدداً حين رأيت الشاب الذي يعتمر عمامة ويرتدي مئزراً ملطخاً بالدماء وهو ينـزل من الشاحنة، لكنه بقي هادئاً وقاد السيارة وأوقفها أمام صيدلية جيرسك على بعد نحو خمسة عشر متراً. وعندما رأى الفتاة ذات الشعر البني الطويل في الداخل وهي تتكلم مع الشاب خلف النضد تحسّن مزاجه قليلاً.

قال وهو يوقف عمل المحرك: "الحمد لله لأنّه يوجد بعض الناس العاديين هنا. أقسم أيها المدير إنني شعرت أنني في بلد مختلف هناك".

قلت مشيراً إلى الثنائي في الصيدلية: "نحن لسنا في بلد أجنبـي على الإطلاق ياعلي، فنحن لا نـزال في تركيا. أولئك الناس هناك هم شعبنا؛ تماماً مثل ذلك الشاب والفتاة في الداخل".

انتقل بصره إلى صبيين في الثامنة من عمرهما تقريباً يلعبان بجانب الطريق، وعادت تلك النظرة المتشككة لتبدو على وجهه.

قال: "لا أدري أيها المدير، ربما يكون هذان الاثنان من شعبنا، ولكن انظر إلى ذلك الصبـي هناك".

مشينا بصمت جنباً إلى جنب حتى وصلنا إلى المبنى. وهناك رأينا كلمتي "شقق كيناسي" مطليتين باللون الأخضر على آجر الواجهة الأبيض.

همست: "يبدو أنه كان يمتلك المبنى كله. كان نجدت دينيزل موسراً أيضاً. ما رأيك ياعلي؟ هل يسعى قاتلنا خلف الأشخاص الأكثر ثراء؟".

ردَّ محدّقاً بتركيز إلى الكتابة العربية على الباب: "لا أعرف أيها المدير، لكن يبدو أن "مقدّر" هذا كان من النوع المتدين".

كنت على وشك إبلاغه أن الثياب التي كان يرتديها لدى العثور عليه لا تشير كما يبدو إلى ذلك، لكنني تراجعت في اللحظة الأخيرة؛ لأن ورع الرجل، أو افتقاره إلى ذلك، لم يكن أولوية قصوى في تحقيقنا. مددت يدي وضغطت على زرّ الجرس، ففُتح الباب ليسمح لنا بالدخول من دون أي استفسار؛ على الأرجح بسبب تدفق الزوّار الوافدين لتقديم تعازيهم إلى الأقرباء الحزانى. عندما دخلنا، سمعنا باباً يُفتح في الأعلى، وأنار أحدهم مصابيح الدّرَج، ثم ظهر شخص ما في أعلى السلالم التي بناها من دون شك أخرق غير بارع نظراً إلى عدم انتظام عرض الدرجات. انحنى الشكل الداكن إلى الأسفل؛ محدّقاً ليرى من نحن في أثناء صعودنا على السلالم المتداعية. وعندما رأيناه يحدّق إلينا من أخمص أقدامنا إلى أعلى رأسينا، انتابني و"علي" شعور بالكراهية الشديدة نحوه.

قلتُ بصوت أجش: "الأمن الجنائي".

داعب الشاب لحيته غير المشذّبة، وبدت نظرة متوترة وعصبية في عينيه السوداوين الفاحمتين. لم يكن سعيداً برؤيتنا إطلاقاً.

"هل أنتما شرطيان؟". لم يكن صوته ودوداً على الإطلاق؛ تماماً مثل وجهه.

"نعم، نحن كذلك". سألت: "ومن تكون أنت؟".

وبدلاً من تعريفنا بنفسه، أشار إلى الباب خلفه. "إذا انتظرتما هنا للحظة فقط، فسأستدعي الآنسة إفسون. إنها ابنة الفقيد".

أمسك علي بذراع الشاب قائلاً: "ليس بهذه السرعة ياصاحبـي. طرح كبير المفتشين عليك سؤالاً، من أنت؟".

قال الشاب وهو يحرّر يده من قبضة علي بهدوء: "اسمي عمر".

لم يكن هناك ذعر أو خوف في صوته؛ الأمر الذي بدأ يزعج مساعدي المتهوّر.

"أليس لديك لقب؟ عمر ماذا؟ تكلم!".

"لم تسألني عن لقبـي! أدعى عمر إكينلي".

نظر علي إليه من أعلى رأسه إلى أخمص قدميه؛ وكأنه ينظر إلى متطرف. "ما كانت طبيعة علاقتك بالفقيد؟".

لم يفهم الشاب ما قصده علي، ووقف هناك عابساً. "علاقتي بماذا؟".

"بالفقيد، الفقيد؛ مقدّر كيناسي".

قال على مضض: "حسناً، يمكن أن تقول إنني صهره، أنا خطيب ابنته".

قلتُ باذلاً قصارى جهدي لتهدئته: "خطيب الآنسة إفسون كيناسي؟ أليست بكر السيد كيناسي؟".

كانت نظرة التوتر لا تزال مرتسمة على وجهه. "هذا صحيح، إنها البكر. ولديه ابن أيضاً يدعى "مجاهد"".

قال علي: "لماذا تفترض أننا هنا لنتكلم مع الآنسة إفسون؟ أين زوجة السيد كيناسي؟".

قال عمر بغضب: "العمّة ملك مشلولة، ولن تستطيع الإجابة عن أسئلتكما. ولا يزال مجاهد فتى يافعاً، ولن يكون ذا فائدة أيضاً، لكن يمكنني استدعاؤه إن أردت".

وعلى الرغم من أننا لم نعجبه، إلا أنه حاول التعاون معنا على الأقل، لكن "علي"- الذي لم يكن مزاجه جيداً في اللحظة التي وصلنا فيها إلى كارسامبا- لم يُظهر أي تعاطف معه.

"شكراً لك ياسيد إكينلي، سنتذكر هذا. إذا أردنا أن نتكلم مع الفتى فسنُعلمك، لكننا سنتحدث أولاً مع الآنسة إفسون، وقد يستغرق هذا بعض الوقت. لذا، إن لم تكن تمانع فهذا ليس مكاناً ملائماً لنُجري التحقيق فيه".

قال: "هذا صحيح، أعتذر. أرجوكما تفضلا من هنا". وأشار إلى الباب في نهاية الرواق، ولكن بدلاً من أن يتقدمنا إلى هناك، اتجه نحو الباب الذي خرج منه قبل بضع لحظات فقط. كاد علي يمسك ذراعه ويوقفه حين قال عمر: "امضيا قدماً، سأفتح الباب من الداخل".

مشيئة الخالق

ما إن وصلنا إلى الباب حتى غرق المكان في ظلام دامس تخترقه آهات وتنهّدات خافتة، وتمتمات أدعية هامسة. تحسّس علي الجدار وسط الظلام باحثاً عن زرّ المصباح، لكنه لم يحتج إليه في النهاية؛ فقد فُتح الباب وتدفق سيل من الضوء إلى الممر. دخلنا، وأصبح الأنين والهمس أكثر وضوحاً. وحين رفعنا أبصارنا رأينا عمر واقفاً بجانب امرأة طويلة. كانت ترتدي حجاباً داكناً، وسترة قماشية بنية ضاربة إلى الحمرة، وكنـزة ذات ياقة عالية، وتنورة من لون الحجاب نفسه؛ تنورة طويلة وأنيقة جعلتها تبدو أطول مما هي عليه. حدَّقت إلى علي طويلاً، ثم إليّ قبل أن تتكلم.

"أردتما أن تتكلما معي". وتقدمت خطوة إلى الأمام. "كيف يمكن أن أساعدكما؟".

قلتُ: "تعازينا. أنت الآنسة إفسون؟".

أومأت برأسها. "نعم، أنا إفسون كيناسي".

"أنا كبير المفتشين أكّان". صافحتني. "وهذا مساعدي المفتش علي غورمن".

قالت: "تفضلا من هنا".

كانت وقفتها وثقتها بنفسها تزعجان "علي" بالتأكيد، فوقف هناك مراقباً الاثنين، ومحاولاً أن يكتشف ما يجري. وفي النهاية سلكنا طريقنا عبر الردهة الضيقة، حيث أضحت الهمسات والتنهّدات والتمتمات أعلى، وميّزنا بعض السور من القرآن الكريم. لكن، باستثناء الصلوات والتلاوة، لم يكن هناك بكاء أو صراخ أو حالات إغماء. بدا أن أفراد أسرة مقدّر كيناسي وأصدقاءه قد تلقوا نبأ موته المفاجئ على نحو جيد.

قادتنا إفسون وعمر إلى غرفة فسيحة تحتوي على رفوف خشبية مملوءة كتباً تصل إلى عوارض السقف الخشبية. وفي المساحات التي لا تغطيها رفوف الكتب تمّ تعليق نصوص باللغة العربية، وخمّنتُ أنها آيات قرآنية أو أحاديث منتقاة. فاحت رائحة عفن قوية في الغرفة، ولم يكن من الممكن التوثق مما إذا كانت تصدر من الورق والحبر أو إن كانت رائحة المنـزل نفسه.

نظرت إلى الكتب على الرفوف بإمعان، ودُهشت حين رأيت روايات لكتّاب مثل دويستوفسكي، وفيكتور هوغو، وتشارلز ديكنـز، إلى جانب مؤلفات دينية للغزالي وابن عربـي، وكتب لتفسير القرآن مغلّفة بجلد فاخر،

لكن المجلّدات الضخمة عن إسطنبول هي التي أثارت اهتمامي. كانت الرفوف على أحد جدران الغرفة مملوءة كلها تقريباً بأعمال عن المدينة، من كتاب أكرم كوك موسوعة إسطنبول غير المكتملة، إلى دوغان كوبان إسطنبول: تاريخ مدينة ، إلى أوغوز تكين العملات العتيقة والأناضول ، إلى يحيى كمال عزيز إسطنبول ، إلى مدحت جمال جنتاي ثلاث إسطنبول ، إلى خلدون هورل استكشاف إسطنبول . كما تضم الحجرة مجموعة نفيسة وأصلية من المحاضر المصوّرة والأعمال الأدبية والوثائقية.

سألت مستديراً إلى الآنسة إفسون: "هل هذه كتبك؟".

"معظمها. في الواقع، كان والدي من بدأ بجمعها، لكنه فقد لاحقاً الاهتمام بها. عاش في السنوات الثلاث الأخيرة من حياته في الطابق الأعلى". وارتعش صوتها حين ذكرت والدها، وفاضت عيناها بالدموع؛ لكن للحظة واحدة فقط. "هذا جناح معيشتي، لذا أصبحت المجموعة لي".

أشارت إلى الأريكة الخضراء الداكنة أمام النافذة، ولم يسعني إلا أن ألاحظ أناملها الطويلة والنحيلة.

"اجلسا من فضلكما".

سألت: "قُلتِ إن والدك كان يعيش في الأعلى، فهل يمكن أن نستنتج أن والديك مطلقان، أو منفصلان؟".

ردّت وقد اختفى اللمعان من عينيها: "تزوج أبـي مجدداً، وكان يعيش في الأعلى في السنوات الثلاث الأخيرة مع نازلي خانم" [14] .

"هل كان نكاح إمام ؟" [15] .

ابتسمت بمرارة وأجابت: "لا. لقد طلّق والدتي وتزوج نازلي خانم".

كنت قد بدأت أفهم لماذا لا تبدو منـزعجة جداً لوفاة والدها، لكنني أردت التوثق.

"أخبرنا عمر أن والدتك، ملك خانم، مريضة؟".

قالت وهي تتنهد بقنوط: "لقد أُصيبت بسكتة، وجانبها الأيمن مشلول".

"أدرك أن هذه الأسئلة ربما تكون مزعجة، ولكننا مضطرون إلى طرحها: هل تزوج والدك بعد إصابة والدتك بالسكتة؟".

أجابت بثبات شخص تعوّد على الشعور بالألم الناجم عن مأساة لم يتعافَ منها بعد: "لا، تزوج نازلي خانم حين كانت والدتي لا تزال بصحة جيدة. كانت أمينة سر في دار البلدية، وتزوجها رغم اعتراضات والدتي القوية، فأُصيبت بالسكتة بعد واحدٍ وعشرين يوماً من زفافهما".

أطبق صمت كريه على الغرفة، تخلّلته أصوات الأنين والعويل في

الغرفة المجاورة.

سأل علي: "متى رأيت والدك آخر مرة؟". كانت نبرته قاسية وفظّة.

"رأيته أمس، حين كنت أغادر إلى جامعتي. كان ذاهباً إلى العمل، فقد أحب دائماً أن يغادر إلى عمله باكراً؛ عادة قديمة".

بدت غير مبالية تماماً؛ ما أرغم "علي" على السؤال مجدداً: "ألم تقولا شيئاً لبعضكما؟".

"قال كلّ منا صباح الخير للآخر، وهذا كل شيء".

"ألم تشعروا بالقلق حين لم يعد إلى المنـزل؟".

قالت: "لم ندرك حقيقة أنه لم يعد". بدا من الواضح عدم اكتراثها؛ وكأنها تتكلم عن هرّ مشاكس وليس عن والدها الراحل. "نحن لا نراه عدّة أيام أحياناً. أنا واثقة بأنكما تدركان أنه لم يكن يهتم بنا كثيراً".

"إذاً، لهذا السبب أنتم لا تبالون بموته؟".

تجمّد الجو في الغرفة، وشعرت بعيني عمر السوداوين تتقدان كراهية حين حدّق إلى مساعدي. جهّزت نفسي لنوبة غضب من إفسون، وربما لسخط عارم، لكن لم يظهر أي انـزعاج على وجهها. إذ جلَستْ ببساطة على أحد الكراسي في الطرف الآخر من الطاولة الطويلة أمامنا، وشرعت تقول وهي تحدّق إلى علي بتينك العينين الفاتنتين:

"الموت جزء أساسي من وجودنا أيها المفتش غورمن، وسنذوقه جميعاً عاجلاً أم آجلاً. وقد ورد في سورة آل عمران:) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلاً وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ (. لا يعلم وقت موتنا ومكانه وسببه إلا الله وحده. ولم تكن وفاة والدي استثناء لهذا الناموس، وهي مشيئة الله".

لم يقتنع علي بإجابتها فقال غاضباً ومصححاً لها كلامها: "كان موت والدك فعلاً إجرامياً". تكلم معها وكأنه يخاطب معذّبه القديم سرافتين من الميتم في يوزغات، لا إفسون كيناسي.

أغمضت إفسون عينيها بهدوء، ثم رفعت رأسها عالياً، وفتحتهما مجدداً، وتكلمت معنا جميعاً بنبرة رزينة:

"حكمة الله لا يمكن إدراكها، فهو أصل ومصدر كل الخير. ولا يمكننا نحن، عباده المخلصين، أن نسأل عمّا يقدّره أو عن أسباب ذلك أو نعرفها. كل ما نعرفه هو أن لكل شيء سبباً، وأن إرادته وعدالته تطالاننا جميعاً، وهو وحده القادر على التمييز بين الصواب والخطأ، وبين الصالح والطالح؛

لذا يعدُّ قبول مشيئته وقضائه من أعظم الفضائل".

لماذا كانت تتكلم بمثل هذه الألغاز؟ ماذا يُفترض بهذا أن يعني؟ هل تحاول القول إن وفاة والدها "حق"؟

سألتُ: "كيف كان والدك؟".

عبثت بياقة سترتها البنية الفاتحة، وبدا أنها تحاول كسب بعض الوقت حتى تتخذ قراراً بشأن أفضل الطرائق للإجابة.

قالت وهي تخفي أفكارها الحقيقية وراء ابتسامة رقيقة: "ليس من الملائم الحديث عن الفقيد، ويجب أن أذكّرك بأنني ابنته".

لم تكن إفسون كيناسي حمقاء، وعندما قالت إنها ابنته كانت تشير في الواقع إلى أن والدها لم يكن شخصاً صالحاً. أنبأني حدسي أنها تحاول التعاون معنا، ولكن مجدداً لم يكن بمقدور علي الأحمق الخروج من نطاق أفكاره المسبقة.

قال مستديراً نحو الشاب الصامت: "إذاً، يمكن أن تخبرنا أنت يا عمر! قل لنا، كيف كان حموك المستقبلي؟".

تجمّد عمر؛ مثل أرنب غمره ضوء مصابيح سيارة، ولمعت عيناه غضباً، لكنه حافظ على هدوئه.

قال من دون أي انفعال: "ليرحم الله روحه". لم يشِ صوته بأي مشاعر على الإطلاق؛ وكأنه يتكلم عن شخص غريب عنه تماماً. "كان طيباً معي دائماً".

هكذا إذاً؛ من دون تفاصيل أو شرح أو أيّ شيء. لم يبدُ علي راضياً بذلك، وقال وهو يومئ برأسه نحو يد عمر: "هل تقول إن حماك المستقبلي كان يحبّك؟ لاحظت أن أياً منكما لا يضع خاتم خطوبة". وعندما رأى علي أنهما ينظران إلى يديهما تابع الكلام. "أم إن السيد كيناسي لم يكن متحمساً جداً لفكرة زواجكما؟".

صرخت إفسون عابسة، وقد بدأت أولى علامات الغضب تتسلل إلى وجهها: "سيدي، لقد أراد بقوة أن نتزوج. وعلى كل حال، ما علاقة هذا بموته؟".

كان الشرطي السيئ قد لعب دوره، وحان وقت تدخّل الشرطي الصالح نوزت.

"أرجو ألاّ تسيئي فهمنا يا آنسة كيناسي، فنحن لا ننوي التدخل في حياتك أو حياة السيد كيناسي الخاصة. فكل ما نحاول فعله هو العثور على قاتل والدك واعتقاله".

ظلّت عابسة، ولم تبدُ مقتنعة.

"إذاً، أظن أنك يجب أن تبحث عن القاتل في مكان عمله، وليس في منـزله. ما كان أحد في هذا المنـزل ليؤذيه إطلاقاً بأي طريقة".

بدا أننا نحصل أخيراً على شيء ما.

"قبل أن نتكلم عن عمله ياآنسة كيناسي، أود أن أسألك عن الفارق في السن بين والدك وزوجته الثانية. هل هي أصغر من أبيك بكثير؟".

"نعم. إذا كنت تريد أن تعرف، فهي أصغر من والدي بعشرين سنة، وأكبر مني بسنتين فقط. إنها امرأة شابة وجميلة وموفورة الصحة".

حاولت أن تبدو غير مبالية، ومتشامخة أيضاً، لكنها لم تعد تستطيع إخفاء ذلك الأسى أو الغضب الذي يكاد ينفجر.

"هل أُبلغتْ بأنّه قد قُتِل؟".

"اتصلتُ بها هذا الصباح وأبلغتها".

"لماذا اتصلتِ بها؟ ألا تعيش هنا؟".

"عادت إلى مسقط رأسها ريزي في الأسبوع الماضي".

"وكيف تقبّلت النبأ؟".

"ما رأيك؟ فُطر قلب الفتاة المسكينة".

كانت هناك رقّة في صوتها حين قالت "الفتاة المسكينة". وبدت منـزعجة حقاً على زوجة والدها الشابة. وعلى الرغم من عدم تعاطفها مع والدها، إلا أنها لم تكن تكره تلك المرأة- حتى إنها ليست امرأة كبيرة في السن، وإنما مجرد شابة في مثل عمرها- التي اقتحمت منـزلهم فجأة وقلبت حياتهم رأساً على عقب. بدا أن إفسون كيناسي تتمتع بصفات لا تلحظها العين المجرّدة.

"هل ستعود إلى إسطنبول؟".

أومأت برأسها.

"ستسافر الليلة؛ تلك الشابة المسكينة. نازلي فتاة جيدة، شابة محترمة ومؤمنة. لماذا أنت مدهوش أيها المفتش أكّان؟ ما حصل ليس خطأها، وهي لم تفعل شيئاً خاطئاً. إنها امرأة مسكينة، ومعوزة، وليس لديها أحد في هذا العالم. أظهر رجل طاعن في السن، ويتمتع بنفوذ ومكانة وسلطة، لها بعض الحب والعاطفة، واعترف بوجودها. ماذا كان يُتوقع منها أن تفعل؟".

"هل كان والدك يحب الآنسة نازلي هذه؟".

قالت وهي تهز كتفيها: "لا أدري. وأشك أن والدي نفسه كان يعرف. كل ما أعرفه هو أنه في اللحظة التي امتلك فيها المال، بدأ يتغير".

قفز وصف ليلى باركين لطليقها نجدت دينيزل إلى ذهني: تحوّل ذاك الرجل الذي وقف مرة مكسواً بالغبار تحت الشمس الحارقة من دون أن يتوقع غنى أو ثروة، وهو يبحث بمثابرة عن دلائل لمعرفة أسرار الماضي إلى تاجر؛ إلى رجل أعمال مثير للشفقة يحاول أن يحوّل كل ما يمسّه إلى ذهب، وكل ما يحبه إلى مال.

كان القتيلان قد تغيّرا بسبب الثروة. طبعاً هذه ليست ظاهرة استثنائية في عالم اليوم، ويمكن أن نرى هذا التحوّل الذي يسبّبه المال في كل مكان في العالم، وكل يوم. لكن التشابه في طريقتي موتهما، والأسلوب المتماثل الذي تمّ اعتماده، والعثور على قطعة نقدية بين كفّي كلا الفقيدين، لم تكن محض مصادفة...

"إذاً، ما تقولينه هو أن والدك قد تغيّر نتيجة العمل وبسبب...".

قاطعتني بصوت متهدّج: "ليس العمل أيها المفتش أكّان، وإنما المال. ألم يكن الشاعر الأستاذ نسيب فاضل من قال: يجب ألاّ نخشى من رجل لديه مال، وإنما من رجل يحكمه المال؟ نعم، لسوء الحظ، كان والدي قد أصبح أحد أولئك الرجال الذين تحكمهم محبة المال. لا أعرف إن كان متورطاً في أي نشاطات غير قانونية. إذا كنت تريد معرفة ذلك فلا فكرة لديّ إطلاقاً، لكنني أعرف حقاً أنه قد تغيّر في السنوات الثلاث الأخيرة. لقد استُبدل برجل الإيمان والتواضع الرزين والمستقيم رجلٌ لا يضع نصب عينيه ثواب الآخرة، وإنما تحقيق الثراء في هذا العالم؛ رجل استعبده الجشع وهاجس الحصول على المال".

قلت وأنا أومئ برأسي متفهماً: "فهمت. نحن نقدّر هذه المعلومة حقاً، وستكون ذات فائدة كبيرة لنا. هل يمكن أن تزودينا ببعض الأسماء؟ أسماء أشخاص عمل والدك معهم؟".

بعد تردد قصير، ابتسمت ابتسامة غريبة. "سأقول السيد نجدت دينيزل، ولكنني أظن أنه سيكون صعباً عليكما أن تتحدثا إليه الآن. لقد قُتل أيضاً، وقد سمعت النبأ في الأخبار هذا الصباح".

كما توقعت تماماً. كانت الصورة قد بدأت تتشكّل ببطء...

سَألتْ فيما كنت على وشك أن أسألها عن علاقة والدها بنجدت دينيزل: "هل قتلهما الشخص نفسه؟".

"لا نـزال نجهل هوية القاتل، لكننا نأمل أن نتمكن بمساعدتك من العثور عليه أو عليها".

"هذا إذا كنت تريدين منا أن نعثر على القاتل". تدخّل علي، ملك

الحماقة. "يبدو لي أنك تنظرين بطريقة ما إلى وفاة والدك على أنها قضاء وقدر؛ ما سيجعل القبض على قاتله مجرد تفصيل غير مهم بالنسبة إليك".

هزّت رأسها بعناد.

"أخشى أنك مخطئ تماماً أيها المفتش غورمن. عندما يتكلم المرء عن الخضوع لله، فهو لا يشير ببساطة إلى وضعنا الحالي وقبولنا له، وإنما إلى ما سيأتي أيضاً. الحياة حلقة لا تنتهي أبداً، وكل من هو جزء من تلك الحلقة يخضع أيضاً لمشيئة المولى عزَّ وجل. إن القبض على القاتل ومعاقبته جزء من الحلقة؛ جزء من إرادة الخالق القدير ورحمته". ثم استدارت لتواجهني. "أرجوك، حاول أن تفهم أيها المفتش أكّان. أريد أن يتم إلقاء القبض على قاتل والدي كي تتحقق العدالة. وأنا مستعدة لفعل أي شيء بمقدوري لأساعدكم في إلقاء القبض عليه".

قلت: "شكراً لك. ماذا تعرفين عن العلاقة بين والدك ونجدت دينيزل؟".

"كان كلاهما مستشارين في اللجنة التي تدرس أعمال التشييد المقترحة في السلطان أحمد".

كان أول اسم قفز إلى ذهني هو آدم يزدان الذي عمل نجدت دينيزل معه؛ محاولاً أن يحصل على إذن بالبناء في مناطق يُحظر فيها التشييد، في حين أن مقدّر كيناسي مخطط حضري، وصاحب نفوذ واسع في مجلس المدينة؛ إنه شخص تعامل مع الأبنية الجديدة ومواقع التعمير المقترحة. تمتمت باسم رجل الأعمال الغامض الذي يجب أن ألتقيه؛ متمنياً أن أحصل على بعض المعلومات الأخرى من إفسون.

"آدم يزدان...".

عرفت أنني على الدرب الصحيح، فقد اختلج وجهها قليلاً حين سمعت الاسم.

"كان والدك يعمل معه، أليس كذلك؟".

ارتفعت يدها إلى ياقة سترتها مجدداً، وبدا أنها ستراوغ.

"لا أدري...". لكننا أدركنا أنها تعرف، وتعرف الكثيرَ أيضاً. "لقد سمعت اسم آدم يزدان، لكنني لا أعرف من هو أو كيف عرفه والدي".

"هل التقيت آدم يزدان من قبل؟".

"لا، أنا أذهب إلى محاضراتي فقط، وهذا كل شيء. لا أعرف شيئاً عن عمل والدي، ولم أذهب إلى مكتبه إلا نادراً؛ مرة في السنة".

"ماذا تدرسين؟".

"أنهيت تخرّجي من كلية الشريعة". وأشارت إلى الكتب الموجودة على الطاولة الصغيرة المنخفضة أمامها. "أحضّر حاليًّا لرسالة الماجستير".

نظرتُ إلى الكتب على الطاولة، وكانت العناوين وحدها صعبة كفاية: التفسير الكبير لمحي الدين بن عربـي، تأويل الشريعة في تفسير القرآن للقشيري، تفسير القرآن العظيم لسهل بن عبد الله التوستري.

"كما ترى، معظم هذه الكتب عبارة عن تفسير للقرآن. وأطروحتي عن شرح القرآن وتفسيره، وعن المعنى الحقيقي الذي يكمن خلف القراءة السطحية للكتاب الكريم. إذ لا يمكن فهم الذِّكر من دون معرفة المعنى الحقيقي، ولا يستطيع المرء معرفة الله من دون معرفة كاملة بالكتاب".

بدا كل ذلك سامياً ويتطلب ثقافة واسعة بالنسبة إليّ. لذا كل ما استطعت قوله هو "همم"، لكن "علي" تدخل بفظاظته المعتادة.

"لأقول لك الحقيقة يا آنسة كيناسي، أظن أن كل ما قتله للتو هراء تماماً، ولا معنى له إطلاقاً".

حدّقت إفسون كيناسي أمامها من دون أن يبدو على وجهها أي انفعال؛ وكأنها تنظر إلى شيء جامد. لم أظن أنها ستجيب، لكن "علي" أثار بالتأكيد شيئاً في داخلها.

فقالت باحترام، وهي تخفي غضبها المتصاعد: "أيها المفتش غورمن، توجد آية في سورة الفرقان تقول:) وَعِبَادُ الرَّحْمَانِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَمًا (. هذا ما أقوله لك أيها المفتش غورمن. السلام عليك، ولا أتوقع منك أن تستخلص أي معنى مما قلته على كل حال".

تصرّف علي- الذي يحب هذا النوع من المواجهة- كما هو متوقع فوراً. "إذاً، لماذا تلوت هذه الآية؟".

كان فكها يرتعش لشدّة غضبها، وفتحت فمها وكادت ترد عليه، لكن "علي" لم يلحظ ذلك.

"لا تزعجي نفسك يا آنسة، ولا داعي لأن تنظري إليّ على هذا النحو، فهذا لا يؤثر فيّ أو يخيفني. القرآن مهم لي كما هو مهم لك تماماً، وما سأقوله ليس مكتوباً في أيٍّ من كتبك، لكن كوني واثقة أنه الحقيقة: كل من يقضي على حياة إنسان سيجدنا بانتظاره. كل- ولا أهتم بهويته أو هويتها، وإن كان على صواب أو على خطأ- من يقتل إنساناً آخر سيواجهنا". وأشار إلى كليهما؛ إلى إفسون وعمر. "تقولان إنها مشيئة الله، لتكن إذاً. تقولان إنه القدر، لا بأس بهذا. لكن، إذا كنتما تظنان أن

مقترف هذه الجريمة سينال جزاءه في العالم الآخر فقط فأنتما ترتكبان خطأ كبيراً، فهو سينال جزاءه في هذا العالم وهذه الحياة أيضاً. إذ إنّ أشخاصاً مثلنا هنا سيحرصون على ذلك. لذا آمل أن تدركا أنكما في كل مرة تكذبان فيها علينا، فأنتما تكذبان على الخالق أيضاً، وكل معلومة تحجبانها عنا، تحجبانها عن الخالق أيضاً. لهذا- ودعاني أوضّح الأمر بجلاء- إذا لم ترغبا في أن تجدا نفسيكما في ورطة حقيقية في هذا العالم والآخرة، فمن الأفضل أن تبدآ بالتعاون معنا، من أجل مصلحتكما".

قاتل إنساني

لم تكن رغبة إفسون وعمر الحقيقية بالتعاون معنا مهمة فعلاً، فبعد مونولوج عمر القصير الرائع ذاك، لم يعد بقاؤنا في تلك الغرفة الصغيرة المزدحمة بالكتب موضع ترحيب. لكن قبل أن نغادر، سألنا إن كنا نستطيع رؤية والدة إفسون؛ ملك خانم، ولم تعترض الشابة؛ مما أثار دهشتنا الشديدة.

كانت ملك خانم في غرفة في نهاية الرواق، ومحاطة بعشرين سيدة على الأقل، يرفعن جميعاً أكفّهن ويتمتمن ببعض الآيات والتضرّعات. لم تكن الأم، المستلقية على سرير، تتمتع بعزيمة ابنتها أو غضب امرأة تعرّضت للازدراء. وعندما رأتنا، كافحت لترفع حجابها الأسود وتغطّي وجهها المشوّه نتيجة إصابتها بالسكتة، لكنها لم تستطع إخفاء الدموع التي راحت تسيل على وجنتيها. لم يسعني إلا أن أتساءل إن كانت تأسف لحالها أم لوفاة الرجل الذي كان مسؤولاً - بكل المعايير - عن اعتلال صحتها.

الموت - مثل الولادة والزواج - إحدى التجارب التي ترغمنا على إعادة تقويم رؤيتنا للحياة. لكن، عندما تقع تلك الوفاة بسبب جريمة، فلا يسع المرء إلا أن يطرح سؤالاً بسيطاً لكنه أساسي: "لماذا؟". إنه سؤال عمّا يجعل أيّ إنسان يرغب في القتل، وعمّا يمنحه تلك القدرة الرهيبة التي تحرفه عن جادة الصواب. لا يتوقف التساؤل هنا، ولا يمكن للمرء إلا أن يفكّر في شخصية القاتل، ويتساءل إن كان إنساناً صالحاً، أو شخصاً شريراً، أو وحشاً، أو مختلاً عقلياً... حتى آنذاك، يصبح التساؤل حول ما إذا كان ذلك المرء تحديداً شخصاً صالحاً غير ذي أهمية، ويكون السؤال الحقيقي - المشكلة الأساسية التي تنبثق من عملية التساؤل نفسها - متعلقاً بفكرة الطبيعة البشرية. أولئك الذين يظنون أن البشر محترمون وأخيار أساساً يُصدمون حين يتلقون نبأ وقوع جريمة، ويستشيطون غضباً، وتكون ردة فعلهم هي القول بصوتٍ عالٍ إنّ أخلاق الإنسان قد ماتت. في حين أن أولئك الذين يرون البشر أشراراً أساساً، لا يسعهم فعل شيء آخر إلا إلقاء القبض على أولئك المجرمين ومعاقبتهم، وبتحيّز وعنف بالغَين. تصدّق المجموعة الثانية أنه في حال تجاوزت قسوةُ العقاب الجريمةَ نفسَها، فسيتضاءل هول الجريمة بطريقة ما، وهم يعتمدون القاعدة القائلة: داوها بالتي كانت هي الداء . تثير الجريمة لدى أشخاص مثلي - يرغبون برؤية بعض الرحمة على الأقل في العقوبة، وبعض الرفق في تنفيذ الجزاء، وبعض

اللين على الأقل في الظلم- خيبة أمل دائماً، وتداعياً للآمال، ونكسة لتصديقنا أنه في النـزاع بين الخير والشر سينتصر الخير بطريقة ما. لذا، كنت أكافح مشاعر اليأس والقنوط حين غادرنا منـزل مقدّر كيناسي. لم يكن من الممكن قول الشيء نفسه عن علي، فالامتعاض الذي شعر به حين دخل المنـزل قد استُبدل بابتهاج وإثارة ضابط شرطة يظن أنه سيحلُّ قضية. كان نامق قرمان الشيوعي الذي تحوّل إلى مدافع عن إسطنبول وحبيبته ليلى باركين قد أصبحا مشتبهاً فيهما رئيسَين، وعلي واثق أن إفسون وعمر عنصران متطرّفان، وينتابه شعور غامر بالفرح لأنه يظنّ أنه عثر على المذنبين. بالمحصلة، ربما كان محقاً، فلديهما سبب واضح لقتل مقدّر كيناسي. لكن، ما دافعهما لقتل نجدت دينيزل؟ ولماذا سيرغبان في القضاء عليه؟ فضلاً عن ذلك، لماذا سيتكبّدان كل ذلك العناء ليجعلا الجثتين تشيران إلى موقع الضحية التالية؟ وما أسبابهما لترك تينك القطعتين النقديتين العتيقتين على الجثتين؟ لم يتمكّن علي من استنتاج تفسيرات مرضية أيضاً، وبدلاً من الانغماس في تصوّرات لا طائل منها، تدثّرت بمعطفي، وأغمضت عينيَّ واستسلمت للنوم.

وعندما وكزني علي بلطف ليوقظني، كنا قد وصلنا إلى الشارع الضيق أمام مقر قيادة الشرطة. كانت حركة المرور- كالمعتاد- متوقفة تماماً، ولا فائدة ترجى من بقاء علي هناك لساعات؛ لأنه يتوجب عليه الذهاب إلى مجلس المدينة واستجواب زملاء مقدّر كيناسي، والوقت المتاح له ليس طويلاً. كانت هناك أسئلة بحاجة إلى أجوبة؛ هل ذهب حقاً إلى العمل باكراً صباح أمس كما قالت إفسون؟ وإذا كان قد فعل، ففي أي وقت غادر؟ وهل التقى أحداً أمس؟ هل زاره شخص ما؟ إضافة إلى كل ذلك، يجب أن يعرف أيضاً من هم أعضاء المجموعة الاستشارية التي عمل فيها إلى جانب نجدت دينيزل.

عندما أحصل على آخر المعلومات من زينب، يجب أن ألتقي ليلى باركين، لكن يجب أن أتصل بها أولاً وأحدد الزمان والمكان. خرجت من السيارة عند زاوية الشارع، واتصلت بليلى باركين فيما كنت أمشي في ساحة مقر قيادة الشرطة. وبعد بضع رنّات، حين أوشكت على إنهاء المكالمة، سمعت صوتاً صارماً على الطرف الآخر.

"مرحباً، من المتصل؟".

"آنسة باركين، أنا المفتش أكّان. أتساءل إن كان بمقدورك منحي بضع دقائق".

قالت بعد فترة صمت قصيرة: "أهلاً أيها المفتش. طبعاً، تفضل".

"كنا قد تحدّثنا عن الالتقاء بعد العمل، إن كنت تتذكرين".

"نعم، طبعاً. عملي هنا يكاد ينتهي. ما رأيك بأن نلتقي بعد ساعتين؟".

"أين سنلتقي؟".

"ما رأيك بأن نلتقي أمام المسلّة في السلطان أحمد؟".

"لا بأس بهذا".

"ستجلب معك قطعة قسطنطين النقدية، أليس كذلك؟".

"سأفعل. أراك قريباً".

لم يكن لديّ وقت كافٍ فأنهيت الاتصال، وسلكت طريقي إلى مدخل مقرّ قيادة الشرطة.

كالمعتاد، كانت زينب جالسة أمام شاشة الحاسوب، وهي تعمل جاهدة رغم أنها لم تنعم إلا ببضع ساعات من النوم. عندما رأيتها على تلك الحال، لم أشعر بالفخر الذي يشعر به أي مدير عندما يرى كدّ موظفة لديه، وإنما بعطف أب. طبعاً، لم تكن زينب لتحلَّ مكان ابنتي قطّ؛ رغم أنني رأيت حلماً مرة، أصبحت فيه آيسون زينب، والفتاة التي قد تكلمت معها في حلمي- صوتها، إشاراتها، تعابير وجهها- كانت تشبه آيسون، لكنني رأيت وجه زينب. بدا أن عقلي الباطن وافق على ما أراد ذهني المنطقي نكرانه.

قالت وهي ترفع بصرها أخيراً وتلاحظني: "مرحباً أيها المدير، متى جئت إلى هنا؟".

"الآن. كيف هي الأمور؟".

فركت عينيها لإبعاد الكرى عنهما، وطرفت بضع مرات.

قالت مشيرةً إلى الشاشة: "ليست سيئة. كنت أفحص بصمات ليلى باركين".

فتاة مسكينة؛ ظنّت أنني أسأل عن القضية. "هذا رائع، لكنكِ تبدين مرهقة. ما رأيك بأن ترتاحي قليلاً؟".

ابتسمت شاكرة وقالت في محاولة للتقليل من أهمية تعبها: "شكراً لك أيها المدير، لكنني بخير حقاً".

سألتُ قلقاً: "هل أكلتِ على الأقل؟".

"تناولت بايد [16] ضخمة". عرفت من نظرة القلق على وجهي أنني لم أصدّقها.

"أنا بخير أيها المدير، حقاً. سأصبح أفضل حالاً عند الانتهاء من العمل على البصمات".

"آمل هذا؛ لأنك عضو أساسي في الفريق يازينب، وأنت مهمة جداً لنا؛ لي... ولا أعني في هذه القضية فقط، وإنما في كل الأوقات... على كل حال، آدم يزدان هذا رجل الأعمال، هل تمكّنتِ من الحصول على أي معلومات عنه؟".

قالت بارتباك: "آسفة أيها المدير، لم تسنح لي الفرصة بعد". وأشارت إلى الحاسوب قائلة: "لقد وصل تقريرا تشريح نجدت دينيزل ومقدّر كيناسي للتو، وكنت أقرأهما".

إنّه نبأ جيد بالتأكيد، لكن يجب أن أذكّرها. "هذا رائع، لكن أرجوك يازينب، لا تغفلي عن آدم يزدان، فقد يكون مفتاح الحل".

قالت متورّدة قليلاً: "طبعاً ياسيدي".

قلت وأنا لا أزال واقفاً: "إذاً، تقريرا التشريح هذان، هل فيهما شيء مفيد لنا؟".

قالت وهي تفتح الملفين: "سبب وفاة كلا الرجلين واحد: نقص كمية الدم نتيجة تمزّق الشريان السُباتي ". رفعت بصرها عن الملفين. "بكلمات أخرى، ماتا نتيجة نـزيف مفاجئ وسريع. الغريب في الموضوع أن الشخص الذي فعل ذلك لم يكن مبتدئاً بالتأكيد؛ إذ يقول التقريران إن الجرحين تامّان. فضلاً عن ذلك، تظهر ندبتا الجرحين على الجثتين في موضعين متطابقين، بالمليمتر الواحد".

"فهمت. وهل حُدّد وقت الوفاة بالنسبة إلى كل منهما؟".

"هذا ليس سهلاً أيها المدير، ونحتاج إلى خمس عشرة ساعة على الأقل قبل أن نبدأ بتحديد ذلك. على كل حال، يمكن أن نتوثق بالاستناد إلى الدم المتخثّر أن كلتا الجريمتين قد وقعتا قبل خمس عشرة ساعة على الأقل من العثور على الجثتين. وُجدت جثة نجدت دينيزل عند الساعة الخامسة من صباح الثلاثاء، لذا يمكن أن نفترض أنه قُتل يوم الاثنين قبل الساعة 14 ، في حين وُجدت جثة مقدّر كيناسي عند الساعة الواحدة من صباح الأربعاء، لذا إن عدنا خمس عشرة ساعة إلى الوراء فسندرك أنه لقي حتفه قبل العاشرة من يوم الثلاثاء. هذا كله تقريبـي بالتأكيد".

وفيما كانت زينب تشرح كل تلك التفاصيل التقنية، حاول ذهني استيعاب مسألة أخرى: لم يكن نجدت دينيزل أو مقدّر كيناسي رجلاً مسناً، وكلاهما رجلان موفورا الصحة ونشيطان.

"ألم يقاوم أي من الضحيتين القاتل؟".

نَظَرت إلى تقرير التشريح وأجابت: "لا. ليست هناك علامات تشير إلى حصول أي نـزاعٍ مع كلّ من الضحيتين؛ رغم وجود بعض الندوب بحجم قطعة نقدية كبيرة على جانب نجدت دينيزل الأيسر؛ وكأن شخصاً ما قد نكزه بعصا ثقيلة. لم تكن الندوب جديدة، وإنما قديمة".

"كم عمرها؟ هل يقول التقرير أي شيء عنها أو متى أُحدثت؟".

"لا، لكنه تعرّض لها قبل أسبوع على الأقل. فلو كان قد تلقى مثل تلك الضربات قبل يوم أو اثنين، لكانت الكدمات أكثر وضوحاً. لكننا واثقون أن الضحيتين لم يُظهرا أي مقاومة من أي نوع ضد القتلة".

"في هذه الحال، لا بد أنه تم تخدير الضحيتين وخطفهما".

"هذا ما كنت أفكّر فيه أيضاً أيها المدير. لا بدّ أنهما قد خُدّرا ثم سُحبا إلى هناك. أظن أنهما كانا غائبين عن الوعي في لحظة الوفاة، ولم يعرفا على الأرجح أنهما على وشك أن يُقتلا".

هذا مثيرٌ للفضول؛ هناك قاتل، أو قتلة قساة كفاية لحزِّ عنقي رجلين في اليوم نفسه، ولكنهما عطوفان بما فيه الكفاية ليحرصا على ألاّ يشعرا بأي ألم.

"هل تظنين حقاً أنهما أُفقدا وعيهما قبل أن يُقتلا؟".

ظهرت نظرة قلق في عينيها.

"لا يمكن أن أكون واثقة بذلك تماماً. لكن، ليست هناك إشارة إلى أن الضحيتين قد تعرّضا لأي معاملة قاسية أو تعذيب. طلبتُ من الشباب في مختبر الطب الشرعي أن يتحقّقوا من وجود بروبوفول في جسدي الضحيّتين لنتوثق على كل حال".

"بروبو ماذا؟".

قالت بلطف: "بروبوفول، إنه مكوّن أساسي يُستخدم في العقاقير المسكّنة، وفي العمليات الجراحية خاصة، ويُعرف في السوق باسم ديبريفان. يُحقن وريدياً، وينتقل عبر مجرى الدم إلى الكبد حيث يخضع لعمليتي التخلص من الآثار السمّية والإفراز. عندما تبدأ عملية الاستقلاب في الكبد...".

قلتُ وأنا لا أعير اهتماماً للمصطلحات الطبية: "أياً يكن يا زينب، أياً يكن. ما تقولينه أساساً- إن كنت أفهم على نحو صحيح- هو أنه إذا وُجدت آثار من هذه المادة التي تتكلمين عنها في الجثتين، فمن الممكن الافتراض أن الضحيتين قد أُفقدا وعيهما قبل أن يُقتلا، أليس كذلك؟".

"بإيجاز أيها المدير، نعم". بدأ التعب يختفي من عينيها. "في هذه

الحال، ربما يجب أن نبدأ بالبحث عن أطباء مشتبه فيهم محتملين".

كنا نحن الاثنان نفكر في الشخص نفسه.

قلتُ متابعاً التفكير في شخصية القاتل: "إنه شخص إنساني نسبياً، رجل يشمئز من القتل لكنه يستطيع اقتراف جريمة".

"شخص يمكن أن يقتل حين لا يكون هناك خيار آخر. شخص مثالي يرتكب جرائم باسم قضية يصدّق أنها...".

لتوضيح الصورة في ذهنينا تابعتُ وصف القاتل وتحليل شخصيته.

"إنه شخص جسور كفاية ليتمكّن من قتل شخص آخر، وبارد الدم وذكي كفاية ليستطيع تحويل كل جريمة إلى رسالة".

انتقلت زينب إلى شركاء القاتل. "وهو عضو أيضاً في منظمة، أو لديه مجموعة أصدقاء يمكن أن يساعدوه في عمله".

حان الوقت للنطق بالاسم فسألت: "أنتِ تتكلمين عن نامق قرمان، أليس كذلك؟".

أومأت برأسها وقالت: "وعن ليلى باركين طبعاً، الاختصاصية التي تساعده".

مسلّة ثيودوسيوس

كان لون الليل الرمادي الباهت قد بدأ يخيّم على ساحة السلطان أحمد، لكن ليلى باركين لم تصل بعد، وتفرّقت مجموعات السيّاح ببطء، مستمتعين بآخر الأضواء قبل أن يخلُدوا إلى النوم، فيما احتشدت بعض الجماعات حول أشجار الكستناء والدُّلب. سلكت طريقي بين السيّاح الأخيرين الذين جاء معظمهم من إنكلترا نحو مسلّة ثيودوسيوس؛ ممسكاً الحقيبة الجلدية التي تحتوي على قطعتي النقود البيزنطية والقسطنطينية بإحكام. وعلى الرغم من أنني زرت الصرح مرات عديدة حين كنت طفلاً، إلا أنه لا يسعني إلا أن أُعجب بما أراه. مشيت باتجاه المسلّة، وحدّقت إلى تلك الأشكال الغريبة التي ترجع إلى إحدى لغات العالم القديمة التي حُفرت ببراعة على الحجر الغرانيتي الزهري قبل كل تلك المدة الطويلة. يمكن رؤية النسور والأسود والعيون والشموس والجداول المترقرقة والصحارى القاحلة عليها في رموز مشفّرة ترجع إلى لغة قديمة ويتعذّر فك طلاسمها...

"مدهش، أليس كذلك؟".

عندما استدرت، لم تكن ليلى باركين تنظر إليّ، وإنما كانت تحدّق بدهشة إلى الرموز الظاهرة على المسلّة.

قالت بذهول: "من سيصدّق أن عمرها ثلاثة آلاف وخمس مئة سنة؟ تبدو جديدة، ومن صنع حرفي ماهر".

لم أكن لأصل إلى هذا الحد، لكنني عرفت حقاً أنها استثنائية.

سألتُ وأنا لا أزال أنظر إلى المسلّة: "هل أمر قسطنطين بصنعها؟".

"في الواقع، أمر ثيودوسيوس الأول بذلك. لكن حدسك صائب، فقد كان قسطنطين من لاحظها أولاً في مدينة آنو في مصر، حيث شُيّدت أصلاً".

سألتُ وأنا غير منـزعجٍ من حقيقة أنها تبدو مثل مدرّسة تتكلم مع طالب بطيء الفهم: "لماذا هناك؟".

"لأنها صُنعت أصلاً لإحياء ذكرى الفرعون تحتمس الثالث، وليس الأباطرة الرومان". مشت بخطوات واسعة إلى الواجهة الشمالية الغربية من الصرح، ثم قالت وهي تقرأ بسهولة النص الذي كنت قد حاولت فهم رموزه من دون نجاح طوال سنوات: "هنا، هذا مكتوب هنا:

أعلن والي مصر العليا والدنيا، تحتمس الثالث من السلالة الثامنة عشرة، بعد أن قدّم قرباناً إلى آمون وبمساعدة حورس، سلطته على كل المحيطات والأنهار، وقد أمر بصنع هذه المسلّة للاحتفال بالذكرى الثلاثين

لعهده وكل الاحتفالات اللاحقة". استقرت عيناها الداكنتان على وجهي المتعب وتابعت: "بعد أن غزا الرومان مصر، لم يُعر أيٌّ من أباطرتهم هذه المسلّة اهتماماً كبيراً؛ حتى رآها قسطنطين طبعاً. كان قد نقل عاصمة الإمبراطورية الرومانية من روما إلى بيزنطية؛ المدينة التي ستحمل اسمه لاحقاً، وبدأ عملية جمع كل أنواع التماثيل والأعمال الفنية من أنحاء العالم كافة؛ لتجميل عاصمته الجديدة، وجعلها أروع مدينة على سطح الأرض. ولهذا السبب، أرسل إلى المصريين رسالة مهذّبة ولكنها حازمة: سيكون من الأفضل لكم أن ترسلوا هذه المسلّة الحجرية؛ إسهاماً منكم في تجميل هذه المدينة التي ساعدتم في رخائها، وستحيّيكم بسخاء كبير لدى اقترابكم من البحر الأسود".

سألتُ وأنا أشعر بالفضول: "هل أرسلها المصريون؟".

"لا أحد يعلم تماماً. وليس من المعروف توقيت نقل المسلّة إلى هذه المدينة. كل ما نعرفه هو أنه بعد أن تمّ جلبها إلى هنا، قضت وقتاً طويلاً في ميناء كاديرجا، ولم توُضع على هذه القاعدة إلا بعد أن اعتلى ثيودوسيوس الأول العرش، فقد أراد نقلها إلى المدرَج تخليداً لانتصاراته. طبعاً، لم يكن الأمر سهلاً كما كان يُظن، وقد بُني طريق من ميناء كاديرجا إلى المدرَج لإحضار المسلّة إلى هنا، واستغرق نقلها ثلاثة أيام وجهداً كبيراً". أشارت إلى قاعدة الصرح وتابعت: "يقول بعضهم إن نقل العمود إلى هذه النقطة فوق هذه القاعدة استغرق ثلاثين يوماً، في حين يقول آخرون إنه استغرق اثنين وثلاثين يوماً. وتقول الكتابة النافرة بالإغريقية هنا:

كان الإمبراطور ثيودوسيوس هو الذي تحلّى بالشجاعة لرفع هذه المسلّة، وقد استُدعي بروكلس للمساعدة في هذه المهمة، ونُصبت خلال اثنين وثلاثين يوماً.

تقول هذه الكتابة النافرة باللاتينية:

على الرغم من اعتراضي سابقاً، إلا أنني امتثلت لطلب السادة النبلاء، وحملت أكاليل النصر إلى الطغاة المنتصرين. انحنى كل شيء أمام ثيودوسيوس وذرّيته. انحنيت أنا أيضاً، وبأمر من الحاكم بروكلس صعدت إلى القمة لمدة ثلاثة عشر يوماً".

ابتسمتُ وأشرتُ إلى النقوش البارزة على القاعدة. "من هؤلاء؟".

"إنهم ثيودوسيوس وأفراد أسرته. وتُظهر النقوش قصة تشييد المسلّة".

حدّقت إلى النقوش النافرة التي بدت مثيرة للاهتمام، لكنني كنت أكثر اهتماماً بإمبراطور آخر، وليس بثيودوسيوس.

"هل كان قسطنطين من أمر ببناء هذه الساحة؟".

قالت مصححة معلوماتي: "هل تعني المدرَج؟ كان يوجد مدرَج هنا. نعم، لكن سبتموس سفيروس هو من أمر بتشييده؛ قبل قسطنطين بوقت طويل. تمّ توسيع المنطقة حين قرّر قسطنطين جعل بيزنطية عاصمة له". رسمت دائرة خيالية وهي تقول: "هذه هي الحلبة التي كانت سباقات العربات تُقام عليها؛ حيث يتقاتل المجالدون حتى الموت وتندلع الثورات. كانت حلبة ضخمة محاطة بمدرجات رخامية وحجرية للمشاهدين. وقد نُقلت صروح من كل أرجاء الإمبراطورية؛ مثل هذه المسلّة هنا، وعمود الثعبان هناك، والعمود المسوّر الذي تراه أبعد قليلاً هنالك. هل يمكنك أن تتخيل ذلك أيها المفتش أكّان؟ حاول فحسب؛ جرّب أن تتصوّر المكان بكل بهائه".

لم يكن ذلك صعباً، وفكّرت في إبلاغها أنني كُدت أُقتل في الكابوس الذي رأيته في الليلة الماضية فقط في تلك البقعة تحديداً؛ لكنني احتفظت بذلك لنفسي في النهاية.

قلتُ مؤكداً فكرتها: "لا بد أنه كان مدرّجاً مدهشاً. ما عدد الأشخاص الذين يتسع لهم؟".

"يقولون إنه كان يتسع لمئة ألف كانوا يأتون لمشاهدة المجالدين وسباقات العربات. كان يجب على سائقي العربات إنهاء سبعة أشواط حول هذه الحلبة. هل ترى العمود هناك؟". وأشارت إلى الصرح في نهاية الساحة. "يحدد عمود الثعبان البقعة التي تستدير العربات عندها".

استطعت تخيّل المشهد كله وكأنني أراه مباشرة؛ فتخيّلت الخيول السوداء والبنية والبيضاء وهي تثير الغبار وتجرُّ تلك العربات المزخرفة حول الحلبة أمام الحشود الصاخبة وتحت شمس الصيف الحارقة. وتمكّنت تقريباً من سماع صرخات سائقي العربات وصيحاتهم؛ أولئك السائقين الذين تبدو عضلاتهم مشدودة ومتوترة مثل خيولهم، وأجسادهم تلمع بفعل العرق تماماً مثل جيادهم.

"كان الإمبراطور يكافئ بنفسه سائق العربة الذي يُنهي الشوط السابع أولاً، ويصبح محط أنظار الشعب كله".

"لماذا كانوا يدورون حول الحلبة سبع مرات؟".

"كان الرومان يصدّقون أن الرقم سبعة مبجّل ورمزي؛ على الأرجح بسبب عالم الرياضيات الإيوني فيثاغورث. ويعتبر الرقم سبعة رقماً أساسياً يمثّل القوة والغموض. فهناك الأيام السبعة، والشهور السبعة، والسنوات

السبع، وربما اختار قسطنطين بيزنطية عاصمة له لهذا السبب؛ لأنها بُنيت على سبع تلال؛ مثل روما تماماً، وأطلق على القاعة الكبيرة في قصره اسم قاعة المصابيح السبعة ، وكان حرّاسه الشخصيون معروفين بالحرّاس السبعة. ويعتبر الرقم سبعة أيضاً ميموناً في الإسلام؛ كما تعرف على الأرجح. مثلاً، تتكلم سورة المُلْك في القرآن الكريم عن السموات السبع، ويطوف الحجاج في مكة حول الكعبة سبع مرات. إذا فكّرت في ذلك أيها المفتش أكّان، تعتبر كل الحضارات- بطريقة أو بأخرى- مكمّلة لبعضها، ولا يمكن القول أبداً إن حضارة ما منفصلة عن الحضارات الأخرى أو قائمة بحد ذاتها. انظر إلى مآذن جامع السلطان أحمد هناك، على سبيل المثال".

استدرت ونظرت من بين أشجار الكستناء القديمة إلى المبنى المتطاول، ورأيت أضواءه التي بدأت تلمع مع حلول الغسق، ومآذنه السبع المرتفعة إلى أعماق السماء الداكنة؛ وكأنها تكاد تكشف ألغاز الكون الغامضة.

"هذا مدهش، أليس كذلك؟ إنه نتيجة تمازج مواهب معماريين مدهشين، الطالب سيدفكار محمد آغا، ومعلّمه المعماري سنان. انظر الآن إلى آيا صوفيا قبالته. صرحان رائعان ومدهشان تماماً قبالة بعضهما، ولو أن آيا صوفيا لم تكن موجودة، لانتفى سبب بناء جامع السلطان أحمد أيضاً. وكما مهّدت اليهودية لولادة الديانة النصرانية، لم نكن لنعرف الإسلام من دون النصرانية. يمكن أن نوسّع الحجّة أيضاً ونقول إنه لولا السومريون لما ظهرت حضارة الحثيين، ولولا الحثيون لما ظهرت اليونان القديمة- أو على الأقل لكانت مختلفة تماماً- ومن دون الإغريق القدماء ما كنا لنرى الإمبراطورية الرومانية، ولولا وجود الإمبراطورية الرومانية لما نشأت الإمبراطورية العثمانية في هذه البلاد على الأقل. هذه هي المراحل المتداخلة التي تكوّن الحضارة الإنسانية. ولو أن إحداها فُقدت أو أُزيلت لكوّنت فجوة أو خواءً لا معنى له، ولأصبح التاريخ ناقصاً".

كنا نتكلم في موضوعات خارج نطاق معرفتي، وغير ذات صلة بالمعلومات التي أريدها. وعلى الرغم من شغفي الدائم بالتاريخ، إلا أنني كنت في خضم تحقيق جنائي. عرفت أنني سأكون مجرد مستمع صامت سلّم عصا القيادة إلى ليلى باركين؛ إذا تركتُ هذا الحديث يستمر وقتاً أطول.

قلت محاولاً إعادتنا إلى المسار الصحيح: "مثل تحقيق جنائي بطريقة ما. أفترض أن التحقيقات الجنائية مثل علم التاريخ، وكل حدث وتفصيل ومعلومة جزءٌ من كلٍّ مترابط، وإذا أُزيل جزء ما أو تم إغفاله فلن تُحلَّ

الجريمة أبداً. نحن ننظر إلى تحقيقنا بالطريقة نفسها التي ننظر فيها إلى التاريخ؛ كوحدة متكاملة".

قالت مبتسمة بتكلّف: "أنت رجل ذكي أيها المفتش أكّان، لذا أفترض أنك تود إنهاء هذه الثرثرة عن التاريخ حتى ندخل صلب الموضوع، أليس كذلك؟".

"في الواقع، كل ما قُلتِه حتى الآن يتعلق بالجريمتين اللتين نحقق فيهما. أنتِ تعرفين حقيقة أن القاتل يستخدم أشهر صروح هذه المدينة ليعطينا نوعاً ما درساً عن التاريخ".

أصبحت فجأة رزينة جداً وتسمّرت في مكانها. "هل تقول إن القاتل ربما يكون مؤرخاً من نوعٍ ما؟". هل كانت تظن أنها متّهمة؟

"شخص من مجالك؟ لا إطلاقاً، لا. شخصياً، أظن أن القاتل يستخدم رموزاً تاريخية ليبعث لنا رسالة". صمت قليلاً حتى تتذكّر ما قالته سابقاً. "ألم تقولي شيئاً مماثلاً؟".

بدأت ترتعش؛ ظناً منها أنها قد قالت شيئاً ينبغي ألا تقوله.

"ما... ماذا... ماذا قلت؟".

"أرجو ألاّ تفزعي ياآنسة باركين، فأنت لم تفعلي شيئاً خاطئاً".

على الرغم من أنني حاولت مساعدتها لتحتفظ برباطة جأشها، إلا أنني في الواقع شعرت بسعادة كبيرة بسبب اضطرابها المفاجئ.

ردّت باذلة قصارى جهدها لتبدو هادئة: "لا أشعر بالفزع، وإنما أحاول فقط أن أتذكّر ما قلته".

"حدث ذلك في مكتبي في مقر قيادة الشرطة، قبل بضع ساعات فقط. قُلتِ، وأقتبس كلامك حرفياً: يبدو أن القاتل يُرسل لنا رسالة . ووافقتك تماماً حينها".

بدا أنها قد هدأت.

"نعم، طبعاً، أتذكر الآن، ولا أزال أظن أن هذا صحيح. فكّر في الأمر فحسب أيها المفتش أكّان؛ فقد قُتل شخصان، وعُثر على قطعة نقدية تعود إلى حقبة بيزاس بين كفي الأول، كما تُركت جثته في منطقة تُعرف بأنها البقعة التي أُنشئت فيها المدينة لأوّل مرّة. فيما وُجد الجثمان الثاني عند قاعدة عمود الإمبراطور قسطنطين؛ الرجل الذي جعل المدينة عاصمة له، وعُثر على قطعة نقدية من عهده بين كفّي الضحية أيضاً. أليس واضحاً أن القاتل يحاول أن يقول لنا شيئاً ما؟".

قلت متفقاً معها مرة أخرى: "بالتأكيد. لكن، ماذا يحاول أن يقول؟

ما الرسالة التي يحاول- أو تحاول- إيصالها؟".

انتظرت ردّها لكنها لم تقل شيئاً، فعرضت نظريتي:

"ربما يحاول القتلة إبلاغنا أن الناس الذين خرّبوا هذه المدينة وشوّهوها يستحقون الموت. لا تفهميني خطأ، لكن تحقيقاتنا، إضافة إلى المعلومات التي زوّدتنا بها، جعلتنا نصدّق أن طليقك، السيد نجدت دينيزل- ولا أجد هنا كلمة أفضل- قد خانَ إرث هذه المدينة التاريخي...". نظرت إليها معتذراً، فقد كنت أعرف أن كلماتي مؤلمة بالنسبة إليها. "آمل ألاّ أكون جائراً حين استخدم كلمة خان ".

قالت بثبات وهي تومئ برأسها: "لا إطلاقاً. فقد فعل ذلك. وهو لم يخن هذه المدينة فقط، وإنما خان مُثُلَه أيضاً". بقيَتْ صامتةً للحظات قبل أن تسألني عن الضحية الثانية. "مقدّر كيناسي هذا، ماذا عرفت عنه؟".

"عندما استجوبنا ابنته إفسون خانم بعد ظهر اليوم، أخبرتنا أن والدها كان متورطاً في أنشطة غير قانونية، وأبلغتنا أيضاً أن نجدت و"مقدّر" يعرفان بعضهما".

لم تظهر عليها الدهشة أو القلق.

"هل كنت تعرفين بأمر علاقتهما؟".

"لم تكن لديّ أي فكرة، لكن لا شيء غريب فيها. فقد كان أحدهما مخطط مدينة، فيما الآخر عالم آثار ومؤرخ فني، وليس من المستبعد أن يكون كلاهما عضوين في اللجان نفسها".

"وكلاهما عرفا آدم يزدان".

لم تنجح هذه المعلومة التي بدت مهمة لنا جداً في التأثير فيها.

"هل أخبرتك الفتاة هذا أيضاً؟".

كانت تخفي أفكارها ومشاعرها، وتبذل قصارى جهدها لتكتشف من الأشخاص الذين تكلمنا معهم، وماذا عرفنا منهم. بكلمات أخرى، كانت تظهر على ليلى باركين كل العلامات السلوكية لشخص مشتبه فيه.

قلتُ لجعلها تهدأ وتظن أنها ليست مشتبهاً فيها وكذلك حبيبها: "أجل، إفسون هي التي أخبرتنا".

"وهل تظن إفسون أن آدم يزدان هو الطرف الجاني؟".

شعرت بإثارة كبيرة لدى سماعي سؤالها، وعرفت أن أسئلتي تصبُّ في الاتجاه الصحيح.

"ليس تماماً. تقول إنها لا تعرفه. ما علاقتك به؟ هل تعرفينه؟ يبدو أنكِ تعرفينه، لكننا بحاجة إلى تفاصيل. مثلاً، هل هو متورط فعلاً في

أنشطة غير قانونية؟ أم إنه مجرد رجل أعمال ذكي يستغل الثغرات في القانون؟".

بدلاً من أن تجيب، أشارت إلى مبنى عليه لافتة مضاءة تحمل العبارة التالية: "متحف الفن التركي والإسلامي".

"إذا أردت، يمكن أن نذهب إلى هناك، إلى قصر إبراهيم باشا. سنتكلم براحة هناك".

"هل ذلك متحف؟".

قالت بثقة بالنفس: "إنه متحف الآن، لكنه بُني قبل نحو أربع مئة سنة ليكون قصراً لإبراهيم باشا، وزير السلطان سليمان وصديق طفولته".

بدأت تمشي نحو المتحف من دون أن تنتظر لترى إن كانت لدي أي أسئلة أخرى. تذكّرت والدتي للحظة، وشعرت أنني طفل مجدداً. أزعجني تصرّفها؛ فأنا لم أعد طفلاً، وهذه المرأة ليست والدتي. لكن من ناحية أخرى، لم تكن ليلى باركين خبيرة فقط- ما جعلني ألتقيها- وإنما كانت مشتبهاً فيها أيضاً. وسواء أأحببت ذلك أم لا، كان يجب أن ألحق بها لأكتشف إلى أين تحاول أن تقودنا، وما تخفيه عنا. وبالطريقة نفسها التي اعتدت بها أن أبقى قريباً من والدتي حين كانت تصطحبني في كل تلك الزيارات إلى المتاحف في أثناء طفولتي، مشيت مجهداً خلف ليلى باركين؛ وكأنها تقودني في رقصة نشيطة.

مخلوق يتغذّى على الدم

على الرغم من أن متحف الفنون التركية والإسلامية كان مغلقاً، إلا أن الموظفين هناك يعرفون ليلى باركين جيداً؛ لذا لم نواجه مشكلة في دخوله. حيّانا كل من التقيناهم من عمّال النظافة إلى الحرّاس بحرارة.

صعدنا على سلالم شديدة الانحدار، ووصلنا إلى سطح كبير، حيث حدّقت ليلى باركين إلى البناء الحجري القديم بدهشة.

قالت من دون أن تسمح لي بالتعليق بكلمة واحدة: "إنه مدهش، أليس كذلك؟ باستثناء القصور التي بُنيت للسلاطين أنفسهم، هذا هو القصر الوحيد في إسطنبول الذي لا يزال على حاله". ثم أخفضت صوتها؛ وكأنها تفشي سراً خطراً. "كما تعرف، على الرغم من أن إبراهيم باشا كان زوج أخت السلطان سليمان وصديق طفولته، إلا أن ذلك لم يكن كافياً لإنقاذه من الهلاك، وقد أدّى تحريض زوجة السلطان إلى جعل سليمان يصدر بنفسه أمر شنق إبراهيم".

حاولت أن أتصوّر نفسي مكانه، وتخيّلت الرعب الذي يشعر به رجل يُقاد إلى حتفه بناءً على أوامر من صديقه الحميم. تساءلتُ إن كان- رغم كل شيء- قد حافظ على ولائه للسلطان، أم مشى بائساً إلى مصيره المشؤوم، وهو يفكّر ويعرف أن كل جهوده وحياته برمّتها، قد ذهبت سدى...

قالت مشيرة إلى سلالم عريضة ومريحة: "من هنا أيها المفتش أكّان".

صعدنا السلالم وخرجنا إلى شرفة تُطلُّ على ساحة السلطان أحمد، واستطعنا رؤية مسلّة ثيودوسيوس بعيدة بين أغصان أشجار السنط والصنوبر في الساحة الأمامية للقصر. عندما استدرت يميناً، رأيت عمود المحرقة وعمود الثعبان، وبرزت الصروح الثلاثة- إرث الإمبراطورية الرومانية- مثل حرّاس مبجّلين للوقت، ينتظرون بصمت أن يخيّم الليل على الساحة والمدينة.

أسرع شاب إلينا حين رآنا نبحث عن مكان نجلس فيه في المقهى.

"أهلاً وسهلاً يا آنسة باركين".

قالت وهي تنظر إلى الطاولات الخاوية: "مرحباً يا رشيد. هل كنتم تغلقون المكان؟ يبدو أن الجميع قد غادروا. إذا كانت لديك...".

"لا، على الإطلاق، تفضلا بالجلوس".

وضعت حقيبتي على الطاولة التي قادنا إليها وجلست، في حين جلست ليلى باركين قبالتي.

سأل رشيد بتهذيب: "ماذا تودّان أن تشربا؟".

أجبنا في الوقت نفسه: "كوباً من الشاي".

بدا حزيناً ومحرجاً قليلاً من اختيارنا. "همم، الحقيقة ياليلى خانم أن الشاي لم يعد طازجاً، ما رأيكما ببعض القهوة التركية؟". وافق كلانا. "أعرف كيف تحب الآنسة باركين قهوتها، لكن كيف تريد قهوتك ياسيدي؟".

"مع القليل من السكر فقط".

سلك رشيد طريقه إلى الموقد ليحضّر القهوة، وتركني وحدي مع ليلى باركين التي كانت تحدّق إلى ساحة السلطان أحمد المتوارية في حلكة المساء.

قالت بدهشة طفولية جعلت عينيها تلمعان: "أحب هذا المكان. لقد شهدت هذه الساحة ألفي سنة من تاريخ هذه المدينة، ورأت كل شيء... عشرات الملوك، وعدداً لا يحصى من الأباطرة والسلاطين... انتصارات على نطاق عالمي، نهباً وسلباً، احتفالات، استعراضات عسكرية، أوبئة، زلازل، مجاعات، ثورات جعلت حكاماً يرتعشون وأدخلت المملكة في فوضى... كل شيء". كانت نبرة صوتها خافتة وتوقيرية. "ومع ذلك، انظر إلى سكونها؛ وكأنها تنقش بصمت كل تفصيل وحادثة في أعماق الحجر والخشب والحديد".

بدا أنها تحب عملها، مثل والدتي التي كانت مهووسة بالتاريخ. كنت أعرف ذلك الشعور؛ لأنني أحد أولئك الأشخاص النادرين الذين يكسبون لقمة عيشهم من أداء عمل يُدخل السرور إلى قلوبهم. استمتاع المرء بمهنته شيء جيد طبعاً لكن هناك حدوداً؛ إذا دُفعت بعيداً وأصبحت حياة الإنسان مرتكزة على عمله فقط، فستصبح السعادة موضع شك دائماً، وبغض النظر عن استمتاع المرء بمهنته، لا مفر من الانغماس في جوانب الحياة الأخرى. كانت والدتي قد حققت بنجاح هذا التوازن الدقيق، ولم يؤدِّ شغفها بالتاريخ إلى إهمالها أسرتها أو أياً من واجباتها الأخرى: سقاية إبرة الراعي على حافة النافذة، وطبخ الأرضي شوكي الذي يحبّه والدي كثيراً بالشغف والحماسة اللذين تقرأ بهما مقالاً عن تاريخ- لنقل- قصر بورفرجنيتش. لم تكن الكفاءة وحسن التدبير نفسه ينطبقان على ابنها الذي سيطر العمل على حياته برمّتها. فعلاً، حتى إنه يمكن للمرء القول إن العمل قد دمّر حياته بعد وفاة غوزيد وآيسون، وهذا ما أتجادل بشأنه مع يفغينا معظم الوقت، كما فعلت مع غوزيد تماماً. في ما يخص ليلى باركين، بدا صعباً معرفة إلى أي حد يمكن أن تخاطر من أجل عملها،

وربما سيساعدني ذلك الشغف والحماسة اللذان تشعر بهما تجاه مهنتها وعمق ذلك الشعور؛ واحتمال أن يكون قد دفعها إلى اقتراف جريمة، في تحديد قدرتها على ارتكاب الجريمة أو لا.

قلتُ محطّماً جدار الصمت الهش: "أتفق معك تماماً. لكن بوصفنا مجتمعاً، نحن لم نكن نلحظ وجودها؛ فضلاً عن احترامها".

"هذا ليس قريباً ممّا يحصل بالفعل أيها المفتش أكّان. فما نفعله هنا وحشي تماماً، ويؤدي إلى تدمير التاريخ برمّته". كان صوتها يرتعش غضباً وهي تحدّق إلى جامع السلطان أحمد مرة أخرى. "كان هناك متحف سلطاني كبير يدعى قصر ماغنوم خلف ذلك المسجد، لكنهم مضوا قدماً وبنوا فندقاً خمسَ نجوم على أنقاضه من دون خجل أو ندم، وهل تعرف أمراً؟ لم يحرّك أحد ساكناً لإيقافهم، وأشاحت الحكومة والمجلس أنظارهما بعيداً، وأسوأ شيء في هذا كله هو أن أعمال البناء ستستمر". استدارت وثبّتت نظرها الغاضب عليّ. "لقد نهشت الذئاب هذا البلد أيها المفتش أكّان، ولهذا السبب يقوم رجال أعمال يعشقون المال؛ أشخاص مثل آدم يزدان، بتدمير مدينتنا وتاريخها. إن أشخاصاً مثل هؤلاء...".

حان الوقت المناسب لتدَخّلي. "كيف هو، أقصد آدم يزدان هذا؟".

فقَدَتْ بحلول هذا الوقت كل إحساس بالحذر، وتكلمت باشمئزاز علني.

"إنه إنسان وضيع؛ شخص من النوع الذي يمكن أن يقترف أبشع أفعال الشر". لم تسنح لي الفرصة لأطلب منها توضيح ذلك. "لقد جعله جشعه مجنوناً بطموحه. فهو يريد كل شيء، وأن يصبح أكبر وأغنى لاعب؛ ليس في تركيا وأوروبا فقط وإنما في أمريكا وكل مكان آخر في العالم أيضاً. لكن الأمر ليس بهذه السهولة؛ نظراً إلى وجود مجموعات مصالح قوية تصطف ضده؛ مجموعات يحاربها، أو على الأقل يحاول محاربتها".

لاحظت نظرة الاستفسار في عينيّ، فتابعت شارحةً:

"أقول يحاول لأنه يواجه صعوبات في التنافس مع شركات تحتشد ضده، وبعضها مؤسسات قوية تمتلك خبرة تمتد عقوداً. وما يزيد بؤسه هو معرفته أن البقاء ضمن حدود القانون سيجعل نجاحه مستحيلاً تقريباً، لذا يلجأ غالباً إلى- لنَقُل- وسائل خارج القانون".

"أي نوعٍ من الوسائل خارج القانون هذا الذي تقصدينه؟".

"كل شيء. مثلاً، أرادوا قبل ثلاث سنوات بناء مركز تجاري ضخم على أنقاض أحواض الماء البيزنطية العتيقة. وفي أثناء الأعمال، وقع حادث وتوفي

ثلاثة عمّال، بالإضافة إلى شخصين من العامة. قدّمنا نحن رابطة الدفاع عن إسطنبول شكوى، لكن آدم يزدان كان يضع الجميع - القاضي، والمدّعي العام، والخبير، والمجموعة كلها - في جيبه؛ لذا رفضت المحكمة الدعوى، واعتبرت ما حصل حادثة. غير أننا لم نستسلم، وتقدمنا بطلب إلى المحكمة العليا وحصلنا على قرار بوقف العمل الذي كان يكلّف آدم يزدان ثروة صغيرة كل يوم في السنوات الثلاث الماضية. وهو الآن يحاول إبطال الحكم، ولا يخشى اللجوء إلى تكتيكات ماكرة".

"إذاً، هل كان يهدّدكم؟".

قالت بملل: "طبعاً فعل، في مناسبات كثيرة؛ عبر مكالمات هاتفية ورسائل بريد إلكتروني لا تُحصى".

"لكن، لم يكن هناك أي تهديد ملموس فعلاً، أليس كذلك؟ لم يأتِ رجاله ويستخدموا العنف، صحيح؟".

"ليس ضد أعضاء الرابطة، لا. حسناً، ليس بعد على كل حال، لكن خُربشت رسائل تهديد على أبوابنا، وثُقبت إطارات شاحناتنا، وكُسرت بعض نوافذنا".

كدت أسألها إن كان أحد ما قد اعتُقل أو استُجوب حين ظهر رشيد حاملاً صينية فضية مزينة بنقوش أنيقة. فاحت رائحة القهوة الشذية في الهواء. وضع الفنجانين وكأسَي ماء على الطاولة، ثم وقف منتظراً بجانب الطاولة حتى نرتشف القليل من القهوة ونبدي رأينا.

كانت القهوة رائعة حقاً؛ فهي كثيرة الرغوة، وقوامها وكثافتها مناسبان.

قلتُ ممتدحاً الشاب: "إنها رائعة، شكراً لك".

قالت ليلى: "إنها لذيذة يارشيد كالمعتاد، شكراً لك".

وبعد أن غادر رشيد وقد رسم على وجهه ابتسامة كبيرة، تناولت رشفة أخرى، وطرحت السؤال الذي كان يجول في ذهني.

"كنت تتكلمين عن الاعتداءات على رابطة الدفاع عن إسطنبول ، ألم يُعتقل أحد؟".

"لسوء الحظ، لا. كان الذين ارتكبوا تلك الأعمال محترفين حقاً، ولم يتركوا أي آثار أو أدلّة، ولم يكن هناك أي شهود؛ مثل قتلة نجدت ومقدّر تماماً".

هل كانت تحاول دفعي إلى التركيز على القتيلين، أم إنها ببساطة تقول الحقيقة؟ ربما تفعل الأمرين معاً، وربما كان رجال آدم يزدان مسؤولين عمّا وصفته، لكن ذلك لا يجعلهم قتلة. والشيء الأكيد أن ليلى

باركين تستخدم الأحداث التي وصفتها لتصوير آدم يزدان على أنه مشتبه فيه رئيس. لتغيير الموضوع، مددت يدي إلى داخل حقيبتي، وأخرجت قطعة النقود التي وُجدت بين كَفّي مقدّر وأعطيت ليلى إياها.

"ها هي القطعة النقدية التي كنت تسألين عنها".

أثارها ما كانت تراه، فأمسكت القطعة النقدية ورفعتها إلى الضوء.

قالت بأنفاسٍ محبوسة: "عهد قسطنطين".

قلتُ وأنا أمدُّ يدي إلى داخل حقيبتي وأبحث عن القطعة الأخرى: "هذا واضح، ويبدو أن هذه قد سُكّت في أثناء العهد البيزنطي".

أمسكت القطعة الثانية وفحصتها. "إنها كما وصفتها تماماً. هيكات على أحد الوجهين ونجم وهلال تحت كلمة بيزنطية على الوجه الآخر". عادت لتفحص قطعة قسطنطين، وبدا أنها تذكرت فجأة شيئاً مهماً. "إلى أي اتجاه كانت الجثة تشير؟".

لم تكن لدي فكرة عن سبب طرحها هذا السؤال، لكنني لم أرَ ضرراً في إجابتها.

"نحو سمبرليتس، أو لأكون أكثر دقة، نحو قمة العمود".

همست: "بكلمات أخرى، نحو تمثال قسطنطين على هيئة أبولو. ربما يحاول القاتل جعلنا ننظر إلى إسطنبول من زاوية رؤية قسطنطين لها".

"ماذا يُفترض بهذا أن يعني؟".

"يعني أن ننظر إلى المدينة بعين الحب والعطف، بكل وقار، وبنيّة الاحترام والحماية. يبرز قائدان من بين عشرات الملوك والأباطرة والسلاطين الذين حكموا هذه المدينة: قسطنطين الكبير والسلطان محمد الفاتح. قد يكون الملك بيزاس من أسّس المدينة، لكن قسطنطين إمبراطور روما أول من جعلها إحدى أهم المدن في العالم، في حين سار السلطان العثماني محمد الفاتح على نهجه بعد ألف سنة، وفعل الشيء نفسه مثل سلفه الروماني. لولا قسطنطين، لكان تاريخ إسطنبول برمّته مختلفاً تماماً".

"إذاً، لماذا اختار قسطنطين هذا المكان ليكون عاصمته؟".

"للأسباب نفسها التي جعلت الملك بيزاس يختاره ليكون عاصمة له؛ فالمدينة جميلة ويسهل الدفاع عنها. على كل حال، العامل الرئيس أبسط كثيراً. كان الشرق في أثناء عهد قسطنطين مغرياً جداً، والعوامل التجارية والاقتصادية بالغة الأهمية، وفي وقت قصير أصبحت عاصمة الإمبراطورية مركزاً تجارياً مرموقاً أيضاً، لكن المثير للاهتمام أن بيزنطية لم تكن أول خيارات قسطنطين كعاصمة، وإنما مدينة طروادة القديمة؛ طروادة إلياذة

هوميروس نفسها، حيث احتجز باريس هيلين. وفعلاً، كانت أعمال البناء قد بدأت في طروادة، لكنّ قسطنطين شاهد رؤيا في إحدى الليالي، واختار بيزنطية لتكون عاصمة له إثر ذلك. لذا، ورغم كل الجهود المبذولة في التشييد، غادر الإمبراطور طروادة، ووضع نصب عينيه بيزنطية التي كانت - إضافة إلى الأحلام والشائعات والأسطورة - ملائمة كعاصمة إمبراطورية أكثر من طروادة؛ وهي حقيقة لم تكن غائبة عن الإمبراطور الذي أعلنها فوراً عاصمة له. ومنذ 324 ميلادية إلى إعلانه ذاك في 330 ميلادية، جرى إنجاز مشروع بناء وتشييد ضخم، ونُقلت أروع صروح الإمبراطورية وكنوزها النفيسة إلى العاصمة الجديدة. وُظّف أشهر المعماريين، والنحّاتين، والبنّائين، وفناني الفسيفساء، والحرفيين للعمل على تجميل المدينة الجديدة، وشُيّدت الأسوار الجديدة لتحديد الحدود الواسعة للمدينة".

كان سماع كل هذه المعلومات أمراً رائعاً بالنسبة إلى شخص ولد وترعرع في المدينة؛ خاصة من خبير بالموضوع، ونسيت للحظة الجريمتين والتحقيق وشكوكي.

سألتُ: "إذاً، هل قسطنطين هو الذي بنى هذه الأسوار التي نراها؟".

"لا. بُنيت الأسوار القائمة اليوم في أثناء عهد إمبراطور آخر، لكن قسطنطين وسّعها قليلاً. كانت بيزنطية تغطي منطقة على شكل قوس من إيمينونو إلى كانكورتاران. وسّع قسطنطين الحدود إلى أياكابـي؛ خلف المنطقة التي تقوم عليها جامعة قادر هاس الآن، ووراء ما يعرف الآن بمستشفى الجرّاح باشا وصولاً إلى إسكابـي. في الواقع، هناك قصة مسلّية عن قيام قسطنطين بتوسيع حدود المدينة. فعندما كان يتنـزّه مع مستشاريه الذين كانوا يسيرون خلفه بمسافة تعبيراً عن الاحترام، سُمع وهو يتمتم لنفسه، لكنْ لم يتجرأ أحد من حاشيته على الاقتراب منه ليسأله عن تصرفه الغريب. بعد مرور بعض الوقت، لحق به أحد رجاله الذي ظن أنهم قد تجاوزوا الحدود الطبيعية للمدينة، واعتذر عن طيشه، ثم سأله بتهذيب عمّن كان يتكلم معه، فردّ الإمبراطور بكل جدّية: أنا أستشير الكائن النوراني الذي سيقرّر حدود عاصمتي، وسيخبرني أين ومتى أتوقف .

كان قسطنطين مفتوناً بالتبصّر الروحي، وتزخر حياته فعلاً بلحظات روحانية. وفي المدة التي سبقت تتويجه عاهلاً وحيداً، زحف إلى روما مع جنوده لمواجهة ماكسنتيوس - أحد الرجال الذين شاطرهم السلطة - ويقال إنه رأى ضوءاً في السماء فوقه؛ ضوءاً على شكل رمز النصارى الديني؛ لذا أمر رجاله بحفر هذا الرمز النصراني على دروعهم. من الطبيعي أن بعض

جنوده الذين كانوا لا يزالون يتشبثون بمعتقداتهم الوثنية لم يرتاحوا لذلك الأمر، لكنهم نفّذوا رغبات قائدهم من دون تأخير؛ لأن كلمته قانون بالنسبة إليهم. التقت قوات قسطنطين جنود ماكسنتيوس على جسر ميلفيان، وأنـزلت بهم هزيمة نكراء. وعندما استلقى منافسه ماكسنتيوس محتضراً في مياه التيبر، أضحى درب قسطنطين للسيطرة على روما ممهداً، واعتبر النصر هبة من الله للنصرانيين، ثم شرع في التعريف بهذه العقيدة الجديدة، وأعلنها أخيراً الدين الرسمي للإمبراطورية، ووضع بذلك حداً لآلاف السنين من الحكم الوثني.

تلك إنجازات رائعة أيها المفتش أكّان. كان قسطنطين إمبراطوراً عظيماً وقائداً مهيباً حقاً".

"إعجابك به واضح للعيان".

"إلى حدٍّ ما، نعم. لكنني أدرك أيضاً حقيقة أنه كان طاغية لا يرحم، ورجلاً لم يتردد في إعدام ابنه كريسبوس وحرق زوجته فاوستا غلياً حتى الموت بعد ذلك بوقت قصير. السلطة، أيها المفتش أكّان، تشبه مخلوقاً يتغذّى على الدم، ويكافئ أولئك الذين يشملهم بحظوته بالقوة والمجد؛ لكن بمقدار مماثل من الشر أيضاً. وسواء أكانوا روماناً أم بيزنطيين أم عثمانيين، توجد قلّة من الحكّام الذين لم تتلطخ أيديهم بالدماء".

كان كل ذلك جيداً ورائعاً، ولكننا لم نكن نسعى خلف الحكّام الغارقين في الدماء، وإنما خلف مجموعة من القتلة الأذكياء الذين يستخدمون بعض الشخصيات من الماضي لإرباكنا وتشويشنا. وأول شيء يجب أن نكتشفه هو المكان الذي ستُترك فيه الجثة التالية.

"برأيك، إذا كان القتلة سيضربون مجدداً، فعلى صرح أي إمبراطور أو سلطان سيضعون الجثة؟".

قالت من دون أن تتردد للحظة واحدة: "السلطان محمد الفاتح، فهو الحاكم الآخر الوحيد الذي يمكن مقارنته بقسطنطين. لكن من الصعب تحديد ذلك بمعيار الصرح. هناك بناءان في المدينة يعدّان رمزين للسلطان؛ أحدهما جامع الفاتح، والآخر مكان عملي: متحف توبكابـي".

كنا قد وزّعنا رجالنا حول الجامع، لكننا لم نفكر قطّ في القصر الذي أمر السلطان محمد بتشييده بنفسه. خطر لي فجأة أن ليلى باركين قد لا تكون مذنبة بالمحصلة. فكيف بإمكانها أن تكون كذلك، فيما هي تشاطرنا مثل هذه المعلومات الحسّاسة؟ نظرت إليها بحذر، محاولاً أن أكتشف الحقيقة، فبدت صادقة جداً، ومتحمسة كثيراً للتعاون؛ ما يبدد أي شك في

أن تكون قاتلة، أو واحدة من القتلة. فكّرت في قرارة نفسي أنه إذا وُجدت جثة أخرى في جامع الفاتح أو القصر، يجب أن أعترف حينها أننا كنا مخطئين في الاشتباه فيها، لكن الصبر فضيلة. لم يكن هناك مجال لمعرفة ما يستطيع ذهن لامعٌ حرٌّ أن يفعله بالعمل بأي طريقة يشاء في مثل هذه الأوقات العصيبة.

شقوق جراحية

بدا صعباً أن أفي بوعدي ليفغينا، ولو أنني غادرت إلى بلاط فوراً بعد لقائي ليلى في السلطان أحمد، لما كنت قد واجهت مشكلات في الوصول إلى هناك بحلول الثامنة والنصف، لكن كان يجب عليّ أن أتوقف في مقر قيادة الشرطة أوّلاً. جهّزت نفسي لتلقّي توبيخ من يفغينا وضغطت على دواسة الوقود. وحالفني الحظ، فبحلول الساعة الثامنة كنت في المكتب، رغم حركة المرور المزدحمة، مع علي وزينب اللذين يراجعان آخر المعلومات. كان مزاج علي- الشاب العصبي- جيداً، فقد ذهب إلى مجلس المدينة واستطاع العثور على نيازي؛ صديق مقدّر وزميله.

"لم يكونا صديقين فقط، وإنما من الطائفة الدينية نفسها. لم يقل الرجل ذلك، لكن مما سمعته تبدو الطائفة التي ينتميان إليها واحدة من أكثر الطوائف تسامحاً. على كل حال، يبدو الشاب عمر مثل أحد المتطرفين".

استمر يقول هذا مراراً وتكراراً منذ وقع بصره على عمر، لذا لم أُعر الأمر اهتماماً كبيراً، لكنه أثار فضول زينب.

"هل تقصد القاعدة؟".

"على الأرجح. فهذا تنظيم فضفاض، ويمكن لكل من يشاطرونه أفكاره أن يكوّنوا خلية تحت اسمه وينفذوا عمليات في إسطنبول أو في أي مكان آخر. يبدو أن عمر ينتمي إلى أحد تلك الروافد".

لم يكن بمقدوري تركه ليعرض فرضيته كما لو أنها الحقيقة بحد ذاتها. "ليس هناك أي دليل يدعم هذا كله".

قال بعناد: "يوجد نيازي بيك. فهو يعرف كلاً من مقدّر وعمر، ويعتبر أن عمر وأشخاصاً مثله أبناء ضالّون، وقطّاع طرق جاهلون يضرّون الإسلام . ولهذا السبب، لم يرغب مقدّر أن تتزوج ابنته ذلك الرجل في المقام الأول".

"لكن إفسون أخبرتنا أن والدها كان سعيداً جداً لأنهما سيتزوجان".

"كانت تكذب أيها المدير، وكل ما سمعناه مجموعة من الأكاذيب. فقد أخبرتنا أن والدها ذهب إلى العمل صباح الثلاثاء؛ أي أمس، ولم يحدث شيء من هذا القبيل".

كنا على وشك اكتشاف شيء.

"هل هذا ما قاله نيازي؟".

"نعم، كانت آخر مرة رأى فيها "مقدّر" يوم الاثنين، حين غادر المكان في نهاية اليوم. لم تكن لدى الرجل المسكين فكرة عمّا سيجري، وقد ودّع نيازي واتجه إلى المنـزل. وفي اليوم التالي، لم يأتِ إلى العمل، أو يتصل هاتفياً؛ يبدو أنهم أمسكوا الرجل حين وصل إلى المنـزل".

كان مغرماً كثيراً بالصورة التي رسمها، وتكلم وكأنه يقول حقيقة مطلقة فقاطعته زينب:

"لكن المهم أن توقيت الوفاة يجعل فرضيتك هباءً منثوراً".

"ماذا تعنين بقولك هباءً ؟".

ردّت زينب بتهذيب وهي تبدو مرهقة: "هباء تعني أنه لا وزن لها. فوفقاً لتقرير التشريح، قُتل مقدّر كيناسي عند الساعة العاشرة تقريباً من يوم الثلاثاء. وعندما وُجدت الجثة، كانت حقيقة أنها لم تنتفخ، والعروق لم تتصلّب تعني أنه لم ينقض أكثر من أربع وعشرين ساعة على وقوع الوفاة. بكلمات أخرى، لم يُقتل في المنـزل يوم الاثنين".

لم يزعج تقرير التشريح أو الوقت المقدّر للوفاة "علي".

"إذاً، قتلوه في صباح اليوم التالي".

قلتُ وقد بدأ إصراره يزعجني أيضاً: "مهلاً ياعلي، ما الذي يجعلك واثقاً جداً؟".

"لأن مقدّر كيناسي لم يكن موافقاً بتاتاً على زواج ابنته من ذلك الأحمق عمر، وقد منعها حتى من مغادرة المنـزل في وقت ما، لكن ذلك لم يمنع تلك العشبة الضارة من النمو؛ أليس كذلك؟ فقد جمع ثلاثة من أصدقائه، وذهب إلى الرجل العجوز وهدّده".

كان لدى علي الكثير من التخمينات والافتراضات، لكنه لم يتمكن من إقناعنا بأن هاتين الجريمتين المنفّذتين بخبرة نفّذهما رجل غاضب حُرم من حق الزواج من المرأة التي يُحبّها.

قال مختبراً حظه: "هناك شيء آخر قاله نيازي بيك. لم أُعره اهتماماً كبيراً آنذاك، لكن عندما قرأت تقرير التشريح، أُصبت بالدهشة".

حدّق إلينا بتعبير شخص متشوّق؛ وكأنه يدعونا إلى تخمين ما قد سمعه، لكن مزاجي لم يكن جيداً للقيام بهذه الألعاب. نظرت إلى الساعة على الجدار، ورأيت أنها تقترب بثبات من الثامنة والنصف، لذا قلت بضجر: "هاتِ ما لديك ياعلي".

قال: "حسناً أيها المدير. تعرفان طبعاً أن هذا الوغد الصغير يدرس في الجامعة، أليس كذلك؟".

كانت زينب هي التي تدخلت أولاً: "الطب؟".

رد بمرح: "بالضبط. إنّه في السنة الأخيرة في كلية طب الجرّاح باشا ". نظر إلينا متوقعاً نوعاً من الدهشة أو الإعجاب، لكنه لم يحظَ بأي رد فعل. "يقال في تقرير التشريح إن عنقي الضحيتين قد حُزّتا في المكان نفسه، وإن الجروح قاطعة ومتماثلة إلى حد التطابق تقريباً".

"إذاً؟".

"إذاً؟ نحن نتكلم عن خبراء هنا، عن محترفين حقيقيين...".

قالت زينب: "نعم، هذا صحيح، خاصة حين يتعلق الأمر بالتخدير؛ لأن لدينا سبباً وجيهاً لنظنّ أن الرجلين قد خُدّرا قبل أن يُقتلا، لذا يُعتبر نامق قرمان أقرب إلى شخصية القاتل من عمر".

قال علي مصرًّا؛ رغم الشكوك التي تنتابه آنذاك: "هذا محتمل، لكنني لا أزال أظن أن عمر هو الفاعل؛ فلديه دافع. ووفقاً لما أعرفه، يتعلم طلاب كلية الطب عن التخدير، ويتعلمون طريقة تشريح الجثث، وكيفية استخدام المشارط والأدوات المماثلة الأخرى".

قرّرت زينب، مرهقة من الجهود التي بذلتها طيلة اليوم، أن تتدخل وتملأ الفراغات لزميلها.

"لا يمكن أن تنجم تلك الجروح التي تم العثور عليها على عنقي الضحيتين من أدوات جراحية ياعلي، فقد حُزَّ عنقاهما بإتقان وبساطة. أُحدثت تلك الجروح باستخدام أدوات أثقل؛ نصال بكلمات أخرى".

لم يكن علي ليستسلم. "نعم. لكن ذلك يحتاج إلى شخص لديه معرفة طبية".

بدا أن الجدال لن يتوقف أبداً، لذا تدخّلت وبدّلت الموضوع.

"هل استطعتِ إلقاء نظرة على شخصية آدم يزدان ذاك؟".

قالت وهي تفتح ملفاً: "نعم، إنه شخص مثير للاهتمام بالتأكيد. فهو من عشيرة من هكاري، والبكر من بين أحد عشر ابناً- ثمانية أشقاء وثلاث شقيقات- ما يجعله رأس الأسرة التي تعتبر ثرية جداً. وهم يسيطرون على تسع قرى، وقد استطاعوا الحصول على مقعد في البرلمان في الانتخابات الأخيرة. تورّطت الأسرة في بعض التعاملات المشبوهة قبل أن يموت الأب".

عندما سمع علي- الذي لم يفكر كثيراً في آدم يزدان من قبل- كلمات عشيرة و هكاري و مشبوهة ، نسي كل شيء عن عمر.

"أتعنين أعمالاً إرهابية؟".

قالت زينب بحزم: "يعتمد ذلك على نظرتك إلى الأمر. كانت عشيرة

يزدان قد اعتنقت دائماً ثقافة السلاح، لكنها لم توجهه ضد الدولة مطلقاً. في الواقع، إنها تقدّم حراساً- المئات منهم- إلى الدولة، ولقي ثلاثة وعشرون منهم حتفهم وجُرح معظمهم. وعندما قلت تعاملات مشبوهة فقد عنيت بذلك تهريب الماشية، وأعمالاً أخرى مشابهة. عندما رأى أفراد الأسرة أنفسهم ينعمون بالثراء، تورطوا على الأرجح في تجارة الممنوعات أيضاً؛ رغم عدم وجود سجلات توثق ذلك. لا يمكن اعتبار أرض الأسرة منتجة؛ لأنها على الحدود: فإيران موجودة من جهة، والعراق على بعد بضعة كيلومترات من الجهة الأخرى، وقد غضّت السلطات المحلية على الأرجح الطرف عمّا يجري هناك. على كل حال، عندما توفي الأب، أصبح آدم يزدان شيخ العشيرة، وهو خريج جامعي، ورجل ذكي من دون شك. هل تذكرون أن وزارة المالية قد أصدرت عفواً عاماً عن الرأسمال غير القانوني وتجارة السوق السوداء؟ حسناً، استفاد آدم يزدان من المناخ الجديد ليستثمر أمواله في مشروعات شرعية، معظمها في قطاع السياحة، وأنشأ شركة تدعى دار السعادة ". رمقتني بنظرة ذات معنى. "ربما تكون قد سمعت بالاسم أيها المدير. إنها إحدى أكثر المؤسسات مهابة في إسطنبول".

"إن هذا الاسم من بين الأسماء التي كان العثمانيون يستخدمونها".

حان دوري لأنظر إليها توقعاً. "هل تعرفان معنى دار السعادة ؟".

"إنها تعني بيت الهناء ، أليس كذلك؟".

"أحسنتِ. واضحٌ أنك أدّيت واجبك. إذاً، ليس لدينا شيء آخر عن هذا الرجل آدم يزدان، ولا يوجد سجل سابق، لكنني لا أزال أظن أنه يجب علينا مراقبته عن كثب. في الواقع، يجب أن نذهب ونتكلم معه غداً".

"لسوء الحظ، إنه في موسكو حالياً، وسيعود يوم الخميس".

"إذاً، سننتظر، وسنتكلم معه حين يعود".

قال علي: "أظن أننا يجب أن نتحرّى عن عمر ذاك أيضاً. ربما لم تقتنعا بما قلته لكنه يخفي شيئاً".

"صحيح، وربما يكون القاتلَ الذي نسعى خلفه، لكن "نامق" قرمان مشتبه فيه مثل عمر تماماً، وكذلك آدم يزدان، وتبقى الحقيقة أنه ليس لدينا دليل ملموس أو شاهد إثبات في ما يتعلق بأيٍّ منهم. وهذا لا يعني بالطبع أننا سنتركهم على هواهم ليفعلوا ما يحلو لهم، وإنما سنراقبهم عن كثب ونتابع تصرّفاتهم". لم أُرد أن أبدو كما لو أنني لم آخذ رأيه على محمل الجد لذا تابعت قائلاً: "وطبعاً، سنراقب أيضاً إفسون وعمر.

أنت محق ياعلي، وفي ضوء ما قاله نيازي، أصبح كلّ من إفسون وعمر مشتبهاً فيه محتملاً. يجب أن نبقى متنبّهين ونجمع معلومات وافية عن هذه المجموعة الإسلامية المتطرّفة".

قال علي متحمساً: "اسمح لي أن أتكلم مع الشباب في مكافحة الإرهاب. أراهن أن لديهم ملفاً عن عمر".

"هذا رأي سديد. أوه، بالمناسبة، هل استطعت اكتشاف أي شيء عن الأشخاص الآخرين في تلك اللجنة الاستشارية؟".

قال بخجل محرجاً لأنه لم يتمكّن من تنفيذ ما طلب منه: "سأحصل على الملف قريباً أيها المدير. كانت لديهم مشكلات حاسوبية، ولم نستطع فتح الملفات. أرسل نيازي بيك أحد رجاله للعمل على حل تلك المشكلات، وسنحصل على التفاصيل الكاملة عن كل شخص كان في تلك اللجنة بحلول الغد".

نبأ جيد أخيراً. ربما لم نستطع العثور على الجاني، لكن على الأقل، إذا حصلنا على فكرة عن هوية ضحيته أو ضحيتها الآتية، فمن الممكن أن نضيّق نطاق البحث.

"جيد. وأولويتنا الآن وضع فريق بملابس مدنية في قصر توبكابـي". بدا أنهما لا يعرفان ما أتكلم عنه، لذا تابعت موضّحاً: "ألم يكن قصر توبكابـي أحد أروع صروح السلطان محمد الفاتح؟ إذا كان القاتل سيستخدم صرحاً على علاقة بالسلطان محمد وحاضرته في الجريمة التالية، فستكون هناك فرصة كبيرة في أن تُترك الجثة التالية في القصر أو حوله بجانب جامع الفاتح".

لم تكن زينب واثقة بذلك.

"لكن، ماذا عن الاتجاه الذي كانت يدا الضحية تشيران إليه؟ ألم توضع كلتا الضحيتين بطريقة تجعل أيديهما تشير إلى صرح؟ أنت اكتشفت ذلك بنفسك أيها المدير. كان مقدّر كيناسي يشير نحو جامع الفاتح، وليس نحو قصر توبكابـي".

كانت وجهة نظرها منطقية، لكنها لم تكن تعرف التفاصيل التي تؤرق مضجعي منذ الليلة الماضية.

"في الواقع يازينب، لم تكن يدا مقدّر كيناسي تشيران إلى جامع الفاتح. فكّري في الأمر، وستعرفين أنهما كانتا تشيران إلى عمود قسطنطين. بكلمات أخرى، نحو بايزيد عبر أكساراي؛ رغم أنني لا أستطيع القول إنني واثق تماماً. سألتُ في وقت سابق اليوم ليلى باركين عن حاكم المدينة

الرئيس الثالث، فردّت من دون أن تتردّد لحظة واحدة أنه السلطان محمد الفاتح . ربما اقترفنا خطأ في تركيزنا على الطريقة التي وُضعت بها الجثتان، لكنني أظن حقاً أن صلات الضحيتين بالشخصين اللذين أسّسا هذه المدينة وطوّراها واقعية. ولهذا السبب أعتقد أن الجريمة الثالثة سترتبط بطريقة ما بالسلطان محمد الفاتح".

قال علي وهو يقف على قدميه: "لا بأس بهذا أيها المدير. سأضع فريقاً هناك لمراقبة القصر ومحيطه، وسأذهب بنفسي للإشراف عليه".

"لا ياعلي. أرسل الفريق، وضع الرجال بجانب الجامع والقصر وتوثق من وضعهم فقط. لكن، بعد ذلك ستذهب فوراً إلى المنـزل وترتاح، وأنتِ أيضاً يازينب. سيذهب كلّ منكما إلى منـزله باكراً الليلة، وسينال قسطاً من الراحة. ليست لدينا فكرة عمّا ينتظرنا لاحقاً، أو عن الأشخاص الذين نلاحقهم. أريد أن تكونا نشيطين ومستعدّين ذهنياً". بدت زينب سعيدة بسماع ذلك، لكنني لاحظت شرارة تحدٍّ في عيني علي. قلت، عارفاً طبعه: "هذا أمر، ولا أريد سماع أي اعتراض. لا أريد سماع أي هراء من قبيل استدعاني الشباب، واضطررت إلى الذهاب ، لا أريد سماع شيء مماثل. ستذهبان إلى منـزليكما فوراً، وستخلدان إلى النوم فوراً وترتاحان هذه الليلة. هل هذا مفهوم؟".

قال باحترام: "سمعاً وطاعة ياسيدي". بدا أنني قد أثّرت فيه. "سأذهب إلى المنـزل فوراً بعد أن أتفقّد الرجال".

"جيد. سيكون يومنا شاقاً غداً، وربما اليوم الذي يليه أيضاً، ولا فائدة تُرجى من هدر طاقتنا".

ارتعاش في الخواء

كنت جاداً حين طلبت من زينب وعلي الذهاب إلى منـزليهما للحصول على قسطٍ من الراحة، لكن لا يمكنني القول إنني فعلت ما نصحت به. فقد اتجهت فوراً إلى منـزل ديمير، وعلى الرغم من أنني بالكاد قضيت نصف ساعة في الانتقال من بناء مقدّر كيناسي السكني القبيح إلى مقر القيادة، إلا أنني كنت مرهقاً مثل مساعديَّ، لكن لم يكن بوسعي فعل الكثير، فقد بذل أهم ثلاثة أشخاص في حياتي جهوداً كبيرة هذا المساء، وهم على الأرجح ينتظرونني في هذه اللحظة تحديداً. كنت أثق بالقوة العلاجية لنظرة يفغينا الرائعة، ولمزاح صديقي طفولتي الظريف وبقدرة الشراب على إنعاشي وإزالة معظم تعبـي. ضغطت قدمي على دوّاسة الوقود قدر المستطاع، إذ لم يكن بوسعي التأخر أكثر. وبحلول وقت توقفي أمام قصر بلاط ، كانت الساعة قد تجاوزت التاسعة. توثّقت من هاتفي الخلوي حين خرجت من السيارة، لكن يفغينا لم تكن قد اتصلت بـي بعد؛ وبدا هذا الأمر غريباً. فكّرت في أنها ربما تكون قد تأخرت، لكن لم يكن هناك داعٍ للقلق...

عندما وطأت بقدمي الحديقة، سمعت صوتاً شجياً ينتقل عبر هواء المساء: مرة أخرى أشعر بهذا الجرح داخلي/ في وقت متأخر تحت سماء المساء/ كم تؤلمني عيناي/ ولا أزال أجهل السبب... لم يكن صوت مزيّن ما يتردّد عبر غسق الأمسية الحالك، وإنما نغمات زكي مورن الساحرة. وعلى الرغم من أن الطاولة الموجودة على منصة تحت أشجار الكستناء كانت على بعد نحو عشرة أمتار، إلا أنني ميّزت رائحة الشراب المغرية التي يحملها نسيم أيار الدافئ.

كانت يفغينا جالسة وقد أدارت ظهرها لي؛ مشغولة بالحديث مع يكتا الذي استطعت رؤية جانب وجهه، فيما كان ديمير جالساً أمامهما صامتاً، لكنني رأيت نظرة قناعة في عينيه؛ وكأن الثلاثة لا يجلسون هناك تحت الأشجار في الحديقة المنارة بقوة للمرة الأولى، وإنما يعرفون بعضهم منذ سنوات، وقد جلسوا معاً وقضوا أمسيات لا تُحصى. لم أتمكن من رؤية وجهها، لذا غمرني للحظة شعور غريب بأنني أرى هاندان... كما كنت أراها دائماً؛ وكأنها لم تمت قطّ... ربما أصغر قليلاً... كحالها في أيام مدرستنا الثانوية... واثقة بنفسها، تفيض حيوية، وشجاعة متهورة، لا تزال مشاعرها غضّة لم تتضرّر بتجارب الحياة ومحنها... في وقت كانت الحياة فيه لا تزال

تقدّر البراءة... في وقت تفكّر فيه الحياة مرتين قبل أن تفسد أحلامنا...

بقيت متسمراً هناك، وأنا أراقب يفغينا وهي تتحوّل إلى هاندان، ثم هاندان وهي تتحوّل إلى يفغينا مجدداً، لتصبح كلتاهما غوزيد. لم تعد اثنتان منهن معي، وخطر لي أن الثلاث في الواقع امرأة واحدة؛ المرأة التي أحببتها... لكن، أي منهن؟ أهي حبيبة طفولتي الأولى؛ الطالبة البريئة في المدرسة الثانوية، أم شريكتي وداعمتي ورفيقتي وزوجتي الصبور، أم يفغينا؛ المرأة التي علّمتني - رغم كل ما حدث - أن الحياة لا تزال جميلة، وكنـزاً نفيساً؟ ربما أحببت الثلاث كلهن معاً، وربما لا تزال كل واحدة منهن، في وقت ما، المرأة الوحيدة التي أحبها...

انتهت الأغنية بالمقطع الحزين نفسه الذي بدأت به: كم تؤلمني عيناي/ ولا أزال أجهل السبب... بقيتُ متسمراً في مكاني حتى لاحظ ديمير وجودي.

"نوزت، ماذا تفعل هناك؟". رفع يكتا ويفغينا أنظارهما. عرفت أن الوقت قد حان لأبدو سعيداً، فرسمت ابتسامة زائفة على وجهي ومشيت إليهم.

قلت بحسد مصطنع: "كنت أراقبكم، لم تكونوا بحاجة إلي بالمحصلة، وقد حضّرتم كل شيء".

قالت يفغينا وهي ترمقني بنظرة مؤنبة: "استمعا إلى هذا الكلام؟ ويمتلك الجرأة ليعاتبنا! في أي وقت قلت إنك ستكون هنا؟".

"حسناً، حسناً، أعرف أنني تأخرت قليلاً، وأُقر بذلك. كانت لدينا مهمات كثيرة اليوم، ولم يكن بوسعي فعل شيء. تعرفون كيف تجري الأمور".

قالت يفغينا بحرارة: "لا تقلق يا نوزت، لم تتأخر كثيراً على كل حال".

أضاف يكتا: "إنها محقة، فقد جلسنا للتو".

انحنيت إلى الأسفل لأقبّل يفغينا بلطف على خدّها الأيمن، وبدت رائحة الخزامى التي تفوح من جلدها رائعة.

همستُ: "رائحتك عطرة". كان مظهرها وشذاها رائعين جداً، ولم أستطع منع الكلمات من الخروج من فمي. لكن، في اللحظة التي رأيت فيها صديقيَّ يبتسمان وأنا أقبّلها، شعرت بوخزة ندم؛ وبدا أن شبح هاندان قد ظهر فجأة مجدداً.

سألتُ وأنا أشدُّ قامتي: "إذاً، كيف حالكما أيها الشابان؟".

رد يكتا: "كنا بخير، وأصبحنا أفضل حالاً الآن بعد وصول كليكما".

تكلم بصدق مطلق؛ سعيداً تماماً لأننا جئنا، لكن ذلك لم يمنع يفغينا من أن تذكّرهما باتفاقهم بعد ثلاثة أيام.

قالت: "أنتظر مجيئكم يوم السبت، ولن أقبل أعذاراً. ستأتون جميعاً".

لم أتمكّن من الاعتراض؛ لأنني مرهق جداً، واهتمامي مُنصَبٌّ أيضاً على الطعام المصفوف على المائدة: سلطة جرجير، وجبن أبيض، وبطيخ؛ كلها قد غُسلت وحُضّرت وقُطّعت ووُضعت في أطباق، بالإضافة إلى الشراب.

قلت: "أرى أنكم قد بدأتم باحتساء الشراب من دوني".

قال ديمير وهو يسلّمني كأساً من الشراب ويشير إلى كرسي: "إننا نمهّد من أجلك يانوزت، فأنت أفضل الشاربين بيننا جميعاً. أدركنا أننا يجب نبدأ قبلك لنستطيع مجاراتك".

قلت: "هذا أمرٌ مفروغ منه. سأذهب وأغسل يديَّ فحسب. بالمناسبة، كيف حال بختيار؟".

قالت يفغينا: "إنه يتعافى جيداً. عندما طلب منا ديمير ألاّ نقلق بشأنه تلك الليلة لم أثق بذلك، لكن الآن بعد أن رأيته بأم عينيَّ...". شعرتُ بالسرور؛ لأن الكلب العجوز يتعافى جيداً، لكن سعادة أكبر غمرتني؛ لأن يفغينا قد تخلّت عن الرسميات وانسجمت مع صديقيّ.

سألتُ وأنا أتجه إلى الداخل: "أين هو؟ أريد رؤية الوغد العجوز؟".

قال ديمير خلفي: "لقد نقلته إلى حجرة الجلوس، وأطفئ تلك الموسيقى حين تدخل؛ حتى نستطيع التكلم هنا".

عرفني بختيار في اللحظة التي دخلت المنـزل فيها، وأصدر صوت ترحيب ودّيًّا؛ شيئاً ما بين الأنين والنباح. رأيته حين أنرت الغرفة، مستلقياً في الوجار. رفع رأسه وحاول الوقوف حين رآني لكنه لم يستطع، لذا ذهبت إليه وداعبته.

"كيف حالك أيها العجوز؟". حدّق إلي بعينين محبّتين. "يبدو أنك تبلي حسناً، وستخرج من هذه المحنة الصغيرة معافى".

حاول أن ينبح؛ وكأنه يوافق على ما قلته، لكنه لم يتمكّن من ذلك.

قلت: "حسناً أيها العجوز، لا بأس، لا تقلق، واسترخِ فقط. هوّن على نفسك واستعد قوتك. إذا ارتحت جيداً، فستعاود الوقوف على قوائمك عمّا قريب". استرخى قليلاً، ووضع رأسه بين قائمتيه الأماميتين ليخلد إلى النوم، لكنه لم يغمض عينيه حتى أظلمت الغرفة وخرجت من المكان.

غسلتُ يديَّ ووجهي في الحمّام، ولاحظت ابتسامة وإشراقاً على وجهي المرهق؛ ربما كان هذا شيئاً شبيهاً بالسعادة. وفي محاولة جادّة لعدم فقدان

هذا الشعور، اندفعت إلى حجرة الجلوس، وأوقفت مشغّل الأقراص المدمجة عن العمل، وأسرعت عائداً إلى الحديقة لأنضم إلى الآخرين؛ حيث شممت فوراً رائحة السمك المشوي التي يسيل لها اللعاب. الغريب أن السمك الذي كان يحضّره لم يكن من نوع القاروس البحري الذي ذكره أمس.

سألتُ: "هل هذه أسماك حمراء مخطّطة؟".

قال بحدّة منـزعجاً مما قلته تقريباً: "ما الذي ترمي إليه؟ هذه أسماك بوري حمراء رائعة. لقد مضى وقت طويل منذ أن جئت للصيد معنا، وقد نسيت كيف تبدو الأسماك".

جلست على كرسي ونظرت إلى السمك. كان محقاً. وعلى الرغم من أنني لم أصعد معهما على متن المركب منذ بعض الوقت، إلاّ أنه كان لا يزال بمقدوري تمييز أنها ليست أسماكاً حمراء.

"همم، أسماك بوري حمراء. قل لي، من أين اصطدتها؟".

كشّر يكتا وأجاب: "من بائع الأسماك".

"لكنكما أيها الشابان قلتما إنكما قد ذهبتما للصيد!".

"فعلنا ذلك حقاً. لكن، بالله عليك، كيف سنجد أسماك بوري حمراء بجانب كيناليادا؟ اصطدنا بعض القاروس البحري؛ خمسة وحوش من أعماق البحر. اشتريت هذه الأسماك من شريف بائع الأسماك بعد ظهر اليوم، وقال إنها قد وصلت من إزمير للتو، وأقسم إنها طازجة مثل ندى الصباح".

قالت يفغينا وهي تتفحّص سمكتها بالشوكة: "تبدو طازجة، وأنا واثقة أن طعمها رائع". تبين أن ذلك صحيح، رغم أنها ليست في موسمها.

قال يكتا بإثارة بعد أن تناول بضع لقيمات: "نخب".

تابع ديمير وهو يلامس بكأسه كأس يكتا: "الصداقة"، ثم مستديراً إلى يفغينا: "وأصدقاء جدد".

قالت وهي تنظر إليّ بإعجاب وبقليل من الحسد: "نخبكم أيها الشباب، ونخب الصداقة الدائمة".

حان دوري الآن لقول بضع كلمات، لكنها علقت في حلقي، ووجدت نفسي واقفاً هناك بصمت؛ ليس لأنني لا أريد أن أتكلم، وإنما لإدراكي الكامل أيضاً للحقيقة المؤلمة، لماضٍ يربطنا؛ نحن الرجال الثلاثة الجالسين إلى الطاولة معاً. شعرت بابتسامة صغيرة ترتسم على وجه امرأة تراقبنا من بين ظلال أشجار الكستناء حيث قبّلت يفغينا قبل بضع لحظات. وعلى الرغم من أنها لم تكن مرئية، أو تضحك علينا، ورغم أنها صامتة ولم نذكرها

نحن الثلاثة، فقد عرفنا أن هناك امرأة أخرى بيننا. ربما كان يجب أن أفعل ما فعلته يفغينا في ذلك اليوم، وأرفع كأسي لشرب نخب هاندان؛ المرأة التي كوّنت هذه الصداقة وجمعت بيننا؛ لكن تصرّفاً كهذا سيُنهي الأمسية، لذا اخترت البقاء صامتاً. ولو أن يفغينا لم تهبَّ لنجدتي، لبقي صديقا طفولتي هناك رافعين كأسيهما، بانتظار بعض الفصاحة التي لم تكن لتصدر مني قطّ.

قالت وهي لا تعرف تماماً ما أشعر به، لكنها أحسّت على الأرجح أن شيئاً ما ليس على ما يرام: "وبختيار؛ لأنه جمعنا كلنا معاً". ربما ظنّت أنني أفكّر في زوجتي وابنتي. لكن، أياً يكن، كنت شاكراً لها بالتأكيد لإنقاذها إياي من ذكرياتي وشبح هاندان. رفعت كأسي وأقررت نخبها، وقلت بصوت حازمٍ وعال: "نخب بختيار... وصحته".

قلت بعد أن جلسنا؛ رغبة مني على الأرجح بألاّ ألتزم الصمت مجدداً: "ديمير، كيف تمكّنت من رؤيتي هناك؟".

قال يكتا: "لديه عينا صقر لعين. انسَ رجلاً أخرقَ مثلك، فكل ما عليه فعله هو رؤية ظل طائر نائم على غصن وسيتمكّن من تحديد نوعه فوراً: دوري، حسّون، حمامة، يمامة؛ لا يهم، يمكن أن يخبرك عن نوعه بعد إلقاء نظرة واحدة فقط عليه".

قلت وقد حرّك تعليق يكتا ذكرياتي: "كان لديك صقر ذات يوم، أليس كذلك يا ديمير؟".

ردَّ متنهّداً: "كان صقراً جميلاً. كسر جناحه وسقط في حديقتنا...".

سألت يفغينا مصدومة من المحنة التي تعرّض لها ذاك المخلوق المسكين: "هل تعرض لهجوم؟".

ردَّ ديمير بتجهّم: "أخشى أن هذا صحيح، ومن قبل أشرس الضواري على الإطلاق: الناس. تمزّق جناحه بعد إصابته برصاصة بندقية هوائية".

قلت: "لم يكن اسمه مألوفاً، كما أتذكر. ماذا كان مجدداً؟ "حسان"، أليس كذلك؟".

"حزن..." [17] .

قالت يفغينا فزعة: " حزن ! سمّيت طائراً كاسراً " حزن "!".

"ليس أنا، وإنما والدتي".

"لماذا؟".

"عندما وقع بصرها عليه للمرة الأولى، قالت إن هناك نظرة حزن في عينيه؛ رغم أنني لم أرها. قلت: أمي، لا شيء حزين في هذا كله، إنه

مجرد صقر، وربما يتألم قليلاً لكن ما رأيته في عينيه ليس حزناً، فهذا طائر كاسر ، لكنها لم توافقني الرّأي، وأصرّت: لا يابني، أنت مخطئ. ليس جناحه ما ينـزف، وإنما روحه هي التي جُرحت. لنسمّه "حزن" . أردت أن أسميه كارتاكا، لكنه كان بحاجة إلى بيت أكثر من حاجته إلى الاسم، وكنت أعرف أن والدي الذي لم يكن مغرماً بالحيوانات سيعترض على الاحتفاظ به قائلاً إنه سيجلب التراب والأوساخ إلى المنـزل، لذا قبلت اقتراح والدتي لأضمن وقوفها إلى جانبـي. وقد فعلت خيراً؛ ففي اللحظة التي رأى فيها والدي الطائر بدأ يتذمر، لكن المهم هو أنه كان لا يزال يحب والدتي حباً جمّاً حتى بعد كل تلك السنوات من زواجه بها، لذا عندما قالت: بنيامين، لا تفعل! ياله من مخلوق مسكين! كيف يمكن أن ترمي طائراً جريحاً ومسكيناً في الشارع؟ كيف يمكنك فعل ذلك؟ سيكون هذا خزياً كبيراً، وإثماً فظيعاً. استسلم وسمح لحزن بالبقاء".

كانت يفغينا قد توقفت عن الأكل والشرب، وترهف السمع؛ مبتهجة بالحكاية.

"وماذا عن حزن ؟ هل استعاد عافيته؟".

قال ديمير وهو ينظر نحو الأسفل: "لا، مات بعد شهر. أتذكر أمي حين قالت لي: أخبرتك، ذلك الطائر كان يعرف أنه سيموت، لذا بدا عليه الحزن . إذا سألتني، فسأقول إن أمي رأت مستقبلها في عيني "حزن"، والمرض الذي سيفتك بها، فقد شُخّصت إصابتها بالزهايمر بعد بضعة شهور. وفي ما يخص الصقر، إنه حيوان يعتز بحريته أكثر من أي شيء آخر. وبغض النظر عن مدى الاعتناء به، لن يعيش في بيئة مغلقة، وفقد "حزن" الرغبة في الحياة حين فقد حريته...".

قال يكتا بصوت خافت؛ وكأنه خاض تلك التجربة بنفسه: "وهكذا قرّر ديمير أن يصبح طبيباً بيطرياً؛ لأنه لم يتمكن من مساعدة حزن على النجاة...".

تورّد وجه ديمير قليلاً، لكنني لم أعرف إن كان ذلك قد حصل بفعل الإحراج أم بفعل شيء آخر.

"إنه محق. في البداية، قرّرت أن أصبح طبيباً بيطرياً بسبب "حزن"، لكنني أدركت لاحقاً أنني أحب الحيوانات فعلاً؛ جميعها، ولا يهم النوع أو الصنف؛ لأن أشرس الحيوانات ليس خطراً مثل البشر. إنها أكثر صدقاً وإخلاصاً من البشر، وأقل تدميراً لبيئتها، وقد كنت سعيداً مع الحيوانات دائماً، ولهذا السبب بدا لي أمراً طبيعياً أن أصبح طبيباً بيطرياً".

قلت متذكراً الجدال الذي دار بين ديمير وأسرته: "وهذا ما لم يفهمه أمكا [18] بنيامين قطّ. كان يأمل دائماً أن يصبح ديمير محامياً؛ حتى حين كان على سرير موته".

قال ديمير مبتسماً بتجهّم: "ليرحم الله روحه، لم يفهم الرجل العجوز ذلك. كيف يمكن لشخص لا يحب الكلام أن يصبح محامياً؟ لو أنني فعلت ما أراده، لكنت قد درست اختصاصاً لا أهتم به، ثم عملت في مهنة لا أهواها على الإطلاق". ثم استدار ورمقني بنظرة عتب. "وماذا عنك؟ وكأن أسرتك حلّقت إلى القمر سعيدة باختيارك مهنتك؟".

لم يكن ذلك ليوقف يفغينا؛ خاصة بعد أن أصبحتُ أنا موضوع الحديث.

"هذا صحيح يا نوزت، ما كان رأي أسرتك بانضمامك إلى الشرطة؟".

قلت مبتسماً وأنا أتذكر ما بقي قضية شائكة طيلة كل تلك السنوات الماضية: "لقد جُنّوا في البداية. كان والدي يسارياً نوعاً ما، وعندما أقول يسارياً فأنا أعني أنه كمالي، لذا لم يكن مغرماً بالشرطة. قال: رجال الشرطة هم الأدوات القذرة للدولة. إذا أردت اختيار الانضمام إلى الجيش، فبإمكانك على الأقل الذهاب إلى إحدى أكاديمياتهم في كوليلي أو هيبلي. ما الذي جعلك تفكّر في الشرطة اللعينة على كل حال؟ لم أخبره قطّ أنه السبب. كان مدرّس أدب، وأول رواية قرأتها من مكتبته هي قتل روجر أكرويد لأغاثا كريستي. لم تكن لديّ فكرة عن هوية القاتل، حتى النهاية تماماً. وعندما أنهيت قراءة القصة، عدت فوراً إلى البداية، وقرأتها مراراً وتكراراً. ومنذ ذلك الحين، فُتنت بالروايات البوليسية. لم يكن المكان أو الكاتب عاملاً مهماً، قرأتها كلها، وربما يكون هذا أحد الأسباب الرئيسة التي دفعتني إلى العمل في سلك الشرطة. طبعاً، لم أخبر والدي بذلك قطّ، ولم أرغب في أن يظن أنه كان مسؤولاً عن التحاقي بمهنة ينظر إليها بازدراء".

قال ديمير: "يكتا أوفرنا حظاً، فأمكا رؤوف لم يتدخل إطلاقاً. أراد دراسة الهندسة المعمارية، وفعل ذلك. الأهم أنه لم يعمل يوماً واحداً بوصفه مهندساً معمارياً بعد تخرّجه".

اعترض يكتا: "إنّه يشوّه الحقائق يا يفغينا، فأنا لا أزال أحب اختصاصي. في الواقع، لا تزال معظم كتبي في المنزل عن الهندسة المعمارية؛ خاصة عن فنّ العمران في إسطنبول. بعد إنهاء التخرّج، أردت البقاء والعمل في الجامعة لكن العجائز الحمقى الفظّين الذين يديرون الكلية لم يسمحوا لي بذلك، لذا تحوّلت إلى الشعر. ماذا كان بمقدوري أن

أفعل؟ لم يوافق والدي على أن أصبح شاعراً قطّ، ولم يقرأ أياً من قصائدي".

قلت محاولاً التخفيف من ألمه: "ربما فعل ذلك من دون أن تراه. كيف تعرف أنه لم يقرأها قط سراً؟".

"أعرف يانوزت، أعرف فحسب. لم يقرأ قط أياً منها، وكنت سأعرف لو أنه فعل؛ لأنه كان سيقول شيئاً ما بالتأكيد. وبغض النظر عن إعجابه أو انتقاده، كان سيقول شيئاً ما، أو على الأقل سيقول شيئاً لأحد ما، لكنه لم يفعل. لم يفهم يوماً لماذا أصبحت شاعراً، وتصرّف وكأنني لست كذلك على الإطلاق. لم يكن لديه اهتمام بالأدب أو الفن على كل حال".

قلت وأنا أعرف جيداً ما كان عليه والده: "أنت غير منصف. كان أمكا رؤوف يغني على نحو جميل".

قال ديمير يؤازرني: "إنه محق، كان يجيد الغناء، خاصة حين يحتسي بضع كؤوس. غنّى مثل منير نورتين، وكانت بلاط كلها تجلس وتصغي إليه حين يبدأ الغناء".

قال يكتا وعيناه مبللتان بالدموع: "أظن أنك محق. لم يكن مغرماً بالشعر كثيراً، ولكنه أحب تلك الأغاني التي كتبها الشاعر يحيى كمال".

قلت وأنا أسمع تقريباً صوت أمكا رؤوف من بعيد: "بالتأكيد، أتذكر أنه أنشد تلك الأغنية مرة في بيتك. ما اسمها مجدداً؟ كانت أغنية جميلة، تلك من مقام النهاوند... كيف تبدأ؟".

عندما كانت قنديلي غارقة في نومها/ سحبنا ضوء القمر فوق الماء/ كان درباً يتلألأ مثل الفضة/ سافرنا إلى هناك من دون حديث عن عودة/ تلال مثل الحلم وأشجار غير دنيوية/ منحدرات ترتاح في المياه الساكنة/ لم تكن نهاية الفصل قريبة/ كانت مثل ترنيمة عجوز غامضة/ أضعنا أنفسنا في أراضٍ بعيدة، بعيدة جداً/ قبل أن ينتهي الحلم مع بزوغ الفجر...

قالت يفغينا وهي ترفع كأسها مرة أخرى: "في هذه الحال، لنشرب نخب أمكا رؤوف".

"إلى أمكا رؤوف...".

همستُ: "ليرقد بسلام...".

قال يكتا رافعاً يديه: "مهلاً، النخب ليس لوالدي فقط وإنما لكل آبائنا أيضاً".

صدحت أصواتنا في الظلام: "إلى آبائنا؛ أولئك الرجال الرائعين".

بعد أن رنّت الكؤوس، شربنا بضع رشفات ثم أعدنا كؤوسنا إلى

الطاولة، رأيت يكتا ينظر إليّ وتعبير ودّي ظاهر في عينيه.

"شكراً يا نوزت...".

"علامَ؟".

"لأنك تذكّرت والدي بتلك الطريقة". لم أعرف إن كانت عيناه الزرقاوان تفيضان دموعاً أم لا. "أو بالأحرى، على دعمي. أبناء عاقّون مثلي يمكن أن يصبحوا حمقى أحياناً".

"لست وحدك يا صديقي، فنحن جميعاً نرتكب الأخطاء من وقت إلى آخر".

قال وهو يهز رأسه: "لا يا نوزت، ليس جميعنا. أنت مثلاً لا تفعل ذلك. لا تنكر هذا، لأنك لن تخدعني. لا بأس، أعرف أنك تحب أن تبدو صارماً وهادئاً وحصيفاً، لكنك في أعماقك أحمق وعجوز وعاطفي". استدار ليتكلم مع يفغينا التي كانت ترهف السمع حتى ذلك الوقت. "يظنون أنني العاطفي بينهم هم الثلاثة، لكن نوزت هو الحسّاس بيننا".

لم تُفاجأ بإعلانه إطلاقاً، وقالت وهي تداعب يدي: "أعرف. أتمنى أن يتقبل ذلك أيضاً".

كان الشاعر اللعين يحرجني فعلاً هذه المرة.

حذّرت: "شكراً يا يكتا، هذا كافٍ حقاً. اكتفينا من تحليل الشخصيات، إن لم تكن تمانع".

لم يصغِ إليّ طبعاً، واسترسلت قريحته الشعرية بعد أن بدأ تأثير الشراب يظهر عليه آنذاك.

"كتبت له رباعية حين كنت فتى".

لم تكن لديّ أي فكرة عمّا يعنيه؛ لأنه لم يذكر لي إطلاقاً أي رباعية لعينة من قبل، لكن يفغينا تدخّلت فوراً.

قالت: "حقاً؟ لنسمعها".

عرفت من مجرد إلقائي نظرة عليه أنه سيقولها على كل حال، سواء أطلبت منه ذلك أم لم تفعل، وانتابني إحساس غريب. فمن ناحية، شعرت بالفضول بشأن قصيدته الصغيرة تلك. ومن ناحية أخرى، خالجني إحساس بالخجل لأن الأضواء مسلّطة عليّ. لم يكن أي مما أفكّر فيه أو أشعر به مهماً ليكتا، فقد بدأ يتنحنح.

"مملوء غضباً مهيباً/ رقيق لكنه حماسي/ انظروا إلى ما وراء شتائمه وكلامه الفظ/ تلك الدموع تخفي طفلاً حنوناً".

أحببتها في الواقع، لكنني لم أدع الأمر يمر مرور الكرام. "متى كتبتها

بالله عليك؟".

"في المدرسة الثانوية".

"لم أعرف بها قطّ".

"لأنني لم أخبرك عنها مطلقاً".

قالت يفغينا: "إنها جميلة؛ وتحديداً عند حديثك عن الطفل داخله، كما أنها صادقة جداً". أبعدت يدها عن يدي وعاتبتني بتهكّم. "لكنني لم أعرف قطّ أنك تتفوّه بكلام بذيء".

"كان يجب أن تريه! إنه يشتم مثل جندي! ويحب الشجار!".

بدا أن يكتا لن يتوقف عن ذلك طوال الأمسية.

"سابقاً، كان ديمير هو الأسوأ حين يتعلق الأمر بالشجار".

قال الطبيب البيطري: "هراء، أنت من كان يتورط دائماً في المشكلات. لكن، نظراً إلى أنني الأضخم بيننا نحن الثلاثة، كنت أضطر إلى التدخل دوماً والمشاركة في ذلك، وأنا من كان يُرسل دائماً إلى المدير".

ضحكت يفغينا: "الأطفال يبقون أطفالاً، كما أفترض". رفعت كأسها. "إليكم، لنشرب نخبكم أنتم الثلاثة".

صرّح يكتا ولسانه ثقيل آنذاك: "نخبنا، ونخب طفولتنا... بقايا أيام شبابنا... أحلامنا المحطّمة... الذكريات الضائعة".

شربنا؛ متخلّصين من كياسة زائفة، ومُجيزين لمشاعرنا أن تطفو على السطح بحرية. لم يقل أحدنا شيئاً آخر لبعض الوقت حتى تولّت يفغينا زمام الأمور.

قالت وعيناها مشوشتان: "إذاً يا يكتا، أظن أن الوقت قد حان".

كان يعرف ما تتكلم عنه، لكنه تظاهر بأنه لا يعلم. عندما يكون مزاجه جيداً، فهو لا يزعج نفسه بالسؤال إن كان أحد ما يريد الإصغاء أم لا، ويبدأ بإلقاء قصائده ذات اليمين وذات اليسار. لكن، إذا سُئل بتهذيب، والتُمس منه قراءة بضعة أبيات، فستظهر آنذاك كل أنواع تقلّب الأطوار.

تمتم: "حقاً؟ وقت ماذا؟".

قلت: "ماذا تظن أيها الأحمق؟ إلقاء قصيدة".

"قرأت قصيدة للتو".

"ماذا؟! رباعية واحدة!".

"أنا لا أتحدث عن الرباعية". قهقه كثيراً، ولم يعد ديمير يطيق صبراً.

"بحق الله يا يكتا، هاتِ ما لديك! ألقِ إحدى قصائدك، هلاّ تفعل".

قال مجاملة ليفغينا: "لا بأس، لا بأس. سألقي على مسامعكم واحدة. لكن، إذا لم تحبوها، فلن تكون هذه غلطتي".

صرخنا بصوت واحد ساخط: "يكتا!".

"لا بأس! عنوانها: ارتعاش في الخواء ". تنحنح وشرع يقول: ״غيابك ملأ الجو/ كانت إسطنبول مقفرة/ مثل لوحة عطلة/ تغطي السماء الباردة القديمة/ مع رياح أيلول العاتية/ غيابك ملأ الجو/ بكى طفل في المحطة/ أيقظني نشيجه من نومي في منتصف الليل/ مرَّ القطار أمام عينيّ/ لوّث صفاء أحلامي/ غيابك ملأ الجو/ كنت سأغيّر العالم كله/ لكن في المرآة كان وجهي قد أصبح عجوزاً/ عندما حدّقت حولي/ إسطنبول أنتِ وأنتِ...״.

كانت يفغينا تحدّق إلي وهو يلقيها، وشعرت أن شيئاً ما قد حدث بين ثلاثتنا في شبابنا؛ كرباً في ماضينا الجمعي، لكنها لم تستطع السؤال عنه. انتظرت أن أخبرها عنه، لكن لم يكن بمقدوري فعل ذلك... أغمضت عينيَّ وسلّمت نفسي للكلمات...

غيابك ملأ الجو/ قلب مفطور على كتفيّ/ ذهن محتار في صدري/ أكافح، أتلوّى في إعصار مصيرنا/ أهيم من دونك على حافة الجنون/ غيابك ملأ الجو/ في إسطنبول نازفة/في عالم مقفر...״.

همست يفغينا: "قصيدة رائعة، إنها جميلة حقاً. من هي السيدة المحظوظة التي كتبت لها؟".

كان السؤال بسيطاً، لكنه أخمد كل ضحكات الأمسية ومرحها في لحظة؛ محوّلاً فرحتنا العارمة إلى أسى ويأس.

لم يجب يكتا، أو بالأحرى لم يستطع.

قال ديمير مغيّراً الموضوع: "من الأفضل أن أضع الأسماك على المشواة قبل أن تخمد النيران". ثم وقف وأشاح بنظره بعيداً.

لم يكن لديّ ويكتا أي مكان نفر إليه. حدّقت يفغينا إليّ مرتبكة مما يجري، ومن تأثير سؤالها فينا. كنت أفكر بنشاط في شيء ما أقوله، لكنني لم أضطر إلى ذلك، إذ رفع يكتا رأسه مستجمعاً شجاعته من مكان ما، ثم أجاب عن سؤالها.

"إنها المرأة الوحيدة التي كانت تعني لي شيئاً، كتبتها من أجل هاندان".

هاندان

"من هي هاندان؟".

جعل الجو الكئيب يفغينا تتردد في طرح السؤال في الحديقة، لكن بدا واضحاً أنها تتحرّق شوقاً لتعرف من هي تلك المرأة هاندان، لذا انتظرت إلى أن أصبحنا في السيارة قبل أن تسألني ما لم تتمكّن من سؤال يكتا عنه. فما إن ألقى تلك القصيدة حتى تلاشى المرح، وأصبحنا جميعاً في موقف لا نُحسد عليه؛ رغم محاولاتي وديمير العقيمة لإعادة المرح إلى الأمسية من جديد. وفي اللحظة التي ركبنا فيها السيارة، سألتني يفغينا عن هاندان.

قلت مُديراً المفتاح في المقبس ومُشغلاً محرّك السيارة: "كانت صديقة؛ صديقتنا نحن الثلاثة".

نبضت السيارة القديمة بالحياة، وانطلقت من أمام منـزل ديمير، وبدأت تتقدّم ببطء في شوارع بلاط المألوفة. لم يُرضها جوابـي فقالت متهكّمة: "صديقة يا نوزت! لماذا لا تتكلم عن أصدقائك معي؟".

كانت منـزعجة لكنها رابطة الجأش أيضاً، ونظرت إليّ بالطريقة نفسها التي ستنظر بها مدرّسة حنون إلى طفل مشاغب.

قلت ببساطة: "لا أدري، أفترض لأننا لم نفتح الموضوع قطّ".

"لو أنني فقط...". سمعت نبرة انتقاد جدّية في صوتها هذه المرة. لم يكن من الممكن التسامح مع أفعال الطفل الشريرة بعد ذلك. "لو أنني عرفت بشأن أصدقائك، لما سألت عن هاندان، ولما كان يكتا قد انـزعج كثيراً، ولما انتهت أمسية بدأت على نحو رائع بتلك الطريقة البغيضة".

كانت محقة، لكن لم يكن لدي شيء أقوله، وحدّقت إلى الأمام نحو الطريق. عرفت أنها تستحق اعتذاراً، أو شرحاً على الأقل.

شرعتُ في القول: "في الواقع، إنها قصة مثيرة للاهتمام...". نَسيتْ فوراً الغضب العارم الذي تشعر به ومالت إلى الأمام.

"أتعني عن يكتا وهاندان؟".

مسكينة يفغينا، فقد ظنّت أن يكتا وحده من أحب هاندان.

"عن يكتا وهاندان وديمير...".

"ماذا؟ هل تعني أن كليهما أحبّاها؟". عدت للنظر إلى الطريق، لكن يفغينا لم تستسلم وطرحت علي سؤالاً لم أتوقعه إطلاقاً. "وأنت؟ ماذا عنك؟".

"ماذا تعنين؟".

"تعرف ما أعنيه".

"كيف لي أن أعرف ما تعنينه؟".

"كنت تحب هاندان أيضاً، أليس كذلك؟".

لم تكن تتهمني، وإنما كانت ببساطة فضولية بشأن حياتي قبل أن ألتقيها؛ بشأن طفولتي وشبابي، وتجارب حبي وخسارتي. أرادت أن تعرف نوزت الماضي، لذا أبدت اهتماماً كبيراً بهاندان. في الواقع، سألتني بلطف كبير وحنان في صوتها، ما حثني على القول إنني كنت أحبها. لكن، هل ذلك صحيح؟ حقاً؟ هل كنت مغرماً بها، مثل يكتا وديمير؟ بدا من المستحيل بالنسبة إليّ أن أجيب عن ذلك بثقة مطلقة، فبقيت صامتاً؛ مراقباً الشوارع نفسها التي لعبنا عليها نحن الثلاثة حين كنا صغاراً، وذكريات طفولتي تتراقص أمام ناظري قبل أن تختفي تحت ضوء مصابيح الإنارة الصدئة القديمة. كانت كل ذكرياتي قد تكوّنت في هذه الشوارع، ومن بين كل تلك الذكريات والأحداث الماضية، تبدو تلك المتعلقة بهاندان محفورة عميقاً في نفسي؛ أنفسنا جميعاً.

كيف كان مظهرها؟ كانت فتاة نحيلة وناعمة وداكنة العينين، وشعرها طويل أملس... لم تكن هاندان الشابة أو المرأة هي التي أراها أمامي حين أنظر إلى ماضيَّ، وإنما هاندان طفولتي وطفولتنا جميعاً. وربما يُعزى سبب ذلك إلى أنني عرفتها قبل يكتا وديمير. هي ابنة أمكا فاروق والخالة ناديد؛ كانوا جيراننا، وقد عرفتها وقتاً طويلاً، حتى إنه لم يعد بمقدوري أن أتذكّر متى وكيف التقيتها لأوّل مرة. كان أبي وأمي، وجيراننا العم ديمتري وزوجته الخالة سولا، والعم مسعود والخالة نيدا وابنهما إحسان، والعم بريمو والخالة ريتشل وابنتهما إيستر، مثل هاندان، جزءاً دائماً من حياتي، بل من حياتنا. لم تكن مثل أخت لي، لكننا كنا صديقين مقرّبين دائماً، وقد انتسبنا إلى روضة الأطفال والمدرسة الابتدائية نفسيهما معاً. وحين انتقلنا إلى المدرسة الثانوية بقينا صديقين حميمين، ثم انضم يكتا وديمير إلى صفنا بعد أن أغلقت إدارة المدرسة صفّهما ووزّعت الطلاب على الصفوف الأخرى، وقد صادقتهما أولاً، ثم تعرّفت إليهما هاندان لاحقاً، لكن لا أتذكر متى بدآ يحبانها أو من وقع في غرام من... لا يمكنني حتى القول إن كنت قد أحببتها أم لا...

سألت يفغينا: "لماذا تلتزم الصمت يا كبير المفتشين؟ هل تجد نفسك في مأزق؟ هل تزعجك أسئلتي؟".

"ليس الأمر هكذا، لكنني لا أتذكر فحسب".

قالت من دون أن تشيح بصرها عني؛ ظناً منها أنني أتفادى الموضوع: "ما الذي لا تتذكره؟".

استطعت القول: "مشاعري تجاه هاندان، لا أتذكرها حقاً. لا أعرف إن كانت صداقة أم حباً أم شيئاً آخر. إما أنني لا أتذكر أو لا أدري". استدرت يميناً إلى طريق يؤدي إلى القرن الذهبي. "لكن نعم، كنت وهاندان مقرّبين جداً، وقضينا طفولتنا ومراهقتنا معاً، لكن الذكريات بعيدة الآن، ومبهمة جداً، ولا أتذكّر حتى إن كنت قد قبّلتها أم لا".

ضحكت يفغينا بصوت خافت.

"أقسم إنها الحقيقة. أنا لا أتذكر حقاً". نظرت إليّ بعينين متشككتين ولكنهما مبتسمتان. قلت وأنا أشعر بحاجة إلى الدفاع عن نفسي بطريقة ما: "على كل حال، لو أنني أحببتها لكنت قد أخبرتك. بعد كل ذلك الوقت، ووقوع كل تلك الأحداث، لماذا لن أخبرك؟".

بدأت نظرة الشك تتلاشى، لكن لم أعرف إن كانت قد صدّقتني أم لا؟

"وماذا عن الآخرين؟".

"ماذا؟ يكتا وديمير؟ كما قلت، كانا مغرمين بهاندان كثيراً، لكن الغريب أن أياً منهما لم يعبّر عن مشاعره تجاهها آنذاك".

"أنت تمزح؟! أتعني أنهما لم يخبراها أنهما يحبانها مطلقاً؟".

"كيف يمكن لأيّ منا أن يذهب إليها ويقول لها بجرأة: هاندان، أنا أحبّك بجنون ، في حين كنا نحن الأربعة نتسكع معاً دائماً؟ ربما كان بمقدور يكتا أن يلمّح إلى ذلك في شعره، لكنه يجب أن يفعل ذلك بمهارة كبيرة حتى لا ألاحظ أنا أو ديمير الأمر". أشحت بصري بعيداً عن الطريق ونظرت إليها. "لكن الآن، وبعد الأخذ بالحسبان أنكِ أنت التي تسألينني، أظن أن ذلك ربما كان أفضل؛ إذ يجب أن تكون للصداقة الأولوية على الحب، وأعتقد أن الصداقة بيننا نحن الأربعة هي التي جعلتنا قانعين جداً. لا أعرف إن كان ذلك ينطبق عليّ، لكن لو ذهب إليها يكتا أو ديمير حينها وأعلن عن حبه، لانفصمت عُرى تلك الصداقة والرفقة. وأظن أن هاندان كانت تدرك ذلك جيداً، لذا لم تفضّل أحدهما على الآخر".

سألتْ وعيناها تومضان: "وماذا عنك؟".

"لم أحظَ بأي اهتمام خاص أيضاً، ربما لأنها لم ترغب في إفساد صداقتها مع أيٍّ منا، أو معنا نحن الثلاثة".

"أنتم الثلاثة، هه؟ إذاً، تعترف أنك كنت مهتماً بها".

"طبعاً كنت مهتماً بها. مشينا إلى المدرسة معاً، وكنا في الصف نفسه، ونعود إلى المنـزل معاً. كيف لها ألاّ تكون جزءاً من حياتي؟".

قالت بانـزعاج: "لا بأس يا نوزت. الآن، أخبرني الحقيقة. هل كنت تغار عليها؟ أو بدقة أكبر، هل كنت تغار من يكتا أو ديمير؟ بالمحصلة، كانت صديقتك ثم فجأة توسّعت الصداقة لتشمل صبيين آخرين. كنت سأشعر بالغيرة لو أنني مكانك".

كدت أخبرها أنني لم أشعر بالغيرة حين تبلور مشهد من المدرسة أمام ناظريّ، مميطاً النقاب عن ذكرياتي. فكّرت في الاحتفاظ بذلك لنفسي، لكنني أدركت أن لا ضرر في ذلك، وأنّ يفغينا تستحق أن تعرف.

قلت محاولاً أن أتابع تدفق الذكريات التي تتلألأ في ذهني: "شعرت على الأرجح ببعض الغيرة. أتذكر أنني تأخرت عن المدرسة في أحد الأيام، وركضت لأدخل المبنى حين رأيت هاندان وديمير يتهامسان ويقهقهان بجانب بوابات المدرسة. في تلك اللحظة، شعرت بشيء يتورّم داخلي، إحساس بالاشمئزاز والغضب تقريباً، وبدا كلاهما سعيدين جداً بنفسيهما، من دون أن أكون أنا أو يكتا قربهما. شعرت بغضب وغيرة يتملّكانني، وبأنني تعرّضت للخيانة. لكن عندما رأتني هاندان وديمير، لم ألحظ حقداً أو تصرّفاً خبيثاً في سلوكهما على الإطلاق. كانا طبيعيين وودودين جداً، وشعرت بالخجل من تلك الأحاسيس". خالجني شعور بأن يفغينا تراقبني بتركيز. "ماذا؟ قولي شيئاً يا يفغينا، ولا تحدّقي إليّ هكذا فقط".

شبكت ذراعها بذراعي بمحبة.

"لا بأس، لا تغضب كثيراً! أظن أنني بدأت أفهم ما حدث".

"أفصحي من فضلك".

"في تركيا، لا يحب الرجل أن يكون مديناً لأحد أو عالة على الآخرين".

"ولماذا يكون كذلك؟ لكن الأمر مختلف مع الذين نحبّهم طبعاً".

"ليتك تصمت فقط وتصغي يا نوزت...".

"آسف".

"أنا أعرفك. عندما بدأت هاندان، الفتاة التي عرفتها وقتاً طويلاً صديقة لك، تُبدي اهتماماً بيكتا وديمير، تراجعت خطوة إلى الخلف، ولا تنكر ذلك؛ لأن هذا ما فعلته. تراجعت، لكنك فعلت ذلك بمهارة، من دون أن تلاحظ هاندان شيئاً. تغيرت مشاعرك تجاهها، وأرغمت نفسك على

رؤيتها كصديقة فقط؛ ففي مثل تلك المواقف يمكن أن تصبح المنافسة شرسة؛ ولم ترغب في ذلك. الأمر كما قلت، الصداقة أثمن من الحب، وأنت أحببت يكتا وديمير بقدر ما أحببت هانداn، ولم ترغب في أن تخسر أياً منهم".

عندما كانت يفغينا تتكلم، وصلنا إلى القرن الذهبـي. وفيما كانت السيارة القديمة تتقدم على طول الشاطئ، رأينا إلى يسارنا أضواء مراكب الصيد التي أبحرت باكراً تومض من بعيد على المياه السوداء، وضوضاء محركاتها تقعقع في هواء الليل الساكن.

قلتُ ناظراً إليها من دون أن تنتبه: "ليس تفسيراً سيئاً، أم يجب أن نقول تحليلاً؟".

قالت وهي تضربني على كتفي مازحة: "لا تكن ظريفاً يا نوزت، فأنا أتكلم بجدّية".

قلت مبتسماً لها: "وأنا أتكلم بجدّية أيضاً. كان ما قلتِه رائعاً، لكن ما تفعلينه هو النظر إلى الماضي من اليوم، انطلاقاً من نوزت الذي تعرفينه الآن، فأنت تحاولين تحليل سلوك نوزت الشاب من تلك النقطة". أبطأت سرعة السيارة بعد أن رأيت إشارة المرور أمامنا تتحوّل إلى اللون الأحمر. "لكن الحقيقة هي أن نوزت الشاب لا يشاطرني أشياء كثيرة الآن. صحيحٌ أننا ربما نشترك في بعض العادات والخصائص المتشابهة، لكن نوزت الشاب كان أشجع، ومملوءاً أملاً، ومثالياً أكثر مني بالتأكيد، ويثق بالآخرين، ويعيش في عالم أروع. لذا نعم، أنتِ محقة بطريقة ما، فنوزت الشاب يمكن أن يتخلى بسهولة عن فتاة يحبّها صديقاه حقاً، لكن من ناحية أخرى، كان فتى جسوراً ومخلصاً ويعمل بجدٍّ ليثبت نفسه. إذا نظرت إلى الأمر من وجهة النظر تلك، لا يمكنني القول إنه أبعد نفسه عن المنافسة للحصول على اهتمام فتاة". تحول الضوء إلى اللون البرتقالي، فربّتُ على ذراعها. "كما ترين يا يفغينا، بالطريقة نفسها التي قد يكون بها ما قُلتِه صحيحاً، إلا أنه ربما يكون أيضاً بطريقة أخرى خاطئاً. ربما أكون فقط قد أُعجبت بهانداn بوصفها صديقة، وربما شعرت برغبة غير ناضجة حين أدركت لأول مرة أننا، وسأقول هذا بفظاظة، فتى وفتاة ولسنا مجرد صديقين، لكنها لم تتعدَّ ذلك قطّ.

لا أعرف لماذا أقول لك هذا، وأفترض أن لا أحد ينسى أبداً شعوره بتلك الرغبة للمرة الأولى. يكتا وديمير لم ينسيا مثلاً، ولم يتجاوزا تلك المرحلة. أعني، الأمر مفهوم مع يكتا، فقد تزوجها بالمحصلة، لكن ما أحاول

قوله هو...".

جمجمت: "ماذا؟! يكتا وهاندان تزوجا؟ لكنك قلت إن أياً منكم لم يخبرها بشعوره نحوها مطلقاً؟".

"لم نفعل، طوال سنوات، ليس قبل انتهاء الدراسة الثانوية؛ حين تفرّقت بنا السبل. التحق ديمير بكلية الطب البيطري في ألمانيا؛ رغم أن والده أراد منه دراسة الحقوق. في حين انتسبت أنا إلى أكاديمية الشرطة؛ رغم اعتراضات والديّ، وعنى ذلك أنه لم يبق في الديار في بلاط إلا يكتا وهاندان. أنهى يكتا تخرّجه من كلية الهندسة، لكنه لم ينسجم مع الطلاب الآخرين في الكلية؛ لذا قضى جُلَّ وقته في الكتابة، وإرسال قصائده إلى المجلات، ونشر أعماله من قبل دور نشر هنا وهناك، وترك الهندسة المعمارية خلفه تماماً. بقيت هاندان تقطن في الحي؛ وكأنها تنتظر بصبر نتيجة، أو حدوث شيء ما. بعد خروجي وديمير من الصورة، أو بالأحرى بعد ابتعاد ديمير عن الطريق، تقارب الاثنان من بعضهما حتى تقدم يكتا أخيراً لخطبتها".

"وهل قبلت؟".

"ماذا كان يُفترض بالفتاة المسكينة أن تفعل؟ لم تكن لديها خيارات كثيرة، ويكتا هو الرجل الوحيد المتوافر".

"وهل أحبّته؟ هل كان الرجل الذي أُغرمت به كثيراً؟".

فكّرت قليلاً قبل أن أجيب. "لست واثقاً، لكنني أظن أنها كانت تميل أكثر إلى ديمير، ولو استطاعت الانتقاء من بيننا نحن الثلاثة، فأنا أتخيّل أنها كانت ستختار ديمير".

"إذاً، لم تكن لتختار نوزت؟".

قلت وأنا أهزُّ رأسي: "لا، على الأقل لا أظن أنها كانت ستفعل على كل حال".

قالت محبطة تقريباً: "لكن ديمير كان في ألمانيا، وقد تركها ليتابع دراسته".

"الأمر ليس بتلك البساطة. ربما يكون ديمير قد وافق على فكرة والده بإرساله إلى ألمانيا ليبتعد عن بلاط ببساطة، وليتفادى خيانتي وخيانة يكتا، إن لم تكن هناك كلمة أخرى أفضل. ربما سافر ليحافظ على الصداقة بيننا نحن الأربعة".

عندما كنت أتكلم، شعرت بالغضب من يكتا؛ وكأنني في خضم كل الاضطراب والارتباك في أيام شبابنا لم أفكّر في ما جرى على نحو ملائم،

ولم أتوصل إلى الاستنتاجات الصحيحة.

"إذاً يكتا، بطريقة ما، كان الشخص الذي خانكما؟".

على الرغم من أن ذلك بدا صحيحاً، إلا أن الأسى والمعاناة اللذين تعرَّض لهما يكتا جعلاني لا أستخدم كلمة "خيانة" كيفما اتفق، خاصة بعد أن سامحه ديمير كما يبدو عن كل ما جرى.

قلت: "يعتمد هذا على وجهة نظر الشخص إلى الموضوع، وربما أسدى ما فعله خدمة إلى هاندان. كانت أسرتها معدمة، ومحافظة جداً أيضاً. ولو لم توافق على الزواج من يكتا، لكانوا قد حاولوا تزويجها، ربما من رجل سيئ يمتلك أموالاً طائلة. لكن طبعاً، من وجهة نظر ديمير، لم يكن ذلك أفضل شيء في العالم".

"ماذا قال ديمير عن هذا؟".

"ماذا تظنين؟ لم ينبس بكلمة. كان في سنته الثالثة في ألمانيا على كل حال، وكتبا إليه يشرحان كل شيء؛ وكأن ذلك لم يكن كافياً، فقد أرسلا إليه دعوة زفاف".

"و؟".

"لم يرد على الرسالة، أو يذهب إلى الزفاف".

"هل ذهبت أنت إلى الزفاف؟".

أبقيت بصري ثابتاً على الطريق، رغم أنني شعرت أن يفغينا تراقبني وتنتظر مني جواباً. لم أرغب أن أنظر إلى عينيها، لكنني لم أكن قد ذهبت إلى الزفاف؛ ربما لأنني لم أوافق على زواجهما أيضاً.

قلت وأنا أقود السيارة إلى جسر يونكباني: "لا. كنت قد بدأت عملي في السلك، وكنت أخدم خارج إسطنبول، ولم أحصل على إجازة".

شعرت بالسرور لأنها قرّرت ألاّ تعلّق؛ لسبب ما. حدّقت إلى الأمام نحو مياه القرن الذهبي العاتمة التي راحت تلمع وتتلألأ نتيجة انعكاس الأضواء من الشاطئ، في حين تتدفق بهدوء من تحت الجسر وتتموج نحو سارايبورنو. نظرت إلى الحي القديم، فتذكرت الملك بيزاس وتساءلت إن كان اليونانيون الذين لا يزالون يعيشون في إسطنبول يعرفونه؛ الرجل الذي أسّس المدينة... بدا هذا السؤال سؤالاً جيداً يمكن طرحه؛ لتغيير الموضوع والتخلص من عبء الماضي الثقيل، لكن يفغينا لم تكن لتسمح لي بذلك.

"إذاً، كيف سامح ديمير يكتا؟". غَامرَتْ بتخمين قبل أن يسنح لي الوقت للرد عليها. "هل أقامت هاندان علاقة مع رجل آخر؟ هل خانته؟ هل هربت مع رجل آخر؟".

تمتمت بلطف: "لا، لم يكن هناك أحد آخر... لقد توفيت...".

صرخت: "ماذا؟! ياالله يانوزت! أرجوك قل إن هذا ليس صحيحاً".

"توفيت في حادثة قبل ثلاث سنوات، مع ابنهما يوموت".

همست بصوت مرتعش: "يا الله! ذلك... ذلك... فظيع. ياالله! ماذا عن يكتا؟ ماذا حدث له؟".

"جُنَّ حزناً عليهما، وظننا أنه سينتحر، وبقي يتناول عقاقير مضادة للاكتئاب لشهور. لحسن الحظ، عاد ديمير إلى تركيا في ذلك الوقت، وساعد يكتا في الوقوف على قدميه مجدداً. حاولت أن أساعده أيضاً لكن ديمير أفاده أكثر مني".

قالت يفغينا: "لم يكن بمقدورك فعل شيء، فقد كانت هاندان هي التي تجمعهما معاً. حين كانت على قيد الحياة جعلتهما يفترقان، ولكن بعد وفاتها بدا ملائماً أن تتمكّن من جمعهما معاً مجدداً".

وعلى الرغم من أنها تكلّمت بمنطق، إلا أن صوتها غصَّ بالمشاعر.

"أظن أنكِ محقة. أصبحا أفضل صديقين منذ ذلك الوقت، وأقرب من ذي قبل. ألتقيهما بين الحين والآخر، لكنهما لا ينفصلان الآن. وكما قلت، ربما تكون ذكرياتهما عن هاندان هي التي تبقيهما معاً الآن".

"وماذا عن أسرة ديمير؟ زوجته وأولاده؟".

"ديمير لم يتزوج مطلقاً. وكما قلت؛ كان على الأرجح أكثر من أحبّها من بيننا نحن الثلاثة. أصبح طبيباً بيطرياً مشهوراً جداً، وكسب أموالاً طائلة، وأنا واثق أنه خرج مع نساء أخريات وحاول إقامة علاقات معهن، لكن أياً منهن لم تستطع ملْء مكانة هاندان في عينيه. لا أظن أنه عرف طعم السعادة أبداً".

"يمكن رؤية ذلك على وجهه".

"لكنه رجل صالح. ربما يبدو متعجرفاً بذلك المظهر الانعزالي البارد، لكنه رجل جيد. على كل حال، لم يكن يرتاح للناس فوراً، وجعلت قضيةُ هاندان الأمرَ أسوأ، والآن صار يقضي كل وقته مع يكتا. في الواقع، تساءلت أحياناً إن كان يعتني برفيقه ويستمتع بصحبته، أم يسعى خلف ذكرى المرأة التي أحبّها".

قالت يفغينا بلطف: "لا أهمية لهذا الآن. قلت هذا بنفسك؛ كانت دائماً علاقة رباعية الأطراف، ولا يوجد الآن إلا ثلاثة".

سألت بتهذيب: "ماذا يُفترض بهذا أن يعني؟ أرجوك يايفغينا، حاولي أن تفهمي. لم يعد لهذا الموضوع علاقة بـي، وقد تخطيت الأمر منذ وقت

طويل".

"نوزت، الشخص الثالث في تلك العلاقة ليس أنت، وإنما هاندان، ولا تغير حقيقة أنها توفيت شيئاً. في الواقع، إنها تجعلها أكثر إغواءً لكليهما، بعد أن أصبحت خارج متناول أيديهما. لهذا لم تستطع أنت مواساة يكتا في حين فعل دمير ذلك، فكلاهما يعانيان الجرحَ نفسه والألم ذاته؛ لأنهما أحبّا المرأة عينها".

بدا ذلك غريباً. عندما سمعتها تتكلم، شعرت بأنني مرفوض ومنبوذ. لماذا لم أشعر بالأسى نفسه الذي ألمَّ بهما؟ ربما كانت يفغينا محقة، وربما استسلمت - نتيجة خطأ لم يقترفه أيٌّ منهم - لكبريائي وأبعدت نفسي عنهم كل تلك السنين، ثم اتخذت حياتي مجرى خاصاً بها. لكنني لا أزال أرغب في أن أعرف لماذا ينتابني ذلك الشعور الغريب بأنني مُبعد؛ دخيل...

قالت يفغينا وهي تنظر إليّ بحنان: "كنت قوياً يا نوزت، وواجهت المعضلة. اتخذت قرارك، وجعلت حياتك تتلاءم معه".

"عندما كنا هناك كنتِ تقولين إنني الشخص العاطفي...".

"أنت كذلك، لكن ذلك لا يجعلك ضعيفاً. بل على العكس تماماً، يجعلك أقوى".

كان كل ذلك الكلام المتعلق بي وبماضيَّ قد بدأ يزعجني.

"هل سمعت يوماً ببيزاس؟". لم أكن أرغب في تغيير الموضوع فقط والابتعاد عن تلك الأيام الصعبة، ولكنني شعرت بفضول حقيقي لمعرفة إن كانت تعلم بشأنه أم لا. بدت مشوّشة من سؤالي؛ وكأنه فاجأها.

"أتعني الملك بيزاس؟ أتقصد الرجل الذي أنشأ مملكة على الشاطئ قبالة أرض العميان؟".

"إذاً، هل سمعت به؟!".

قالت مرتبكة من دهشتي: "ولماذا لن أسمع به؟ يبدأ تاريخ هذه المدينة برمّتها معه. يبدي اليونانيون اهتماماً به أكبر مما نوليه نحن إياه".

مثير للاهتمام... "لماذا؟ ماذا تعنين؟".

ردّت على نحو طبيعي وعفوي تماماً: "لأن بيزاس كان إغريقياً، في حين أننا رومان".

درع ثيودوسيوس الثاني الحجرية

أسوار القسطنطينية

كان هذا اليوم يوم عرض القوة. اعتمر الإمبراطور الذي كان مرتدياً أفخم ثيابه تاجاً مرصّعاً بالياقوت، وبدا تعبير وجهه رزيناً وفخوراً؛ بفضل الانتصار. بدت على الإمبراطور الذي وضع إحدى يديه على مقبض سيفه والأخرى على عنان حصانه، نظرة فرح طفولية.

كان بصر الإمبراطور ثابتاً على الجدران؛ وتحديداً على بورتا أورا، وعلى تمثال جدّه القائم بين التماثيل فوق البوابة. كان الإمبراطور يحدّق إلى تمثال شبيهه؛ جدّه الإمبراطور ثيودوسيوس الكبير، بقلب مثقل بالأسى. كان جدّه قد حكم روما موحدة، من الغال ووصولاً إلى مصر، في حين لا يحكم هو- ثيودوسيوس الثاني- إلا روما الشرقية. وقد حقق جدّه انتصارات صعبة في حروب عدّة، أما هو فلا يمكنه أن يدّعي تحقيق مثل تلك الانتصارات. كان قد أنجز آنذاك عملاً فذاً وسيخلّد التاريخ اسمه إلى الأبد.

كان الإمبراطور في السابعة من عمره حين اعتلى العرش، وقد تمّت حمايته ومساعدته على بناء الأسوار، كما تمّ توجيهه ورعايته حتى يستطيع حكم مملكته بعدل وكفاءة، وأصبح قوياً حتى يتمكّن من حماية أرضه، ومُنح الذوق الرفيع والرقّة ليجمّل مدينته.

استمر ثيودوسيوس بالتحديق إلى الأسوار التي ستخلّد اسمه. عرف جيداً أن أسوار الملك بيزاس أو قسطنطين لم تكن قطّ ضخمة ورائعة ومنيعة كأسواره، فأسواره ستكسبه وقاراً لم يتمتع به أي إمبراطور آخر، وستجلب له شهرة تفوق شهرة كل الحكّام الآخرين.

بدا أن الإمبراطور يفكّر في الخنادق، وشرفات القلاع والأبراج، وفي تلك القلادة الصخرية التي تزيّن القسطنطينية مثل حجر كريم. كانت الحجارة في تلك القلادة تفوق الألماس في تاج الإمبراطور الذهبـي جمالاً وقيمة. فيما بدا صفّا الأسوار مثل سلسلتين جبليتين تكافح كل منهما للتغلّب على الأخرى. والخنادق... ستغرق أي قوات للعدو ستحاول اختراق الأسوار الأولى في تلك الخنادق، في حين سيقع أولئك الذين لا يقضون غرقاً على الحجارة المدببة على السور الثاني.

كانت هناك مئة وعشرة أبراج مراقبة، وأربع عشرة بوابة، وزنـزانات وسجون لا تُحصى، مع مئات الجنود المتمرّسين بالمعارك والمستعدين للعمل في كل مركز... كان الإمبراطور قد استسلم لكبريائه، وإغواء سلطته، وجوهرة

نجاحه اللامعة، وبوجود تلك الأسوار، جعل هو - فلافيوس ثيودوسيوس - القسطنطينية منيعة وحصينة... سيتعثر الهمجيون، سواء أكانوا هوناً، أو فارسيين، أو عرباً، أو قبائل الكوكوس البدوية، وسيسقطون عند تلك الأسوار... كان اسم ثيودوسيوس محفوراً على الحجارة البيضاء كسوارٍ لهذه المدينة...

كان الإمبراطور غافلاً عن كل ما حوله، ومشغولاً برؤية حلم تحقق؛ فقد تحقّقت أحلامه التي تاق إليها كثيراً. وقف الإمبراطور مرتدياً ثوباً بنفسجياً فخماً، وحدّق بفخر إمبراطور جدير بأسلافه إلى الصرح الذي سيزيد من سمو أجداده وشهرتهم. حدّق إلى بورتا أورا، ألتين كابـي، البوابة الذهبية.

بورتا أورا

كانت الجثة ملقاة تحت السماء السوداء المرصّعة بالنجوم أمام ألتين كابـي، مضاءة بشعاع فضّي من الهلال المتطاول قليلاً. تلقيت اتصالاً مجدداً في ساعة متأخرة من الليل يخبرني بمكان الجثمان المتروك في بقعة مهجورة بين أسوار المدينة القديمة ومقبرة يديكول. مكالمة أخرى، وجريمة ثالثة، ومجدداً في موقع تاريخي في منتصف الليل، ومرة أخرى تُركت قطعة نقدية بين كفّي الضحية.

كنت في طريقي إلى المنـزل بعد أن أوصلت يفغينا. وكانت قد أصرّت على أن أبقى عندها، لكنني عرفت أنني سأغفو بين ذراعيها، لذا ورغم رجائها، ألقيت عليها تحية المساء وغادرت. وفيما كنت أسلك دربـي عائداً إلى داري المتواضعة في بلاط، عرفت عبر مكالمة هاتفية أنه تمّ العثور على جثة أخرى، وبدا واضحاً أنّ القاتل نفسه، لكن الجثمان لم يُترك هذه المرة في مسجد الفاتح أو في قصر توبكابـي- كما تخيّلنا- وإنما أمام ألتين كابـي. لم أكن قد سمعت اسم ألتين كابـي من قبل، وبالنسبة إليّ كان دائماً يديكول: سجون يديكول، وقلعة يديكول، أو متحف يديكول. وأياً يكن الاسم، فقد عنى دائماً تلك الأبراج الضخمة التي شهدت إراقة دماء كثيرة. كانت ألتين كابـي، كما يبدو، البوابة التي تقود إلى الحصن، ما يجعلها في الجوهر مدخل المدينة. وتتكوّن من ثلاث قناطر، وهي أقدم كثيراً من يديكول، وقد بُنيت في أثناء العهد الروماني، وتعدُّ الأكثر زخرفة وبذخاً بين بوابات المدينة وأقواسها، ويستخدمها الإمبراطور العائد بعد تحقيقه انتصارات في الخارج كمدخل له إلى المدينة، ولهذا السبب سُمّيت "البوابة الذهبية". كانت زينب قد زوّدتني بالمعلومات عبر الهاتف، فحاولت اكتشاف سبب عدم ترك الجثة في موقع أو قرب صرح يرتبط بالسلطان محمد الفاتح. أخبرتني عن القطعة النقدية الموضوعة بين كفّي الضحية، وأن الكلمة المنقوشة عليها، كما تميّز، تبدو "ثيودوسيوس".

ثيودوسيوس... المزيد من الأخبار السيئة؛ إمبراطور روماني آخر. كنا قد ركّزنا على محمد الفاتح، لكن يبدو أننا لا نـزال نغوص في العهد الروماني. كم عدد الأباطرة والملوك الذين حكموا المدينة بدءاً من ثيودوسيوس ووصولاً إلى محمد؟ إذا كان القاتل يخطط لاقتراف جريمة مقابل كل حاكم وإمبراطور وملك حكم المدينة، فيجب أن نعد أنفسنا لحمام دم...

كل ما استطعت التفكير فيه، وأنا أحدّق إلى الرجل القصير الأصلع

الريّان الممدد أمام ألتين كابـي، هو كيفية وضع حدّ للجرائم قبل أن تتحول إلى مجزرة على نطاق المدينة. طبعاً، لم يزعج السؤال الرجل ذا البذلة الرمادية والقميص الأسود مفتوح الأزرار حتى الصدر. أما نظرة السكينة والطمأنينة التي بدت على وجهه وهو ينظر إلى القمر فتجعل الناظر يفكر في أنّ القاتل قد منحه هدية رائعة. رفعت بصري إلى الأعلى أيضاً نحو قطعة الفضة التي تكبر وتستعد لتتفتح زهرة كاملة، وتراقبنا من عَل؛ وكأنها تتساءل أيضاً عمّا ستكون عليه خطوتنا الآتية.

"يبدو سعيداً أليس كذلك؟".

كان شفيق هو المتكلم، وكان قد ترك عمله واقترب مني حين رآني أصل، وبدا أيضاً مفتوناً بالنظرة التي بدت على وجه الضحية.

قالت زينب مازحة: "ربما، لكن إذا سألتني عن رأيي، فسأقول إن ذلك يرجع إلى تقلّصات عضلية لا إرادية".

كانت النظرة على وجه الضحية موضوعاً للنقاش، لكن الجرح الغائر الممتد من أحد جانبـي حنجرته إلى الجانب الآخر كان إثباتاً بأنه قد قُتل بالطريقة نفسها التي لقي فيها الرجلان الآخران حتفهما، وقد مُدّد بالوضعية نفسها أيضاً؛ مثل سهم، وساقاه متباعدتان قليلاً، ومعصماه مقيدان فوق رأسه. تذكّرت مقدّر كيناسي، والاتجاه الذي أشارت إليه يداه. لم يكن القاتل يحاول إرباكنا على الإطلاق، فيدا مقدّر كيناسي كانتا تشيران إلى هذا الاتجاه، لكننا لم نستطع اكتشاف الموقع الدقيق. وإلى أين تشير اليدان الآن؟ نحو ألتين كابـي مباشرة، ولكن ليس ألتين كابـي القديمة؛ التحفة الفنية التي تعتبر أهم بوابة في المدينة، لا، وإنما ألتين كابـي المعاصرة: أطلال الحجارة والتراب والرخام.

"من وجد الجثة؟".

قالت زينب: "الخفيران الليليان في المتحف. حسناً، كلبهما بولوت لأكون أكثر دقة". أشارت إلى فسحة واسعة خلف بوابة حديدية. "هناك تماماً، يمكن أن أستدعيهما إن أردت".

"لا، لنذهب إلى هناك بأنفسنا". لكن، كان هناك شيء أردت معرفته قبل أن نذهب. "هل عرفتم هوية الضحية؟".

"اسمه سادان دوروكا؛ إنه صحفي وفقاً لكل الوثائق".

صرخت: "صحفي!". دُهشت. "أنتِ تمازحينني! ما الذي يفعله صحفي في خضم هذا كله؟".

حدّقت زينب إليّ عاجزة عن الرد، لكن "شفيق" أجاب عوضاً عنها.

"لا فكرة لدينا أيها المدير". ومدَّ يده ببطاقة الضحية الصحفية. "خذ، ألقِ نظرة".

كان صحفياً، ويعمل في واحدة من أهم الصحف أيضاً. بدا أن القضية برمّتها تصبح شائكة. فعلى الأقل، كان نجدت دينيزل ومقدّر كيناسي يعملان في اللجنة الاستشارية نفسها، وظننا أننا وضعنا أيدينا على دليل مهم وسنتمكّن من تحديد الضحايا المستقبليين المحتملين والتصرّف قبل القاتل، ولكن بوجود صحفي من ضمن الضحايا بين الموتى لم يعد التركيز فقط على أعضاء اللجنة المكلّفين بمواقع أثرية مجدياً.

"الصحفيون لا ينضمون إلى تلك اللجان الاستشارية، أليس كذلك أيها المدير؟".

قلت وأنا أزرّر معطفي لإبعاد برد الليل الرطب عني: "لا أظن هذا يازينب. لكن، حتى إذا لم يكن مستشاراً أو خبيراً من نوعٍ ما، فسأراهن بأن هناك علاقة ما تربطه بتلك المواقع الأثرية؛ خاصة مع مواقع السلطان أحمد التي كان نجدت دينيزل ومقدّر كيناسي يعدّان تقريراً عنها".

"يجب أن تكون هناك صلة من نوعٍ ما، وإلا فلماذا قتلوه؟".

تبين أن "شفيق" هو المتحدث؛ إذ كان يدسُّ أنفه في قضيتنا مجدداً. كان رجاله الذين يرتدون ثياباً غريبة ويبدون مثل فضائيين أجروا للتو اتصالاً بحضارة قديمة، يبحثون عن أدلّة وبصمات حول الأسوار، في حين يتسكّع هو في المكان ويثرثر بغباء. لم يكن العثور على بيّنة وتقديمها لنا يتطلّب الاستفادة القصوى من قدراته، ويبدو أنه يريد بوضوح أن يكون جزءاً من عملية اتخاذ القرار، ونظراً إلى عجزه عن تحقيق ذلك، فهو يرغب على الأقل في المشاركة في الجانب الإبداعي وجعل بعض أفكاره- إذا كانت لديه أيٌّ منها- مسموعة، لذا تراه يختبر دائماً حدود اللياقة الضرورية وينتهز أي فرصة للتعبير عن رأيه. لكن زينب، طبعاً، ترفض ذلك بلطف ومهارة.

قالت بكآبة: "صحيح، يجب أن ننظر في هذا".

قلت مدركاً فجأة أنني لا أرى الأحمق في أي مكان: "أين علي؟".

قالت زينب وهي تشيح بصرها وتحاول إخفاء قلقها: "إنه في طريقه إلينا ياسيدي". كان شيء ما قد حدث بالتأكيد بين علي وزينب، لكنني لم أرغب في مناقشة الموضوع أمام شفيق.

قلت: "جيد، لنذهب للتوثق من الخفيرين الليليين ولنسمع ما لديهما".

اختلج وجه شفيق، فقد أراد أن ينضم إلينا لكننا مشينا في طريقنا.

كنا نريد منه أن يتابع عملية البحث عن الأدلّة على كل حال، وإلا فستكون تحقيقاتنا مستحيلة تقريباً.

سألتُ زينب حين سرنا بجانب الأسوار العتيقة: "هل عاد كلاكما إلى المنـزل ليلة أمس؟".

قالت زينب متفاجئة من السؤال: "همم، نعم، عدنا أيها المدير إلى المنـزل فوراً".

لم تكن الفتاة تجيد الكذب، فقد ارتعش صوتها وتفادت النظر إلى عينيّ. ولو أنني ضغطت عليها قليلاً فقط لاعترفت فوراً، لكن ذلك سيؤدي إلى تأزّم الخلاف بينها وبين علي، لذا لم أتابع الحديث عن المسألة.

قلت راسماً ابتسامة تحت شاربـي: "هل نعمت بنوم هانئ؟".

"نعم أيها المدير، شكراً لك. عندما رنَّ الهاتف وأيقظني، كنت أشعر باسترخاء ونشاط كبيرين".

"آمل أن يكون علي قد شعر بالشيء نفسه أيضاً".

لم تنبس بكلمة رداً على ذلك، وتابعت المشي. وبعد أن سرنا تحت إحدى القناطر، وصلنا إلى منطقة كبيرة مكشوفة تحيط بها الأسوار الحجرية، واضطررنا إلى أن نغمض عيوننا قليلاً بسبب أضواء الشرطة الساطعة التي كانت تنير كل شيء في الجوار.

تذكرت المكان جيداً؛ فقد استُخدم في الصيف غالباً لإقامة حفلات موسيقية. لكنني لم أتمكن من تخيّل أي احتفالات تجري هناك رغم محاولتي ذلك؛ لأن صورة يديكول بقيت دائماً مختلفة في ذهني. سمعت عنه للمرة الأولى حين كنت في المدرسة الثانوية، إذ قيل إنه مكان مشؤوم، حيث يُسجن النبلاء الأجانب والبارزون وأصحاب النفوذ، ويُعدم الحُجّاب والوزراء. لسبب ما، أثّر فيَّ إعدام عثمان الثاني كثيراً، فقد اعتقل بعض الإنكشاريين السلطان الشاب ثم خنقوه وقطعوا رأسه بمساعدة وزيره. كانت تلك القصص الدموية تعني أن ذكر اسم يديكول لا يثير لدي ولعاً أو اهتماماً كبيراً.

"ها هما أيها المدير، إنهما هناك".

أشارت زينب إلى رجلين جالسين على إحدى الدرَجات المؤدية إلى الأسوار الجنوبية وهما يدخّنان ويتكلمان مع بعضهما، فيما يجلس إلى جانبهما كلب رعي أبيض ضخم، وهو يمدّ لسانه ويلهث. رآنا الكلب نقترب فنهض على قوائمه وهو يُصدر صوتاً يُنذر بالسوء، ووقف الرجلان فوراً بعد ذلك. كان أحدهما أطول من الآخر بقدم على الأقل، وأقوى جسدياً. ألقى

القصير عقب لفافة تبغه على الأرض وأطفأها بقدمه.

صرخ: "اهدأ يا بولوت!". ففعل الكلب ما أُمر به، لكن بدا واضحاً أن الرجل لا يثق بالحيوان كثيراً، لذا تابع توبيخه: "اجلس يا بولوت... اجلس!".

بدا الكلب منـزعجاً لكنه جلس، وبقي بصره ثابتاً علينا.

قلت وأنا أمشي إليهما: "كبير المفتشين نوزت أكّان".

أجاب أقصرهما: "اسمي بهلوان [19] ، وأنا الخفير الليلي في المتحف". كان هزيلاً جداً، وكدت أنفجر ضاحكاً، فقد استحضر الاسم صورة رجل ضئيل تمنّى أن يكون ابنه ضخماً وسمّاه وفقاً لذلك... كان الرجل الواقف خلف الخفير الليلي القصير والذي يدخّن لفافة تبغ يستحق اسم بهلوان أكثر منه.

قلت ناظراً إلى الكلب: "مرحباً يا بولوت". بقيت النظرة المتشككة في عينيه، لكنه تحلّى بالتهذيب ليهزَّ ذيله رداً على تحيتي.

"هل هو كانغال؟".

قال بهلوان بلطف: "لا يا سيدي، إنه كلب رعي أكباش، وأفضل من كانغال".

قلت ناظراً إليه: "إنه جميل بالتأكيد". كان أضخم من بختيار؛ إذ يبلغ ضعف حجمه.

"إنه كذلك يا سيدي. وهو ودود جداً أيضاً، لكنه منفعل قليلاً اليوم".

وصلنا إلى لب الموضوع.

"إذاً، كنتما الشخصين اللذين عثرا على الجثة، هل أنا محق؟".

قال بهلوان شاداً قامته: "نعم يا سيدي، قبل نحو ساعتين. في الواقع، بولوت هو الذي وجد الجثة، ولولا نباحه لما كنا قد عثرنا على شيء". ونظر نحو الأسفل إلى بولوت بفخر. "لا ينبح من دون داعٍ، بولوت هذا. عرف رامز أن هناك خطباً ما حين سمع بولوت".

قال الرجل الآخر وهو يتقدم إلى الأمام: "كنا نقوم بجولة حراسة". كان أصغر من بهلوان بعشر سنوات على الأقل، وظننت أنه من النوع الخجول، لكن تبين لي أنه ليس كذلك. "وعندما بدأ ينبح، عرفت أن الأوغاد قد جاءوا".

"أي أوغاد؟".

قال بحقد: "سارقو الآثار. عُثر قبل شهر أو نحو ذلك على آثار تاريخية في الأسفل في أثناء تمديد خط أنابيب جديد للصرف الصحي، ضمّت جِراراً فخّارية مملوءة ذهباً. كان ذاك المكان الخزينة التي تحتوي

غالباً على بضائع قيّمة".

قال بهلوان: "في أثناء العهد العثماني، كانت مقتنيات الدولة النفيسة تُخزّن هنا، تحت أحد الأبراج. لم تكن تلك الأشياء تبقى هنا طويلاً، إذ سرعان ما تُنقل إلى القصر، لكن ماذا نفعل؟ الناس ماكرون وجشعون، وعندما يسمعون عن ذهب مخزّن هنا، فهم يأتون جماعات، ويحاولون التسلل إلى الأساسات. لذا نهبُّ فوراً إلى العمل، ونطردهم من هناك حين نكتشف ما يجري، وقد ألقينا القبض على خمسة منهم وأرسلناهم إلى السجن، لكن هذا لم يخفهم، لذا نحن على أهبة الاستعداد منذ شهر؛ بانتظار تعليمات أخرى. لم تكن هذه الليلة مختلفة، لكنني غفوت لسوء الحظ، وأيقظني رامز...".

"أيقظته لأن نباح بولوت أزعجني، وعرفت أن شيئاً ما قد حدث. أحس بهلوان بذلك أيضاً في اللحظة التي أيقظته فيها، وطلب مني أن أحرّر بولوت. وعندما أفلتناه، انطلق مثل سهم، فركضنا خلفه، لكننا لم نجد أي سارقي آثار يحملون رفوشاً أو معاول، وإنما جثة قتيل مسكين".

"هل رأيتما أحداً في ذلك الوقت؟".

كان يشعر بإثارة كبيرة جعلته على الأرجح لا يسمع سؤالي، واستمر بإخبارنا عن كيفية عثوره على الجثة.

"هذا غريب؛ أعني رؤية جثة ميت على هذا النحو، ليرحم الله روحه. عندما رأيت تينك العينين مفتوحتين، وقف الشعر على قفا عنقي. بدا ذلك فظيعاً حقاً، وشعرت بالخوف...".

تكلم من دون تكلّف، ودخان لفافة التبغ يخرج من فمه في أثناء تحدثه، لكن تصرّفه أزعج بهلوان الذي كان على الأرجح قلقاً بشأن رد فعل مديره حين يعرف بزيارتنا وما رآه الرجلان. لذا، تململ غير مرتاح حتى لم يعد يتحمّل، فانتزع لفافة تبغ رامز من بين أصابعه وقذفها بعيداً.

وقال بعصبية: "توقف عن تدخين هذه القذارة! أنت تثير الاشمئزاز بالتدخين أمام كبير المفتشين!".

أحنى رامز رأسه خجلاً؛ الأمر الذي لا يمكن أن يلائم رجلاً بمثل حجمه. أطفأ بهلوان لفافة التبغ واستدار إلي مبتسماً. "أرجو أن تسامحه ياسيدي، فهو يافع وأحمق، وقد وصل إلى المدينة من مالكارا للتو، لكنه ليس من النوع الذي لا يحترم الآخرين". كدت أخبره أن هذه ليست مشكلة لكن الفرصة لم تسنح لي، إذ قال محاولاً إنقاذ نفسه: "بشأن قضية الخوف تلك، لم يكن هناك ذعر أو شيء مماثل. الميت لا يمكن أن يؤذينا،

لكن أقول إننا يجب أن نخشى الأحياء. طبعاً، دُهشنا قليلاً حين رأينا الجثة، فقد كنا نتوقع سارقي الآثار أولئك بالمحصلة، وفجأة عثرنا على جثة ميت أمامنا. أُخذنا على حين غرة، أليس كذلك؟ لهذا السبب شعر رامز ببعض الارتباك حين وجدها مصادفة، لكن رغم ذلك، عندما استجمعت شجاعتي...".

سألتُ حين بدأت ثرثرته تثير أعصابي: "إذاً، ألم تشاهدا أحداً أو شيئاً مشبوهاً؟". كنت أتوقع الجواب المعتاد المخيب الآمال: لا، لا شيء أيها المدير، لم نرَ شيئاً حين قال رامز: "كانت هناك حافلة صغيرة".

"أين؟".

أشار نحو ألتين كابي خلفنا.

"يوجد خندق هناك أمام القنطرة مباشرة، حيث قطعة أرض الرجل العجوز موسى، وبعدها تصل إلى مقبرة يوديكول. هناك طريق مخصصة للعموم تمرّ عبر المقبرة، وكانت الحافلة على الدرب الذي يخترق المدافن".

أردت أن أتوثق، فقد بدا ما يقوله مهماً.

"ربما كانت الحافلة تمرُّ على تلك الطريق فحسب. فقد قلت بنفسك إنه شارع عام...".

"قد يكون هذا صحيحاً ياكبير المفتشين. لكن الحافلة الصغيرة كانت متوقفة، وفي اللحظة التي اقتربنا فيها من الجثة، انطلقت مبتعدة. لا تسألني عن السبب لكن بولوت بدأ ينبح حين رآها".

قال بهلوان: "إنه محق. هذا المكان يشبه مشرحة في الليل، لذا يُسمع أكثر الأصوات انخفاضاً. عندما رأينا الجثة، أسرعوا منطلقين. في الواقع، يمكن أن أقول لك إنها لم تشتغل في المحاولة الأولى، واضطر السائق إلى تشغيل المحرّك مرتين أو ثلاثاً قبل أن يعمل أخيراً".

شعرت بإثارة تسري في جسدي. هل حصلنا على شيء ما أخيراً؟

"هل رأيتما رقم لوحة التسجيل؟".

قال بهلوان آسفاً: "أخشى أننا لم نفعل. كان الظلام حالكاً".

كنت قد بدأت أفقد الأمل بهذين الاثنين، لكن زينب ضغطت عليه.

"كيف كانت المركبة؟ قلت إنها بيضاء، هل من شيء آخر مميز فيها؟ ما نوعها وطرازها؟".

"لم تكن مركبة صغيرة، وإنما عربة لنقل اللحم".

لم يكن الصوت صوت رامز أو بهلوان، وإنما صوتاً أعرفه جيداً. بدأ بولوت بالنباح، فاستدرت ورأيت "علي". وكعادته، شارك فوراً في الحديث من

دون أن يصغي أو يعير اهتماماً للتفاصيل.

همهم بهلوان: "بولوت، ماذا قلت لك؟ اجلس! الآن!".

أدرك الكلب أنه لن يحظى بأي شيء الليلة لذا جلس. أما علي فلم ينـزعج من الكلب، أو من نظراتي الفضولية.

"حسناً، شاحنة توزيع. إن أردت إيضاحاً أكثر؛ إحدى مركبات توزيع اللحم التي توجد فيها ثلاجة في الخلف. قسم الثلاجة أبيض، ولهذا ظننتما أيها الشابان أنها حافلة صغيرة".

قلت محاولاً تهدئته لأمنعه من زيادة ارتباك بهلوان ورامز. "لقد وصلتَ إلى هنا للتو، لذا هوّن عليك".

قال بابتسامة كبيرة: "ربما أكون قد وصلت للتو أيها المدير، لكنني عرفت الشاحنة التي كان القتلة يستخدمونها".

عندما رأيت تكشيرته الجريئة، أدركت أنه ربما اكتشف أيضاً دليلاً حاسماً، لكنني أردت معرفة ما قد رآه الخفيران.

قلت وأنا أومئ برأسي وأستدير إلى الاثنين: "سنناقش هذا لاحقاً ياعلي. إذاً، ماذا يمكنكما أن تخبرانا أيضاً عن الحافلة الصغيرة؟".

قال رامز، محدّقاً إلى علي بطرف عينه: "كما تعرف أيها المدير، أشعر ببعض الارتباك من ذلك كله الآن. السيد هنا يقول إنها شاحنة توزيع... مع مجمّدة في الخلف... في حين بدت الحافلة الصغيرة في الواقع صغيرة من الجانب. وحين أفكّر في ذلك...". وصمت متأملاً المكان حوله، ثم نظر إلى بهلوان على أمل أن يهبَّ إلى نجدته. "ما رأيك يازميلي؟".

قال بهلوان متردّداً، ورأسه مائل قليلاً إلى اليمين: "لا أعرف. لأقول لكم الحقيقة، لم نرها بوضوح بسبب شواهد القبور والأشجار، وربما كنا بعيدين، لكن "رامز" محق. بدت حافلة صغيرة". وأومأ نحو علي وتابع قائلاً: "ربما كانت شاحنة مغلقة، وقد يكون السيد هنا محقاً".

دافع ديني

ربما لم يكن محقاً، لكن شيئاً وحيداً بدا مؤكداً؛ وهو أن "علي" لديه بعض المعلومات المفيدة التي أخبرني إياها بعد أن تركنا الخفيرين لتأملاتهما عند أسفل الأسوار.

"لم تكن بالتأكيد حافلة صغيرة، وأخبرك أنها شاحنة مغلقة؛ مركبة نقل مبرّدة، وقد رأيتها بأم عيني أيها المدير. كانت متوقفة أمام شقة عمر في إغريكابـي قبل ساعتين، وشاهدت عمر وشقيقه يخرجان منها".

كان الوضع يخرج عن نطاق السيطرة، فقد طلبت منه أن يذهب إلى المنـزل وينال قسطاً من النوم، ولكن، ماذا فعل؟ خرج في مهمة مراقبة سرية وغير قانونية...

"مهلاً لحظة، هل تخبرني أنك كنت تراقب عمر؟ بمفردك؟".

أجاب بفخر؛ وكأنه قد أنجز شيئاً بالغ الأهمية، بدلاً من أن يشعر بالخجل لأنه تصرّف مثل مبتدئ وعصى الأوامر.

"نعم، راقبت المنـزل المساء كله، لكن الليل انتصف قبل أن...".

"ماذا قلت لك ياعلي؟ ماذا طلبت منك قبل أن أغادر مقر قيادة الشرطة؟".

استدار وحدّق إليّ مرتبكاً. لم يكن يتوقع مني تعنيفاً على جهوده، وعلى قضائه الليل برمّته وهو يقوم بواجبه باحثاً من دون كلل عن مقترف سلسلة من الجرائم. كنا نحن الثلاثة قد توقفنا عن المشي، ونقف على بعد نحو عشرة أمتار عن الصروح التي اعتاد الأباطرة والسلاطين استخدامها لدخول المدينة بعد انتصاراتهم العسكرية.

سأل متفاجئاً تماماً؛ من دون أن يبدو عليه أثر للامتعاض: "ما الذي قلته لي أيها المدير؟".

"طلبت منك أن تذهب إلى المنـزل فوراً وترتاح قليلاً، أليس كذلك يا زينب؟".

لم تجب زينب، لكن "علي" كان لا يزال مقتنعاً بأن تصرّفه يستحق الثناء.

"نعم، لكن حصلت بعض التطورات أيها المدير".

"أي تطورات؟ من المسؤول عن هذه العملية؟ لم أسمع عن أي تطورات، وبقي هاتفي في وضع الاستعداد طوال الليل من دون أن يتصل بـي أحد ويخبرني شيئاً". حدّقت إلى كليهما. "أم إنهم اتصلوا ولم ألحظ

ذلك؟".

بقي بصر زينب ثابتاً على الأرض.

قال علي: "ليتك تصغي إلي فحسب أيها المدير".

"آه، سأستمع إليك فوراً، لا تقلق بشأن هذا أيها الفتى. لكن، دعني أولاً أقول لك إن ما لدينا هنا هو عصيان للأوامر، ولا شيء يمكن أن يبدّل هذه الحقيقة. ذهبت إلى منـزل عمر بمفردك. ماذا لو حدث لك شيء ما حين كنت هناك؟".

ارتسمت ابتسامة ماكرة على وجهه وهو يجيب: "لا شيء يمكن أن يحدث لي أيها المدير".

صرخت: "هراء!". وتردد صدى صوتي في سكون الليل، فرفع الخفيران بصرهما ليشاهدا ما يجري، حتى إن بولوت رفع رأسه بسبب الضجيج. "هراء مطلق! أنت مقتنع تماماً بأنهما قاتلان، وهذا يعني أنهما الشخصان اللذان يقتلان الناس يميناً ويساراً، وتقول لي إن لا شيء يمكن أن يحدث لك! ماذا أنت؟ هل أنت رجلٌ خارقٌ من نوعٍ ما؟ هل تضع تميمة حظ تجعلك منيعاً أمام الرصاص؟ هل تمتلك قوى عجيبة أو شيئاً من هذا القبيل؟ أخبرني ياعلي، لماذا لا يمكن أن يحدث لك شيء؟ ما الذي يجعلك لا تتأذى؟".

التزم علي الصمت من دون أن يعترف بخطئه، لكنه على الأقل تخلّى عن محاولة لا طائل منها للدفاع عن أفعاله. عرفت زينب أنه مخطئ فلم تنبس بكلمة.

"وماذا عنك يازينب؟ كيف سمحت بحدوث كل هذا؟ هل شاركت في الأمر؟ هل تساعدين هذا الأحمق؟ لا بأس، إذاً أنتِ لا تعيرين أي اهتمام لما أقوله، لكن ماذا عنه؟ ماذا لو حدث له مكروه؟ ماذا لو واجه مشكلة عويصة؟ ألم يخطر ببالك أن تتكلمي معه وتجعليه يتحلّى ببعض المنطق؛ بعد أن رأيتِ أنني لم أتمكّن من ذلك؟". تورّدت الفتاة المسكينة خجلاً. "أم إنك كنتِ معه هناك؟ تكلّمي، هل ذهبت معه إلى منـزل ذلك الأحمق اللعين عمر؟".

"همم، حسناً، أردت الذهاب لكن...".

"لم يسمح لكِ لأن الأمر خطر، صحيح؟". استدرت وحدّقت إلى علي. "إذاً، ظنَنتَ أنك ستمشي الهوينا هناك وحدك! أحسنتما صنعاً أيها الشابان! مرحى! وأنا الذي كنت أتباهى بمدى مهنيتكما".

أطبق صمت ثقيل على الساحة القديمة، لكن "علي" تكلم أخيراً.

"آسف ياسيدي، أنت محق. كان يجب أن أخبرك، لكن الأمور تطوّرت بسرعة كبيرة". اهتزت ثقة الرجل المسكين بنفسه. "بدوت مرهقاً ياسيدي، ولم نرد إزعاجك".

"حسناً، لينل الرجل العجوز قسطاً من النوم، أليس كذلك؟".

"طبعاً لا ياسيدي...". حاول أن يبتسم. "ظننت فقط أنه من الأفضل أن أحصل على بعض النتائج الملموسة قبل أن نجعل الأمور أشد تعقيداً مما كانت عليه أصلاً...".

قلتُ رافعاً ذراعيَّ يأساً: "لماذا؟ شكراً ياعلي. لم تفهم شيئاً، أليس كذلك؟ تلك النتيجة الملموسة التي تتوق إليها كان من الممكن أن تكون موتك. أحذّركما معاً، من الآن فصاعداً، أريد أن أعرف بالضبط ما تنويان فعله؛ كل تفصيل. لن تتنفسا من دون إذني، هل هذا مفهوم؟ مفهوم؟".

قالا معاً: "مفهوم ياسيدي". تمتم علي بعد أن رأى تعبير وجهي: "لن يحدث هذا مجدداً ياسيدي". كان يعرف أن غضبي يرجع إلى قلقي عليه وليس بسبب أفعاله، فتصرّفه على ذلك النحو من دون إذن مزعجٌ كفاية، لكن تعريضه نفسه للخطر أمر مرعب حقاً.

قلت متجهماً: "آمل ألا يحدث، حقاً". نظرت إلى الخفيرين وكلبهما، ثم سحبت نفساً عميقاً وملأت رئتيَّ بهواء الليل المنعش. "حسناً، لنذهب...".

تبعاني صامتين.

قلت بعد أن سرنا بضع خطوات، من دون أن أرفع بصري إلى أي منهما: "إذاً، أخبراني عمّا حدث مساء أمس؟".

قالت زينب بندم: "في الواقع، أنا المسؤولة عمّا حدث". لم أعرف إن كانت تساند حبيبها أم تقول الحقيقة لترضي ضميرها. "كنا على وشك مغادرة المختبر، وكان علي قد ارتدى سترته ويقف بانتظاري. كان سيقلّني إلى المنـزل، ولكن لسبب لا أعرفه، قلت إننا يجب أن نُلقي نظرة على ملفات عمر، فوافق. قبل سنتين، قضى عمر سنتين ونصف السنة في السجن بجرم احتيال، لذا تابعنا القراءة وعرفنا بعض المعلومات التي تجعل شعر الرأس يقف. لقد ذهب إلى أفغانستان بجواز سفر مزوّر، لينضم إلى الحرب ضد الأمريكيين. عندما اكتشفنا هذا، اتصل علي بصديقه في مكافحة الإرهاب...".

قال علي متابعاً رواية القصة: "سيزاي كورتان، كنا في الصف نفسه في الأكاديمية. إنه مفوّض في شعبة مكافحة الإرهاب الآن، وعميل ذكي حقاً أيها المدير. لديه ذاكرة لن تصدّقها، ويمكنه أن يكرّر حرفياً أشياء قد سمعها

منذ سنوات طويلة. عندما ذكرت اسم عمر، عرف الشخص الذي أتكلم عنه. سألته إن كان بمقدورنا مناقشة الأمر في وقت ما، ولحسن الحظ كان في مكتبه ولديه متسع من الوقت، فذهبنا إليه فوراً".

قاطعته زينب: "في الواقع، لم يرغب علي في أن أذهب معه، وقال إنني أبدو متعبة وبحاجة إلى بعض النوم، وإنه سيذهب إلى المنـزل فوراً بعد أن يتحدث إلى سيزاي. أصرَّ على ذلك، لكنني شعرت أنني على وشك اكتشاف شيء ما؛ لذا ذهبت معه".

قال علي: "لم يحدث الأمر على هذا النحو أيها المدير، وهي تحاول التستّر علي. أنا المذنب في هذا كله".

توقفت عن المشي ونظرت إلى كليهما، ولاحظت أنهما قد فقدا أي شعور بالتردد وينظران إليّ بحرص وبثقة. يفعل الحب شيئاً غريباً للناس، كما فكّرت في قرارة نفسي، محاولاً ألاّ أضحك.

قلت واضعاً حداً لبيانات التضحية البطولية: "نعم، نعم، أياً يكن. أنتما الاثنان لطيفان ومتهوران مثل بعضكما. الآن، أخبراني بما حدث".

قال علي بحرية آنذاك: "لقينا ترحيباً حاراً من سيزاي، فهو دائماً رجل يمد يد العون إلى الآخرين. كانت ملفات عمر على الطاولة أمامه قبل أن ننتهي من شرب الشاي. على كل حال، يبدو أن عمر هذا قضى نحو ثمانية شهور في أفغانستان، لكنه عاد إلى تركيا واعتُقل عند وصوله. في إفادته إلى الشرطة، قال إنه ذهب إلى هناك للانضمام إلى الجهاد والقتال ضد الأمريكيين، لكنه لم يستطع ذلك؛ لأن مقاتلي المقاومة هناك لم يثقوا به أو يقبلوه في صفوفهم، لذا عاد إلى الديار".

سألتُ وأنا أعرف مدى الارتباط الوثيق بين شعبة مكافحة الإرهاب والأمريكيين: "هل يعرف الأمريكيون عن هذا؟".

قال علي بحيوية أكبر: "كنت سأذكر هذا للتو. عندما عرف الرجال في القنصلية الأمريكية أن عمر قد اعتُقل، اتصلوا فوراً. في الواقع، أثار بعض رجالنا قضيةً من ذلك؛ لذا أرسلوا أفضل خبرائهم وشاهدوا تسجيلات الاستجواب، وتبين أنه في الوقت نفسه الذي كان فيه عمر إكينلي في أفغانستان، اختُطف رائد أمريكي هناك، وعُثر على جثته بعد شهور من ذلك، وقد حُزّت عنقه". توقف وانتظر رد فعلي قبل أن يتابع. "تماماً كما هي حال الضحايا هنا. ولم يكن هذا كل شيء. فوفقاً لتقارير الاستخبارات الأمريكية، كان الأشخاص المسؤولون عن إعدام الرائد مجموعة من الإسلاميين المتطرّفين من تركيا".

ربما كنت مخطئاً بشأن عمر، وأدركت أن القضية بدأت تسلك منحى جديداً تماماً. هل هناك دافع ديني خلف الجرائم؟ هل هناك منظمة دينية سرية متورطة في كل هذا...؟

"هل كان عمر أحد أفراد تلك المجموعة؟".

"يظن الأمريكيون هذا، وطلبوا نقله إليهم لاستجوابه، لكن جماعتنا لم تسلّمه؛ نظراً إلى نقص الأدلّة. إذا جاز التعبير، خضع عمر للمحاكمة ووُجد مذنباً بالاحتيال، ولم توجّه إليه تهم تتعلق بالإرهاب، وحُكم عليه بالسجن لمدّة عشرين شهراً، ثمّ تمّ تخفيض المدة إلى سنة وشهرين".

"ما رأي سيزاي بهذه القضية؟ هل يصدّق عمر؟".

"بالتأكيد لا أيها المدير، فهو يظن أن عمر كاذبٌ. لذا استمعنا بحرص إلى تسجيلاته، ومن حسن حظنا أننا فعلنا ذلك؛ لأننا استطعنا تعرّف شاحنة التوصيل المغلقة التي وصفها الخفيران الليليان. يبدو أننا قد رأينا تلك الشاحنة في مكان ما من قبل".

بدا واضحاً أن إرباك الخفيرين الليليين لم يكن كافياً له، وأنه يبذل قصارى جهده ليشوّشني أيضاً.

"ماذا؟ أين؟ هل رأيتها أنا أيضاً؟".

"نعم ياسيدي".

"أين؟".

قال وكأن ما يبدو غامضاً جداً لي واضح تماماً للعالم برمّته: "أمام متجر جزّاري هاليس". لم تكن لدي أدنى فكرة عمّا يتكلم عنه.

"ما هو جزّاري هاليس هذا؟".

"عمل عمر في الجزارة، والمتجر موجود في الطابق الأرضي من بناء مقدّر كيناسي السكني، هل تتذكر؟ كنا سنتوقف أمامه لكن شاحنة مغلقة بيضاء سبقتنا إلى هناك؟".

كان محقاً، وتذكرت فجأة السائق، بعمامته و "شرواله" [20] العريض.

"هل كان ذلك متجر عمر إذاً؟".

قال باعتداده بنفسه المثير للحنق: "ليس لديه متجر واحد ياسيدي، لديهم خمسة أخرى في أوسكودار، وبيكوز، وأيوب، وأفسيلار، والسلطان غازي. هم جميعاً من إرزينجان. حسناً، كان والدهم عبد الله من إرزينجان، لكن عمر وأشقاءه الأربعة ولدوا جميعاً هنا. عندما طُرد الأب العجوز عبد الله من المنظمة الدينية التي ينتمي إليها، جاء إلى هنا وفتح خمسة متاجر لبيع اللحم، وأفترض أنه يخطط ليترك متجراً لكل ابن".

لم يكن الأب من أثار اهتمامي وإنما الابن. "إذاً، أتقول إن عمر يعمل جزّاراً أيضاً؟".

"في وقت فراغه، حين لا يكون مشغولاً بالدراسة. إنّه الأصغر والأذكى بين كل الأشقاء، والوحيد الذي التحق بالجامعة. ومنذ المدرسة الثانوية، كان يعمل في متجر والده- في مبنى مقدّر كيناسي- في أثناء عطلاته، وقد التقى إفسون هناك. طبعاً؛ لأن كليهما متطرّفان...".

رمقني مجدداً بنظرة تحدٍّ... تذكّرت ما قد أخبرتنا به زينب سابقاً، فقد حُزّت أعناق الضحايا بإتقان وبساطة. أُحدثت تلك الجراح باستخدام أدوات ثقيلة؛ أدوات يحتاج القاتل إلى استخدام يده كلها ليمسك بها، أو نصال بكلمات أخرى. إذا كنا سنأخذ الرحلة المشبوهة إلى أفغانستان بالحسبان، فهذا يعني أن عمر يلائم وصف القاتل، فهو مهتم بالطب، ويمتلك خبرة جزّار، ومشتبه فيه أيضاً في الاشتراك بجريمة قتل بأسلوب يشبه أسلوب الجرائم التي نواجهها الآن. لكن الحقيقة تبقى أن لا دافع لديه ليقتل أيًّا من الضحايا حتى الآن. نعم، كان قد واجه مشكلات مع حميه المستقبلي، ولم تَبدُ إفسون شديدة التأثر بقتل والدها، ولكن لا يعقل أن يقتلا الرجل العجوز لهذا السبب وحده. وعلى افتراض أن مشاعر إفسون تجاه والدها قد استبدّت بها ودفعت عمر إلى قتله، فهذا لا يفسّر سبب قتله عالم الآثار نجدت دينيزل والصحفي سادان دوروكا، أو سبب قتلهم جميعاً بمثل تلك الطريقة الشعائرية ثم تركهم في مواقع تاريخية، بعد وضع قطعة نقدية لها دلالة معينة بين كفّي كل ضحية...

لم يعنِ أيٌّ من هذه التساؤلات شيئاً لعلي الذي تكلم بأسلوب شخص واثقٍ جداً بنفسه ومقتنع بأنه قد حلَّ اللغز نهائياً.

"لكن هذا ليس كل شيء أيها المدير. إذ تمتلك الأسرة مزرعة ماشية كبيرة في تكيرداغ، وتقدم الذبائح لتجار آخرين أيضاً، ولذا لديهم شاحنات التوصيل المغلقة تلك. يمكن أن ينقلوا ذبائحهم في تلك الشاحنات من دون أن تفسد. طبعاً، قد لا يكتفون بنقل اللحوم بواسطتها، ويمكن أن يستخدموها لنقل جثث أموات أيضاً. وكل ما سيحتاجون إليه هو عربة يد؛ مثل تلك التي رأيناها بجانب الرجلين الثملين اللذين تكلمنا معهما في سمبرليتس الليلة الماضية".

كنا نصل إلى شيء ما آنذاك. "كيف تعرف كل هذا؟".

"رأيته بأم عيني". بقيت شرارة التحدّي واضحة في عينيه؛ نظرة تقول إنه يحاول إخبارنا بذلك طوال الوقت. "رأيت عمر بنفسي أمام منـزله في

إغريكابـي. حصلت على عنوانه من سيزاي، ثم ذهبت إليه فوراً بعد أن أوصلت زينب. ركنت السيارة في مكان محجوب عن الأنظار ثم انتظرت. غفوت قليلاً، لكنني استيقظت حين سمعت باب سيارة يُفتح، ورأيت آنذاك عمر وذلك الرجل الذي يعتمر عمامة ويرتدي "شروالاً" يخرجان من شاحنة اللحم نفسها التي رأيناها في ذلك الصباح، واستنتجت أن الرجل أحد أشقّائه. فتحا شاحنتهما، وأخرجا عربة تُدفع باليد ونقلاها إلى المنـزل، وتم ذلك قبل نحو ساعتين".

لم يكن الانتقال من يديكول إلى إغريكابـي يستغرق أكثر من عشر دقائق إلى خمس عشرة دقيقة في هزيع الليل، وقد وجد رامز وبهلوان الجثة قبل ساعتين تقريباً، ما يعني أنه إذا كانت المركبة التي شاهدها الخفيران الليليان هي نفسها التي رآها علي، فإن الوصفين متناسقان من ناحية التوقيت. وإذا أضفنا إلى ذلك القدرة على استخدام سكين بخبرة، أو على الأقل القدرة على حزِّ عنق رجل بمعرفة، ووجود شاحنة التوصيل والعربة، فسيكون عمر هو المشتبه فيه الرئيس. لكن الشكوك راودتني رغم كل تلك المعلومات؛ فعمر لا يزال يفتقر إلى الدافع لارتكاب تلك الجرائم، ويبقى الشك - خاصة مع مثل تلك النتائج - غلطة فادحة...

إغريكابي

من أجل تفادي ارتكاب تلك الغلطة الفادحة، تابعنا دليل علي وانطلقنا بالسيارة إلى منـزل عمر في إغريكابـي. لم تكن لدينا نية تفتيش البيت، ولم نحصل على مذكرة رسمية للقيام بذلك على كل حال. أردت فقط أن أرى الشاحنة المغلقة البيضاء التي زعم علي أن الجثث قد نُقلت بواسطتها.

لم يكن هناك أحد في مرمى البصر في حي إغريكابـي المتداعي، وكانت النوافذ في المنازل الآيلة للسقوط مغلقة، والشوارع مقفرة والصمت يطبق عليها.

كنت أعرف المنطقة جيداً. ففي أثناء طفولتي، كنا نقصد هذا المكان غالباً لنلعب كرة القدم، وكان في ذلك الوقت حيًّا للغجر نوعاً ما، فيه عدد قليل من المنازل والمتاجر وقلّة من الناس. لكن أسطورة كاسيكي إلماسي - ألماسة صانع الملاعق المشهورة التي عُثر عليها في مكب نفايات- وفخامة قصر تكفور، وسجون أنيماس الرهيبة، والبِرْكة الرخامية الغريبة آية زوني المبجّلة ، والمقبرة، إلى جانب الأسوار المحطّمة العتيقة التي تحيط الآن بكل تلك الأبنية الغريبة والرائعة، كانت تمنح إغريكابـي غموضاً كافياً يجعلها مناسبة كساحة لعب للأطفال. كنا نقصدها نحن الثلاثة معاً: أنا وديمير ويكتا، وتنضم هاندان إلينا أحياناً.

لن أنسى أبداً ذاك اليوم الذي ضاع فيه ديمير في ممرات سجن أنيماس الملتوية. كنا قد حذّرناه مراراً وتكراراً من الابتعاد عنا كثيراً، لكنه عقد العزم آنذاك على إظهار مدى شجاعته لنا، ربما ليسجّل نقطة ضدّي فقط. جسدياً، كان يكتا أضعف شخص بيننا نحن الثلاثة، لذا لم يشترك مطلقاً في مثل تلك الأعمال الجسورة التي دارت رحاها بيني وبين ديمير؛ وفي معظم الأوقات فاز فيها ديمير الأقوى والأهدأ مني. عندما نـزلنا إلى السجن وتهنا هناك شعرنا برعب شديد. وكنا نتجادل في ساحة جامع عيواظ أفندي بشأن الذهاب أو عدمه حين اختفى ديمير فجأة أسفل السلالم التي تقود إلى الديماس. لم أظن أنه سيفعل ذلك مطلقاً، واعتقدت أنه سيكتفي بالوقوف هناك عند مدخل الممر المؤدي إلى الزنـزانات فقط، ولكنه لم يعد بعد مرور نصف ساعة، وامتد الوقت إلى ساعة ثم إلى ساعة ونصف ولم يظهر. حينها بدأت هاندان تبكي، فيما وقف يكتا إلى جانبـي مذعوراً. فكّرت في النـزول إلى الأسفل للبحث عن ديمير حين بزغ من

الظلام فجأة، وهو يتصرّف وكأن شيئاً لم يحدث، ويحمل قطعة معدنية صدئة، ويبدو مثل لواء قد أشرف للتو على حملة عسكرية ناجحة.

ضحك قائلاً: "إليكم، لقد وجدت سيف إمبراطور بيزنطي. نبشته من أعماق الأرض".

طبعاً، لم يكن سيفاً على الإطلاق، أو شيئاً من هذا القبيل، ولكنه حظي باحترامنا وإعجابنا بفضل شجاعته، ورغم تهوّره.

قال علي بصوتٍ متوتر أخرجني من سيل الذكريات: "ها هو أيها المدير؛ منـزل عمر إكينلي، إنه يقيم في ذلك المبنى الضخم هناك".

برز البناء المكوّن من خمسة طوابق مثل شبح غريب- أطلال مثيرة للفضول- بين المنازل المتداعية المتناثرة حول الأسوار العتيقة، وذكّرني لسبب ما بمبنى مقدّر كيناسي في كارسامبا. بدا أن البنّائين عديمي الذوق أنفسهم قد شيّدوا المبنيين. وكلما أمعنت النظر أكثر، أدركت أن هذين المبنيين ليسا الوحيدين اللذين يفتقران إلى لمسة جمالية، وأن هناك مئات آلاف الشقق الشنيعة والأبنية المشيّدة بسرعة التي تفتقر إلى صفة معمارية مميزة، وتلطّخ إسطنبول وتتناثر في أرجاء بيئتها.

سألت: "إذاً، أين هي؟". كنت بحاجة إلى التركيز مجدداً على العمل الموكّل إلينا، لا على عيوب الهندسة المعمارية الحضرية.

نظر علي حوله يائساً، ومرتبكاً أيضاً. كان قد رآها قبل عدّة ساعات فقط، لكن لم يعد بمقدوره العثور عليها الآن.

قال مشيراً إلى واجهة المبنى: "كانت هناك ياسيدي، في ذلك المكان". ثم نظر إليّ بتشكك وتابع قائلاً: "ربما اكتشفوا أننا نراقبهم. هذا صحيح، نعم، تباً، لقد رأونا. ليتني بقيت في مكاني وتابعت مراقبتهم...". كان يحاول إقناع نفسه.

قالت زينب وهي تشير إلى فسحة خاوية إلى يمين المبنى: "أليست تلك الموجودة هناك؟".

لمعت عينا علي وهو يجيب: "نعم، تلك هي!".

أوقفنا السيارة على بعد عشرين متراً تقريباً من الفسحة الخالية وخرجنا منها. كانت مصابيح الشاحنة الأمامية مضاءة لكن الظلام حالك، لذا أخرجنا المصابيح من السيارة وتوجهنا إليها. عرفنا من قوائم المرمَيَيْن المؤقتين أن الأطفال المحليين يستخدمون قطعة الأرض تلك ملعباً لكرة القدم، وفكّرت في أنه لن يمضي وقت طويل قبل أن تعمل جرّافات المطوّرين العقاريين الماكرين في الساحة، ويُشيّد بناء مشوّه بسرعة الضوء؛ طارداً الأولاد منها.

عندما اقتربنا من الشاحنة، رأينا ثلاثة كلاب ضالة؛ جذبتها على الأرجح رائحة اللحم النيء. ولم يكن هناك شك في أن مالكي الشاحنة يرمون لها عظمة بين الحين والآخر، وأن هذه المخلوقات المسكينة تنتظر وجبتها المسائية. بدا الفزع على اثنين منها، وكادا يجريان هاربين، في حين كشف الأضخم بينها عن أنيابه وبدأ يهر. وعندما بحث علي عن حجر كبير ليخيفه به، مشيت نحوه بخطوات واسعة.

قلت بحزم: "ماذا تظن نفسك فاعلاً؟ أيها الوغد!". لم يتحرك، لكنه توقف عن الهرير، في حين تراجع الآخران إلى الخلف.

قلت وأنا أتقدم نحوه خطوة أخرى: "ألا تزال هنا؟". وعندما أدرك أنه لن يخيفنا، أطلق بعض الأنّات، ثم انطلق مسرعاً مع صديقيه إلى المبنى المهجور إلى يسارنا؛ بانتظار فرصة أخرى لتناول الطعام.

تذكرت الشاحنة حين ألقينا عليها نظرة أقرب، وتبين لي أنها الشاحنة نفسها التي رأيناها سابقاً في كارسامبا. اقتربت من باب السائق، في حين ذهب علي وزينب إلى الخلف بحثاً عن أي أدلّة. كان الضوء الصادر من عمود الإنارة خلفي يلقي عليها ظلاً، لذا اضطررت إلى التحديق جيّداً لأرى بوضوح. كان أول شيء شاهدته عبارة بسم الله الرحمن الرحيم مكتوبة بالعربية على قرص يتدلّى من المرآة الداخلية، وهناك عبارة أخرى ملصقة على أعلى الزجاج الأمامي من الداخل؛ وكان معناها كافياً لإثبات أن "علي" محق بشأن عمر، ولكنه ليس كافياً لإدانته. لم أميّز الكلمات في البداية؛ لأنها بعيدة جداً، لذا التففت حول الشاحنة وقرأتها من الجانب: يجب أن ينتصر الإسلام؛ حتى إن أُريقت دماؤنا .

تابعت البحث، ورأيت سجادة صلاة من إنتاج أحد المصانع تغطّي مقعد الراكب، وفجوة كبيرة مكان مشغّل الأقراص المدمجة. وجّهت شعاع الضوء نحو باب الراكب، ورأيت عدّة أوراق هناك، وكرّاسات عادية، وكيساً صغيراً تُرك على أرضية الشاحنة - كيساً أبيض بسيطاً - لكن ما أثار اهتمامي هو قطرات الدم على الأرضية. ركّزت بصري لأرى ما يوجد داخل الكيس؛ بدا لي في البداية مثل قطعة خشب، لكنني تبيّنت بعد ذلك أنه مقبض سكين كبيرة، وهي أداة مألوفة بالنسبة إلى شخص يعمل في تجارة اللحوم، وكافية لجعلي أفكّر... كدت أتوجه إلى الباب الآخر لإلقاء نظرة على الكيس عن كثب حين صرخ صوت: "أوغاد!".

استدرت فرأيت رجلاً يحمل خنجراً ضخماً يجري غاضباً نحو علي، يتبعه رجلان آخران وتبدو على الثلاثة نوايا إجرامية. وقبل أن أستطيع

تحذير علي، سدّد الرجل ضربته، ودفع النصل إلى الأسفل. لكن، لحسن الحظ، كان رجلنا قد لاحظ ذلك وتنحّى جانباً بمهارة، ما جعل الخنجر يشق الهواء من دون أن يسبب أي أذى.

قال علي متهللاً: "ليس تماماً أيها الأحمق". ومال إلى الخلف على قدمه اليمنى، ثم وثب إلى الأمام ليسدّد لكمة إلى وجه الرجل، وضحك قائلاً: "هكذا يجري الأمر". تعثّر الرجل لكنه لم يقع، وجهّز نفسه ليرد الضربة حين وجّه له علي لكمات سريعة أفقدته صوابه. توقف مرافقاه للحظة، ثم اندفعا إلى الأمام. وكدت أهبُّ لمساعدته حين شعرت بألم مفاجئ في كتفي اليمنى. عندها، وقع المصباح من يدي وارتطم بباب الشاحنة البيضاء المغلقة فرفعت بصري بسرعة، ورأيت رجلاً يحمل عصا كبيرة بيديه الاثنتين مستعداً لإنـزالها على رأسي، لكنني تمكّنت من إمساك ذراعيه قبل أن يفعل ذلك لأكتشف أنه أقوى مما توقعت. وبدأ الصراع، ولولا أن ثلاثة أعيرة نارية مزّقت جدار الصمت، لكان قد تغلّب علي وحطّم جمجمتي. شتّتت الرصاصات انتباهه، فوقف في مكانه ونظر حوله، لذا انتهزت الفرصة وانتزعت العصا من يديه وضربت بها ركبتيه، فخرَّ واقعاً على الأرض. لكن ذلك لم يكن كافياً؛ إذ كافح ليقف على قدميه، فضربته ضربة أخرى قوية على ظهره؛ الأمر الذي جعله يسقط. ثم شهرت مسدسي، ووضعته على قفا رأسه، واستدرت لأرى ما يجري خلف الشاحنة، وأدركت أن زينب هي التي أطلقت النار؛ لأنها كانت تصوّب سلاحها على الرجلين اللذين هاجما "علي".

قالت بهدوء: "إذاً، أتعيقون عمل شرطة رسميًّا؟".

كان الرجال الثلاثة يرفعون أيديهم في الهواء، وينظرون حولهم مرتبكين. رأيت أنهم لا يزالون يرتدون ثياب النوم، وعرفت أنهم قفزوا من أسرّتهم وركضوا ليروا ما يجري. كان أحدهم مألوفاً جداً لنا- إنه صديقنا عمر- لكنني كنت أكثر اهتماماً بعلي الذي راح يتلوّى على الأرض بعيداً مسافة متر تقريباً عن الرجل الذي هاجمه بمدية.

سألت خائفاً: "علي، هل أنت بخير يابني؟".

قال: "أنا بخير أيها المدير". ووقف على قدميه، ومسح الدم عن شفته التي قد جرحت قائلاً: "لا تقلق بشأني، فلا شيء يحدث للأشرار".

) وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (

كان عمر جالساً إلى الطرف الآخر من الطاولة، ووجهه مضاء بمصباح قوته مئة فولت، فيما كان علي واقفاً ومستعداً خلفه؛ وكأنه فنان دمى جاهز لتحريك لعبته. حدّقتُ إلى فريستنا بصمت، وشعرت بكتفي تؤلمني من الضربة التي تلقيتها سابقاً، لكن كان بمقدوري تحمّل الوجع حتى يمضي الاستجواب قدماً. حملقت إليه؛ عالماً أن هذا لن يخيفه، لكن نظرة الارتباك التي بدت على وجهه سرعان ما بدأت تتحول إلى انتباه. حاول النظر إلى عينيَّ لكنه أدرك أيضاً أن هناك شرطياً خلفه تماماً؛ مستعداً لتوجيه ضربة قوية إلى رأسه في أي وقت. كان علي، على كل حال، يشغل نفسه بمسح الجرح النازف في شفته السفلية، وبدا هادئاً نسبياً؛ ليس لأنه هادئ بطبيعته، وإنما لأنني طلبت منه قبل أن ندخل غرفة الاستجواب أن يحافظ على رباطة جأشه ويسيطر على نفسه.

لم يعد بمقدور المشتبه فيه الشاب تحمّل الصمت المزعج في الغرفة الخاوية الخالية من النوافذ فقال:

"لم أقتل مقدّر كيناسي".

كان صوته واهناً جداً، وبالكاد مسموعاً، فدفع علي رأسه بفظاظة أمام فم عمر.

سأل: "ماذا قلت؟ هل قلت شيئاً؟". سحب عمر نفساً عميقاً وكرّر إفادته.

"لم أقتل مقدّر كيناسي". وحين أمسك علي كتفيه بقوة، اهتز جسد عمر كله رعباً.

قال رجلنا وهو يمسك الكتفين الضعيفتين بقوة أكبر: "لا تخف، فليس هناك ما تخشى منه".

بدا أن عمر يعاني صعوبةً في التنفس. تمتم: "أنا... أنا... لست خائفاً. أنا... لا أخاف أحداً أو، أو... أي شيء باستثناء... باستثناء... الله". واستجمع ما بقي من شجاعته وتابع قائلاً: "أقول فحسب إنني لم أقتل مقدّر كيناسي، وقد ارتكبتم خطأً".

كرّر علي وهو يبدو مستغرقاً في التفكير: "همم، مقدّر كيناسي". ثم انحنى إلى الأسفل، ونظر إلى عيني المشتبه فيه. "مقدّر كيناسي؟ هه، هذه ليست طريقة يخاطب بها المرء حماه، أليس كذلك؟ لو كان لا يزال حياً، لكنت قد خاطبته بالوالد، أليس كذلك؟ الطريقة التي تتكلم بها تجعل أي

شخص يظن أنك تتحدث عن شخص غريب عنك تماماً".

"أنا... أنا... أعني أمكا مقدّر". طرفت عيناه بضع مرات، لتحجبا وهج الضوء الساطع. "لم أقتل أمكا مقدّر".

أفلت علي كتفيه، وأمسك وجهه وأداره نحوه.

"ومن قال إنك فعلت ذلك؟". ارتبك عمر، ولم يعرف ماذا يقول أو يفعل. أبقى علي بصره ثابتاً عليه؛ منتظراً جوابه وكأنه يبذل قصارى جهده ليفهم.

"من قال إنك فعلت ذلك، هه؟".

"لا... لا أحد. إنها مجرد... جئتم بـي إلى هنا... من دون...".

قال علي وهو يترك وجه عمر: "لقد جئنا بك إلى هنا لأنك أعقت ضابط شرطة كان يقوم بواجبه، ثم هاجمته وجرحته".

التمس: "لكن، لم نكن نعرف أنكم من الشرطة، وظننا أنكم لصوص، فقد واجهنا معهم مشكلة سابقاً. سرقوا شاحنتنا قبل أسبوعين فقط وفيها مئتان وثمانون كيلوغراماً من اللحم. لو أننا عرفنا أنكم من الشرطة...".

قال علي: "لكنتم ولّيتم الأدبار؛ ما يعني أننا ما كنّا لنعثر عليكم أو على الشاحنة".

"لماذا سنهرب؟ لم نفعل شيئاً خاطئاً. أقول لك إنني لم أقتله".

سألتُ بتجهم: "إذاً، ماذا عن تيد نيلسون؟".

بدا أنه قد ذُهِل، لكنه استجمع شتات نفسه بسرعة، واستدار إلى الخلف ليتكلم معي. كانت عيناه حمراوين من جراء عدم النوم.

"عذراً؟".

قلتُ من دون أن أحرّك ساكناً: "سمعتني".

"لا، أخشى أنني لم أفهم".

فتحت بهدوء الملف الذي كنت أحمله، والذي حصل عليه علي وزينب من شعبة مكافحة الإرهاب ويحتوي على كلّ المعلومات عنه، وبدأت أقرأ بصوت هادئ لا انفعال فيه.

"تيد نيلسون، رائد في الجيش الأمريكي، اختطفته حركة طالبان في أفغانستان قبل سنتين، وحُزّت عنقه بعد شهر حين كان في الأسر". رفعت بصري عن الملف إلى عمر، ورأيت وجهه أبيض مثل ملاءة. "قُتِل بسكين من النوع الذي عثرنا عليه في شاحنتك. حَزَّ عنقه شخص يعرف كيف يفعل هذه الأشياء".

سأل: "ما علاقة هذا بـي؟". وابتلع ريقه ثلاث مرات بتعاقب سريع.

حذّرت: "لا تلعب معنا ياعمر، لا أظن أنك في موقف تُحسد عليه".

قال وهو لا يزال يحاول أن يتحدّانا؛ رغم خوفه الشديد: "أي ألعاب؟ لا أعرف ما تتكلم عنه؟".

قلت من دون أن أغير نبرة صوتي إطلاقاً: "كنت في أفغانستان".

قال بعد لحظة تردد، حين ظننت أنه على وشك أن ينهار ويعترف بكل شيء: "كل هذا أكاذيب، فأنا لم أذهب إلى أفغانستان مطلقاً".

أشرتُ إلى الملف. "لم تقل هذا في إفادتك قبل سنتين".

ردَّ بعد صمت دام بضع ثوانٍ: "هذه ليست إفادتي، فقد كتبوها بأنفسهم ثم أرغموني على توقيعها. لقد تعرّضت للتعذيب".

لطم علي رأسه. "إذاً، تتهمنا الآن بالتعذيب، أليس كذلك؟ كنت سأنتبه إلى ما أقوله لو أنني مكانك".

قال عمر وقد مال جسده إلى الأمام من جرّاء الضربة: "ليس أنت شخصياً. أعني أولئك الذين جعلوني أوقّع تلك الاعترافات".

بدا من الصعب معرفة إن كان ما يقوله الحقيقة أم لا، فقد يكون ذلك صحيحاً. فمنذ انتشار هجمات القاعدة، بدأت أجهزتنا الاستخباراتية والأمنية تتبنّى خطاً متشدداً نحو من يُشتبه في أنهم مقاتلون إسلاميون. وعلى الرغم من ذلك، كان بمقدور عمر التقدم بطلب إلى مكتب المدّعي العام لإلغاء الاعترافات لكنه لم يفعل. الفتى يخفي شيئاً ما بالتأكيد.

قلت مغلقاً الملف، ومستديراً إلى زميلي الممثل: "أنت تعرف أن هذا غير صحيح ياعمر. أفترض أن هذا يعني أن عملنا هنا قد انتهى، أليس كذلك؟".

"يبدو هذا ياسيدي".

"أفترض أنك كنت محقاً ياعلي، لم يعد لدينا شيء نفعله هنا. متى قلت إن الأمريكيين قادمون؟".

رد: "قال ألفين إنهم سيصلون بحلول وقت الغداء". كان أي ممثل سيشعر بالفخر من الطريقة التي أدّى بها علي دوره. عبست محاولاً أن أتذكر الشخص الذي يتكلم عنه.

"أليس ألفين ذلك الرجل اليهودي؟".

قال الماكر الفائز بجائزة أوسكار صغيرة متجهماً؛ وكأن ألفين موجود فعلاً وهو لا يطيقه. "إنه هو أيها المدير. لا بدّ أنك تتذكره، فهو الرجل أجعد الشعر الذي تشاجرت معه، صاحب اللحية البنية القصيرة". حكَّ ذقنه. "ألم يكن من وكالة الاستخبارات المركزية؟".

"كيف لي أن أعرف ياعلي؟ ربما يكون كذلك. كل ما نعرفه هو أنه قد يكون عضواً في منظمة أخرى؛ شيء بالغ السرية. كل ما أعرفه هو أنهم في كل مكان، وهم مجموعة كريهة جداً".

نظرت إلى عمر بطرف عيني، فرأيت أنه يرهف السمع جيداً، لكن الشك لا يزال موجوداً. لم يكن قد قرّر بعد إن كنا نقول الحقيقة أم نتلاعب به فحسب، وإذا كنا جادّين، فهل يعترف أم يلتزم الصمت ثم يحاول أن يواجه العواقب حين تبدأ العاصفة... بدا أننا بحاجة إلى العمل على الوضع لوقت أطول.

"يا لهم من مزعجين! فهم يأتون إلى هنا ويُصدرون لنا الأوامر في عقر دارنا!".

"تلك هي المشكلة أيها المدير. إذ يظن هؤلاء الأشخاص أنهم يمتلكون العالم كله، لكنك لم تكن سيئاً جداً ياسيدي، وسأقرُّ لك بهذا". توقف وسدّد ضربة قوية أخرى إلى رأس عمر. "ما يزعجني هو أنني لا أعرف إن كان الأمر كله يستحق العناء. ربما يجب أن نسلمهم القضية ونرتاح منهم".

كان الخوف في عيني عمر يتحول ببطء إلى فزع.

قال: "أمريكيون؟!". بدا وكأنه يشعر بالغثيان. "أنتم... أنتم لن تسلّموني إلى... إلى... إلى الأمريكيين، أليس كذلك؟".

"ماذا؟ أنت تفضل الفرنسيين إذاً، أليس كذلك؟". لم يعد علي يمثّل آنذاك، وإنما بدأ يستمتع بما يقوم به. "ماذا تريد منا أن نفعل؟ أنت قتلت واحداً منهم، ليس هنا وإنما في أفغانستان. لقد ذبحت الوغد المسكين، ولو أنك فعلت هذا هنا في إسطنبول، فلربما كان بمقدورنا مساعدتك...". ثم صمت قليلاً؛ وكأنه قد تذكر شيئاً مهماً. "ما رأيك أيها المدير؟ هل سيأخذونه حقاً إلى أفغانستان؟".

قلت غير مبالٍ، وأنا أمعن النظر إلى أظفاري: "لا أدري، على الأرجح سيفعلون هذا بهدف التدريب".

قال علي مازحاً: "أو سيصيبونه بأعيرة نارية تجعل جسده يمتلئ ثقوباً". تسمّر عمر خوفاً. "لماذا تحدّق إليّ على هذا النحو أيها المرح؟ يستطيعون فعل هذا كما تعرف. سيكون الإجهاز عليك في أمريكا أمراً صعباً قليلاً بالنسبة إليهم؛ مع كل ذلك اللغو عن الديمقراطية وحقوق الإنسان. لكن في أفغانستان يمكن أن يُخضعوك للمحاكمة، ويُصدروا حكماً بحقك، ويدينوك وينفذوا الإعدام؛ كل ذلك خلال ثلاثة أيام فقط".

صرخ يائساً، وقد اتسعت عيناه واهتزّت لحيته خوفاً: "لم أقتله! لا

يمكن لمسلم أن يقتل أحداً".

"نعم، صحيح. إذاً، ماذا يفترض بالجهاد و الموت للكفّار أن يعنيا؟".

"أنتما لا تفهمان، هذا مذكور في القرآن". أخفض صوته قليلاً حين رأى أننا نستمع إليه وقال "تقول سورة المائدة:) ... مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا... (. لذا، لا يمكن أن أقتل أحداً أبداً".

سأل علي: "إذاً، لماذا ذهبت إلى أفغانستان؟ هل كنت هناك في رحلة سياحية؟ وفقاً لما أعرفه، لا يوجد شيء يمكن رؤيته في ذلك المكان المقفر".

"ذهبت لأفهم، وأشاهد، وأراقب، وأتعلّم".

قال علي متهكماً: "فعلت ذلك طبعاً من أجل تدريبك الطبي، أليس كذلك؟ لأنه توجد عدّة جامعات مرموقة على مستوى العالم في أفغانستان". ثم تخلّى عن السخرية وتابع قائلاً: "الأمر منوط بك ياأخ عمر. إذا أصررت على هذا، فمن الممكن أن تسوّي القضية مع ألفين من القنصلية الأمريكية".

قال عمر وهو يستدير نحوي ويتوسّل إليّ: "يجب أن تصدّقني ياكبير المفتشين. لا علاقة لي بموت الأمريكي".

قلت بلطف: "لا فائدة ترجى من إنكار ذلك ياعمر". بدوت مثل كبير أسرة متعاطف ويشعر بالحزن من القضية برمّتها. "لكن الأمريكيين يلاحقونك منذ سنتين، ولقد راقبوك حين كنت في الداخل. السبب الوحيد الذي جعلهم يمتنعون عن طلب تسليمك قبل سنتين هو الرغبة في اكتشاف المزيد عن علاقاتك بالمقاتلين. لم يسمحوا لنا بالتدخل، لكنهم استطاعوا جمع معلومات كثيرة عنك وعن أصدقائك في الجبال، إضافة إلى رفاق السلاح، وأسرتك، وطبعاً خطيبتك...".

تمتم وهو يتحرّك واهناً على كرسيه: "إفسون! لا علاقة لها بأيٍّ من هذا...". ظهرت نظرة يأس حقيقية في عينيه. "لا شأن لها بهذا إطلاقاً، وهي التي أنقذتني".

صمت، مدركاً أنه قد ارتكب خطأً، لكن الوقت كان قد فات آنذاك.

قال علي واضعاً يديه على الطاولة: "أنقذتك؟! تابع ياأخ عمر، هل أنقذتك كما تقول؟ أتساءل، ممَّ أنقذتك؟".

"ما عنيته هو أن إفسون أعادتني إلى جادة الصواب، وجعلتني أرى الأشياء على حقيقتها".

صرخ علي: "هراء! وأنت تعتبر نفسك مسلماً!".

"أنا مسلم برحمة من الله. لم أقتل أحداً قطّ، لا مقدّر كيناسي، ولا الرائد الأمريكي".

طبيعيٌّ أن "علي" لم يتأثر بذلك، وكاد يضرب رأس عمر مرة أخرى حين أوقفته.

قلت وأنا أقف وكأنني سأغادر المكان: "اتركه وشأنه ياعلي. إذا لم يرغب في التعاون، فلا يمكننا فعل شيء". كان عمر يراقب كل حركاتي بعصبية، فقلت: "ليكن الله في عونك ياعمر"، ثم استدرت وتكلمت مع علي الذي لم تكن لديه فكرة عن خطوتي التالية: "أعده إلى إخوته في الزنـزانة".

قال علي، متذكراً فجأة تفصيلاً مهماً: "لكن، سيدي، قال ألفين بوضوح إنه يريد إبقاء عمر في زنـزانة منفردة، ولا يرغب في أن يتواصل مع أي شخص آخر حتى يأتي. يريد أن يتكلم معه بمفرده".

قلتُ متظاهراً بالانـزعاج: "بالله عليك! ألا يمكننا على الأقل أن نقرّر مكان احتجاز المشتبه فيهم؟".

قال علي مُحنياً رأسه قليلاً، وممسكاً ذراع عمر: "أنت محق ياسيدي، سأرافقه إلى الزنـزانة فوراً. تعال ياأخ عمر، لنذهب".

قال المشتبه فيه؛ متصرّفاً كما هو متوقع: "مهلاً، انتظر. ياكبير المفتشين، أرجوك...".

"اسمع ياعمر، إذا كنت ستهدر المزيد من وقتنا سدى...".

طرفت عيناه في الضوء الساطع وهو يقول: "لن أفعل هذا ياسيدي. أرجو فقط أن تجلس...". لم أجلس، وإنما نظرت إليه غير مصدّق. "إذا أخبرتكما كل شيء، فربما يمكن أن تساعداني قليلاً؟".

قلت بدهشة زائفة: "إذا أخبرتنا كل شيء؟! إذاً، كنت تُخفي شيئاً عنا؟".

قال مبتسماً ومعتذراً في آنٍ معاً: "أنا لم أقتل أحداً ياكبير المفتشين، لكنني ذهبت فعلاً إلى أفغانستان. صحيح، كذبت عليك. ذهبت حقاً، ولقد كذبت لأنني خفت كثيراً، لكن صدّقني، الأمريكيون يكذبون أيضاً. لا علاقة لي إطلاقاً بالقاعدة أو طالبان. وأعترف، نعم، أردت في وقت ما الانضمام إليهم؛ من أجل القضية والإسلام". نظر إلى علي. "لكن كل ذلك حدث بسبب جهلي، فقد أسأت فهم القرآن الكريم. تقول الآية 35 من سورة المائدة:) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (. أخطأت في فهم معنى الآية، وحرّفته إلى شيء

آخر. كنت جاهلاً، وأحمقَ، لكن الله أوقفني، وأخمد غضبي، وأيقظ الرحمة في داخلي، وبفضل نعمته وحكمته لم أقتل أحداً قطّ".

قلت وأنا أجلس مجدداً: "مهلاً لحظة، ليس بهذه السرعة. عليك أن تسرد ما حصل معك من البداية، ولا تُغفل شيئاً، أريد كل التفاصيل؛ مهما كنت تظن أنها هامشية أو غير ذات صلة بالموضوع". ورفعت إصبعي محذّراً. "وإذا كذبت علي...".

ابتلع ريقه مجدداً قبل أن يتكلم. "أعدك، لا مزيد من الأكاذيب". كان فمه جافاً جداً، وكان يتكلم بصعوبة. سكبت بعض الماء من القارورة البلاستيكية في كوب ورقي على الطاولة وقدّمته له.

قال: "شكراً ياسيدي". وتجرّع الماء كلّه دفعة واحدة.

"هل تريد المزيد؟".

قال وهو يعيد الكوب إلى الطاولة: "لا، شكراً. بارك الله فيك ياكبير المفتشين".

القتيل والقاتل

"عندما اقترب أجله، قال رسول الله النبـي محمد (عليه الصلاة والسلام)، نور العالم، في الحديث القدسي الشريف: يا عبادي إني حرّمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرّماً فلا تظالموا ".

عندما تكلم، لمعت عيناه واهتزت لحيته انفعالاً. استمع علي من دون أن يبدو عليه أي انفعال، وقد شبك ذراعيه ببعضهما، وجلس أيضاً. لا أدري إن كان ذلك يرجع إلى التعب أم الملل، لكنه لم يُشح بصره بعيداً عن المشتبه فيه مطلقاً، وظلّ يراقبه عن كثب، مثل مفترس يتربّص بطريدته. لا بد أن عمر أدرك آنذاك أنه لم يُعجب مساعدي إطلاقاً، لذا خاطبني معظم الوقت.

"لكن، إذا نظرنا حولنا ياكبير المفتشين، فسنرى طغياناً جارفاً. إذ تُراق دماء المسلمين في كل أنحاء العالم، في البوسنة والعراق وأفغانستان".

قال علي؛ مبعداً ذراعيه عن بعضهما: "نعرف كل هذا، أخبرنا فقط بما كنت تفعله في أفغانستان".

"كل شيء في وقته، لكن أولاً من الضروري أن...".

قلتُ وأنا أشعر بأنه يكاد يثور مرة أخرى: "دعه يتكلم ياعلي، اتركه يتكلم".

تابع عمر: "لن أخفي عنك شيئاً. ترعرعت في أسرة متدينة، وكان والدي أحد أتباع الشيخ قدسي زنبار. لم ألتقِ الرجل نفسه قطّ؛ لأنه قضى نحبه حين كنت يافعاً، لكن والدي بقي وفياً لتعاليمه، وربّى أولاده الخمسة وفقاً لتعاليم الإسلام وأركانه. وفعل كل ما بوسعه ليتوثق من أن نصبح جميعاً مسلمين صالحين، وعلّمنا القرآن وأهمية الصلاة والصوم. في رمضان، كان يأخذنا إلى السليمانية، أو السلطان أحمد، أو جامع أيوب؛ لسماع أروع الخُطب وأكثرها إذهالاً. كان هو نفسه مسلماً صالحاً، يقوم بكل واجباته الدينية؛ حرفياً، لكن ما أزعجني هو التالي: هل كان الالتزام بأركان الإسلام الخمسة وشروط الإيمان الستة كافياً في حين يعاني المسلمون في كل أرجاء العالم إلى ذلك الحد؟ هل يكفي ببساطة أن نصلي ونصوم ونؤدي فروض الإيمان الأخرى، في حين يُذبح إخواننا وأخواتنا المسلمون في مختلف أنحاء العالم؟ بدأت هذه الأسئلة وغيرها تستعر في داخلي مثل جمرة. في الجامعة، التقيت رجلاً يدعى "مقصود"، يسبقني في دراساته بسنتين. وكان والده- مثل والدي- عضواً في تنظيم ديني، وهو مسلم ورع لكن أفكاره بعيدة جداً

عن أفكار آبائنا. لم يكن مسلماً هادئاً ومسالماً مثل أبوينا يظنّ أن الإسلام وحده يمكن أن ينقذ العالم، وإنما كان واثقاً أنه لكي يحدث ذلك يجب أن ينضم المسلمون في كل العالم إلى الصراع؛ الجهاد. اعتاد القول: إذا لم نجاهد، فسيدمّر الكافر الإسلام ويبيده ، وإن النصارى واليهود في أمريكا قد وحّدوا صفوفهم لإعلان الحرب على الإسلام. لن أنسى أبداً أننا كنا في أحد الأيام بعد صلاة الجمعة في جامع السليمانية، وقد أبديت إعجابي حينها بالخطّ الذي كتبت به الآيات القرآنية التي تزيّن جدران المسجد، لكن "مقصود" رفع إصبعاً إلى القبة وقال: قام أسلافنا بواجبهم، ونقلوا الإسلام إلى الناس وتركوا لنا كنوزاً نفيسة، في حين أننا قانعون بالاختباء في تلك الأماكن المقدّسة لنعبد الله بهدوء. لكن، هل تعرف ما هي أعظم عبادة؟ قتال الظلم ومقاومته.

وحين ذكّرته بحديث النبي، ردَّ قائلاً: صحيح، لكن الرسول عليه الصلاة والسلام قال أيضاً إننا يجب أن نقاتل الظالم حيث ومتى استطعنا . ثم انحنى ونظر إلى عينيَّ مباشرة. هذا رأيي أنا أيضاً. أقول كذلك- مثل النبي عليه الصلاة والسلام قبلي- إننا يجب أن نكافح الشر، وإن قتال الطغيان ليس طغياناً .

عندما قال هذا، ذكّرته بالآية الثانية والثلاثين من سورة المائدة في القرآن الكريم، التي تقول) ... أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا... (.

سخر منّي حين تلوت الآية، وقال: معرفتك بالكتاب ناقصة أيها الأخ. ليس هذا ما تقوله الآية فقط ، وتابع تلاوتها بنصها العربي الأصلي، ثم أتبع ذلك بترجمة وتفسير بالتركية:

) مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ (.

دُهشت حين فسّر لي مقصود الآية، ولم أكن أعرف إن كان ما يقوله هو الحقيقة أم إن كان يحاول تضليلي. وعندما رأى الشك في عينيَّ، طلب مني الذهاب إلى المنـزل وتلاوة القرآن الكريم مجدداً، وقال: إذا لم تكن تعرف العربية، فاذهب واعثر على إمام يعرفها وسيؤكد لك كل ما قلته. وعلى اعتبار أننا في موضوع سورة المائدة، هناك آية آخرى تقول :

) إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَنْ

يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (.

لم أكن أعرف تلك الآية، وكل ما أعرفه هو أنه جعلني أدرك أنني جاهل تماماً حين يتعلق الأمر بمعرفة القرآن الكريم. وعلى الرغم من أنني لم أُظهر له ذلك، إلا أنني شعرت بخزي كبير. وبعد أن وعدته بأنني سأقرأ الذكر الحكيم مجدداً، أسرعت عائداً إلى المنـزل، وفتحت التفسير التركي للقرآن، ووجدت كل ما قاله مقصود هناك، واضحاً تماماً، وازدادت حيرتي آنذاك.

عندما التقيته مجدداً بعد بضعة أيام في حديقة جامع السلطان سليم، أخبرته أنني قد قرأت القرآن مجدداً إضافة إلى التفسير، وأدركت أن كل ما قاله لي صحيح، لكنه لم ينظر إليّ بحبور، وبدلاً من ذلك تكلم بتواضع شديد:

لست أنا المحق، وإنما الله ربّ العالمين، ورسوله الأمين محمد. وكل ما يمكننا فعله هو أن نعمل بجدٍّ لنكون تابعين مخلصين.

سألتُ: وكيف نفعل ذلك؟ كنا أمام ضريح السلطان سليم. ماذا يجب أن نفعل لنكون تابعين مخلصين؟

فتمتم وعيناه تتقدان: بألاّ نستسلم للطغيان، ونهبَّ لمساعدة أشقائنا المستضعفين؛ لأننا إذا أنقذنا حياة واحدة، فكأننا أنقذنا البشر جميعاً .

بعد ذلك اليوم، بدأت أستمع إلى مقصود باهتمام أكبر، ظاناً أنه يقدّم التفسير الصحيح لأحاديث النبـي.

وفي أحد الأيام، سألني حين كنا جالسين في منـزلي في إغريكابـي: هل زرت قبور الصحابة؟ لم يكن بوسعي أن أكذب، فأنا لم أذهب إلى هناك قط، ولا أعلم شيئاً عن أولئك الأشخاص الرائعين الذين حظوا بشرف معرفة النبـي.

همس: يجب أن نـزور القبور، خاصة ضريحي أبـي أيوب الأنصاري وأبـي سبطي الحضري اللذين التزما بأوامر الرسول، وقادا حصانيهما كل ذلك الطريق لنقل رسالة الإسلام إلى شعوب العالم، وضحّيا بحياتهما من أجل الإسلام من دون أي تردد، بعيداً جداً عن ديارهما وأحبائهما. ينبغي أن تزور ضريحيهما. نقِّ قلبك وطهّره بماء الإيمان والشجاعة .

فعلت ما طلبه مني وزرت الضريحين، وكانا كما وصفهما تماماً. فشعرت بروحي تسمو وقلبـي يخفق.

بحلول ذلك الوقت، كنت ومقصود الذي أصبح مرشدي نلتقي كل يوم

تقريباً، وأضحت كلماته وأفكاره أكثر إغواءً لي. بدأت أصدّق آنذاك أن العبادة وحدها ليست كافية، ووافقت عاقد العزم على اقتراح مقصود بأن نذهب إلى أفغانستان".

أردت اكتشاف مدى صدقه، لذا طرحت عليه سؤالاً ماكراً. "إذاً، ذهبت إلى أفغانستان لتقديم خدمات طبية إلى مقاتلي طالبان كما أفترض؟". لو قال نعم، وكان بمقدوره فعل ذلك ببساطة؛ نظراً إلى كونه طالباً في كلية الطب، لانتابتني الشكوك بشأن صدقه، لكنه لم يفعل.

"لا، أنا، نحن لم نذهب في رحلة لتقديم العلاج، وإنما ذهبنا لنقاتل ضد قوات الشر، وكنت قد تخلّيت عن الدراسة آنذاك. كان لدي هدف جديد يتمثّل في إنقاذ البشرية كلها عبر التقوى والإيمان، بدلاً من الكفاح ببساطة ومحاولة معالجة الناس الواحد بعد آخر".

كان الفتى صادقاً، ويفضي بمكنونات صدره لنا، لكن "علي" لم يتأثر بذلك.

"إذاً، خدعك ذاك الرجل مقصود، واستغلّك بالإضافة إلى حمقى آخرين مثلك في حملة الإرهاب الشخصي الخاصة به".

قال عمر وهو يهز رأسه باكتئابِ رجل لا يفهمه الآخرون: "لم يخدعني، ولم يكذب علي أو على أيٍّ من الإخوة. لم يخطط قط لضربة لا يكون مستعداً للمشاركة فيها، ولم يَدْعُنا قط إلى جهاد لا يكون جاهزاً للانضمام إليه".

سألتُ: "أين مقصود الآن؟".

ردَّ عمر بائساً: "مات. غادر الكهف بعد وقت قصير من رحيلي لينضم إلى مقاتلي المقاومة في كابل. ربط عشرين كيلوغراماً من المتفجرات إلى صدره، وألقى نفسه على قافلة عسكرية كانت تمر في أحد شوارع المدينة الرئيسة، وفجّر جسده إلى أشلاء؛ لكن إيمانه لم يتأثر مطلقاً".

قال علي مستفزًّا إياه: "يبدو من الطريقة التي تتكلم بها أنك توافق على ما فعله. أخبرني، كم حياة أزهق معه؟".

ردَّ عمر قانطاً: "أزهق حياة تسعة وثلاثين شخصاً؛ لقي تسعة وثلاثون شخصاً حتفهم في الهجوم".

"وكم عدد العسكريين بينهم؟".

قال وهو يدير وجهه بعيداً: "لا أدري. نعم، كان هناك مدنيون بينهم، وأعرف أنه فِعلٌ شنيعٌ وبغيض، لكن "مقصود" صدّق أنه يفعل الصواب، لذا مات رجلاً قانعاً؛ رجلاً ذهب إلى حتفه من أجل إيمانه، وما

يظن أنه عادل".

كان التفكير في ماضٍ مثل ذاك قد نال منه، وبدأ صوته يرتعش، لكن مزاج علي لم يكن ملائماً للصفح.

"كيف تعرف أنه مات رجلاً قانعاً؟ هل كنت هناك؟ هل كنت معه؟".

هدأ عمر قليلاً قبل أن يرد. لم يكن يحاول أن يتذكر، وبدا أنه يختبر تلك الأحداث التي اضطر إلى استيعابها كلها مجدداً. "لم أكن هناك، فقد عدت إلى الديار". نظر إلى عيني علي مباشرة وتكلم بوضوح: "عندما فجّر مقصود نفسه، كنت مسجوناً في تركيا".

بحلول هذا الوقت أصبح منفعلاً جداً ولا يمكن أن يكذب.

سألتُ: "لماذا عدت؟ هل وجدت ما كنت تبحث عنه؟".

قال وهو يحني رأسه: "لا أعرف. في طريقي إلى الوطن، ظننت أنني أعود لأنني لم أكن قوياً كفاية، وبسبب شعوري بالخوف. الخجل الذي شعرت به...". خَفَتَ صوته تدريجيًّا حتى تلاشى، وبدا أنه قد نسينا وهو يحاول أن يستجمع شتات نفسه.

"وماذا حصل بعد ذلك؟".

قال وهو يرفع بصره وعيناه تطرفان: "التقيت إفسون".

"التقيتها حين عدت من أفغانستان؟ إذاً، لم تكن تعرفها حين ذهبت إلى هناك؟".

"كنت قد رأيتها عدّة مرات. لكن بعد عودتي من أفغانستان بدأنا نتعرّف ببعضنا؛ حين أُطلق سراحي من السجن لأكون دقيقاً. في ذلك الوقت، كنت في حالٍ يرثى لها؛ فقد كنت انطوائياً، ومنهمكاً بشؤوني الذاتية، ومنغلقاً تماماً على نفسي. لم أكن أذهب إلى المحاضرات، وكنت أقضي اليوم في المتجر في كارسامبا. وفي أحد الأيام، دخلت إفسون لشراء بعض اللحم، وكانت في طريق عودتها من الجامعة وتحمل بعض الكتب. عندما رأيتها تمسك نسخة من كتاب فصوص الحكمة لابن عربي، لم يسعني إلا أن أسأل: أليس هذا هو العمل الذي كُتب بأمر من الرسول؟

فابتسمت وأومأت مجيبة: فعلاً، هذا هو الكتاب الذي كتبه ابن عربي بعد أن ظهر له النبي في الحلم وقال: ياابن عربي، يجب أن تكشف الأسرار التي اكتشفتها للناس . يمكن أن تقرأه إن أردت، تفضل .

استعرت الكتاب منها وحاولت قراءته، لكنه كان معقداً جداً بالنسبة إليّ، واحتجت إلى شخص يشرحه لي، لذا طلبت من إفسون المساعدة

ووافقت. بدأنا نرى بعضنا أكثر فأكثر، وبدا أنها مشيئة الخالق أن يتطور الغرام بيننا في نهاية المطاف، وأعلنّا خطبتنا بعد ذلك بوقت قصير".

قلت: "أخبرتنا أن إفسون قد أنقذتك؛ ممّ أنقذتك؟".

سأل مشيراً إلى القارورة: "هل لي ببعض الماء؟". وتجرّع ما في الكأس قبل أن يتابع.

"كما قلت، عدت من أفغانستان وأنا أشعر بالخزي...".

قال علي، نافد الصبر وقاسياً كالمعتاد: "لماذا؟ ماذا حدث هناك؟".

"الرائد في الجيش الأمريكي...".

طرحت عليه هذه المرة سؤالاً بسرعة: "أتعني تيد نيلسون؟".

"هو، نعم. كنت هناك حين قُتل".

كانت بعض الأبواب قد بدأت تَصِرُّ...

"أسرنا الأمريكي في أثناء اشتباك مسلّح في الجبال، وكان رجلاً ضخماً، طوله متر وتسعون سنتيمتراً تقريباً. اعتاد الرجال حولي القول إنه قاتلٌ قاسٍ، ومسؤولٌ عن موت المئات من إخواننا المسلمين، لكن كل ما رأيته هو أسير الحرب الخائف، والتماس العون في عينيه الخضراوين. حاول أن يكون ودوداً، وأن يبتسم، ويطلب الرحمة بمزيج من الإنكليزية والبشتونية، قائلاً إن لديه ابنتين، لكن الحكم بقتله كان قد صدر آنذاك. على كل حال، كنا ننتظر الهجوم الأمريكي التالي حتى نستطيع إعدامه انتقاماً من اعتدائهم.

جاء مقصود إليّ، ووضع يده على كتفي لينقل لي النبأ السار. قال: تهانينا أيها الأخ، فقد جرى اختيارك لتنفيذ هذه المهمة النبيلة .

عرفت ما كان يتكلم عنه فوراً، وأدركت أنني يجب أن أمسك سكيناً وأحزَّ عنق الأمريكي.

في البداية، لم يخالجني أي شعور بالخوف والتردد، بل كنت سعيداً لأن إخوتي المجاهدين وثقوا بـي، وقد سبق لي أن ذبحت الماشية عدّة مرات من قبل على كل حال؛ لذا أتمتع بالخبرة اللازمة. لا يزال بدني يقشعر حتى الآن عندما أفكر في ذلك.

أخيراً، حانت اللحظة. كان الأمريكيون قد أوقعوا ثلاثة وسبعين مقاتلاً من المقاومة في كمين في ضواحي كابل وقتلوهم؛ رغم أن بعضهم قد استسلموا. رداً على ذلك، كنا سنعدم الرائد.

وقف سبعة منا في ساحة الإعدام، أنا وأربعة رجال- ليمسكوا ذراعي الرجل وساقيه- واثنان آخران؛ ليثبّتا رأسه حين أحزُّ عنقه".

استمعت وعلي إلى ذلك بصمت وذهول.

"وفي اللحظة التي دخلنا فيها الكهف الذي يُحتجز فيه عرف ما سيحدث، فجُنَّ رعباً، وتوسّل إلينا كي نطلق سراحه. آنذاك، تكلم بالإنكليزية فقط، واستجدى والتمس قائلاً إنه قد أُرسل إلى أفغانستان رُغماً عنه، وإن لديه جيراناً مسلمين في فورت هوود في تكساس، ولطالما كان على وفاق معهم؛ لكن عبثاً فعل. كنا نخوض حرباً وهو جندي، وفي الحرب دموع الجندي لا تعني شيئاً؛ أو على الأقل هذا ما كنت أظنه حتى نظرت إلى عينيه.

اقترب منه الرجال الأربعة أولاً فقاومهم، لكنهم كانوا رجالاً أشدّاء، وسرعان ما تغلّبوا عليه. حملوه من ذراعيه وساقيه إلى الطاولة، في حين أمسك الرجلان الآخران رأسه وثبّتاه من أجلي، وهما ينتظران.

مشيت إليه حاملاً السكين، في حين بدأ الرجال بالتكبير: الله أكبر، الله أكبر... لم يكونوا يصيحون، لكنهم كرّروا ذلك بصوتٍ عالٍ كفاية لإخفاء توسلات الأمريكي، وكنت سعيداً بذلك؛ لأن صرخاته أزعجتني. تنحّى أحد الرجلين اللذين كانا يمسكان رأسه جانباً حتى أصل إليه، واستطعت رؤيته آنذاك؛ ممدداً على ذلك النحو أمامي، والشريان في عنقه الذي سأحزّه ينبض بقوة. كان رفاقي قد نفّذوا مهماتهم بإتقان، وكل ما يجب عليّ فعله هو وضع النصل على عنق الرجل وذبحه، كما فعلت مع الحيوانات عدّة مرات.

لكنني لم أستطع. وأتذكر عجزي عن إبعاد ناظريَّ عنه؛ عن وجنتي الرجل المسكين المختلجتين اللتين بدتا مثل ثمرة مشمش متفسّخة. حاولت أن أتجاهله، وأمسكت مقبض السكين بقوة مستعداً لحزّ عنقه، لكنني رأيت عينيه؛ تينك الدائرتين الرماديتين المتسعتين رعباً اللتين ترجوان الرحمة مني. رأيت في تينك العينين ابنتيه الغافلتين عن مصير والدهما المرعب، وهما تلعبان بسعادة في حديقتهما... حاولت أن أنظر بعيداً، وأن أرغم يدي على إطاعة أوامري، لكنني عجزت عن القيام بأي من ذلك، ولم أتمكّن من إبعاد ناظريَّ، أو وضع النصل على عنقه. حثّني الآخرون على ذلك، لكنني وقفت هناك فحسب متسمّراً ومشلولاً؛ وكأن قوة غير مرئية تمسكني بقبضة حديدية. نظرت حولي، إلى الرجال الذين يحدّقون إليّ بدهشة، وأدركت أنه ليس بمقدوري فعل ذلك، فرميت السكين وركضت إلى خارج الكهف، خَجِلاً وفَزِعاً، والدموع تسيل على وجنتيّ. عندما وجدني مقصود أخيراً، عانقته وبكيت. ظننت أنه سيسخر مني، أو يهزأ بـي لما فعلته- أو فشلت في

فعله- لكنه أصغى إليّ حين شرحت له وقال: لم تكن مستعداً، وأحضرناك إلى هنا قبل الأوان . ولم يكن هناك انتقاد أو خيبة أمل في نبرة صوته.

أبعد نفسه عني بعد ذلك، ولم يقترب أحد مني، أو يتكلم معي لمدّة ثلاثة أيام. المجاهدون أشخاص ودودون وكرماء؛ خاصة مع الأتراك، وقبل تراجعي عن تنفيذ الإعدام كانوا طيبين معي، ويشاطرونني أي شيء يملكونه، سواء أكان طعاماً أم ثياباً أم رصاصاً، لكنني لم أعد في عيونهم كما كنت سابقاً، وإنما جباناً. تجوّلت وحيداً تحت السماء الأفغانية الواسعة لمدة ثلاثة أيام، وانتظرت ثلاثة أيام معزولاً في زاوية معتمة من ذلك الكهف في أعلى الجبل الصخري.

أخيراً، استدعاني قائد باكستاني وأخبرني أن عودتي إلى تركيا ستكون أفضل للجميع. شعرت في قرارة نفسي بالبهجة لدى سماعي ذلك النبأ؛ لأنه لم يعد من الممكن بالنسبة إليّ أن أعيش هناك مع أولئك الأشخاص الذين ينظرون إلي بمثل ذلك الازدراء. لم أعد آكل أو أنام معهم، ولم يسمحوا لي بالانضمام إليهم في القتال؛ لأن شجاعتي وإخلاصي للقضية أصبحا موضع شك، ولم يعد بإمكانهم أن يثقوا بـي، لذا لم أعترض على قرار إرسالي إلى الديار".

سأل علي: "وما الذي حصل للرائد الأمريكي؟". كانت الإثارة في صوته قد تلاشت تماماً.

قال عمر ببساطة، مكتئباً: "قتلوه. فعل مجاهد أفغاني كانت زوجته وأبناؤه الثلاثة ووالدته العجوز قد لقوا حتفهم في غارة أمريكية، ما عجزتُ أنا عن فعله... وبعد ثلاثة أيام، عثر الأمريكيون على الكهف الذي يختبئ فيه المجاهدون ودمّروا المنطقة برمّتها بالنابالم".

واجهت وعلي أبشع أفعال القتل؛ الذي يثبت الطبيعة العنيفة للبشر. وعلى الرغم من أننا نمشي بين الموتى كل يوم، إلا أن ما سمعناه عقد لسانينا ذهولاً، وكل ما استطعنا فعله هو الجلوس والإصغاء.

"شعرت بالسعادة في طريق عودتي إلى الوطن. لكن، في اللحظة التي عدت فيها، غمرني شعور بالخزي المروّع الذي استنفد كامل طاقتي مجدداً. لم يكن من الممكن مقارنة مشقة اعتقالي حين اجتزت الحدود، والاستجواب، والضرب الذي تعرّضت له من الشرطة بذلك الشعور الذي يخنق روحي، حتى التقيت إفسون. كانت إفسون هي التي عرّفتني بالطريقة الصوفية وذكّرتني بكلمات نبينا: كن مظلوماً ولا تكن ظالماً ، وساعدتني على إدراك أن الإيمان قضية حب لا قوة، وبفضلها فهمت أخيراً ما يعنيه الإسلام؛

السلام والخنوع".

توقف ونظر أولاً إلى علي ثم إليّ.

"كما تسمعان أيها السيدان، ليس بإمكان إفسون أو أنا أن نقتل أحداً، سواء أكان تيد نيلسون أو مقدّر كيناسي، وأرجو من الله العلي القدير أن يرحمهما. لقد اخترنا أن نكون القتيل لا القاتل، وعدونا ليس الأشرار وإنما الشر نفسه، لا الطغاة وإنما الطغيان ذاته. إن أي عقيدة تضمر شراً أو حقداً محرّمة علينا، وهي ضد إيماننا. تقول الآيتان الحادية والعشرون والثانية والعشرون من سورة الغاشية:) فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ (. ليس لنا حق في إزهاق أي روح، وهذا بيد الله وحده، واهب الحياة".

برك دم

قال علي غاضباً وهو يجلس على الكرسي إلى الطرف الآخر من الطاولة: "لله وحده حق إزهاق الروح". كان ينفّس عن غضبه الذي بقي يعتمل داخله في أثناء إصغائه إلى عمر بصمت. "الطريقة الصوفية! التفسير الحقيقي للقرآن! ياله من هراء!".

كنا قد أرسلنا عمر إلى الزنـزانة لينضم إلى أشقّائه قبل نصف ساعة تقريباً، وكان علي يشعر بخيبة أمل من حصيلة الاستجواب، فيما عمر لا يزال قلقاً، ولديه انطباع بأنه سيُسلّم إلى ألفين. كانت لا تزال لدي شكوك بشأن ذنبه لكنها ليست كافية لتهدئة مخاوفه أو إطلاق سراحه. وكل ما أخبرته به- بين احتجاجاته- أننا سنعيد تقويم الوضع، لكن "علي" لم يقبل ذلك، وظنَّ أننا يجب أن نعامل عمر ببعض القسوة. في الحقيقة، بدا منـزعجاً مني لكنه لا يستطيع صبَّ جام غضبه على مديره، لذا ركّز على المشتبه فيه بدلاً من ذلك.

قال أخيراً؛ غير قادرٍ على التزام الصمت: "لا ينبغي أن نتركه يفلت بهذه السهولة. لقد نـزل إلى الزنـزانة وهو ينام الآن قرير العين. كان يجب أن نضغط عليه أكثر قليلاً أيها المدير، كما فعل الشباب في مكافحة الإرهاب. لم يشعر الرجل بأي خوف منا، وبدا الأمر بالنسبة إليه مثل دردشة ودّية في مقهى".

قلت محاولاً طرد النعاس من عينيَّ اللتين تؤلمانني: "لم نكن لنحصل على أي شيء لو أخفناه ياعلي. لو أن ذلك صحيح، لتمكّن الشباب في مكافحة الإرهاب من الحصول على شيء منه، فهم يعرفون كيف يجعلون المشتبه فيهم يعترفون، أفضل مني ومنك. وقد أدلى بالإفادة نفسها التي أدلى بها أمامهم". مِلتُ إلى الخلف قدر المستطاع لتخفيف الألم الذي أشعر به في ظهري، والذي بدأ يزعجني حقاً آنذاك. "وعلى كل حال، بدا لي صادقاً، ولن أُدهش إن تبين لاحقاً أنه يقول الحقيقة".

ردَّ علي، عاضاً شفته السفلية: "أشك في ذلك، فهو يحاول خداعنا. تذكّر فقط الطريقة التي تكلم بها بإعجاب عن ذلك الشرير مقصود. فهو يظن أن الرجل بطل، في حين أنه في الحقيقة همجي؛ شخص يقتل أناساً أبرياء بسعادة". تنهّد محبطاً وتابع: "لا أيها المدير، عمر هذا يحاول تضليلنا، وربما يكون قد قتل مقدّر كيناسي تلبية لنداء جماعته؛ حتى يستطيع استخدام ثروة الرجل لتمويل عملياتهم. لا أعرف الطريقة، لكن

الجرائم الأخرى مترابطة بطريقة ما. آسف ياسيدي، لكن أخشى أنني سأختلف معك بهذا الشأن، فعمر هذا يكذب علينا، ويسخر منا، وهو والله يضحك علينا".

مرة أخرى، كان قد توصّل إلى استنتاج بمفرده، وكدّس شكوكه وارتيابه، ثم استسلم لثقلها. بدت طريقته جيدة لتطوير حبكة في قصة، لكنها ليست ما نحتاج إليه للعثور على القاتل. ولم أكن عند الرابعة صباحاً في حال ملائمة للجدال معه، فقد كنت مرهقاً وضوء النيون يحرق عينيّ والألم في ظهري يصبح أسوأ بمرور كل ثانية.

قلت محاولاً إقناعه للمرة الأخيرة: "أنت تقول هذا ياعلي، لكنه على الأقل اعترف بمعلومات لم يستطع رجال مكافحة الإرهاب الحصول عليها منه".

"بماذا اعترف؟".

دخلت زينب وهي تحمل ورقة تقرير في يد، وكيساً شفافاً يحتوي على السكين التي عثرنا عليها في شاحنة التوزيع في الأخرى.

"هل استطعتم تعرّف بقع الدم على السكين يازينب؟".

"نعم ياسيدي. لسوء الحظ، إنه دم حيوان".

لم أُدهش على الإطلاق، لكن "علي"، الذي كان لا يزال مقتنعاً تماماً بأن عمر مذنب أُصيب بخيبة أمل.

"هل أنت واثقة يازينب؟ هل أجريتم الاختبارات الصحيحة؟".

قالت وهي تسلّمه التقرير الذي كان عبارة عن صفحة واحدة: "آسفة ياعلي، اختبار المناعة مؤكَّد".

مال وأمعن النظر إلى التقرير؛ رغم أنه مثلي لا يفقه شيئاً حين يتعلق الأمر بالمصطلحات العلمية والتقنية.

قال وهو يرفع بصره: "يبدو هذا. لكن، ربما يجب أن نتوثق من تلك الشاحنة مجدداً. إذا كان عمر وأشقاؤه هم القتلة، فلا بدّ أنهم نقلوا الجثث بواسطتها".

كان محقاً بشأن التوثق من الشاحنة؛ لأن هذه هي الطريقة الوحيدة التي يمكن أن نتحقق فيها إن كان عمر مذنباً، لكننا لفعل ذلك بحاجة إلى مذكرة من مكتب المدّعي العام. فعلاً، كنا بحاجة إلى إذن رسمي لتحليل الدم الذي وجدناه على السكين أيضاً، لكن إذا تقدمنا بطلب عبر القنوات القانونية المعتادة، فسيستغرق الحصول على التفويض الضروري وقتاً طويلاً جداً، وقد يتلف دليل حاسم في القضية، لذا مضينا قدماً بالتحليل

وتركنا الإجراء القانوني حتى الصباح. على كل حال، لم يكن التوثّق من الشاحنة البيضاء شيئاً تستطيع زينب أن تفعله بنفسها. إذ يجب جمع فريق من الخبراء؛ ما يعني توسيع نطاق العمل، والتقيد بالقوانين حرفياً. بعد أن نحصل على إذن من المحامين، يمكن أن نرسل فريقاً للتوثق من مؤخر الشاحنة.

سألتُ: "بالمناسبة، أين الشاحنة؟ في مكان آمن كما آمل؟".

ردّت هامسة وقد بدا عليها الإرهاق: "إنها في موقف السيارات في الخلف. لم يصعد شخص آخر إليها، فالمفاتيح معي".

"جيد. أعيدي هذه السكين إلى حيث وجدتها في الشاحنة، وخلسة يازينب. لا تدعي أحداً يرى ما تفعلينه".

"سأفعل ياسيدي".

"أول شيء سنفعله في الصباح هو الحصول على مذكرة التفتيش تلك من المدّعي العام، والتوثق من مؤخر الشاحنة".

"كما تشاء ياسيدي. سنبدأ العمل عليها في اللحظة التي نحصل فيها على المذكرة". توقفت وسحبت نفساً عميقاً. "أظن أنها ستكون مهمة صعبة، فالشاحنة مغطاة تماماً بما يبدو على الأرجح دم حيوان، ويجب أن نعثر بطريقة ما على قطرات الدم البشري في تلك البركة ونتعرّفها".

سألتُ وأنا أمدُّ يديَّ إلى الطاولة وأنهض عن الكرسي: "ليس لدينا خيار آخر يازينب. ربما يكون الدليل الذي سيحلُّ هذه القضية موجوداً في مكان ما في تلك البركة من الدماء".

أشرق وجه علي الذي كان لا يزال مقتنعاً أن عمر هو الرجل الذي نبحث عنه، من احتمال تقديمه إلى العدالة أخيراً.

قلتُ متجاهلاً نظرة التشوّق على وجه علي: "اجمعي فريقاً جيداً يازينب. استدعي كل العاملين في المختبر إن لزم الأمر، ولا أريد أعذاراً أيضاً. إذا حاولوا إثارة مشكلات، فزوّديني بأسمائهم، وسأتكلم معهم. الآن، أضحت هذه المسألة أولوية".

قالت: "لا تقلق ياسيدي. إذا كانت هناك قطرة دم بشرية واحدة في تلك الشاحنة، فسنعثر عليها".

"لا يازينب، لن تعثروا عليها، بل سيعثرون عليها. اتركي الفريق يتعامل مع الشاحنة، ويمكن أن تجعلي شخصاً ما يتولى مسؤولية ذلك. أريدك هنا معي، ويجب أن نكون مستعدين لأي تطوّرات. يمكن أن يحدث أي شيء، وفي أي وقت".

قالت بجدّية، ولكن بإحباط أيضاً: "كما تريد ياسيدي".

ابتسمتُ وحاولت إخفاء إحساسي بالحرقة في عينيَّ والألم في ظهري. "جيد. الآن، لنذهب وننَلْ قسطاً من الراحة. أنا مرهق، ويبدو كلاكما في حال يرثى لها أيضاً. يجب أن ننام قليلاً، وإن يكن لبضع ساعات فقط".

لم يكن علي سعيداً بسماع ذلك، ولو أن الأمر تُرك له، لأرسل فريق المختبر فوراً للعمل على شاحنة اللحم، في حين ذهب هو لاستجواب عمر، والضغط عليه حتى يحصل على اعتراف موقّع يُغلق القضية. لكن، إلى جانب ضرورة إقناع أي محكمة بصحة الإفادة، سيعلن مكتب المدّعي فوراً أن الاعتراف باطل؛ لأنه انتُزع تحت التهديد. فضلاً عن ذلك، كان الحصول على مثل ذلك الإقرار بالذنب ثم إعلانه لاغياً يعني العودة إلى المربع الأول، وبدء التحقيق من جديد، وسنكون هذه المرة الأشرار بكل وضوح.

سألتْ زينب حين كنت أرتدي معطفي: "ماذا كنتما تقولان سابقاً عن الاعتراف؟ من الذي كنتما تتكلمان عنه؟".

"عمر. إنها قصة طويلة، ويمكن لعلي أن يزوّدك بالتفاصيل في طريقكما إلى منـزليكما". حدّقتُ إلى كليهما مهدداً. "وهذه المرة أعني أن تذهبا إلى منـزليكما مباشرة، ولا أريد أي أعمال من خلف ظهري. لدينا عمل كثير يجب أن ننجزه غداً، وإذا حاولتما فعل أي شيء، فستجدان نفسيكما في موقف صعب؛ وأعني أنه سيكون صعباً جداً. الآن، اخرجا من هنا واذهبا إلى بيتيكما!".

جروح الروح

أيقظتني أشعة الشمس التي كانت تتلألأ عبر النوافذ، واستدرت بسرعة لأنظر إلى الساعة على الطاولة بجانب السرير، ولأتوثق من أنني لم أستغرق في النوم كثيراً. لحسن الحظ، كانت لا تزال تشير إلى الثامنة. ورغم قلّة ساعات النوم التي حظيت بها شعرت بالنشاط. لكن، ما إن جلست حتى صرخت من الألم الذي شعرت به في ظهري. لم يكن الألم سيئاً كما توقعت، وعرفت أن الغسول الذي استعملته قبل أن أخلد إلى النوم أفادني قليلاً، وأصبح شعوري أفضل بعد أن حلقت واغتسلت.

توقفت عند مطعم عارف أسطه؛ لأشكره على الوليمة التي حضّرها ولأدفع حسابـي. عندما رآني، جهّز لي الفطور وجلسنا نأكل معاً. وفي أثناء تناولنا الطعام وتبادل أطراف الحديث، دخل أيهان الحلاق وهو يبدو حزيناً جداً.

قال من دون أن يكلّف نفسه عناء مسح دموعه: "لقد توفي الرجل العجوز ياني. وجدوا جثته في منـزله، لقد مات منذ أكثر من أسبوع ولم يلحظ أحد ذلك! ما الذي أصبح عليه هذا العالم؟ ماذا حدث للجيران الطيبين والوعي المجتمعي؟ سينتهي الأمر بنا جميعاً بالموت في منازلنا ونحن وحيدون، ولن يعرف أحد بموتنا حتى تفوح رائحتنا الكريهة".

قال عارف وهو يمسح الشاي عن شاربه الكث بقفا يده: "لا تقل هذا ياأيهان، لا تزال هذه منطقة جيدة، في حين لا يعرف الناس أسماء جيرانهم في بعض أحياء المدينة. السبب الوحيد لعدم معرفة أحد بموت ياني المسكين هو أنه عاش وحيداً، ولم يكن يوجد أحد في منـزله ليعتني به؛ هذا كل شيء".

كنت قد عرفت الرجل العجوز ياني جيداً. إذ كان يمتلك ورشة في بلاط في غابر الأيام، قبل أن تنتقل كل المسافن إلى بنديك. عندما كنا نعطش بعد أن نلعب كرة القدم في ساحة الكنيسة بجانب ورشته، كنا نشرب من نافورة في محله، ولم يشتكِ منا قطّ أو يصرخ علينا مطلقاً. كل تلك السنوات، دخلنا منـزله وخرجنا منه ولم يصرخ علينا قطّ أو يطلب منا أن نغرب عن وجهه.

اعتادوا القول إنه غير سويّ؛ نظراً إلى أنه لم يتزوج مطلقاً. لكن، لم تكن لديّ أي فكرة إن كان ذلك صحيحاً أم إن كانت مجرد شائعات مغرضة من أشخاص مستهترين.

قلت وأنا أضع يدي على ذراع أيهان: "ليرقد بسلام، كان رجلاً طيباً".

تمتم عارف بصوت متهدّج: "رحمة الله عليه. كان شخصاً جيداً، وأفضل كثيراً من أولئك اللصوص والمحتالين الذين يجرؤون أن يدّعوا أنهم مسلمون. طيّب الله ثراه".

تركتهما لحزنهما ومشيت عائداً إلى سيارتي، وكدت أركبها وأنطلق بها حين سمعت صوتاً مألوفاً.

"صباح الخير يانوزت. ماذا تفعل هنا؟".

كان يكتا، وبدا مرهقاً مثلي تماماً، وأدركت أنه تابع احتساء الشراب مع ديمير حتى وقت متأخر من الليل بعد أن غادرت مع يفغينا.

"صباح الخير يايكتا، كنت في مطعم عارف، أتناول طعام الفطور".

قال محدّقاً إلي بدهشة: "هذا رائع!".

"لماذا؟ ما الخطب؟".

"ما رأيك؟ تتناول الفطور مع عارف، ولكنك لا تزعج نفسك بزيارتنا؛ ونحن جاراك تقريباً".

ضحكت وأنا أضع يدي على كتفه: "كنا معاً مساء أمس".

سأل وهو لا يزال عابساً: "ماذا؟! هل نحن مملّان إلى هذا الحد؟ هل انقضى ذلك الوقت الذي لم نكن نبتعد فيه عن بعضنا قطّ".

أجبت، سعيداً في قرارة نفسي من شكواه التي تعني أنه لا يزال مهتماً بـي: "هل هذا ما قلته؟ أنا لم أرغب فقط أن أفرض...".

"تفرض نفسك! هذا رائع حقاً. العذر أقبح من الذنب!".

وقفت هناك فحسب، وأنا لا أدري ماذا أقول؛ منتظراً بارتباك استمرار اللوم، لكنه ابتسم بمكر.

"يا الله، كانت شهيتك جيدة أمس!".

"حسناً، بفضلكما أكلت ملء بطني".

ضحك بمرح ثم فتح باب السيارة قائلاً: "تعال، نحن في عطلة".

"ما الذي تتكلم عنه؟ يجب أن أذهب إلى العمل".

"انسَ العمل. لن تكون نهاية العالم إذا تأخرت ساعة. فعلاً يانوزت، لِمَ لا تأتي لتناول الفطور؟ أنت أعزب؛ مثلي ومثل ديمير...". ظهرت تكشيرة فجأة على وجهه. "طبعاً، يجب أن تفكر في يفغينا، لكن...".

"أرجوك يايكتا، الأمر لا يتعلق بها. أنا... لا أدري. لم يخطر ذلك ببالي قطّ، ولم أكن أعرف حتى أنكما تتناولان الفطور معاً كل يوم".

قال: "لأنك لم تسأل مطلقاً. تفضل، اركب"، وضربني على ظهري

بحماسة، ما جعلني أصرخ ألماً.

"ماذا؟ ماذا حدث؟".

"لا شيء. تلقيت ضربة قوية في الليلة الماضية؛ هذا كل شيء".

"أنا آسف ياصاحبي. كيف كنت سأعرف؟".

قلت: "لا تقلق، سيزول الألم بعد بضعة أيام".

"ماذا حدث بالضبط؟ كان الليل قد انتصف تقريباً حين غادرت ويفغينا في الليلة الماضية".

"حدث ذلك آخر الليل. في الواقع، كان الصبح على وشك أن ينبلج آنذاك".

"هل تقول الصبح؟! أتعني أنك عدت إلى العمل بعد أن غادرت منـزلنا؟".

"ماذا عساي أفعل يايكتا؟ هذا جزء لا يتجزأ من عملي".

"لا تقل لي إن هناك جريمة أخرى".

قلت متنهداً: "وماذا غير ذلك؟". كان سيرهف السمع لو أنني أخبرته التفاصيل، لكنني لم أرغب في أن أفسد مزاجه؛ خاصة في الصباح الباكر. "انسَ الأمر، ودعنا لا نتكلم عن هذا. إذاً، إلى أين سنذهب؟".

قال وهو يتحرك إلى باب الراكب: "إلى أين تظن؟ إلى منـزل ديمير".

كانت ساعتي تشير إلى التاسعة تقريباً، ويجب أن أكون في مقر قيادة الشرطة. لكن، بغض النظر عن رغبتي في الوصول إلى هناك، أردت أيضاً سماع ما سيقولانه عن يفغينا. كان بمقدور علي وزينب تدبّر أمرهما بمفردهما لبعض الوقت على كل حال.

قلت بإثارة: "حسناً، لِمَ لا؟"، وركبت السيارة. بدا الأمر مثل الأيام الخوالي حين كنا نهرب من المدرسة لنلعب كرة القدم. "لنذهب".

يستيقظ ديمير باكراً دائماً؛ قبل شروق الشمس، ويعمل حتى منتصف النهار، ثم يتناول الغداء، وينام ساعة قيلولة قبل أن يعود إلى العمل. كان الرجل الأكثر تنظيماً وانضباطاً على قيد الحياة. ولا يتعلق الأمر بإقامته في ألمانيا؛ فقد ولد على تلك الحال. ربما يُعزى السبب إلى والدته، فبفضلها بقيت كتبه منظّمة دائماً، ودفاتر ملحوظاته مفهرسة ومرتّبة على الدوام، ورداء عمله نظيفاً، وياقاته منشّاة على نحو أنيق؛ كانت امرأة شديدة التدقيق في التفاصيل، لكن الزهايمر أصابها في سن مبكرة. كان العم بنيامين والد ديمير رجلاً صارماً- اعتاد ديمير أن يخاف منه- لكنه لم يتخلَّ عن الأمل يوماً واعتنى بزوجته إلى النهاية؛ حتى حين لم تعد تدرك ما يجري

حولها. لم يبدُ أن ديمير قد تأثر على الإطلاق، سواء أكان تأثره بحال والدته أم بحنان والده، واكتفى بالمشاهدة بنوعٍ من عدم المبالاة، وشغل نفسه طوال الوقت بأعمال أخرى؛ ربما لإبعاد ذهنه عن تلك الأمور. لم نعرف قطّ إن كان لا يبالي بما يجري حقاً، أم يتظاهر بالشجاعة فقط. في المدرسة، كرّس جهده كله لدروسه، وعمل في العطلات المدرسية في متجر والده للملابس الجوخ. كانت المناسبة الوحيدة التي يفرح فيها حين يكون معنا؛ حينها يختفي الراشد البالغ في جسد الفتى والمراهق صاحب الإرادة الحديدية، ويتحرّر الطفل. كنا نلعب معاً كرة القدم في ساحة الكنيسة، أو نسبح في مياه القرن الذهبي التي لم تكن قد تلوّثت آنذاك، وتتردد أصداء صرخاتنا وضحكاتنا في شوارع بلاط حتى يحين وقت عودته إلى المنـزل... عندما قُبل في معهد الطب البيطري في ألمانيا، ظننت أن ذلك سيكون نوعاً من العتق له؛ درباً إلى آفاق جديدة وفرص واعدة، لكنني أدركت بعد سنوات أنني كنت مخطئاً حين عاد الشخص نفسه تماماً تقريباً. كان ديمير عينه؛ إذ كان انطوائياً ولا يندمج مع الآخرين أو ينسجم معهم بسهولة؛ رغم أنه حاول أن يتغير. في مرحلة ما، ذهب إلى البوسنة مع الأمم المتحدة كطبيب متطوّع، وعندما رأيته بعد سنوات، سألته عن السبب فردَّ مازحاً: "طيش شباب يا نوزت العجوز". اعترضتُ: "لكنك بالتأكيد ذهبت لتؤدي عمل خير، وتقدّم خدمة للبشرية". فتأفف: "البشرية؟! خدمة؟! عمل خير؟!". وتابع وهو يهزُّ رأسه: "لا يبدو أن هذه الكلمات تنسجم معاً. لم أذهب من أجل أحد، وإنما من أجل نفسي، فقد شعرت بالسأم في ألمانيا؛ وكأن الحياة شيء لا معنى له، وفكّرت في أنني إذا استطعت بطريقة ما رؤية الموت وتذوق طعمه واختباره عن قرب فمن الممكن أن أكتشف سر الحياة نفسها". وعلى الرغم من أنه كان يتكلم عن شيء جدّي جداً، إلا أن نظرة عدم الاكتراث بقيت بادية على وجهه. سألتُ: "حسناً، هل اكتشفت ماهية تلك الأسرار؟". فابتسم ساخراً: "لا وجود لمثل تلك الأشياء. لا معنى عاماً للحياة، ووحدهم الناس يمكن أن يبتكروا ذلك المعنى". أدرك أنني قد تهت، ولم أفهم شيئاً مما تكلم عنه فقال: "آه، من يهتم يا نوزت؟ هذا النوع من القضايا بعيد هناك- فوق رؤوسنا- وقد أجهد الفلاسفة أنفسهم في فك طلاسم هذه الأمور طوال آلاف السنين، لكنهم لم يتوصلوا إلى شيء بعد". كان ديمير على طبيعته، فهو لا يكشف أبداً أفكاره ومشاعره الحقيقية، لكنني لم أعرف حتى الآن إن كان يفعل ذلك لكي يحمي نفسه، أم لأنه لا يهتم حقاً.

كان لحياة يكتا اتجاه ومعنى، لكنه عندما فقد زوجته وطفله بدأ يشبه ديمير، لذا أفترض أن هذا هو السبب في عودة صداقتهما؛ رغم سنوات الجفاء وكل ما قد حدث بين الاثنين.

أوقفنا السيارة أمام قصر بلاط؛ حيث كان ديمير يحضّر الفطور في الممشى في ظل أشجار الكستناء التي تناولنا العشاء تحتها في الأمسية السابقة.

صرخ يكتا: "انظر من وجدت!". فنظر ديمير إليّ مندهشاً.

قلت مازحاً: "يبدو أنك قد اشتقت إليّ، أليس كذلك؟".

قال بودٍّ غير متوقع: "سأشتاق إليك دائماً؛ حتى إن رأيتك كل يوم أيها الوغد. أنت من لا يشتاق إلينا كما يبدو. ولولا هذه المصادفات الصغيرة، فمن يعرف كيف ومتى كنا سنراك...".

"كنت هنا أمس!".

"صحيح، لكن بسبب يفغينا فقط. ولا ترمقني بهذه النظرة يانوزت، فأنت تعرف أنني أقول الحقيقة. ألست محقًّا يايكتا؟ هل يتصل بنا هذا الأحمق أو يزورنا؟".

"لو كان يزورنا لما اضطررت إلى الإمساك به من ذراعه وجرّه إلى هنا، أليس كذلك؟".

قلت دفاعاً عن نفسي: "هيا أيها الشابان، أنتما أيضاً لا تتصلان بـي باستمرار، أليس كذلك؟".

"لقد طلبنا منك الخروج معنا لصيد السمك مرات عديدة، لكنك لم تأتِ مطلقاً!".

كان محقاً، فقد قاما بدعوتي في عدّة مناسبات، وليس قبل يوم واحد فقط، وإنما قبل أيام وأسابيع أيضاً. ولطالما أردت الخروج معهما، لكن شيئاً ما كان يحدث دائماً. غير أنهما لم يُظهرا امتعاضهما إطلاقاً- أو إنني ببساطة لم ألاحظ ذلك- وكانت هذه هي المرة الأولى التي يعبّران فيها صراحة عن استيائهما من عدم انضمامي إليهما. الغريب أنني كنت سعيداً في قرارة نفسي من حقيقة أنهما يشتكيان من ذلك، وشعرت أنني ربما كنت مخطئاً بحقهما، وأن يفغينا كانت محقة حين قالت إنني الشخص الذي نأى بنفسه عنهما، وليس من جرى إبعاده. لم أستطع أن أتذكر حقاً متى بذلت مجهوداً استثنائياً لقضاء وقت معهما، وكنت ألقي باللوم عليهما دائماً لابتعادهما عني. وأياً تكن الطريقة التي أنظر بها إلى الأمر، أدركت أنني لم أكن منصفاً معهما.

قلت متذرعاً بوظيفتي: "لا تقولا هذا أيها الشابان، فأنتما تعرفان طبيعة عملي. لا يختلف الأمر ليلاً أو نهاراً، ونحن على أهبة الاستعداد أربعاً وعشرين ساعة في اليوم وسبعة أيام في الأسبوع".

قال ديمير مشيراً إلى كرسي صغير: "أياً يكن، اجلس".

تابعت: "أريد قضاء المزيد من الوقت معكما، صدّقاني، لكننا لا نعرف ببساطة ما يطرأ من أحداث، ونحن نعمل على هذه القضية منذ ثلاثة أيام الآن. أعرف أنني تأخرت أمس؛ رغم أنني بذلت قصارى جهدي لأصل إلى هنا باكراً قدر المستطاع".

"هل تتكلم عن الجثة التي وجدوها في سمبرليتس؟ القصة التي تُعرض على التلفاز؟".

"تلك، وأخرى. الوضع شائك جداً، ولكنه فاتن على نحو غريب أيضاً؛ لأسباب لا يعلمها إلا الله وحده. التقيت مديرة متحف توبكابي مثلاً، وعرفت كل أنواع المعلومات الغريبة والرائعة عن تاريخ إسطنبول، ولم نتوقف عن العمل منذ ذلك الوقت".

قال يكتا: "عذر مقبول، لكنك تحب ذلك يا نوزت. لا تفهمني خطأ، لكنك تكرّس كل وقتك لعملك؛ حتى حين يرهقك. لو كنت مكانك، لتقدّمت باستقالتي منذ أمدٍ بعيد".

كنت سأعترض لكنه لم يمنحني فرصة.

"لا يا نوزت، اِعْتَرِف بذلك. أنت تحب عملك بغض النظر عمّا يتطلبه من وقت وجهد".

كان محقاً. لم يكن بمقدوري التخلّي عن عملي، لأسباب أجهلها؛ ربما لأن المعاناة كبيرة في العالم، وربما لأن فكرة العدالة قد تلطّخت، وإذا قمت بحل قضية بين الحين والآخر وألقيت القبض على القتلة فسأشعر بحال أفضل، أو ربما يتعلق الأمر بالإثارة فقط، أو لأنني لا أجيد أي شيء آخر. كانت الأسباب لا تزال مجهولة، لكن الحقيقة تبقى أنني أحب حلَّ القضايا الجنائية واعتقال المجرمين.

تذمّر ديمير: "لا يبدو أنك بحاجة إلينا على كل حال، فقد بدوت سعيداً جداً مع يفغينا أمس".

"لا بد أنك تمزح، فقد كنت مرهقاً الليلة الماضية. إذ لم أحظَ إلا بساعتي نوم، وبالكاد كان بإمكاني إبقاء عينيَّ مفتوحتين".

ردَّ: "حسناً، طبعاً. لهذا كانت ابتسامتك تمتد من أذن إلى أخرى طوال الأمسية. هيا أخبرنا، كيف حالك مع يفغينا؟".

"ليس هناك ما أقوله. وعلى كل حال، سنكون جميعاً في خانها في تاتافلا يوم السبت، ويمكن أن تسمعا منها".

قال يكتا: "هذا صحيح، لقد دعتنا، أليس كذلك؟ لكن...".

أراد أن يسأل إن كانت الدعوة حقيقية أم وجهتها لهما مجاملة، لكنه لم يفعل.

"أقول لكما إنكما إذا لم تذهبا، فلن تسامحكما أبداً. ما تريانه هو ما تحصلان عليه معها، من دون أقنعة. أحبتكما، وإلا ما كانت لتدعوكما".

قال ديمير: "سنذهب، لا تقلق. أنت رجل محظوظ، فهي تبدو امرأة جيدة".

كل ما استطعت قوله رداً على ذلك: "إنها كذلك". كانت ذكرى المرأة التي فقدناها لا تزال معلّقة فوقنا مثل ظل، وبدا التكلم عن المرأة الجديدة في حياتي عملاً فظًّا ويفتقر إلى اللباقة؛ رغم أنني لم ألاحظ غيرة من ديمير أو يكتا. فقد بدا كلاهما سعيدين حقاً من أجلي، وربما كان الأسى الذي يتشاطرانه حافلاً بمعنى أسمى من الرضا الذي أشعر به بفضل يفغينا.

"لِمَ لا تتزوجان؟ فهي امرأة جيدة، وجميلة أيضاً".

أضاف يكتا: "وواضح أنها مجنونة بك".

كانا جدّيين تماماً؛ إلى حد أن تعبير سرور ممزوج بالألم ظهر على وجهيهما. لم يكونا قد ذكراها، لكن لم يسعني إلا أن أفكّر في هاندان، وشعرت للحظة بالخجل؛ لأن لديّ حبيبة. ربما لم يكن خجلاً ما شعرت به، ولكنني بالتأكيد لم أشعر بسعادة بالغة بشأن ذلك. بدا ذلك صحيحاً، فقد ابتعدت عنهما، وربما كانت يفغينا محقة حين قالت إن الشرخ بيننا قد بدأ حين وقعا في حب هاندان.

"وواضح أنك تحبها، أليس كذلك؟".

إذاً، لماذا كان ديمير شديد الإصرار؟ لم يكن هناك حكم أو انتقاد في صوته، أو حتى غمز. بدا مشدوهاً من فكرة أن هناك شخصاً يمكن أن يحب مرتين، وأراد أن يفهم كيف ولماذا.

"لا أعرف ياصديقي. لقد مرَّ وقت طويل، ولا أتذكر حتى كيف هي مشاعر الحب".

تلاشت الابتسامتان عن وجهيهما، وأصبح الجو كئيباً وحزيناً، وأخبرني صوت داخلي أن أُغلق فمي، وأتوقف عن الكلام وألا أزعجهما، لكنني لم أستطع وتابعت الحديث.

"أشعر أنني بحال جيدة حين تكون قربي، وهي مفيدة لي. لم يعد الأمر كالسابق، حين كنت مع غوزيد، ولن يكون كذلك أبداً. غوزيد وآيسون أمر مختلف، ولن أتمكن من نسيانهما أبداً".

استقر بصري على عيني يكتا الذي لن يستطيع أبداً نسيان هاندان وابنهما يوموت أيضاً. وديمير؟ هل تمكّن من الهروب من ذكرى هاندان؛ الفتاة التي أحبّها ونافس من أجلها أفضل صديقين له؟ انتابني شك في ذلك.

قلت: "جروح الروح لا تبرأ تماماً أبداً، والجسد يعالج نفسه بسرعة أكبر من الروح. فما دام القلب ينبض، يستطيع الجسد إصلاح نفسه. لكن، عندما تتلقى الروح ضربة، فهي تنـزف باستمرار؛ حتى إن بدا أن الحياة تمضي قدماً. لم أظن يوماً أنني سأتمكّن من البدء مجدداً، أو أنني سأحب شخصاً آخر، لكن يبدو أنني كنت مخطئاً، فقد يحدث هذا...".

اكفهرّ وجهاهما، وترقرقت الدموع في عيونهما، وبدا أن ذهنيهما يمتلئان أسئلة. كنت أعرف أن أياً منهما لن يتحلّى بالشجاعة ليسأل، لذا أجبت عن السؤال الذي تركناه معلقاً من دون أن يُسأل.

"نعم، أشعر أحياناً بالخجل حقاً، وأتوقف وأسأل نفسي عمّا أفعله، فزوجتي وابنتي قد لقيتا حتفهما، وأنا أعيش حياة مرح مع امرأة أخرى. أفكّر غالباً أن أفضل شيء يحدث لي هو أن أموت أيضاً؛ حتى يكون هناك نوعٌ من التوازن وبعض العدالة، لكن ذهني يتابع عمله. بمَ سينفع موتي غوزيد وآيسون؟ ماذا لو كان الأمر معكوساً وكنت الشخص الذي لقي حتفه، وتركهما خلفه؟ هل كنت سأرغب في أن تتخليا عن الحياة فقط لأنني رحلت عنهما؟ طبعاً لا. وإن تخليت عن حياتي فلن يعود ذلك بأي نفع عليهما...".

حدّق ديمير بثبات إلى نقطة محددّة بعيدة. ربما كان يعيد التفكير في الحياة ومغزاها، وربما كان المعنى الذي يبحث عنه هو الحب الذي فقده في ذلك الحي نفسه قبل كل تلك السنين...

أما يكتا فقد قال بلطف: "أنت محظوظ يانوزت، وربما تكون قوياً أيضاً؛ فقد استطعت أن تحب امرأة أخرى ولا عيب في هذا. فلو لم تستطع أن تحب مجدداً، لأصبح الوضع كابوساً. فإذا لم يكن لديك شيء في الحياة تتشبث به ليدعمك فستكون حياتك قاسية وصعبة".

كان ديمير لا يزال مستغرقاً في ذكرياته وأفكاره المبهمة والبعيدة.

قلت ليكتا: "أنت محق. وربما أكون محظوظاً بيفغينا، فهي امرأة

مميزة حقاً. ليس العثور على امرأة مثلها أمراً سهلاً، لكنني واثق أن هناك آلاف النساء مثلها في الخارج؛ نساء محترمات ومتفهمات".

ارتسمت على وجه يكتا ابتسامة مريرة؛ مدركاً ما عنيته.

"أنا واثق بوجودهن، لكن المهم ليس أولئك اللواتي في الخارج يا نوزت، بل المهم هو نحن؛ داخلنا وماهية شعورنا، وكل شيء آخر مجرد حافز خارجي. لا تفهمني خطأ، لكن هذا يتضمن يفغينا. فلو لم تكن لديك تلك الرغبة في الحياة، تلك الرغبة في العيش- سمّها ما شئت- فما نفع لطف يفغينا أو جمالها؟ كنتَ محقاً حين قلت إن جروح الروح لا تندمل أبداً، والأهم أن الأضرار التي تلحق بالروح أسوأ بكثير من تلك التي تصيب الجسد. فأحياناً يكون الألم كبيراً جداً، ويمكن أن يعمي الإنسان عن العالم الخارجي...".

انتبه ديمير أخيراً من ذهوله، وقال بحزم: "لنغيّر الموضوع. من دون الجسد، الروح لا شيء. وسواءٌ أأرادت الروح أن تحزن أو تفرح، يجب تغذية الجسد". ثم ابتسم واستدار ليواجهني. "نعم يا كبير المفتشين، ماذا تود أن تتناول على الفطور؟".

كان هذا ديمير المثالي؛ فهو لا يُظهر رقّته أبداً، ويخفي مشاعره دائماً. لقد أخفى أحاسيسه الحقيقية حين أُصيبت والدته بسكتة، وقد أخفاها مجدداً حين اكتشف أن هاندان ويكتا سيتزوجان.

مِلتُ إلى الخلف على الكرسي وراقبتهما معاً. ربما كنت مخطئاً بحق ديمير، وربما كان قد قرّر أن يشاطر يكتا فقط حزنه ومحنته، وليس أنا. وبالمقابل، كشف يكتا على الأرجح عن جروحه إلى ديمير فقط. بدا أن كلاًّ منهما يشعر بألم الآخر ويفهمه بصمت من دون أن ينبس بكلمة، وكلاهما حزينان على المرأة نفسها، لذا كان حزنهما واحداً وخسارتهما واحدة. شعرت بالمسافة بيننا مجدداً؛ وكأنني عوقبت بطريقة ما لأنني سعيد، وشعرت بوخزات غضب وخجل وتأنيب ضمير مزعجة داخلي. كان يجب أن أغادر المكان وأتركهما من دون أن أقول شيئاً، لكنني لم أستطع. أخفيت غضبي وخجلي وحاولت- مثل ديمير- أن أبتسم بدلاً من ذلك.

"شكراً يا صاحبيَّ، لكنني شبعان. لا يمكنني البقاء طويلاً على كل حال، فكاهلي مثقل بالعمل اليوم".

ممتاز

تجاوزت الساعة الحادية عشرة حين وصلت إلى مقر قيادة الشرطة، وأخبرني الشرطي عند البوابة بعصبية أن "ممتاز"، مدير إدارتنا، يريد رؤيتي. نعم، بدا كل شيء ضاغطاً، فقد أراد ممتاز من دون شك أن يعرف كيفيّة تقدّم التحقيق؛ على الأرجح بسبب ضغط مديريه. وربما تكون الصحافة قد ركّزت اهتمامها على القصة أيضاً، وتعرضها على الصفحات الأولى، وتجعل الجرائم المادة الرئيسة على شاشات التلفزة. سيرغب ممتاز بكل تأكيد أن يعرف ما كنا نفعله، لكن الحقيقة تبقى أنه لا تزال هناك ثغرات كثيرة في القضية، لذا تجاهلت طلبه وذهبت إلى مكتبي واستدعيت "علي" وزينب.

أصبحا أمامي في مكتبي بعد خمس دقائق، وكلاهما يبدوان مرتاحين ونشيطين، لكن شفة علي السفلية متورمة.

أخبرتني زينب: "لقد أُخذت شاحنة التوزيع لتخضع للتحليل. جمعنا فريقاً كبيراً، وأعضاء الفريق يعملون عليها الآن من دون توقف، لكن النتائج لن تتضح حتى وقت متأخر من هذا المساء".

سألتُ "علي"؛ عارفاً أنه قد زُوّد بكل التفاصيل: "هل سمعت ياعلي؟ يبدو أننا قد نحتاج إلى مذكّرة من المدّعي العام لتمديد فترة حبس عمر".

قال بجرأة: "لا تقلق ياسيدي، فقد أرسلت ناسي إلى مكتب المدّعي".

لم يسعني إلا أن أضحك بصوتٍ خافت.

"أحسنت، والآن إلى الضحية الثالثة. إنه صحفي، أليس كذلك؟ ما كان اسمه مجدداً؟".

قال علي: "سادان دوروكا. إنه رجل مثير للاهتمام".

فكّرت: من منهم لم يكن كذلك؟!

"كان يعمل لمصلحة إحدى الصحف الكبرى، لكن يبدو أنه لم يكن محترماً بين نظرائه. وقبل ثلاث سنوات تقريباً، ذُكر اسمه في شائعات مرتبطة بقضية مرفوعة أمام المحكمة بشأن فندق بُني في موقع أثري وطني، ويبدو أنه كتب عن كيفية تقديم الفندق إسهامات كبيرة إلى صناعة السياحة في البلاد، لكن نقابة المهندسين تقدّمت بشكوى تدّعي فيها أن الفندق قد أضر بالإرث التاريخي والثقافي للأمة، وصدر الحكم لمصلحة الادّعاء، وأمرت المحكمة بإيقاف التشييد. في تلك الأثناء، أجرى صحفي يعمل في صحيفة يسارية تحقيقاً، وعلم أن سادان دوروكا قد استلم شقة كهدية

من الشركة التي تبني الفندق، واستمر الجدال في المقالات أياماً. وفي النهاية، لم يتخلَّ سادان عن الشقة، ولكنه أُرغم على الاستقالة من الصحيفة التي كان يعمل فيها في ذلك الوقت". هزَّ رأسه اشمئزازاً. "لكن، باعتبار الرشوة فضيلة في هذا البلد اللعين، حصل على عمل آخر بعد سنة في صحيفة أكبر".

كان هذا هو الأمر المهم، وقد ذكره علي؛ الكلمة الرئيسة: الرشوة.

سمّه ما شئت- فساد، انعدام أخلاق، احتيال- فقد اجتمع كل ذلك لخرق القانون وانتهاكه، وكل الضحايا حتى الآن متورطون في تشييد مبنى غير قانوني في منطقة ذات أهمية تاريخية.

"هل كان لسادان دوروكا هذا أي علاقة بالضحيتين الأُخريين؟".

قال محرجاً وهو يشيح ببصره بعيداً: "لم أتمكّن من البحث في هذا بعد أيها المدير، ليس بعد".

"حسناً، يجب أن نفعل هذا. ربما تكون لهذا الصحفي صلة بذلك الرجل آدم يزدان".

آدم يزدان؛ إنه الرجل الذي يجب أن نركّز عليه اهتمامنا.

"متى سيعود من موسكو؟".

أجابت زينب: "في منتصف هذه الليلة. ستهبط طائرته في مطار أتاتورك الدولي عند الثانية عشرة تقريباً؛ إن لم تواجه مشكلات أو تأخيراً".

قال علي متحمساً: "هل أُقلّه من المطار؟".

كانت الشكوك تراود "علي" الآن بشأن عمر، وقد بدأ يفكّر في أن التعامل مع شخص مثل آدم يزدان؛ إقطاعي ثري وشخص ذي ماضٍ مشبوه، ربما يكون أكثر إثارة من التعامل مع متطرف انعزالي مثل عمر. فعلاً، أصبح ذلك أكثر إغواءً له آنذاك، لذا كان يجب أن أردّه إلى الواقع بإبلاغه أن اعتقال يزدان فوراً لن يكون صواباً. "لم نحصل على أي دليل جرمي بعد ياعلي، والرجال أمثاله لديهم أصدقاء في مواقع حسّاسة جداً، لذا دعنا لا نورط أنفسنا الآن. يمكن أن نـزوره في مكتبه". ثم استدرت إلى زينب. "وماذا عن قطعة النقود تلك يازينب؟ هل هي حقاً من عهد ثيودوسيوس، كما قلت؟".

"هذا صحيح ياسيدي. لكنني لم أحصل على معلومات وافية عن ثيودوسيوس بعد، إذ لا يتوافر الكثير منها على الإنترنت". وظهر لون وردي فاتح على وجنتيها. "آسفة ياسيدي، إذ لم يكن لديّ متسع من الوقت لأحصل على التفاصيل، لكنني سأعمل على ذلك فوراً. يمكن أن نسأل ليلى

باركين، إن أردت".

قلت: "لاحقاً، يجب أن نذهب إلى سماتيا أولاً؛ إلى منـزل نجدت دينيزل. ذكرت ليلى باركين مجموعة قطع نقدية يحتفظ بها في منـزله، ويجب أن نعرف إن كانت لا تزال هناك أم لا".

"أتعني التأكد إن كان القاتل قد سرقها أم لا؟".

"هذا محتمل يازينب. فهي ليست من نوع القطع النقدية التي تُباع في السوق أو متجر الزاوية المحلي. يُحتمل أنها قد نُقلت إلى مجموعة خاصة أو متحف آخر. القتلة، بغض النظر عن هوياتهم، أذكياء كفاية حتى لا يتركوا دليلاً جرمياً مكوّناً من عدّة قطع نقدية خلفهم. يجب أن نذهب إلى ذلك المنـزل ونفتّشه بدقة، فقد بدأ كل شيء بجريمة قتل نجدت دينيزل؛ لذا ربما نحقق أول اختراق في القضية في منـزله".

رنَّ الهاتف، فرفعت السماعة وأنا أذكّرهما مرة أخرى: "لا بأس، سيكون الاختراق - إذا كنا سنحققه - في ذلك المنـزل".

تذمّر الصوت في الطرف الآخر: "أي اختراق؟ أين أنت بالله عليك؟ ألم يخبروك أنني أريد رؤيتك هنا في الأعلى؟".

كان ممتاز هو المتصل، وبدا منـزعجاً من حقيقة أنني تأخرت عليه.

"طرأ شيء ما أيها المدير، ويجب أن أرسل بعض الرجال إلى الميدان. سآتي إليك فور الانتهاء من هذا".

"لا بأس، ولكن أسرع؛ لأن قائد الشرطة والحاكم يتصلان بـي هاتفياً باستمرار طوال اليوم ويريدان أن يعرفا ما يجري. هذه هي الجثة الثالثة يا نوزت، والصحافة تثير ضجة كبيرة، وأريد بعض المعلومات، بعض الأجوبة، وبسرعة".

قلت: "هذا مفهوم تماماً ياسيدي". كان يجب أن أهدّئهُ وإلا فلن يتوقف عن الكلام. "سأكون في مكتبك بعد خمس دقائق".

أعدت السمّاعة إلى مكانها وعدت إلى علي وزينب. "اذهبا أنتما الاثنان، هذا صحيح، كلاكما. سأنضم إليكما بعد أن أُطلع ممتاز على التفاصيل. زينب، أريد رفع كل البصمات الموجودة في المنـزل وتحليلها، لذا خذي معك كل المعدّات التي يمكن أن تضعي يديك عليها. علي، يجب أن نعثر على مجموعة النقود، ولا أهتم إن كان عليك قلب المكان رأساً على عقب".

ردّا: "مفهوم ياسيدي". نظرت إلى وجهيهما بإمعان وقلت:

"هيّا، اذهبا. نريد بعض الأدلّة؛ بيّنة، إثباتاً، بصمة؛ أي شيء قد يقودنا

إلى القاتل، وإلا ستُراق دماء كثيرة أخرى".

فتّاح وصدّيق

سمعت الأعيرة النارية حين استدرت حول الزاوية إلى شارع نجدت دينيزل؛ بعد ساعتين من إرسالي "علي" وزينب إلى هناك، وصعودي إلى الطابق الأعلى لرؤية ممتاز. شعرت بالذعر وتأنيب الضمير، ووبّخت نفسي؛ لأنني تركتهما هناك وحدهما، وضغطت على دواسة الوقود. كان يجب أن أذهب معهما، لكنني كنت مضطراً إلى إبلاغ ممتاز بآخر التطورات أيضاً، وقد وجدته بانتظاري لسماع نبأ إلقاء القبض على القاتل، لا للسّماع عن استراتيجيتنا الأخيرة. لم يكن لدي الكثير لأقوله، ولم أكن في مزاج جيد لأكذب من أجل استرضائه فقط. زوّدته بكل التفاصيل؛ بدءاً من اكتشاف جثة نجدت دينيزل، ووصولاً إلى استجواب عمر إكينلي في الأمسية السابقة. وصفت الأحداث بأسلوب كئيب حتى لا ينتابه إحساس زائف بالأمل، وليدرك أننا بحاجة إلى بعض الوقت والدعم؛ الأمر الذي سيمنحنا أولوية قصوى. فإذا شعر بتفاؤل كبير بشأن التقدّم في القضية، فسيلاحقني مثل ظلي، وأنا لدي أشياء لأفعلها أهم من قضاء وقتي في كتابة تقارير له وإطلاعه على أفعالنا، ولدي إثبات على ذلك، فقد عرّضت حياة علي وزينب للخطر ببساطة؛ لأن "ممتاز" أراد مني أن أقدّم تقريراً له. كان ممتاز رجلاً محترماً، ومديراً جيداً، لكنه ممل، ويهدر الوقت في دردشة لا طائل منها. وبحلول وقت الانتهاء من تناول الشاي والقهوة وتبادل الدعابات، كنت قد قضيت في مكتبه ساعة ونصف الساعة، في حين كان من الممكن إنجاز كل شيء خلال عشر دقائق بسرعة وسهولة.

بحلول وقت وصولي إلى منـزل نجدت كنت أشعر بقلق شديد. لكن عندما قفزت من السيارة، وركضت إلى الحديقة الصغيرة، ورأيت أن كليهما بأمان، استرخيت قليلاً؛ وأقول قليلاً لأنني رأيت رجلاً قوي البنية مصاباً بكدمة على أنفه، وممدداً وهو مقيد بالأصفاد على الأرض داخل الحديقة، وركبة علي على ظهره. كان الدم يسيل من منخري الرجل إلى شفته السفلية، ولاحظت فوراً الماسورة المعدنية لما بدا أنه مسدسه وقد تم تثبيته إلى حزام علي. شاهدت زينب وهي تمسك مسدسها من نوع بريتا بكلتا يديها وتصوّبه إلى رجل آخر واقف بجانب البوابة، ووشَل صغير من الدم يسيل على وجهه من جرح بليغ فوق عينه. أشرق وجه علي حين رآني.

"لقد فوّتَّ كل المتعة أيها المدير. لو وصلت إلى هنا قبل نصف ساعة، لكنت قد شاركتنا في ذلك".

كان يتباهى آنذاك، فالرجل ببساطة يحب الشجار الذي يعتبره لعبة فمتعة. أعدت مسدسي إلى قرابه.

سألت بصوت صارم: "ماذا يجري هنا؟ من هذان الشخصان؟".

قال: "هذا ما نحاول أن نعرفه ياكبير المفتشين". وضرب رأس الرجل الذي كان يثبّته إلى الأرض بقفا يده. "اندفع هذان الأحمقان هاربين في اللحظة التي شاهدانا فيها".

كان الرجل الذي يمسكه علي ذا عينين سوداوين كبيرتين، وأهداب كثّة وطويلة على نحو غريب. ولو أنني لم أرَ لحيته حين استدار ليواجهني، لكنت قد ظننت خطأً أنه امرأة.

قال: "هذا ليس خطأنا ياكبير المفتشين". بدت نبرته غريبة. "عندما سمعنا أنهما من الشرطة، حاولنا الهرب. فنحن لم نرغب في أن نتورط في أي مناوشات آنذاك".

ضربه علي على قفا رأسه مجدداً.

"وما المخيف في كوننا من الشرطة؟ ماذا؟! هل تقول إنك كنت ستفعل ذلك لو لم نكن من الشرطة؟ استخدام أدوات وخلع ودخول عنوة؟".

تأوه الرجل حين ارتطم وجهه بالأرض وصرخ: "آه! هذه الأسلحة للدفاع عن النفس فقط".

"دفاع عن النفس! هذا رائع! وهل تعملان أيها الرجلان مع الاستخبارات السرية؟".

"بطريقة ما. فنحن حارسا أمن، ونعمل لصالح شركة أمن خاصة".

لم يتأثر علي بتاتاً. "آه، فهمت، هذا رائع. إذاً، يمكنكما أن تطلقا النار على أي شخص يعترض طريقكما".

احتج الرجل رافعاً رأسه: "لا، الأمر ليس على هذه الحال. لقد أسأت الفهم ياسيد... سيد علي؟".

دفع السيد علي ظهر الرجل بركبته بقوة أكبر.

"تعلّم أولاً كيف تخاطب الناس، أبوك هو السيد".

"أوه! حسن، لا بأس، يازميل؟".

"ماذا يُفترض بهذا أن يعني؟ هل نحن شريكان في لعب كرة المضرب الآن؟".

"لا بأس، لا بأس! أخبرني فقط كيف يمكن أن أخاطبك!".

"ستدعوني المفتش "علي"، هل اتفقنا؟ لا مزيد من هراء زميل و سيد

، هل هذا مفهوم؟".

"مفهوم أيها المفتش علي. ما كنت أقوله هو أننا تدربنا على هذا العمل، وخضعنا لدورة تمرين رسمية. ونحن نعرف أن إطلاق النار على أي شخص مخالف للقانون".

وفيما كان الرجل يتابع تبريره العاطفي، شعرت بعيونٍ تحدق إليّ، فاستدرت ورأيت فتاة بعمر آيسون تحدّق إلينا بافتتان. لم تكن وحدها، فقد ركض كل من في الشارع إلى المكان حين سمعوا صوت الأعيرة النارية ليروا ما يجري. أدركت حينها أننا إذا لم نتوخَ الحذر، فسنخاطر بخروج أهل سماتيا برمّتها ووقوفهم أمامنا.

سألتُ "علي" وأنا أومِئ نحو الرجلين: "هل هناك أي إجراءات طارئة مطلوبة هنا؟".

قال من دون أي انفعال: "لا ياسيدي. سيكون كلاهما هادئين تماماً".

"جيد، لنُدخلهما إذاً".

ضرب علي الرجل وأوقفه على قدميه. كان شخصاً ضخماً، وأطول من شريكه، وقد فزعت من مجرد التفكير في ما كان سيجري لو اضطر علي إلى تبادل الضربات معه. ربما واجه علي مواقف أسوأ بكثير، لكنه كان قد أرعب الرجل ولطمه على أنفه؛ ما جعله يمشي متعثراً إلى منـزل نجدت دينيزل.

سلكنا طريقنا عبر الرواق المعتم، وفي اللحظة التي وضعنا فيها أقدامنا في حجرة الجلوس المزيّنة بسبع لوحات نافرة عن إسطنبول، ترددت أصداء ذلك الصوت الغريب في الغرفة مجدداً...

"مرحباً... اسمي الملك بيزاس... أهلاً بكم في قصري...".

كان ببغاء نجدت، ذاك الطائر الذي ظننت أنه إنسان، يرحّب بنا بحرارة مجدداً. هذه المرة على كل حال، لم يكن صديقه القديم علي متسامحاً، ولم يزعج نفسه بالتوثق من أنه قد تناول البذور التي تركناها له قبل بضعة أيام، بل أمسك الرجلين وأجلسهما على الأريكة تحت لوحتي آيا صوفيا وجامع الفاتح. وعندما خرجت زينب من حجرة الجلوس، جلستُ على كرسي ذي ذراعين أمام لوحة قصر توبكابـي وأصغيت السمع، في حين بدأ علي، الواقف بجانبهما، يزوّدني بتفاصيل ما حدث.

"كنت وزينب نفتش الشقة، كما أمرت ياسيدي، حين سمعنا شخصاً يعبث بقفل الباب، فاختبأ كل منا قرب أحد جانبـي المدخل. أضخم هذين الهمجيين...". وأشار إلى الرجل ذي الأنف النازف. "أعني هذا المتوحش هنا،

تسلل إلى الداخل وهو يحمل سلاحاً. وعندما صرخت: توقف، شرطة ! اندفع كلاهما هاربين، لذا ركضنا خلفهما. صحت عليهما في الحديقة طالباً منهما مجدداً أن يتوقفا لكنهما لم يصغيا؛ لهذا أطلقت رصاصتين تحذيريتين. وعندما سمع هذان المحاربان الشجاعان العيارين الناريين، ذُعرا وتعثّرا، ووقعا فوق بعضهما. وقع هذا الثور هنا على أنفه، في حين ارتطم وجه هذا الحمار الصغير الوسيم بجذع شجرة تين". بدا أن "علي" يستمتع بذلك حقاً. "وهكذا ياسيدي، لم تحدث هذه الجروح والكدمات بسببـي، وإذا لم تصدّقني، فبإمكانك أن تسأل المفتش أكسوي. طبعاً، كنت سأحب أن أبرّحهما ضرباً، ولكن هذه قضية أخرى، فقد تمكّن هذا الأحمقان من ضرب نفسيهما جيداً؛ من دون مساعدتنا".

لم يكن قد أنهى كلامه، لكنه صمت حين رأى زينب تدخل حاملة بعض القطن وماءً معطراً وضمادات. وعندما سكبت بهدوء بعض الكولونيا الرخيصة على قطعة قطن، راقبها علي غير مصدّق ما تفعله، ثم شمخ بأنفه؛ ليس كرهاً للرائحة، وإنما اشمئزازاً من حقيقة أنها قد جاءت لتساعد رجلاً قد شهر مسدساً عليهما. بدا امتعاضه الحسود واضحاً، ولو لم أكن موجوداً لكان قد بدأ بكل تأكيد جدالاً معها بشأن هذه المسألة، رغم عدم أهميتها. شعرت زينب بنظراته أيضاً لكنها تجاهلته وتابعت عملها؛ منظّفة جروح الرجلين ومضمّدة إيّاها. لم تكن هناك فائدة ترجى من انتظار أن يزداد انـزعاج علي، لذا استدرت إلى الرجل ذي الرموش الطويلة.

"إذاً، إذا كنا سنبدأ بالأشياء الجوهرية، فمن أنتما؟".

قال: "اسمي فتّاح ياكبير المفتشين". تململ منـزعجاً؛ لأن يديه مقيدتان بالأصفاد خلف ظهره. "وهذا صدّيق، ونعمل لمصلحة آي- يلديز [21] للأمن".

كان يمزح بالتأكيد! تذكرنا نحن الثلاثة فوراً القطعة النقدية التي تحمل رمز النجم والهلال، والتي وجدناها أمس، وتبادلنا نظرات ذات معنى.

ابتسم علي بتكلّف: "ماذا؟ هل جعلتم الملك بيزاس شعاراً لكم أيضاً؟".

كان الببغاء، وليس فتّاح، من أجاب أوّلاً: "مرحباً... اسمي الملك بيزاس... أهلاً بكم في قصري... اسمي الملك بيزاس...".

وقف علي متوتراً، وحمل قفص صاحبه بيزاس ووضعه في الغرفة الأخرى. وعندما عاد، استدار إلى فتّاح وكرّر السؤال وكأن شيئاً لم يحدث. "إذاً، هل شعاركم هو الملك بيزاس؟".

قال فتّاح مكافحاً مع الاسم الغريب. "إنه ليس الملك بيزاس أيها المفتش، شعارنا نجم ضمن هلال، مثل العلم التركي...".

جأر علي غاضباً: "طبعاً، لأن والدك يمتلك حقوق استخدام العلم، أليس كذلك؟ هذا صحيح، فعلتم هذا، واستخدمتم العلم لأغراض تجارية".

"لا أيها المفتش، لقد أسأت فهم الأمر... لقد اختير ذلك الشعار بسبب محبتنا واحترامنا للعلم!".

"احترام! ها!".

قلتُ؛ مُوقِفاً "علي" قبل أن يهاجم الرجلين: "لا بأس، لا بأس، ماذا كنتما تفعلان هنا أيها الرجلان؟".

كان فتّاح الخائف من نفاد صبر علي المتزايد قد تراجع إلى الخلف؛ نحو صديقه، لكنه يقف آنذاك مشدود القامة مجدداً.

"نحن... نحن نعمل لمصلحة آدم بيك [22] ياكبير المفتشين. آدم يزدان".

قبل أن أُبدي دهشتي وإثارتي لسماع هذا الاسم مجدداً، أفصح فتّاح عن بعض المعلومات الأخرى المثيرة للاهتمام.

قال: "كان آدم بيك ونجدت دينيزل شريكين". ثم بدأ يصرّ على ذلك حين رأى نظرات الذهول على وجوهنا. "أقسم إن هذا صحيح، وإنني لا أكذب. كان نجدت دينيزل - رحمه الله - يعمل في مجال العاديّات مع آدم بيك الذي خصَّ السيد دينيزل بثقته المطلقة".

"إذاً، آدم بيك محبوبك تاجر آثار، أليس كذلك؟". كان علي قد بدأ يستشيط غضباً مجدداً. "أين متجره اللعين إذاً؟".

"أي متجر تعني؟".

"ماذا تقصد؟".

"يمتلك آدم بيك أكثر من متجر واحد. هناك محل عاديات في نيسانتاسي، ومتاجر السجاد في السوق الرئيسة، ومنتجع العطلات في بودروم، والفندق في أنطاليا... وهناك الآن طبعاً العمل الجديد والمركز السياحي الذي يبنيه في السلطان أحمد، وسيكون الأكبر من نوعه في أوروبا. لا، لا، آدم يزدان ليس مجرد رجل أعمال، فهو ثري جداً...".

"هل هو شيخ عشيرتك؛ آدم هذا؟".

قال فتّاح - بشجاعة أو حماقة - مصححاً: "آدم بيك أخونا الكبير، وعمنا، ووالدنا، ومديرنا، وكل شيء بالنسبة إلينا".

كان الخوف قد اختفى من صوته، وكان ينظر إلينا بتحدٍّ. أوقف سؤال زينب "علي" عند حدّه، وإلا كان سيترك الكلام لقبضتيه.

"إذاً، لماذا شركة الأمن؟".

كانت قد أنهت تنظيف جروحهما ووقفت آنذاك بجانبنا.

"كما قلت ياسيدتي المفتش زينب. يمتلك آدم بيك شركات كثيرة وأراضي عديدة، لذا يبدو منطقياً أن يؤسس شركة أمن خاصة بشركاته بدلاً من أن يدفع لشركة أخرى لحفظ الأمن. رئيس شركتنا شرطي سابق يدعى أركان آبيه [23] ، وربما تعرفونه باسم أركان سونغور".

أضاف صدّيق الذي لم يكن قد تفوّه بكلمة حتى هذا الوقت: "كان أركان آبيه من أرسلنا إلى هنا". لا بد أن سوء الطالع قد رافقه منذ مولده، فكما منح الله "فتّاح" عينين أنثويتين، فقد جعل "صدّيق" رجلاً ضخماً، لكنه جرّده من أي احتمال بإثارة الخوف أو الهلع في قلوب الآخرين بجعل أسنانه الأمامية بارزة.

سألت زينب نافدة الصبر مثلي، للحصول على المعلومة: "ولماذا أرسلكما أركان إلى هنا؟ ما الذي كنتما تبحثان عنه؟".

قال فتّاح بصراحة: "جئنا لنأخذ بعض المال. عندما أقول مالاً، فأنا أعني نقوداً قديمة؛ عملة عتيقة. إنها من النوع الموجود في المتاحف؛ نقود مصنوعة من الذهب أو الفضة أو الحديد؛ أشياء من هذا القبيل".

بدا أننا نصل إلى نتيجة أخيراً.

قلت وأنا أحاول بجهد إخفاء إثارتي المتزايدة: "أتعني قطعاً نقدية؟".

قال: "تلك هي أيها المدير! إنها قطع نقدية، هذا ما كنا نبحث عنه... همم... قطع نقدية".

"أهي مجموعة؟".

"بارك الله فيك ياسيدي، تلك هي. مجمع... مجموع... قطع نقدية". ابتسم بسخف لعدم قدرته على نطق الكلمة. "ما قلته ياكبير المفتشين".

قال صدّيق: "طُلب منا إحضار الطائر أيضاً، فقد كان هدية إلى المرحوم نجدت من آدم بيك. قال أركان لنا: ليس هناك أحد يعتني بالمخلوق المسكين الآن، وسيتضور الطائر المسكين جوعاً، لذا أحضراه إلى هنا . هذا ما قاله".

نظر إليه فتّاح مؤنباً لإفراطه في الكلام، فتورّد وجه صدّيق وأحنى رأسه.

قال فتّاح: "لكن القطع النقدية هي ما جئنا لأخذه. ومن الطبيعي أن نتوخى الحرص بعد مقتل المرحوم نجدت. أعني، هذا ليس سهلاً ياكبير المفتشين، فنحن نتكلم عن الحياة هنا. رأينا المفتشين السيد "علي" والسيدة زينب حين دخلنا، وعندما سمعناهما يصرخان: شرطة! هربنا لتفادي أي

اشتباك مسلح".

ضحك علي بصوت خافت: "وكيف هربتما؟ مثل زوجٍ من السلوقي". ونظر إلى الرجل الضخم من أعلى رأسه إلى أخمص قدميه ثم صحّح قائلاً: "لا، بل مثل جمل!".

قال فتّاح بحزم: "لو لم تخبرنا أنكما من الشرطة، لما فررنا. هربنا حتى لا يحدث اشتباك بيننا". شرح بسرعة حين رأى "علي" يحملق إليه: "لا تُسئ فهمي ياسيدي، لم نكن سنطلق النار؛ وكأن بمقدورنا فعل شيء كهذا! كل ما في الأمر أننا شعرنا بالخوف؛ لأننا ظننا أنكما قد تعتقدان خطأً أننا مجرمان؛ لذا هربنا".

"إذاً، لماذا كنتما تسعيان للحصول على مجموعة نجدت دينيزل من القطع النقدية؟".

تأتأ، غير فاهم المقصود من السؤال: "عذراً؟".

"أسألك عن سبب رغبتكما في الحصول على قطع دينيزل النقدية؟".

اتسعت عيناه دهشة وقال: "القطع النقدية ليست لنجدت دينيزل ياكبير المفتشين. إنها تخص آدم يزدان، وهذا ما قاله مديرنا أركان آبيه لنا على كل حال. آدم يزدان أخبره بهذا".

نظرنا إليه متشككين.

تمتم حين رأى النظرة على وجوهنا: "هل تعنون، هل تقصدون أن هذه القطع النقدية لا تخص آدم بيك؟".

مال علي إلى الأمام نحو فتّاح، ولم يكن هناك غضب أو عدائية على وجهه، وإنما عدم تصديق.

"اسمعني الآن يافتّاح بيك. أظن أنني قد اكتفيت من هرائك. كن رجلاً صالحاً وأخبرنا فحسب عمّا فعلتماه بمجموعة القطع النقدية".

تردّد فتّاح؛ إذلم يكن يعرف ما يجدر به فعله. فإذا تحدّث، فسيخون آدم يزدان، وإن لم يفعل، فستكتم الشرطة أنفاسه مثل طن من الآجر.

جأر علي وهو يلكز كتفه: "هل أنت أصم أيها المرح؟ سألتك عن مكان القطع النقدية!".

بدأ فتّاح ينظر إلى الجدران بإمعان.

فصرخ علي: "ما الأمر؟ هل تعاني مشكلةً في عينيك؟".

تلعثم الوسيم ذو العينين الجميلتين قائلاً: "اللو... اللوحات، الأُطر".

أطبق الصمت للحظة.

استشاط علي غضباً وهو يضرب جبينه بيده: "تباً. لماذا لم نفكر في

هذا؟". ثم استدار ونظر إلي معتذراً. "توثقنا مما يوجد خلف اللوحات أيها المدير، ولكن لم يخطر لنا قط أن تكون في الأُطر".

كانت زينب قد رفعت آنذاك لوحة جامع الفاتح وأحضرتها إلى الطاولة في وسط الغرفة.

سألت بعد أن قلّبتها عدّة مرات وفحصتها من كل الزوايا: "كيف نفتحها؟". تأتأ فتّاح وبقي صامتاً، عندها جأر علي قائلاً: "الآن!".

طرفت عينا فتّاح بعصبية، وأشار إلى زاوية الإطار بيديه الكبيرتين مثل مجذافين.

"هناك... في الزاوية. يجب أن يكون هناك زرّان. اضغط عليهما وسيُفتح القفل. هذا ما أخبرنا به أركان آبيه".

مرّرت زينب أصابعها فوق الحافة، وعلى زاوية الإطار، ثم قالت حابسة أنفاسها: "إنه محق، يوجد زرّان هنا".

وحين ضغطت على الزرّين، سمعنا طقّتين سريعتين. رفعت زينب اللوحة إلى الأعلى، وأخرجت علبة ذات قاعدة سوداء وغطاء مخملي من الإطار. "هذه هي".

حبسنا أنفاسنا، وانتظرنا بتشوّق رؤية القطع النقدية العتيقة فيما كانت تفتح الغطاء بلطف.

قالت بكآبة وهي تدير إلينا العلبة لنراها: "لا شيء هنا. إنها فارغة، لقد أُخذت كلها". ثم مدّت يدها إلى لوحة آيا صوفيا، واستخدمت الطريقة نفسها لإخراج العلبة من إطارها، لكن النتيجة لسوء الحظ كانت ذاتها، ولم تكن هناك قطعة نقدية واحدة في الداخل. ولنتوثق فقط، أخرجنا العلب المخبأة في أطر كل اللوحات الأخرى وفتحناها، ولكن عبثاً، من دون جدوى. لم نعثر على شيء، وكانت كل العلب خاوية؛ لا قطع نقدية، أو فضّية، أو برونـزية، أو عملة عتيقة.

صبّ الزيت على النار

أخذنا "فتّاح" و"صدّيق" إلى مقرّ قيادة الشرطة، وتركنا زينب في مسكن نجدت دينيزل. فقد كانت هناك بصمات في كل مكان ويجب أن تحصل على عينات؛ خاصة من أُطر اللوحات. تولّى علي أمر فتّاح وصدّيق. وعلى الرغم من أنهما بدَوا لي صادقين، إلاّ أنه توجب علينا أن ندوّن إفادتهما ونسجّلها. وطبعاً هناك قضية السلاحين اللذين كانا في حوزتهما، واللذين ينبغي أن نكتشف إن كانا مرخّصين، كما ينبغي أن نتأكد إن كان لديهما الإذن والسلطة الضروريان لحمل المسدسين خارج مكان العمل.

عندما شُغل كلاهما بالعمل، خرجت لتناول بعض الطعام في مقهى أسطه منجنلي كابيت العمّالي عند الزاوية في نهاية الشارع. ملأت بطني أرزاً وفاصولياء، ثم سلكت طريقي عائداً إلى مكتبي، حيث كان علي واقفاً بانتظاري في الداخل وهو يتنفس بصعوبة ويبدو مثل رجل قد طُعن في الظهر.

"سيدي، ما رأيك بالسيد ممتاز؟".

ما الذي يقصده الآن؟ ما علاقة ممتاز بأي شيء؟

"إنه رجل صالح ياعلي، لماذا؟".

"حسناً، أشعر بالارتباك؛ لأكون صادقاً تماماً. فهو يتصرّف... حسناً، على نحو غريب".

"علي، ما الذي يجري؟ اجلس وأخبرني بما حدث؟".

جلس، ومن دون أن يزعج نفسه بأن يهدأ أو يتنفّس بشكل طبيعي، شرع يقول: "لقد ظهر محامي فتّاح وصدّيق".

"هذا طبيعي، ويُفترض به أن يفعل هذا، فهو ملزم قانونيّاً بالحضور. وماذا في ذلك؟".

"حضر أركان سونغور معه".

بدا الاسم مألوفاً، لكنني لم أتذكره تماماً.

"أركان سونغور... أين سمعت هذا الاسم من قبل؟".

"إنه مدير آي- يلديز للأمن".

آه، إنه الرجل الذي ذكره فتّاح. "هو شرطي سابق، أليس كذلك؟".

"هذا صحيح. كان رئيس قسم على ما يبدو. قال أركان إنه يريد التحدث إلى فتّاح".

"وبمَ أجبته؟".

"أخبرته أنه ليس بكامل وعيه. وعلى اعتبار أنه الشخص الذي أرسل "فتّاح" و"صدّيق" إلى منـزل نجدت، فهو يعد مشتبهاً فيه أيضاً مثل رَجُليه تماماً. لذا، قلت له إنه يجب أن يقدّم إفادة".

"وماذا حصل؟".

"تميّز غيظاً وسألني إن كنت أعرف من هو، فقلت: لا أهتم بمن تكون، فالقانون قانون ".

انتابني شك في أن يكون قد استخدم مثل هذه اللغة المنمّقة، لكن القانون كان إلى جانبه.

"جيد، فعلت الصواب، ثم ماذا حدث؟".

"لم يعجبه أيٌّ من ذلك، وبدأ يقول كل تلك الأشياء عن كونه رئيساً سابقاً لقسم، لكنني أوقفته وقلت وله: هذا رائع ياسيدي الفاضل، لكن لا يهم حقاً إن كنت وزير الداخلية السابق. أخشى أنني مضطر إلى وضعك رهن الاعتقال ".

كان بمقدوري أن أراهن بحياتي وممتلكاتي أنه لم يستخدم عبارات مثل سيدي الفاضل وأخشى أنني مضطر ، وربما لا يكون قد دعا الرجل ثوراً أو حماراً بالطريقة التي خاطب بها "فتّاح" و"صدّيق"، لكنني كنت واثقاً تماماً أنه أبدى فظاظة على الأقل، خاصة لأن "أركان" كان شرطياً سابقاً. إذ لم يكن بمقدور علي- مثل مديره المباشر- تحمّل أفراد شرطة تلطخت أيديهم بأعمال قذرة.

"دُهش طبعاً حين رأى موقفي. وكنت على وشك اصطحابه إلى الداخل والبدء باستجوابه حين دخل السيد ممتاز. وفي اللحظة التي شاهد "أركان" فيها، بدأ يقول: عجباً! أركان، صديقي القديم. ماذا تفعل هنا؟ وتعانقا وتصافحا، هناك أمامي".

بدا ذلك مخزياً ودنيئاً. يعمل المرء على مدار الساعة، يوماً بعد آخر، وسنة إثر أخرى، على اعتقال المجرمين وحل القضايا الجنائية في ظروف صعبة جداً، وماذا يحدث؟ يتبين أن رئيسك أو مدير إدارتك أحد المشتبه فيهم، أو أحد أقاربهم أو أصدقائهم أو شركائهم، وتجد يديك مكبّلتين ولا يمكنك فعل شيء. ويتم عندها القيام بكل محاولة ممكنة لاعتراض طريقنا وإعاقة عملنا، ولا تعرف حتى ما يثير غيظك؛ أهو أن يكون مديرك وغداً أم عرقلة عملك. فضلاً عن ذلك، إذا لم تفعل ما يُطلَب منك بالضبط، فستوبّخ ثم ستُخفى الآثار في أول فرصة ممكنة. هذه هي الطريقة التي تجري بها الأمور في عالم الجريمة. وحتى إذا كنت إلى جانب القانون، فلا

يمكن أن تصبح بمنأى عن الآثار السلبية. طبعاً، ربما يكون علي مخطئاً، وربما لم يكن ممتاز يحاول أن يعيق تحقيقه على الإطلاق، وربما لم يفهم الوضع وبدا سعيداً برؤية صديق قديم؛ لذا تخلّى عن مهنيته للحظة. أياً يكن، كان يجب أن أمنع "علي" من صبِّ الزيت على النار.

قلت غير مبالٍ: "هذه الأمور تحدث ياعلي، وهما صديقان قديمان. لماذا أنت منـزعج من هذا؟".

لكن "علي" بدا منـزعجاً جداً، ولا يمكن أن يهدأ بسهولة.

"هذا ما ظننته أيها المدير. أخبرت نفسي أنهما يعرفان بعضهما منذ أمدٍ طويلٍ الآن، على اعتبار أن "أركان" مفوّض متقاعد، لكنه أخذ السيد "ممتاز" جانباً وهمس شيئاً في أذنه، فاستدار السيد ممتاز نحوي وأمرني بإحضار المشتبه فيهما إلى مكتبه. قال إن محاميهما وأركان سيشاهدان استجوابهما هناك، وعندما اعترضت لأسباب إجرائية، لم يستمع إلي، وقال: افعل ذلك فحسب ".

كان الأمر كما أخشاه تماماً، وبدا أنه توجد في الدوائر العليا أطراف ذات نفوذ تدسُّ أنوفها في عملنا.

سألت باذلاً قصارى جهدي لإخفاء غضبـي المتصاعد: "وماذا فعلت؟".

"ماذا كان بمقدوري أن أفعل أيها المدير؟ جئت فوراً إلى هنا لأراك، فأنت مديري، وأتلقى أوامري منك".

كان هذا "علي" الذي نعرفه؛ فرغم كل قسوته وفظاظته التي تدفعني غالباً إلى حافة اليأس، إلا أنه شجاع. وتصديقه مبادئه وإخلاصه لها يعنيان أنه لا يتراجع قط عن أي مواجهة؛ بغض النظر عن الشخص أو الشيء الذي يقابله. لكن، يجب إبقاؤه هذه المرة خارج النـزاع، فهو شاب، وبجرّة قلم، بتوقيع واحد، يمكن أن تنتهي حياته المهنية، وإلى الأبد. وإذا كان ينبغي لأحد أن يتلقّى اللوم، فهو أنا؛ الرجل الذي يتقدم به العمر. وكما تقول يفغينا باستمرار، يمكن أن أغادر ببساطة؛ يمكن أن أستقيل، وسينتهي الأمر من دون أي ضجة أو مشاكل.

قلت ملتزماً الهدوء: "فعلت الصواب يابني. انـزل إلى الأسفل وراقب "فتّاح" و"صدّيق"، ولا تدع أحداً يقترب منهما حتى أخبرك بخلاف هذا".

أشرق وجهه وسألني: "والمحامي؟".

"لا تسمح لهما بالتحدث إلى محاميهما الآن. يجب أن ينتظرا حتى أعود إلى هنا. وإذا ضغطا عليك، فأخبرهما أنهما يخضعان لتحقيق يتعلق بالإرهاب، وأن المعلومات سرية ولنا حق إبقائهما في الحبس لمدة أربع

وعشرين ساعة".

قال وهو يتجه إلى الباب شاعِراً بالسعادة: "فهمت. حتى إذا جاء الرئيس نفسه، فلن يتكلم مع هذين الاثنين".

كدت أغادر أيضاً حين رنَّ هاتفي الخلوي. ورأيت أنّ المتصلة هي ليلى باركين، فاضطررت إلى الرد.

"آنسة باركين، كيف حالك؟ كيف يمكنني مساعدتك؟".

"مرحباً أيها المفتش أكّان. أنا بخير، شكراً لك. سمعت أن هناك جريمة أخرى؟".

بدا الفضول في صوتها واضحاً. هل كان اهتمامها نظرياً وأكاديمياً محضاً، أم إنها تحاول اكتشاف مدى ما تعرفه الشرطة عن حركاتها؟

أجبت ببرودة: "لسوء الحظ، نعم. وقد تُركت الجثة في موقع لم نأخذه بالحسبان".

"هذا ما يبدو. أظن أن الجثة قد تُركت في قصر يديكول؟".

"في ألتين كابـي، على وجه التحديد".

"ألتين كابـي؟". صمتت قليلاً قبل أن تتابع. " بورتا أورا ... حسناً... إنه أجمل رواق معمّد بالتأكيد... وهل وجدتم قطعة نقدية أيضاً؟".

"نعم، تحمل علامة ثيودوسيوس كما يبدو".

"أتقول ثيودوسيوس؟ أنت لا تعني ثيودوسيوس الثاني، أليس كذلك؟ كان الشخص الذي بنى الأسوار".

"ربما يكون ثيودوسيوس الثاني؛ رغم أننا لسنا واثقين حالياً. إذ ربما نكون قد أخطأنا في قراءة النقش".

"هل يمكنني رؤية القطعة النقدية؟".

في الواقع، أردت لقاءها أيضاً؛ لأعرف فقط الإمبراطور الذي أمر بسك القطعة. عندها يمكن أن أعرف على الأقل سبب اختيار القاتل- أو القتلة- ثيودوسيوس الثاني في حين كان اهتمامنا منصباً على بيزاس وقسطنطين. إذا استطعنا اكتشاف سبب ظهور ثيودوسيوس في الصورة آنذاك، فسنكوّن فكرة ما عن المكان الذي يمكن أن نجد فيه الجثة التالية.

"طبعاً. متى تودّين أن نلتقي؟".

"عند الخامسة تقريباً، في الحوض المستطيل؟".

"الحوض؟".

"لديّ اجتماع هناك عند الرابعة، لذا يمكن أن ألتقيك هناك بعد الانتهاء منه".

كانت قد اعتمدت مرة أخرى نبرة الصوت المتغطرسة تلك؛ وكأنها تتكلم إلى مرؤوس لديها أو موظف عادي. غير أنها أدرَكَت أنها قد تجاوزت الحد حين لاحظت الصمت من طرفي فتابعت قائلة: "إذا كان ذلك يناسبك طبعاً".

فقلت بمرح؛ على أمل أن أبدّد أي مخاوف ربما أكون قد أثرتها: "طبعاً يناسبني. سأكون هناك عند الخامسة".

وعندما أنهيت المكالمة. شُغل ذهني بالتفكير في الاحتمال الكبير بأن تكون ليلى باركين هي القاتلة التي نبحث عنها. لكن، الآن لديّ قضية أكثر إلحاحاً ينبغي أن أحلّها قبل أن أهدر المزيد من الوقت. لذا، غادرت مكتبـي، وذهبت مسرعاً إلى مكتب ممتاز.

أركان

عندما دخلت مكتب ممتاز الذي كانت مساحته ضعف مساحة مكتبـي على الأقل، بدا الجو ودياً جداً بالتأكيد. لم يكن ممتاز جالساً خلف طاولته، وإنما قبالة أركان - وهو رجل طويل ونحيل، شعره أشيب ولحيته قصيرة - على كرسي بذراعين كما يفعل حين يأتي مديره أو الحاكم لزيارته. رأيت بجانب أركان محامياً؛ في الثلاثين من عمره، متوسط الطول، أملس الشعر، ويبدو وكأنه قد خرج من الحمام للتو. عندما رآني ممتاز أدخل، لم تظهر عليه أي دهشة أو قلق، وتابع ارتشاف قهوته. وفي الواقع، بدا سعيداً برؤيتي.

"آه، نوزت، هذا أنت. ادخل، تفضل. يوجد شخص أريد أن أعرّفك به. هذا أركان، كنا في الأكاديمية معاً، وهو أسطورة في قسم مكافحة الإرهاب. ربما تكون قد سمعت به، أركان سونغور، وهذا...".

قال الرجل لامع الشعر: "هاكان يمالي، أنا ممثل الشركة القانوني".

تجاهلت المحامي ومشيت إلى الشرطي السابق.

قلت وكأنني أحاول تذكر الاسم: "أركان سونغور... أركان سونغور...". ثم تقدّمت لأواجهه وأنا أقول: "أركان سونغور... هذا صحيح. أنت تعمل مع آدم يزدان، أليس كذلك؟".

قال وقد انتابه إحساس بأن شيئاً ما ليس على ما يرام، وحاول إخفاء شكوكه: "هذا صحيح. أنا مدير آي - يلديز للأمن".

قلت مثبّتاً ناظريَّ عليه: "هذا هو الاسم الذي ذكره المشتبه فيهما في الأسفل؛ فتّاح وصدّيق. أنت تعرف السيدين فتّاح وصدّيق، أليس كذلك؟".

قال بفخر: "أعرفهما، فهما يعملان معنا".

قلت وأنا أفرك يدي معاً: "حسناً، إنه أمر جيد أن أعرف أنك مستعد للاعتراف. سيجعل هذا الأمور أسهل".

ردَّ أركان بتجهّم؛ متخلّياً عن المرح: "أعترف بماذا؟".

"يتلقى فتّاح وصدّيق أوامرهما منك". ومن دون أن أنتظر رداً أو محاولة للدفاع عن النفس، استدرت إلى ممتاز. "ألقينا القبض على شخصين مشتبه فيهما في مسكن نجدت دينيزل ياسيدي، وقالا إنهما أُرسلا إلى هناك بناءً على أوامر من السيد سونغور".

تلاشت ابتسامة ممتاز. هل كنت أعقّد الموقف، أم إن هناك شيئاً ما يجري حقاً؟

قال أخيراً: "ماذا تعني؟". ثم استدار إلى صديقه طالباً تفسيراً قبل أن يدرك خطأه ويستدير مجدداً ليواجهني؛ الشخص الذي يجب أن يسأله: "ماذا... ماذا فعل هذان الرجلان؟".

بدأت أسرد الجرائم. "خلع ودخول عنوة عبث بالأدلّة، إعاقة ضابط شرطة، وربما ارتكاب جريمة قتل أيضاً. كل ما نعرفه هو أن أحدهما قد يكون جزّار إسطنبول الذي كنا نسمع عنه كثيراً مؤخراً".

بدا ممتاز مذهولاً. "جزّار إسطنبول؟".

"ألا تقرأ الصحف ياسيدي؟ الجرائم الثلاث التي نعمل عليها؟ كانت وسائل الإعلام قد أطلقت على القاتل لقب جزّار إسطنبول . أعناقهم حُزّت...".

أطبق صمت ثقيل علينا، وأضحت الغرفة هادئة جداً، واستطعنا سماع طنين المذياع في الغرفة المجاورة.

قال أركان؛ مدركاً أن الاهتمام منصبٌّ عليه: "مهلاً، مهلاً، لا بد أن هناك خطأ ما. لا علاقة لفتّاح وصدّيق بأي جرائم إطلاقاً. ونعم، لقد أرسلتهما إلى منـزل نجدت دينيزل، لكن...".

قلت متشككاً: "هل كانا يقولان الحقيقة؟ إذاً، أنت متورط أيضاً!".

تجهّم وجه أركان وأجاب: "لست متورطاً بالطبع، ولا علاقة لي بتلك الجرائم، وكذلك فتّاح وصدّيق. نحن... اسمع ياممتاز...".

لكن، لم تعد نظرة ممتاز الدمثة الودودة التي كان يوجّهها له سابقاً موجودة آنذاك، وبدا مرتبكاً وقلقاً. فعندما أدرك أنّ شيئاً ما يجري، وأنّ يدي صديقه ملطّختان، لم تخطر في ذهنه إلا فكرة واحدة: "ما الذي تورّطت فيه؟ وكيف سأخلّص نفسي من هذه الفوضى؟". أدرك أركان أنه لن يحصل على أي مساعدة من ممتاز، لذا استدار وتكلم معي.

"يا كبير المفتشين، سيدي، كل ما أحاول قوله هو إن نوعاً من سوء الفهم قد حدث".

قلت بهدوء: "قد يكون هذا صحيحاً ياسيد سونغور، لكن هناك شيئاً غير مفهوم. إذا كنت مخطئاً، أرجو أن تصحح لي. قال المشتبه فيهما إنهما أُرسلا إلى ذلك المكان بناءً على أوامر منك".

عرف الشرطي السابق أن الأمر سيكون قاسياً، فبدأ يتململ على كرسيه.

"نعم، فعلت. أنا من أرسلهما إلى منـزل نجدت، ولكن ليس ليسرقا شيئاً. لم يكن هناك شيء مخالف للقانون".

فتحت عينيَّ على اتساعهما دهشة، وكأنني سمعت شيئاً فظيعاً.

"لا شيء مخالف للقانون؟! اسمح لي أن أكرّر ما قلته. اعتُقل رجُلاك في مسكن القتيل نجدت دينيزل وهما يحملان سلاحين مع ذخيرة حيّة. وهما ولا ينكران أنهما قد ذهبا إلى المنـزل بهدف السرقة".

بدا أن كلماتي قد أثّرت في قائد الشرطة الحالي أكثر من الشرطي السابق. فقد نهض ممتاز عن كرسيه بسرعة كبيرة؛ وكأنه كان جالساً على جمر، ولم يعد بمقدوره البقاء قريباً من أركان آنذاك بعد كيل كل تلك الاتهامات إليه. وأشار إلى الكرسي الذي نهض عنه للتو.

وقال قلقاً على نحو واضح: "تفضّل يا نوزت، اجلس".

أجبت: "لا داعي يا سيدي، أنا بخير هنا. أرجوك، لم أكن أرغب في مقاطعتكما؛ أنت والسيد سونغور".

إما أنه لم يفهم معاني كلماتي المستترة أو تجاهل تلميحي.

فقد قال وهو يمشي إلى كرسيه خلف الطاولة: "لا إطلاقاً. الوضع يصبح معقّداً قليلاً هنا، لذا من الأفضل أن تجلس وتخبرنا بكل التفاصيل".

كانت الحقيقة قد بدأت تتسلل أخيراً إلى جمجمته السميكة. وعندما أدرك أن شيئاً ما يحدث، بدّل موقفه وشرع في محاولة إنقاذ نفسه، ما أثّر بالتأكيد في موقف ضيفه. تجهّم وجه المحامي واختفت ابتسامة أركان؛ رغم أنه لم يكن من النوع الذي يستسلم بسهولة.

قال بأسلوب هادئ ورابط الجأش: "ممتاز، يمكن أن أفسّر كل شيء. كل ما يقوله المفتش المحترم هنا صحيح، لكنه ليس سيئاً كما يبدو". ثم استدار وواجهني. "يجب أن تصدّقني يا كبير المفتشين، فالأمر ليس كما يبدو. إذا سمحت لي، يمكنني أن أشرح كل شيء".

"لِمَ لا يا سيد سونغور، كل ما نريده هو توضيح القضية. فكما تعرف من أيام خدمتك في السلك، نقدّر جميعاً أيّ اعتراف حين يكون جدّياً".

عبس حين سمع كلمة اعتراف ، وكاد يعترض على استخدامي الكلمة حين تدخل ممتاز قائلاً وهو يبدو فجأة رزيناً جداً مع صورة أتاتورك خلفه، والعلم التركي إلى يمينه، وراية الشرطة إلى يساره: "نعم يا أركان، ربما يمكن أن توضّح لنا كل هذا. هناك شيء غير مفهوم. لم تخبرني عن أيٍّ من هذا، ما القضية؟".

"بالله عليك يا ممتاز، لا شيء سيئ يجري، وأنت تعرف هذا".

"لا شيء سيئ؟!". كان القائد يعنّف صديقه القديم تقريباً. "دخل رجلاك منـزل الفقيد مسلّحين، واعترفا أنهما ذهبا إلى هناك بهدف السرقة..."

أضفت بوقار: "هناك أيضاً إعاقة عمل شرطي ياسيدي. كادا يطلقان النار علينا".

صرخ ممتاز غاضباً آنذاك: "وتقول ألا شيء سيئ يجري ياأركان؟!". شعرت بالأسى على أي شخص قد يفكّر في مقاطعته. "ماذا يجب أن يحدث أكثر؟ هل يجب أن نقبض على عدد منهم وهم يقطّعون شخصاً إلى أشلاء بسكين جزّار؟".

صرخ أركان، والعرق يتكوّن على جبينه آنذاك: "ما الذي تحاول قوله ياممتاز؟ ما الذي تتكلم عنه؟ أنت تعرفني!".

وضع المدير يديه على طاولته ومال إلى الأمام. "أعرفك حقاً ياأركان، فعلاً. لكن، لدينا الآن ثلاث جثث في المشرحة، والمشتبه فيهما اللذان اعتقلناهما يعملان في شركتك".

قال المحامي أخيراً: "لكن، لدينا التراخيص الضرورية لكلا السلاحين، وكلاهما مِلكٌ لشركة آي- يلديز للأمن".

فاجأه ممتاز بالسؤال قبل أن تسنح لي فرصة القيام بذلك. "وهل يمتلك هذان الرجلان رخصة لحمل هذين السلاحين خارج عقارات الشركة؟".

لم يعرف المحامي أملس الشعر ما ينتظره فأجاب متردّداً: "حسناً... همم... ربما لأنه لم يكن هناك مكان مناسب... لإيداع هذين السلاحين في المكاتب، قرّرا أخذهما معهما في طريقهما إلى المنـزل".

"إذاً، هل هذان الرجلان مسجّلان على أنهما من قاطني مسكن نجدت دينيزل!؟".

تلعثم المحامي؛ مدركاً أنه كلما فتح فمه، جعل الأمر أسوأ: "همم، حسناً، لا، طبعاً لا".

"إذاً، أوقف هذه الثرثرة. يبدو واضحاً أن رَجُليكما مذنبان باقتراف -".

"لكن...".

قال أركان للمحامي ليسكته: "لا بأس ياهاكان. دعني أتولى أمر الحديث". ثم استدار وابتسم لي ولممتاز. "اسمعا، نحن جميعاً من رجال الشرطة هنا، أليس كذلك؟ ونحن نعرف كيف تجري الأمور، ونفهم بعضنا جيّداً. ممتاز، كبير المفتشين نوزت، إذا استمعتما إليّ، فسيكون كل شيء واضحاً جداً".

لم نعترض على عرضه، والحقيقة أنني كنت متشوّقاً لسماع ما سيقوله أركان. فقد كانت هناك أشياء أريد معرفتها، ومعلومات أحتاج إليها. على سبيل المثال، مَنْ آدم يزدان هذا؟ وما نوع العمل الذي كان نجدت

دينيزل يؤديه له؟

"آدم يزدان هو الابن البكر لإحدى عشائر هكاري القديمة". بدا الأمر كما لو أن أركان يستطيع قراءة أفكاري. "لقد عرفتم خلفيته على الأرجح. تمتلك عشيرته تسع قرى، ونعم، كان أفراد الأسرة بمن فيهم السيد يزدان متورطين في بعض التعاملات المشبوهة".

دمدم ممتاز: "تعاملات مشبوهة!". كنت قد حصلت على ما أردته، ولم يعد ودوداً مع صديقه القديم وإنما صار ينظر إليه بعين الشك. "ما نوع العمل المشبوه الذي نتكلم عنه هنا؟ ماذا؟".

"لا شيء ممّا تفكر فيه ياممتاز! لا شيء من هذا القبيل! كان آدم يزدان يدعم الدولة دائماً، ولم يدخل مجرمون أيّاً من قراه، وقد قدّمت عشيرته المئات من خفراء القرى والحرّاس لسلطات الدولة. لا، عندما أقول تعاملات مشبوهة، فأنا أتكلم عن تهريب الماشية، وأشياء مماثلة. يجب أن تتذكر أن قراهم بجانب الحدود. ودعني أكون صادقاً بما أننا نتكلم في الموضوع، اختارت الدولة غالباً أن تغض الطرف عن هذا النوع من النشاطات. على كل حال، قبل خمس عشرة سنة، انتقلت الأسرة إلى إسطنبول. كانت وزارة المالية حينها قد أصدرت عفواً عن المهرّبين؛ لإخراج مال السوق السوداء من تحت الأرض وتوزيعه في السوق، فانتهزت الأسرة الفرصة لتستثمر أموالها في عمليات فوق الطاولة".

كان يضيع الوقت سدى، وأردت أن يتوقف عن اللف والدوران ويتطرق إلى صلب الموضوع.

"نعرف كل هذا. أخبرنا فقط عن علاقة آدم يزدان بنجدت دينيزل؟".

"كنت سأصل إلى هذا ياكبير المفتشين. يريد السيد يزدان بناء مجمّع تجاري في السلطان أحمد، وسيراعي التقاليد المعمارية والثقافية لشبه الجزيرة القديمة، وسيكون هذا المجمّع هو الأكبر من نوعه في البلقان. سيُستلهم كل شيء ويُستمد من إرث المنطقة الموغل في القدم؛ المكاتب، والمحال، والشوارع، والمطاعم، ومواقف السيارات، والحدائق، وسينسجم كل ذلك مع ثقافة الموقع وتاريخه ويكون انعكاساً له. صدّقني، لقد رأيت النموذج وهو مدهش، ولم يغفلوا عن شيء؛ العهد الإغريقي، والروماني، والعصر العثماني، وحقبة الجمهورية؛ كلها ممثّلة في المجمّع. لكن الموقع الذي سيتم بناء المجمّع فيه مصنّف على أنه إرث وطني، وآدم يزدان رجل مثقف لا يُولي أهمية قصوى لتاريخنا وحضارتنا فحسب وإنما لقوانيننا أيضاً، لذا وظّف السيد دينيزل ليكون مستشاراً له، وكان السيد دينيزل يقدم النصيحة إلى

السيد يزدان بشأن الإمكانيات والبدائل في ما يتعلق بالتنمية والبناء في منطقة السلطان أحمد".

قلت لنفسي: وهل هناك طريقة أفضل لخداع السلطات حين تسرق كل ما تقع العين عليه؟!

سألت: "وماذا عن مجموعة القطع النقدية العتيقة؟ لماذا يهتم السيد يزدان جداً بمجموعة نقود السيد دينيزل؟".

تحرّك قليلاً على كرسيه، وبدا انـزعاجه انـزعاج رجل بريء يكافح جاهداً ليخلّص نفسه من موقف شائك.

"هذا ما سأتكلم عنه. لم تكن القطع النقدية كلها ملكاً للسيد دينيزل، وإنما إحدى المجموعتين تخص آدم يزدان".

ما الذي كان يرمي إليه الآن؟

"إحدى المجموعتين؟".

"نعم، هذا ما كنت أحاول قوله لكما طوال الوقت. كان نجدت دينيزل شغوفاً بالقطع النقدية الرومانية والرومانية الشرقية، في حين يهتم السيد يزدان بقطع العهدين العثماني والجمهوري".

قال المحامي: "يمكن أن أشهد على صحة هذه الإفادة. ويمكن أن أعرض شهادة جمع العملات الرسمية، وقائمة تفصيلية إن أردتما".

ثمّ انحنى إلى الأسفل ليرفع الحقيبة الجلدية الثمينة التي كان يضعها بجانب قدميه، وأبعد جانباً فنجان القهوة الذي بالكاد تناول رشفة منه، ثم وضع الحقيبة على الطاولة، وفتح القفل وأخرج وثيقتين وملفين.

"ها هي. هذه شهادة جمع عملات باسم السيد آدم يزدان، وهذه قائمة تفصيلية بكل قطع العهدين العثماني والجمهوري التي بحوزته. إذا ألقيتما نظرة عن كثب، يمكن أن تريا قطعاً نقدية يعود تاريخها إلى عهدي السلطان محمد الفاتح، والسلاطين سليمان وسليم وأحمد الثالث، إضافة إلى قطع من حقبتي أتاتورك وعصمت إينونو".

مِلتُ إلى الأمام وألقيت نظرة. كان محقاً، فالوثائق كلها تحمل اسم آدم يزدان.

قال وهو يدفع مجموعة أخرى من الأوراق نحوي: "وهذه شهادة السيد نجدت دينيزل على أنه جامع عملات، وقائمة تفصيلية بمجموعته أيضاً".

سلّمت الوثائق التي كنت أحملها إلى ممتاز، وأمسكت الجديدة التي ناولني المحامي إياها. اتضح أنه محق مجدداً، وأنها باسم نجدت دينيزل.

ألقيت نظرة عليها لأرى إن كانت هناك أي قطعة تشبه القطعة التي عثرنا عليها بين كفّي الضحية الأولى، ووجدتها فعلاً؛ القطعة النقديّة التي نُقش عليها "نجم وهلال" بجانب بعض الأرقام والحروف التي لم أميّزها. نظرت إلى القائمة حتى وجدت المعلومات التي أبحث عنها: قطع نقدية من عهد قسطنطين، تحت عنوان "نقود قسطنطين العظيم". إذا كانت القطع النقدية هي نفسها التي تُركت بين أيدي الضحايا، فسيكون القاتل هو الشخص الذي يمتلك مجموعة النقود. لكن، للتوثق من أنها القطع نفسها، كان يجب أن أعرض السجلات والنقود على ليلى باركين، وأدركت أن رؤية رد فعلها ستكون أمراً ممتعاً؛ رغم أنني لم أشاطر أياً من الأشخاص الآخرين الموجودين في الغرفة تلك الفكرة.

سألت وأنا أرفع بصري عن القائمة: "لماذا وثائق نجدت بحوزتك؟ ولماذا كانت مجموعة نقود آدم يزدان في منـزل نجدت؟".

بعد تبادلٍ للنظرات، قرر المحامي أن يجيب.

"رُفعت قضية ضد السيد دينيزل".

"بتهمة التهريب؟".

"بتلك التهمة، نعم، لكنها لم تثبت، وبُنيت بناء على اتهامات باحثٍ عن الكنوز لا أساس لها من الصحة؛ ولهذا السبب تلك الوثائق معي. وفي ما يخص وجود نقود السيد يزدان في مسكن السيد دينيزل...".

قال أركان: "اسمح لي أن أخبرهما عن هذا. كان سيُقام معرض في متحف اللوفر في باريس، في قسم العاديّات، لذا أخذ نجدت نقود السيد يزدان لعرضها على بعض الخبراء القادمين من فرنسا. كان نجدت هو الشخص الذي يتواصل مع الوفد الفرنسي".

ومضت العلب السبع التي كانت سابقاً محشوة قطعاً نقدية عتيقة ومخبأة في أُطر اللوحات أمام عيني.

"أخفى نجدت القطع النقدية في علب تمّ تصميمها خصيصاً داخل أطر اللوحات المعروضة في منـزله. هل كانت نقود آدم يزدان مخبأة هناك أيضاً؟".

ضحك أركان بصوت خافت وأجاب: "بالتأكيد. أنت تعرف العلماء؛ إنهم حذرون دائماً، ويتخذون تدابير احترازية على الدوام. ربما لم يخطر للرجل المسكين أنها ستكون أول مكان سيتوثق منه أي لصوص محتملين، والحمد لله أنه لم يحدث شيء للقطع النقدية حتى الآن".

إما أنه لم يكن يعرف أنّ النقود قد سُرقت، أو كان يقول ذلك لأنه

سرقها بنفسه.

"حتى الآن؟! إذاً، أنتَ لا تعرف أن النقود قد سُرقت، أليس كذلك؟".

تجهم وجهه، واتسعت عيناه رعباً؛ كما يقتضي الحال، وطرح السؤال الضروري. "ماذا؟ هل سُرقت القطع النقدية؟".

"كلها. لم يترك اللص، أو اللصوص، قطعة واحدة خلفهم داخل تلك العلب السرية".

تبادل الشرطي السابق والمحامي المبتدئ النظرات، لكنني كنت آنذاك متعباً جداً ولا يمكنني التوثق إن كانت حقيقية أم زائفة.

"إذا نحّينا جانباً قضية السرقة للحظة، أنتما لم تخبرانا بعد عن سبب إرسالكما الرجلين إلى منـزل نجدت دينيزل".

جمجم أركان غافلاً عن سؤالي: "أتعني أن القتلة قد سرقوا القطع النقدية؟".

"هذا احتمال، أو ربما أخذها بعض السارقين الذين انتهزوا الفرصة حين قُتل نجدت دينيزل".

لم يغفل عن تلميحاتي.

"لم يكن الحصول على تلك القطع النقدية فكرتي، ولا أهتم بها إطلاقاً أو بالببغاء اللعين. أراد السيد يزدان أن نسترجع النقود".

"وكيف عرف السيد يزدان أن نجدت قد قُتل؟".

"أنا أبلغته، السيد يزدان في موسكو...".

كان يؤكد كل معلوماتنا. ربما كان وجود آدم يزدان في موسكو جزءاً من خطة محبوكة بعناية؛ فعندما يكون مسافراً إلى الخارج في رحلة عمل، يستطيع رجاله تنفيذ الجريمة. وعندما يوضع على المحك سيدّعي البراءة استناداً إلى حقيقة وجوده خارج البلاد، ومن ثم عدم مسؤوليته عمّا حدث. أياً يكن الأمر، أدركت أن الحقيقة ستظهر.

سألت محاولاً الحصول على بعض المعلومات المفيدة: "هل لديكم أي أعداء؟ أعني، هل لدى آدم يزدان، ومن ثمّ نجدت دينيزل، أي أعداء؟ على اعتبار أنهما يعملان معاً... هل هناك أي مجموعات تعارض عملهما؟ وإذا وجدت، فمن؟".

رمقني بنظرة ساخرة. "أعداء؟! ليس وفقاً لما أعرفه. كل نشاطات الشركة فوق الطاولة، والسيد يزدان دقيق جداً بشأن مثل هذه الأمور". حكَّ وجهه الخشن، وبدا حقاً وكأنه يفكّر في ذلك، ويحاول فعلاً أن يتذكر إن كان لمديره أعداء. "من الطبيعي أن يكون لديه منافسون، لكنهم جميعاً

رجال أعمال محترمون؛ مديرون تنفيذيون، وأصحاب فنادق، ولاعبون في قطاع السياحة، هذا النوع من الأشخاص".

سألت: "وماذا عن نجدت دينيزل؟ لا بد من وجود أشخاص لا يحبونه. فبالمحصلة، لقي الرجل حتفه غيلة. هل يخطر أحد ببالك؟ ربما ذكر بعض الأسماء".

ظهرت نظرة ماكرة على وجه أركان وهو يُجيب:

"في الواقع، كان هناك شخص. إنه طبيب، حسناً جرّاح لأكون دقيقاً. إنّه حبيب طليقة نجدت، واسمه...".

"نامق قرمان".

"هل تعرفه؟ إنّه إرهابي سابق. فقد جرح شرطيين أيضاً في سالف الزمان. أمسك نجدت من عنقه مرة وكاد يقتله، كان سيُجهز على نجدت المسكين آنذاك لو لم يسحبه الأشخاص القريبون منهما بعيداً عنه. وهو يدير مجموعة الآن، ويقول إنها لحماية إرث المدينة التاريخي أو هراءً مماثلاً، لكننا نعرف جميعاً أنها غطاء لإثارة المشكلات. قد يكون الرجل طبيباً، لكنه يستخدم المجموعة كستارة لإخفاء نواياه الحقيقية".

وعندما رآنا نرهف السمع بصمت، بدأ يتحدّث عن اليساري السابق بثقة متزايدة من دون اكتراث، ويصوّره على أنه الجاني، لذا فاجأه سؤالي التالي.

"متى وقع هذا الشجار؟".

"عذراً؟".

"سألتك متى أمسك نامق عنق نجدت؟".

"أظن أن هذا حصل قبل شهرين تقريباً. أتذكر ذلك لأنني عندما اكتشفت الأمر سألت نجدت إن كان يريد مني الذهاب وإجراء دردشة مع نامق لكنه رفض. إذ لم يرغب في معاداة طليقته". كان يتكلم آنذاك بحرّية، ظاناً أن الجاني قد عُرف أخيراً. "هل تعرف شيئاً يا كبير المفتشين، أظن أنك يجب أن تتوثق من أمر نامق هذا لتكتشف ما يسعى إليه. كان يزدري نجدت بالتأكيد، والأسوأ أن لديه عصابة كاملة من صغار السن تحت إمرته؛ حشداً من الفتيان المخلصين تماماً لكلامه وأفعاله، والذين ينتظرون إلى جانبه مستعدين تماماً، وربما يكون قد استغلّهم لتنفيذ تلك المهمة".

دفعت إفادة أركان "ممتاز" إلى التصرّف، فقال وهو يضع شهادتي جمع العملات والقائمتين التفصيليتين على طاولته: "تبدو هذه معلومات

مهمة، لكن ما يهمني هو الانفصاليون الإقليميون الذين ذكرتهم. من يقول إنهم ليسوا خلف كل هذا؟ ربما كان هذا نوعاً من الانتقام من آدم يزدان. قلت ذلك بنفسك هذا الصباح يا نوزت؛ إنها تبدو عملية تم التخطيط لها. ماذا إن كانت من فعل منظمة إرهابية؟".

لم يكن هناك خطأ في التخمين، لكن مجدداً بدا احتمال أن يكون آدم يزدان، أو أركان سونغور، أو نامق قرمان، أو ليلى باركين، أو حتى المحامي الشاب أملس الشعر الجالس أمامي، هو القاتل أكبر من احتمال كونها عمليةً نفذتها مجموعة إرهابية. لم تكن هناك أي دلالة على أنها من صنع انفصاليين. ولو أنهم فعلوا ذلك لتركوا علامة مميزة، أو لاتصلوا بنا ليخبرونا بفخر أنهم خلف عمليات القتل. لكن، لم يكن أيٌّ من ذلك مهماً بالنسبة إلى أركان الذي كان مقتنعاً آنذاك بفرضية صديقه.

"طبعاً! لماذا لم نفكّر في هذا الاحتمال؟ لقد تعرّضت قرى السيد يزدان للهجمات عدّة مرات، وقبل سنتين فقط تلقى السيد يزدان رسائل تهديد كثيرة. ربما يكون هذا الجرّاح اليساري قد تعاون مع الانفصاليين ونفّذ العملية برمّتها".

كانت فكرة سخيفة تماماً، رغم أنها لم تعنِ أن شكوكي تجاه نامق قرمان قد تبدّدت. إذ بدا أنّ من مصلحته أن يجعل جُلَّ اهتمامنا منصباً على نامق؛ مما يعني أنه يهدر وقتي.

سألت: "هل يعني لك اسم مقدّر كيناسي شيئاً؟".

لاحظت فوراً الصمت المزعج بين أركان والمحامي، وتفاديا النظر إلى بعضهما، وبقيا صامتين. بدا واضحاً أنهما يعرفان الرجل لكنهما كذبا.

"مقدّر كيناسي؟ لا، لم أسمع بالاسم مطلقاً".

"وأنا أيضاً، من هو؟".

"إنه الضحية الثانية. وجدنا جثته أمس". عرفت أنهما لن يعترفا بمعرفتهما إياه، لكنني أردت الضغط عليهما على كل حال. "عمل في مجلس المدينة مخططاً حضرياً، وقدّم بعض الاستشارات أيضاً، مثل نجدت دينيزل. وهو من نوع الرجال الذين يمكن أن يستفيد آدم يزدان منهم في مجمّعه التجاري في السلطان أحمد".

قال أركان وهو يستدير إلى المحامي: "لا أدري. هل تعرف شيئاً عن هذا الأمر يا هاكان؟".

"أخشى أنني لا أعرف شيئاً. لم أسمع بمقدّر كيناسي قط، وعدم ذكر السيد يزدان له قضية أخرى، لكنني لم أسمع الاسم مطلقاً".

تمتمت: "وماذا عن سادان دوروكا؟". ورأيت نظرة القلق نفسها على وجهيهما.

همهم أركان: "أتعني الصحفي؟ لقد قرأت مقالاً أو اثنين له".

"هل يعرفه آدم يزدان؟".

أجاب بحزم وهو يهز رأسه: "لا".

"هل أنت واثق؟".

رد أركان: "طبعاً أنا واثق". وطرفت عيناه بسرعة مرتين، فتساءلت: هل تطرف عينا أركان سونغور مرتين كلما كذب؟

قلت مثبّتاً بصري عليه: "سأحتاج إلى هذا مكتوباً، لذا يجب أن تنـزلا إلى الأسفل وتقدّما إفادة مكتوبة".

وعندما نظر أركان إلى ممتاز طلباً للعون وأدرك ألا فائدة من ذلك، استدار إلى المحامي، لكنه رأى نظرة خالية من أي انفعال. استطاع المحامي أن يستجمع قوته، وقال بتوتر: "سأرافقه وأحضر الاستجواب".

قلت بمرح؛ وكأننا صديقان حميمان منذ سنوات: "هذا طبيعي! لم أكن لأفعل ذلك بأي طريقة أخرى! فما نفع حفل الزفاف من دون وصيفة عروس؟".

عرف أنني أسخر منه، لكنه بدا مرتاحاً؛ لأن بمقدوره أن يخبر مديره آدم يزدان أنه قد قام بواجبه وكان حاضراً في الاستجواب، لذا لم يرد على الاستفزاز.

قلت وأنا أفتح الباب: "من هنا أيها السيدان، المفتش غورمن ينتظركما".

تسمّر الثلاثة حين سمعوا الاسم. وقف أركان والمحامي ببطء، في حين بقي ممتاز ساكناً على كرسيه.

سألت المدير: "سيدي، هل تود أن تكون حاضراً في أثناء الاستجواب؟".

أجاب بتهذيب: "لِمَ أنا؟ لقد سمعت ما أريد سماعه، فلماذا ينبغي أن أكون هناك؟".

قلت بجديّة تامّة: "حسناً، كنت أفكّر أنّ السيد سونغور صديق قديم لك، لذا ربما تود أن ترافقه".

عرف أنه سيخطئ إن ردّ على ما قلته، لذا لم يقل شيئاً رداً على ذلك، وإنما حدّق إليّ ممتعضاً، ثم قال وهو يشيح ببصره بعيداً: "لا، تولَّ الأمر. يمكنك و"علي" أن تتعاملا مع هذا".

ميدوسا

بعد أن تركت "علي" ومجموعات السيّاح في ساحة السلطان أحمد خلفي وسلكت طريقي نـزولاً على تلك الأدراج ذات الإضاءة الخافتة التي تنتهي بعالم شبيه بالأحلام؛ عالم الغموض والظلال الذي يكوّن الحوض المستطيل، بقي ذهني مشغولاً بما يجري في مقر القيادة. كنت قد اصطحبت أركان والمحامي إلى الأسفل وسجّلنا إفادتيهما، بالإضافة إلى إفادتي فتّاح وصدّيق؛ كما طلب صاحب السمو ممتاز تماماً، وكرّروا جميعاً ما كانوا قد قالوه سابقاً. في الواقع، اضطررنا إلى تذكيرهم بأنهم قد جاءوا لأخذ الببغاء بالإضافة إلى القطع النقدية؛ حين نسوا ذلك. وعلى الرغم من أننا استجوبنا الأربعة كلاً على حدة، إلاّ أننا لم نلحظ تناقضاً في إفاداتهم، ولم يُعق أيٌّ منهم عملنا، خاصة فتّاح وصدّيق اللذين أجابا بحماسة على كل أسئلتنا، لكن لا يمكن قول الشيء نفسه على أركان. وعلى الرغم من أنني لم أُثبت ذلك، إلاّ أنني عرفت أنه يخفي بعض المعلومات. ولكن بفضل سخاء القانون الكبير، خرج الشرطي السابق المراوغ حراً، في حين أُحيل فتّاح وصدّيق المسكينان إلى مكتب المدّعي العام.

لم تكن زينب قد عادت من منـزل نجدت دينيزل بعد، وكان العمل على شاحنة توزيع اللحم لا يزال قائماً على قدم وساق. كنت قد أرسلت "علي" إلى مكتب سادان دوروكا؛ لأنه لا يوجد قريب أو نسيب للصحفي المطلّق ثلاث مرات في إسطنبول، وابنه الوحيد من زوجته الأولى يعيش في لندن. فكّرت في أنه ربما يكون بمقدور علي الحصول على بعض الأدلّة المهمة من زملاء الفقيد، والأهم تشغيل حاسوبه والوصول إلى كتاباته ومراسلاته. وبعد أن يُنهي عمله في الصحيفة، سيذهب لرؤية نيازي زميل مقدّر كيناسي للحصول على قائمة بأعضاء اللجنة الاستشارية التي عمل كلاهما فيها. وبعد أن أصبح صحفي بارز مثل سادان دوروكا بين الضحايا آنذاك، انخفض احتمال أن يكون القاتل أحد المستشارين. لكن تلك القائمة قد تساعدنا في العثور على بعض الخصائص المشتركة بين الضحايا، أو ربما تلفت انتباهنا إلى شيء غاب عنا سابقاً، لذا طلبت من علي أن يكون يقظاً جداً، وألا يغفل عن أدق التفاصيل التي ربما تبدو ثانوية.

وبينما كنت أنـزل درجات الحوض المستطيل وأنا أحمل القطع النقدية والقائمتين التفصيليتين في حقيبتي الجلدية، انتابني شعور بالانـزعاج. بدا مستحيلاً أن أحسَّ بشيء غير ذلك، مع وقوع ثلاث جرائم في ثلاث ليالٍ

متعاقبة، وبقاء الجاني حراً طليقاً؛ يثير الفوضى ويتلاعب بنا بالطريقة التي يلهو بها هرٌّ مع فأر. لم يكن من الممكن التوقف آنذاك، فقد تابع هو أو هي أو هم عمليات القتل، ولم يتركوا لنا أدلّة حاسمة. في الواقع، كان توقّع ظهور أدلّة أمراً مبالغاً فيه، وبدا أنهم يهزأون بنا، وعرفت أننا يجب أن نبقى هادئين حتى لا نرتكب أيّ أخطاء. لكن، مع العثور على جثة جديدة كل صباح، أضحى صعباً على نحو متزايد أن نحافظ على هدوئنا. ففي الأيام الثلاثة الماضية، لم نحصل على شيء؛ لا أدلّة، أو معلومات، لا شيء. لم يبدُ ممكناً أن يكون عمر إكينلي خلف تلك الجرائم، وهناك علامات استفهام حول آدم يزدان ونامق قرمان وليلى باركين، لكن احتمال أن يكون عمر هو القاتل معدوم تقريباً.

توقفت تلك الأفكار والتخمينات فجأة حين وصلت إلى أسفل الدرجات الحجرية، وظهر صف أعمدة بعد آخر من المياه المعتمة التي امتدت أمامي مثل صفوف من أشجار ضخمة متمايلة أبعدت أي أفكار عن آدم يزدان وليلى باركين وحبيبها من ذهني. لم أكن أزور الحوض المستطيل للمرة الأولى، لكنني شعرت بالدهشة والتعجب اللذين أحسُّ بهما دائماً حين أقصد هذا المكان؛ كما حدث حين كنت طفلاً، وكأنها رحلة عبر الوقت، أو لأكون أكثر دقة، رحلة خارج الوقت. كان الحوض هو المكان الوحيد الذي يبرز في ذهني من بين كل الصروح والأبنية التي رأيتها؛ ليس في إسطنبول فحسب وإنما في كل مكان آخر أيضاً. لقد احتفظت كل الأماكن الأخرى التي شاهدتها بطريقة ما بعلاقة بالحاضر، وكلما زرت موقعاً- سواء أكان مدرسة أم معهداً دينياً أم قلعة أم كنيسة أم معبداً بُني قبل مئات أو آلاف السنين- شعرت دائماً بأنني في الحاضر، وأعرف أن العودة إلى العالم "الحقيقي" فوراً على بعد بضع خطوات فقط. لكن، كلما نـزلت إلى ذلك العالم تحت سطح الأرض- كما كنت أفعل آنذاك- وكلما استنشقت الهواء في الجو الرطب والخانق، وأضعت نفسي بين صفوف الأعمدة التي لا تنتهي، كنت أشعر دائماً بأنني قد دخلت وقتاً ومكاناً آخرين؛ بعداً آخر بعيداً جداً عن العالم المألوف الذي ربما لا يبعد أكثر من بضع خطوات.

كان ذلك يحدث مرة أخرى، وقد خلّصني الجو في الحوض من كل الأفكار الأخرى التي كانت تعصف في رأسي إلى حد أنني غفلت عن سبب ذهابي إلى هناك في المقام الأول. وجدت نفسي أتجوّل هناك وكأنني في حلم؛ على طول الرصيف فوق المياه الساكنة والداكنة التي كانت تنساب برفق عند قواعد تلك الأعمدة الغريبة. مشيت بهدوء بين الأعمدة، شارداً

تقريباً؛ وكأن قوة سامية غريبة تقودني، باحثاً عن تبرير خارق للطبيعة لما أراه وأختبره؛ رغم أنني أعرف بالضبط المكان الذي تقودني قدماي إليه، إلى العمودين في الزاوية اللذين نُحِتَ رأس ميدوسا على قاعدتيهما.

كانا دائماً، برأيي، الصرحين الأكثر تميّزاً في ذلك المكان تحت الأرض. وبالنسبة إلى عينيَّ، لقد بُني مجمّع الحوض برمّته لاحتضان تمثالي ميدوسا النصفيين الغريبين اللذين بقيا صامتين آلاف السنين آنذاك. وعلى الرغم من اختفاء الحجارة الكريمة التي كانت موجودة مكان عيونهما منذ وقت طويل، إلا أن المرء ينتابه شعور بأن كل الألغاز والفظائع والأسرار التي كانت المدينة مسرحاً لها لا تزال مخبأة في تلك العيون. حدّقت إلى الوجهين الفاتنين، وفكّرت في حقيقة أن الأحواض قد بُنيت لنقل الماء إلى آيا صوفيا، لكن صوتاً صادراً من الظلام الحالك قاطع أفكاري التي كانت تهيم على غير هدى.

"سيد أكّان... سيد أكّان...".

أفسحت عينا ميدوسا الخضراوان المجال لعيني ليلى باركين اللتين كانتا بلون الكستناء.

قالت مبتسمة: "كُنتَ في عالم آخر. رأيتك وأنت تنـزل إلى الأسفل ولوّحت لك، لكنك لم تلاحظ. أنبأني حدسي أنك تتأثر كثيراً بالتاريخ وصروحه الرائعة ياسيد أكّان".

حاولت الابتسام.

قلت ناظراً إلى الأعمدة حولي: "حسناً، في هذا المكان خاصة. هذا المكان مدهش، وساحر ببساطة".

"إنه كذلك فعلاً، لكنك كنت في حالة الذهول نفسها حين رأيتك أمس".

لم أعرف ما تقصده.

"ألا تذكر؟ بجانب عمود ثيودوسيوس".

كانت محقة، فقد عقدت الدهشة لساني أمس أيضاً مما رأيته، وقد اقتربت ليلى باركين مني سراً وخفية آنذاك أيضاً من دون أن ألاحظ. ربما كانت تراقبني منذ بعض الوقت.

تنهّدت؛ وكأنها تطلب مني إلقاء ذلك المظهر الزائف جانباً.

"اعترفْ بذلك ياسيد أكّان، التاريخ يفتنك".

رددت: "يجب أن يفتن أي شخص في هذه المدينة، وإلا فلن نتمكن إطلاقاً من تقدير روعة إسطنبول الحقيقية".

قالت بتأثر: "في هذه الحال، يجب أن نملأ أوراق عضويتك في عصبة الدفاع عن إسطنبول".

رددت مذهولاً من صراحتي: "ولِمَ لا؟ سأفعل أي شيء للمساعدة في الحفاظ على هذه المدينة".

قالت وهي تميل رأسها إلى الخلف: "أي شيء؟". كان صوتها مازحاً، ونبرتها ساخرة تقريباً. كان السؤال الحقيقي الذي تطرحه عليّ حقاً كما أظنّ هو إن كنت مستعداً للمخاطرة من أجل المدينة، لكنني لم أتراجع.

"نعم، أي شيء. هذه المدينة فريدة تماماً، ولا نظير لها، ولا أظن أننا نستحقها".

تنَهّدت بعد أن اقتربت اللعبة من نهايتها آنذاك قائلة: "أوافقك الرأي تماماً". سمعت حزناً عميقاً في صوتها حين نَظَرت إلى الأعمدة. "انظر إلى هذا المكان. كنا بالكاد نعرف بوجوده، ولم يبدأ الترميم حتى عام 1987 ؛ بعد أربعة وستين عاماً على تأسيس الجمهورية".

"ماذا عن العثمانيين؟ هل كانوا يعرفون هذا المكان؟".

"طبعاً عرفوه، فقد استخدموا المياه من هذا الحوض لريّ حدائق القصر. لكن، عندما يتعلق الأمر بمياه الشرب، كان العثمانيون يفضّلون الماء الجاري على الساكن، لذا أنشأوا نوافير في كل أرجاء المدينة. الأحواض من صنع الرومان الذين أمروا ببنائها؛ حتى لا تعاني المدينة من نقص في المياه في أثناء الحصار. وإذا أخذنا بالحسبان عدد المرات التي تعرّضت فيها المدينة للهجوم والحصار، لا يسعنا إلا أن نقر بأنهم كانوا ذوي بصيرة".

كنت قد عرفت هذه المعلومة على الأرجح في إحدى مراحل حياتي، لكنني اضطررت إلى طرح السؤال؛ لأن الاسم غاب عن ذهني. "من الذي أمر ببناء هذه الأحواض؟ هل كان قسطنطين؟".

قالت وهي تهز رأسها: "لا. أمر جستنيان ببناء هذه الأحواض؛ وهو إمبراطور كرّس الكثير من طاقته لأجل هذه المدينة؛ تماماً مثل قسطنطين. كان جستنيان هو المسؤول عن صرح آيا صوفيا الأخير والأكثر روعة، ويقال إنه بنى هذه الأحواض خاصة لنقل الماء إلى الكاتدرائية".

أشرت إلى تمثال ميدوسا النصفي الذي يبدو وسط الماء. "هل لتلك القاعدة أي أهمية خاصة؟ إنها ليست مثل الأخرى".

ردّت بحزن: "سيكون ذلك لطيفاً، فالمكان سيصبح أكثر إثارة للاهتمام إن كان له معنى غامض، لكن الأمر ليس كذلك. إنها على الأرجح من بقايا معبد وثني قديم. فكما تعرف، شنَّ جستنيان حملة قمع قاسية ضد

الوثنيين، وأراد جعل النصرانية الدين الرسمي المهيمن للإمبراطورية، ويقال إن أكاديمية أثينا- أهم مركز فكري في ذلك العصر- حرمت الوثنيين من التعلم والالتحاق بالخدمة العامة، وأعلن الإمبراطور الحرب على غير النصرانيين. ربما يكون تمثالا ميدوسا النصفيّان قد وُضعا هنا لإبعادهما عن عيون العامة، ثم للاستفادة منهما في أثناء بناء الأحواض". قالت بصوت منخفض، وكأنها تخشى أن تسمعها المياه الساكنة تحتنا وتشي بها إلى الإمبراطور الذي قضى نحبه منذ أمدٍ طويل: "إما هذا، أو أن أحد العمّال الوثنيين- احتراماً لدينه المحظور- نقل التمثالين إلى هنا ودمجهما بعد ذلك في التصميم".

حان الوقت لتغيير الموضوع.

"يبدو جستنيان هذا شخصية مثيرة للاهتمام. لكن ما يهمني في هذه اللحظة تحديداً هو الإمبراطور الذي بنى ألتين كابـي؛ ثيودوسيوس، أو ثيودوسيوس الثاني، أو أياً يكن اسمه. أنا واثق بأنكِ ستزوّدينني بالتفاصيل، وتصححي أي أخطاء أو أفكار مغلوطة قد تكون لدي".

ضَحِكَت بحماسة.

"لماذا تضحكين؟".

"لأنك تتكلم عن الإمبراطور وكأنه مشتبه فيه في جريمة قتل".

شعرت بأنني أحمق، لكنني حاولت إخفاء ذلك. "أعتذر يا آنسة باركين، لكننا نتعامل مع تحقيق جنائي هنا، وليس مع درس تاريخ".

"أرجو ألاّ تشعر بالإساءة، فأنا لم أعنِ شيئاً. في الواقع، أجد طريقتك جديرة بالثناء. على كل حال، هل قطعة النقود معك؟".

قلت وأنا أتأمّل المكان حولي: "نعم". رأيت ثلاثة سيّاح ناطقين بالإسبانية على الرصيف الضيق؛ لا يبعدون عنا إلا بضع ياردات. بدا من الطبيعي أن يفتنهم تمثالا ميدوسا، لكنني لم أرغب في الحديث عن التحقيق وهم قريبون منا إلى هذا الحد. "هل تودّين إلقاء نظرة عليها هنا؟ لأن لدي قائمة تفصيلية بنقود نجدت أيضاً".

سألت وهي تنظر إلي بارتياب: "حقاً! من أين حصلت عليها؟".

"أعطانا إياها محامي آدم يزدان. كان يدافع عن نجدت في قضية رُفعت ضده".

لا بد أن كلماتي كانت مقنعة؛ لأنها استرخت على نحو بادٍ للعيان.

"فهمت. هل يمكنني رؤية القطع النقدية؟".

"طبعاً". ألقيت نظرة أخرى حولي. "ألا يوجد مقهى أو مطعم هنا حيث يمكن أن نتكلم براحتنا؟".

"يوجد مقهى تحت الدَّرَج عند المخرج، لكن المكان مظلم جداً هناك. وإذا كنا سنذهب إلى هناك، فأنا أخشى أنني لن أستطيع رؤية القطع النقدية أو قراءة الكرّاس". وأشارت إلى مقعد خشبي طويل تحت مصباح يبعد عنا بضعة أمتار. "يمكن أن نجلس هناك، فالمكان هادئ والضوء كافٍ تماماً. لن يزعجنا أحد على كل حال، فالكل هنا لرؤية ميدوسا".

الحوض المستطيل

مددت يدي إلى داخل حقيبتي، ثم سلّمتها القائمتين التفصيليتين والوثائق الأخرى. ترقرقت الدموع في عينيها قليلاً حين أمسكتها، لكن الوقت والمكان لم يكونا ملائمين للتعامل مع مشاعر ليلى باركين المعقّدة تجاه طليقها.

سألت على أمل كبح أي عواطف تراودها: "هل سبق لك أن رأيت هذا الكرّاس من قبل؟".

قالت بحزم وهي تهزُّ رأسها: "لا. هذه أول مرة أراه فيها".

ربما كانت تقول الحقيقة. بالمحصلة، ربما يكون نجدت دينيزل قد بدأ بجمع القطع النقدية بعد انفصالهما، بمعنى أنها لم تكن تدرك وجود هذه القائمة. أخرجت القطعتين النقديتين اللتين تعودان إلى العهدين البيزنطي والقسطنطيني من الحقيبة، وأبقيت القطعة النقدية الخاصة بثيودوسيوس لنفسي آنذاك.

قلت وأنا أسلّمها القطعتين: "هاتان هما القطعتان اللتان رأيتهما أمس. أريد منك أن تخبريني إن كانتا مسجّلتين في هذا الكرّاس أم لا. ألقيت نظرة بنفسي، لكنني ربما كنت مخطئاً وأسأت التقدير. إذا كان بمقدورك أن تتحقّقي من أجلنا...".

قالت وهي تمد يدها وتمسك القطعتين: "بكل سرور". حدّقت إلى إحداهما ثم قلّبت صفحات القائمة التفصيلية. "لنرَ الآن... بيزنطية... بيزنطية... آه، ها هي". قارنت النقوش الظّاهرة على القطعة النقدية بالوصف في السجل. "همم... قطعة عليها شعار نجم وهلال، وتمثال نصفي لهيكات على الوجه الأمامي، وكتابة بيزنطية على الوجه الآخر. نجم وهلال، ثمانية عشر ميليمتراً، ثلاثة غرامات وخمسة وثمانون جزءاً من الغرام". رفعت بصرها. "القطعة المذكورة في السجل هي هذه بالتأكيد". عادت إلى الكرّاس. "الآن، جاء عهد قسطنطين... ها نحن ذا. قطعة قسطنطينية كبيرة، وتمثال نصفي لقسطنطين على الوجه الأمامي". رفعت القطعة إلى الضوء. "نعم، الوصف ينطبق على الوجه الأمامي، والجانب الآخر... فيكتوريا جالسة وهي تحمل درعاً عليها حروف فوت إكس- إكس- إكس، فيما يظهر جانبها الأيمن... ختم السك على الحواف... إنهما بالتأكيد من مجموعة نجدت أيها المفتش أكّان".

حان الوقت الآن لإخراج القطعة الثالثة.

"هذه هي القطعة النقدية التي وجدناها بين كفّي الضحية الثالثة".

قالت وهي تفحص القطعة التي كانت موضوعة في كيس شفّاف: "همم... سوليدوس".

"عذراً؟".

شرحت وهي لا تزال ترفع الكيس عالياً نحو الضوء: "إنها مصنوعة من الذهب". جمجمت: "مثل نقد قسطنطين... وهذه من عهد ثيودوسيوس الثاني؛ كما توقعت تماماً. القطعة النقدية ليست من عهد ثيودوسيوس وإنما من عصر حفيده ثيودوسيوس الثاني".

الجد ثيودوسيوس، الحفيد ثيودوسيوس... لم تكن لدي أدنى فكرة عن هذين الإمبراطورين أو منجزاتهما، لذا انتظرت بصبر لتنير الخبيرة بصيرتي.

"نعم، هذا هو... تمثال نصفي لثيودوسيوس الثاني على الوجه الأمامي...". فحصت القطعة النقدية عن كثب. "نعم، هذه القطعة مسجّلة أيضاً على أنها ملك لنجدت".

كان هذا يعني أن مجموعتي نقود نجدت دينيزل وآدم يزدان بحوزة القاتل... وإذا أراد القاتل اقتراف جريمة لكل قطعة في المجموعتين، فعندها...

تمتَمَت وهي تعيد القطعة إلي: "غريبٌ أنهم اختاروا ثيودوسيوس الثاني بعد قسطنطين. لم يكن ثيودوسيوس الثاني أحد الأباطرة البارزين في التاريخ الروماني".

سألت: "ما الفارق الزمني بين قسطنطين وثيودوسيوس؟".

قالت مصحّحة كلامي: "بين قسطنطين وثيودوسيوس الثاني. كان ثيودوسيوس، كما ذكرت، جدَّ ثيودوسيوس الثاني. وبخلاف حفيده، كان حاكماً ذا سمعة حسنة، ومعروفاً بأنه ثيودوسيوس الكبير، وآخر حاكم للإمبراطورية الرومانية الموحدة. بعد وفاته عام 395 ميلادية، انقسمت الإمبراطورية إلى شطرين شرقي وغربـي".

لم أهتم للمحاضرة، لكنني اضطررت إلى الانتظار حتى أغلقتُ حقيبتي قبل أن أحصل على الجواب الذي كنت أنتظره.

"الجواب عن سؤالك، نعم، انقضى وقت طويل بين قسطنطين وثيودوسيوس الثاني. فقد توفي قسطنطين عام 337 ميلادية، في حين ولد ثيودوسيوس الثاني عام 401 . ممّا يعني أنه- دعني أفكّر- خلال أربع وستين سنة حكم الإمبراطورية عدّة حكّام آخرين". نظرت إليّ من طرفي عينيها. "هناك علامات استفهام تتعلق بثيودوسيوس الثاني، حسناً، من ناحية النسب".

"ماذا تقصدين؟".

قالت بمكر: "حسناً، وأعتذر عن العبارة مسبقاً، لكن يقال إنه وُلد خارج إطار الزوجية. يوجد دليل يدعم الزعم بأن والدته إيودوكسيا كانت امرأة تفتقر إلى الفضيلة ، لنقل إنها خانت زوجها أركاديوس- والد ثيودوسيوس- مع شباب القصر الوسماء. كل تلك تفاصيل ثانوية، لكن الحقيقة تبقى أن ثيودوسيوس الثاني لم يكن إمبراطوراً كفؤاً. طبعاً، كانت وفاة والده المبكرة عاملاً في ذلك. وعندما تُوّج ثيودوسيوس إمبراطوراً، لم يكن عمره يتجاوز سبع سنوات.

"سبع سنوات!".

كانت الدهشة واضحة جدّاً في صوتي؛ ممّا جعل إحدى السائحات- وهي سيدة عجوز لطيفة- تستدير وتنظر إلينا وهي تتبع أصدقاءها إلى الخارج.

قالت ليلى باركين التي لم تنتبه إلى السيدة العجوز: "هذا صحيح. استلم السلطة حين كان في السابعة، لكنه لم يحكم الإمبراطورية قطّ. فعندما أصبح إمبراطوراً، تولّى أنتيميوس؛ الحاكم الإمبراطوري للشرق والوصي على العرش، إدارة شؤون الدولة. وعندما توفي أنتيميوس، أدارت بولهيرا- شقيقة ثيودوسيوس- الإمبراطورية، وتقول الأساطير إنها كانت امرأة قبيحة جداً. وعلى الرغم من أنها نذرت نفسها للعزوبية وكرّست حياتها لذلك، إلا أنها بقيت- حتى وفاتها- امرأة موهوبة وطموحة جداً. وبعد أن سقط شقيقها المسكين عن حصانه ومات، تابعت الاهتمام بسياسات القصر حتى النهاية".

قلت وأنا أرفع حقيبتي: "إذاً، ما تقولينه أساساً هو أن الشخص الذي أمر بسك هذه النقود كان دمية؟".

"ليس تماماً. فقد أنجز الكثير، لكن أشخاصاً آخرين ألقوا بظلالهم عليه".

"أنجز الكثير! مثل ماذا؟".

"مثل تأسيسه أول جامعة عصرية في المدينة. هذا صحيح، فقد افتُتحت عام 425 م، وضمت واحداً وثلاثين كرسياً، وكان التعليم فيها باللاتينية واليونانية". صمتت قليلاً وعيناها ثابتتان على الأرض قبل أن تسألني: "قلت إنكم وجدتم الجثة في ألتين كابـي، أليس كذلك؟".

"هذا صحيح، عند البوابة المهملة القديمة لحصن يديكول".

تمتَمَت وهي مستغرقة في أفكارها: "الأسوار الأرضية... طبعاً، الأسوار

الأرضية! كانت أهم إنجازات ثيودوسيوس الثاني، فقد بُنيت الأسوار المتوازية التي تمتد من القرن الذهبـي إلى بحر مرمرة بأوامر منه. كانت ألتين كابـي، أو بورتو أورا وفقاً لاسمها اللاتيني، أروع الأروقة المعمّدة، والبوابة التي يدخل منها الإمبراطور العائد من المعركة إلى القسطنطينية". كانت عيناها تتلألآن إثارة آنذاك. "أتراجع عن قولي إن ثيودوسيوس لم يكن إمبراطوراً مهماً أيها المفتش أكّان؛ لأن بناء الأسوار وحده يعتبر كافياً لتوقير أي إمبراطور عبر العصور. كانت تلك الأسوار هي التي حمت هذه المدينة قروناً".

لم أكن مهتماً بمناقشة التفاصيل الصغيرة المتعلقة بكونه حاكماً رائعاً أم لا، فكلّ ما أكترث له هو سبب ترك الضحية عند ألتين كابـي.

سألتُ: "هل هناك أي أهمية تاريخيّة لوضع جثة الضحية عند ألتين كابـي؟ هل يحاول القاتل إخبارنا شيئاً؟ وإذا كانت الحال كذلك، فما هو؟".

"أظن أن الأمر المهم جداً هنا هو أن الرسالة التي يحاول القاتل إيصالها تتعلق بالمدينة أو حكّامها. نعم أيها المفتش أكّان، سأقول إن الجواب عن ذلك السؤال سيقودنا إلى...". وصمتت فجأة؛ وكأنها أدركت أنها قد ارتكبت هفوة، وتلتمس آنذاك العون. "ما أعنيه أنني آمل حقاً ألا تُرتكب جريمة أخرى، لكن إذا ارتُكبت...".

قلت بواقعية: "وستُرتكب، ولا مجال للشك في ذلك. إذا لم نجد هذا المجنون، فستقع وفيات كثيرة، لذا تابعي من فضلك".

"حسناً، ربما لن نتمكن من توقع المكان الذي سيتم العثور على الجثة التالية فيه، لكن المهم هو اكتشاف صلة الجرائم بهذه المدينة أو حكّامها".

بدا ما تقوله منطقياً...

قلت متذكراً القطعة النقدية الأولى: "كما أعرف، لم يكن الملك بيزاس رومانياً، وإنما إغريقياً، أليس كذلك؟".

"بالضبط. لم يكن رومانياً، أو إمبراطوراً. كان بيزاس مجرد ملك".

"لكن القطعة النقدية التي وجدناها بين يدي الضحية الأولى كانت تحمل شعار بيزاس، وليس رمزاً رومانياً".

قالت رافعة إصبعها، ومُصحّحة: "لكن تلك القطعة سُكّت في أثناء الحقبة الرومانية لا البيزنطية. إذا كنت تذكر، شرحت ذلك لك ولزميلك حين زرتماني في منـزلي".

تذكرت، لكنني كنت بحاجة إلى أن أتوثق. "هل هذه معلومة موثّقة

ومعتمدة؟".

"بالتأكيد. لقد سُكّت تلك القطعة حين كانت بيزنطية لا تزال تحت السيادة الرومانية. وعلى الأرجح، في أثناء عهد أغسطس أو طبريا، وقبل قسطنطين بوقت طويل. لم تكن المدينة قد أُعلنت عاصمة بعد".

كان تذكّر تلك الأسماء والتواريخ، مع كل أولئك الأباطرة والحكّام الذين يحملون أسماء غريبة، يصبح أمراً بالغ الصعوبة.

قلت محاولاً تبسيط الأمور: "إذاً أساساً، هل تظنين أن تلك الجرائم ذات صلة بالحكّام أم لا؟".

بدت متردّدة في الإجابة، ثمّ قالت وهي تقف على قدميها: "هلاّ نمشي قليلاً".

لم يكن لديّ خيار غير الموافقة، وتبعتها إلى الرصيف الذي كان يعج مجدداً بعدد كبير من الزوّار.

قالت بعد أن سلكنا طريقنا عبر مجموعة من السياح الناطقين بالإنكليزية: "من الصعب معرفة هذا. ربما لا تكون للجرائم أي علاقة بالمدينة على الإطلاق. ولكن، إذا كنت سأختار بين الاثنين، فسأقول إنه توجد على الأرجح صلة مع الحكّام؛ لأنه مع كل جريمة جديدة تُرتكب، يترك القاتل علامة مباشرة تقريباً تشير إلى حاكم ما".

قلت مضيفاً ملحوظة تحذير: "لكن هذا يصح على القطع النقدية فقط. ربما يكون الموقع الذي تُركت فيه الضحية الأولى مكان معبد أنشأه الملك بيزاس، مثل معبد بوسيدون، وقد قلت هذا بنفسك؛ إنه موقع معبد قديم. فعلاً، إنه حيث قلتِ إن السيد دينيزل تقدم بعرض الزواج منك في المرة الأولى".

قالت مبتسمة بحنان لثوانٍ معدودة حين سمعت اسم طليقها: "صحيح. لكن، ما الذي يجب أن نركّز عليه: القطع النقدية أم موقع الجثة؟".

"يجب أن نركّز على كليهما، بالإضافة إلى طبيعة ارتكاب الجرائم وأسلوبها، والوضعيات التي تُركت الجثث فيها".

لمعت عيناها اهتماماً. "وضعيّاتها؟!".

لم يكن هناك سبب لإخفاء هذه المعلومة، فقد كنت أشعر بالفضول لأرى ردّ فعلها لدى سماعها ذلك.

"كانت أذرع الضحايا مرفوعة فوق رؤوسهم، فيما الأيدي مقيّدة معاً مثل رأس سهم، في حين أن الأقدام متباعدة قليلاً كما لو أنها ريشة سهم.

أشارت يدا كل من الضحايا إلى حيث ستوجد الضحية التالية".

سألتْ وهي تنظر إلي بعدم تصديق: "لماذا لم تخبرني هذا من قبل؟".

قلت، محاولاً أن يبدو الأمر كما لو أنه سهو غير ذي شأن من جانبـي: "ألم أذكر هذا؟ لا أتذكر إن كنت قد فعلت أم لا. إذا لم أفعل، فعلى الأرجح لأنني ظننت حينها أنها قضية ثانوية. على كل حال...".

قالت: "لحظة رجاءً أيها المفتش أكّان. هل تثق بـي حقاً أم لا؟".

"طبعاً أثق بك! لماذا تظنين غير هذا بالله عليك؟".

"لأنك تخفي معلومات عني. إذا كان لديك سبب لعدم الوثوق بـي، فقل هذا من فضلك".

قلت كاذباً بصراحة للمرة الألف في سياق حياتي المهنية: "آنسة باركين، أثق بك ثقة عمياء، وإلا فلماذا أطلب تعاونك ومساعدتك إذاً؟!".

بدت مرتاحة قليلاً لكنها لم تقتنع تماماً.

"إذاً، أرجو ألاّ تخفي المزيد من المعلومات عني. إذا لم يتم إبلاغي بكل التفاصيل، فربما ستضللكم المعلومات التي أزوّدك بها، ولا أريد أن أتحمل مسؤولية مثل هذه الأخطاء في التقدير".

قلت من دون أن أزعج نفسي حتى بمحاولة الدفاع: "إذاً، نحن نتكلم اللغة نفسها. لم يكن إغفالي تلك التفاصيل يرجع إلى عدم ثقتي بك، وإنما لأن لدينا عملاً كثيراً ينبغي أن ننجزه، وكنا مشغولين جداً مؤخراً فغاب ذلك عن ذهني. سامحيني، ويا آنسة باركين، نريد منك أيضاً أن تكوني صريحة معنا تماماً، وعلى أهبة الاستعداد لمساعدتنا".

تمتمت بقلق وهي تحاول إخفاء عصبيتها المتزايدة: "أنا كذلك".

"لكنك لم تذكري حقيقة أن السيد دينيزل والسيد قرمان تعاركا".

ضاقت عيناها، وانتظرت أن أتابع كلامي.

"تكلمنا مع موظف بارز لدى السيد آدم يزدان اليوم، وأخبرنا أنه في ذلك اليوم تحديداً أحكم السيد قرمان قبضته على عنق السيد دينيزل، ولولا تدخل بعض الموجودين هناك، لكانت العواقب سيئة، وقاتلة".

جأرت: "أياً يكن ذلك الشخص، فهو كاذب".

"إذاً، ألم يقع شجار بينهما؟".

نظَرت إلى درابزين الرصيف، ثم إلى الأسفل نحو الأسماك الفضية التي كانت تسبح فوق قطع نقدية رماها الزوار في البركة بمرور عقود من الزمن.

قالت مشيحة ببصرها بعيداً عن المياه: "بلى. كان ما فعله نامق

خطأ، لكن نجدت استحق ذلك". ثم استدارت لتنظر إلي مباشرة مجدداً. "حدث ذلك قبل سنة، وكنت ونامق قد غادرنا للتو حلقة دراسية ناقشت فكرة تحويل منطقة السلطان أحمد إلى متحف، وذهبنا إلى حفل الكوكتيل بعد العمل. لم يكن نجدت حاضراً في الحلقة، لكنه جاء إلى الاحتفال على كل حال. بدا ثملاً جداً، ومشى مباشرة نحونا، وأشار إلى نامق وسألني عمّا أراه في ذلك المغفّل؛ كما قال. لم أردّ عليه، وأمسكت ذراع نامق وأخبرته أننا يجب أن نغادر المكان فوافق، لكن نجدت لم يتوقف، وأمسكني من كتفي وبدأ يتبجّح قائلاً: هؤلاء الأشخاص منفصلون عن الواقع ياليلى! إنهم ينتمون إلى العصر الحجري؛ اليساريون، والخضر، وكل نشطاء البيئة وهراؤهم ذاك. ألا تسمعين كل التعابير المكرّرة والهراء المبتذل الذي يقولونه؟ طلبت منه أن يُفلتني، لكنه صرخ قائلاً إنه لن يفعل. حينها، استدار نامق بهدوء، ورفع يد نجدت عن كتفي وطلب منه- بألطف طريقة ممكنة- أن يذهب إلى المنـزل ويرتاح قليلاً. جُنّ نجدت آنذاك واندفع نحوه؛ مطلقاً سيلاً من الشتائم، لكن نامق كان مستعداً له وتحرّك جانباً، ففقد نجدت توازنه وكاد يسقط، لكن نامق أمسك به وساعده على الوقوف. وعندما فعل ذلك، صفع نجدت الثمل جداً وجهَ نامق، وكانت تلك هي القشّة التي قصمت ظهر البعير، فأمسك نامق بعنقه، واضطر الموجودون حينها إلى تخليصه من بين يديه".

سألتُ مُقراً بما تحاول أن تشرحه: "إذاً، كان نامق أساساً يدافع عن نفسه؟".

"كان يدافع عن كلينا، فنامق ليس رجلاً عدوانياً. عرف نجدت أنه مخطئ، فقد اتصل بـي في اليوم التالي، واعتذر قائلاً إنه كان ثملاً جداً. قلت له حينها إن "نامق" أحق بالاعتذار وأنهيت الاتصال. ورغم أنني لم أظن أنه سيفعل ذلك، إلا أن نجدت اتصل بنامق واعتذر منه؛ معترفاً بخطئه. وعندما قبل نامق اعتذاره، دعانا نجدت إلى العشاء؛ قائلاً إنه يريد إصلاح الأمور بيننا، وقبلنا دعوته، وتكلمنا عن علاقتنا وحللنا المشكلة".

قلت: "فهمت". لم تكن هناك فائدة من الضغط في تلك القضية. "إذاً، يمكننا القول بثقة إن القضية قد سُويت. الآن، ماذا كنتِ تقولين عن التحقيق؟".

"كنت تقول لي إن جثث الضحايا قد سُجّيت بطريقة تشبه سهاماً تشير إلى موقع الضحية التالية. إلى أين كانت تشير؟".

"كانت يدا نجدت تشيران نحو سمبرليتس؛ حيث وجدنا مقدّر كيناسي

الذي أشارت يداه نحو حصن يديكول. الليلة الماضية، عندما عثرنا على سادان دوروكا، كانت يداه تشيران نحو ألتين كابـي، أو لأكون أكثر دقة، المنطقة خلف ألتين كابـي ".

همست: "الميس، محور القسطنطينية. إنها الطريق التي تخترق ألتين كابـي مؤدية إلى أبواب القصر السلطاني، وكانت هناك صروح لا تُحصى مصطفة على جانبيها في ما مضى؛ رغم أن معظمها لم يعد له وجود الآن إلا في كتب التاريخ".

"إذاً، يجب أن نعير اهتماماً خاصاً لتلك التي لا تزال قائمة. بغض النظر عن الضحية الأولى التي وجدناها في بقعة يُظنُّ أنها موقع معبد قديم، عثرنا على الضحيتين التاليتين بجانب صرحين تاريخيين بقيا قائمين حتى يومنا هذا. يجب ألا نجعل تركيزنا مقتصراً على ميس فقط، وإنما على الصروح قربه أيضاً".

قالت مستغرقة في تفكير عميق: "سيكون هذا منطقياً. لكن، توجد صروح كثيرة تحيط بذلك الطريق؛ بما فيها من كنائس، وقصور، وساحات عامة، وتماثيل، وموانئ، وأحواض كثيرة... نحن لا نتكلم عن قرية صغيرة وإنما عن عاصمة إمبراطورية شاسعة. كان دير إستوديو، وساحة بوفياس، وساحة أركاديوس، وساحة توري، وساحة القسطنطينية، وخزّانات ماء فيلوكسنوس، وأوغسطين، والحلبة، والمضمار، وآيا صوفيا، وقصر القسطنطينية الكبير، وحتى هذا الحوض الذي نقف فيه الآن، جزءاً من طريق ميس؛ وأيٌّ منها قد يكون المكان الذي يشير إليه القاتل".

كانت محقة، لكن لم يكن بمقدورنا أن نقيّد أنفسنا بتخمينات لا تنتهي وننتظر أن يضرب القاتل مجدداً.

"صحيح. لكن، إذا أردنا أن نستوعب الأمر، يجب أن ندرك أن القاتل يعمل وفقاً لنموذج محدد. مثلاً، على الرغم من عدم وجود نمط، إلا أننا لاحظنا تعاقباً زمنياً حتى الآن. فأولاً، لدينا الملك بيزاس، يتبعه قسطنطين، ثم ثيودوسيوس الثاني، وربما لا تكون المدة بينهم قصيرة لكنها متماثلة زمنياً".

قالت: "فهمت. إذاً، ما يجب أن نفكر فيه أساساً هو أننا يجب أن نولي اهتماماً للمباني والصروح الرئيسة التي شُيّدت في المدينة بعد ثيودوسيوس الثاني؟".

"بالضبط. ويجب أن تكون تلك الأبنية والصروح مميزة. إذ يريد القاتل عرض ضحاياه إلى جانب صروح تاريخية مميّزة".

"صحيح. في الواقع، يمكن اعتبار تمثال أتاتورك حيث وُجدت جثة نجدت صرحاً تاريخياً أيضاً".

وحين رأت تشكّكي أوضحت: "كان ذلك الصرح هو التمثال الأوّل في تركيا، وأقامه هاينريش كريبل من أجل أتاتورك، ونُقل إلى قاعدته في سارايبورنو عام 1926 ".

"هذا مثير للاهتمام. نعرف الآن أن القاتل كان يحاول لفت انتباهنا إلى الملك بيزاس وليس إلى أتاتورك. لكن ما لا نعرفه هو أين سيترك ضحيته الرابعة، وليس لدينا أحد باستثنائك يمكن أن يساعدنا. يجب أن تخبرينا عن الأباطرة والصروح من حقبة ما بعد ثيودوسيوس الثاني".

بدت على وشك أن تُصاب بالذعر حين رأتني أنظر إليها متشوّقاً.

"ماذا؟ الآن؟".

قلت من دون أن أبعد ناظريَّ عنها: "الآن. فكل دقيقة مهمة".

"لكن، لكن... إذا أسرعت على هذا النحو، فقد أقترف خطأ مريعاً".

"لا داعي للقلق بشأن ذلك، وامضي قدماً فحسب".

"لنرَ الآن، من هم الأباطرة الذين جاءوا بعد ثيودوسيوس الثاني؟". طاف بصرها على آجر سقف الحوض. "مارقيان... ليو الأول... ليو الثاني...". صمتت قليلاً، ثم بدأت تتمتم بإثارة. "يجب أن يكون مارقيان طبعاً؛ زوج أخت ثيودوسيوس الثاني، إذ لا يزال صرحه قائماً. طبعاً، إنّه عمود مارقيان القائم في المنطقة التي كانت تُعرف باسم ساحة أماستريانون. كانوا في ذلك الوقت ينفذون عمليات الإعدام في الساحة؛ حيث يوجد عمود مارقيان، وكانت الجثث تُعرَض هناك تحذيراً للناس". ثم استدارت إلي بإثارة قائلة: "نعم أيها المفتش أكّان، ينتابني شعور بأن الضحية التالية ستتواجد عند عمود مارقيان".

"وأين هذا العمود؟".

قالت وهي تنظر إلي بدهشة لأنني لا أعرف: "في الفاتح طبعاً؛ رغم أنها تدعى اليوم غالباً حجر البكر، أو كما نقول بالتركية كيز تاسي ".

عمود مارقيان

انتظرنا في سيارتي عند زاوية الطريق شديد الانحدار الذي يصل بين شارع آيا صوفيا و كيز تاسي . وكان هذا الطريق، مثل كل شارع ودرب آخر في كل حي من مدينتنا الحبيبة، تشغله كل أنواع المركبات التي تحتل كل المساحات الخاوية. لكن، في هذه الحال، كان وجود مثل هذا العدد الضخم من السيارات لمصلحتنا؛ لأنه حجبنا ربّما عن عيني القاتل الثاقبتين؛ الذي ربما سيأتي لتقديم قربانه الأخير إلى الصرح.

لم يكن معي في السيارة غير علي. أما الفريق المكوّن من ثلاثة رجال، والذي يرأسه أكرم فكان يتجوّل في المنطقة حول الصرح. كنا قد ركنا السيارة في مكانٍ عالٍ حتى نحظى بمنظر واضح للعمود العتيق الذي لا يزال منتصباً بفخر؛ حتى بعد تحطيم التمثال الذي كان فوقه قبل وقت طويل، وبعد تلاشي النقوش عن قاعدته بمرور الوقت.

سأل علي محطّماً جدار الصمت: "لماذا يدعونه كيز تاسي أيها المدير؟ هل بُني من أجل فتاة؟".

لم يسعني إلا أن أبتسم، فقد طرحت على ليلى باركين السؤال نفسه حين كنا نغادر الحوض المستطيل.

"في الواقع، بنى المحافظ في ذلك الوقت العمود ليسجّل اسمه في كتب الإمبراطور. لم يعد تمثال الإمبراطور مارقيان موجوداً الآن، لكنه كان هناك على القاعدة أيضاً، ويهمس وفقاً للأسطورة: عذراء أو غير عذراء للنساء اللواتي يمررن قربه. ومع انتشار اللغط بأنّ التمثال يتحرّش بالنساء اللواتي يمشين بجانبه، لم تعد السيدات يتجاوزنه، إلى أن مرّت قربه يوماً أخت زوجة آخر الأباطرة فهمس التمثال أنتِ لست عذراء ، فقامت الدنيا ولم تقعد. إذ عادت شقيقة الزوجة إلى القصر باكية ومصرّة على أن مثل تلك الإهانة لا تُغتفر. وانتقاماً لشرف أخت زوجته، ردَّ الإمبراطور الذي كان خاضعاً لنفوذ زوجته تماماً بإزالة التمثال من أعلى العمود". كانت عينا ليلى باركين قد طرفتا على نحو لعوب بعد أن أخبرتني ذلك. "هذه كلها شائعات طبعاً. والسبب الحقيقي لتسمية عمود مارقيان كيز تاسي هو وجود نقشين بارزين لنايك على قاعدة العمود. وقد بدأ العثمانيون على الأرجح بتسمية العمود كيز تاسي بسببهما".

أرهف علي السمع حين أخبرته بما قالته لي ليلى باركين.

وقال بمرح وهو يتدثر بسترته الجلدية: "يقيم محافظٌ تمثالاً لتعظيم

إمبراطور، فتكون النتيجة أن يطلق الناس مجموعة كاملة من الأساطير والخرافات عن ذلك".

كان يتكلم بمرح، لكن بصره لا يزال ثابتاً على العمود. وبدا من الصعب معرفة إن كان يتفحّص الصرح أم يترك ناظريه يرتاحان هناك حتى يتعافى من الإرهاق الذي أصابنا جميعاً. كان بمقدوري بسهولة أن أتكوّر هناك على مقاعد سيارتي الخلفية القديمة المتهالكة وأغفو.

سألت على أمل أن يساعد السؤال والحديث الذي سينجم عنه في إبقائي مستيقظاً: "إذاً، الضحية الثالثة لم يكن السيد "محبوب" بين زملائه؟".

تمتم علي مشوشاً بعد أن غفا قليلاً، قبل أن يجلس منتصباً على مقعده: "أتعني سادان دوروكا ياسيدي؟ لا ياسيدي، لم ألاحظ أي شعور بالحزن في الصحيفة. طبعاً، لم يكن أحد منهم يحتفل أو يقول إنه سعيد لموته، لكنني لم أرَ شخصاً يسكب دموعاً عليه. كل ما حصلت عليه هو بضع ملحوظات، وتعابير مبتذلة. وبرأيي، لم يرغبوا أن يتكلموا عنه بالسوء بعد أن غيّبه الموت. لكن، ربما تكون زينب محقة؛ ويبدو أن لديه ماضياً غامضاً، سادان هذا".

"مثل الضحيتين الأخريين تماماً...".

تابع علي، غافلاً عمّا قلته: "جمعت دفاتر ملحوظاته وقرص حاسوبه الصلب وأخذتها إلى المختبر. لم يكن هناك شيء في دفاتر الملحوظات، باستثناء بعض المعلومات عن مقالات كان سيكتبها، وأرقام هواتف لشخصين سيجري مقابلتين معهما. سلّمتْ زينب القرص الصلب إلى الشباب في مختبر الحاسوب، وسنعرف بحلول الغد إن كان هناك شيء مفيد عليه".

بدا الاعتماد على ما سنعرفه في اليوم التالي كبيراً، وأهم شيء معرفة هوية الأشخاص الذين تركوا بصماتهم على علب القطع النقدية التي كنا قد اكتشفناها في أُطر اللوحات في منـزل نجدت دينيزل. كانت زينب قد عادت إلى مقر القيادة عند العاشرة ليلاً؛ قبل أن نخرج في مهمتنا. وبناءً على إصرار علي، تولّت أيضاً مسؤولية نقل بيزاس وتسليمه إلى ملجأ مؤقت في جمعية تختصّ بالطيور محلية وموثوقة؛ حتى لا يموت المخلوق المسكين جوعاً وإهمالاً. كانت قد عملت بجد وأنجزت شيئاً مهماً، لكن لا يزال هناك الكثير مما ينبغي فعله، وتوجد نقوش كثيرة على القطع النقدية، ويجب أن تعمل طوال الليل لتحديدها. وستظهر نتائج تحليل عينات الدم الخاصة بشاحنة اللحم في اليوم التالي أيضاً، والخلل الفني في النظام الحاسوبي في المجلس يعني أن قائمة المستشارين لن تكون جاهزة قبل

الغد على أقل تقدير. وأسوأ ما في ذلك كله هو أننا عندما نحصل على البيانات الجديدة فهناك احتمال بألاّ يجعلنا ذلك أقرب إلى النتيجة المرجوة. في الواقع، كان توقّع نتيجة جيدة أمراً مفرطاً في التفاؤل، فالبيانات الجديدة قد لا تزوّدنا بأي دليل على الإطلاق.

فجأة شعرت بالألم في كتفي مجدداً، وتحرّكت على المقعد. بدا واضحاً أن شقيق عمر قد أنـزل تلك الضربة على كتفي بقوة أكبر مما كنت قد ظننت في البداية. بدأ الألم يفصح عن نفسه، وظننت أن ذلك جيد؛ لأنه سيبقيني مستيقظاً.

سألت: "متى قلت إن سادان دوروكا غادر الصحيفة آخر مرة؟".

"مساء الثلاثاء، ولم يذهب إلى العمل يوم الأربعاء. كانت مقالاته تُنشر أيام السبت، لذا لم يلاحظ أحد غيابه. ولأن أصدقاءه شبه معدومين في الصحيفة، لم يسأل عنه أحد".

ثلاثة أيام، ثلاث ضحايا... إذا كان من المتوقع أن تقع عملية اختطاف كل يوم... لا، لم يكن هؤلاء الأشخاص يتركون شيئاً للمصادفة، وقد خطفوا سادان على الأرجح بعد أن غادر الصحيفة مساء الثلاثاء وقتلوه، لكنهم لم يأخذوه إلى ألتين كابـي فوراً لأنهم اضطروا إلى وضع جثة مقدّر كيناسي في سمبرليتس أولاً. كانت زينب قد أخبرتنا أن وفاة مقدّر كيناسي قد وقعت على الأرجح قبل الساعة العاشرة من يوم الثلاثاء، في حين أن وقت وفاة نجدت دينيزل قُدّر يوم الاثنين قبل الثانية؛ ما يعني أن القتلة اضطروا إلى التخلص من الجثة السابقة حين انطلقوا للإيقاع بالضحية التالية.

كنا نتعامل مع عصابة من القتلة ذوي التدريب العالي، وهم أشخاص محترفون تماماً ومبتكرون وماهرون وقساة. إنهم لا يشبهون عمر وأشقاءه الحمقى إطلاقاً. لم تكن نتائج التحليل الخاصة بشاحنة اللحم قد صدرت بعد، لكن لا يبدو من المعقول إطلاقاً أن يكونوا الرجال المسؤولين عن عمليات القتل. كان آدم يزدان ورجاله ملائمين لذلك تماماً. لكن، لماذا سيرغب آدم يزدان بقتل أشخاص يعملون معه؟ ربما كانوا يمتلكون أدلّة ضده كافية للنيل منه. ولم يكن هناك سبب لإهمال مثل تلك النظرية؛ إذ لم يكن آدم يزدان أو الضحايا أنقى من اللون الأبيض. بقي نامق قرمان وجماعته في رابطة الدفاع عن إسطنبول على شاشة الرادار أيضاً؛ خاصة إن كان ضحايا القتلة هم أولئك الأشخاص الذين يُعتَبرون لصوصاً وسارقي تراث المدينة الرئيسين.

"سيدي، من الأفضل أن تلقي نظرة على هذا".

عندما استدرت، رأيت رجلاً طويلاً ونحيلاً يعتمر خوذة سوداء مثبّتة بإحكام على رأسه يكافح لدفع عربة قمامة بعجلتين على طول الشارع. كان الوصف الذي زوّدنا به المتسوّلان في سمبرليتس ينطبق عليه تماماً تقريباً. فقد قالا إنه نحيل وشبيه باللقلق؛ مثل ذلك الرجل، لكنهما لم يتمكّنا من رؤية وجهه لأنه كان يعتمر قبعة تغطي وجهه؛ مثل الرجل الذي ننظر إليه الآن.

عندما رأيت الكيس الكبير على العربة التي يدفعها الرجل شعرت بالإثارة. هل هذه جثة؟ عندما أصبح الرجل على بعد عشرة أمتار عنا، استدرت إلى علي.

همستُ فيما كنّا نذخّر مسدسينا: "اطلب من أكرم أن يتأهب".

بعد عدّة دقائق، خرجنا من السيارة وتعقّبنا المشتبه فيه الذي كان متجهاً- كما توقعنا تماماً- إلى عمود مارقيان. هل نلنا من رجلنا أخيراً؟ كان حلقي جافاً ويداي تهتزان، وعندما نظرت إلى علي، لم يبدُ أنه يكترث إطلاقاً وإنما كان يلعق شفتيه، لكنني كنت واثقاً أن يديه لا ترتعشان. ومن دون أن نقول أي كلمة سرّعنا خطانا، ورأينا فريق أكرم يقترب من الرجل من الطرف الآخر؛ حرصاً على عدم فرار المشتبه فيه إن لاحظ وجودنا.

عندما وصل المشتبه فيه إلى كيز تاسي ، نظر حوله بعصبية؛ وكأنه لا يريد أن يراه أحد. ثم استدار فجأة إلى الخلف، وكاد أن يشاهدنا لو لم نسارع بالتواري عن ناظريه خلف مرسيدس قديمة. وحين اقتنع بأن لا أحد يراقبه، استدار مجدداً وتابع المشي إلى كيز تاسي . انتظرت أن يُخرج جثة ميت من العربة، لكنه نظر حوله عدّة مرات، ثم فكَّ أزرار سرواله وبدأ يتبول على قاعدة العمود القديم عقوداً من الوقت، وسواء أكان الأمر يتعلق بخيبة أملنا أم وقاحة الرجل الكبيرة، أم مزيج من الاثنين، لم يعد بمقدوري تحمّل ذلك وصرخت.

"ماذا تظن نفسك فاعلاً بالله عليك؟!".

وصل أكرم إليه في أثناء محاولته إغلاق سرواله بسرعة، وصوّب مسدسه إلى الرجل، وحذا مساعداه اللذان يرتديان ثياباً عادية حذوه على بعد بضع خطوات منه.

"انبطح أرضاً! تمدّد على الأرض!".

رفع الرجل الذي لم يحظَ حتى بوقت لإغلاق سرواله يديه المرتعشتين مرتعباً من منظر رجال الشرطة الذين أحاطوا به فجأة.

توسّل مذهولاً فيما كان يستلقي على الأرض ببطء في بركة صغيرة من بوله: "لا بأس! لا بأس! لا تطلق النار!".

بدا أن "علي" لا يزال يحدوه بعض الأمل؛ لأنه وصل إلى العربة بسرعة، ودفع يده داخل الكيس، وبدأ يبحث. كل ما استطاع إخراجه أكداس من الورق والكرتون، وقطع بلاستيكية، وقوارير شراب فارغة، وعلب ألمنيوم. لكنه لم يعثر على ما يشير إلى وجود شخص في الداخل؛ حي أو ميت. كان بمقدور أيّ كان رؤية الإحباط على وجهه، حتى في ظلام الليل.

صرخ وهو يمشي بخطوات واسعة نحو الرجل على الأرض: "أين هي؟ أين الجثة اللعينة؟".

تمتم الرجل، ويداه تغطيان رأسه: "ماذا!؟ أي... جثة؟ كنت أتبوّل فحسب!".

شحب وجه علي، وضغط وجه الرجل على الأرض بقدمه اليمنى. "لا تكذب عليّ! كنت تنظر حولك! أين زميلك؟ أين الشاحنة اللعينة؟".

"أي شاحنة؟! ما الذي تتكلم عنه؟! أقسم إنني كنت أتبوّل فحسب!".

أمسك علي قفا عنقه ورفعه ليقف على قدميه.

قال وهو يهزُّ الرجل بعنف: "لا يمكن أن تتملّص من هذا الوضع أيها الفتى! أين شريكك؟ تكلم!".

رنَّ هاتفي آنذاك تحديداً.

"سيدي...".

عرفت أنّ هناك نبأ سيّئاً في اللحظة التي سمعت فيها صوت زينب. وعندما رأيت نظرة الخوف على وجه الرجل المتسخ والملطخ بالطين، أدركت أننا أمسكنا الرجل الخاطئ... لكن، كان ينبغي أن أسمع ذلك.

"ما الأمر يا زينب؟".

قالت بائسة: "جثة أخرى يا سيدي".

"أين؟". تنهّدت؛ مستسلماً لتعاقب الأحداث.

"في شارع جانبي بجانب آيا صوفيا".

مدينة تولد مجدداً قسطنطينية جستنيان

كان الإمبراطور يحدّق إلى أروع دار عبادة على وجه الأرض: آيا صوفيا؛ الكنيسة التي تبدو معلقة مثل غيمة غريبة في السماء، الكنيسة التي تحمي القسطنطينية من كل الشرور. حملق إلى ذلك البناء العجيب، وتأمّل جماله الأخّاذ الذي سيجعل كلاً من الإمبراطور والمدينة فريدين من نوعهما، ونظر إلى المبنى الذي ولد من انصهار خيال الإنسان وعقله؛ إلى أضخم وأفخم وأسمى معابد العالم...

كان الإمبراطور جستنيان يحدّق إلى آيا صوفيا؛ إلى المبنى الذي لا يمكن أن يتصوّره إلا عقل ورع، إلى المبنى الذي يثبت أن القسطنطينية - المدينة المرصّعة بالمعابد - أضحت آنذاك مدينة النصرانية وحدها، إلى دار العبادة التي تقدّمها المدينة التي جُعلت أسمى شأناً من كل المدن الأخرى، إلى ذلك المبنى منقطع النظير الذي غيّر وجه القسطنطينية الروماني العتيق، فأصبحت تمثّل قوة الإمبراطورية ووقارها وروعتها وثروتها.

حدّق جستنيان إلى دار العبادة. لقد بورك دائماً، ودُل على الدرب إلى السلطة قبل أن تكون له أي علاقة بالنبلاء. لقد تم اختياره، قبل اعتلائه العرش، ليكون الرجل الذي سيقرر مصير روما. كان جستنيان القوة السرية خلف العرش في أثناء عهد عمه الإمبراطور جستين الأول، وقلب الإمبراطورية وروحها وشجاعتها وضميرها الحقيقي. لقد كان مباركاً على الدوام، حتى في أوقات الشدّة. إذ لم يشعر يوماً أنه تم التخلي عنه رغم معرفته أن الأحمق لا يبارك. لقد خُصّ بهذه النعمة حتى في أثناء لحظات نفاقه، لكن أعظم هبة مُنحت للإمبراطور هي من دون شك ثيودورا.

كان جستنيان، الواقف بجانب ثيودورا، يحدّق إلى دار العبادة التي كانت عربون وفاء وولاء بعد كل ما لقيه من مباركة. إذا كانت دار العبادة المدهشة هذه أحد رموز النعمة التي أسبغت عليه بسخاء، فستكون الأخرى ثيودورا الطويلة والنحيلة والرائعة. إذا كانت الإمبراطورية تفاحة حمراء داكنة، فسيكون نصفها لجستنيان والنصف الآخر لثيودورا، زرعت تلك الفكرة في رأسه خلال المباركة، والإمبراطور يحافظ على هبة رفيقته؛ ملكته، مثل عهد مبجّل. قبل أن تصبح ثيودورا إمبراطورة روما، كانت إمبراطورة المواخير، ونجمة رقص مسارحها المثيرة للإعجاب، والملكة غير المتوجة لدور الخطيئة والإثم والرذيلة في روما.

وقفت ثيودورا بجانب جستنيان في أسعد أيام شتاء القسطنطينية، فقد

اكتملت دار العبادة، وأينعت ثمار خمس سنوات من الطموح والتفكير والجهد والعرق والدم، وكُشف النقاب عن كنيسة جديدة في وسط تلك المدينة العتيقة. حدّقا إلى المبنى؛ لقد استغرق تحقيق هذه الرؤية خمس سنوات، الإمبراطور والإمبراطورة، هذان الحبيبان سيّئا الطالع، المرتبطان ببعضهما، والمخلصان تماماً لبعضهما. كانت يد ثيودورا في يد جستنيان؛ مثل طائر يسعى إلى ملتجأ من شر العالم في تلك القبضة الضخمة، لكن الحد بين الاثنين- بين الذي يسعى إلى ملاذ والآخر الذي يقدّمه- لم يبدُ واضحاً. كانت الشوارع قد علّمتها أشياء أكثر مما يمكن لإمبراطور ترعرع بين نبلاء روما أن يتعلّمه. ومن دون ثيودورا لم يكن جستنيان ليحقق النجاح مطلقاً، ومن دون جستنيان لم تكن القسطنطينية لتولد مجدداً من الرماد، ولولا وجودها لما شهدت روما إطلاقاً عصراً ذهبياً آخر.

كانت ثيودورا واقفة عند آيا صوفيا، وقد علّمتها مواخير روما خسّة الرجال الدنيئة، وأظهرت ثكناتُ الجنود لها مدى قسوة الإنسان، وعلّمتها غرفُ نوم الطبقة الأرستقراطية في روما مظاهرَ نفاق الإنسان. لم تفزع حين ثار شعب القسطنطينية تمرداً، وبقيت رابطة الجأش حين انضم نبلاء روما إليه، ولم يظهر عليها أي خوف حين أشعلت الحشود النار في المدينة، وتحلّت بالشجاعة حتى عندما تكلم جستنيان عن الفرار. فقد أمسكت يد الإمبراطور، ونظرت إلى عينيه وكأنها تنظر إلى عيني ابنها، وقالت بصوت هادئ ولطيف ولكنه حازم ورزين في الوقت نفسه: "أنت الإمبراطور، والموت لا الهروب هو الذي سيرفعك إلى السماء، لكن هناك درباً واحداً مفتوحاً أمامك أروع من الموت: القتل".

وقفت ثيودورا بجانب جستنيان، محدّقة إلى أضخم دار عبادة على الأرض، ويبدو عليها الفخر والجرأة؛ جسارة قد تجعل أي جندي يرتعش. كان الغضب الواضح على شفتيها أحدَّ من سيف فارس؛ سلاحاً قضى من دون تردد على ثلاثين ألف متمرد؛ حتى آخر رجل وامرأة وطفل فيهم؛ فقد أنقذ جستنيان من قبضة جماهيرَ ثملة بنشوة التمرد. كانت أشجع النساء وأقساهن، وهبة للإمبراطور.

حدّق جستنيان إلى آيا صوفيا، بجانب المرأة التي نـزعت الخوف من قلبه، والتردد من عقله، بجانب المرأة التي تعتبر جوهرة الإخلاص النفيسة في خضم كل الخيانة والغدر حوله، بجانب المرأة التي حرّرته من اليأس حين أحكم سيطرته عليه. كانت هدية مباركة قدمت له، وكان التمرد والنيران التي التهمت القسطنطينية جزءاً من القدر المكتوب. ولو أن

البائسين لم يحرقوا المدينة، لما استطاع جستنيان إعادة بنائها من العدم.

كان الإمبراطور يحدّق إلى آيا صوفيا والإمبراطورة إلى جانبه، وقد كرّس دار العبادة تلك للتضرّع؛ تقديراً للعطايا الكثيرة التي نالها، ولما ناله من مباركة. ما السلطة التي يمكن لحاكم دنيوي أن يمتلكها مقارنة بالنعم التي لا تزول؟!

تيومان أكّان

مُدّدت الجثة في وسط أحد الشوارع التي تمر بجانب آيا صوفيا، وبدت المنطقة هادئة وساكنة، إذ لم يكن شفيق وفريق وحدة البحث الجنائي قد ظهروا بعد. كانت زينب أول الواصلين إلى المكان، وقد أنشأت نطاقاً آمناً حول الجثة بمساعدة شرطيين يرتديان ثياباً عادية.

سُجّي الضحية - مثل الضحايا السابقين - ووجهه إلى الأعلى، والريح الرطبة تتلاعب بشعره، لكن عينيه كانتا ثابتتين على القمر فوقه؛ القمر الذي بقي يلاحقنا من علٍ في الليالي القليلة الماضية، وسيصبح بعد عدّة أيام بدراً، وسيبدأ بمراقبتنا مثل عين ضخمة في الظلام. ظننت للحظة أن هناك صلة ما بين الجرائم وذلك الضيف المتطفل الذي يشاهدنا من الأعلى؛ ما جعل الشعر يقف على عنقي، لكنني سرعان ما نبذت الفكرة من ذهني وعدت إلى القتيل الملقى على الأرض أمامي.

كان أكبر سناً من الضحايا الآخرين؛ في العقد السادس من عمره على الأقل، ويرتدي سترة صوفية رمادية وسروالاً مخملياً داكناً، وقميصه القاتم مفتوح عند العنق ويكشف عن حنجرة حُزّت تماماً مثل الضحايا السابقين. مجدداً، لم تكن هناك بقع دم على الأرض، لكنني لاحظت - على كل حال - اختلافاً صارخاً مع الضحايا السابقين.

"لم يوضع الضحية هذه المرة على شكل سهم". كانت زينب تقول ما أفكّر فيه. "وانظر، لم تُقيّد يداه معاً أيضاً".

رأيت اليدين ممدّدتين إلى جانبي الجذع؛ وكأنهما تشيران إلى اتجاهين متعاكسين. إذ بدت اليد اليمنى وكأنها تشير إلى مدرسة جعفر آغا في نهاية الشارع، في حين أشارت اليد اليسرى نحو حدائق آيا صوفيا.

رسم علي بسرعة رمز النصارى الديني بإصبعه فوق الجثة الممدّدة هناك قائلاً: "ألا تبدو وضعيته مثل رمز النصارى الديني؟ لقد وضع وكأنه مصلوب".

قالت زينب وهي تجثو بجانب الجثة لتفحصها عن كثب: "يبدو كما لو أنه مصلوب فعلاً. لكن لا أظن أنه شيء يجب أن نمعن التفكير فيه".

ردَّ علي وهو يجثو أيضاً: "لِمَ لا؟ ألا تظنين أن جثة تُركت لتبدو وكأنها قد صُلبت على صلة بما يجري؟ ما رأيك أيها المدير؟".

لم أظن أن لذلك علاقة بما يجري أيضاً، لكنني لم أتكلم بثقة وحسم مثل زينب.

"ربما تكون الوضعية ذات مغزى، لكن قد لا يكون لها معنى ديني على الإطلاق، وإنما هي مجرد إشارة إلى المدينة. آيا صوفيا أحد أشهر رموز إسطنبول".

أصرَّ: "هذا ما أحاول قوله. أليست آيا صوفيا رمزاً لإسطنبول النصرانية؟ ألا تظنان أن هذا هو سبب ترك الجثة في هذا الموقع؟".

قالت زينب وهي لا تزال تمسك يد الفقيد اليمنى: "لماذا سيفعلون هذا؟ إنها أساساً إحدى أهم الكنائس، فلماذا سيزعجون أنفسهم بترك الجثة على شكل صليب؟". كانت وجهة نظرها سديدة، ولم يكن لدى علي خيار إلا الإذعان لصحّة ذلك. "ربما بدّل القتلة طريقتهم، وما عادوا يتركون أدلّة على المكان الذي سيتركون فيه الجثة التالية".

قلت: "لا أظن هذا يازينب. فقد كان القاتل يعمل وفقاً لمجموعة القواعد نفسها منذ الضحية الأولى. فهو يختطف ضحيته، ويقتله بحزٍّ عنقه، ثم يتركه عند أحد صروح المدينة التاريخية مع قطعة نقدية من العهد الذي يأمل أن يلفت انتباهنا إليه، ويمدد الجثة بطريقة تجعلها تشير إلى مكان العثور على الضحية التالية. الأهم أننا لم نلاحظ أي تناقض أو تنافر حتى الآن، فلماذا سيتم تغيير الطريقة في حين يسير كل شيء وفقاً للخطة؟".

"هذا رأيك ياسيدي. لكن، ربما نكون في الواقع، ومن حيث لا ندري، نضغط عليهم".

كرّرت: "عليهم؟ أنت لا تقصدين عمر وأشقاءه، أليس كذلك؟ فإن كان هذا ما تعنينه، فأنا آمل أن تتذكري أنهم في السجن، ومن الصعب جداً أن يقتل المرء من داخل الزنـزانة".

قالت: "نسيت إبلاغك ياسيدي أن شاحنة توزيع اللحم كانت نظيفة، ولا آثار لدماء بشرية فيها".

لماذا لم أتفاجأ بذلك؟

"في هذه الحال، عندما تتحدّثين عنهم بصيغة جمع الغائب فلا بد أنك تقصدين رابطة الدفاع عن إسطنبول ودار السعادة للسياحة، وبكلمات أخرى آدم يزدان ونامق قرمان".

قال علي: "ويجب ألاّ ننسى ليلى باركين، فقد قابلتك بضع مرات ياسيدي، لذا ربما تكون قد عرفت ما نفكّر فيه".

"صحيح، لكننا لم نوجّه التهمة إلى أيٍّ منهم بعد، ولم نستدعها أو "نامق" قرمان للاستجواب، وحتى إذا كانا مشتبهاً فيهما، فنحن لم نتخذ أي

إجراء ضدهما على الإطلاق. الأمر نفسه ينطبق على آدم يزدان، فقد استجوبنا اثنين من رجاله لكننا لم نتحدّث إلى الرجل بعد، فلماذا سيبدل القتلة تكتيكاتهم في مثل هذه الظروف؟".

ربما كانت زينب ستتابع الدفاع عن نظريتها، لكنها قالت شيئاً أكثر أهمية مما كنا نناقشه آنذاك.

"توجد قطعة نقدية هنا، في اليد اليمنى".

تكلمت بهدوء، لكنها أثارت انتباهنا. "يظهر تمثال نصفي على أحد الوجهين، ولا بد أنه إمبراطور". رفعت القطعة إلى الضوء وحاولت أن تقرأ النقش. "هناك حرف مثل إي هنا، ثم ف، س، ت، إي أخرى، ن، ثم إي مجددا ً. أتساءل عمّا يدل عليه ذلك؟".

ثم نهضت وأعطتني القطعة النقدية، فوضعت نظارتي، وألقيت نظرة عليها، ورأيت على الوجه الأمامي صورة شخص يعتمر خوذة ويرتدي درعاً، وقد حمل ترساً بيده اليسرى ورمحاً باليمنى. كان هناك أيضاً نقش على القسم الأعلى من القطعة، في حين توجد على الوجه الآخر صورة مخلوق يحمل شيئاً يشبه رمز النصارى الديني وتحته كلمة كونوب. لم تكن لدي أي فكرة إطلاقاً عمّا يعنيه ذلك، فقلبت القطعة مجدداً، وحاولت أن أقرأ الحروف النافرة، لكن كل ما استطعت تمييزه هو إفستينيافس.

"إوستيني... إوستينيانوس، تشير إلى الإمبراطور جستنيان". استدرت ونظرت إلى المبنى المدهش أمامنا مباشرة. "كان الشخص الذي بنى آيا صوفيا".

سأل علي؛ وهو ينظر أيضاً إلى المتحف الذي كان سابقاً أكبر كنيسة في العالم: "تعني هذه الكلمة "مبارك"، أليس كذلك؟".

"نعم، رغم أنني أظن أن كلمة مبجل ربما تكون ترجمة أكثر دقة".

"إذاً، المكان يدعى صوفيا المبجّلة ، صحيح؟".

"أفترض هذا. وصوفيا تعني حكمة ، لذا يمكن القول إنها كنيسة الحكمة المبجّلة، وهي لم تُبنَ من أجل شخص معين. وعندما استولى الأتراك على المدينة، حوّلها السلطان محمد الفاتح إلى جامع لكن من دون أن يغير اسمها. بقيت كنيسة نحو ألف سنة، ثم أصبحت جامعاً خمس مئة عام، قبل أن يحوّلها أتاتورك إلى متحف".

"إنها ضخمة". دُهش علي من ضخامة المبنى، ونسي أمر الجثة الملقاة على الأرض أمامه. "كيف بناها أولئك الرجال؟".

"تحمل أربعةُ كائنات نورانية القبةَ".

استدار ونظر إلي غير مصدّق.

"هذا صحيح، يوجد أربعة كائنات نورانية تحت القبّة".

بدت زينب متشككة أيضاً.

بدا علي مقتنعاً بما قد سمعه، لكن فضول زينب ازداد وسألت: "كيف تعرف كل هذه المعلومات أيها المدير؟".

رددت وأنا أومئ برأسي موافقاً ومسترجعاً الذكريات التي أثارها سؤالها: "من والدتي. كانت آيا صوفيا تثير اهتماماً خاصاً لديها. عندما كنت طفلاً، لا بد أنني زرت هذا المكان عشرات المرات على الأقل. لقد نسيت منذ وقت طويل معظم المعلومات التي قيلت لي، لكنني لن أنسى أبداً تلك الكائنات النورانية الأربعة، أو اللوحات الجدارية والفسيفساء. تعلّمت بعض الأشياء من ليلى باركين اليوم، وعرفت مثلاً على نحو مبهم أن جستنيان هو الإمبراطور الذي أمر ببناء آيا صوفيا، لكنني لم أعرف قط مدى أهميته. ووفقاً لما قالته ليلى باركين، فهو يعتبر شخصية مهمة مثل قسطنطين نفسه".

قال علي مكشّراً لدى ذكر اسم ليلى باركين: "أنت لا تثق بتلك المرأة، أليس كذلك أيها المدير؟". كان محقاً في إظهار شكّه، فبسبب معلوماتها أو تضليلها، كنا قد أسرعنا إلى عمود مارقيان في رحلة بحث ساذجة، وانتظرنا هناك الليل كله من دون طائل؛ في حين سلك القتلة طريقهم بكل يسر وسهولة عبر البلدة مع طريدتهم قبل أن يختفوا في حلكة الليل من دون أي عناء. لكن، نعم، لم يكن هناك دليل أو إشارة إلى أن ليلى باركين قد فعلت ذلك عمداً. فعلاً، كنت أنا من أصرَّ على أن تبيّن الموقع المحتمل للضحية التالية، وقد تفوهت بأول مكان خطر في ذهنها من دون أن تقضي وقتاً في التفكير في القضية بالتفصيل. بدا المكان الذي ذكرته تخميناً معقولاً، لكن كيف كان لنا أن نتوقع أن تقرأ ما يجول في ذهن القاتل؟ رأيت "علي" يتحرّق شوقاً للشجار لذا احتفظت بأفكاري لنفسي.

قلت: "لم أقل قط إنني أثق بها، لكنها قدّمت مساعدة لا تُقدّر بثمن في هذه التحقيقات. ولولا عونها لما كنا قد وضعنا أيدينا مطلقاً على تلك المعلومات عن نجدت دينيزل، أو عن تاريخ إسطنبول. هذه القطع النقدية، مثلاً...".

تمتمت زينب، مقاطعة كلامي: "إنه مهندس معماري". فيما كنت وعلي نناقش قضية الثقة بليلى باركين، عثرت زينب على محفظة الفقيد وبطاقة هويته. "معماري، تيومان أكّان، ولد في إسطنبول".

همس علي: "إنّ كل الضحايا مرتبطون بطريقة ما بالبناء والتشييد". وألقى نظرة ساخرة على الجثة في الأسفل. "أعرف أنه من الخطأ التكلم بالسوء عن الموتى، لكنني أراهن أن هذا الرجل كان متورطاً في كل أنواع الهراء".

كنت من أنصار الرأي نفسه، لكن كان يجب أن ننتظر حتى الغد لتأكيد شكوكنا بشأنه، وعندما لم تعترض زينب، عرفنا أنها تشاطرنا الشعور نفسه. كان السؤال الذي لا يزال عالقاً هو: لماذا اقترف القتلة كل تلك الجرائم؟ تذكرت ما كانت ليلى باركين قد قالته لي، "السؤال المهم هو: هل لتلك الجرائم صلة بحكّام هذه المدينة أم بالمدينة نفسها؟". كان تركيزنا قد انصب في بادئ الأمر على بيزنطية؛ بعد اكتشاف الجثة الأولى مرمية في سارايبورنو، ثم تجاوز القتلة الأباطرة الرومان الذين حكموا المدينة وتركوا ضحيتهم التالية عند قاعدة عمودٍ يحيي ذكرى الرجل الذي جعل المدينة عاصمة له؛ قسطنطين، ثم تركوا ضحيتهم التالية أمام ألتين كابي، أهم الأروقة المعمّدة القديمة في المدينة، التي بناها ثيودوسيوس الثاني؛ وهو حاكم ثانوي نسبياً، وربما كان الجناة يشيرون إلى جدّه الإمبراطور ثيودوسيوس. وها قد تُركت الضحية الأخيرة الآن أمام المبنى الذي كان أكبر دار عبادة سابقاً؛ الكنيسة التي منحت المدينة سمواً مبجّلاً تقريباً بين مدن العالم المعروف...

كان الجواب عن سؤال ليلى باركين واضحاً تماماً. لم يكن القتلة مهتمين بحكّام إسطنبول، وإنما بالمدينة نفسها. ولم تكن جثة الميت أمامنا مسجّاة لتشبه رمز النصارى الديني؛ لا، بل كان القتلة يشيرون إلى حيث سيُعثر على الضحية التالية.

نـزعت نظارتي وتبعت الخط الممتد من يد الفقيد اليسرى، ورأيت أنه يصل إلى ساحات آيا صوفيا، لكن مثل هذا الاستنتاج بدا مستحيلاً، فقد تُركت الجثة بجوار الكنيسة، لذا كانت اليد تشير بالتأكيد إلى منطقة ما خلفها. لكن، ماذا يوجد خلف آيا صوفيا؟

كان هناك شارع واحد، طريق تاريخي، ربما الأروع والأبهى في كل السلطان أحمد؛ شارع النافورة الباردة. أعاد سيليك غلرسوي، ابن المدينة الكادح والبار، شارع النافورة الباردة إلى سابق عهده المجيد، وها هي المنازل الخشبية البديعة تصطف الآن على جانبيه، وهو يصل بين متنـزه جولهان وأبعد بوابة في قصر توبكابي: باب همايون، بورتا أوغستا ، البوابة السلطانية.

هل كان القاتل يحاول لفت انتباهنا إلى ذلك الشارع؟ استدرت

ونظرت، فرأيت نوافذ المنازل الخشبية القديمة- التي حُوّلت جميعها الآن إلى فنادق ودور ضيافة- غارقة في الظلام. لا، لم يكن القتلة ليتركوا ضحيتهم التالية في أحد تلك المباني. رفعت بصري نحو أسطح المنازل الخشبية، ثم نحو تلك الأسوار العتيقة المغمورة بضوء البدر الفضي؛ نحو أسوار قصر توبكابـي.

الأسوار... هل كانت الضحية التالية ستُترك قرب الأسوار؟

لا، حتى إذا أرادوا ذلك فسيكون الأمر مستحيلاً. بدا من الممكن جرُّ جثة ميت إلى هناك، لكن تسلق الأسوار حتى من دون ذلك الحمل الثقيل مهمة بالغة الصعوبة.

أدركت ما يجري آنذاك؛ لم تكن أسوار القصر ما يشير إليه القتلة، وإنما القصر نفسه. كانت هناك دار عبادة أخرى- قبل أن نصل إلى القصر- وهي آيا أيرين...

على كل حال، عندما استقر بصري على آيا آيرين، نبذت فوراً فكرة أن تكون الكنيسة هي الموقع الآتي؛ لأنه بعد دار عبادة ضخمة مثل آيا صوفيا، لم يكن القتلة يستطيعون اختيار كنيسة أخرى، ربما أصغر حجماً، لترك ضحيتهم عندها. يجب أن تكون البقعة التالية قصراً عثمانياً رئيساً...

قلت ملاحظاً نظرة علي المستفسرة: "قصر توبكابـي، إنه المكان الذي سنجد فيه الضحية التالية".

لا بد أنه كان لا يزال يفكّر في صحّة تخميناته؛ لأنه لم يستوعب ما قلته، فأومأت نحو الجثة.

"القتلة يشيرون إلى اتجاه جديد بمباعدة الذراعين على هذا النحو". لاحظت أن زينب ترهف السمع أيضاً. "انظرا، إذا رسمنا خطاً من اليد اليسرى فسنصل إلى قصر توبكابـي".

"بكلمات أخرى، إلى عهد السلطان محمد الفاتح؟". ربما لم يكن سؤاله نفسه يشي بشكوكه، لكن نبرة صوته أفصحت عن ذلك. "كل ذلك جيد ياسيدي، لكننا فكّرنا في ذلك الاحتمال من قبل ولم يتمخّض عنه شيء. فقد انتظر أكرم ورجاله طوال الليل في جامع الفاتح وقصر توبكابـي، لكنهم عادوا خالي الوفاض".

"ربما تصرفنا باكراً جداً. يلقي القتلة ضحاياهم وفقاً لخطة مُحكمة، وما كانوا يريدون أن نركّز على السلطان محمد آنذاك كما أفترض. لكن الآن...".

"لا بأس أيها المدير، لكن كم سنة تفصل بين جستنيان والسلطان

محمد؟ لا أعرف التاريخ جيداً، لكنني سأقول إن المدة مئات السنين".

"بل أكثر. لا أعرف التاريخ الدقيق، لكن آيا صوفيا بُنيت في القرن الخامس".

"إذاً، هناك أساساً ما يقارب ألف سنة بين السلطان محمد وجستنيان هذا. وهل نقول إنه طوال ذلك الوقت لم يظهر حاكم مهم آخر؛ ملك أو إمبراطور أقام صرحاً أو بنى مَعلَماً ذا شأن؟".

"طبعاً كان هناك آخرون. ولكن، لا أحد منهم كان قوياً كفاية لتغيير المدينة على نحو جذري". ثم استدرت وخاطبت زينب: "ما المدة الزمنية بين الملك بيزاس وقسطنطين؟".

"ألف سنة تقريباً".

"أسمعت ذلك ياعلي؟ نحو ألف سنة. إذا كان بمقدور القتلة أن يأخذوا بالحسبان ألف سنة بين ملك ميغارا بيزاس والإمبراطور الروماني قسطنطين، فلماذا لا يمكنهم أن يأخذوا بالحسبان ألف سنة أو نحو ذلك بين جستنيان والسلطان محمد؟".

"لا بأس، لنفترض أن يد الضحية اليسرى تشير نحو قصر توبكابـي". أشارت زينب إلى ذراع الضحية الأخرى وهي تتابع: "إلامَ تشير اليد اليمنى إذاً؟".

على الرغم من كونه سؤالاً منطقياً ومعقولاً، إلا أنه بدا مزعجاً أيضاً. وكان علي أول من أجابها.

"مدرسة جعفر آغا". أشار إلى لافتة عند زاوية الشارع حين رأى نظراتنا الحائرة. "ذلك مكتوب هناك، وقد ذُكرت بعض التفاصيل عن المكان. بناها المعماري سنان بطلب من جعفر آغا، سيد باب السعد [24] في قصر توبكابـي. وتتكوّن المدرسة التي اكتمل بناؤها عام *1559* من ست عشرة حجرة وساحة ...".

عندما قرأ علي اللافتة، حدّقت على طول الشارع نحو المدرسة القديمة، ورأيت البوابة موصدة ولا أثر لأي حياة أو حركة فيها. عرفت أنه سيتم التوثق من المبنى في الصباح كالمعتاد، لكن بالنسبة إلي كانت احتمالات أن يترك القتلة ضحيتهم التالية هناك معدومة.

قالت زينب: "سنُلقي نظرة في الصباح". ولم تفوّت فرصة السخرية من علي قبل أن نعود إلى الجثة أمامنا. "إذا كانت هناك جثة، فسنكتشف هذا غداً. من يعرف؟ ربما سنقبض على القتلة أيضاً في أثناء ذلك، هذا إن لم يفرّوا أصلاً".

"أنا... أنا رأيتهما". استدرنا إلى الخلف، ورأينا حارس أمن مثيراً للشفقة واقفاً أمامنا. كان سلوكه الخانع متناقضاً على نحو صارخ مع بزّته اللامعة الأنيقة. "كيف كنت سأعرف أنهما قاتلان؟".

قلت؛ ظاناً أن الحظ قد بدأ يبتسم لنا أخيراً: "مهلاً لحظة، اسحب نفساً عميقاً وأخبرنا كل شيء، بهدوء وبطء".

قال وهو يتنفس بعمق كما أمرته: "كما تشاء ياسيدي".

"الآن، ماذا رأيت؟".

"حافلة صغيرة بيضاء، تشبه شاحنة مغلقة. كان هناك شخصان داخلها؛ امرأة ترتدي برقعاً، ورجل يعتمر قبعة عريضة".

"أين رأيت تلك الشاحنة؟".

أبقى بصره على الأرض وقال: "هنا، حين توقفت. كيف كنت سأعرف أنهما سيتركان جثة؟".

قال علي بحدّة؛ غاضباً من تلعثم الرجل المحيّر: "وماذا كنت تفعل هنا؟".

"أنا... أنا حارس أمن هنا. اسمي عزمي باهتياسيك". وأشار نحو نهاية الشارع. "أعمل هناك في دور ضيافة آيا صوفيا، وأجلس في تلك الغرفة الصغيرة التي تراها عند الزاوية مراقباً المكان، وحينما كنت جالساً فيها رأيت الشاحنة، وظننت أن الحافلة الصغيرة تحمل سيّاحاً. أنتم تعرفون البقعة هنا، فالمكان يزدحم بالسيّاح كل يوم، صباحاً ومساءً. طبعاً، لم أعرف ما تفعله حافلة صغيرة خاصة بالسياح هنا في منتصف الليل، وفكّرت في أن المرشد ربما أخبرهما أنه سيأخذهما لإلقاء نظرة على آيا صوفيا في الليل. كيف كنت سأعرف؟ افترضت أنهما سائحان، ولم أعرف ما يفعلانه، لكن تبين أن الحقيرين القذرين كانا يلقيان جثة هنا".

"ما المدة التي توقفت فيها الشاحنة المغلقة هناك؟".

"بضع دقائق كما أفترض. لست واثقاً؛ لأن"مراد"صرخ آنذاك من مدخل الفندق ليخبرني أن الشاي جاهز فذهبت لأشرب فنجاناً، وعندما كنت أمشي عائداً إلى الغرفة الصغيرة، رأيت الشاحنة قادمة نحوي، وعرفت أنهما قد شاهداني أيضاً؛ لأنهما شغّلا المصابيح الأمامية بكامل قوتها، فبهرتني تلك الأضواء الساطعة جداً، واضطررت إلى أن أدير وجهي جانباً. ظننت أنهما فعلا ذلك بهدف التسلية والسخرية مني؛ أنتم تعرفون هذا النوع من الناس، لكن يبدو أنهما فعلا ذلك حتى لا أتمكن من إلقاء نظرة على الشاحنة".

"لكنك رأيتهما فعلاً، فقد قلت إنك رأيت رجلاً وامرأة". أراد علي أن يتوثق. "رأيتهما حقاً، أليس كذلك؟".

"رأيتهما، من الجانب. مرّا بجانب الغرفة الصغيرة واستدارا إلى ذلك الشارع المؤدي إلى متنـزه جولهان، وألقيت نظرة حين تجاوزاني. شاهدت المرأة أولاً".

سألت زينب بسرعة: "هل يمكنك أن تصفها؟ كيف تبدو؟ وجهها، عيناها، أنفها، شفتاها، كيف يبدو مظهرها؟ هل يمكنك وصفها؟".

قال بائساً: "أخشى أنني لا أستطيع؛ لأن وجهها كان مغطّى ببرقع".

سأل علي، وقد بدأت آماله التي كانت كبيرة قبل بضع دقائق تتلاشى: "والسائق؟ هل يمكنك أن تصف السائق؟".

"لم أرَ إلا القبعة، فقد كان الظلام حالكاً لذا لم أتبين ملامحه".

سألت بنبرة تشبه نبرة صوت علي: "هل استطعت الحصول على رقم لوحة التسجيل؟".

قال معتذراً: "لم أتمكن من ذلك ياسيدي. لم أنظر إلى لوحة التسجيل أو الطراز، إذا لم تكن لدي أي فكرة عن كونهما قاتلين. افترضت فحسب أنهما سائحان أرادا رؤية آيا صوفيا في الليل".

داخل آيا صوفيا

كانت ليلى باركين تنتظرني عند زاوية الشارع قبالة آيا صوفيا بجانب ميلون، محدّقة إلى الصرح العتيق؛ وكأنها تراه للمرة الأولى، وقد ارتدت فستاناً أبيض طويلاً ووضعت وشاحاً بنفسجياً مع مشبَك شعر من اللون نفسه يشدُّ شعرها إلى الخلف بإحكام. بدت شاحبة؛ مريضة تقريباً، لكن ذلك أضاف جمالاً غريباً إلى ملامحها الرائعة.

قالت بواقعية: "لقد تأخرت". ثم استدارت إلى الخلف لتواجه ميلون. "اعتاد الرومان أن يقيسوا أقاليمهم ويعلّموا حدودهم باستخدام تلك الحجارة، وعرفوا إمبراطورية تمتد من مصر إلى إنكلترا باستعمال تلك الصخور كعلامات مميزة. طبعاً، لم يكن هذا الحجر فقط موجوداً آنذاك، بل كانت التماثيل تزيّن المنطقة أيضاً". وحين لاحظتْ أنني لم أدهش سألتني: "هل تعرف هذا مسبقاً؟".

قلت مشيراً إلى نهاية الشارع: "اعتدت المجيء إلى هنا مع والدتي كثيراً، وكانت دار عرض علمدار هناك، قبالة الحوض المستطيل. كانت أمي تعدني دائماً بأن تصطحبني إلى السينما إن رافقتها إلى آيا صوفيا أو متحف توبكابـي. وبعد أن نقوم بجولة في الكنائس والمتاحف والمواقع التاريخية الأخرى، كانت ترافقني إلى دار العرض تلك لنشاهد أحدث الأفلام معاً. لا يزال بمقدوري حتى الآن أن أشمَّ رائحة البسكويت والكعك بالسمسم الذي كنا نأخذه معنا إلى داخل القاعة".

قالت: "مما سمعته، يبدو أن والدتك كانت امرأة رائعة، هل يمكن أن نمشي؟".

مشينا معاً متجهين نحو الكنيسة القديمة التي يبلغ عمرها ألفاً وخمس مئة سنة، الواقفةَ بمهابة تحت شمس الصباح المدهشة. لكن الشيء الغريب أن المنطقة كانت ساكنة وخالية، ولم تكن هناك صفوف من المركبات والحافلات، أو حشود من السيّاح. خُيّل إلي أن نسمة مفاجئة قد حملتهم إلى أرض بعيدة، وبدا أن ليلى باركين قد عرفت ما كنت أفكّر فيه فابتسمت.

"لن تُفتح أبواب الكنيسة إلا لي ولك اليوم".

عندما وصلنا إلى بوابات المدخل، فُتحت الأبواب تلقائياً كما يبدو لتسمح لنا بالدخول، ورأيت مرة أخرى تلك النافورة الجميلة التي أعجبت والدتي دائماً.

"يتكوّن لدى المرء انطباع بأنّ العثمانيين قد بنوا هذه النافورة تعبيراً عن أسفهم حين رأوا الكنيسة؛ وكأنهم يعوضون بذلك عن عدم تشييدهم هذا الصرح الرائع بأنفسهم". ضحكت. "أنا لا أنتقص من قدرتهم بأي طريقة، لكن يجب تقدير الجهد والمأثرة، والدعامات التي بناها المعماري سنان هنا تستحق الذكر، على كل حال".

مرة أخرى، وكما هي الحال دائماً حين أدخل مثل هذا المكان، وجدت نفسي أنظر إلى تلك الأضرحة الفخمة التي تشبه خياماً حجرية، وأتخيل أساطير وحكايات الموتى الذين تضمهم تلك القبور؛ أولئك السلاطين والملوك الذين انهار حكمهم منذ وقت طويل، وزوجاتهم ومحظياتهم، ولكل منهن قصة تسردها، والأمراء الذين انتهت حيواتهم في أوجها في أثناء صراعهم على العرش. تجاوزنا النافورة ومشينا على طول الدرب بين الأعمدة الرومانية القائمة على الجانبين حتى وصلنا إلى مدخل الكنيسة، فدخلنا عبر الباب الرئيس تحت القناطر الثلاث التي تكلل المدخل وخرجنا إلى ممر طويل وعريض.

قالت ليلى، وأصابعها الرشيقة تشير إلى الممر: "هذا هو المكان الذي كان الناس يحتشدون فيه، ولا يُسمح لهم بتجاوزه".

تخيّلت الرومان في الماضي وهم يجثون حفاة على الأرضية، وقد أحنوا رؤوسهم... تمكّنت تقريباً من سماع أصداء تضرعاتهم الخافتة قبل ألف سنة تتردد بين الجدران... استدرت ونظرت بعيداً؛ نحو ذلك الجزء من الكنيسة الذي كان محظوراً عليهم، ورأيت خمسة أبواب ضخمة كان العثمانيون قد نـزعوا عنها الصلبان من العهد البيزنطي؛ ما خلّف شكلاً يشبه السهم في وسط كل منها.

قالت مرشدتي حين سلكنا طريقنا عبر الباب الرئيس: "كان الإمبراطور وحاشيته يدخلون عبر البوابة الرئيسة".

لو أنها لم تخبرني لما واجهت صعوبة كبيرة في اكتشاف ذلك؛ لأن الفرق بين هذا الرواق وذاك الذي تركناه خلفنا بدا صارخاً. فقد كان الرواق مضاءً بالشموع، والجدران مغطّاة برخام أسود وأبيض وأخضر داكن، وكانت فسيفساء رائعة تزيّن السقف الذهبـي. عندما رفعت بصري، رأيت لوحة فسيفساء.

"هل تعرف ما كُتب عليها؟".

لم يتسنَّ لي الوقت للرد، فقد همَسَت بلطف: ״أنا نور العالم... السلام عليكم״ .

لم ننعم بالسلام قط، ولن نحظى به أبداً والعالم على هذه الحال. فالناس يقتلون بعضهم؛ أفراداً وجماعات، منذ بدء الخليقة، ولم يستطيعوا التخلّي عن ذلك، وهذه حقيقة تعلّمتها في سنواتي الأولى في الوظيفة، لكنها فقدت الآن أي معنى. على كل حال، لم يكن القتلة الذين نحاول القبض عليهم قد فقدوا فتنتهم بعد.

هل كان علي محقاً بقوله إن القتلة، بتركهم الجثة خارج آيا صوفيا، كانوا يشيرون إلى النصرانية؟

مستغرقاً في تأملاتي، أدركت فجأة أنني لم أعد أرى ليلى باركين، فنظرت حولي لكنني لم أجد أثراً لها.

صرخت: "آنسة باركين، آنسة باركين...".

ترددت أصداء صوتي بين الجدران الرخامية، وأبواب المداخل البرونـزية. كانت ليلى باركين قد اختفت، فاتجهتُ إلى أحد الأبواب التسعة التي تؤدي إلى الحجرة الرئيسة؛ ظناً مني أنها قد ولجت إلى هناك؛ وعبرت الباب الأوسط. وفي اللحظة التي دخلت بها عبر الباب، وجدت نفسي وسط بحر من الضوء الذهبـي، ورأيت الأعمدة واللوحات الجدارية والفسيفساء والآجر والمحراب وآيات من الكتاب المقدّس والقرآن الكريم والمنبر والمنطقة بجانب المُصلّى؛ كل شيء في تلك الحجرة - سواء أكان مصنوعاً من رخام، أو حجارة، أو خشب، أو زجاج، أو ذهب، أو فضة، أو نحاس، أو حديد - صار مفعماً بالحركة فجأة بفضل ذلك الضوء المبجّل الصادر من عالم آخر.

سمعت الصوت آنذاك، وشعرت بعصفة هواء قوية تصدر كما يبدو من جراء خفق جناحي نسر عملاق. رفعت بصري لكنني لم أرَ شيئاً؛ لم أرَ نسراً أو أي مخلوق آخر من أي نوعٍ، لكنني رأيت ليلى باركين في الطابق الثاني؛ في منطقة تتويج الإمبراطورة. كانت تحدّق إلي وتشير إلى حيث أقف. نظرت حولي وأدركت أنني أقف وسط دائرة محاطة بحلقات حمراء، وصفراء، وخضراء، وبرتقالية، ورمادية... تذكرت زياراتي إلى هذا المكان مع والدتي، وأدركت أنني أقف في وسط العالم، في المنطقة التي كان الأباطرة الجدد يُتوّجون فيها. ما الذي تحاول ليلى باركين أن تشير إليه؟ عندما رفعت ناظريَّ مجدداً، اكتشفت أن وجهها لم يعد واضحاً، لكن لماذا؟ عندما نظرت إلي مجدداً، تجمّد الدم في عروقي.

كانت غوزيد - زوجتي التي خسرتها في ذلك الانفجار المروّع الذي حصل قبل خمس سنوات - تحدّق إليّ مباشرة، مرتدية ثياب ليلى باركين البيضاء.

صرختُ: "غوزيد!". وعندما ترددت أصداء صوتي في أرجاء المكان، ظهرت فتاة يافعة ترتدي فستاناً أبيض من قطعة واحدة إلى يمين غوزيد. كانت آيسون، فناديتها خائفاً من الأمل الذي راح يكبر داخلي؛ الأمل بأن يلتئم شملنا معاً.

كانتا تنظران إليّ ووجهاهما خاليان من أي انفعال؛ لا فرح أو أسى أو اشتياق أو غضب أو انتقاد، وإنما مجرد نظرات باردة وبعيدة وغريبة؛ وكأنهما تحدّقان إلى شيء لم تقع عيونهما عليه من قبل.

بدا من المستحيل أن أستسلم لذلك، وعرفت أنني يجب أن أصل إليهما وأتكلم معهما، وأشرح لهما خياراتي، وأبرّر سبب بقائي حيًّا. نظرت حولي بانفعال شديد بحثاً عن طريق للصعود إليهما، واكتشفت أنه في نهاية الممر الإمبراطوري المزخرف. ركضت وبدأت أصعد السلالم، ودرت حول الدرابزين سبع مرات قبل أن أصل إلى الطابق الأعلى.

كانتا هناك؛ غوزيد وآيسون، زوجتي وابنتي، لكنهما بدلاً من الابتهاج بوصولي، ابتعدتا بسرعة. لم يبدُ لي أنهما تركضان، أو أن أقدامهما تلامس الأرض، وإنما كانتا تطفوان فوق الأرضية الرخامية. تبعتهما؛ إذ لم يكن بمقدوري أن أشاهدهما وأتركهما تذهبان.

ظهر بابان أمامنا، فجوتان في كتلة رخام واحدة، فقفزت فرحاً؛ ظاناً أن بمقدوري اللحاق بهما. لكن، عندما وصلتا إلى الجدار الرخامي، فُتح الباب الأيمن مصدراً صريراً، ومن دون أن تستديرا لتنظرا إلي، انسلّتا عبره. حاولت اللحاق بهما لكن الباب أُغلق في وجهي، قرعت عليه بقبضتيَّ، وجرّبت فتحه بالقوة، وضربته بكتفيَّ ودفعته، لكنه لم يتزحزح. كنت أبحث حولي يائساً عن طريقة لفتحه حين فُتح باب آخر ببطء بضع بوصات، وعندما كدت أدخل عبره، ظهرت ليلى باركين أمامي.

"ماذا تفعل؟".

صرخت: "يجب أن أتكلم معهما، أريد أن أخبرهما بما حصل".

قالت: "لكن هذا الباب يقود إلى العذاب والجحيم، ولا يمكنك أن تدخل".

قلت وأنا أحاول المرور عبر الباب: "يمكنني هذا. يجب أن أتكلم معهما".

مررت عبر الباب؛ متجاهلاً الخوف المتزايد في عينيها.

فجأة، هبط سديم أحمر؛ سديم أحمر ملطّخ ببقع سوداء. فاجأتني نفحة حارة، وشعرت بحاجبيَّ يحترقان، إلا أنني تابعت النظر إليهما، لكن

جهودي ذهبت هباءً؛ لأنه بدا من المستحيل رؤية أي شيء في ساحة الظلال السوداء تلك. وعندما كدت أفقد الأمل، سمعت خفق أجنحة، وشعرت بنسمة الهواء تلك مرة أخرى، فاستدرت ونظرت إلى حيث يأتي الصوت، ورأيتهما بجانب الدرابزين الرخامي، وظننت أن ملابسهما نقية، فهي لم تتلطخ أو تشوبها شائبة أو تتسخ، لكنني كنت مخطئاً، فقد كان ذلك جلدهما. ولاحظت آنذاك الجناحين الضخمين خلف كل منهما اللذين يخفقان برفق. وكان الصوت والحركة يُضفيان برودة رائعة على البيئة المحيطة بنا. على كل حال، عرفت أن هذا الجو الرائع وحضورهما مؤقتان، وأنهما ستختفيان قريباً- مثل حلم- من ثنايا ذكرياتي المعتمة والخفية.

صرخت يائساً: "لا تذهبا! لا تتركاني!".

استدارتا ونظرتا إليّ لكنني لم أرَ هذه المرة تعبير عدم الاكتراث، وإنما رأيت عيوناً مملوءة أسى ويأساً، ووجهين يعكسان ألماً. كان الأمر واضحاً: لقد صدر الحكم، ولم يكن لديهما خيار إلا الرحيل. عرفت أنهما يجب أن تغادرا، لكنني التمست منهما ألا تفعلا.

همست بائساً: "لا تذهبا، لا تتركاني".

ومجدداً، حطّم صوت تلك الأجنحة الظلام، وشعرت بتلك القشعريرة الباردة تسري على جلدي. ما أهمية كلمات فانٍ مثلي؟ عرفت أنهما يجب أن تغادرا، لكن لم يكن بمقدوري تركهما تذهبان.

وثبتُ فوق الدرابزين الحجري، وكانتا قد بدأتا تختفيان آنذاك في هوةٍ سحيقةٍ مظلمة مثل ليل حالك، وداخلها تستعر ألسنة لهب حمراء. وبدأت المساحة الشاسعة الخاوية في الكنيسة تُفتح تحتي. ومن دون لحظة تردد، تركت نفسي أسقط في تلك الهاوية. ومع كل خفقة جناح، ارتفعت زوجتي وابنتي عالياً نحو ذلك الأفق الفضي حيث ينتهي الظلام ويبدأ الضوء، في حين هبطت أنا إلى الدرك الأسفل؛ في عين البركان النارية الحمراء... وعندما كاد اللهب يبتلع كل أجزاء ذهني وجسدي، سمعت صوت أجنحة تخفق مرة أخرى، وشعرت بتلك النسمة الباردة ترطّب نيران جسدي، ورفعتني ذراعان قويتان بعيداً عن النار، بعيداً عن العين الحمراء، وأعادتاني إلى العالم الحقيقي؛ إلى هذه الدنيا.

عندما لامست قدماي الأرض وفتحت عينيَّ، وجدت نفسي مرة أخرى في تلك الدائرة وسط الكنيسة. نظرت إلى الأعلى، نحو القبة، على أمل أن أرى غوزيد وآيسون، لكنهما لم تكونا هناك...

حاولت أن أقاوم خيبة أملي ويأسي. سمعت طفلاً يبكي، وصوت تلك

الأجنحة الضخمة وهي تخفق في السكون مرة أخرى. حلّق كائنان نورانيان عالياً، إلى الطفل الباكي، وتبين أنه الطفل ذاته الذي سبق لي أن رأيته من قبل عدة مرات في الصورة المصنوعة من الفسيفساء. إلا أنه كان برفقة شخص ما؛ شخص لم أتبيّن ملامحه. تقدمت بضع خطوات إلى الأمام فاكتشفت أن ذاك الشخص لم يكن إلاّ الفتاة التي ترعرعتُ معها في بلاط، جارتي القديمة، وزميلتي القديمة في المدرسة، وحبـي الأول... هاندان... هاندان التي توفيت قبل ثلاث سنوات، وابنها يوموت... نظرت إلى الأسفل نحو الطفل فأدركت أن يوموت؛ ابن هاندان ويكتا الوحيد...

عندما نظرت إليهما نحو الأعلى، نـزل الكائنان النوريان اللذان أنقذاني من اللهب من علٍ، وتوقفا إلى جانبـي هاندان ويوموت. تساءلت في قرارة نفسي: لماذا يتواجدان هنا؟ وماذا يريدان من هاندان ويوموت؟ مددت يدي نحوهما، وسرعان ما أدركت أنهما دميِر ويكتا وأنهما موجودان للدفاع عن الأم وابنها، لكن لماذا؟ ولماذا لم أكن معهما؟ لِمَ لا؟ كانت غوزيد وآيسون هناك أيضاً... في وسط دار العبادة التي تتميز بقبة ضخمة. شعرت بأنني وحيد تماماً؛ مثل رجل تخلى عنه الجميع وتُرك ليدافع عن نفسه على كوكب غريب يخلو من الحياة. مددت يدي إليهم، متوسلاً وملتمساً أن يأخذوني معهم، لكنهم لم يلحظوا ذلك. أردت أن أصرخ "خذوني معكم!"، لكن حلقي كان جافاً ولم أتمكن من إخراج أي صوت رغم محاولتي الجادّة، ورغم ذلك لم أستسلم. أردت إسماعهم صوتي، وأن أحظى بانتباههم وأجعلهم يأخذونني معهم، فاستجمعت كل قوتي، وحاولت أن أناديهم، لكن لم تخرج من فمي إلا صرخة وأنين مكتوم.

بدا ذلك الصوت المكتوم كافياً؛ لأن مئات الأزواج من الأجنحة بدأت تخفق معاً على نحو يصمُّ الآذان؛ ممّا دفعني إلى سدّ أذنيّ. رفعني تيار الهواء الصادر عن خفقات الأجنحة عالياً، وشعرت بأنني أغرق في دوامة حين رفعني إلى الأعلى، وصولاً إلى القبة؛ حيث استقر بصري على سورة النور من القرآن الكريم المنقوشة داخلها. تسمّرت هناك، وفُتن عقلي وعيناي بالنقش... كنت سأود البقاء هناك إلى الأبد لو لم يوقظني صوت الأجنحة من ذهولي. نظرت إلى الأعلى ورأيت وجوههم مغطاة، وعندما حاولت تمييز زوجتي وابنتي، هبط أحد الأجنحة ببطء ليكشف عن وجه صغيرتي آيسون الجميلة؛ التي كانت قريبة جداً مني، حتى إنني شاهدت زرقة عينيها.

همَسَت: "أبـي، أبـي...".

ثم أطبق الصمت على الكنيسة كلها، وطوت الكائنات النورانية

أجنحتها بهدوء وتراجعت إلى الخلف نحو زواياها، في حين تلاشت النسمة. شعرت للحظة بأنني أطفو وسط فراغ تلك القبة الضخمة. بحثت عن آيسون؛ متمنياً رؤية عينيها لأحظى بشيء أتشبث به، لكن الجناحين كانا قد انطويا فوق رأسها مجدداً، وبدا وجه غوزيد محجوباً أيضاً، ولم أرَ إلا ريشاً يومض في الظلام، وأدركت أن الكائنات النورانية قد انتزعت آخر بقايا آمالي... بدأت أسقط مثل حجر وأهبط بسرعة كبيرة، حتى أصبح كل شيء حولي- الأعمدة، واللوحات الجدارية، والفسيفساء، والمحراب، والآيات من الكتاب المقدّس...- مشوشاً. عرفت أن لا أحد سيهبُّ لنجدتي، لا زوجتي، أو ابنتي، أو صديقيّ؛ لا أحد سيساعدني. عرفت أنني أسقط إلى نهايتي؛ عبر الفراغ إلى الأرضية الرخامية حيث سألقى حتفي، وبدا هبوطي سريعاً جداً، وتمكّنت من رؤية ظلي الذي يكبر باستمرار، والخطوط على الأرضية الرخامية. عرفت أنني أتجه إلى مصيري المحتّم، وشحذت عزيمتي توقعاً للنهاية؛ غير أنني استيقظت فجأة. استبُدل بقبّة آيا صوفيا اللونُ الأصفر الباهت لسقف غرفة نومي، واكتشفت أنني سقطت من أعلى قبة الكنيسة على سريري.

كان ضوء النهار قد حرّرني من براثن كابوس فظيع، وأعادني إلى صباح عادي في العالم الحقيقي .

ديمير

جلست في ضوء الصباح الباهت شارداً في أفكاري إلى آيا صوفيا؛ ليس إلى الكنيسة الرائعة التي رأيتها في حلمي، وإنما إلى الشارع الجانبـي الذي ألقى فيه القتلة ضحيتهم الرابعة. أمعنت التفكير في الضحايا الأربع، وفي القطع النقدية التي تُركت في أيديهم، وصور الحكام التي ظهرت على كل قطعة، والقتلة؛ أولئك الوحوش الذين ذبحوا أربعة أشخاص، وعرضوا أعمالهم في أربعة صروح تاريخية معروفة. بعد أربع جرائم، لم يكن لدينا إلا دليل واحد فقط وهو شاحنة مغلقة بيضاء. وأدركت أن القتلة أذكياء بالتأكيد، وبارعون وماكرون ومثقفون، ولهم صلات بأشخاص ذوي نفوذ، وقد خططوا مسبقاً وبشكل جيّد لكل خطوة أقدموا عليها ثم نفّذوها بإتقان. فكّرت في عددهم ولم أستطع التوصل إلى أي نتيجة مقنعة، لكنني عرفت أنه لا ينبغي التقليل من شأنهم أبداً. وماذا عنا؟! فنحن ندور- نُقاد- في دوائر؛ من دون أي أدلّة أو علامات ترشدنا.

رنَّ الجرس، وظننت أن "علي" هو القادم؛ فقد كان من المفترض أن نـزور آدم يزدان اليوم، ورغم أنني ضبطت المنبّه، إلا أنني استغرقت في النوم. وثبت عن السرير، وفتحت النافذة بسرعة، فضَرَبت الريح الباردة القاسية وجهي وأنعشتني إلى حدٍّ ما. مِلتُ إلى خارج النافذة ونظرت إلى الأسفل؛ متوقعاً رؤية علي، لكنني شاهدت ديمير الذي كان يحمل كيساً من النايلون، وعندما سمع النافذة تُفتح، نظر نحو الأعلى.

"افتح الباب اللعين يا نوزت!".

"حسناً، حسناً، أنا قادم".

كنت بعد بضع دقائق أقف قرب الباب وأدعوه للدخول.

قال: "لا شكراً. لن أدخل، أين كنت؟ لم أستطع الاتصال بك على هاتفك الخلوي، ولم ترد على هاتف المنـزل. ظننت أنك قد أُصبت بنوبة قلبية أو بشيء مماثل".

قلت وأنا أكتم تثاؤباً: "لا تسأل. لم أحظَ بليلة نوم هانئ منذ ثلاثة أيام، وقد نال الإرهاق مني في الليلة الماضية فاستغرقت في النوم".

قال قلقاً: "يجب أن تهوّن على نفسك يا نوزت. لقد تجاوزنا منتصف العمر، ويجب أن تعتني بنفسك".

كان محقاً بالتأكيد، لكن التخفيف من نشاطاتي لم يكن ببساطة خياراً بالنسبة إليّ؛ وتحديداً حين ألاحق عُصبة من المختلين عقلياً الذين يتركون

جثث قتلى في كل أرجاء المدينة.

"على كل حال، ما الذي جاء بك إلى هنا؟ لم تعد زائراً معتاداً هذه الأيام، أليس كذلك؟".

قال بغضب مصطنع: "لا تبدأ بهذا الكلام معي، أنت من لا يأتي أبداً لزيارتنا. ونحن دائماً نتصل بك".

وغد، لقد كنت أحلم بكما قبل بضع لحظات...

قلت: "كنت معكما أيها الشابان الليلة الماضية فقط".

"فقط لأننا أرغمناك على المجيء".

قلت؛ سعيداً في سري: "بالله عليك، لو أن "بختيار" لم تصدمه سيارة ولم نجلبه إلى منـزلك، لما خطر ببالك أن تدعونا مطلقاً. كنتُ دائماً الشخص الذي يقرع على بابك حين كنا أطفالاً".

"كان ياما كان! ماذا؟ لقد نسيت، أليس كذلك؟ كنت أمرُّ بمنـزلك في طريقي إلى المدرسة، ثم نذهب معاً لنصطحب هاندان ويكتا".

لم يكن يكذب، فقد كان دائماً أول من يستيقظ ليعتني بوالدته المريضة، ولم يكن أحد يعرف متى تنهض أو تخلد إلى النوم. وفي اللحظة التي تأتي فيها الخادمة، كانت تُخرج دميِر من المنـزل؛ ربما ليقضي بضع لحظات بعيداً عن ذلك الجو الكئيب. كانت طفولته قاسية، لكنه لم يُفشِ سراً قطّ، أو يشتكي أو يتذمر، ليس حتى في ذلك العمر الحسّاس، وعرفت آنذاك أنه سيصبح شخصاً رائعاً، وعندما أراه الآن- رجلاً قوياً واثقاً بنفسه ويسيطر على حياته- أشعر بالفخر به والسعادة من أجله؛ فقد تغلّب على الكثير من الصعوبات.

قلت وأنا أدفعه بمنكبـي: "نعم، لكنني كنت أمرُّ لاصطحابك أيام الأحد. إذ لم يكن والدك يسمح لك بالخروج للعب كرة القدم معنا مطلقاً، ولإخراجك من المنـزل كنت أكذب وأقول إننا سندرس معاً، أليس كذلك؟".

قال، وقد تهللت أساريره: "صحيح، لقد فعلت. هل تتذكر تلك المرة التي أمسكنا بها؟ كنا سنلعب كرة القدم مع أولئك الأولاد من فنر، وأخبرت أبـي أن لدينا امتحان رياضيات يوم الاثنين وأننا سندرس، وانتابه الشك في تلك المرة فقط بأن شيئاً ما ليس على ما يرام فتبعنا. كانت المباراة قد بدأت للتو حين دخل الملعب غاضباً، وأمسكنا من أذنينا وأعادنا إلى المنـزل".

تذكرت ذلك جيداً، فقد آلمتني أذني يومين كاملين. لم ينته الأمر عند ذلك الحد، فقد أخذني إلى المنـزل وأخبر والدي كل شيء، فضربني أبـي

بقسوة عقاباً لي على الكذب، بعد أن شكر العم بنيامين بالتأكيد.

تمتمت: "كانت تلك الأيام رائعة رغم كل شيء".

تنهّد حزناً: "نعم، رغم كل شيء، كانت أياماً رائعة". وفي اللحظة التي قال فيها ذلك، أدركت أن مشاعر جيّاشة تنتابه، لكنه تمالك نفسه جيداً. "هيا بنا، اجلب أغراضك، سنذهب الآن".

"إلى أين؟".

أشار إلى الكيس الذي كان يحمله بيديه، وقال مكشّراً: "إلى أين تظن؟ لتناول الفطور طبعاً. أخبرني يكتا أنك تناولت الفطور في مطعم أسطه عارف أمس. لا يمكن أن نترك الشرطي العجوز بمفرده الآن؛ كما قلنا لنفسينا. لنذهب ونتناول فطوراً شهياً، فلا بد أن يكتا قد حضّر الشاي الآن".

"شكراً يا ديمير، كنت سأود الذهاب معك لكن لدي أشياء كثيرة ينبغي أن أفعلها هذا الصباح. سيصل علي إلى هنا قريباً ليقلّني".

"من علي هذا؟".

جعله بوق سيّارة يستدير إلى الخلف بسرعة، ورأينا سيارة علي تندفع في الشارع متجهة نحونا وعجلاتها تصرُّ لدى توقفها قرب الرصيف.

"هذا هو، أقسم إنه سيكون سبب موتي يوماً ما".

لم يبتسم ديمير، بل راقب "علي" المرح وهو يقترب منا بنظرة متحفّظة.

قال: "أياً يكن، ربما في وقت آخر. لكن، بالله عيك لا تنتظر دعوة لعينة. أنت واحد منا، وكل ما عليك فعله هو أن تتصل بنا".

"أعدك".

قلت حين استدار وكاد يغادر المكان: "مهلاً، ماذا عن بختيار؟ كيف حال الوغد العجوز؟".

"إنه بخير، يمكنك أن تراه حين تأتي إلينا. اعتنِ بنفسك الآن".

تذكرت فجأة موعدنا في اليوم التالي فقلت له مذكّراً: "ديمير، انتظر. لا نـزال على موعدنا غداً، أليس كذلك؟".

حدّق إلي ببلاهة.

"لا تقل لي إنك قد نسيت، سنجتمع في خان يفغينا؟".

قال مرتبكاً قليلاً: "آه! يا الله! نعم، هذا صحيح. وعدناها بتلبية دعوتها أليس كذلك؟".

"أجل، لقد فعلتما. ويا ديمير، أتوسل إليكما ألا تفكّرا في عدم المجيء،

وإلا فسأكون في ورطة حقيقية".

قال مازحاً: "لا تدعها تسيطر عليك".

"قول هذا سهلٌ عليك، فأنت لم...". أدركت في اللحظة التي خرجت فيها الكلمات من فمي ما فعلته. حاولت التغطية على خطئي بقول هراء عن الوفاء بالوعود وأشياء مماثلة، ولكن بعد فوات الأوان، فقد وقع الضرر، وتغيرت النظرة على وجه ديمير للحظة، لكنه تقبّل الأمر بهدوء.

قال على عجل: "لا بأس يا نوزت، سنكون هناك، لا تقلق".

ثم استدار بسرعة، ليخفي على الأرجح النظرة التي بدت في عينيه.

وعندما مشى مبتعداً، شعرت بطيف هاندان يراقبنا مجدداً.

جستنيان

يبدو مبنى دار السعادة للسياحة - وهو مبنى حجري من ثلاثة طوابق على سفح كانكورتاران - مثل قصر روماني زائف تحت سماء ملبّدة بالغيوم، وتؤدي مجموعة من الدرجات العريضة إلى رواق معمّد تحيط به ستة أعمدة رخامية، ويوجد في آخره بابان خشبيان ضخمان. عندما استقللت سيارة علي، بدأت أولى قطرات المطر بالهطول، وسرعان ما تبعها وابل من المطر وريح عاتية مفاجئة، وقصف الرعد، وظهر وميض البرق فوق بحر مرمرة.

على كل حال، لم نكن هناك من أجل مشاهدة الغيوم السوداء أو الأمطار الغزيرة والرعد والبرق، بل كان اهتمامنا منصباً على آدم يزدان؛ إذ كنّا حريصين على التوثق من ألا يفلت من قبضتنا.

سألت حين أوقف علي السيارة قرب الدرجات الحجرية أمام مدخل المبنى. "سيكون موجوداً، ألا تظن هذا؟ فقد شارفت الساعة على الحادية عشرة".

ردَّ رغم أنه لم يبدُ واثقاً جداً: "آمل هذا. أخبرت أركان ذاك أننا سنكون هنا عند العاشرة والنصف".

كان علي يشعر ببعض الإحراج. إذ لم أكن الوحيد الذي استسلم للإرهاق، فهو أيضاً لم يسمع المنبّه، وكان على الأرجح سيبقى نائماً حتى منتصف النهار لو لم تتصل به زينب وتوقظه.

قلت: "لا تقلق بشأن ذلك ياعلي. لو لم ينتظرا، لكانا على الأقل سيتصلان بنا ليسألا إن كنا قادمين أم لا. بطريقة ما، لا أظن أن أركان سيجازف بإزعاجنا".

ورغم قولي هذا، لم أكن واثقاً بطريقة استقبالهما لنا. لكن، لم ينقض وقت طويل قبل أن نكتشف ذلك. فقبل أن يوقف علي عمل المحرك، رأينا حارسي أمن ضخمين ينتظران بجانب السيارة وهما يحملان مظلّتين، وأقول حارسي أمن لكنهما لم يُشبها إطلاقاً ذنيك الساذجين اللذين اعتقلناهما في منـزل نجدت دينيزل. فقد بدا هذان الاثنان، ببزّتيهما السوداوين اللامعتين، ومظهرهما الأنيق، وبنيتهما العضلية القوية، مثل عضوين في الاستخبارات السرية مكلّفين بحماية مسؤولي دولة لا حارسَيْ أمن.

قالا بهدوء وهما يفتحان البابين لنا: "تفضلا من فضلكما". نظر علي إلي؛ وكأنه يسألني: إلى أين انتهى الأمر بنا؟ ولم يسعني إلا أن أبتسم.

ضحك علي وهو يخرج من السيارة قائلاً: "شكراً يابني". على كل حال، عندما وجد نفسه وجهاً لوجه مع رجل يفوقه طولاً، لم يسعه إلا أن يعلّق.

"ما هذا! الملابس نفسها، والطول ذاته، والبنية عينها... من أي خط إنتاج خرجتما؟".

قال الشاب، وعيناه تطرفان من دون أن يتمكن من فهم المعنى: "عذراً؟".

قال علي وهو يمشي مبتعداً عنهما: "لا تقلق بشأن هذا، سأسأل المدير؟".

كان المدير ينتظر بجانب البابين، وابتسامة اعتداد بالنفس مرتسمة على وجهه؛ مثل مدرّب مجالدين رومان يكشّر لتلامذته. عندما رآني أركان، لوّح لي وكأننا صديقان قديمان.

وقال بمرح وهو ينـزل بضع درجات رغم المطر الغزير: "أهلاً بك ياكبير المفتشين، أنا مسرور لمجيئك".

قلت وأنا أصعد لتحيته: "شكراً لك، نعتذر عن تأخرنا".

فقال وهو يهزّ رأسه: "لا بأس! أهلاً أيها المفتش غورمن، سررت برؤيتك".

دمدم علي ببساطة رداً على تحيته، إذ كان لا يزال غاضباً من الطريقة التي عامله أركان بها في مقرّ قيادة الشرطة، لكن بدا أن أركان يريد نسيان تلك الحادثة غير السعيدة.

قال فيما كنا نصعد الدرجات معاً: "لم تتأخرا على الإطلاق، ونحن هنا دائماً على كل حال، فمنذ أن تلقينا اتصال المفتش غورمن، ونحن ننتظر مجيئكما. السيد يزدان يأتي باكراً أيضاً، وقد عاد من موسكو في منتصف الليلة الماضية، لكنه وصل إلى هنا قبل الجميع هذا الصباح".

أنباء جيدة، وتعني أننا سنلتقيه أخيراً.

عندما أوشكنا على عبور البابين الضخمين، رنَّ هاتفي الذي لم يتركني وشأني مرة واحدة. افترضت أن يفغينا هي المتصلة، فلا بد أنها قد أُصيبت بالقلق؛ لأننا لم نتكلم منذ أمس، وربما تتصل لتؤكّد على موعد عشاء يوم غد.

لم تكن يفغينا هي المتصلة، وإنما المرأة التي كنت أقضي المزيد من وقتي معها؛ المرأة التي يبدو أنها تتصل بـي بعد كل جريمة.

قلت لأركان: "اذهبا أنتما، وسأنضم إليكما بعد لحظة".

قال علي: "لا بأس ياسيدي، سأنتظرك هنا".

ورغم أنه لا يوجد ما يثير الارتياب بشأن أركان ورجليه، إلا أن "علي" كان متوتراً، ولم يرغب في أن يبقى بمفرده مع أشخاص لا يحبهم.

قال أركان بنبرة مرحة وأسلوب مرح: "سننتظر أيضاً. تفضّل وأجب على مكالمتك ياكبير المفتشين. سندخل معاً حين تصبح مستعداً".

قلت وأنا أبتعد إلى زاوية رواق المدخل: "لا بأس، لن أتأخر".

"نعم ياآنسة باركين، كيف حالك؟ كيف يمكنني مساعدتك؟".

"شكراً أيها المفتش أكّان، أنا بخير. سمعت أنكم وجدتم جثة أخرى".

كان الشعور بخيبة الأمل واضحاً في صوتها، رغم أنها ربما تتعمد التكلم بمثل تلك النبرة لتمنح ذلك الانطباع.

"نعم، لسوء الحظ. ولم تُترك الجثة عند عمود مارقيان كما توقعنا، وإنما عند آيا صوفيا".

أطبق الصمت لوقت طويل قبل أن ترد بنبرة ألم ودفاع عن النفس: "آمل ألا أكون موضع اتهام هنا أيها المفتش أكّان. سمّيت صرحاً بُني تخليداً لثيودوسيوس الثاني بناءً على إصرارك. كنت سأعترض لكنك كنت عاقد العزم، والمدة الزمنية التي طلبت مني التفكير فيها طويلة جداً؛ وظهرت فيها صروح وتماثيل رائعة لا تحصى. كيف كنت سأعرف أن القتلة سيتجاوزون ستة أباطرة ويصلون إلى آيا صوفيا التي بنُيت بعد ثمانين سنة؟".

كانت محقة، لكن ذلك لم يُبطل ارتيابـي بشأنها، رغم أن الوقت كان لا يزال باكراً للتوثق من تلك الشكوك.

"أرجوك ياآنسة باركين، أظن أنك أسأت الفهم. لا توجد اتهامات من أي نوع".

"لكن...".

"آنسة باركين، نحن ببساطة نطلب تعاونك. وإذا كان هناك من يثير الشكوك، فسأضع نفسي على قمة اللائحة، وقد قلت هذا بنفسك؛ فقد أصررت على تقويمك الوضعَ. أنا لا أبحث عن الجاني هنا، بل كل ما أحاول فعله هو فهم المنطق وراء هذا حتى نتمكن من توقع خطوة القاتل التالية".

"إذاً، أتعتقد أن جرائم القتل لم تنته؟".

"ألا تظنين هذا؟". لم تجب. "هل تعتقدين أنها قد انتهت؟".

وبدلاً من أن تجيب بنعم أو لا ببساطة، اختارت أن تقول: "كانت

آيا صوفيا المبنى الديني الأروع في الإمبراطورية الرومانية الشرقية، ولا مثيل لها في القسطنطينية، وجستنيان هو حاكم الإمبراطورية الأبرز. بعد جستنيان، بدأت الإمبراطورية تفقد قوتها، وإذا كانت الرسائل التي يحاول القتلة نقلها إلينا محدودة بأيام روما الذهبية، فسأقول نعم، هناك احتمال بأن تتوقف عمليات القتل".

"وإذا لم تكن محصورة بسنوات روما المجيدة؟".

قالت بعد توقف طويل: "لا أدري. ولا أظن أن مناقشة هذا الموضوع عبر الهاتف أمر ملائم. ليس لدي عمل كثير اليوم، لكن يجب أن أبقى في المتحف، لذا يمكن أن نتكلم بعمق أكبر إن أردت".

ألقيت نظرة سريعة بطرف عيني على علي الواقف بوقار بين أركان وحارسي الأمن، وأردت أن يلتقي ليلى باركين أيضاً. فإذا كانت تخفي أمراً ما عنا، فربما يستطيع علي ملاحظة شيء قد غفلتُ عنه.

"سيكون هذا رائعاً، وسنأتي إليك. سيحضر المفتش غورمن برفقتي أيضاً".

قالت: "سيكون هذا ممتعاً، وأنا أيضاً أرجو أن يأتي برفقتك. من يعرف؟ ربما سيُضيف مسحة فتنة إلى محادثتنا".

قلت محاولاً جهدي ألا أضحك: "لا بأس يا آنسة باركين، نراك قريباً".

آدم يزدان

لم يكن الفرق بين مبنى مكاتب آدم يزدان والقصر كبيراً. فعندما عبرنا البابين العريضين رأينا أريكة أمام عمودين يعلوهما تمثالا نسرين بيزنطيين مزدوجي الرأس، وخلفها ست درجات رخامية تقود نـزولاً إلى منطقة استقبال كبيرة. شاهدنا إلى اليسار ثلاثة أبواب خشبية، في حين توجد إلى اليمين واجهة زجاجية ضخمة تطل على بحر مرمرة الهائج ومتلاطم الأمواج.

في أثناء نـزولنا إلى منطقة الاستقبال، لاحظت مصابيح الزيت عتيقة الطراز التي وضعت أسفلها بعض الأرائك المصنوعة بأسلوب روماني قديم؛ من النوع الذي يمكن أن يتخيّل المرء أن أفراد الأسر الأرستقراطية الرومانية يستلقون عليها، مستمتعين بكؤوس الشراب وأطباق الفاكهة في أثناء تبادلهم أطراف الحديث. إن مثل تلك الأرائك لم تعد مستخدمة منذ أمدٍ بعيد، لكن آدم يزدان لم يدّخر جهداً أو تفصيلاً لجعل زواره يشعرون أنهم أصحاب مقام روماني رفيع. فعلاً، لم تتوقف الجهود هنا، فقد رأينا تماثيل نصفية رخامية - على الأرجح لأباطرة رومان - موزّعة بين الأرائك. ورغم أنها لم تكن أصلية، إلا أن النحّاتين فعلوا ما بوسعهم لإضفاء مسحة الأصالة على كل قطعة.

سأل علي؛ ناظراً إلى مجسّم كبير في وسط القاعة: "ما هذا؟ هل هذه شبه الجزيرة القديمة؟".

قال أركان: "أحسنت أيها المفتش، فقد عرفتها فوراً. لقد استقبلنا أربعة مرشدين ولم يتمكنوا من تعرّف ذلك المجسّم".

قال علي؛ وهو يتراجع إلى الخلف بضع خطوات متفحّصاً المجسّم من بعيد: "آيا صوفيا، جامع السلطان أحمد، قصر توبكابـي... هل تعرف أمراً ياسيدي، إنها تشبه النسر فعلاً".

لم تكن لدي فكرة عما يتكلم عنه لذا ذهبت بنفسي لإلقاء نظرة. كانت أبعاد المجسّم نحو ثلاثة أمتار بمترين، وكان محمياً بصندوق زجاجي سميك، ولا بد أن حفرة بعمق نصف متر تقريباً قد حفرت في الأرضية لتثبيته فيها. عندما وقع بصري عليه، عرفته فوراً؛ إذ بدا النسر الذي أشارت إليه زينب على الحاسوب قبل بضعة أيام ممتداً أمامي، والفرق الوحيد هو أن الصروح العتيقة في شبه الجزيرة لم تظهر على رأس النسر على الشاشة. لم يُظهر المجسّم التماثيل القائمة في المنطقة فحسب وإنما

الأبنية التي اختفت منذ وقت طويل أيضاً، ولفت أحد الأبنية في سارايبورنو انتباهي؛ مبنى يبدو دينياً بجوهره، ويقع في البقعة التي عُثر فيها على جثة نجدت دينيزل، حيث يوجد تمثال أتاتورك حالياً. وضعت نظارتي وانحنيت فوقه لأقرأ اللوحة المعدنية الصغيرة بجانبه: معبد بوسيدون .

كان المعبد الذي ذكرته ليلى باركين، وحيث تقدّم نجدت دينيزل بعرضه للزواج منها. أخفضت نظارتي ورسمت خطاً خيالياً بين المعبد والعمود في سمبرليتس الذي يحيي ذكرى قيام قسطنطين بإعلان المدينة عاصمة جديدة للإمبراطورية؛ حيث وجدنا جثة مقدّر كيناسي. كان العمود ظاهراً أيضاً في المجسّم، إلى جانب صروح أخرى من العهدين الروماني والعثماني: جامع علي العتيق خلف العمود مباشرة، إضافة إلى جامع محمد باشا، ثم قرأت الكتابة على اللوحة حيث الميدان الذي كان العمود قائماً فيه: ساحة قسطنطين . هذه المرة، رسمت خطاً خيالياً باتجاه الشرق؛ في الاتجاه الذي وجدنا جثة مقدّر كيناسي تشير إليه، وتابعت على طول ميس حتى وصلت إلى مكان علّقت فيه لوحة كتب عليها ساحة توري ؛ المعروفة حالياً بساحة بايزيد، وأظهر المجسّم مبانيَ رومانية عتيقة إلى جانب جامع بايزيد وأول قصر بناه السلطان محمد الفاتح؛ المبنى الذي يحتضن جامعة إسطنبول. إلى الأسفل قليلاً، استطعت تمييز كلمتي ساحة بوفياس بين مجموعة مبانٍ وتماثيل تقوم في ما يعرف اليوم باسم أكساراي، وتجاوزت بعد ذلك عدّة أبنية ووصلت إلى حافة أسوار المدينة؛ إلى مكان يدعى ساحة أركديوس التي ينتصب فيها عمود يحمل الاسم نفسه؛ وبكلمات أخرى، كنت قد وصلت إلى ألتين كابـي، حيث وُجدت ضحيتنا الثالثة سادان دوروكا. استدرت في ذهني وعدت من حيث أتيت؛ في الاتجاه الذي كانت يدا الصحفي تشيران إليه، ووجدت نفسي عند آيا صوفيا؛ حيث اكتُشفت جثة المهندس تيومان أكّان، لكن يديه هذه المرة متباعدتان كثيراً؛ بخلاف الضحايا الآخرين. كانت جثة أكّان قد وُضعت في الشارع الذي يمر بجانب الأقسام العليا من الكنيسة القديمة؛ بعيداً بضعة أمتار عن مدخل مدرسة جعفر آغا، ويده اليسرى تشير نحو قصر توبكابـي، في حين تشير اليمنى إلى جوامع بايزيد والفاتح وياووز، إضافة إلى صروح رومانية وعثمانية، ربما لم نأخذها بالحسبان في أثناء تحقيقاتنا.

مبانٍ كثيرة، واحتمالات متعددة... حدّقت منـزعجاً إلى تمثال رجل- ربما كان إمبراطوراً- على صهوة حصان أمام مجسّم آيا صوفيا.

قال صوت واضح وعميق: "هذا جستنيان، أقصد الرجل الذي يمتطي

الحصان؛ إنه الإمبراطور جستنيان؛ الرجل الذي بنى نسخة آيا صوفيا التي نراها اليوم. طبعاً، لقد اختفى التمثال منذ وقت طويل...".

استدرت لأواجه الرجل الذي يتكلم، ورأيت أنه يقف على بعد بضع خطوات خلفي؛ مرتدياً بزّة بنية فاتحة عادية، وحاملاً عصا مشي ذات مقبض عاجي في يده اليمنى. كان متوسطَ الطول وريّاناً. كتفاه عريضتان، وحاجباه بارزان قليلاً بسبب رأسه الحليق، لكن رموشه الطويلة تجعل عينيه أكثر إغواء، وشاربه الأشيب يندمج مع لحيته المشذّبة.

قال ماداً يده: "اسمي آدم يزدان". لم ألحظ حرارة كبيرة. "وأنت بالتأكيد...؟".

قلت مصافحاً يده: "كبير المفتشين نوزت أكّان، وهذا هو المفتش غورمن".

"تشرّفت بمعرفتكما أيها السيدان". ومن دون أن ينتظر ردّاً، استدار نحو التمثال أمام مجسّم آيا صوفيا قائلاً: "ربما نحن نعيش في إسطنبول، لكننا لا نقدّر الأهمية الحقيقية للإمبراطور جستنيان. فقد كان الشخص الذي أمر بإعادة بناء هذه المدينة، بعد أن حوّلتها ثورة نيكا إلى أنقاض محترقة، وليس آيا صوفيا فقط، وإنما قصر ماغنوم أيضاً وكل المباني في الساحة الرئيسة، وحمامات زيوكسبوس في أبنية مجلس الشيوخ أيضاً. سأقول إنه الحاكم الوحيد الذي يتمتع بمكانة مماثلة لسلطاننا سليمان العظيم. وكلٌّ من جستنيان وسليمان عاش وحكم في أثناء ذروة مجد دولته".

أرهفت السمع مذهولاً؛ إذ لم يكن هذا الرجل رجلاً مجنوناً بالجشع وطلب الثروة، وإنما شخصاً واسع المعرفة ومثقّفاً، مثل ليلى باركين؛ رجلاً يستطيع المرء أن يقول إنه شغوف بمدينته. فضلاً عن ذلك، لقد تكلم بلغة تركية فصيحة وبسيطة ستجعل شخصاً ولد وترعرع في إسطنبول يشعر بالخجل. وأشار بعصاه إلى تمثال جستنيان الذي يمتطي الحصان.

قال بابتسامة لعوب: "فعلاً، أوجه الشبه بين جستنيان وسليمان تمتد إلى حياتهما الغرامية أيضاً. فقد لعبت امرأة واحدة دوراً محورياً في حياة كل منهما؛ الإمبراطورة ثيودورا وصاحبة السمو السلطاني [25] ، وتركت كلتاهما أثراً عميقاً وثابتاً في شريك حياتها، وتوفيت كل منهما قبل رجلها". رفع إصبعاً في يده الحرّة؛ وكأنه يحذّرنا من أي سوء فهم. "لا يتوقف التشابه عند هذا الحد، فقد تركا كنوزاً وأموالاً طائلة لهذه المدينة، لكن ذكراهما حيّة بفضل صرحين رائعين: آيا صوفيا وجامع سليمان". تابع مضيفاً بفخر: "طبعاً، هناك شيء واحد تفوّق فيه سليمان على سلفه الإغريقي،

وهو شِعره. وأنا واثق بأنكم تعرفون تلك الأبيات التي نظمها: هالك إسند موتبر بير نسني يوق دفلت جيبـي/ أولمايا دفلت سيهاندا بير نفس سيهات جيبـي... " [26] . ردّ على صمتنا بابتسامة واسعة وتابع قائلاً: "أرجو أن تصفحوا عن هذا، فشغفي بالتاريخ يُخرج ببساطة أفضل ما لدي، ولديكما قضايا أكثر أهمية من الماضي لتتعاملا معها".

قلت: "تحقيقنا ليس منفصلاً عن التاريخ كما قد تظن؛ تاريخ إسطنبول لأكون أكثر دقة". بدا أنه لم يفهم ما قلته فتابعت شارحاً: "جرائم القتل كلها متعلقة بتاريخ هذه المدينة ياسيد يزدان".

لم تبقَ نظرة الفضول على وجهه طويلاً، وانتقل بصره إلى حارسَي الأمن اللذين يبدوان مستنسخين، ويقفان خلفه ببضع خطوات.

قال: "لحظة من فضلك ياكبير المفتشين. أركان، هل تمانع أن تتركنا بمفردنا لبعض الوقت من فضلك؟".

مشى الشرطي السابق بسرعة باتجاه الرجلين، وهمس في أذنيهما فغادرا القاعة على الفور.

قال آدم يزدان؛ ملامساً لحيته ومستغرقاً في التفكير: "أتقول إن للجرائم علاقة ما بهذه المدينة؟ هل يمكن أن أسأل عن كيفية توصّلكم إلى هذه النتيجة؟".

وهكذا بدأت اللعبة...

"لأن القتلة يتركون ضحاياهم في مواقع ذات أهمية تاريخية".

ردَّ وهو يدير عصاه بين يديه: "هذا ما سمعته. وأظن أن أركان قد ذكر ذلك عَرَضاً".

"هل أخبرك أيضاً أن قطعاً نقدية قديمة قد تُركت في أيدي الضحايا؟".

في الواقع، كان سؤالي ماكراً؛ لأن لا شيء يتعلق بالقطع النقدية قد تسرّب إلى أركان أو الصحافة. والأشخاص الوحيدون الذين يعرفون عنها هم القتلة ونحن. حدّقت إلى أركان؛ منتظراً رؤية رد فعله، لكنه تفادى المصيدة بخبرة، أو لم يكن يعرف حقاً شيئاً عن القطع النقدية.

"قـ... قـ... قطع نقدية؟ لم أعرف شيئاً عـ... عن أي قطع نقدية؟". اتسعت عينا آدم يزدان، مثل مدير شركته الأمنية، وفغر فمه دهشة. "هل القطع النقدية تخصّني؟".

بدا من الصعب معرفة إن كان تعبير الدهشة الذي بدا على وجهه وارتعاش صوته حقيقيين أم جزءاً من أداء متقن.

"سنصل إلى موضوع القطع النقدية لاحقاً. من الواضح أن القطع

النقدية في مجموعتك - كما أخبرنا أركان - من العهدين العثماني والجمهوري".
أومأ.
"هذا صحيح. أنا أجمع قطعاً نقدية من العهدين العثماني والجمهوري".
"على كل حال، كانت القطع النقدية التي وُجدت مع الضحايا من عهود سابقة، وتحمل أختام بيزاس، وقسطنطين، وثيودوسيوس الثاني، وجستنيان. بكلمات أخرى، كانت مجموعة نجدت...".
طرفت عيناه بتعاقب سريع.
"أنت... أنت ذكرت أربع قطع نقدية وأربعة حكّام".
"نعم".
"لكن، وقعت ثلاث جرائم فقط، أليس كذلك؟".
"وقعت أربع جرائم ياسيد يزدان. فقد تم العثور على جثة رابعة بجوار آيا صوفيا في الليلة الماضية. وتُركت قطعة نقدية تحمل ختم الإمبراطور جستنيان في يد الفقيد".
سأل بعد أن بلع ريقه: "من... من الضحية؟". تقدمت منه خطوة.
قلت وأنا أنظر إلى عينيه مباشرة: "تيومان أكّان، إنه مهندس معماري كما يبدو". لم يكن بمقدوره إخفاء قلقه المتزايد. "ربما كنت تعرفه. لكل الضحايا علاقة ما بصناعة البناء".
"نحن نعمل في التشييد أيضاً، لكن البناء في إسطنبول قد يكون كابوساً أيها المفتش أكّان، ولهذا السبب وظّفتُ نجدت دينيزل. رحمه الله، كان رجلاً صالحاً، وشخصاً مثقّفاً وبارعاً في عمله. عملنا أيضاً مع السيد كيناسي، وبوصفه موظفاً حكومياً في المجلس البلدي، اتصلنا به دائماً للحصول على وثائق معينة؛ مثل الرُّخص، واستمارات الطلب، وأشياء مماثلة. وربما كنت أعرف الضحيتين الأخريين أيضاً، فنحن نلتقي الكثير من الناس في صناعة السياحة أيها المفتش أكّان، سواء أأحببنا ذلك أم لا، وهذه طبيعة هذا القطاع".
جأر علي: "تقول تشييد! لكن، ألا يُعتبر هذا أقل من الواقع؟ يبدو أنكم لا تضعون نصب أعينكم أي مبنى قديم، ومن الواضح أن المشروع المقترح من نطاق مختلف تماماً". وأومأ نحو أركان متابعاً: "هذا ما أخبرنا به رجلك هنا على كل حال".
قال يزدان من دون أن يستدير لينظر إلى أركان: "صحيح. إنه مشروع عملاق، مشروع تستحقه شبه الجزيرة القديمة، وهو مشروع معاصر لكنه يوقّر الماضي أيضاً. ربما يكون مشروعي مشروع هذا القرن، وهو بالتأكيد

سيضع أسساً جديدة للسياحة؛ ليس في تركيا فقط وإنما في العالم أيضاً. ما نريده هو تسليط الضوء على صرح ومبنى مهم في شبه الجزيرة، وتلك التي اختفت أو دُمّرت منذ وقت طويل، وليس المباني القائمة فقط". رفع عصاه وأشار إلى سارايبورنو. "مبانٍ مثل معبد بوسيدون الذي لم تبق منه ذرة غبار، وقصر بوكوليون الذي أصبح أنقاضاً يُؤسف عليها اليوم". توقفت عصاه الهائمة عند عمود قسطنطين. "أو تلك الأبنية التي كانت قائمة في ساحة قسطنطين". واتجهت عصاه نحو الشمال إلى قصر قائم عند نهاية الأسوار من جهة القرن الذهبـي. "وعندها، ستكون أبنية مثل قصر بلاكرين وقصر بورفرجينتش موجودة. فمعظم الناس لا يعرفون بوجود مثل هذه الصروح، لذا عندما نجعل هذا المركز الترفيهي والتجاري حقيقة، فسيعرف الناس عن تاريخهم".

كلما طال وقت كلامه ازدادت إثارته، وتصاعدت حماسته، وكشفت النظرة في عينيه وقوة إشاراته وتعابيره عن شغف وثقة بالمشروع. على كل حال لم يشاطره علي ذلك الانفعال.

وقال له: "ربما تكون هذه وجهة نظرك، لكن هناك آخرين سيجادلون قائلين إن المشروع مجازفة كبيرة، وإن الضرر الذي سيلحق بالصروح سيكون كبيراً". مال ونظر إلى المجسّم. "ليس تلك التي اندثرت، وإنما تلك التي لا تزال قائمة".

بدا آدم يزدان على وشك أن يعبس، لكنه كان أذكى من أن يبتلع الطُعم، وأخفى أي انـزعاج ربما يكون قد شعر به خلف ابتسامة خفيفة.

"إنهم مخطئون جداً، والأفكار التي يمثّلونها - كما أخشى - عتيقة الطراز. أنا واثق بأنك تتذكر يا كبير المفتشين كيف أُثيرت الاعتراضات نفسها المتعلقة بالضرر الذي سيلحق بشخصية المدينة وبيئتها حين بُني أول جسر على البوسفور. وماذا لدينا الآن؟ نقاشات جادة بشأن تشييد جسر ثالث. يكون التاريخ وصروحه بأمان أيها السيدان بجعله جزءاً من الحياة اليومية الحقيقية".

قلت وأنا أشعر بعجزي عن التزام الصمت: "حتى إذا كان ذلك يعني الإضرار بها على نحو لا يمكن إصلاحه!؟". بدا منـزعجاً، وأمسك عصاه بيده الأخرى.

"لقد تضرّرت كثيراً حتى الآن يا كبير المفتشين، والمنطقة التي نتكلم عنها مُدرجة في قوائم، ولا يوجد شيء في تلك المواقع باستثناء الأنقاض. لن تسمح هيئة الصروح التاريخية بأدنى تغيير في المنطقة، لذا تتداعى الأبنية

نظراً إلى إهمال صيانتها وحمايتها. ستجعل المباني التي نخطط لتشييدها بجانب تلك الصروح أو حولها الماضي ينبض حيوية؛ شيئاً لا يستطيع أكاديميون عجائز نكدون ويساريون عنيفون يتمنون جعل الأمور أسوأ في كل فرصة فهمَه".

سأل علي، مشيراً إلى منطقة فسيحة في المجسّم؛ تحت جامع السلطان أحمد، كُتب عليها قصر ماغنوم : "هل هذا قصر من نوع ما؟".

قال آدم يزدان وهو يومئ برأسه: "إنه قصر القسطنطينية الكبير، قصر ماغنوم في الإمبراطورية الرومانية. بدأ البناء مع قسطنطين، وأُضيفت ملاحق إلى المبنى الأصلي بمرور مئات السنين. ألقيا نظرة من فضلكما؛ هذا هو المدخل الرئيس المؤدي إلى القصر، والمعروف بهالكي ، وهذه غرف الحرّاس، وهذا القسم هنا مخصص لاجتماعات مستشاري الإمبراطور، أما هذا المبنى هنا فيعتبر منطقة الاستقبال الرئيسة، وهذه المساحة المكشوفة هنا هي منطقة الاستجمام. هذا رائع، أليس كذلك؟". رسم خطاً بعصاه من السلطان أحمد ونـزولاً إلى مساحة زرقاء شاسعة. "تخيّلوا مستطيلاً، يبدأ طوله من قرب المضمار وينتهي عند بحر مرمرة، وعرضه من نهاية ساحة جامع السلطان أحمد إلى أسوار آيا صوفيا؛ وستكون تلك هي المنطقة التي ستغطيها عقارات القصر الكبير".

سأل علي وهو يمسّد ذقنه: "هل المبنى الذي نتواجد فيه الآن يقع ضمن أراضي القصر القديم؟".

أجاب مضيفنا الذي عرف فوراً القصد من تعليق علي: "أرجوك أيها المفتش غورمن، مبنانا ليس الوحيد في العقار".

تنهّد علي، وعيناه لا تزالان مسمّرتين على المجسّم: "ليته كان كذلك فقط". عندما رفع بصره، رأيت ومضات قصيرة تدلُّ على الإدراك والبصيرة: "في الواقع، سيكون من الأفضل عدم وجود مبانٍ في هذه المنطقة على الإطلاق؛ باستثناء الصروح والأوابد القديمة؛ بالطريقة التي تظهر فيها هنا في المجسّم. عندها يصبح المكان ظاهرة القرن السياحية".

لم يعرف آدم يزدان ما يجدر به قوله. ولأكون صادقاً، دُهشت أنا أيضاً؛ ربما أسأت الحكم على الفتى، وفشلت في إدراك مدى ذكائه وحساسيته.

قال آدم يزدان، فيما كنت لا أزال أنظر إلى علي بإعجاب: "لكن هذا سيكون مستحيلاً أيها المفتش غورمن، فقد هُجر القصر الكبير قبل نحو ألف سنة". ورفع عصاه وأشار إلى الأرائك في البهو. "لكن ألقيا نظرة

حولكما. كانت توجد في القصر الكبير قاعة كبيرة تضم تسع عشرة أريكة؛ حيث يُستقبل مسؤولو الدولة. لقد جعلنا الماضي يعود مجدداً. تقدم إلى الأمام بضع خطوات ووضع يده على إحدى الأرائك. "توجد تسع عشرة أريكة هنا أيضاً؛ تماماً كما كانت سابقاً في القصر الكبير، لكن هذا كل ما استطعنا فعله. إذ ستكون إعادة بناء القصر بكامله شيئاً مستحيلاً، فهذه المنطقة مأهولة منذ قرون، ويوجد فيها آلاف وآلاف المنازل والشركات".

كان علي يصغي، لكنه لم يهتم إطلاقاً بما يقوله الرجل، أو بالرجل نفسه.

"سيكون من الأفضل لو أن أحداً لم يأتِ إلى هنا إطلاقاً. فلو لم يتواجد شيء هنا، لما كانت النسور قد اجتمعت بحثاً عن جيف متعفّنة".

على الرغم من إهانته علناً، بقي آدم يزدان هادئاً، أو على الأقل بذل جهداً جديراً بالملاحظة في كبت أي غضب ربما شعر به. كان أركان من تكلم رداً على ذلك.

"عذراً أيها المفتش غورمن، لكنني لا أظن أن مثل هذه الكلمات القاسية ملائمة. لقد عاملك السيد يزدان باحترام كبير و...".

قال يزدان بحدّة مقاطعاً كلام أركان: "أرجوك ياأركان، أعرف بالضبط ما يحاول المفتش غورمن قوله، فهو يحب مدينته". ثم استدار ليخاطب الشاب: "صدّقني أيها المفتش، أشعر بالألم نفسه، وأتمنى مثلك تماماً تفادي مثل هذا الخراب، لكن الأوان قد فات. أنت محق، فهناك أشخاص كُثر في قطاع السياحة لا يعرفون أبسط المعلومات عن هذه المدينة أو عن تاريخها. وأنا أنتقدهم كما تفعل أنت، لكنْ من دون الاستثمار الصحيح، وبناء فنادق، وتوفير خدمات جديدة، لا يمكن تسويق هذه المدينة إلى باقي العالم. أفهم سبب شعورك، غير أنّه لا مكان للعواطف في هذا العمل أيها المفتش، فالتاريخ والسياحة قضيتان معقّدتان...".

جهّزت نفسي لثورة غضب عارمة من علي لكنها لم تكن وشيكة، وبدلاً من ذلك أبقى ناظريه على مجسّم قصر ماغنوم وشرارات الغضب تقدح منهما؛ ما منح آدم يزدان فرصته.

فقال، مشيراً إلى الباب الأوسط بين ثلاثة أبواب إلى اليمين: "إذا أحببت ياكبير المفتشين، يمكن أن نجلس في تلك الغرفة هناك، فالمكان أهدأ، وسنتكلم براحة أكبر".

"التاريخ مكتوب بالدم"

كانت الغرفة بالتأكيد مكاناً نتكلم فيه براحة أكبر، لكن القول إنها أكثر هدوءاً يعدُّ ضرباً من الخيال. ففي اللحظة التي دخلنا فيها الغرفة المضاءة بقوة، والتي تضم بين جنباتها طاولة خشبية كبيرة وكراسيَ جلدية وسجادة منسوجة يدوياً، استقبلنا صوت حاد وغريب.

"مرحباً، اسمي ثيودورا، أهلاً بكم في قصري".

في قفص ضخم أمام ستائر ذات لون أصفر فاتح، رأينا أنثى ببغاء تتحرك إلى الأمام والخلف على مجثمها، وهي تكرّر الكلمات:

"أهلاً بكم في قصري، أهلاً بكم في قصري".

كانت تقريباً توأم ببغاء نجدت دينيزل؛ الملك بيزاس. وكانت رمادية اللون، وذات ذيل أحمر فاقع، وعينين كبيرتين مستديرتين راحتا تحدّقان إلينا بافتتان. بدت منفعلة على نحو خاص حين رأت "علي" فاستدارت إليه في قفصها.

"مرحباً... اسمي ثيودورا... أهلاً بكم في قصري...".

"لقد أحبّتك أيها المفتش". ابتسم آدم يزدان؛ محاولاً التخفيف من توتره. "إنها لا تتكلم مع الجميع على هذا النحو".

قلت واضعاً أصابعي على قضبان القفص: "أحبَّ الملكُ بيزاس "علي" أيضاً. هذه ليست أخت الطائر الذي رأيناه في منـزل نجدت دينيزل، أليس كذلك؟ فهما يبدوان متشابهين".

أجاب وهو ينظر إلى الببغاء بتأثر؛ وكأنه ينظر إلى طفل: "يمكن أن تقول إنهما قريبان. عمر بيزاس اثنتان وثلاثون سنة، في حين لا تزال هذه الأميرة هنا في التاسعة عشرة من عمرها".

"هل تعيش حقاً هذه المدة الطويلة؟".

رأيت ومضة حزن في عينيه.

"عُرف عن بعضها أنه عاش ثمانين عاماً، وهي بسيتاكوس إريثاكوس ؛ إنها ببغاوات رمادية أفريقية. وهي مخلوقات ذكية حقاً، ويمكن أن تتذكر ما يصل إلى ألف كلمة، لكنها نادرة جداً أيضاً. إذا مرض أحدها ومات، يفنى السّرب كله بعد وقت قصير". تنهّد بعمق. "كان لدي ثمانية منها في وقت ما، أربعة أزواج، حتى قضى عليها مرض فيروسي. كنت أنـزل كل صباح وأرفع أحدها من أسفل القفص؛ فعندما تقع عن مجثمها، لا يمكن أن نفعل شيئاً. لحسن الحظ، وجدنا طبيباً بيطرياً جيداً، فصل الطيور

السليمة عن تلك المريضة، وأرسلنا زوجاً منها- الملك بيزاس وشريكته هيكات- ليبقى مع نجدت".

"هيكات المعروفة بقدراتها العجيبة؟".

قال آدم يزدان وهو يميل إلى الخلف وينظر إليّ بإعجاب: "لقد أثرت إعجابـي ياكبير المفتشين. يبدو أنك خبير بعلم الأساطير. اجلسا من فضلكما". وأشار إلى الكرسيين الجلديين أمام الطاولة.

جلست وعلي قبالة بعضنا على كرسيين جلديين مريحين، فيما بقي أركان واقفاً. وربما كان لا يزال متوتراً من مواجهته السابقة مع علي، لكن آدم دعاه للجلوس أيضاً.

"اجلس ياأركان، ولا تكن فظاً مع ضيفينا".

قال أركان منـزعجاً من إساءة فهم موقفه: "أعتذر. هذا ليس الانطباع الذي أريد تركه، خاصة أن السيدين اللذين نتكلم عنهما زميلان من الشرطة. إذ إن إهانة ضابط شرطة زميل هو آخر شيء أريد فعله؛ حتى بعد أن تقاعدت. عندما تصبح شرطياً، فستبقى شرطياً دائماً، أليس كذلك ياكبير المفتشين؟".

رددت: "أنت محقّ". بذلت قصارى جهدي لتجاهل علي الذي تململ على كرسيه.

"ربما كانت هيكات حامية مدينة بيزنطية ياكبير المفتشين، لكنْ لسوء الحظ لم تستطع هيكات الخاصة بنا الانسجام مع بيئتها الجديدة، وقد ماتت في نهاية المطاف. لذا، لم يبقَ لديّ إلا زوج واحد؛ جستنيان وثيودورا، وقد فقدنا جستنيان في الشهر الماضي". أضحت نبرة صوته حاسمة وهو يتابع: "لهذا السبب فكّرت فوراً في بيزاس حين سمعت أن نجدت قد لقي حتفه أيها السيدان. إذ لم يبقَ أحد من أسرته باستثنائي أنا وثيودورا".

واستدار وحدّق بمحبة إلى الببغاء في القفص مرة أخرى.

"كانت ثيودورا إمبراطورة معروفة بأنها، حسناً، غانية، أليس كذلك؟".

شعر بالتأكيد بالغضب من الملحوظة وأشاح ببصره بعيداً عن القفص، ثم أجاب عن سؤالي من دون أن يزعج نفسه بالنظر إلي.

"حسناً، لنقل فقط إن هذا موضوع غير مؤكد، وسأقول إنها كانت ممثلة". ومشى إلى الخزانة الزجاجية الصغيرة قبالة الطاولة وأخرج كتابين من الرف الثالث، ثم استدار ورفعهما في الهواء. "ألّف بروكوبيوس هذين الكتابين؛ وهو شخصية مثيرة للفضول ومؤرخ ومستشار قانوني. وفقاً لهذين الكتابين، كانت ثيودورا غانية، لكن هناك آراء أخرى أيضاً". عاد إلى الطاولة

ورفع كتاباً ذا غلاف جلدي أحمر، فرأيت تحت اسم الكاتب العنوان مباني جستنيان .

"يُثني هذا الكتاب مثلاً على ثيودورا وجستنيان كثيراً". ثم رفع الكتابين الأولين قائلاً: "على كل حال، يمكن معرفة موضوع أي كتاب من عنوانه. التاريخ السري لبيزنطية . نعم، في هذا الكتاب، ينتقد بروكوبيوس الإمبراطور والإمبراطورة بقسوة، ويُقدّم الإمبراطورة كامرأة مجنونة وغانية ومشعوذة؛ امرأة مغوية حوّلت الإمبراطور إلى ألعوبة بين يديها، وفي نهاية المطاف إلى قاتل قاس. لذا، من الطبيعي أن يكون هذا الكتاب قد كُتب ووُزّع بسرية فائقة".

كانت معرفته بالتاريخ مدهشة، لكن كتابات بروكوبيوس مثيرة جداً للاهتمام.

"هل كان محقاً؟".

"حسناً يا كبير المفتشين، من الصعب معرفة هذا. جاء كل من جستنيان وثيودورا ممّن يدعون العامة، ولهذا لم يكونا محبوبين من الطبقة الأرستقراطية. كان بروكوبيوس رجلاً مثقفاً، وأحد المفكّرين في عصره، ويشعر بتعاطف مع النبلاء، وببغْض شديد على الأرجح لإمبراطور وإمبراطورة يعتبرهما من طبقة وضيعة. وقد صبغت تلك الكراهية كتاباته. لكن من ناحية أخرى، وكما يقول المثل الشعبي، لا دخان من دون نار. أياً يكن الأمر، توجد حقيقة واحدة مسلّم بها وهي أن ثيودورا كانت امرأة شجاعة وعاقدة العزم على نحو استثنائي، نعم، كانت إمبراطورة قاسية جداً".

ثم سأل وهو يجلس على أحد الكراسي الجلدية بجانب الطاولة: "هل سمعتما بثورة نيكا؟". وعندما لم يسمع رداً، فتح الكتاب وبدأ يقلّب الصفحات. "ثورة نيكا هي التي جعلت جستنيان إمبراطوراً، وتعتبر مثالاً تقليدياً عن سلسلة بغيضة من الأحداث التي انتهت نهاية مقبولة، إن شئت القول. وفضلاً عن ذلك، كانت أحداثاً أثبتت فيها امرأة وضيعة من الشوارع أنها تستحق أن تكون الإمبراطورة".

وجد الصفحة التي كان يبحث عنها، فصمت، ورفع رأسه عن الكتاب وثبّت نظره علي.

"بدأ تمرد نيكا حين اعتقل حاكم المدينة سبعة أعضاء من مجموعتي الزُّرق والخُضر اللتين كانتا من أهم المجموعات الرياضية والاجتماعية في ذلك الوقت، إلى جانب مجموعتي الحُمر والبيض. ففي أثناء سباق عربات في المضمار، بدأ بعض الزُّرق والخُضر بمهاجمة بعضهم بعضاً، فأصدر حاكم

المدينة أمراً بإعدامهم. على كل حال، هرب شخصان، أحدهما أزرق والآخر أخضر، بأعجوبة ولجآ إلى إحدى كنائس المدينة. وفي أثناء السباقات في المضمار بعد عدّة أيام، طلب كل من الزُّرق والخُضر العفو عن كلا الرجلين، لكن الإمبراطور رفض طلبهم، فوحّدت المجموعتان - المتنافستان بقوة حتى ذلك الوقت - جهودهما وقادتا ثورة ضد الإمبراطور، وسرعان ما أصبح من الممكن سماع صرخة نيكا! نيكا! في كل أنحاء الساحة. كان من الممكن إخماد التمرد بسهولة في بدايته، لكن الأرستقراطيين المنـزعجين جداً من ضرائب جستنيان العالية انضموا إلى الحشد، وبدأ الوضع يزداد عنفاً. عندها احتشد الجمهور الغاضب، وأشعل النار في آيا صوفيا، والبطريركية، ومبنى مجلس الشيوخ، وآيا أيرين، وكنيسة ستوا، وحمّامات زيوكسبوس، والأبنية على طول ميس، واستعر قلب المدينة بألسنة اللهب والدخان".

في البداية، لم أكن مهتماً إطلاقاً بيزدان وما يقوله، لكن شيئاً فشيئاً شدّتني قصته، حتى إنّ "علي" بدأ آنذاك يرهف السمع إلى القصة، وهو شيء لم يغب عن الراوي.

"تخيّل المشهد فحسب أيها المفتش غورمن، لا بدّ أنه كان منظراً مروّعاً. فكلّ ما أصبح الآن يسمى السلطان أحمد وميس برمّته وصولاً إلى أكساراي المعاصرة، اشتعلت فيه النيران... بحلول اليوم الثاني من الثورة، ازدادت ثقة المتمردين بأنفسهم، واجتمعوا في المضمار للمطالبة بعزل السلطات الإمبراطورية، بدءاً من الحاكم، وأدرك جستنيان عواقب الرفض فامتثل لطلبهم، لكن الشغب استمر من دون هوادة. وفي اليوم الخامس، ذهب الإمبراطور - في تصرّف يدل على اليأس - إلى المضمار لمخاطبة أبناء شعبه، وأخبرهم أنهم إذا أوقفوا التمرد فلن يُعاقَب أحد، لكن المحتشدين لم يصغوا إليه، وتقدموا آنذاك بطلب جديد: أرادوا إمبراطوراً جديداً. عاد جستنيان إلى قصره مذهولاً من ذلك التطور الأخير، وذهنه مشوش من خطورة الموقف. وفيما كان الشعب يبحث عن شخص مناسب ليكون الإمبراطور الجديد، أصدر جستنيان أمراً لسفنه بالاستعداد؛ ظناً منه أن ابتعاده لبعض الوقت عن الاضطراب والفوضى سيعالج الموقف. وعندما كان يضع اللمسات الأخيرة على استعدادات رحلته، ظهرت ثيودورا عند مدخل القاعة واقتربت من العرش، هادئة وواثقة بنفسها، وهي ترفع رأسها عالياً.

قالت بنبرة هادئة وواثقة بالنفس: لا تفعل هذا يامولاي، لا تهرب؛ حتى إذا كان هذا هو الطريق الوحيد إلى بر الأمان، فلا تفعل ذلك. سنموت جميعاً يوماً ما، ولا شك إطلاقاً في هذا، لكن الموت ليس مهماً،

وإنما أن يتذكرنا الجميع بشرف، ولن يؤدي فرارك إلا إلى موت شرفك. يامولاي، أتوسّل إليك ألا تهرب، فلا يوجد كفن جنازة أروع من هذه العباءة الإمبراطورية البنفسجية...

تأثر جستنيان بكلماتها، وربما شعر بالخجل من نفسه، فألغى خطة الهروب، واستدعى بليساريوس وموندوس- وهما اثنان من أبرع قادته- وأصدر إليهما الأمر بأن يعمل السيف في رقاب المتمردين.

في ذلك اليوم نفسه، كان العامة قد اجتمعوا في المضمار للتعبير عن مطالبهم الجديدة، فدخل القائدان مع قواتهما عبر بوابتين من كلا الجانبين، وأغلقا المخرجين، وبدآ بذبح كل المتظاهرين؛ سواء أكانوا رجالاً أم نساءً أم أطفالاً. لقي نحو ثلاثين ألف شخص مصرعهم، وبحلول نهاية اليوم كان المحتجون قد تعلّموا درسهم، وسُحق التمرد، وأصبح جستنيان آنذاك حراً في إعادة بناء المدينة".

"سيظن المرء من الطريقة التي تتكلم بها، أنك توافق على تلك المجزرة". بدا وجه علي يتميّز غضباً؛ وكأن بمقدوره سماع صرخات الناس المذعورين في أثناء قيام القائدين الرومانيين وجنودهما بالقضاء عليهم. "هذا مقزّز؛ أعني حماستك بشأن امرأة جعلت ثلاثين ألف رجل وامرأة وطفل يُذبحون حتى تتشبث بسلطتها. ما الجدير بالثناء في مثل هذه الهمجية؟". وأشار إلى الببغاء في القفص. "وتسمّي هذه الببغاء المسكينة باسمها إعجاباً بها!".

كرّر الطائر: "إعجاباً بها... إعجاباً بها...". بقيت أفكار آدم يزدان الحقيقية مخفية خلف ابتسامة واسعة.

قال: "التاريخ يخضع لمنطق غريب أيها المفتش غورمن. نعم، ذلك المنطق ليس عادلاً دائماً، إن أردت استخدام كلمة ملائمة. لكن هناك طريقة أخرى للنظر إلى هذا: فلو لم يسحق جستنيان التمرد بتحريض من ثيودورا، لما خضعت مدينة القسطنطينية لمثل ذلك التجديد، ولما كانت آيا صوفيا التي نراها اليوم، مثلاً، قد بُنيت". ثم استدار ليخاطبني، عارفاً أن الموضوع عزيز على قلبي. "هل كنت تعرف ياكبير المفتشين أن آيا صوفيا التي نراها اليوم هي الكنيسة الثالثة التي بنيت في هذا الموقع؟ فقد شُيّدت الأولى التي كانت بناء خشبيّاً قبل مئتي سنة تقريباً من تشييد هذه الكنيسة، وكانت آنذاك معروفة ببساطة بأنها الكنيسة الكبيرة . وبعد خمسين عاماً دمّرها حريق، فشُيّدت كنيسة ثانية مكانها بناء على أوامر ثيودوسيوس الثاني؛ الإمبراطور الذي بنى تحصينات المدينة. وعندما دُمّرَت مجدداً في أثناء

ثورة نيكا، أمر جستنيان ببناء هذه الكنيسة المدهشة التي نراها اليوم". استدار ليخاطب "علي". "استغرق تشييدها خمس سنوات كاملة، وعمل إلى جانب المهندسين المعماريين عدد كبير من العلماء والخبراء المعروفين في ذلك الوقت؛ مثل عالم الرياضيات أنتيموس من تراليس، وعالم الفيزياء إيزيدور من ميلتس، وكدح نحو عشرة آلاف عامل ليلاً ونهاراً لبنائها. وفي عام 537 م، اكتمل بناء الكنيسة أخيراً، وتميّزت بأكبر قبة على وجه الأرض. وبعد ألف سنة، لم تستطع تحفتا المعماريّ سنان الموهوب - جامع السليمانية وجامع سليم - منافسة تلك القبة الضخمة. توجد في ثلاثة مبانٍ فقط قبب أكبر: كاتدرائية القديس بولص في لندن، وكنيسة القديس بيتر في روما، وكاتدرائية ميلانو في ميلان".

أطبق الصمت على الغرفة، وبدا أن النقاش - الشبيه بمحاضرة - قد وصل إلى نهايته.

قال علي معلِّقاً: "الكنائس والمعابد تُبنى كي يستطيع المؤمنون العثور على بعض السلام والشعور بأنهم أقرب إلى الله، لكن دماء ثلاثين ألف شخص لا يمكن أن تُغسل ببساطة ببناء كنيسة. يمكن أن يشيّد المرء أروع مبنى في العالم كله، وأكثر الكنائس أو المعابد أو المساجد تبجيلاً في كل الأوقات، لكن لا يمكن لأي كمية من الرخام والحجارة والخشب والحديد والنحاس أو حتى الذهب أن تغسل الدماء، ولا توجد أي مادة ثمينة مثل حياة الإنسان".

لم يكن يزدان قد فقد هدوءه بعد، فجمع أطراف أنامله معاً مستغرقاً في التفكير.

"لكن، أيها المفتش غورمن، التاريخ مكتوب بالدم. فعندما فتح السلطان محمد مدينة القسطنطينية، حظي رجاله بثلاثة أيام سلب ونهب. بطريقة ما، لا أظن أن أولئك الرجال كانوا يوزّعون وروداً على الناس في الشوارع، أليس كذلك؟ لنكن صريحين، لقد أُريقت دماء، وسُبيت نساء ومراهقات واغتُصبن. فهل بإمكاننا القول إن السلطان محمد كان شخصاً شريراً لأنه سمح بحدوث هذا؟".

تردّد علي، ولأكون صادقاً، شعرت أنا أيضاً بالفضول لمعرفة رد فعله. صمت كل من يزدان وتابعه الأمين أركان، ولم يعد من الممكن سماع شيء؛ إلا صليل النوافذ التي تهزّها العاصفة العاتية في الخارج.

جمجم أخيراً: "حسناً، إذا سمح بذلك فعلاً، فلا بدّ أنه مخطئ. أي قسوة ضد الشعب خطأ، ولا أكترث بمن يفعل ذلك؛ السلطان محمد، أو

جستنيان، أو أي شخص آخر. الاستبداد ليس له مبرّر أبداً".

"تفكيرك عاطفي". ضحك يزدان، رغم أنه بدا واضحاً من نظرات عينيه أنه شعر بالانـزعاج من هذه الاستطرادات: "سأقول إنك رومانسي".

لو أن زينب هي التي قالت هذه الكلمات لشعر علي بالسرور، لكنه لم يكن يسمح لأحد بأن يعامله بغطرسة. مال إلى الأمام على كرسيه ورفع بصره.

"أنت مخطئ تماماً ياسيد يزدان. فأنا لست رومانسياً على الإطلاق، بل ليس لديّ وقت لأولئك الرومانسيين أو للصبر عليهم، لكن لدي ضميراً يمكن أن يفرّق بين الصواب والخطأ. ونظراً إلى ذلك، أنا لا أشعر بأي إعجاب بأولئك الذين يستولون على السلطة بإراقة الدماء، أو أولئك الذين يُعجبون بهم ويتمنون أن يكونوا مثلهم".

كانت كلماته قوية، لكن نظرة الحنق التي بدت على وجهه أحدثت تأثيراً أكثر إرباكاً؛ ما جعل ثقة يزدان بنفسه تهتز. في البداية، لم يعرف ما يجب أن يقوله ونظر إلي طلباً للعون، ولكنه عندما رأى عدم اكتراثي، استدار إلى أركان، ووجد مدير شركته الأمنية مشدوهاً مثله.

عندها قال يزدان بكراهية بالكاد يخفيها: "أيها المفتش غورمن، أنت تبدو مثل قاتل نجدت دينيزل".

لم يكن علي ينوي إزعاج يزدان، لكن يبدو أنّه قد استفزّه، وأصبح الآن حيث نريده.

سألتُ: "ماذا تعني بهذا تحديداً؟".

"ماذا ياكبير المفتشين؟ كان الرجل الذي قتل نجدت يتكلم الهراء نفسه كلما التقينا مصادفة؛ الحديث غير المنطقي نفسه عن التاريخ وكيف يكتبه المنتصرون، وتهميش المهزوم وإغفاله".

"ومن عساه يكون هذا الشخص؟". لم يكن يهمني ما قاله الرجل الغامض الذي يحاول ذمّه، بل كنت بحاجة إلى معرفة من يكون فقط. نظر يزدان إلي ساخراً؛ وكأنه مدهوش من عدم معرفتي إياه.

"ومن غيره؟ إنه ذلك الفوضوي الذي يمتلك الجرأة ليدعو نفسه طبيباً، نامق قرمان، قائد عصابة الدهماء ومثيري المتاعب".

ارتعش صوته واهتزت يداه حين تكلم، لقد جعل علي رجلاً يبدو صلباً وثابتاً مثل أسوار المدينة نفسها يفقد أعصابه.

"من غيره؟! فهو لم يخلّص نفسه من طليق حبيبته فحسب، وإنما ثأر لنفسه مني أيضاً، وفعل ما تطلبه منه تلك الأيديولوجية السخيفة والميتة

التي يعتنقها أو يدّعي أنه يعتنقها".

قلت: "مهلاً، من تخلص ممن؟".

سحب عدّة أنفاس عميقة ليهدّئ نفسه، لكن ذلك لم يبدُ سهلاً، فوضع يديه معاً على الطاولة.

"باختصار أيها السيدان، كانت ليلى باركين قد بدأت مؤخراً تُظهر اهتماماً بنجدت مجدداً". هذا مثير للاهتمام، فقد كانت إفادة ليلى باركين مختلفة تماماً. "قبل شهرين تقريباً، تشاجرت ليلى وذلك المعتوه".

حذّره علي: "مهلاً، سأفضّل ألا تتكلم عن الرجل على هذا النحو من خلف ظهره".

تميّز يزدان غيظاً، لكنه عرف كيف يجيب، فردّ قائلاً: "أعتذر، كنت أحب نجدت مثل أخٍ لي. عندما سمعت النبأ أردت أن أعود فوراً لكن العمل أعاقني. كنت وزوجتي سنطير من موسكو إلى لندن لرؤية ابنتنا، لكنني بعد سماعي بما حصل، أرسلت زوجتي إلى لندن بمفردها وعدت فوراً؛ كما تريان. عدت لأرى العدالة تتحقق، وأتوثق من أن ينال قاتل نجدت جزاءه، وأن ذلك الشرير "نامق" حظي بما يستحقه".

قلت متشككاً: "يبدو أنك واثق أن "نامق" هو الرجل المسؤول عن كل ذلك".

"طبعاً، لا شك لديّ في هذا. كانت ليلى ستتركه، ومن الطبيعي أن يلوم الرجل نجدت على انفصالهما الوشيك".

"لماذا ستنفصل ليلى عن نامق؟".

"ماذا تظن؟ بسبب آرائه المتطرفة والجامحة طبعاً. قبل ستة شهور، تم اختيار إدارة جديدة لمتحف توبكابي، ومعظم الأعضاء الجدد لديهم وجهات نظر معارضة تماماً لآراء ليلى. مما سمعته، ضغط "نامق" عليها لتستقيل، وعندما طلبت منه المرأة المسكينة - التي كانت ترزح تحت ضغط كبير في العمل - أن يهدأ قليلاً، بدأت المشكلات. شخصياً، لا أظن أن بمقدورها تحمّل رؤية نامق بعد الآن؛ فقد كانت تقابل نجدت مجدداً، ولا أعني أنهما مجرد صديقين، فقد قضت عدة ليالٍ في منـزل نجدت. يمكن أن تقولا الآن إن هذا محض شائعات أو أقاويل مغرضة، لكنني رأيتها هناك بأم عيني حين عرّجت إلى منـزله في صباح أحد الأيام. فقد فتحت لي الباب حينها، وكانت مرتدية ثياب النوم الخاصة بنجدت.

لم يكن حبّ نجدت لها سرّاً، وقد ظنَّ أنها ستعود إليه وأنهما سيستأنفان علاقتهما، حتى إنه وضع خططاً لإحضارها إلى هنا للعمل معنا.

لكنها لسبب ما، عادت مسرعة إلى ذلك الرجل المتطرف بآرائه".

عندما ذكر كلمة متطرف ، نظر إلى علي بطرف عينه، لكن عندما لم يرَ أي رد فعل تابع قائلاً:

"تودّد نجدت المسكين إلى ليلى طوال أيام محاولاً إقناعها بلقائه. لكنه كلما حاول، كان نامق ذاك يظهر في المكان، وفي نهاية المطاف، لا بد أن "نامق" قد قتله".

سألت وأنا أنظر إلى عيني يزدان مباشرة فيما كنت أسترخي على الكرسي الجلدي المريح: "كل هذا جيد. لكن، لماذا سيقتله، أو سيجعل أحداً آخر يقتله؟ قلت إن الدافع ربما يكون الغيرة، لكن الآنسة باركين- كما قلت- كانت قد عادت إليه. إضافة إلى ذلك، ووفقاً لإفادتها، كان المعتدي هو السيد دينيزل وليس السيد قرمان. وهي لم تُظهر أي عاطفة تجاه طليقها".

قال وقد ارتفع صوته قليلاً: "لقد شعرتْ بالخوف. ولو لم تعد إلى نامق لقتلها أيضاً".

فكّرت في الطبيب، وبدا لي رجلاً تعامل مع الموت ولم يتأذَّ أو يتأثر به. ربما يكون قد خاف منه في قت ما، لكن التجربة لم تغيّره على نحو جذري. عندما ذهبنا لزيارته بدا واثقاً بنفسه؛ واثقاً إلى درجة السخرية منا. لا، كان رجل مبادئ وليس قاتلاً. ورغم قدرته على ذلك إلا أنه لم يؤذِ شعرة من رأس ليلى باركين، فضلاً عن محاولة قتلها.

كنت قد التقيت أشخاصاً مثله عدداً من المرات، وهم عادة- يمكن للمرء القول غالباً- مخدوعون بآرائهم، ومتعصّبون وضيّقو الأفق، ويظنون أن الحقيقة محتكرة لديهم، لكنهم أشخاص محترمون أساساً، ولا يمكنهم إيذاء من يحبونهم. طبعاً لا توجد قاعدة ثابتة للطريقة التي يتصرّف بها الناس في أوقات المحن والشدائد، لكن أشخاصاً مثل نامق لا يتورطون في أعمال عنف بسهولة كبيرة؛ حتى إذا كان قد قتل نجدت، فما هي دوافعه لقتل الثلاثة الآخرين؟

كنت على وشك التعبير عن تلك الهواجس حين اتصلت بـي زينب.

قلت للآخرين وأنا أنهض وأبتعد عنهم حتى أستطيع التحدّث معها على انفراد: "عذراً".

"مرحباً أيها المدير". بدا أنها تشعر بالإثارة. "لقد حصلنا على بعض البيانات المثيرة للاهتمام".

"مثل ماذا؟".

"عثرنا على بصمات نامق قرمان وليلى باركين".

لم تكن لدي أيّ فكرة عمّا تتكلم عنه. "أين؟".

"في منـزل نجدت دينيزل؛ على أُطر اللوحات. هل تذكر البصمات التي عثرنا عليها على الأُطر؟ حسناً، وجدنا أكثر من طبقة واحدة من البصمات، واستطعنا تعرّفها".

"فهمت". استدرت لأنظر إلى الآخرين، فرأيت آدم يزدان جالساً بعصبية على كرسيه. ماذا إن كان محقاً بشأن نامق؟

"هل أنت واثقة؟ هل هناك أي مجال للخطأ؟".

"لا أيها المدير. البصمات مطابقة لتلك الموجودة في قواعد البيانات".

لم تكن لتبدو واثقة جداً لو لم تتحقّق بدقة.

"يوجد المزيد أيها المدير. هناك شاحنة فولكسفاغن بيضاء مسجّلة باسم نامق قرمان. من الواضح أن المنتسبين إلى رابطة الدفاع عن إسطنبول يستخدمونها لنقل معدّاتهم في أثناء التظاهرات. وقد احتجزتها الشرطة عدّة مرات".

ألقيت نظرة سريعة إلى خارج النافذة التي يكسوها البخار، ورأيت قطرات المطر على الزجاج وهي تكوّن وشَلاً صغيراً يسيل ببطء نحو الأسفل. كانت العاصفة قد هدأت قليلاً، لكن صوت المطر المرتطم بالنافذة كان لا يزال عالياً كفاية ليُسمع في الداخل.

كان هذا النبأ الأخير من زينب كافياً لتغيير مجرى التحقيق كلِّه. بقي جزء مني يتساءل إن كنا نعود إلى المربع الأول، لكن اتخاذ قرار سريع الآن سيكون مؤذياً. فجأة اكتسب لقائي الوشيك مع ليلى باركين معنى جديداً كلياً.

قلت عبر الهاتف: "فهمت. سنتحدث لاحقاً. سنعود إلى مقرّ قيادة الشرطة بحلول الظهر تقريباً، تابعي العمل".

أنهيت المكالمة وعدت إلى الآخرين. كان علي يراقبني بإمعان، وأدركت من النظرة التي بدت على وجهه أنه عرف بوجود شيء جديد. أبقيت الأمر بسيطاً وإيجابياً؛ لأنني لم أقرّر بعد ما ستكون عليه خطوتنا التالية.

"يبدو أن هطول المطر يخفُّ ياعلي، ولا بد أن الشمس ستبزغ بحلول الظهر".

وقبل أن أُنهي جملتي، وثبت ثيودورا وزعقت بمرح: "... بحلول الظهر".

القصر الذي حكم سابقاً نصف العالم

كانت الشمس تظهر من خلف الغيوم الكثيفة حين وصلنا إلى باب همايون [27] ؛ أبعد بوابة في قصر توبكابـي.

كنا قد غادرنا مكاتب آدم يزدان قبل نحو خمس عشرة دقيقة. وطوال مدة بقائنا هناك، استمر يزدان بكيل الاتهامات إلى نامق قرمان في ما يتعلق بقتل نجدت وكل الجرائم الأخرى أيضاً، وشرح مطولاً دوافعه إلى فعل ذلك. لم أكن لأعير ثرثرته أي اهتمام لولا اتصال زينب. وأصغيت بعد ذلك الاتصال إلى يزدان بانتباه أكبر قليلاً، وكذلك فعل علي الذي كان يتحرّق شوقاً للجدال معه.

في اللحظة التي غادرنا فيها العقار، أبلغت "علي" بما أخبرتني به زينب عبر الهاتف، فدُهش. لم نكن نعرف على من يجب أن نركّز، أو أين نبحث حقاً، وبدا أن كل دليل يقود إلى نهاية مسدودة، وكل وميض أمل يتحول إلى شعاع ضوء زائف سرعان ما يتلاشى؛ تاركاً إيّانا ونحن نتحسس طريقنا في الظلام مرة أخرى.

ركنّا السيارة في موقف السيارات بجانب نافورة أحمد الثالث؛ وهي صرح صغير رائع مزيّن بنقوش ورود وخزامى على الرخام والآجر، وبتخطيط بماء الذهب. عندما انطلقنا نحو باب همايون ، مشى علي مصادفة أمام سائحة شابة تلتقط صورة للنافورة. وفي الواقع، لم يغضبها ذلك. وإذا لم تكن عيناي العجوزان المتعبتان قد أخطأتا، فقد نظرت إليه من أعلى رأسه إلى أخمص قدميه. أدرك علي ما قد فعله فابتعد عن الطريق فوراً.

"آسف...".

اعتذر بإنكليزية جيدة، لكن العبوس على وجهه لم يفلح في كسر الجليد. غير أن الشابة لم تبدُ منـزعجة من تعبيره، وابتسمت له بالمقابل.

قالت بلطف: "لا تقلق، يمكن أن ألتقط صورة أخرى".

لاحظت أن "علي" يحدّق إليها، وذلك التعبير الجدّي غير الضروري لا يزال مرتسماً على وجهه.

قالت مفسحة له المجال للمرور: "تفضل أنت".

تمتم بتلعثم: "شكراً". ثم مشى بخطوات واسعة، وتجاوز الشابة والنافورة القديمة. عندما لحقتُ به بعد بضع خطوات، لاحظ النظرة المستفسرة في عيني فنظر حوله بعصبية.

"ماذا؟ ما الأمر أيها المدير؟".

رنَّ الهاتف فيما كنت على وشك إبلاغ الأحمق الفظ أن لا ضرر في الابتسام للنساء بين الحين والآخر. كانت يفغينا هي المتصلة. إذ كانت تتصل بـي كل يوم. لكننا لم نتكلم منذ أمس، ولم يخطر ببالي أن أتصل بها...

قلت: "يفغينا، كنت على وشك الاتصال بك".

رأى علي الإثارة التي أشعر بها فكشّر بمكر.

ضحكت: "كاذب! أنت تتصل بـي!! سيكون هذا يوماً مشهوداً!".

قلت: "لا تقولي هذا. كنت أتكلم هذا الصباح مع ديمير...".

"عمَّ؟".

"عن العشاء غداً. حذّرته، وطلبت منه ألا يتأخر".

"وماذا عنك؟".

"ماذا عني؟".

"هل ستأتي في الوقت المحدد؟".

فكّرت في قرارة نفسي في أن هذا يعتمد على التحقيق، وحصولنا على أي أدلّة جديدة.

قلت: "طبعاً سأفعل، وسأكون هناك حتماً في الوقت المحدد. في الواقع، سأصل باكراً".

قالت متوسلة: "حسناً، احرص على ذلك، ولهذا أتصل بك يا نوزت؛ لأذكّرك. أرجو ألا تتأخر، فأنت تعرف أنك لست ضيفاً، أليس كذلك؟ أنت المضيف - مثلي تماماً - ولن يبدو الأمر جيداً إن تأخرت".

"لا تقلقي، سأصل باكراً. هل هناك شيء تريدين أن أجلبه في طريقي؟".

"لا شيء. اجلب نفسك فحسب".

نطقت تلك الكلمات الأخيرة من دون أي تذمر، أو انـزعاج، أو شكوى. وعندما سمعتها تتكلم على هذا النحو، شعرت بالابتهاج... لا بد أنني أحب هذه المرأة...

"سأكون موجوداً قبل أن يصلا".

رفعت بصري فرأيت "علي" - الذئب العجوز - يراقبني، ونظرة لعوب واضحة في عينيه. قلت: "أراكِ غداً".

"نوزت، توخ الحذر، أرجوك، اعتن بنفسك".

حين أنهيت المكالمة، تكلم علي فجأة. "الآنسة يفغينا سيدة رائعة يا كبير المفتشين، وقد استقبلتنا بلباقة ولطف حين ذهبنا إلى تاتافلا. وهي مغرمة بك كثيراً يا سيدي، مثل... مثل زوجة".

رائع، هذا ما كنت أحتاج إليه. أولاً ديمير ويكتا، والآن انضم علي إلى الجوقة. استدرت نحوه غاضباً، وكدت أوبّخه على وقاحته، لكنني رأيت التعبير على وجهه: نظرة براءة وعاطفة صادقة.

قلت بعد أن سيطرت على غضبـي: "هذا صحيح، إنها رائعة".

كنت قد بذلت قصارى جهدي لإخفاء غضبـي، لكنه بدا في صوتي.

"إذا كنت قد قلت شيئاً غير ملائم، فأرجو أن تعذرني ياسيدي". لم يبدُ منـزعجاً، وإنما محرجاً فقط مما يجري بيننا. "فتحت فمي من دون تفكير؛ مجدداً".

مددت يدي ووضعتها على كتفه. "لا تكن سخيفاً ياعلي. أعرف ما تعنيه جيداً. الأمر فقط، حسناً... العلاقة معقدة قليلاً بيننا".

فقال بصوت خافت: "العلاقات دائماً كذلك".

"لا ياعلي، لا. ليست صعبة جداً دائماً، وإنما نحن من نجعلها كذلك". بدا متشوقاً ليفهم. "نحن من نجعلها معقّدة". كنت سأذكر علاقته بزينب على سبيل المثال، لكنني تراجعت عن ذلك. "إذا استطعنا فقط الامتناع عن جعل الأشياء سيئة بالنسبة إلينا فسنتابع حياتنا بسعادة... لكننا لا نفعل. وبدلاً من ذلك، نحن... حسناً، أياً يكن. على كل حال... لنذهب ونتكلم مع تلك المرأة ليلى ولنرَ ما لديها لتقوله لنا".

تقدمنا بسرعة، وتجاوزنا باب همايون ووصلنا إلى ميدان عالية ؛ ساحة العرض العسكري في القصر، ورأينا حشداً من الناس يصطفون على جانبـي الدرب بين البوابة الخارجية والمدخل الثاني للقصر. سلكنا طريقنا بصعوبة عبر مجموعة الناس الذين بدا أنهم قد جاءوا من كل أرجاء العالم- إسبانيا، ألمانيا، أمريكا، اليابان- وكلهم يتجولون بسعادة أو يحدّقون بدهشة إلى القصر وساحاته. كان الأفراد المميزون في ذلك الحشد الضخم أربعة مرشدين سياحيين، يقفون في وسط مجموعاتهم مثل ديوك تعتني بقطيع من الدجاج في خُمّ. كانوا يحملون أعلام مجموعاتهم الوطنية في حين يبذلون جهدهم كي لا يفقدوا أياً من أفراد جماعتهم. وكانت نظرات الملل على وجوههم كافية لتخبرنا أنهم ليسوا قانعين أو ناجحين في مهنتهم.

استدرت ورأيت شاحنة مغلقة صغيرة تقف أمام كنيسة آيا أيرين، وأربعة أشخاص يُخرجون منها بحرص جهاز بيانو كبيراً ويضعونه على الأرض بمساعدة رافعة؛ على الأرجح تحضيراً لحفلة قريبة. شعرنا بعد أن سرنا بضع خطوات بنسمة فاترة تصل إلينا من اليمين، آتية من البحر الأسود؛ نسمة فاترة بعد العاصفة التي ضربت المدينة بقوة قبل بضع ساعات. سقطت

قطرات المطر عن أغصان أشجار الدّلب المزروعة على طرفي الطريق، واستطعنا سماع أصوات تتكلم بلغات مختلفة من أصقاع العالم كافة في كل مكان حولنا؛ ما ذكّرني بالمبعوثين الأجانب الذين كانوا يتركون خيولهم- في أثناء العهد العثماني- هناك في الساحة ويجتازون باقي الدرب لينجزوا أعمالهم مع مسؤولي الدولة. انتابني شعور غريب حين اقتربت من وسط المبنى الذي بقي أربع مئة سنة القلبَ النابض للسلطنة العثمانية. وقد قرأت في مكان ما أن عشرين ألف شخص تجمّعوا هناك في تلك الساحة لحضور جنازة السلطان محمد الفاتح، ولتوديعه قبل انطلاقه في رحلته الأخيرة. واستطعت تقريباً سماع الصرخات والعويل بين الأشجار القديمة، ورأيت التحصينات التي يبلغ عمرها قروناً تحيط بالقصر...

صرخ صوت أجش: "مهلاً دقيقة ياصاحبـي...". كان حارس أمن يشير إلى المسدس على خصر علي ويسد طريقه.

"لا يمكنك دخول هذا المكان حاملاً سلاحاً نارياً".

قال علي بهدوء وحصافة غير متوقعة: "نحن من الشرطة". على كل حال بدا واضحاً أن حارس الأمن لم يُعجب بنا.

"هل يمكنني رؤية بطاقة الشرطة الخاصة بك من فضلك؟".

نظر علي إلي وكأنه يطلب مني إذناً لكي يوضّح للرجل مكانته، لكنني تجاهلته وأظهرت بطاقتي.

"كبير المفتشين نوزت أكّان".

فهم علي ما كان مطلوباً منه، فدفع بطاقة الشرطة الخاصة به تحت أنف حارس الأمن.

قال الحارس متراجعاً خطوة إلى الخلف وهو لا يزال ينظر إلينا بتشكك: "فهمت. وكيف يمكن أن أساعدكما؟".

قلت متجاهلاً "علي" الذي كاد يعنّف الرجل: "نحن هنا لرؤية مديرة المتحف".

سأل: "أي مديرة؟". إما أن يكون هذا الرجل قد نهض من نومه صباحاً منـزعجاً، أو يبحث ببساطة عن بعض المتاعب، ولم يعد بمقدور علي أن يتحمّله.

"ماذا تعني بأي مديرة؟ كم مديراً لديكم هنا؟".

أجاب الحارس متسمراً في مكانه: "ثلاثة مديرين. من تقصدان؟".

قلت وأنا غير راغب في التورط مع الرجل في مشاجرة تهدر وقتنا سدى: "نحن على موعد مع ليلى خانم؛ ليلى باركين".

قال ملوّحاً لنا باتجاه بوابة ضخمة يحيط بها برجان عاليان: "آه! فهمت. امضيا قدماً واعبرا باب السلام ".

كدت أتقدم إلى حيث أشار، لكن "علي" بقي مكانه، وعرفت أنه لم يفهم، أو أنه يتظاهر بذلك.

"عذراً، أعد ما قلته مجدداً".

"باب السلام" .

كان أخيراً قد وجد عذراً لتأنيبه.

"ما هذا الهراء عن باب السلام ؟ أين تظن نفسك؟ تكلّم بالتركية!".

تورّد حارس الأمن خجلاً، لكنه لم يعتذر أو يتراجع عن كلامه. "ماذا عساي أفعل؟ هذا ما تدعى به..."

كان محقاً، لكن "علي" بدا متشوقاً للمواجهة كالمعتاد. "لا أهتم باسمها إطلاقاً! ماذا تُدعى بالتركية؟".

تمتم الحارس: "نحن... حسناً... حسناً، إنها معروفة أيضاً باسم أورتا كابـي " [28] .

"إذاً، لماذا لا تدعوها أورتا كابـي؟ لماذا لا تتكلم بالتركية؟".

"ظننت فقط أنها...".

"لا تزعج نفسك بأي تفكير يابني، وتكلّم بالتركية في المرة القادمة".

"إن البوابة هناك... أعني أورتا كابـي. إذا عبرتما البوابة فستصلان إلى ساحة ثانية ودرب محفوفٍ بالأشجار. باب السعد ...". ثم صمت حين رأى نظرة علي. "إذا اجتزتما البوابة المعروفة باسم سعادة كابيسي [29] فستصلان إلى ساحة إندرون. وإذا سألتما أي موظف هناك عن مكتب المديرة، فسيرافقكما إليه بسرور".

ابتسم علي وهو يعدّل بزّة الرجل: "شكراً لك أيها الرجل الصالح، شكراً لك حقاً. من الآن فصاعداً، آمل أن تعرف كيف تخاطب رجال الشرطة حين يزورونكم. فكما ترى، أنا رجل من النوع المتسامح، لكنك إذا تعاملت على هذا النحو مع النوع الخاطئ من الضباط؛ أعني مع شخص قد لا يكون صبوراً ومتسامحاً مثلي، حسناً، ربما سيعدّل أنفك المكسور".

قلت، مستعجلاً إياه: "تعال ياعلي، ليلى باركين تتوقع وصولنا".

انطلقنا نحو القصر العثماني، وعلي يسبقني ببضع خطوات، في حين وقف حارس الأمن مشدوهاً ومراقباً إيّانا.

كانت بوابة السعادة القائمة بين برجين يبدو أنهما ينبثقان من الأرض مثل رمحين ضخمين في حالة فوضى عارمة، ولم نستطع رؤية طريقنا وراء

مجموعة كبيرة من السياح المجتمعين أمام القصر إلا بصعوبة بالغة؛ فضلاً عن الوصول إلى المتحف نفسه. شق علي- على نحو متوقع- طريقه أمامي، واستطاع الوصول إلى الباب الدوّار. أما أنا فقد تمكّنت أخيراً من العبور بين المحتشدين، والسير بين سيد إنكليزي أحمر الشعر وامرأة عربية محجّبة، ووصلت في نهاية المطاف إلى الباب، لكنني كدت أنـزع قبعة رجل ياباني عجوز عن رأسه في طريقي إلى هناك.

سألتُ الحارس عند البوابة حين وصلت أخيراً إلى هناك: "ما هذا؟! هل الأمر مماثل كل يوم؟".

أشار إلى جهاز لكشف المعادن وهزَّ كتفيه. "الآلة معطّلة يا زميل، وهي على هذه الحال منذ أمس، والفوضى عارمة منذ ذلك الوقت. ووفقاً للرجال الذين جاءوا لإلقاء نظرة عليها، إنه عطل فنّي، وهم لم يصلحوها بعد". رفع جهاز كشف المعادن المحمول باليد. "نحن نتوثق من كل من يمر بواسطة هذا الشيء. هذا هدر للوقت، لذا لدينا كل تلك الصفوف، لكن الأمر على هذه الحال في معظم الأحيان، باستثناء أيام الثلاثاء؛ لأن المتحف يُغلق فيها. لا يستطيع القصر استيعاب هذا العدد الكبير من الناس على كل حال، ويجب أن يقدم المديرون حلاً عاجلاً أو آجلاً. هذا مؤسف للزائرين ولنا، لكن من الأفضل أن نعاني نحن لا القصر".

تركنا الحارس المسكين خلفنا ليتعامل مع السائحين المحتشدين الذين تصعب السيطرة عليهم، وعبرنا باب السلام ، ودخلنا الساحة الثانية؛ وهي منطقة فسيحة وهادئة محاطة بأشجار سرو موزّعة بانتظام في محيطها. إلى اليسار، وفوق الإسطبلات الخاصة، تقع حجرات اجتماع المجلس السلطاني والحرملك، وبينهما عداليت كولسي ؛ برج العدالة، وإلى اليمين المطابخ والقاعات التي تُعرض فيها مجموعات القصر الخزفية والفضية، ورأينا خلفنا تماماً، بجانب باب السلام ، العربات السلطانية والمكتشفات الأثرية من عمليات تنقيب جرت في أرض القصر. وقف علي أمام الدروب الخمسة التي تتفرّع أمامنا وتردّد قبل أن يختار.

قلت: "أحسنت يا علي، ستنقلك خطوتك التالية إلى درب الإمبراطور".

"درب الإمبراطور!".

قلت وأنا أغمزه: "إنه الدرب الذي يؤدي من باب السلام إلى باب السعادة ، أو على اعتبار أنك تفضّل الكلام البسيط، هل يمكن أن أقول من بوابة السلم إلى بوابة الهناء؟".

كشّر بمكر. "آه! لم أعنِ شيئاً بقولي ذلك يا سيدي. أردت فقط أن

أراه محرجاً قليلاً، فأي اسم أطلقه أسلافنا عليها ملائم لي، رغم أن معرفة الناس للاسم التركي ستكون أمراً رائعاً. كل تلك الأسماء العربية صعبة عليّ". صمت قليلاً وحكَّ رأسه. "أتساءل أحياناً أيها المدير، كيف تعرف كل تلك الأسماء القديمة؟".

قلت فيما كنّا نمشي على طول الدرب بين أشجار السرو: "بفضل والدتي. أي شغف لدي بالتاريخ يرجع إلى أمي".

"هل كانت مؤرخة؟".

"ليس تماماً. كانت معلّمة، مثل والدي معلّم الأدب، لكنها درّست التاريخ. في الواقع، التقى أحدهما الآخر في أثناء عملهما في المدرسة نفسها. لم تكن إحدى أولئك المدرّسات اللواتي يعملن من دون رغبة، وإنما كانت تتحلّى بمبادئ ومُثل. أحبت عملها، وفعلت كل ما بوسعها لتغرس حب التاريخ في نفوس تلاميذها، فاصطحبتهم إلى مؤتمرات، وزوّدتهم بكل الكتب والكرّاسات التي يريدونها أو يحتاجون إليها. لا أظن أنني كنت بمنأى عن ذلك؛ حتى عندما كنت طفلاً صغيراً. فقد أخذتني إلى المتاحف في إسطنبول: قصر دولمبهجة، قصر بيلربـي، آيا صوفيا، كنيسة الحوض، قصر بورفرجيننتش، أو إذا كنت تفضّل اللغة التركية قصر تكفور، وسجن يديكول، وكنيسة تشورا القديمة التي أضحت الآن متحفاً... وفي ما يخص هذا المكان، فقد زرته برفقتها مرات كثيرة لم أعد أعرف عددها".

كنت سأعدّد الأماكن الأخرى العديدة التي اصطحبتني لرؤيتها، لكنني لاحظت عبوسه المألوف.

"ألا تسأم أبداً أيها المدير؟".

"أسأم! كانت كل رحلة تسبب لي ألماً مبرّحاً، لكن لم يكن بمقدوري قول هذا لوالدتي آنذاك. فقد كانت ابنة حقيقية للجمهورية؛ امرأة أفكار وقيم ومُثل، وأرادت أن تربّي ابنها الوحيد على المبادئ والمُثل نفسها. في أسرتنا، كانت هناك ثلاثة شروط مفروضة عليّ ياعلي، وكلها غير قابلة للتفاوض بشأنها: الكتب، والمسرح، والمتاحف. لم تكن الكتب مشكلة بالنسبة إليّ لأنني أحب القراءة؛ خاصة الروايات البوليسية، وربما لا يكون هذا مفاجئاً أيضاً. ولم أكن أكره المسرح أيضاً فأنا أستمتع بالأعمال الكوميدية، لكنني لم أنسجم مع المتاحف مطلقاً. وكانت رائحة العفن التي أشمّها حين أدخلها كافية لجعل أسناني تصطك اشمئزازاً".

"لكن، لا بد أنك تعلّمت الاستمتاع بها في النهاية، وإلا ما كنت لتكتسب مثل هذه المعرفة".

تنهّدت: "أفترض هذا. لكن هذا حصل لاحقاً؛ حين توقفت والدتي عن اصطحابـي في تلك الجولات البغيضة".

نظر علي إلي بارتباك؛ غير واثق ممّا كنت أحاول قوله.

"كانت تجربة سيئة ياعلي. عندما كنت في الثامنة أو التاسعة من عمري، ذهبنا إلى متحف دولمبهجة، وكان القصر يعجُّ بالسياح؛ أكثر مما تراه هنا الآن. وماذا تتوقع أن يكون قد حدث؟ ضعت في الحشد وجرفني سيل الناس معه، فنظرت حولي يائساً بحثاً عن والدتي؛ لكنني لم أرها في أي مكان. تخيّل خوفي ياعلي؛ فقد كنت فتى صغيراً بين كل أولئك الراشدين والغرباء، ولا أحد يسمع نحيبـي وسط تلك الجلبة. بدأت أشعر بالفزع، وألهث طالباً الهواء، وفقدت وعيي في نهاية المطاف. وعندما أفقت، رأيت شخصاً يقف قربـي محاولاً أن يجعلني أشرب بعض الماء، وأمي المسكينة بيضاء مثل ملاءة، وهي تشعر بقلق شديد، ويداها المرتعشتان تمسكان يديّ.

لم تأخذني مجدداً في جولة أخرى إلى أي متحف. عثرت على مذكراتها بعد سنوات، عقب وفاتها، وأتذكر ما كتبته بعد ذلك اليوم في المتحف:

أريد أن يكون نوزت رجلاً متعلّماً ومثقّفاً؛ لأن هذا البلد يحتاج إلى رجال علم وفكر، لكنني لا أظن أنه سيصبح كذلك. فهو متقلّب الأطوار وعنيد، ولا يبدو أن لديه أي اهتمام بالعلم أو الفنون، وقد حاولت تشجيعه، لكن من دون جدوى. وإذا حاولت أكثر، فأنا أخشى أن يزداد تحدّيه لي. لقد بذلت قصارى جهدي، لكن لا يمكن أن نحصل دائماً على ما نريده. إنّه ابننا لكنه لا يُكنّ حباً للتاريخ مثلي أو شغفاً بالأدب مثل والده، وأفترض أن الخطأ يقع على عاتقنا؛ لأننا أضمرنا مثل تلك التوقعات. نوزت ليس مضطراً إلى أن يحذو حذونا، فهو شخص مستقل، ويتمتع بشخصية مميزة وذوق خاص وخيارات مستقلة، بالإضافة إلى طموحات محددة. وبغض النظر عن نبل مُثلنا أو صلاحها، لا يمكن أن نغرسها بالقوة في أي شخص؛ حتى إن كان ولدنا...

عندما قرأت ذلك النص، كنت قد بدأت بالتدرّب في الشرطة، وكنت أتميّز بحدّة الطباع، ومستعداً دائماً للشجار؛ كنت شاباً يظن أن بمقدوره القضاء على كل الشر في العالم بنفسه". صمتُّ قليلاً قبل أن أتابع: "بكلمات أخرى، كنت مثلك تماماً ياعلي".

سأل مرتبكاً: "مثلي؟".

كرّرت بعاطفة رجل يواجه شبابه مرة أخرى: "مثلك تماماً، مثلك تماماً

ياعلي. كنت شخصاً يضرب أولاً ويطرح الأسئلة لاحقاً، شخصاً يتصرّف من دون أن يصغي أو ينتظر، شخصاً يلاحق الأشرار من دون أن ينتظر دعماً، ويظن أن بمقدوره أن يحل أكثر القضايا تعقيداً في لحظة وينال نصيبه من الضرب والجروح والكدمات".

ضحك علي بمرح.

"هذا ليس مضحكاً ياعلي، فهذه ليست صفات مرغوبة. حالفني الحظ، وربما كنت سأواجه مشكلة عويصة لو لم أكتسب الحكمة. لكنك شاب، ولا أحد منا يعرف ما ينتظرك".

ضحك مُظهراً شجاعة وثقة بالنفس لا تتزعزعان كنت أتمتع بهما سابقاً.

"لا تقلق أيها المدير. إن شاء الله، سأبقى في حال جيدة".

"هذا جيد".

ضحك علي قائلاً: "لا بأس ياسيدي، لكن أرجو أن تمضي قدماً بقصتك".

"حسناً، بعد أن توفيت والدتي، بدأت أفكّر قليلاً، وأدركت أن ذلك النص في مذكّراتها قد أثّر من دون ريب في بقايا التفكير الموجودة في ذلك القفص في رأسي؛ المعروف بالدماغ. شعرت بالاضطراب، وبدأ صوت خافت في رأسي- ضميري- يهمس... على كل حال، بعد أن قرأت المذكّرات ذهبت إلى المتحف وتجوّلت فيه، وقضيت وقتاً وأنا أنظر إلى تلك التحف الخزفية والخشبية والحجرية؛ النقوش والمنمنمات. قضيت ساعات هناك؛ كما اعتادت والدتي أن تفعل، ولم أعرف ما أفعله أو أفهم حقاً معنى تلك الأشياء التي كنت أحدّق إليها. لكنني بدأت حينها- ببطء، وبطريقة لا يمكن أن تدعوها عميقة أو إلهامية- برؤية ما كانت والدتي تحاول إظهاره لي، وغرسه في نفسي، وبدأت أتعلّم. لم أظن قط أن ذلك سيحدث لي، لكن الشيء الغريب أنني بدأت أستمتع بعملية التعلّم، وبدأت أقرأ عن الموضوع، واشتركت في مجلات، وانضممت إلى جولات مع مرشدين، وحضرت بعض المؤتمرات، وأضحت رائحة العفن في المتاحف التي كنت أكرهها سابقاً مقبولة بالنسبة إليّ على نحو غريب. طبعاً، لا يمكنني حاليّاً أن أقوم بالنشاط العملي نفسه الذي فعلته في الماضي، لكنني عندما أتقاعد سأكرّس المزيد من وقتي للتاريخ".

رد علي بكآبة: "أتمنى لو عرفت والدتك كل هذا. أنا واثق بأنها كانت ستفخر بك كثيراً".

"أنا واثق بذلك أيضاً. لكن، ماذا يمكن أن نفعل؟! هذه هي الحياة، ولا يمكن ببساطة تصحيح بعض الأخطاء، لكن نصيحتي لك هي أن تزور متحفاً؛ ولو لمرّة واحدة فقط. سيكون متحف الآثار على سبيل المثال مكاناً رائعاً لتبدأ منه، وهو يقع بجانب متنـزه جولهان تماماً، ولا يبعد كثيراً عن هنا. اذهب وشاهد ما فيه، وستشعر أنك مسافر في رحلة عبر الزمن".

رأيت ضوءاً يلمع في عينيه مجدداً.

قلت له وأنا آمل أن أكون مصيباً: "لا تخبرني أنك زرته!".

تلاشى الضوء.

"كيف يمكن أن أفعل هذا ياسيدي؟ يعترضني شيء ما دائماً. تعرف كيف هو الأمر؛ تقع حادثة يومياً، وجريمة كل يوم...".

قلت مشجعاً إيّاه، وأنا غير راغب في أن يشعر بالمزيد من الخجل: "أعرف، أعرف، لكن لا تحرم نفسك من المتعة، واحرص على الذهاب، وستُدهش من مدى استمتاعك بذلك. اذهب إلى متحف الآثار أولاً؛ لأنه لا معنى للمجيء إلى قصر توبكابـي من دون زيارة متحف الآثار أولاً". صمتُّ قليلاً وتذكرت. "طبعاً، إذا زرت آيا صوفيا أولاً فسيكون هذا أفضل؛ وهي كلها مرتبطة ببعضها، مثل حبل واحد. توثق من الذهاب فحسب، اتفقنا؟".

تمتم: "كما تريد ياسيدي".

"ليس الأمر كما أريد ياعلي! هذا ليس أمراً! كيف يمكن أن آمرك بزيارة متحف؟ إنه مجرد اقتراح، وستشكرني في ما بعد".

لم يكن من الممكن أن يضع الفتى قدمه داخل متحف إلا أن اقتُرفت فيه جريمة.

قال، مغيّراً الموضوع ومشيراً إلى باب السعد : "هذه هي البوابة الثالثة، أليس كذلك أيها المدير؟ لقد عبرنا البوابتين الأوليين؟".

لم يكن يريد أن يتكلم عن زيارة غير مهنية محتملة إلى متحف، وعرفت أنني يجب أن أحترم رغباته. لذا، فعلت ما بوسعي لإظهار معرفتي الضئيلة بتصميم القصر.

"نعم، هذه هي البوابة الثالثة. كانت أول بوابة عبرنا منها باب همايون وقد بُنيت بطراز فارسي، في حين شُيّدت الثانية وهي باب السلام بطراز فرنكي، والبوابة التي تراها هنا أمامنا هي الثالثة، باب السعد ، وقد بُنيت وفقاً للطراز التركي. ما تعلنه هذه البوابات الثلاث أساساً، إلى جانب حقيقة أن القصر يجمع فنوناً معمارية من ثلاث حضارات في ذلك العصر - فارسية وتركية وأوروبية - هو أن الدولة العثمانية كانت دولة عالمية،

ومتعددة الثقافات؛ احتضنت وصهرت ثقافات العالم. تتمتع كل حجرة وقاعة وحديقة وشجرة ونافورة بأهمية رمزية؛ سواء أكانت دينية أو اجتماعية أو سياسية، وكل حجر وصدع في هذا القصر مليء بالرموز والذكريات التي يهمس بعضها بحكايات رهيبة ومروّعة جرت وقائعها هنا على هذه الأرض".

استبدلت نظرة الاهتمام المتكلّفة على وجه علي باستغراب حقيقي. ولو لم أطلب منه أن يلحق بـي، لبقي واقفاً هناك أمام باب السلام - تلك البوابة الضخمة التي بُنيت لتشبه خيمة قائد عسكري تركي وتُوّج أمامها الكثير من السلاطين - طيلة النهار.

التحقنا بالحشود مجدداً، ومررنا تحت مظلة تدعمها ستة أعمدة رخامية بيضاء وخضراء، اعتاد السلطان أن يجلس تحتها على عرشه الذهبـي المرصّع بجواهر كريمة، ووصلنا إلى البوابة الثالثة؛ باب السعد . ابتعدنا آنذاك عن الحشود، ودخلنا الحجرات الخاصة بالسلاطين العثمانيين. وكان علي يحدّق مندهشاً إلى آرز أوداسي ، قاعة الاستقبال، حيث كان السلطان يستقبل المبعوثين الأجانب، ويتلقى النصائح من مستشاريه، ويصدر الأوامر إلى قادته حين ينطلقون إلى المعركة.

على كل حال، لم يكن إطلاع علي على التاريخ وقواعد التشريفات في القاعة من أولوياتي الرئيسة، فنحن هنا بهدف العمل. ربما كان قصر توبكابـي مقر إقامة سلالة حكمت نصف العالم المعروف قبل قرون، لكننا نسعى خلف قاتل... ومديرة المتحف من بين المشتبه فيهم الرئيسين.

الطرد

يقع مكتب ليلى باركين في ما كان سابقاً في أثناء العهد العثماني كيلرلي كوغوسو ، أي منطقة المطبخ في القصر، وقد أشرف عليه كل تلك السنوات كيلرسيباسي ، مدير الأقبية. لا بد أنها رأتنا من النافذة المطلّة على ساحة إندورون، فقد وجدناها بانتظارنا عند الباب.

قال علي؛ رغم أن مديرة المتحف لم تكن تبعد عنّا إلا بضع ياردات: "حسناً، هذا تحول حقيقي، فهي تبتسم فعلاً. لا بد أنها أُعجبت بنا أيها المدير".

همست مبتسماً: "لِمَ لا تصرخ بصوتٍ عالٍ وتجعل كل جهودنا تذهب أدراج الرياح".

قال علي شاداً قامته فوراً: "آسف ياسيدي".

قلت للسيدة المبتهجة المشتبه فيها بجريمة قتل وأنا أمدّ يدي: "مرحباً ياآنسة باركين". فصافحت يدي بقوة، وقالت بحفاوة: "أهلاً بك أيها المفتش أكّان، وأهلاً وسهلاً بك أيضاً أيها المفتش غورمن. أنا مسرورة لرؤيتك، وآمل أن تكون بخير".

"أنا بخير، شكراً لك". ابتسم، وتحول الشرطي بذيء اللسان فجأة إلى طفل مرح ولطيف. "أصبحت أفضل حالاً الآن بعد أن رأيتك". تردّدت وهي لا تعرف بمَ تُجيب، لكن عينيها ومضتا بهجة. "آمل أن تكون لديك بعض الأنباء أو المعلومات التي ستساعدنا في إلقاء القبض على القتلة الأشرار".

قالت باكتئاب: "كنت أتمنى هذا أيها المفتش غورمن. لكن لسوء الحظ كل الحسابات التي أجريناها أنا والمفتش أكّان لم تسفر عن أي نتيجة. يبدو أن القاتل يستطيع قراءة أفكارنا، ويفوقنا ذكاء في كل مرة...".

كان ذلك ما نفكّر فيه بالضبط، إلا أنها لم تذكر اسمها.

"آنسة باركين". اقترب رجل طويل وهزيل وأشيب منا حاملاً ملفاً. "إذا كنت تتذكرين، يُفترض أن نناقش مواد خط اليد الخاصة بالمعرض. كان القسم الثقافي يسألني طوال اليوم...".

قالت مقاطعة كلامه: "هل يمكن أن نناقش هذا لاحقاً ياأديب بيك؟ أنا واثقة بأن الوزير يمكن أن ينتظر. لدي بعض القضايا الملحّة التي أعالجها حالياً، وسأتكلم معك ما إن أنتهي منها".

قال متراجعاً وخائب الأمل: "كما تريدين". راقَبته وهو يغادر بازدراء واضح للعيان.

"لا أعرف ماذا يظنون أنهم فاعلون. أحياناً ينتابني انطباع بأن هذا المكان نوع من مستودعات البضائع الحكومية الفائضة، وليس متحفاً. وبالإضافة إلى كل شيء آخر يجب أن نفعله، ينبغي أن نتعامل مع أشخاص مزعجين". وحين لاحَظَت اهتمامنا البالغ بالإصغاء إليها، تابعت قائلة: "يبدو أن كل مهمة سخيفة تجد طريقها إلى مكتبنا. على كل حال، أرجو أيها السيدان أن تدخلا وتجلسا".

كان مكتبها خالياً من الزخارف ومن أي تفاصيل زائدة أو ديكور. رأيت إلى يمين الباب مجموعة من رفوف الكتب المعدنية البسيطة، وفي الطرف الآخر من المكتب رأيت طاولةً خشبية عريضة عليها حاسوب، وكتاباً كبيراً تُرك مفتوحاً، وفنجانَ قهوة فارغاً، وقلمَ رصاص، ودفترَ ملحوظات. كما وُضِعت إلى يمين الحاسوب زهرية زرقاء تضم باقة أزهار ياقوتية أرجوانية تشبه تلك التي أحضرها علي إلى زينب قبل بضعة أيام.

هل أحضر لها نامق قرمان هذه الزهور؟ قررت ألا أسأل رغم وجود ميزة في السؤال؛ فقد يساعدنا ذلك على التوثق من متانة علاقتها بالطبيب، وعلى التأكيد من صحة الشائعات حول قضائها الليل مع نجدت دينيزل...

نظرت في أرجاء الغرفة، ولاحظت لوحة ضخمة للدرب الذي سرنا عليه في الخارج، والساحة الثانية كما تُرى من باب السلام ، كما تظهر فيها مجموعة من الإنكشاريين ومسؤولي القصر، بالإضافة إلى دبلوماسيين وأجانب؛ يستعدون جميعاً لاحتفال كبير.

"هذا هو الاحتفال الرسمي لاستقبال المبعوثين". وأشارت إلى التلال الظاهرة في الصورة على الطرف الآخر من البحر قائلة: "تلك تلال بيوغلو، وهي معزولة تماماً ومقفرة، أليس كذلك؟ إنها بدائية تماماً، من دون كتل المباني البشعة التي تكلل المنحدرات الآن. تلك هي إسطنبول التي أحبّ رؤيتها والعيش فيها. لكن، للأسف، لم يبقَ من تلك المدينة إلاّ صور مثل هذه". وحين لاحظت أننا لا نـزال واقفين أشارت إلى كرسيين بسيطين أمام طاولتها قائلة: "أرجوكما، تفضّلا بالجلوس".

"كان السلطان محمد الفاتح هو من بنى هذا القصر، أليس كذلك؟".

قالت وهي تجلس بعد أن جلست وعلي على مقعدينا: "هذا صحيح. كان الشخص الذي أمر ببدء تشييده، وأقول بدء لأن اكتمال تشييد سراي سيدي الأمير - كما عُرف آنذاك- استغرق سنوات؛ مثل قصر ماغنوم البيزنطي. فقد أمر سلاطين لاحقون ببناء عدّة غرف إضافية وفقاً لمتطلباتهم المختلفة، ووسّع بايزيد الثاني، والسلطان سليم، والسلطان سليمان، وسليم

الثالث، ومراد الثالث عقارات القصر".

فكّرت في القصر الكبير الذي رأيناه في المجسّم في مكتب آدم يزدان؛ ذاك الذي يمتد من السلطان أحمد ويشغل المساحة كلها وصولاً إلى البحر.

"لماذا اختار السلطان محمد هذه البقعة لبناء قصره؟ هل فعل ذلك لأسباب استراتيجية؟".

"أفترض أن الدفاع كان أحد الأسباب، نعم، لكن السبب الرئيس هو أن هذه البقعة كانت سابقاً موقع قلعة... أكروبوليس دينية وعسكرية محورية". أضافت حين أدركت من نظرات الدهشة التي بدت على وجهينا أنني و"علي" لا نملك أدنى فكرة عمّا تعنيه أكروبوليس في الواقع: "كان الإغريق يختارون أماكن عالية مثل هذا المكان لتكون مواقع لأهم مؤسساتهم، وستسمعون من دون شك هذا الاسم إن ذهبتم إلى أثينا؛ حيث لا يزال أكروبوليس قديم جدًّا قائماً. كانت هذه المنطقة موقع أكروبوليس في أثناء العهد البيزنطي، ولم يمس الرومان المبنى حين استولوا عليه؛ لارتباطه بالدين. لكن بعد سنوات من فتحه المدينة، أمر السلطان محمد ببناء قصره هنا على التلة، وأقول بعد سنوات؛ لأن أول قصر بناه العثمانيون في هذه المدينة شُيّد في المنطقة التي تقوم عليها جامعة إسطنبول الآن".

وعندما لاحَظت مدى اهتمامنا به، مالت إلى الأمام، وشبكت يديها معاً على الطاولة.

"في الواقع، هناك أوجه تشابه عديدة بين الإمبراطورية الرومانية والدولة العثمانية. في أثناء العهد البيزنطي، بُني القصر الكبير وآيا صوفيا قرب بعضهما؛ متجاورين تماماً، ويقال إنه كان هناك ممر بينهما. ويمكن ملاحظة الشيء نفسه في أثناء العهد العثماني، فقد شُيّد قصر توبكابي بجوار آيا صوفيا التي حوّلها العثمانيون إلى جامع. كان حكّام كلتا الحضارتين يفهمون أهمية تعزيز السلطة الدينية والأخلاقية لتقوية الدولة والحفاظ عليها، وأدركوا أن أنظمتهم يجب أن تُعرف بإيمان شعوبها، لذا لم يكن مركز السلطة السياسية - القصر - بعيداً جداً عن الكنيسة، أو المعبد، أو الجامع؛ مركز السلطة الروحية".

بدا كل ذلك رائعاً، غير أنه بقي شيء لم أستوعبه تماماً. "كل ذلك جيد. لكن، لماذا أمر السلطان محمد ببناء جامع الفاتح بعد أن حُوّلت كنيسة آيا صوفيا آنذاك إلى مسجد؟".

"كان جامع الفاتح رمزاً لفتوحات العثمانيين، وقد جسّد نمط عيش

سادة المدينة الجدد ومعتقداتهم. على كل حال، لم يكن مجرد دار عبادة، وإنما كان مكان تجمع اجتماعيّاً وثقافيّاً أيضاً، وقد خدم المجتمع بطرائق شتّى. ويعتبر جامع الفاتح إسهاماً إسلامياً- تركياً في نسيج مدينة حضرية مزدهرة...". ابتسمت استحساناً. "سيكون مُرضياً حقاً أن أرى مثل هذا الفضول كثيراً. فلو كان الجميع مثلكما أيها السيدان...".

تمتمتُ ببعض العبارات التي تتعلق بفهمنا المتواضع للموضوع، لكن "علي"، الذي أعياه السأم لم ينبس بكلمة. مدّت يدها إلى الهاتف.

"على كل حال، ماذا يمكن أن أحضر لكما؟ ماذا ستشربان؟ شاياً؟".

كان مزاجي ملائماً لاحتساء فنجان من القهوة، فقد تناولنا فطوراً لذيذاً؛ من أشهى الكعك والمعجّنات والفطائر التي يمكن أن تحضّرها أفضل مخابز السلطان أحمد في مكتب آدم يزدان.

"في الواقع، سأشرب فنجاناً من القهوة التركية، مع القليل من السكر".

قال علي، مسترخياً تماماً على كرسيه، ومباعداً ساقيه: "سأتناول قهوة عادية، سريعة الذوبان، من دون قشدة أو حليب أو سكر".

كانت القهوة التي طلبها تناسبه تماماً؛ إذ لا يتطلب إعدادها جهداً، وهي من دون محلٍّ أو منكّه؛ إنها بسيطة جداً. راقبته وهو يتأمل الغرفة ومحتوياتها فيما طلبت مضيفتنا القهوة عبر الهاتف، وبدا مهتماً على نحو خاص بالياقوتية.

تمتم: "أزهار جميلة".

قالت ليلى باركين وهي تعيد السمّاعة إلى مكانها: "عذراً؟ آه، الزهور، نعم إنها جميلة، ورائحتها رائعة".

أدركت ما يحاول علي فعله، فتدخلت بسرعة قبل أن يسألها إن كانت هدية من حبيبها.

قلت بلطف: "إذا لم يكن الأمر مزعجاً لك، فربما يمكننا أن ندخل صلب الموضوع، فالوقت عامل ضاغط".

قالت وهي ترجع ظهرها إلى الخلف وتشبك ذراعيها: "طبعاً ياكبير المفتشين. لدي بضعة أسئلة أود أن أطرحها أيضاً؛ فالحديث عن مثل هذه القضايا عبر الهاتف ليس ملائماً. هل وجدتم قطعة نقود على جثة الفقيد في الليلة الماضية أيضاً؟".

"نعم".

"أهي قطعة نقود جستنيان؟".

أومأتُ: "صحيح. لكن، هذه المرة لم تكن جثة الضحية على شكل

سهم، بل كانت الذراعان ممدودتين إلى الجانبين، وقطعة النقود في اليد اليمنى".

لم تُبدِ أي اهتمام على الإطلاق بما قلته عن التغيير في وضعية الضحية.

"هل القطعة النقدية بحوزتك الآن؟".

"لسوء الحظ لا أحملها معي. لم أكن أدرك أننا سنعقد هذا الاجتماع، وإلا كنت سأحضرها معي".

"لكنك رأيت القطعة النقدية، أليس كذلك؟".

أي أسلوب تعتمد الآن؟ ما الذي تسعى إليه؟

"أعني، بإمكانك معرفة القطعة النقدية إن رأيت صورة لها، أليس كذلك؟".

ومن دون أن تنتظر إجابتي، رفعت الكتاب المفتوح على طاولتها. عرفته فوراً، فهو الكتاب الذي رأيته في منـزلها سابقاً. هل تحمل الكتاب معها دائماً؟ أم إنها جلبته لأنها خمّنت أننا سنـزورها؟ احتفظت بهذين السؤالين إلى جانب أسئلة أخرى عن مديرة المتحف لنفسي حين قلَّبتِ الصفحات.

قالت مشيرة إلى صورة تَظهر فيها قطعة نقدية قديمة: "هنا، هذه. هل هذه هي القطعة النقدية التي وجدتموها على الجثة أمس أيها المفتش أكمان؟".

رفعتُ الكتاب وحدّقت إلى الصورة. "نعم، إنها هي، إذ يظهر على الوجه الأمامي فيها ما يشبه تمثالاً نصفيّاً لجستنيان: الخوذة، الدرع... الترس في يده اليسرى والرمح في يده اليمنى... الكلمة نفسها: إفستينيانفز... نعم، هذه هي". نظرت بعد ذلك إلى صورة الوجه الخلفي للقطعة النقدية. "همم، مخلوق مجنّح يبدو مثل نسر، يحمل شيئاً يشبه رمز النصارى الديني من نوع ما...".

قالت مصححة ما قلته: "فيكتوريا، هذا هو الاسم الذي أطلقه الرومان عليه، لكنكم على المسار الصحيح. أشارت إلى الحروف الظاهرة على حافة قطعة النقود كونوب . "هل رأيت هذه الكلمة على القطعة النقدية التي وجدتموها أمس؟".

"نعم، ماذا تعني هذه الكلمة؟".

تمتمت: " كونوب مكوّنة من مقطعين هما كون وتعني القسطنطينية، و وب وتعني أوبريزوم . بكلمات أخرى، إنها تعني أن القطعة قد سُكّت

في القسطنطينية وصُنعت من الذهب الخالص. يريد القاتل أن يلفت انتباهنا إلى جستنيان".

لم أكن مقتنعاً بذلك. "إلى جستنيان أم آيا صوفيا؟".

قالت: "هذا شيء يستحق التفكير فيه، وقد ناقشنا هذا من قبل، أليس كذلك؟ في كنيسة سيسترن، وتوصلنا إلى استنتاج أن اكتشاف صلة الجرائم بالمدينة نفسها أو بحكامها يكتسب أهمية بالغة".

قلت ضاغطاً عليها قليلاً: "إذا سألتني، فسأقول إنّ لا علاقة للجرائم بالمدينة. أظن أن القاتل يحاول إثارة اهتمامنا بصروح المدينة المميزة".

ربما لم أعبّر عن الأمر بصراحة، لكنها أدركت فوراً مما قلته أنه إذا لم تكن رابطة الدفاع عن إسطنبول متهمة بالتواطؤ المباشر في الجرائم، فإنها على الأقل من بين المشتبه فيهم الرئيسين.

قالت: "لا يمكن التمييز ببساطة بين الفكرتين. إذ إنّ جهود حكام أقوياء هي التي أدّت إلى نمو المدينة وتجميلها".

"لكن، إذا كنت أتذكر بوضوح، فقد أخبرتني أن ثيودوسيوس الثاني لا يعتبر حاكماً من الطراز الأول".

"لكن حاشيته تميّزت بكفاءة عالية؛ حتى عندما كان مجرد طفل صغير. فقد أحاط به أشخاص يمتلكون قدرات وخبرة كبيرة لإدارة الإمبراطورية نيابة عنه. كان بعض الأشخاص مثل شقيقته الكبرى بولهيرا- وهي امرأة قاسية ذات ذكاء استثنائي- ورجال مثل الحاكم الإمبراطوري أنتيموس- وهو رجل مثير للإعجاب- موجودين دائماً لمساعدته".

كان هناك شيء لا يزال مفقوداً.

"حسناً، لنفترض أن كل هذا صحيح. لكن، ينبغي أن يكون هناك سبب لترك جثث الضحايا عند صروح تاريخية. لنأخذ جستنيان على سبيل المثال، فبعد ثورة نيكا أمر بإعادة بناء المدينة برمّتها...".

قالت بنبرة تقدير: "إذاً، أنت تعرف بشأن ثورة نيكا! معرفتك بالتاريخ الروماني الشرقي جديرة بالثناء أيها المفتش أكّان، وقد أثرت إعجابي".

"أوه لا، هذه مجرد معلومات أوّلية استطعت الحصول عليها، لكن شكراً لك على كل حال. ما أردت أن أسأل عنه هو لماذا آيا صوفيا؟ فقد كان بمقدور القاتل اختيار كنيسة سيسترن؛ لأن جستنيان قد بناها. ولماذا عمود قسطنطين؟ فلو أراد القاتل لفت انتباهنا إلى قسطنطين، لاستفاد من المضمار أيضاً كموقع مناسب لترك ضحيته؛ فقد كان قسطنطين- مما عرفته حتى الآن- هو الشخص الذي أمر بتشييده".

ردّت: "أو القصر الكبير، فذلك أيضاً موقع ذو أهمية بالغة".

"بالضبط. لماذا لم تُترك الضحية الثانية هناك، في القصر الكبير؟".

أطبق الصمت على الغرفة.

قلت: "ما أظن أنهم يحاولون فعله هو استغلال حقيقة أن هذه المدينة كانت سابقاً العاصمة الرومانية لإرباكنا. أعني، أليس ذلك سبب نصب عمود قسطنطين؟".

قالت وهي تومئ برأسها: "قد تكون محقاً. لكن، حتى إذا استثنينا معبد بوسيدون الذي كان صرحاً رئيساً في أثناء العهد البيزنطي، فنحن نعرف أن العمود وأسوار المدينة وآيا صوفيا كلها رموز للمدينة القديمة". ظننت أنها ستقتنع بما قلته، لكنها أبعدت الشعر الذي تدلّى إلى الأمام فوق وجهها ودحضت نظريتي. "يجب أن نتذكر أيضاً أن تلك الصروح قد بُنيت لتكون انعكاساً لقوة الحاكم. خُذ آيا صوفيا على سبيل المثال، فقد أبلغ جستنيان العالم أنه بنى الكنيسة لتكون رمزاً لإيمانه بالخالق، ومن أجل النصرانية، ولأنه أراد تقريب شعبه من الخالق. لكن، هل تظن أن هذا هو السبب الحقيقي؟ لا أظن أن هذا صحيح، ولا أعتقد أن السبب الحقيقي لتشييد مثل تلك الكنيسة الرائعة هو تمجيد الخالق، وإنما لتعظيم الرجل الذي بناها. فرغم أن القوة للخالق وحده؛ إلا أن المعابد ودور العبادة الأخرى تخلّد ذكرى بُناتها، وتمنحهم مرتبة ومكانة مميّزتين بين الناس؛ حتى حين يسحق أولئك الحكام أنفسهم الشعبَ من دون رحمة؛ من أجل تحقيق مشروعات أحلامهم. استخدم أولئك الحكام الدين ومعتقدات الناس لترسيخ سلطتهم، وإلا فلماذا سيجلب جستنيان رجالاً- مثل عالم الفيزياء إيزيدور ميلتس، وعالم الرياضيات أنتيموس- من تراليس ليعملوا خمس سنوات كاملة في البناء مع عشرات الآلاف من العمّال؟". توقفت عن الكلام، وومضت عيناها. "طبعاً، كان لدى جستنيان دافع آخر لبناء دار العبادة الكبيرة، دافع شخصي؛ فقد أراد تخليد حبه، ولا أعني إخلاصه للخالق، وإنما ولعه بزوجته؛ ثيودورا. إذا ذهبت إلى آيا صوفيا وقضيت بعض الوقت فيها، فسوف تلاحظ أن أول حرفين من اسمي جستنيان وزوجته منقوشان على أعلى العمودين هناك؛ وكأنهما شعار مدمج تقريباً. تعتبر آيا صوفيا ضريحاً للمرأة التي أحبّها الإمبراطور ودار عبادة في الوقت نفسه".

تلقى علي تلك الكلمات التي قد يجدها الكثيرون رومانسية على نحو استثنائي بسخرية.

"يا له من وغد لعين! قتل ثلاثين ألف رجل وامرأة وطفل من دون

أن يتردد لحظة، ثم أمر ببناء صرح ضخم لإحياء ذكرى حبيبته في حين كانت دماء الأبرياء لا تزال دافئة على يديه".

بدا أن ليلى باركين توافقه الرأي، لكن المؤرخة في داخلها تغلّبت في النهاية.

"دعنا لا نقسو عليه كثيراً الآن، ولا ننسى وجود عنصر معنوي أيضاً. فبالمحصلة،كان الإيمان أحد الأسباب التي أدّت إلى تشييد ذلك الصرح".

قلت: "أو ربما بنى الكنيسة تكفيراً عن الذنب الذي ارتكبه بقتله ثلاثين ألف شخص بريء. فلأنه رجل مؤمن، لا بد أنه قد خاف من العقاب".

"لا شك في هذا. لكن السلطة الدنيوية لا تتطابق دائماً مع أفكارنا عن الدين. يقال إن قسطنطين مثلاً كان حاكماً آخر مستعداً لإراقة الدماء حين يرى ذلك ضرورياً. ويبقى إنهاء حياة أحدهم حقّاً لله وحده؛ وهذا ما أدركه العثمانيون أيضاً".

قال علي وهو يميل إلى الأمام ويمسح شعره الخشن: "أود أن أطرح عليك سؤالاً إذا كنت لا تمانعين. هل صحيح ما يُقال عن أن السلطان "محمد" الفاتح قد سمح لرجاله بثلاثة أيام سلب ونهب بعد فتح المدينة؟".

قالت بلطف مثل مدرّسة تجيب بصبر عن سؤال ساذج: "هذا ما تقوله كتب التاريخ". وعندما رأت الرعب في عيني علي، شعرت بأنها مرغمة على قول شيء يواسيه نوعاً ما؛ وكأنه الشخص الذي أصدر الأمر بالسلب لثلاثة أيام لا السلطان.

"على كل حال، قبل أن يبدأ الهجوم، أرسل السلطان محمد مبعوثين إلى الإمبراطور قسطنطين السادس ليطمئنه أن لا أحد سيتعرض للأذى إن استسلموا".

"ولم يستسلم، أليس كذلك؟".

"لم يفعل بالتأكيد. هل كنت ستفعل ذلك لو كنت مكانه؟ هل كنت ستسلّم مملكة أسلافك ووطنك من دون قتال؟".

رد علي: "طبعاً ما كنت لأفعل، وكنت سأقاتل أيضاً".

"وهذا ما فعله الإمبراطور قسطنطين السادس، فقد قاتل حتى النهاية. كان قرار عدم الاستسلام يعني استمرار حصار المدينة ثلاثة وخمسين يوماً؛ الأمر الذي أدّى إلى تكبّد القوات العثمانية خسائر فادحة، لذا سمح السلطان محمد لرجاله بنهب المدينة ثلاثة أيام بعد الاستيلاء عليها. لكن لم يكن محمد الفاتح من ألحق أكبر ضرر بالقسطنطينية أيها المفتش غورمن،

فقد حصلت جيوش الحملة الصليبية الرابعة التي اجتاحت المدينة عام 1204 على هذا الشرف. وبحلول وقت إخراجهم منها عام 1261 ، تحولت المدينة إلى أنقاض وركام. ومن أجل بضع قطع من الفضة والذهب، وتوفير ممر سريع إلى ثروة سهلة، تُركت مدينتنا الرائعة هذه، التي بناها ملوك أسطوريون تقريباً مثل قسطنطين وجستنيان بعرق شعبها ودمه، خراباً".

قلت: "الماضي متخم بقصص مرعبة مماثلة، ولا يمكننا فعل شيء بشأنها في حين أننا نستطيع فعل شيء بشأن الفظائع التي تحصل اليوم. يبدو يا آنسة باركين أن جرائم القتل تلك مستمرة، لذا أود أن أسألك: أين تظنين أن الجثة التالية ستترك؟".

قالت معتذرة تقريباً: "لأكون صريحة تماماً أيها المفتش أكّان، أشعر بأنني حائرة. ربما لست أفضل من يمكنك أن تطرح عليه هذا السؤال". قرع شخص ما على الباب ثلاث مرات. "لا بد أن الخادمة قد أحضرت قهوتنا".

لم تكن الخادمة هي التي طرقت الباب، وإنما قرعه شابٌ يعتمر قبعة عليها شعار شركة شحن، ويحمل علبة كبيرة. دخل ووقف بتهذيب بجانب الباب.

قال: "ينبغي أن أسلّم هذا إلى السيدة المسؤولة عن المتحف".

نظرت إلى الطرد وحامله بازدراء، وقالت وهي تستدير لتتكلم معنا: "حسناً، أترايان أيها السيدان؟ يجب أن نتعامل مع هذه الواجبات الإدارية الرتيبة والروتينية طوال الوقت".

دفع الشاب، غافلاً عن ثرثرتها، الطرد إلى الأمام، ووضعه على طاولتها ثم أخرج قلماً من جيبه.

"وقّعي هنا من فضلك".

سألت وهي توقع وصل الاستلام وعيناها ثابتتان على الطرد: "من المرسل؟". قرأ الشاب اللصاقة على الطرد، وردَّ بفتور: "من محمد أكينسي" [30] .

"محمد أكينسي؟! هذا غريب، لا أعرف أحداً بهذا الاسم". ثم أعادت وصل الاستلام إلى الشاب وهي تتمتم: "ربما يحتوي على هبة". ثم استدارت لتتحدث إلينا. "نتلقى أحياناً تبرعات وهبات مجهولة المصدر، وتكون غالباً أشياء مسروقة من القصر. فعندما يدرك أخيراً أولئك الذين يضعون أيديهم على تلك الأغراض أنها تخصّ جهة محددة، والعواقب التي قد تنجم عن الاحتفاظ بها، يعيدونها إلينا فوراً". لاحظت أن الشاب لا يزال واقفاً فسألته:

"نعم، هل هناك شيء آخر؟".

تلعثم: "ماذا؟ لا، شكراً. سأغادر. أتمنى لكم يوماً جيداً".

قالت حين غادر الشاب: "الآن، أين كنا؟ نعم، لا أظن أنني الشخص الذي يجب أن تسألاه أيها المفتش؛ لأن توقّعي الأخير كان خاطئاً". أرادت أن تتكلم عن الجرائم، غير أنه بدا واضحاً من الطريقة التي كانت تنظر بها إلى الطرد أن ذهنها مشغول بمحتوياته. "لا أريد أن أضللكم عن غير قصد مجدداً... سأفعل ما بوسعي لمساعدتكم بالتأكيد...".

كان بصرها لا يزال ثابتاً على الطرد.

قلت أخيراً: "تفضلي، افتحي الطرد، فنحن لا نمانع". تورّدت خجلاً.

"أنا آسفة. أنت محق، إذ ينتابني الفضول بشأن ما يوجد فيه".

هل كانت مترددة جداً بشأن فتحه بحضورنا؟

"يمكن أن نغادر إن أحببت".

قالت وهي تشير لنا بأن نبقى جالسين رغم أنها لم تقف: "لا، إطلاقاً. لا داعي إلى هذا، وأشك في أن يكون سر دولة، وإنما هو على الأرجح تحفة فنية مسروقة". أخرجت سكيناً صغيرة من درج طاولتها وبدأت بفتح العلبة. "تضم هذه الطرود عادة أشياء لا قيمة لها، مثل مجموعة شاي خزفية قديمة أو شمعدانات رخيصة تخصّ جدّةً راحلة. تلقينا مرة أربع قطع آجر مع ورقة تتضمن اعتذاراً منا ومن السلطان مراد لأنّ جد المرسل قد سرق قطع الآجر من "جناح بغداد"، أحد منازل السلطان الصيفية هنا في قصر توبكابـي، والغريب أن الآجر ليس من النوع الموجود في الجناح، وإنما من النوع العادي الذي يمكن العثور عليه في أي متجر رخيص". كانت قد أزالت الشريط عن الطرد وعلى وشك أن تفتحه حين أدركت أنه من الملائم أن تحذّرنا. "أرجو ألا تشعرا بخيبة أمل كبيرة إن لم تعجبكما المحتويات".

قال علي، وقد نفذ صبره: "لن يخيب أملنا، أرجو أن تتابعي فتحه".

وضعت السكين جانباً وفتحت الغطاء.

"همم، قد يكون شيئاً هشاً، فهو داخل لفات قطن". ومدّت يدها وحاولت إخراج المحتويات الملفوفة بالقطن "آمل أن يستحق الأمر هذا العناء". أزالت طبقة من القطن ووضعتها على الطاولة، ثم طبقة ثانية، وعندما أوشكت على نـزع الطبقة الثالثة تردّدت وعبست. "ما هذا؟". لم تستمر حيرتها وقتاً طويلاً، فقد حاولت أن ترفع ذاك الشيء ثم صرخت رعباً.

سبقت نظرة الذعر التي بدت في عينيها صرختها، وتجمدت عاجزة عن الحركة أو الكلام، وصار وجهها أبيض مثل ملاءة، واهتز جسدها كله بعنف. استرخت يداها إلى جانبيها، وسقط القطن الذي كانت تحمله من يديها الرخوتين على السجادة، وصارت تنظر إلى الأعلى، فقفزتُ بسرعة إلى جانبها لأمسكها بعد أن أدركت أنها تكاد تفقد وعيها.

قلت وأنا أعيدها بحرص إلى كرسيها: "خذي أنفاساً عميقة يا آنسة باركين، أنفاساً عميقة...". لم تكن تسمع صوتي، واستمرت بالإشارة إلى العلبة، ويداها لا تزالان ترتعشان بعنف.

"في... في الداخل... أوه! يا للهول!".

كان علي قد نهض مسرعاً آنذاك ليلقي نظرة، وحدّق إلى داخل العلبة، لكنه تراجع فوراً مذعوراً؛ وكأنه قد تلقى رصاصة.

كل ما استطاع قوله: "أوه اللعنة...".

عندما ابتعد علي جانباً لمحتُ كيساً شفافاً، وميّزت داخله شعراً أجعد أسود فاحماً، وأنفاً طويلاً، وذقناً بارزاً.

وعلى الرغم من أنني قد رأيت مثل ذلك من قبل، إلا أنني شعرت بمعدتي تنقبض. لم يكن من المرجح أن أفقد وعيي، لكنني مددت يدي لأتشبث بحافة الطاولة حين رأيت الرأس البشري الملفوف بالقطن والموضوع في الكيس.

عرفت من حقيقة وجود مسحةٍ من اللون فيه أنه بكل تأكيد ليس قطعة أثرية فخمة.

ضرب عصفورين بحجر واحد

لم يكن هناك شك في أن الهدية الأخيرة قد أرسلها قاتلنا.

أشار تقييمي الأوّلي إلى أن الجريمة قد وقعت في الساعات الثماني والأربعين الأخيرة، وقد عدّل القاتل أسلوبه؛ بتغيير ساعة "إيصال" الجثة من منتصف الليل إلى منتصف النهار. هل يحاول تضليلنا وإرباكنا بهذه الاستراتيجية الجديدة؟ أم إنّ هناك رسالة تكمن خلف هذا التطور الأخير؟

ركض علي ليوقف الشاب، فيما جلست مع ليلى باركين- التي كانت لا تزال في حاله صدمة- وطلبت منها الاتصال لإلغاء طلب القهوة. وبعد إجراء الاتصال، طلبت منها مفاتيحها فسلّمتني إياها من دون أن تنبس بكلمة. أوصدتُ الباب من الداخل، فآخر شيء نريده هو وجود عيون متطفلة أو انتشار أيّ خبر عمّا قد حدث.

استعادت ليلى باركين توازنها بسرعة مدهشة، وفعلاً لم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً؛ ما جعلني أشك في أن كل ذلك جزء من خطتها. فقد أراد القاتل أن تفتح العلبة في مكتبها بحضورنا، وقد أبلغنا حرّاس الأمن أن أجهزة كشف المعادن معطّلة منذ أمس، ولو كانت تعمل، لأضحى تمرير علبة فيها رأس بشري عبر البوابة الأمنية مستحيلاً؛ ما يعني أن القاتل يعرف ما يحدث في المتحف يومياً. بكلمات أخرى، ربما يكون القاتل شخصاً يعمل في المتحف... فضلاً عن ذلك، لم يكن هناك إلا شخص واحد فقط يعرف أنني وعلي سنـزور المتحف اليوم، وسنكون في مكتب ليلى في تلك اللحظة تحديداً؛ ولم يكن ذلك الشخص إلا ليلى باركين، فقد دعتنا إلى مكتبها شخصياً. لكن، يبقى السؤال: لماذا؟

لم يكن افتراض نظرية ملائمة يتطلب جهداً كبيراً. فإذا كان القاتل- كما زعم آدم يزدان- هو"نامق" قرمان وشريكته ليلى باركين، وعرفا أن الحارسين الليليين قد شاهداهما في شاحنتهما في الليلة السابقة، فسيدرك كلاهما أن الخناق يضيق عليهما. وربما خمّنا أيضاً أننا سنتكلم مع آدم يزدان وسيكشف كل شيء يعرفه عنهما، بغض النظر عن طبيعته القذرة. وللتخلص من الشكوك المتزايدة المتعلقة بهما، كان يجب أن يُقدما على خطوة جريئة وجسورة؛ خطوة تكون رسالة وتهديداً، مثل إرسال رأس إنسان في طرد بريدي إلى مكتب ليلى باركين في وضح النهار، وجعلها تفتحه أمامنا. وفي هذه الحال، ستكون صرخة الرعب والإغماء مجرد عرض. عندما نظرت إلى ليلى عن كثب لأعرف إن كانت تمثّل أم لا، أدركت أنها إما

قد أساءت تفسير قصدي، أو أن تمثيلها من طراز رفيع.

"لا تقلق أيها المفتش أكّان، أنا بخير، حقاً".

حان دوري لأظهر مهاراتي في التمثيل.

"جيد، أنا سعيد لسماع هذا. تبدين أفضل حقاً...". نظرت إلى العلبة. "على كل حال، أخشى أن لدي طلباً غير ملائم".

"ما هو؟".

"أريد منك إلقاء نظرة على الرأس...".

تبنّت نظرة الفزع والتردد المطلوبة، لكنني توثقت من ألاّ يكون لديها مفرّ.

"إذا تمكنت من معرفة هويته، فسنكتشف إن كان للفقيد أي علاقة بالضحايا الآخرين".

قالت ملتزمة بالنص حرفياً: "أنت... أنت... تعني أن هذا... هذا الرأس ربما يكون على صلة بالجرائم الأخيرة؟".

قلت: "لا يمكنني تأكيد هذا حالياً". أردت أن أعرف ما تفكّر فيه من دون الإفصاح عن الكثير. "لكن هذا الطرد قد أرسل إليك، ولا بد أن هناك هدفاً من وراء هذا؟ ما رأيك؟".

قالت وهي تتفادى نظرتي وتحدّق إلى العلبة بخوف: "لا أدري، إذا استطعت تعرّفه...".

قلت مشجعاً: "فسيكون لدينا شيء نعمل عليه. وإذا حظينا بمثل هذا الشيء، فربما نستطيع إغلاق هذه القضية عاجلاً لا آجلاً. أمّا إذا لم نحصل على شيء، فسنعرف على الأقل إن كان للرجل المسكين أي علاقة بتحقيقنا الحالي".

قالت بعد أن سحبت نفساً عميقاً: "حسناً. لكن، أرجو أن تبقى معي حين أفعل هذا".

قلت: "طبعاً". ثم ابتسمتُ وأشرت إلى الباب. "على كل حال الأبواب موصدة لذا لا يمكن أن أغادر. الآن، عندما تُلقين نظرة على ما يوجد داخل العلبة، حاولي أن تنظري إليه بتجرّد؛ كما لو أنه شيء وليس... حسناً، تعرفين ما أقصده. يلجأ الأطباء إلى الأسلوب نفسه حين يقومون بالتشريح، لذا تخيّلي أنه شيء عادي ترينه كل يوم".

قالت وهي تقف لتنظر إلى الرّأس الموضوع داخل العلبة: "قول هذا أسهل من القيام به". أمسكتُ السكين وبدأت أقص العلبة بحذر، متوثقاً من عدم وجود تماس بين النصل والرأس في الداخل. وعندما انتهيت من

إزالة القسم الأمامي من العلبة، رأينا ما يوجد فيها، بكل بهائه المجرّد؛ رأس إنسان مبتوراً. قمت بقص النايلون الذي تمّ لفّه به؛ لأكشف عن وجهه كلّه.

كان أنفه طويلاً، وجبينه عريضاً، وشعره أجعدَ. ومثل الجرائم الأخرى، لم يكن هناك أثر للدم عليه؛ ما يعني أن الرأس قد بُتر على الأرجح بعد قتله. بدت كل العلامات المميزة لعملية جراحية عليه، لكنني أبقيت تلك الفكرة الخاصة لنفسي. لاحظت أن الرّأس يخصّ رجلاً في الأربعين من عمره تقريباً؛ شخصاً يحافظ على مظهره. فعلاً، رأيت ابتسامة تحدٍّ تقريباً على شفتيه؛ وكأنه يستمتع بوقته على حساب أولئك الذين يشاهدونه.

"إنه... إنه ف... فضلي بيك". اختفى كل الخوف آنذاك، وتكلمت وكأنها ترى وجهاً مألوفاً في حشد من الناس. "فضلي غموس".

لم أكن قد سمعت باسمه من قبل، لكن هناك شيئاً بشأنه... تراجعتُ خطوة إلى الخلف وحدّقت إلى الرأس.

"من هو؟".

قالت متشككة من عدم معرفتي إيّاه: "إنه نائب العمدة. حسناً، نائب العمدة السابق. كانت علاقتنا به وثيقة".

"كيف كان؟".

"ماذا تعني؟".

"هل كان متورطاً في أي تعاملات مشبوهة؟ هل هناك أي علامات استفهام بشأن علاقاته؟ لنواجه الحقائق، لم يكن أي من الضحايا حتى الآن بريئاً تماماً".

قالت عابسة قليلاً وهي تنظر بعيداً: "حسناً، في الواقع نعم. كان جزءاً من محاكمة آدم يزدان".

ذكرت الاسم مرة أخرى. لو أن الأمر متعلّقٌ بليلى باركين، لما برزت الحاجة إلى البحث عن أحد غير يزدان- عدو التاريخ والثقافة المزعوم- إذ سيكون القاتل بالتأكيد. وأخبرني صوت داخليّ أنه لا ينبغي التقليل من أهمية هذه الفكرة.

"أي محاكمة تقصدين؟".

"تلك التي أخبرتك عنها سابقاً. ألا تذكر؟ المحاكمة بشأن انهيار جدار حوض ماء بيزنطي قديم، حين لقي خمسة أشخاص حتفهم. لم تُلقِ المحكمة اللوم على دار السعادة، لكن الحكم الشعبي صدر بأن آدم يزدان وفضلي غموس- رجله في مجلس المدينة- مذنبان بتهمة التخريب. فقد

جعل يزدان الجدار ينهار لإفساح المجال لمشروعه السياحي الضخم. لكن، أنت تعرف كيف تجري الأمور في هذا البلد أيها المفتش، فقد بدّل الشهود إفاداتهم، ولنقل إنهم تكلّموا مع المحامين والقضاة فأُغلقت القضية، لكن رابطة الدفاع عن إسطنبول لم تستسلم. جرّبنا كل قناة قانونية ممكنة وحاربناهم ثلاث سنوات حتى عكست محكمة الاستئناف القرار. وهناك محاكمة جديدة وشيكة، هذه المرة مع وجود الرابطة بوصفها جهة ادّعاء".

"هل كان ضحايا الجرائم الثلاث الأولى شهوداً في المحكمة؟".

"لا أدري. لكن، إذا نظرت إلى أعضاء المجلس الاستشاري في دار السعادة فأنا واثقة أنك ربما ستجد مفاجأة أو اثنتين".

لقد تفوّهت بما تفكر فيه أخيراً، ورغم زعمها أنها لا تعرف، إلا أن التلميحات والمزاعم بدأت تخرج من فمها بسرعة...

"سننظر في الأمر بالتأكيد ياآنسة باركين. إذا دعت الضرورة، فسنقابل كل من له علاقة بتلك المحاكمة".

كانت قد حصلت على ما أرادته، وعرفتُ ذلك من نظرة البهجة التي بدت في عينيها.

سألتْ وهي تلقي نظرة خاطفة على الرأس: "أتساءل عن الجسد، أين تراه يكون؟". وقبل أن أجيب، رنَّ هاتفي، واتضح أنّ زينب هي المتصلة.

"سيدي...".

"نعم يازينب، ما الأمر؟".

"لقد عثرنا على جثة أخرى ياسيدي، في ساحة جامع الفاتح. إن الرأس مفقود، وتُظهر بطاقة الهوية التي تمّ العثور عليها مع الجثة أنه يُدعى فضلي غموس. لكن، نظراً إلى عدم وجود رأس، لا يمكننا أن نتوثق من أنها هوية الفقيد".

"إنه فضلي غموس فعلاً يازينب. وهو نائب العمدة السابق، ورئيس مقدّر كيناسي على الأرجح".

"كيف تعرف هذا ياسيدي؟".

"لأن الرأس لدي".

"ماذا؟ أين؟".

"داخل متحف توبكابي، في مكتب المديرة، وقد أوصله أحد الشبان".

قالت بهدوء بعد بضع ثوانٍ من الصمت المتوتر: "فهمت. إذاً، جامع الفاتح وقصر توبكابي. القاتل يلفت انتباهنا الآن إلى موقعين مختلفين تماماً".

"نعم. لكن من أمر ببنائهما هوالحاكم نفسه؛ السلطان محمد الفاتح".

"هناك شيء يجب أن تعرفه ياسيدي. يدا الضحية مبتورتان، من الرسغين".

صرختُ: "ماذا؟! اليدان مبتورتان؟".

"كان عملاً تاماً أيضاً ياسيدي، من فعل خبير طبـي كما يمكن القول. وقد وُضعت اليدان في تابوت".

صرخت ليلى باركين التي كانت تستمع إلى كل شيء: "بُترت اليدان؟!".

"من الرسغين".

فصرخت وشفتاها ترتعشان: "مثل عتيق سنان بالضبط. اليدان أولاً ثم الرأس...".

من كان عتيق سنان؟

قلت بسرعة: "زينب، ابقي في الجامع وسأصل إليك في أسرع وقت ممكن".

"حسناً ياسيدي".

عندما أنهيت المكالمة، لاحظت أن ليلى باركين لم تعد ترهف السمع إلى محادثتي، وأنها مشغولة بقراءة تفاصيل العنوان على العلبة.

صرخت وهي تضرب جبينها بيدها: "طبعاً! محمد أكينسي! السلطان محمد! ألا ترى؟ كان السلطان محمد هو السلطان محمد الثاني أيضاً. لقد أرسلوا الطرد باسمه. إنهم يسخرون منا".

كرّرتُ ببطء: "محمد أكينسي". استوعبت أخيراً. "طبعاً... السلطان محمد الثاني... هذا ما يشيرون إليه".

لم يخطر ذلك ببالي قطّ... لم يكن القاتل ذكياً على نحو استثنائي فقط، وإنما يتمتع أو تتمتع بحس دعابة شرير أيضاً. أقول تتمتع ؛ لأن القاتل ربما يكون المرأة الجالسة أمامي.

"أليس سنان ذاك الذي ذكرته هو المعماري سنان [31] ؟".

"لا إطلاقاً. عتيق سنان هو الرجل الذي بنى جامع الفاتح، وتوفي قبل وقت طويل من ولادة المعماري سنان. أمر السلطان محمد ببتر ذراعي عتيق سنان ثم رأسه أيضاً؛ لأنه- وفقاً لبعض الأقاويل- لم يرضَ عن جامع بناه، وقد استشاط السلطان غضباً من حقيقة أن قبة الجامع الجديد ليست أكبر من قبة آيا صوفيا. وتقول تقارير أخرى إن السلطان أمر بإعدامه بسبب اختلاسه وسرقته من أموال خُصّصت للبناء".

قلت وأنا أنظر إلى الابتسامة الساخرة على وجه نائب العمدة السابق

المتغضّن: "يبدو أن القتلة يفضّلون التفسير الثاني، فقد استخدموا أسلوب الإعدام نفسه للإجهاز على ضحيتهم بعد مُضي كل تلك القرون".

تمتَمَتْ بائسة: "هذا تصرّف شرير جداً ومقزّز وقاسٍ. ما الذي يحاول هؤلاء الأشخاص فعله؟ ماذا يريدون؟".

عرضت توضيحاً: "أفترض أنهم يحاولون إحقاق نوعٍ من العدالة، نوعٍ من الانتقام باسم المدينة. فهم يقتلون الأشخاص الذين يظنون أنهم مسؤولون عن تدمير المدينة؛ الواحد تلو الآخر. وهم لا يحاولون التكتم على أفعالهم أيضاً وإنما يعملون علانية، تماماً كما تفعل رابطة الدفاع عن إسطنبول في مسيراتها".

بدا واضحاً أنها فزعت ممّا قلته، لكنني مضيت قدماً.

"أرجو أن تعذريني على هذه المقارنة الواضحة الفظة. لكن الأشخاص الذين يقفون خلف هذه الأعمال الإجرامية مثل منظمتكم تماماً. فهم يعملون انطلاقاً من رغبتهم في الدفاع عن المدينة مما يرون أنه هجوم عليها. والفرق الوحيد هو الأساليب المستخدمة. ما يفعلونه شعائري نوعاً ما، ومعرفتك في هذه القضايا تفوق معرفتي بكثير. لكن يبدو أن القتلة يقدمون قرابين إلى المدينة؛ بالطريقة نفسها التي قُدّمت بها القرابين سابقاً. الأهم من ذلك أن كل ضحاياهم أشخاص ملطخو السمعة؛ أشخاص ليسوا بريئين تماماً، ويريد المجرمون أن ينتبه العامة إلى هؤلاء القتلى؛ لأن لديهم رسالة مفادها أن الذين يعرّضون المدينة للخطر يجازفون بأنفسهم، وأولئك الذين يؤذون المدينة سيكونون عرضة للأذى أيضاً . هذا ما يحاولون قوله، وهم يأمرون شعب إسطنبول بتولّي زمام المبادرة والبدء بحماية مدينتهم؛ وهذه كلها آراء موجودة في شعارات رابطة الدفاع عن إسطنبول وإعلاناتها. يرشدنا القتلة بواسطة تاريخنا. لذا، نراهم يكللون قرابينهم بقطع نقدية ويتركون ضحاياهم خلف صروح رئيسة. انظري فقط إلى الأشخاص الذين يشيرون إليهم: الملك بيزاس مؤسس المدينة، وقسطنطين الكبير الذي جعلها عاصمة الإمبراطورية الرومانية، وثيودوسيوس الثاني الذي بنى الأسوار، وجستنيان الذي أعاد بناء المدينة من الرماد...".

قالت منهية جملتي: "والسلطان محمد الفاتح الذي حوّل مدينة معزولة ومستنـزفة في العصور الوسطى إلى عاصمة الدولة العثمانية. على كل حال، ربما كنا نفعل ما يريدون منّا فعله بالضبط. ربما يريدون منا التفكير على هذا النحو، وربما كان هدفهم الرئيس هو القضاء على الأشخاص الذين يؤذونهم - لا المدينة - ليضربوا عصفورين بحجر واحد؛ بإزالة أعدائهم وأولئك

الذين يشكّلون خطراً عليهم وتهديداً لهم، في حين تشير إصبع الاتهام إلى المحافظين".

قلت وأنا أغلق العلبة: "حسناً، ربما تكون هذه هي الحال. لكن هناك ثابتاً واحداً في كل هذا؛ القتلة يشيرون بالتأكيد إلى السلطان محمد الفاتح".

القسطنطينية: حديقة مسرّات السلطان محمد الفاتح

رفع السلطان ذراعيه عالياً متضرّعاً إلى الله، كان الضوء المتدفق من السماء فوقه يهمس بإحدى أقدم أساطير العالم في أذنه، لكن السلطان الشاب لا يسمعها. لم يكن يواجه القدس تحت القبة الضخمة التي تحملها أربعة كائنات نورانية، وإنما القبلة ومهد إيمانه. تضرّع السلطان إلى الله تعالى كي يُبعد ذكرى أصوات المدافع، ورائحة الدم، وصرخات الناس وعويلهم. وضع جبينه النبيل على سجادة الصلاة طالباً أن يعمَّ السلام الأرض.

رفع السلطان ذراعيه عالياً في المعبد الذي تُوّج فيه الأباطرة الرومان؛ فها قد منحه الله شرف أن يكون واحداً من الذين هزموا سادة روما، لذا لا بد من أن يظهر تواضعه بالخنوع لمشيئة الله، وبتقديم الشكر وتأدية الصلوات المفروضة عليه. كان أسلافه قد جاءوا إلى هذا البلد من أرض الشمس قبل قرون خلت، وشقّوا طريقهم عبر جبال وعرة وتضاريس صعبة، في ليلٍ جمّد الحياة في عروقهم، ونهار حارق مثل ألسنة اللهب، فتشققت شفاههم، وجُرحت أجسادهم، وعانوا من الجوع والعطش. جاءوا معتلين مطياتهم من دون سروج، وأجسادهم عارية ومكشوفة، وليس هناك ما يحميهم إلا جسارتهم وفطنتهم، لكنهم مضوا قدماً، وخطر النفي يواجههم عند كل توقف، وخطر الموت يتربّص بهم مع كل خطوة. تابعوا تقدمهم، يحثّهم السيف والإيمان والأمل والشغف، وقد تخلّوا عن معتقدات أسلافهم في أراضي أجدادهم القديمة.

رفع السلطان ذراعيه متضرّعاً، فهو مدين للخالق؛ لأنه لم يخذله حين سخر منه شعبه، ولم يهجره حين حُكم عليه نظراً إلى سنه لا ذكائه، وحين شكَّ به وزراؤه ومستشاروه، واهتزت ثقة والده به في مرحلة ما، وقالوا جميعاً إن البحار لا تُقطع، وأسوار المدينة لا تُقهر، والمدينة لا تُهزم، والحلم لا يتحقق... كان الله إلى جانبه دائماً، وقد نصره على الدوام، وأيّد جرأة طموحه. أسبغ الله عليه شجاعة قضت على الهون، والأفار، والعرب، والفارسيين، والصليبيين، ومكّنته من اجتياز البحار التي قيل إن عبورها مستحيل، ومن تدمير الأسوار التي قيل إنها منيعة، وفتح المدينة التي قيل إنها حصينة...

رفع السلطان ذراعيه عالياً شكراً وخنوعاً؛ لأن الحصار الذي امتد ثلاثةً وخمسين يوماً لم يذهب هباء، والراية بقيت خفّاقة، والليالي لم تتحول إلى

يأس، والحرب ضد الكفار لم تتحوّل إلى عذاب وهزيمة ومحنة. رفع ذراعيه شكراً لله الذي جعله وهو في الحادية والعشرين من عمره سلطاناً يستحق سمعة أجداده النبلاء؛ سلطاناً جسوراً وشجاعاً مثل عثمان، وقائداً فذاً مثل أورهان، ومحارباً مثل والده مراد... فقد ساعده الله ومكّنه من غرس راية العثمانيين على أعلى نقطة في أجمل مدن العالم، ووهبه لقب إمبراطور روما الجديد، وحاكم البحرين والقارتين...

رفع السلطان ذراعيه تضرعاً في قلب المدينة التي لا تزال غارقة بالدماء، في معبد المدينة التي لا يزال سكانها يرتعشون خوفاً. وقف السلطان في مدخل المعبد، بجانب البوابات الضخمة الرائعة؛ حيث وطئ بقدمه أول مرة الأرض التي فتحها أخيراً، وحيث جثا وأمسك حفنة من تراب نثرها فوق رأسه ليُظهر للناس الذين كانوا يرتعشون بحضوره أنه ليس أعظم من التراب نفسه. كان يعرف أنه ليس إلا خادماً لله في ثياب سلطان، وأنه بمساعدة من الله قد تمكّن من فتح المدينة، وأنه بنعمة منه سيجعل هذه المدينة التي يطمع بها العالم كله مركز الكون.

كانت القسطنطينية هي البداية، وفتحها تحقيق لحلم قديم، وسيسير في أعقاب الفلك الناري... كما سار الإسكندر من أرض الشمس الغاربة إلى أرض الشمس المشرقة، وسيتّبع خطوات المقدوني حتى تصبح دولته - إمبراطوريته الشاسعة والرائعة - الأرض التي يغمرها الضوء دائماً. كل الشعوب في العالم، سواء أكان أفرادها أتراكاً أو فارسيين أو فرنكيين، وكل الأعراق في العالم سواء أكان العرق أسود أو أصفر أو أبيض، وكل الأديان في العالم سواء أكانت الإسلام أو النصرانية أو اليهودية أو الوثنية؛ كلها ستجتمع تحت رايته وتتحد تحت حكمه لتعيش كأمّة واحدة... وسينبض قلب هذه الأمة الرائعة في القسطنطينية.

فتح السلطان ذراعيه شاكراً الله على منحه الشجاعة، والذكاء، والرغبة، والثبات. لا يمكن للعالم إلا أن يكون موحداً تحت حكم قائد مثله، وأن يصبح واحداً تحت قيادته. أحسّ بمشاعر جيّاشة في صدره، وامتدت يداه المرتعشتان نحو الأعلى، ولمع النصر في عينيه والفخر على جبينه، وانغرس الفرح عميقاً في قلبه. لا شكّ أنه سيسير دائماً على طريق الشرف. وتذكّر حديث النبـي (صلى الله عليه وسلم): لتُفتحنّ القسطنطينية، فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش.

ظل السلطان

قال الرجل الواقف بجانب زينب: "لتُفتحنّ القسطنطينية، فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش". كان كلاهما ينظران إلى الكتابة العربية على اللوحة المعلقة فوق المدخل المؤدي إلى الساحة التي تصطف على جانبيها توابيت رخامية وأشجار سرو، وتضم ضريح السلطان محمد الفاتح.

" الحديث نفسه منقوش داخل ضريحه...". كان سيمضي قدماً لو لم يستدر ويلاحظني واقفاً خلفه.

قالت زينب: "مرحباً ياسيدي...". اختفى العبوس عن وجه الرجل، وعرّفتنا زينب ببعضنا.

"هذا كبير المفتشين أكّان. وهذا عيواظ أفندي، وهو الإمام الرئيس هنا في جامع الفاتح".

قلت ماداً يدي لمصافحته: "أتمنى أن يكون يومك جيداً أيها الإمام". لم يكن يشبه إماماً عادياً، وإنما كان شاباً حليق الذقن في بداية العقد الرابع من عمره. "كيف حالك؟".

قال مصافحاً يدي بحرارة: " الحمد لله ياكبير المفتشين، وأرجو من الله أن تكون بصحة جيدة أنت أيضاً".

قالت زينب: "كان عيواظ أفندي مفيداً جداً لنا". عندما شرحت التفاصيل، لم يسعني إلا أن أنظر حولي إلى ساحة الجامع الفسيحة، وأسأل نفسي عن الوقت الذي انقضى منذ أن زرت هذا المكان للمرة الأخيرة.

بدأ كل شيء كما يبدو مع مكالمة عيواظ أفندي الهاتفية. فقد أبلغ السلطات بأن جثة مبتورة الرأس قد وُجدت في الجامع مع اليدين المبتورتين اللتين وُضعتا على الصدر في نعش تم وضعه على منصة هناك. لم يكن هو من عثر عليها، فقد لاحظ المصلون النعش على القاعدة الحجرية في أثناء مغادرتهم الجامع، وافترضوا أنه وُضع هناك استعداداً لأداء صلاة الجنازة على الميت، وعندما لم يظهر أيّ إمام، اتصلوا بالإمام الرئيس- عيواظ أفندي- الذي أسرع إلى المكان لأداء صلاة الجنازة. شعر عيواظ أفندي بأن هناك شيئاً مفقوداً حين أدرك سريعاً أنه بالإضافة إلى غياب الإمام، لا يوجد أشخاص حزانى أو أقارب للفقيد المسكين، وأحس بأنه ملزم بالنظر إلى داخل النعش، وعندها رأى الجثة مبتورة الرأس واليدين، وسرعان ما أدرك كيف وجدت طريقها إلى أرض الجامع؛ فقد أخبره أربعة مصلّين أنهم شاهدوا الجُثة وهي تُنقل إلى هناك بواسطة شاحنة مغلقة بيضاء فيها

شخصان تنطبق عليهما الأوصاف التي قدّمها الحارس الليلي في دار ضيافة آيا صوفيا: رجلٌ ملتحٍ يضع نظارة وامرأة ترتدي برقعاً أسود. كانا قد دخلا عبر الباب الرئيس، وحمل الرجال الأربعة النعش على أكتافهم بناءً على طلب مهذّب من الرجل الملتحي ونقلوه إلى المنصة الحجرية، وقد سأله أحدهم عن سبب عدم استخدام عربة جنازة رسمية، فردَّ الرجل الملتحي بهدوء أنها مشيئة الخالق أن يلفظ عدد كبير من الناس أنفاسهم في ذلك اليوم، وألا يتمكن المجلس من تقديم عربة جنازة رسمية، وأن يتأخر الإمام لأن لديه مراسم جنازات كثيرة يؤديها. ولم يفكّر أي منهم في تسجيل رقم لوحة الشاحنة الصغيرة؛ لأن الأمر لم يثر شكوكهم.

عندما وصلت إلى الجامع، رأيت الجثة لا تزال حيث وُضعت؛ على أول منصة حجرية إلى يمين البوابة المؤدية إلى ضريح السلطان محمد. عندما اقتربنا نحن الثلاثة من النعش، تذكرت تفصيلاً مهماً ربما غفلت زينب عن ذكره أو نسيته.

"القطعة النقدية... هل وُضِعت قطعة نقدية على الجثة؟".

"إنها موجودة ياسيدي. ألم أذكرها؟". أخرجت كيساً شفافاً من حقيبة يدها وسلّمتني قطعة ذهبية تحمل كتابة تركية عثمانية على الأرجح. رفعت القطعة عالياً ليتمكن عيواظ أفندي من رؤيتها وقلت له:

"هل يمكنك أن تخبرنا بما كُتب عليها؟".

قال وهو يمسك القطعة ويمعن النظر إليها: "بكل سرور. آه، نعم، هذه بالتأكيد قطعة نقدية سُكّت في أثناء عهد السلطان محمد الفاتح. هل تريد مني ترجمة الكتابة لك؟".

قلت مبتسماً: "إذا لم يكن في الأمر مشقّة".

قال وهو يرفع القطعة النقدية عالياً: "حسناً، كُتِب على هذا الجانب ضاربن نادير ساهيبول إزي فيناسري فيلبري فيلبار ؛ أي الرجل الذي سكَّ هذه القطعة النقدية شريف ومبجّل من الله القدير". ثم قلب القطعة إلى الوجه الآخر. " سلطان محمد بن مراد هان آز نصرو قسطنطينية دوربـي في 882 ، وتعني: نصرك مؤزر أيها السلطان محمد، ابن الخان مراد. سُكّت عام 882 ، القسطنطينية. وطبعاً، تشير السنة إلى التقويم الهجري، لذا وفقاً للتقويم الميلادي لا بد أن القطعة النقدية قد سُكّت عام 1477 تقريباً؛ أي بعد أربع وعشرين سنة من فتح القسطنطينية، وقبل أربع سنوات من وفاة السلطان محمد".

قطعة نقدية أخرى، وحاكم آخر، وصرح آخر... لم يغيّر القتلة

استراتيجيتهم، وإنّما غيروا وقت العثور على ضحيتهم فقط، وهذا كل شيء، لكن السؤال يبقى: لماذا؟ كان الجواب الواضح هو أنهم فعلوا ذلك لإرباكنا وللبقاء متقدمين خطوة علينا، وربما ظنّوا أنه صار بمقدورنا معرفة الأماكن التي سيتركون فيها ضحاياهم؛ فبدّلوا أسلوبهم لهذا السبب. وعلى الرغم من جهودنا في تلك المنطقة، تبين أن تخميناتنا في ما يتعلق بموقع الضحية التالية خاطئة تماماً. عرفت أن السؤال الرئيس- بالنسبة لنا وللقتلة على حدٍّ سواء- يتعلق بمكان الجثة التالية، وبدا الجواب أمامنا؛ أحجية غامضة على شكل جثة مسجّاة عند مدخل الجامع ورأسها في علبة في مكتب ليلى باركين.

ربما كان بمقدور عيواظ أفندي إرشادنا بعد أن وصلنا إلى العثمانيين؛ ما يعني أن الضحية التالية ربما سيُعثر عليها في أحد الصروح التركية القديمة. لكن، قبل محاولة استيعاب تلك الحقائق، كانت لا تزال هناك بعض الأعمال البغيضة التي ينبغي إنجازها، ويجب أن أفحص الجثة.

تمكّنتُ- بمساعدة الإمام- من رفع غطاء التابوت، ووجدت ما وصفته زينب بالضبط عبر الهاتف، ورأيت أن الذراعين تشيران نحو إديرنكبـي، في حين وُضعت اليدان المبتورتان معاً لتبدوَا على شكل سهم يشير في اتجاه سهزادباسي. كانت هناك مساحة فارغة تثير الشفقة لا الرعب حيث كان يُفترض أن يتواجد الرأس، وتجعل المرء يفكر في جذع شجرة جُرّدت من أوراقها وأغصانها.

قلت: "أتساءل، من أين حصلوا على التابوت؟ كم يصعب الحصول على نعش؟".

"لماذا سيكون الأمر صعباً ياكبير المفتشين؟ هذا بسيط جداً، فكل ما يجب أن يقوله المرء هو إن هناك وفاة وسيخرج أبناء الحي برمّته للمساعدة". حدّق قانطاً إلى الجثة المشوّهة وقال: "هل تظن أن أشخاصاً قادرين على القيام بأعمال همجية كهذه سيشعرون بتأنيب الضمير بشأن بعض الأكاذيب البسيطة؟".

كان حزيناً لرؤيته الجثة على هذه الحال، لكنه لم يبدُ قلقاً أو منـزعجاً.

قلتُ حين رفعنا غطاء التابوت: "أنت لا تبدو منـزعجاً من رؤية الجثة".

"لا يستطيع الموتى إيذاءنا ياكبير المفتشين، أما الأحياء وأولئك الضّالون فهم الخطر الحقيقي".

سألتُ بعد أن أعدنا الغطاء إلى مكانه: "وماذا إن كان الموتى مذنبين أيضاً؟ ماذا إن كان لدى أولئك الذين يؤذونهم ما يبرر بطريقة ما أفعالهم؟ أعني، لقد بتروا يديه، ولا بد أن هذا يعني شيئاً؟ ينبغي أن يكون له معنى عميق؟".

"وحده الخالق يعلم البريء من المذنب ياكبير المفتشين. الله رب العالمين، ومولى الناس، وواهب الحياة وآخذها. لا يحق لأحد أن يأخذ على عاتقه أمر القضاء على حياة أحد مخلوقات الله، أبداً، خاصة على هذا النحو". كشّر. "وبغض النظر عن الآثام التي اقترفها هذا الرجل المسكين، فهو لا يستحق هذه النهاية".

"وماذا عن السلطان محمد؟". بطرحي هذا السؤال، لم أكن أرغب في مناقشة مكانة السلطان محمد الأخلاقية، وإنما صحة ما أخبرتني به ليلى باركين به. أردت أن أعرف إن كان القتلة قد اقتدوا بالسلطان محمد، لكن لم تكن لدى الإمام أي فكرة عمّا أتكلم عنه، فأشرت إلى التابوت. "استلهم الأشخاص الذين ارتكبوا هذه الجريمة مما فعله السلطان محمد الفاتح بعتيق سنان؛ الرجل الذي بنى هذا الجامع. فقد أمر السلطان ببتر يديه ثم قطع رأسه".

اكفهرَّ وجه الإمام؛ في تناقض صارخ مع حجارة الساحة البيضاء التي تلألأت تحت شمس أيار بعد انقشاع الغيوم.

"تلك شائعات لا أساس لها من الصحة... كيف يمكننا أن نميّز الحقائق من الشائعات التي تتعلق بأحداث جرت قبل خمسة قرون؟ فضلاً عن ذلك، لا يحق لفانين مثلنا أن يشككوا في أفعال سلطان مدحه النبـي نفسه".

قلت بلطف: "أرجو ألا تسيء فهمي". كان آخر شيء أريده هو معاداة رجل يمكن أن يزوّدنا بمعلومات قيّمة. "لم يكن قصدي الانتقاد، وإنما أريد فقط أن أعرف مدى صحة هذه الشائعات...".

ردَّ بتهذيب: "حتى إن كانت صحيحة، يجب أن ندرك أنه لولا ذلك السلطان الرائع، لرأيت كنيسة أغيوي أبوستولوي قائمة هنا بدلاً من هذا الجامع العظيم. مهّد الفاتح الطريق لأسلمة المدينة، وربما تكون القسطنطينية قد هُزمت بالسيف، لكن النصر الحقيقي هو فتح القلوب. ولفتح تلك القلوب، كان يجب أن تصبح مثالاً يحتذى، ولهذا السبب بُنيت الجوامع والصروح البديعة.

كان هذا أكثر من مجرد جامع ياكبير المفتشين، وبفضل رؤية الفاتح

أضحى أيضاً مدرسة دينية وابتدائية، ومستشفى، ودار ضيافة، وتكية، ومكتبة، وخاناً، وحماماً عاماً. أصدر السلطان محمد أمراً ببناء أكثر من جامع، ووضع أسس مدينة جديدة من أجل الإسلام".

قلت بلطف، محاولاً تحسين مزاجه: "فهمت". لكن بدا واضحاً أنه منـزعج آنذاك.

"على كل حال، الجامع الحالي ليس عتيق سنان من بناه".

قلت بصوت ارتفعت حدّته عَرَضاً: "حقاً؟! من بناه إذاً؟".

"بناه المهندس المعماري محمد طاهر آغا".

أشارت لي زينب خفية من موقعها خلف الإمام ببضع خطوات تسألني إن كان يجب أن تتدخل وتنقذني من المحاضرة التاريخية، لكن الموضوع أثار اهتمامي الشديد.

سألتُ: "إذاً، ألم يُكمل عتيق سنان المشروع؟".

قال ساخراً من جهلي ومحدّقاً إلي بدهشة: "طبعاً فعل. ولكن، بعد ثلاثة قرون من انتهاء العمل، حوّل زلزال عنيف المبنى إلى أنقاض، فعيّن مصطفى الثالث، السلطانُ في ذلك الوقت، محمد طاهر آغا لتجديد الجامع، لكن الدمار كان شاملاً، فبنى مسجداً جديداً".

نظرت حولي في أرجاء العقار، إلى المآذن المتطاولة عالياً بارتفاع أشجار الدُلب، والقبب التي تبدو مثل براعم على وشك أن تتفتح، والجدران الحجرية البيضاء، وأُطر النوافذ الخشبية.

"ولا تفكّر أبداً أن السلطان "محمد" الفاتح لم يعد معنا. فهو لم يتركنا إطلاقاً، أو يهجرنا، وستبقى روحه السامية معنا إلى الأبد في دار العبادة هذه". كان صوته يتهدّج إثارة وإيماناً، وعيناه تلمعان، وشفته السفلية ترتعش حماسةً. "ذلك الرجل الرائع موجود معنا دائماً، وظلّه لا يفارقنا إطلاقاً، وقد رأى عدّة أصدقاء مؤذنين طيفه يرتفع من بين أشجار السرو حين صدحت أصواتهم بأذان صلاة الصبح".

قال متعاطفاً معي بعد أن رأى النظرة التي بدت على وجهي: "أنت لا تصدّقني، أليس كذلك؟ لا داعي إلى القلق، فلو لم أره بأمّ عينيّ، لانتابني الشك أيضاً. نعم، هذا صحيح، رأيته بأم عينيّ؛ كما أراك الآن. حدث هذا قبل سنتين، وأتذكره جيداً. حصل ذلك في رمضان؛ فقد ظهر طيف ذلك السلطان المجيد أمام عينيّ".

ربما كان ببساطة يعاني هلوسة وظنَّ ذلك حقيقة. لكن، بغض النظر عمّا حدث، بدا جاداً كفاية لأصغي إليه. كانت زينب ترهف السمع أيضاً؛

الأمر الذي لم يكن خافياً على الإمام الذي تابع سرد قصته بحيوية أكبر.

"حدث ذلك قبل صلاة الصبح، وكنت قد وصلت إلى الجامع باكراً من أجل أداء صلاة التهدّج [32] . وعندما أنهيت صلاتي وخرجت لتجديد وضوئي، لاحظت ضوءاً داخل الجامع الخالي. ظننت حينها أنني سأُصاب بالعمى؛ فقد كان الضوء ساطعاً جداً، لكنني تعوّدته بعد مرور بعض الوقت، ثم رأيت شخصاً يتحرك ضمن النور، وأدركت أن الأنف المعقوف واللحية المشذّبة لا يمكن أن يكونا إلا لشخص يحبّه الله؛ السلطان محمد الفاتح نفسه. كان ساجداً على سجادة صلاة حريرية أمام المنبر ، والسجادة تطوف، ساكنة تماماً، على ارتفاع متر تقريباً فوق الأرض. لم أتحرك، ووقفت هناك مراقباً. وبعد مُضيّ بعض الوقت، غادرت المكان بهدوء حتى لا أزعج روحه المباركة.

في البداية، لم أخبر أحداً بما رأيته؛ خوفاً من التعرّض للسخرية، لكنني ذهبت إلى صدّيق هوتشا الذي كان رئيس الأئمة في ذلك الوقت، وأخبرته بما رأيته. شعرت بالقلق حقاً، وظننت أنه سيضحك علي أو يوبّخني أو يخبرني أنني لا أحظى بقسط وافٍ من النوم أو كنت أحلم، لكنه لم يفعل ذلك، وإنما أخذني إلى الجامع وسألني بهدوء عن المكان الذي رأيت فيه الطيف، فأشرت إلى ذاك المكان.

حينها سألني: هل أنت واثق؟ هل أنت واثق بأنه كان أمام المنبر؟

أخبرته أنني لا أشك في ذلك أبداً، وأقسمت على القرآن الكريم إنني أقول الحقيقة فاقتنع، وهمس وهو يومئ موافقاً: ضريح السلطان تحت المنبر. عندما نغادر- نحن الفانون- هذا المكان، يظهر السلطان ويتضرّع إلى الله .

كدت أخبره أن هناك خطأ من نوع ما، وأن ضريح السلطان- كما هو معروف- موجود في المدافن الملكية في الخارج؛ بعيداً عن المنبر داخل الجامع، لكنه مضى قدماً وسرد القصة المتعلقة بالأسطورة.

في أثناء عهد عبد الحميد، غمر فيضان حي الفاتح، وتعرضت المنطقة برمّتها- المنازل، والمتاجر، والجوامع، وكل شيء- إلى خطر الغمر بالماء. حينها، ظهر السلطان محمد لعدد من سكّان الحي في أحلامهم وصرخ: أنا أغرق، أنا أغرق، أنقذوني ... وسرعان ما انتشر نبأ ذلك الظهور في الأسواق والمقاهي، ووصل أخيراً إلى مسمعي السلطان عبد الحميد الذي استدعى سراً "محمد" باشا رئيس خدمة الإطفاء في الفاتح، وأمره بالذهاب إلى الضريح والحرص على عدم تعرّضه لأي ضرر. انتقى محمد باشا- من دون أن ينبس بكلمة لأحد- فريقاً مكوناً من أفضل رجاله وذهب إلى الضريح،

حيث رفعوا التابوت الحجري وبدأوا يحفرون في القبر. على كل حال، حفروا عميقاً من دون أن يجدوا أثراً لأي تابوت أو نعش، ووصلوا أخيراً إلى مصبّعة حديدية تؤدي إلى سلالم حجرية، فنـزلوا على الدرجات، ووصلوا إلى قبو ضخم تحت الأرض. تذكروا حينها أنهم في أرض كنيسة أغيوي أبوستولوي القديمة، وشعروا بالفزع حين أدركوا أنهم يقفون في المكان الذي كان أباطرة قدماء مثل قسطنطين وجستنيان يُدفنون فيه. على كل حال، بذلوا قصارى جهدهم للتغلب على خوفهم، فقد كانوا يعملون بأمر من السلطان، وبدأوا باستكشاف القبو، وسرعان ما عثروا على تابوت السلطان محمد الذي كان على قاعدة رخامية كبيرة. وعندما فتحوا التابوت، شهقوا دهشة؛ إذ لم تكن رفات سلطان السلاطين قد تحلّلت بعد.

هذا ما أخبرني إيّاه صدّيق هوتشا. طبعاً، عزا كثيرون سبب عدم تحلل الجسد- مثل جثمان أبـي أيوب الأنصاري- إلى عملية التحنيط، لكن صدّيق هوتشا ادّعى أن الجثّة السليمة والمحفوظة على نحو عجيب تخصّ السلطان، ولذا أغلق الرجال القبو والسلالم والضريح فوراً. أوضح السلطان عبد الحميد لمحمد باشا أنه ينبغي ألا يعرف أحد ما قد اكتُشف في القبو، لكنك تعرف طبيعة الناس. فقد كان محمد باشا مع مجموعة من الأصدقاء ولم يسعه إلا أن يخبرهم بما قد رآه، ومن الطبيعي أن ينتشر النبأ، وسرعان ما أصبح الحدث جزءاً من تاريخ موثق رسمياً، إلا أن البعض لا يزالون يظنون أنها مجرد شائعات وخدعة. لكن الشيء الغريب هو أن البقعة التي وُجد فيها التابوت تقع- وفقاً لصدّيق هوتشا- تحت منبر الجامع مباشرة. عبّرت عن شكوكي حينها، وأخبرته أننا يجب أن نتوخى الحرص كي لا تُضللنا أساطير أو خرافات أو شائعات، لكنه وضع يده على رأسي ونظر إلى عيني مباشرة، وهمس: لم أكن واثقاً أيضاً في البداية، لكن عندما أخبرتني أنك قد رأيته يصلي أمام المنبر، تبددت شكوكي .

أمعن صدّيق هوتشا التفكير في الأمر، وأجرى كل الحسابات الضرورية، واستنتج أن التابوت موجود مباشرة تحت البقعة التي رأيت السلطان يؤدي صلاته فيها".

لم يكن بمقدوري إبلاغه كم تبدو القصة متكلّفة حين رأيت دمعتين تسيلان على وجنتيه، وبدا تأثير التجربة كبيراً عليه.

كل ما استطعت التفوّه به كان: "رائع!". لكن ما أردت معرفته فعلاً هو المكان الذي من الممكن أن نعثر فيه على الجثة التالية. شرعت في القول: "عيواظ أفندي، في جوامع مثل هذه...".

"مثل هذه!؟ أتعني جوامع السلاطين؟".

كنت قد سمعت بجوامع السلاطين من قبل، لكنني لم أعرف ما تعنيه.

"كلمة سلاطين هي جمع كلمة سلطان بالعربية، وجوامع السلاطين مساجد بناها أو موّلها سلطان أو إحدى زوجاته، وتتميز كلها بوجود مئذنتين على الأقل، وبأنها متعددة الأغراض؛ مثل هذا الجامع الذي يُعتبر أول مساجد السلاطين، وهي تبقى مفتوحة دائماً. مُوّلت جوامع السلاطين تقليدياً من غنائم الحرب بعد حملة عسكرية ناجحة، لكن السلطان أحمد الأول خرق هذا التقليد حين أمر ببناء مسجد السلطان أحمد، رغم أنه لم يحقق نصراً عسكرياً رئيساً واحداً".

بدا ما يقوله مثيراً للاهتمام، لكننا كنا بحاجة إلى معرفة الجامع أو الصرح الذي سنعثر فيه على الجثة التالية.

"ما الجامع السلطاني الذي تم إنشاؤه بعد هذا الجامع؟".

"جامع بايزيد، وبناه ابن الفاتح السلطان بايزيد الثاني. أنا واثق أنكم تعرفون المسجد الذي أعنيه، إنه ذاك الموجود في ساحة بايزيد".

أي في الاتجاه الذي تشير يدا الضحية إليه... هل كان القتلة يحاولون إرشادنا إلى هناك؟ لا بد أن عيواظ أفندي قد لاحظ نظرة الاستغراق في التفكير التي بدت على وجهي، فقد تابع:

"لكن، إذا سألتني فسأقول إن أجمل جوامع السلاطين هو من دون شك جامع السليمانية".

تعرّف نماذج

يطل جامع السليمانية على المدينة من تلة عالية.

مدّت زينب يدها ونقرت بالمسطرة على الخريطة، وتحديداً على جامع السليمانية، وبدت شخصيةً رزينة ومحترفة في أثناء فحصها الخريطة التي تحمل صوراً للقصور، والكنائس، والأحواض، والجوامع، والمدارس الدينية، والنوافير، والقبور، والصروح الرئيسة الأخرى التي ترجع إلى العصور البيزنطية والرومانية والعثمانية. حدّدت مربعات حمراء، مرقّمة من 1 إلى 5 ، المواقع التي عُثر فيها على الضحايا:

المربع 1 - سارايبورنو: معبد بوسيدون، نجدت دينيزل (عالم آثار ومؤرخ فني)، عملة الملك بيزاس.

المربع 2 - ساحة سمبرليتس، عمود قسطنطين، مقدّر كيناسي (مخطط حضري)، عملة قسطنطين.

المربع 3 - يديكول، ألتين كابـي، سادان دوروكا (صحفي)، عملة ثيودوسيوس الثاني.

المربع 4 - السلطان أحمد، متحف آيا صوفيا، تيومان أكّان (مهندس معماري)، عملة جستنيان.

المربع 5 - جامع الفاتح وقصر توبكابـي، فضلي غموس (نائب عمدة سابق)، عملة السلطان محمد.

كنا نتفحص الخريطة؛ محاولين اكتشاف المكان الذي قد نعثر فيه على الجثة التالية.

قالت زينب وهي لا تزال تشير بمسطرتها إلى جامع السليمانية: "أتفق مع عيواظ أفندي، سيتركون ضحيتهم التالية هنا، عند جامع السليمانية. كان السلطان سليمان أعظم سلطان بعد السلطان محمد، وجامع السليمانية هو أروع صروحه".

قلت والألم الذي أشعر به في ظهري يرغمني على الانحناء إلى الأمام: "لكن، سنكون قد تجاوزنا سلطانين عظيمين حكما بعد محمد الفاتح وقبل سليمان؛ وهما ابن السلطان محمد بايزيد الثاني، وحفيده السلطان سليم الأول، وكل منهما بنى جامعاً باسمه. يمكن أن نُغفل جامع السلطان سليم الأول حالياً؛ لأن يدي فضلي غموس كانتا تشيران في الاتجاه المعاكس. على كل حال، ربما يستحق جامع بايزيد أن نأخذه بالحسبان".

لم تجادل زينب، وكيف لها أن تفعل ذلك؟ ففي أربعة أيام فقط،

كان القتلة قد نقلونا في رحلة تمتد ألفي سنة من بيزنطية الملك بيزاس إلى القسطنطينية عاصمة السلطان محمد، واقترفوا خمس جرائم في تلك المدة القصيرة. لذا، لم تكن لدينا أدنى فكرة عن خطوتهم التالية...

قال علي: "خطر لي أمر ما للتو؛ أمر قد غفلنا عنه تماماً".

عندما كنت وزينب نحقق في الأحداث المحيطة بجثة نائب العمدة السابق مبتورة الرأس التي تُركت في جامع الفاتح، ذهب علي إلى مكاتب شركة الشحن ليحاول العثور على الشخص الذي أرسل الرأس في طرد بريدي إلى ليلى باركين، وعاد بالأوصاف نفسها التي اكتشفناها سابقاً: رجل ملتحٍ يضع نظارة، وامرأة ترتدي "برقعاً". بدا أن القاتل قدّم بطاقة هوية في مكتب الشحن كما يفرض القانون، وتبين أنها هوية مقدّر كيناسي.

قال علي، وهو يبتعد عن النافذة ويقترب من الخريطة: "كنا نعمل حتى الآن على افتراض أن القتلة يحددون أفعالهم وفقاً لرؤيتهم تاريخ إسطنبول، أليس كذلك؟ يحتمل أن نكون قد أسأنا فهم العملية برمّتها. فربما كانوا يعملون وفقاً لعوامل جغرافية وليس وفقاً لمعيار تاريخيّ".

ما الذي يهذر به الآن؟

سأل علي وهو ينقر بإصبعه على منقار النسر الذي يدفع رأسه نحو بحر مرمرة على الخريطة: "بُنيت إسطنبول على سبع تلال، أليس كذلك؟ الآن، على أي تلة بُنيت ساراييبورنو؟".

قلتُ: "الأولى. ولكن، ليس ساراييبورنو فقط، وإنما قصر توبكابي، وآيا صوفيا، والسلطان أحمد على تلك التلة أيضاً".

سأل مشيراً إلى صورة عمود قسطنطين على الخريطة: "ماذا عن عمود قسطنطين؟".

"إنه على التلة الثانية".

سحب نفساً عميقاً وكشّر. "الثانية؟ جيد جداً...".

تململتُ على مقعدي لأخفي الألم الذي أشعر به في ظهري وراقبته بحرص؛ محاولاً اكتشاف ما يرمي إليه.

"وماذا عن جامع السليمانية؟".

قلت وأنا أقف على أمل أن يريحني ذلك قليلاً: "ليس جامع السليمانية وحده على التلة الثالثة ياعلي، وإنما ساحة بايزيد على تلك التلة أيضاً. وفي ما يخص جامع الفاتح، فهو على التلة الرابعة".

"هذا ما أحاول قوله. ماذا إن كانت الإشارات إلى الأباطرة والسلاطين، والقطع النقدية مجرد ستارة دخانية؟ ماذا لو كان القتلة يتركون ضحاياهم

على التلال؟".

ليت الأمر سهل كما يقول. فإذا كان ما يقوله صحيحاً، فلن نعرف متى ستتوقف جرائم القتل فقط، وإنما مكان ترك الجثة التالية أيضاً. لكن، لسوء حظنا، بدت فرضية علي مليئة بالأخطاء.

"كل هذا جيد ياعلي. لكن، ماذا عن ألتين كابـي؟ إنها لا تقع على أي من التلال...".

قال علي محبطاً على نحو واضح: "حقّاً؟".

"لا". أخذتُ المسطرة من زينب، وقلت مشيراً إلى جامع السلطان سليم الأول ثم إلى جامع السلطانة ميهريمه في إديرنكبـي: "هذه هي التلة الخامسة، وهذه هي السادسة". أنـزلت المسطرة وتوقفت عند الجرّاح باشا. "وهذه هي التلة السابعة؛ الأعلى". منحته بعض الوقت ليستوعب الحقائق. "إذا كانت فرضيتك صحيحة، فإن ترك ثلاث جثث على التلة نفسها- عند سارايبورنو، وآيا صوفيا، وقصر توبكابـي- لا يبدو منطقياً إطلاقاً، وكذلك الأمر بالنسبة إلى إرسال جزأين من الجثة نفسها إلى تلتين مختلفتين. لكن هذا ما فعله القتلة بالضبط، فقد وضعوا جثة فضلي غموس في جامع الفاتح على التلة الرابعة، وأرسلوا رأسه إلى مكان يقع على التلة الأولى. على كل حال، الأهم من كل هذا، أنهم تركوا ضحيتهم الرابعة عند ألتين كابـي، أي خارج كل التلال".

سرت موجة قنوط في الغرفة، لكن لم يكن الاستسلام للإحباط خياراً بالنسبة إلينا، وتابعنا البحث عن دليل؛ أو عن نوعٍ من الاختراق.

صرخ علي غاضباً: "لماذا لا نجلب ذلك الجرّاح اللعين إلى هنا؟ لنفتّش مقر مجموعته ولنحجز شاحنتهم اللعينة...".

"وماذا إن لم تتمخض عن ذلك أي نتائج؟". كانت زينب محبطة أيضاً، لكنها حافظت على هدوئها؛ على عكس علي. "ماذا سنفعل إن اتضح أن شاحنتهم نظيفة؛ مثل شاحنة عمر؟".

كنت قد نسيت عمر وأشقاءه الورعين تماماً.

"بالحديث عنهم، ما آخر أخبارهم؟".

"نُقلوا إلى مكتب المدعي العام هذا الصباح أيها المدير. وقد أدلوا بإفاداتهم ثم أُطلق سراحهم".

كان هناك احتمال كبير بأن يحدث الشيء نفسه مع نامق قرمان. بدا بديهياً أنه إذا كان نامق ورابطة الدفاع عن إسطنبول خلف عمليات القتل تلك، فلن يتركوا أي دليل يجرّمهم في مكاتبهم أو شاحنتهم. إذ إنّ

مجموعة يتمتع أفرادها بمهارات وكفاءة كبيرة هي التي اقترفت تلك الجرائم، ولن يكونوا أغبياء أو مهملين جداً، ولن يتركوا دليلاً.

قلت: "إذاً، يبدو أننا سنضطر إلى تعقّب نامق قرمان وعصابته الصغيرة. الآن، أصغيا جيداً إلى ما سأقوله؛ يجب أن نكون واثقين جداً بهذا الشأن، وإلا فسيكون من المستحيل أن تُمنح مذكرة تفتيش أخرى، وسيضعنا مكتب المدعي العام على مائدة الفطور الخاصة به. يجب أن نراقب كل خطواتهم؛ بغض النظر عن أهميتها. وإذا كانوا خلف هذا كله، فكونا على ثقة بأنهم يراقبون كل تحرّكاتنا أيضاً".

جأر علي: "وعندما يخطئون، تهبُّ ليلى باركين لمساعدتهم دائماً. هل لاحظت السرعة التي تعافت بها من الصدمة حين رأت ذلك الرأس المبتور على طاولتها؟".

"الأهم أنها لم تعتبر الرأس المبتور تهديداً لها".

"يا الله! نعم، لم أفكر في هذا مطلقاً. فالمنطقي أن تطلب منا حماية من نوعٍ ما".

"هذا ما أحاول قوله ياعلي. لذا، يجب أن نُبقي عيوننا وآذاننا مفتوحة. فقد يحدث أي شيء، وينبغي أن نكون مستعدين، ولا يمكن أن نترك أي شيء- وأعني أي شيء- للمصادفة. إذا لم يحدث الأمر الليلة، فسيُقدمون على خطوتهم غداً، وربما هم يتحركون الآن. كل ما أعرفه هو أنهم أجهزوا بالتأكيد على ضحيتهم التالية؛ ما يعني أنهم سيتخلصون من الجثة في مكان ما قريباً". وأشرت إلى الجامعين السلطانيين على التلتين المطلّتين على القرن الذهبي. "وذلك المكان ربما يكون أحدَ هذين المسجدين".

كان كلاهما يصغيان بصمت.

"أريد طوقاً أمنياً حول جامعي بايزيد والسليمانية الليلة؛ طوقاً مُحكَماً لكنه غير ظاهر للعيان. هذا ليس كل شيء أيضاً، فقد نكون مخطئين بشأن نامق. زينب، ذَكَرتْ ليلى باركين محاكمة تتضمن كلاً من آدم يزدان وفضلي غموس".

قالت زينب متململة بعصبية: "لا ذكر لمثل تلك المحاكمة في ملفه. هل تظن أنها تحاول خداعنا؟".

"ربما. لكن، ألقي نظرة على كل حال. إذا كانت هذه المحاكمة حقيقية، فأنا أريد أسماء الأشخاص الذين كانوا في تلك اللجنة الاستشارية التي ذكرتها".

"فوراً ياسيدي. بالمناسبة، هل تتذكر ياعلي الرجل من مجلس المدينة؟ ذاك الذي زرته؟".

"نيازي؟ الرجل الذي كان يعمل مع مقدّر كيناسي؟".

أجل. لقد ترك لك مغلفاً حين كنت في الخارج. أخبره حرّاس الأمن أنهم سيأخذون المغلّف ويحتفظون به حتى تعود، لكنه بدا مهتماً جداً بتسليمه إليك شخصياً. وفي النهاية، أرسلوه إلى مكتبـي، غير أنه أصرَّ على تسليمك المغلّف شخصياً؛ ثم سلّمني إيّاه في النهاية متردداً".

قال علي: "لا بد أنه أحضر لائحة بأسماء الأشخاص الذين عملوا في اللجنة الاستشارية". لاحظت أن الحماسة قد عادت إليه، ورأيت وميضاً في عينيه مرة أخرى.

"على الأرجح. هناك أسماء كثيرة في اللائحة، وأنا لا أعرف جميع الشخصيات الواردة أسماؤهم فيها".

"هل ورد اسم أي من الضحايا فيها؟".

"نعم. إن اسم كلّ من نجدت دينيزل، ومقدّر كيناسي الذي يمثّل المجلس في اللجنة، وتيومان أكّان المهندس المعماري الذي وجدنا جثته أمس في آيا صوفيا مذكورة فيها، واسم نائب العمدة السابق على الأرجح أيضاً. على كل حال، إنهم جميعاً أعضاء في لجان مختلفة".

"هل أيٌّ من الضحايا عضو في لجنة مشروع آدم يزدان في السلطان أحمد؟".

"توثّقت من هذا ياسيدي. لكن، لا يبدو أن أحداً منهم في تلك المجموعة الخاصة".

قد يكون مشروع آدم يزدان كارثة للمدينة، لكن ذلك لا يجعله قاتلاً بالضرورة، وربما يتبين أنه شخص مختلف تماماً عمّا كنّا قد تخيلنا، وبريء حقاً.

جلست بعد أن أدركت أن الألم في ظهري لن يختفي. رأى علي النظرة على وجهي فقال بمرح: "لا تقنط أيها المدير. كل ما نعرفه هو أن الضحايا ربما كانوا أعضاء في لجنة فرعية تعمل على تلك المحاكمة التي ذكرتها ليلى باركين".

لم يسعني إلا أن أضحك، ليس على حظنا السيئ وإنما على مزاجه المتغير باستمرار.

قال مسيئاً فهم سبب ضحكي: "بالضبط ياسيدي. ربما سنلقي القبض على نامق ذاك متلبّساً".

لم يكن هذا الاحتمال مستبعداً، لكن بعد أربعة أيام من العقبات وخيبات الأمل، بدا التفاؤل ترفاً لا يمكننا تحمّله.

قلت مبتسماً لإخفاء كآبتي: "آمل هذا ياعلي. وأتمنى أن نقبض على المجرمين الليلة...".

ملاحقة الشاحنة المغلقة البيضاء

لم أظن أن القتلة سيُقدمون على خطوتهم تلك في هذه الليلة. فبعد اثنتي عشرة ساعة فقط من تركهم تيومان أكّان في الشارع بجانب آيا صوفيا، أرسلوا رأس فضلي غموس إلى توبكابي وجسده إلى الفاتح. إضافة إلى ذلك، كانوا يعرفون الآن أننا لمحناهم ورأينا شاحنتهم المغلقة. لكن، لنتوثق من عدم حدوث مفاجآت، قمنا باتخاذ بعض الإجراءات الضرورية. كان ممتاز يواجه وقتاً عصيباً منذ أن عرفت الصحافة بالقصة، وشعر بسعادة بالغة بالاستجابة لمطالبنا ما دام ذلك سيضع حداً لعمليات القتل. لذا، كلّفنا ثمانية عشر رجلاً بالمراقبة؛ في فريقين يتألف كل منهما من تسعة أشخاص موزّعين حول جامعي السليمانية وبايزيد ومرتدين ملابس مدنية. وفي ما يتعلق بنامق، فقد راقبناه بأنفسنا.

استقللنا سيارة علي، وأوقفناها في المساحة الخالية بجانب خطوط السكة الحديدية بعد آيا صوفيا الصغيرة؛ حيث يمكننا رؤية منزل نامق وليلى. كانت كل المصابيح منارة، غير أننا لم نلحظ أثراً لأي نشاط في الساعات الثلاث التي انقضت؛ منذ أن جاء الاثنان إلى الدار. فلا شيء مشبوه، ولم يأتِ أيّ زائر أو يغادر أحد المكان. بدا أن النشاط الوحيد في تلك المنطقة ناجم عن قعقعة قطارات ركاب الضواحي وهي تمر كل عشرين دقيقة. ولم يخبرنا الفريقان عند الجامعين عن أي سلوك غير معتاد أيضاً. شكرت زينب على المسكّن الذي أعطتني إياه، واسترخيت على مقعدي.

"هل تعرف أيها المدير أن هذا القبر يضم جسد رجل مبتور الرأس أيضاً". كان علي يشير إلى قبر في ساحة المسجد. "قُطع رأس الشخص المدفون في ذلك القبر هناك".

ما الذي كان هذا الأحمق يغمغم به الآن؟

"أي رجل؟".

"إنّه وغد سيئ الطالع اسمه حسين، ويدعونه "حسين" مقطوع الرأس. كان حارساً عند إحدى بوابات قصر توبكابي الثلاث، وهو سبب تحويل هذا المكان إلى جامع".

نظرت إليه مندهشاً. أفترض أنه يمكنني القول إن الشيء الوحيد الجيد الذي سيتمخض عنه هذا التحقيق هو أننا نطّلع على معلومات تاريخية عن إسطنبول كنا سنبقى غافلين عنها بخلاف ذلك.

سألتُ: "وكيف تعرف عن هذا الأمر؟". لو أنه عزا الأمر إلى الفضول،

وقال إنه قرأ عن ذلك لما كنت قد صدّقته، لكن الأحمق الغر أجاب بصدق.

"أخبرتني زينب بذلك هذا المساء، حين كنت في مكتب ممتاز. يبدو أن "حسين" ذاك لم يكن صالحاً. لا أعرف حقيقة الأمر- رشى، احتيال، سرقة، لا أدري- لكن، يبدو أنه اقترف جريمة خطرة. ما اسم ذلك الرجل في القصر، ذاك الشخص المسؤول عن الأمن وكل تلك الأمور؟".

" باستانسيبازي ، الجلاّد".

"ذلك هو. على كل حال، جمع باستانسيبازي رجاله وبدأ البحث عن حسين، فوجدوه عند مدخل الجامع. عندما رأى حسين باستانسيبازي ، أدرك أن اللعبة قد انتهت فاندفع هارباً. لكن، لم يكن هناك مكان ليختبئ فيه، ولحق به الحرّاس، وقطعوا رأسه بضربة سيف واحدة. سقط الرأس إلى الأمام فيما كان حسين لا يزال يجري ووقع في حجره. استطاع حسين اجتياز خطوتين أخريين ورأسه بين يديه قبل أن يسقط أخيراً على الأرض. وقد عُرف منذ ذلك الوقت بحسين مقطوع الرأس ". كان بصره لا يزال على القبر المنار بأضواء حمراء باهتة. "ما لا أفهمه هو لماذا بنوا ضريحاً لرجل وُجد مذنباً بجريمة وقُطع رأسه؟".

"هذا بسيط حقاً ياعلي. لقد دفع الرجل حياته ثمناً لجريمته. وفي الوقت نفسه، بتحويل هذه الكنيسة إلى جامع فقد أسدى المسلمين والإسلام خدمة جليلة، لذا كوفئ بدفنه في هذا المكان، وسُوّي كل شيء في النهاية".

"أنت محق، كما أفترض". استدار وكشّر. "كان العثمانيون قوماً غريبي الأطوار، أليس كذلك؟ مهلاً، ماذا يحصل هناك؟".

رأينا شاحنة مغلقة بيضاء قادمة نحونا، وتقترب ببطء من المنزل في كاتلاديكابي. عندما ظننت أنني ربما أكون مخطئاً وأن الضحية التالية لن تظهر الليلة، لاحظت إحدى الستائر في المنزل تُفتح، وبدا من الصعب أن أرى الوجه بوضوح أو أتمكن من معرفة الشخص الذي يقف هناك؛ بسبب الضوء المنبعث من الخلف، لكن ذاك الشخص مال إلى الخارج، وأشار إلى سائق الشاحنة البيضاء ثم عاد إلى الداخل.

قال علي: "ما كل هذا إذاً؟". كان كلانا على أهبة الاستعداد آنذاك، وكنّا نركّز على ما نراه تماماً.

توقفت الشاحنة المغلقة أمام المبنى، وانطفأ الضوء في حجرة الجلوس. كنا نراقب باب الشقة الأمامي، لكن باب الشاحنة فُتح أولاً، وخرج منها الشاب أحمر الشعر الذي كنا قد رأيناه في رابطة الدفاع عن إسطنبول،

وألقى نظرة عصبية نحو الشارع ثم صعد إلى الشقة. فُتح الباب وخرج ثلاثة أشخاص. كانوا يتحركون بانسجام كما يبدو... وكانوا يحملون شيئاً ما، لكنني لم أتمكن من معرفتهم أو من معرفة ما يحملونه.

"ما هذا!؟". دفع علي نفسه إلى الأمام كثيراً، وكاد أنفه يلامس الزجاج الأمامي. "يبدو أنهم يحملون سجادة...".

إذا كانت سجادة، فإلى أين يأخذها هؤلاء الأشخاص في هذا الوقت من الليل؟ وما الذي يجعل الشاب أحمر الشعر متوتراً جداً؟

قال علي ويده تنتقل إلى مسدسه فطرياً: "أظن أنهم قد لفّوا الجثة بتلك السجادة. ما رأيك أيها المدير؟ هل نستدعيهم إلى هنا؟".

"ليس بعد ياعلي، يجب أن نكون واثقين مئة بالمئة. ينبغي أن ننتظر قليلاً إن أردنا اعتقالهم متلبسين بالجريمة".

أصبحوا آنذاك خارج المنـزل، واستطعت تمييز وجوههم بوضوح أكثر بقليل تحت أضواء آيا صوفيا الصغيرة. رأيت ثلاثة أشخاص يحملون ذلك الشيء؛ "نامق" قرمان في المقدمة، ورجلين ضخمين لم أرهما من قبل خلفه. ربما كانا من رابطة الدفاع عن إسطنبول؛ عضوين لم يكونا موجودين حين زرنا المكتب، لكن قد لا تكون لهما أي صلة بالرابطة إطلاقاً، وتمّت الاستعانة بهما لإراقة الدماء فقط.

همس علي: "هناك شخص يقف عند النافذة، ولا يمكنني تمييز ملامحه. لكن، يبدو أنها امرأة".

أهي ليلى باركين؟ لم أتوثق من ذلك.

فتح الشاب أحمر الشعر الباب الخلفي، وراقبهم الظل في الشقة حين وضعوا حمولتهم الغامضة في مؤخر الشاحنة، وصعدوا إليها ثم انطلقوا مبتعدين.

قلت وأنا لا أزال أراقب الظل في الشقة: "أدر محرك السيارة". عندما مال الشخص الذي يقف قرب النافذة إلى الأمام ليشاهد الشاحنة في أثناء مغادرتها، غمر ضوء مصباح الشارع وجهه؛ إنها ليلى باركين. توقفت؛ وكأنها أحسّت بأن شخصاً ما يراقبها، واتجه بصرها نحونا. وقفت هناك قليلاً وهي تنظر وتصغي بصمت لترى إن كان هناك شيء يُنذر بالخطر أو غير معتاد. وعندما شعرت بالرضا، استدارت وعادت إلى الداخل.

"لنذهب ياعلي، لا يجب أن نضيّع أثرهم".

قال علي وهو يضغط على دواسة الوقود: "لا تقلق أيها المدير، إنهم في مجال رؤيتنا الآن، ولن يذهبوا إلى أي مكان".

تبعنا الشاحنة المغلقة حتى نهاية الشارع، ثم التففنا وراءها إلى اليمين؛ في طريق يقود إلى كانكورتاران المزدحم عادة بالسياح، ولكنه كان هدئاً جداً في ذلك الوقت من الليل. ظننت أننا سنفقد أثرهم حين توقفت شاحنة نفايات ضخمة أمامنا. فقد اضطررنا إلى الانتظار ريثما أنهى الرجال عملهم، لكن "علي" رآهم على بعد خمسين متراً تقريباً أمامنا وهم يتجاوزون فندقاً. كانت هناك سيارة أخرى بيننا وبين الشاحنة؛ لاندروفر سوداء كبيرة بقيت خلف الشاحنة المغلقة أيضاً.

"هل تظن أن هذه السيارة جزء من مكيدتهم أيها المدير؟".

لم يكن ذلك مستبعداً. فقد افترضنا أن رابطة الدفاع عن إسطنبول منظمة شرعية، لكن إذا كانت حقاً غطاءً لنشاطات إرهابية، فلن يكون أمراً صعباً أن تحظى بكل أنواع الدعم اللوجستي.

"سنكتشف هذا قريباً ياعلي. أبطئ السرعة؛ لأننا لا نريدهم أن يشاهدونا...".

خفّف علي الضغط على دواسة الوقود وابتعد عنهم قليلاً، وترك شيفروليه رمادية وأوبل قرمزية تشغلان المساحة أمامنا. أبطأت الشيفروليه سرعتها وتوقفت إلى اليمين بعد بضعة أمتار، في حين سلكت الأوبل المخرج المؤدي إلى السلطان أحمد عند التقاطع التالي، وواصلت الشاحنة البيضاء طريقها إلى الساحل؛ ممّا جعلنا نتبع الجيب مجدداً.

"يبدو أنهم يتجهون إلى كانكورتاران أيها المدير. كنا على هذه الطريق صباحاً، وهي تؤدي إلى مكاتب آدم يزدان".

وقف الشعر على قفا رأسي، وخطر لي فجأة أن يزدان ربما سيكون الضحية التالية. ما الذي كانوا يحملونه في تلك الرزمة الملفوفة؟ وهل أحضروا السجادة، أو لفافة القماش لإخفاء جثة يزدان وحملها؟ أياً يكن الأمر، فقد رآها علي. وصلت كلٌّ من الشاحنة المغلقة، والجيب التي كانت تسير خلفها على بعد عشرين أو ثلاثين متراً إلى كانكورتاران. بقينا خلف الجيب حين أبطأت سرعتها في شارع دار السعادة للسياحة، لكن الشاحنة البيضاء تابعت طريقها وصولاً إلى هدفها. لاحظ سائق الجيب أن الشاحنة البيضاء قد انعطفت عند الزاوية فزاد سرعته، في حين تبعناهم من مسافة آمنة، وطلبت من علي أن يوقف السيارة عند المنعطف قائلاً له: "مبنى المكاتب يقع بعد المنعطف، لذا، لنترك السيارة هنا. سنكون بأمان أكبر إن تبعناهم سيراً على الأقدام".

وقبل أن نخرج من السيارة، أجريت اتصالاً لأطلب دعماً فورياً. ذخّرنا

سلاحينا، ثم خرجنا وسرنا بحذر، وكدنا نستدير إلى الشارع حين سمعنا أصواتاً تصرخ.

"احذر، إنه يحمل عصا!".

"آه! ابتعد عني ياابن -!".

"- الوحيدة هنا هي أمك!".

"آه!".

"كان يجب أن تفكّر ملياً قبل أن تأتي إلى هنا أيها الحثالة!".

جهّزنا سلاحينا، وانعطفنا إلى الشارع راكضين، فقوبلنا بعراك بالعصي والهراوات ومضارب كرة القاعدة. رأيت أركان وحارسي الأمن اللذين سبق لنا أن رأيناهما في الصباح في دار السعادة يهاجمون "نامق" قرمان وأصدقاءه بمضارب كرة القاعدة، ويلوّحون بها بقوة في حين تنهال الضربات على كل مكان في أجسادهم. بدا أن أول من تلقى الضرب هو الفتى ذو الشعر الأحمر الذي كان يقود الشاحنة. ورأيته يتلوّى على الأرض متألماً؛ في حين يبذل اثنان من رفاقه في رابطة الدفاع عن إسطنبول قصارى جهدهما لتفادي الضربات التي أرغمتهما على التراجع. أمسكتُ رجلنا المقاتل بعد أن بدا على وشك أن ينضم إلى المشاجرة.

كان نامق وأركان يتعاركان مع بعضهما، والشرطي السابق يكافح ليتخلص من نامق الذي يمسك به من ذراعيه لمنعه من استخدام عصا ضخمة يحملها. وبعد صراع قصير الأمد، قام نامق بخطوة غير متوقعة إطلاقاً؛ فقد تراجع مثل ملاكم قديم ومتمرّس إلى الخلف على عقبيه، وأرجع رأسه إلى الوراء...

ضحك علي بمرح قائلاً: "آه اللعنة! أنف أركان على وشك تلقي مفاجأة بشعة صغيرة".

دفع نامق رأسه مباشرة نحو منتصف وجه أركان، فترنّح الشرطي السابق إلى الخلف، ووقعت العصا من يديه، فأمسكها نامق وضرب بها صدر أركان، وجعله يسقط على درجات مبنى دار السعادة متكوّراً. عرفت أنه ستنقضي عشر دقائق إلى خمس عشرة دقيقة لينهض أركان على قدميه مجدداً، وأدرك نامق أن أركان قد فقد وعيه، فأسرع وهو لا يزال يحمل العصا لمساعدة أصدقائه. وعندما كاد يضرب أحد حارسي الأمن على رأسه، أطلقت ثلاث رصاصات في الجو، فاستداروا جميعاً وتجمّدوا في أماكنهم.

صرخت: "ضعوا الأسلحة جانباً، وارفعوا أيديكم!".

فعل الرجلان ما طُلب منهما فوراً، لكن "نامق" كان لا يزال يشعر

بالصدمة من الهجوم غير المتوقع؛ لأنه حدّق إلينا مشدوهاً.

"ضعها جانباً أيها العجوز، ولن أطلب منك هذا مجدداً".

كان لا يزال محتاراً.

جأر علي: "ارمِ العصا اللعينة الآن!". لكن، بدلاً من الامتثال للأمر مباشرة، أشار نامق إلى الرجال.

"لقد هاجمونا! ومن دون أي استفزاز أيضاً!".

أشرت له بالمسدس. "يمكن أن تخبرنا كل شيء لاحقاً. ارمِ العصا".

نظر حوله وأدرك أن لا خيارات أخرى لديه، فرمى العصا أرضاً، لكن ليس من دون تذمر.

"لو رأيت ما حدث، لعرفت ما يجري هنا".

"من الأفضل أن تستدعي سيارة الإسعاف ياعلي". بدا الفتى أحمر الشعر وأركان الذي كان لا يزال ملقى على الدرجات، في حال يرثى لها. "في ما يخصكما أيها الشابان، يمكن لأحدكما أن يذهب ويتوثق من المصاب".

تقدمت من نامق بضع خطوات.

"ماذا تفعل هنا؟". حدّق إلي بصمت. "نعم أيها الطبيب، ماذا كنت بالضبط تفعل هنا في عقار هذه الشركة في منتصف الليل؟". وأشرت إلى قطعة قماش تتدلّى من مؤخر الشاحنة. "وما هذه؟".

التزم الصمت.

هل جثة آدم يزدان هناك حقاً؟ ألهذا السبب ثارت ثائرة أركان ورجليه؟ لأنهم رأوا جثة زعيمهم؟

قلت مدركاً أنني لن أحصل على كلمة من الجرّاح: "علي، افتحها، ولنرَ ما لديهم هناك".

سحب علي قطعة القماش، ورفعها من الجانبين ثم فتحها.

لم تكن هناك جثة في الداخل، وإنما صورة ضخمة مطبوعة على القماش، تبلغ أبعادها ثلاثة أمتار على الأقل بعشرة؛ صورة كبيرة لآدم يزدان الشرير، وعصاه ذات المقبض العاجي تستقر مثل رمح في شبه جزيرة إسطنبول التاريخية التي كانت عند قدميه، وعبارة ″آدم يزدان، أبعد يديك عن السلطان أحمد!″ مطبوعة في الأسفل بحروف حمراء كبيرة.

سخر نامق بعد أن رأى إحباطنا: "ماذا؟ هل كنتما تأملان العثور على جثة لعينة هناك؟".

أهداف متطابقة

لم يكن عدم وجود جثة ملفوفة بالقماش يعني أن "نامق" وعصبته أبرياء. وبدت حقيقة قيامنا بتعقّبهم إثباتاً كافياً لهم بأنّنا لا ننظر إليهم على نحو إيجابـي. وبحلول نهاية الليل، وصلنا إلى طريق مسدود. فإذا كان أفراد رابطة الدفاع عن إسطنبول هم الجناة، فقد عرفوا بالتأكيد أنهم مشتبه فيهم محتملون، لكنهم الآن أضحوا متيقنين من أنهم على شاشة رادارنا، وأن لدينا ما يكفي لملاحقتهم ومراقبتهم. أخبرنا "نامق" بذلك حين سخر منا؛ لأننا توقعنا العثور على جثة داخل اللفافة القماشية.

لتخفيف توتر نامق وتبديد شكوكه اصطحبته إلى مكتبـي لإجراء محادثة غير رسمية؛ بدلاً من جعلهم يأخذونه إلى الزنـزانات مثل باقي المشتبه فيهم، وأدركت أن ليلى باركين ستعرف قريباً بما حدث، ولن تهدر وقتاً في طلب توضيح. لم أُشرك "علي" في ذلك أيضاً؛ لإبقاء الأمر هادئاً وغير رسمي قدر المستطاع. وقد بدا منـزعجاً في البداية، ولكن عندما أخبرته أنني سأترك حرّاس الأمن له، أشرق وجهه بابتسامة عريضة وعرفت أنه أحب فكرة مواجهته الصغيرة الوشيكة مع الرجلين القاسيين تحديداً.

كان نامق متشككاً في البداية، لكنه عرف - بوصفه ضيفاً دائماً على الشرطة - أن الإجراءات المتّبعة لن تُطبّق عليه في اللحظة التي وضع فيها قدمه في مكتبـي وعرضت عليه أن يجلس.

سأل بارتياب: "لماذا نحن هنا؟ ماذا تحاول أن تفعل؟".

"مجرد حديث ياسيد قرمان. أريد فقط أن أعرف ما كنت تفعله في مكتب آدم يزدان في منتصف الليل".

قال وهو لا يزال واقفاً وقد وضع يده على الكرسي: "وكأنك لا تعرف".

"حسناً، رأينا اللوحة، لذا أفترض أن هناك مظاهرة من نوعٍ ما، هل هذا صحيح؟". تلاشى قلقه، لتحلَّ محله نظرة عدم تصديق، فيما تابعت قائلاً: "أنت لا تتوقع مني أن أعرف الآن، أليس كذلك؟ فأنا لست عضواً في منظمتك".

قال وهو يبتسم أخيراً: "صحيح، لكن يمكنك الانضمام إلينا. أمل ليلى فيك كبير، وهي تقول إنك تحب هذه المدينة".

بدا أنه قد وجد أرضية مشتركة.

"ربما ليس بما فيه الكفاية للخروج في منتصف الليل والمشاركة في

مظاهرات محفوفة بالمخاطر. لكن نعم، أنا أحب إسطنبول فعلاً. أعيش في بلاط، بجانب شاطئ القرن الذهبي، وأجدادي وأحبائي مدفونون هناك. يعيش أفضل أصدقائي في هذه المدينة، وأعمل هنا، وكل ذكرياتي العزيزة عن هذه المدينة وفيها، وآمل أن أقضي أيامي الأخيرة هنا. إذاً، كما تقول الآنسة باركين، أنا أحب إسطنبول حقاً". أشرت إلى الكرسي أمام طاولتي مجدّداً وأنا أقول: "اجلس من فضلك".

قال وهو يسترخي أخيراً- موافقاً على الهدنة المؤقتة- ويجلس: "أعتذر، لكنني لست معتاداً على هذا النوع من المعاملة في مقر قيادة الشرطة".

"العالم يتغير ياسيد قرمان، ما يعني أننا يجب أن نتطوّر أيضاً. ماذا عنك؟ ألم تتغير بمرور الوقت؟".

"على الرغم من أنك لن تصدّقني على الأرجح، إلا أنني تغيّرت فعلاً. ولو صدّقتني، لما كنت قد أمضيت الكثير من وقتك الثمين في مراقبتنا".

تنهّدت قائلاً: "يبدو بغضك لنا شديداً". رأيت نظرة عدم يقين في عينيه. "على كل حال، ستعرف بنفسك أن مثل هذا البغض والآراء المسبقة أكبر عقبة أمام التقدم".

اختفى عدم اليقين وظهرت عوضاً عنه نظرة حيرة. "لقد أدنتمونا مسبقاً بوصفنا مؤسسة أمنية ياسيد قرمان. ونعم، أعترف أنه ربما تكون لديك أسباب وجيهة لتكنّ لنا مثل هذه المشاعر السلبية. لقد درست ملفك وأعرف أنك مررت ببعض التجارب المريرة مع الشرطة، لكن هذا حدث في الماضي ويجب أن يبقى هناك".

"إذاً، لماذا تلاحقوننا؟".

كانت حجتي المضادة جاهزة. "لم نكن نسعى خلفكم".

سأل: "ما الذي كنتم تبحثون عنه في دار السعادة؟". كانت النظرة البادية على وجهه كافية لتخبرني أنه لم يصدّق كلمة واحدة مما قلته. "ولا تزعج نفسك بإبلاغي أنكم كنتم تحرسون مبنى مكاتب خالياً".

"لماذا سنحرس عقار آدم يزدان؟ إن سلامة الآنسة باركين هي التي تثير قلقنا".

اتسعت عيناه دهشة.

"ألم تخبرك بما حدث اليوم؟".

"أتعني تلك القصة عن الرأس المبتور؟".

"قصة! سيد قرمان، يلقى أشخاص حتفهم هنا، وقد قُتِل رجلٌ وأُرسِل رأسه إلى مكتب الآنسة باركين في وضح النهار. لا أظن أنك تفهم تماماً

خطورة الموقف".

قال وقد بدأ الذعر يتسلل إليه: "لكـ... لكن العلبة لم تكن موجهة إلى ليلى. أنت لا تظن أن إرسال الرأس إليها بمثابة تهديد لها، أليس كذلك؟ كا... كان موجهاً إلى المتحف".

سألت مشككاً: "ماذا؟! أتظن أن ذلك يجعل الأمر مقبولاً؟ لقد قُتل خمسة أشخاص حتى الآن؛ خمسة أشخاص خلال أربعة أيام. هل تظن حقاً أننا يجب أن نُغفل تهديداً كهذا ببساطة؛ لأن العلبة كانت موجهة إلى مديرة المتحف وليس إلى الآنسة باركين شخصياً؟ لا أعرف ما تفكر فيه، لكن هذا ليس خياراً بالنسبة إلينا".

تأتأ: "إذاً، هل كنتم تفكّرون في سلامة ليلى وأمنها؟". بدا أنه اقتنع، فاسترخيت إلى الخلف على الكرسي.

"حسناً، أنا مسرور لأن الحقيقة قد بدأت تنجلي أخيراً".

"إذاً، لماذا تركتم ليلى بمفردها ولحقتم بنا؟".

كنتُ مخطئاً، بدا أنه لن يستسلم بسهولة ويثق بنا.

"من قال إنها تُركت بمفردها؟ هل تظن أننا كنا وحدنا هناك؟ ألم يخطر ببالك أن هناك فِرَقاً أخرى من أفراد الشرطة تراقب المنـزل؟".

كانت كل معلومة جديدة بمثابة ضربة وصدمة جديدة له.

"هل توجد فرقة أخرى هناك؟".

مِلتُ إلى الأمام ووضعت مرفقيَّ على الطاولة. "هل تظن أن فرقة واحدة كافية؟ نحن لا نلعب هنا ياسيد قرمان. يوجد هناك فريقان يتألف كل منهما من ثلاثة رجال، ولدينا ستة أشخاص يحرسون المنطقة".

ارتفعت يده إلى جبينه محاولاً أن يتذكر إن كان قد لاحظ أحداً أو شيئاً بدا له مألوفاً ولكنه ليس كذلك.

"ربما لم تلاحظ شيئاً؛ لأنّ رجالنا بارعون جداً في التواري عن الأنظار".

"لا أتذكر رؤية أي شيء غير معتاد، لا بد أنهم بارعون في التواري عن الأنظار".

"هل تود تناول شراب ما ياسيد قرمان؟ ماذا يمكن أن أجلب لك؟".

كان السؤال في ذهنه ضاغطاً جداً، فلم يكلّف نفسه عناء الرد، بل رمى المجاملة والحذر في مهبِّ الريح وعبّر بفظاظة عن قلقه الرئيس.

"أيها المفتش أكّان، هل تشتبهون فينا؟".

"تنتابنا الشكوك. لو كنت مكاننا، أما كنت ستفكّر مثلنا أيضاً؟".

"لماذا؟".

"لأن أهدافك مماثلة لأهداف القتلة". فغر فمه دهشة. "أرجو ألا تبدو مصدوماً جداً ياسيدي. أخبرتنا الآنسة باركين عن المحاكمة، وكيف أن كل الضحايا تقريباً على علاقة من نوعٍ ما بمشروع التشييد في شبه الجزيرة. عرفنا مما جمعناه من معلومات أنهم كلهم تقريباً كانوا أعضاء في تلك اللجنة الاستشارية، باستثناء سادان دوروكا...".

كشّر حين سمع بالاسم الأخير، وقال بمرارة: "كان سادان دوروكا أحد رجال آدم يزدان أيضاً؛ وكناراً صغيراً يغرّد في وسائل الإعلام من أجله. ويعتبر الصحفيَّ الوحيدَ الذي غض الطرف عن وسائل يزدان المشبوهة، وأثنى عليه علانية، لذا كافأه يزدان بكومة من الذهب".

"أنا واثق أن الشعور نفسه يخالجك بشأن الآخرين أيضاً. الآن، الضحية الأخيرة السيد فضلي غموس...".

قال عابساً: "قطعة قذرة أخرى من حثالة البشر. ظهر أسوأ الفساد في أثناء شغله منصبه. وبسبب تراخيص البناء التي مُنحت حين كان عضواً في المجلس فقد خمسة أشخاص حياتهم. ظهر كل من يزدان وغموس على منصة الشهود في تلك المحاكمة، واستخدما كل خدعة رخيصة معروفة للتأثير في قرار المحكمة، وقد برّأهما القاضي، لكننا لم نستسلم، ورفعنا القضية إلى محكمة الاستئناف التي عكست الحُكم، وطلبت إعادة المحاكمة. ولو أن الحُكم الصحيح صدر في المقام الأول، لما اضطررنا إلى تعليق تلك اللوحات، لكننا هذه المرة لن ندع آدم يزدان يفلت بفعلته، ولن يتمكن من الاختباء أبداً".

"فهمت. إذاً، هذه هي أهدافكم. كان كل الضحايا متورطين في استغلال الحي التاريخي ونهبه، ورابطتكم تتصدى للسرقة والسارقين".

سأل وقد ضاقت عيناه: "ربما كان أحدهم يحاول جعل الأمر يبدو وكأننا خلف تلك الجرائم؟".

"بالله عليك، هل مجموعتك قوية إلى هذا الحد؟".

توقعت أن يقول غاضباً إنها كذلك، لكنه لم يفعل وأشاح ببصره بعيداً.

"أنت محق. إنها ليست قوية، بعد". طرفت عيناه عدّة مرات ثم نظر إلي مجدداً. "حسناً، ربما يكون هناك شخص متورط في كل هذا ولا يشعر بالسعادة من فكرة إعادة المحاكمة؛ لأنه يخاف أن يظهر أحد ويقول الحقيقة".

"أتعني آدم يزدان؟".

"طبعاً، سيفعل الوغد أي شيء لينأى بنفسه عن ذلك".

كان آدم يزدان قد أعلن سابقاً أن "نامق" قرمان قاتل، وها قد حان دور نامق.

"لا بأس. لكن، لماذا سيشعر آدم يزدان بخوف شديد من فكرة إعادة المحاكمة؟".

"لأنه إذا خسر في المحاكمة، فلن ينتهي الأمر بابني شقيقه في السجن فقط، وإنما سيخسر مبلغاً طائلاً من المال؛ الملايين".

بدأت تفاصيل المحاكمة تنبثق ببطء من مجهول مظلم... أو ربما كان نامق قرمان يحاول ببساطة إبعاد الشبهة عن نفسه بتحويلها إلى يزدان.

"لماذا سينتهي الأمر بابني شقيقه في السجن؟".

"لأن دار السعادة للسياحة شركة مساهمة، ويزدان يبقى خلف الستار، وليس مسؤولاً قانونياً عمّا يجري. وإذا وجدت المحكمة دار السعادة مذنبة، فسيتحمّل ذانك الشابان الوفيان من هكاري اللوم، وسيقضيان مدة الحبس بدلاً من عمهما".

إذاً، دار السعادة شركة مساهمة! لهذا السبب لم تستطع زينب نبش تفاصيل المحاكمة؛ لأنها توثّقت من آدم يزدان وليس من دار السعادة. ومديرو الشركة هم الذين خضعوا للمحاكمة.

"ولهذا، تراه يقضي على كل شخص متورط في المحاكمة؛ الواحد تلو الآخر...".

قلت مقاطعاً إياه قبل أن يمضي بعيداً: "مهلاً لحظة، هل تقول إن كل الضحايا متورطون في هذه القضية المفتوحة؟".

"لا، هذا ما قلته أنت".

"لم أقل شيئاً من هذا القبيل. قلت فقط إنّ الضحايا متورطون في مشروع محتمل في السلطان أحمد". بدأت الشكوك تتسلل إلى ذهني مرة أخرى. "إذا كان هناك شيء تود أن تشاطرنا إياه، شيء يجب أن نعرفه، فأرجو أن تفعل هذا الآن".

قال مكتئباً: "أنا لا أخفي شيئاً، ولست واثقاً أن الضحايا هم الأشخاص أنفسهم الذين ظهروا في تلك المحاكمة، لكنني لن أتفاجأ إن كان الأمر كذلك. ما أحاول قوله هو التالي: إن كان الضحايا مشاركين في المحاكمة، والإفادات التي سيقدّمونها ستلحق الضرر به بطريقة ما فسيفكّر يزدان على الأرجح في القضاء عليهم ثم اتهامنا بذلك. ربما تكون تلك القطع النقدية والصروح والإشارات إلى أباطرة وملوك مجرد رموز وشعائر؛

الهدف منها توجيه أصابع الاتهام إلينا وإبعادها عنه".

كان ذلك يستحق أن يؤخذ بالحسبان، لكنني لم أتح له الفرصة ليعرف ما أفكّر فيه وضحكت بصوت خافت.

"لماذا تضحك؟".

قلت محاولاً كبت سعادتي المزيّفة: "آسف".

"عذراً، ولكن، هل قلت شيئاً مضحكاً؟".

تنهّدت: "لا، إطلاقاً. لكن آدم يزدان قال الشيء نفسه عنك. ليس الشيء نفسه تماماً، ولكنه مقتنع أيضاً أنّ هناك ما يربطك بتلك الجرائم".

جأر: "الوغد، هو القاتل اللعين".

"في الواقع، كانت نظريته مثيرة للاهتمام". شعرت بالدهشة من هدوئي. "إنه يظن أن تلك الجرائم التي اقترفتها لا علاقة لها في الواقع بتاريخ المدينة...".

"لم أقترف شيئاً من هذا القبيل".

"هذه ليست آرائي، وإنما هي ظنون آدم يزدان. فقد قال إنك قتلت بدافع الغيرة".

صرخ مستنكراً: "ماذا؟".

"هذا ما قاله. فعلت ذلك لأنّ الآنسة باركين أرادت أن تهجرك، وكادت تعود إلى السيد دينيزل".

دمدم: "الوغد! اللعين الكاذب الشرير!".

"قال أيضاً إنها أمضت عدّة ليالٍ مع السيد دينيزل في منـزله، وإنه رآها هناك. كانت ترتدي ثياب النوم الخاصة بالسيد دينيزل كما يبدو".

استشاط غضباً: "الوغد اللعين الحقير". تميّز وجهه غيظاً، ونبضت العروق على جانب رأسه، وصرخ قائلاً: "إنه يختلق كل هذا".

"ما الذي يختلقه؟".

"اختلفت مع ليلى ولكن ليس لأنها ستتركني". أطلق تنهيدة عميقة، وهزَّ رأسه بغضب. "هذه قضايا ينبغي ألا تُناقش علانية. ياالله! حتى حياتنا الخاصة صارت لعبة بالنسبة إلى أولئك الأوغاد الفاسدين".

"أنا آسف جداً، ولا أقصد التطفل على مثل هذه القضايا الحسّاسة. لكن، كما تعرف، التحقيق...".

"أعرف، أعرف، أفهم. المهم ياكبير المفتشين أن ليلى كانت دائماً- لنقل- الطرف الأكثر اهتماماً في علاقتنا، ولا أقصد أنها تكنُّ لي حباً أكبر. أنت تعرف- مثلي تماماً- أن فكرة قياس المشاعر الإنسانية؛ خاصة عواطف

القلب سخيفة، لكن ليلى هي التي تودّدت إلي، وهي التي بدأت علاقتنا وغذّتها؛ إلى حد أن جهودها أصبحت مرهقة أحياناً. يمكنني القول إن قلقها وافتقارها الدائم إلى الثقة هما سبب الخلاف. فكما تعلم، عندما عرفتْ أن نجدت يخونها مع مساعدته الشابة، أضرَّ بها ذلك وجعلها تفقد الثقة بكل الرجال. كانت تحترس دائماً ممن أتعامل معهم؛ وانتابها قلق لم تستطع التغلب عليه أو لم أتمكن من تخليصها منه. وفي وقت متأخر من إحدى الأمسيات، كنت في مكتب رابطة الدفاع عن إسطنبول مع شابة- مدرّسة- ورغم أننا كنا وحدنا هناك، إلا أن كلاً منا كان يعمل بمفرده، وعلى شيء منفصل. ومن الطبيعي أننا اضطررنا إلى الحصول على فترة استراحة لاحقاً في الليل، فشغّلنا المغلاة، وبدأنا نتكلم...". ظهرت نظرة ساخرة على وجهي، فأنّبني فوراً. "لا أيها المفتش أكّان، لم يحدث شيء، ولا يمكن أن أفعل هذا بامرأة أبداً؛ خاصة تلك التي لا تزال تحاول التعافي من طلاق مدمّر. على كل حال، عندما جاءت ليلى لتقلّني ورأتني أتحدّث مع الشابة، جُنّت وبدأت تصرخ وتتهمني بخيانتها، ولم تصغِ إلي أو حتى تنظر إلى الأمر منطقياً. كان الوقت متأخراً، وكنت أشعر بالتعب والتوتر، لذا بدأت أصرخ عليها أيضاً، وأخبرها أنها لا تتحلّى بالمنطق، فأمسكت حقيبتها وخرجت من المكان. ولأنني كنت غاضباً، لم أكلّف نفسي عناء اللحاق بها، أو أزعج نفسي حتى بالخروج وراءها. تجوَّلت في الشوارع غاضبة، ثم انتهى بها الأمر في مشرب في بيوغلو اعتادت ارتياده مع زملاء من الجامعة، ووجدت نجدت هناك مصادفة، وعندما رأى حالتها، ذهب إليها فوراً؛ ذلك الحقير الفاسق. كانت ليلى في حالة يرثى لها، ولم تخبر نجدت بما حدث، لكنها قبلت دعوته لتناول كأس من الشراب، ويمكن أن تتخيل ما حصل لاحقاً. إذ سرعان ما ثملت، ولم يعد بمقدورها أن تتحمّل، لذا اضطر نجدت إلى اصطحابها إلى منـزله؛ حيث رآها آدم يزدان هناك مرتدية ثياب نومه. وفي اللحظة التي رأته ليلى فيها، أدركت أنها اقترفت غلطة جسيمة وغادرت في الحال؛ من دون تناول الفطور أو أي شيء آخر. وأول شيء فعلته هو أنها أتت إليّ مباشرة لتخبرني بما حدث وتعتذر. عَرفت جيداً الهراء والأكاذيب التي سينشرها أولئك الأوغاد في دار السعادة عن القصة برمّتها، وهذا بالضبط ما فعلوه".

بدت حكايته ممتعة ومقنعة، لكن لم يكن بإمكاني التوثق من صحتها. وقفت وفتحت نافذة، فدخل الغرفة نسيم عليل يحمل شذا الورود.

"اليوم بهيج في الخارج".

قال مستنشقاً الرائحة مثل رجل بقي مسجوناً لسنوات: "الرائحة زكية. لا بد أن هناك حديقة قريبة". بدا أنه قد هدأ قليلاً، وحان دوري الآن لأطرح سؤالي.

"هل سبق لك أن ذهبت إلى منـزل نجدت؟".

قال بقنوط: "نعم. ولو أن الأمر كان منوطاً بـي، لما وضعت قدماً فيه، لكنني اضطررت إلى ذلك في مناسبة واحدة فقط. كدت ونجدت نضرب بعضنا في حلقة دراسية ذات يوم، وليعتذر عن ذلك دعانا إلى منـزله لتناول العشاء. لم أكن أنوي الذهاب، لكن ليلى أصرّت قائلة إن عدم تلبية الدعوة ينم على سوء خُلق، لذا ذهبت في نهاية المطاف؛ من أجلها".

"هل لاحظت اللوحات الموجودة في منـزله؟".

"نعم. في الواقع، أثرنا نقاشاً حولها تحول إلى جدال، وكدنا نتشاجر هناك أيضاً. ادّعى نجدت أن لوحتي آيا صوفيا والسليمانية أصليتان. وعلى اعتبار أنني لست هاوياً في هذا الموضوع ألقيت نظرة عليهما، وتبين لي أنهما نسختان عنهما. ولكن، عندما أخبرته بذلك فقد أعصابه، وقال لي كلمات نابية، وإنه لا فكرة لديه إطلاقاً عمّا أتكلم عنه. ولولا تدخّل ليلى، لكنا قد تعاركنا هناك مجدداً".

كان محترفاً حقاً، ويعرف بالضبط ما تفكر فيه الشرطة، وخبيراً بتوقع خطواتنا؛ ما يعني أنه يعرف كيف يتصرف، والأجوبة التي يجب أن يقدّمها. ردَّ الجرّاح بهدوء وتأنٍّ عن كل أسئلتي، لكنني كنت لا أزال بحاجة إلى التوثق.

"لحسن الحظ، لم يتطوّر الأمر نحو الأسوأ؛ أقصد في ما يخص نجدت. رأيت كيف تعاملت مع أركان هذا المساء؛ حتى وهو يحمل عصا ضخمة".

قال متورداً: "أكره العنف". وحين شعر بأنني لا أصدّقه تابع قائلاً: "لا بأس. حين كنت صغيراً، تورطت في بعض المشاجرات. كان اندفاع الدم والأدرينالين لديّ مؤثراً جداً، أليس كذلك؟ لكنني أصبحت أمقت القتال لاحقاً".

"هل جرى ذلك بعد أن أطلقت النار على الشرطي، أم بعد إصابتك بعيار ناري؟".

أطبق توتر جليدي على الغرفة.

"أفترض أنك قرأت ملفاتي". الغريب أنني لم ألاحظ غضباً في صوته. "حسناً، أنت محق. جرى هذا بعد تلك الحادثة، لكنك ستُدهش حين تعرف

أن الشيء الوحيد الذي أشكر الله عليه في تلك الحادثة هو أنني لم أضطر إلى قتل أحد أفراد الشرطة. لم يكن بمقدوري مطلقاً- وأقول مطلقاً بكل ما تعنيه الكلمة- العيش مع ذلك الذنب".

بدا صادقاً.

قلت مانحاً إياه الفرصة لإنهاء القضية: "وهل امتنعت عن الانضمام إلى الاحتجاجات المسلحة بسبب ذلك؟".

قال رافضاً عرضي: "لا. أسبابي ليست شخصية فقط. كان العالم يتغير، والمنظمة التي أنتمي إليها تفكّكت، واقترن ذلك بما تعرّضتُ له، فمهّدتُ طريقاً جديدة لنفسي في الحياة. أنا مسرور لأنني فعلت ذلك، وأشعر بسعادة أكبر الآن".

قلت ضاحكاً تقريباً: "أنا واثق بذلك، أنت نشيط الآن كما كنت في السابق، خاصة مع رابطة الدفاع عن إسطنبول والاحتجاجات الليلية والمشاجرات. يبدو أن الأيام الخوالي لم تنته تماماً بعد...".

هزَّ كتفيه غير مبالٍ. "وماذا سنفعل؟ ليس لدينا خيار آخر. يجب أن نحمي مدينتنا".

لم تكن هناك فائدة من زيادة الضغط عليه، لذا قرّرت إنهاء الحديث. لكن، كان لا يزال لديه شيء يقوله.

قال قانطاً: "أعرف أنك لا تزال تشك فينا، لكنني أخشى أنك مخطئ، فنحن لم نقتل أحداً. أولئك الذين يتمنون أن يبنوا لا يمكن أن يدمّروا أبداً أيها المفتش أكّان، والذين يقفون ضد تدمير المدينة لا يمكن أن يؤذوا سكانها، والذين يدافعون عن الحياة لا يريدون الموت لأحد". ابتسم ابتسامة ساخرة. "إذا حاولت فقط استيعاب ما نحاول فعله، ورؤية الأشياء من وجهة نظرنا، فربما ستتمكن من فهمنا. مع فائق الاحترام، لديك تصوّرات مسبقة أيضاً. فلأننا ببساطة أنشأنا مجموعة حقوق مدنية، ونعلّق بعض اللافتات هنا وهناك، وننظم بعض المظاهرات صرتم تنظرون إلينا كإرهابيين؛ قتلة يستطيعون اقتراف أي فظاعة. لكن الحقيقة تبقى أن ما نكافح من أجله هو مدينتكم. قلت هذا بنفسك؛ قلت إنك ولدت في بلاط، وإنّ أحباءك مدفونون هنا، وأسعد لحظاتك قضيتها في هذه المدينة، ونحن نكافح من أجل طريقتك في العيش. لذا أيها المفتش، دعني أقول الآن؛ رسمياً ومن أجل المحضر: نحن لم نقتل أحداً، ولا يمكن أن نقتل أحداً؛ لأن النصر الوحيد لأولئك الذين يختارون الموت رفيقاً لهم هو الموت نفسه".

غفوة في الزنزانة

تكلم نامق بفصاحة وبلاغة. كانت الحقيقة المؤلمة أن الأشخاص المتآلفين مع الموت هم رجال الشرطة؛ فعملنا وحياتنا والطريق التي اخترناها كلّها قد حدّدها الموت والعنف. تمتلئ حياتنا وعملنا بالجريمة، وبمختلّين عقلياً فقدوا منذ وقت طويل القدرة على التحلّي بالعقلانية والمنطق، ويائسين يرون وميض أمل في التعامل مع الموت، وأشخاص تائهين يفتنهم إغواء الهمجية. حذونا حذوهم، وسرنا على درب الدماء الذي تركوه خلفهم، وحاولنا أن نكتشف كيف ولماذا يقتلون، لكن رحلتنا قادتنا إلى خيبة الأمل، لا العدالة. لم نجد حلاً قطّ، وإنما المزيد من الألم والمعاناة؛ حتى عندما استطعنا القبض على القاتل، كنا نعرف أن هناك آخرين في الخارج، وبقي وجها القاتل والقتيل يتغيّران باستمرار، ويتبدّلان ويتحوّلان، حول ثابت واحد: همجية الإنسان الدائمة نحو أخيه الإنسان.

وإذا كانت هذه هي الحال، فإن الثابت الوحيد الذي لا يتبدّل ولا يمكن تغييره؛ العنصر الراسخ الوحيد، هو السؤال الحتمي: لماذا نقضي وقتاً طويلاً ونحن نبذل جهداً كبيراً في محاولة إلقاء القبض على القتلة وتحقيق العدالة؟

بعد إرسال نامق إلى غرفة الحجز في الأسفل اتصلت بليلى باركين. لم أظن أنها ستجيب؛ لأن الساعة كانت الثالثة صباحاً، لكنها ردّت بعد بضع ثوانٍ متوترةً.

"مرحباً، المفتش أكّان!؟".

"آسف لاتصالي في هذا الوقت المتأخر".

كان التوتر يتحول ببطء إلى قلق.

"ماذا حدث؟".

"السيد قرمان، حسناً، إنه رهن الاعتقال".

حبست أنفاسي وانتظرت ردّها، وكان صمتها يعني أنها إما قد صُدمت بما سمعته، أو تنتظر مني توضيحاً، لكنها لم تتحمّل الصمت.

"ما الذي يجري أيها المفتش؟ أرجو أن تخبرني بما يجري. هل حدث شيء ما؟".

"حسناً، أنا واثق بأنك تعرفين أن "نامق" وآخرين حاولوا تعليق لوحة إعلانية خارج مكاتب دار السعادة. وعندما رآهم حرّاس الأمن، اندلع شجار بينهم".

"ماذا؟". بدا واضحاً أنها انـزعجت. "ماذا عن نامق؟ كيف هو؟".

"إنه بخير، لا تقلقي".

"أيها المفتش أكّان... سيكون نامق بخير، أليس كذلك؟".

"سنعتني به جيداً، أعدك، فأنا أتولى قضيته شخصياً".

"متى سيُطلق سراحه؟".

"حسناً، إذا لم يظهر شيء آخر، فسيُنقل إلى مكتب المدّعي العام غداً، وسيُتخذ قرار بشأنه حينذاك".

"هل يحتاج إلى شيء ما؟ إلى طعام أو شراب أو شيء مماثل؟".

"لا تقلقي، لديه كل ما يحتاج إليه، وسنهتم به".

طمأنتها عدّة مرات أخرى وأنهيت المكالمة. كانت محقّة في قلقها، فقد وثقت بـي، أو زعمت ذلك، لكنها تعرف جيداً أن عملي يقتضي مني العثور على شق في درع حبيبها والنيل منه، وبدت مخاوفها مفهومة تماماً.

دخل علي، وكان قد أخذ رجال الأمن إلى الأسفل وأنهى الاستجواب. في البداية، راوغوا مدّعين أنهم كانوا يدافعون عن أنفسهم بعد أن تعرّضوا لهجوم أعضاء رابطة الدفاع عن إسطنبول الذين حاولوا شق طريقهم إلى المبنى بالقوة. على كل حال، عندما بدأ علي بتطبيق أساليبه الفريدة في التحقيق، بدأت الحقيقة تظهر، وبدا أن موظفي دار السعادة قد عرفوا مسبقاً أن حادثة من نوعٍ ما ستقع تلك الليلة. إذ كان أركان؛ الذئب العجوز الماكر، قد زرع مخبراً في رابطة الدفاع عن إسطنبول (ما يعني أيضاً أن آدم يزدان يأخذ المحافظين على محمل الجد؛ أكثر مما كنّا قد خمّنا). أوقف أركان ورجُلاه سيارتهم الجيب على الطريق الرئيسة المؤدية إلى كانكورتاران وانتظروا على أمل أن يلقّنوا المعتدين درساً لن ينسوه، وكانوا يتقدون حماسة ورغبة في إنـزال العقاب بهم، ما جعلهم يفشلون تماماً في رؤية متعقّبـي نامق وفريقه.

بدا من الممكن أن يطلق المدّعي العام سراح نامق وزملائه في اليوم التالي؛ لأن إفاداتهم تطابقت مع تصريحات الآخرين. على كل حال، كنا بحاجة إلى أربع وعشرين ساعة على الأقل لتحليل محتويات شاحنتهم المغلقة ومقارنة النتائج بالبيانات التي حصلنا عليها من الضحايا، مثل آثار الأقدام، والبصمات، وعينات القماش، والدماء. لذا، يجب أن نبقيهم رهن الاعتقال أربعاً وعشرين ساعة على الأقل في أثناء انتظارنا... انتظار أن نرى ما ستكون عليه خطوة القتلة التالية، في حين تكون مجموعتا المشتبه فيهما الرئيستان في السجن.

كان كلانا مرهقين، لذا أرسلت "علي" إلى مكتبه لينال قسطاً من الراحة، ووضعت كرسيين في مكتبي بجانب بعضهما ليكونا بمثابة سرير مؤقت لي، ثم استلقيت عليهما، واستخدمت معطفي كبطانية، وغفوت فوراً...

رأيت "نامق" في خان يفغينا، جالساً إلى الطاولة التي اعتدت الجلوس إليها، ومحدّقاً إلى يفغينا بإعجاب...

وفي حلم آخر، كانت ليلى برفقة طفل في حديقة دميِر، ناديتهما لكنهما لم يسمعاني. مشيت نحوها بخطوات واسعة حثيثة وناديتها، لكن لم يسمعني إلا الطفل الذي استدار نحوي فتجمّدت في مكاني حين رأيت أنه يوموت، ابن يكتا الصغير، ثم استدارت ليلى وابتسمت قائلة: "أيها المفتش أكّان، سُررت برؤيتك، وأود أن تلتقي ابني". مدَّ يوموت يده، وظهر تعبير غريب على وجهه. أردت أن أمسك يده، لكنني لم أتمكن. وبدلاً من ذلك، تلمّست يدي طريقها في الهواء، فرفعت بصري ورأيت هاندان تنظر إلي عبر عيني ليلى. وسألتني: "ماذا تفعل يانوزت؟ ألا تتذكر؟ نحن ميتون منذ ثلاث سنوات...".

استيقظت فَزِعاً، وأدركت أن الشمس قد أشرقت، فجلست على سريري المؤقت وأنا أشعر بوخزة ألم في ظهري مجدداً، لذا تناولت القرصَ المسكّن الذي أعطتني زينب إياه مع كأس من الماء الفاتر. وبعد ذلك، توجّهت إلى المغسلة وغسلت وجهي، لكن مزاجي بقي سيئاً، ولم أعرف إن كنت منـزعجاً من قلّة النوم أو إن كان هناك شيء آخر. فتحت النافذة لكن شعوري لم يتحسّن، وأدركت أنني بأمسِّ الحاجة إلى الخروج من المكتب، والمبنى... ذهبت إلى مكتب علي، لكنني لم أعثر عليه هناك، لذا سألت الضابط المناوب الذي كان يقف في الرواق.

"إنه في مركز الاعتقال ياسيدي".

ما الذي يسعى إليه هذا الفظ؟ هل نـزل لاستجواب المشتبه فيهم مرة أخرى؟

"ماذا يفعل في الأسفل؟".

"حسناً، إنه يغفو هناك قليلاً، فقد قال إنه لم يستطع النوم في مكتبه، ويوجد سرير إضافي في إحدى الزنـزانات".

"الأحمق الصفيق!". ابتسمت وتابعت طريقي نـزولاً نحو الأسفل. قفز الحارس المناوب الذي كان يجلس قرب الزنـزانة واقفاً على قدميه حين رآني، مفترضاً أنني جئت لتوبيخه.

"ليست هذه غلطتي ياسيدي. أخبرته أنه لا يستطيع فعل ذلك وأن

هذا مبنى للاعتقال، لكنه لم يصغ...".

"أين هو؟".

"هناك، في تلك الزنـزانة إلى اليسار".

تسللت عبر الباب الذي تُرك مفتوحاً، ورأيته يغطُّ في نوم عميق على المقعد الخشبـي القاسي، ولم أرغب في إيقاظه. أخرجت بهدوء مفاتيح سيارته من سترته الجلدية وغادرت.

كانت حركة السير تزداد ازدحاماً كل ثانية حين قدت السيارة إلى إديرنكبـي في أعلى التلال السبع؛ للتوثق من فرق المراقبة. رنَّ هاتفي حين كنت أتجاوز مباني البلدية، وحين نظرت إليه قرأت اسم مديرة متحف توبكابـي نفسها. إنها على الأرجح لا تزال قلقة بشأن أحداث الليلة الماضية.

"صباح الخير ياآنسة باركين".

"صباح الخير ياكبير المفتشين، سامحني على إزعاجك في هذا الوقت الباكر، لكنني قلقة جداً بشأن نامق".

"أرجو ألاّ تقلقي من دون مبرر ياآنسة باركين. السيد قرمان بخير".

لم تقتنع.

"هل يمكنني أن أزوره؟".

"أخشى أن هذا غير ممكن، فلا أحد يستطيع رؤيته؛ باستثناء محاميه".

"فهمت. في هذه الحال، يجب أن أرسل محاميه فوراً".

لكن ذلك لم يكن كافياً؛ فقد أخفى إخلاصها الظاهر قلقاً متزايداً ربما كان نتيجة تجارب نامق السابقة مع الشرطة، أو ربما كان نتيجة معرفتها أن مستقبل كليهما على المحك، وأنّ أدنى مناوشة مع القانون كافية لجعل أجراس الإنذار تُقرع.

"حسناً... هل يمكنني أن أراك ياكبير المفتشين؟".

لماذا؟!

أجبت ببساطة: "طبعاً. أنا لست في مقر قيادة الشرطة حالياً، وأتجه إلى جامع السليمانية".

"أوه، لا بأس، فأنا على وشك أن أغادر المنـزل، ويمكن أن أصل إلى هناك في أقل من عشر دقائق".

نظرت إلى ساعتي، ورأيت أنها تشير إلى السابعة وعشر دقائق، لذا كان لا يزال لدي بعض الوقت. ستكون رؤية ليلى باركين مفيدة؛ لاكتشاف بعض المعلومات الجديدة منها ومشاهدة حالتها.

قدت السيارة إلى شهزادباسي؛ وهي منطقة كانت مقاطعة ترفيه لأفراد

الطبقة الوسطى، وقد اعتاد والدي الذهاب إليها كثيراً، كما أنها معروفة أيضاً باسم "الشارع المعمّد"؛ لأن أعمدة بيزنطية كانت تصطف على جانبيها سابقاً، لكن لم ينجُ منها شيء.

التقيت نجاتي- الضابط المسؤول عن فريق جامع بايزيد- في مطعم يفتح أبوابه أربعاً وعشرين ساعة؛ ليزوّدني بأحدث المعلومات. كان نجاتي مملاً وقاسياً قليلاً لكنه مجدٌّ، ولم يمانع في العمل ساعات إضافية، وأبلغني بآخر التفاصيل.

كانوا قد أوقفوا خمسة جامعي قمامة وشاحنة مغلقة بيضاء في أثناء مناوبتهم. تبين أن أحد جامعي القمامة فارٌّ من الجندية، في حين أن الآخر- أحد الرجال في الشاحنة المغلقة- رجل أعمال مطلوب لإصداره صكوكاً من دون رصيد، وكل الباقين لا غبار عليهم. قبل أن أغادر المطعم أخبرت نجاتي أن يطلب من رجاله البقاء في مواقعهم حتى يصل من سيحلّون مكانهم.

غادرت المكان عائداً إلى السيارة، وسلكت طريقي في الشوارع بين منازل خشبية قديمة بالية ومتداعية في السليمانية، حتى وصلت إلى منطقة فسيحة في الساحة خلف الجامع. أوقفت المركبة بجانب النافورة وخرجت منها.

كانت المتاجر في الطرف الآخر من الجامع مفتوحة آنذاك، لكن أفواج السياح لم تصل بعد. عندما وصلت إلى بوابات جامع السليمانية التي تؤدي إلى ضريح حبيبة السلطان سليمان الكبير؛ روكسلانا، كدت أتصل بأكرم لأسأله عن مكانه، لكنني رأيته في أحد المطاعم المشهورة عند زاوية الجامع يتناول الطعام.

سألته وأنا أجلس على كرسي قديم متداع: "ما رأيك بأن تطلب لي الحساء؟". وضع ملعقته جانباً وبدأ يخبرني بما حصل ليلاً.

كان جامع السليمانية ومحيطه هادئين، وقد أوقف أكرم وأعضاء فريقه ثمانية جامعي قمامة واستجوبوهم، لكن تبين أنهم جميعاً أبرياء؛ معظمهم غجر يبحثون بين النفايات على أمل العثور على شيء يمكن أن يبيعوه مقابل قروش قليلة. وفي ما يخص الشاحنة المغلقة البيضاء، بدا النشاط أقل على تلك الجبهة، إذلم يكن هناك أثر لمركبة بيضاء أو سوداء أو زرقاء أو حمراء أو خضراء أو من أي لون آخر.

لم يبق لدينا ما نفعله إلا إمساك ملعقتينا والبدء بتناول الحساء.

الجوهرة في التاج العثماني

كان الحساء لذيذاً حقاً؛ مع عصرة ليمون ورشّة فلفل أحمر وبعض أرغفة الخبز الطازج، ما جعل الفطور لا يُنسى. بعد أن تناول أكرم طبقاً ثانياً من الحساء، سمحت له بالعودة إلى العمل، ثم استرخيت على الكرسي. قضيت بضع لحظات مستمتعاً بأشعة شمس أيار الدافئة، ثم شعرت بظلٍّ عليّ، ما جعلني أجفل.

كانت ليلى باركين تقف قربـي، لكنني لم أرها من قبل قطّ شعثاء ومذهولة على هذا النحو. فقد بدت شاحبة، ورأيت خطوط إرهاق وقلق تحت عينيها؛ وكأنها قد هرمت حياةً برمّتها في ليلة واحدة.

قلتُ وأنا أقف وأعرض عليها أن تجلس: "صباح الخير يا آنسة باركين، تفضلي". جَلَست بعصبية. "هل يمكن أن أطلب لك شيئاً تشربينه أو تأكلينه؟".

عبست لأن العرض لم يكن ملائماً.

"لا، شكراً لك يا كبير المفتشين، مزاجي ليس ملائماً لتناول الطعام. شكراً لك. أرجو أن تخبرني فحسب بما قد جرى مع نامق. كيف حاله؟ أهو مرتاح؟".

"كما قلت عبر الهاتف، إنه بخير، وفي صحة جيدة".

"آمل أنكم لا تخفون أي معلومات عني أيها المفتش أكّان...".

"طبعاً لا يا آنسة باركين. لماذا سنفعل شيئاً مماثلاً؟ السيد قرمان بخير، ثقي بـي".

"ذكرت شجاراً من نوعٍ ما، هل جُرح؟ لم يُصب بأي أذى، أليس كذلك؟".

"إنه على أحسن ما يرام، لكن لا يمكن قول الشيء نفسه عن أركان؛ الرجل الذي تشاجر معه".

"نامق قاسٍ بالكلام فقط يا كبير المفتشين، لكنه رومانسي. وهو يرى نفسه مثل تشي غيفارا، فيما هو في الواقع أكثر شبهاً بغاندي".

ضحكتُ: "حسناً، لو أن غاندي قاتل مثل السيد قرمان، لأمكنني القول بثقة إن كسور العظام كانت شائعة بين الضباط الإنكليز في الهند آنذاك".

كان قلقها كبيراً، وفشلت في ملاحظة أي دعابة في تعليقاتي.

"كان يتصرف دفاعاً عن النفس يا كبير المفتشين، وإلا فإن "نامق" لا يؤذي ذبابة".

"حسناً، لن أجادل في هذا، فأنت تعرفينه أفضل مني".

كانت امرأة ذكية، ولاحظت النظرة الساخرة في عينيَّ تسألها عن دوافعها الحقيقية لرؤيتي.

"هناك شيء نسيت إبلاغك عنه. ربما لا يكون مهماً، لكنني أريدك أن تعرفه". وضعت ذراعيها على الطاولة ومالت إلى الأمام. "لم يغفُ لي جفن الليلة الماضية بعد استلامي ذلك الطرد الفظيع، واكتشافي ما جرى لفضلي غموس المسكين الذي أظن أن لموته علاقة بنجدت. حسناً، كان نجدت يعرف فضلي غموس، وقد سبق لي أن ذكرت أن كلاً من نجدت ومقدّر كيناسي يعرفان بعضهما. عندما فكّرت في الأمر، تذكرت ذلك العشاء الأخير الذي تناولته مع نجدت، أو تصرّفه لأكون أكثر دقة. كان قد سألني مرة إن كنت سأشهد في المحاكمة؛ تلك التي أقامتها رابطة الدفاع عن إسطنبول ضد دار السعادة، ولم أرغب في أن أجيب لذا حاولت تبديل الموضوع لكنه أصرَّ، ثم فجأة قال شيئاً من دون سابق إنذار؛ قال إننا يجب أن نعود إلى بعضنا".

"نعم، أتذكر أنكِ أخبرتني هذا".

"أخبرتك فعلاً، نعم، لكنني لم أُبلغك كم كان الأمر مفاجئاً. دُهشت من عرضه؛ لأنه لم تكن لدي أي فكرة بأنّه لا يزال يُكنُّ لي مشاعر من ذلك النوع ويريد استئناف علاقتنا".

"حسناً، يبدو من عرضه أنه أراد ذلك".

"لا، لم تكن هناك عاطفة أو رغبة".

"لماذا أنتِ واثقة جداً؟".

"النساء يعرفن هذه الأشياء ياكبير المفتشين. على كل حال، جرت حادثة أخرى، قبل وقت طويل من ذلك العشاء...". صمتت قليلاً وداعبت شعرها بعصبية. "الحادثة هي ما يدعوه الناس... حسناً، فعل غيرة. ففي إحدى الليالي، تشاجرت مع نامق بشأن شيء تافه تماماً، وخرجت غاضبة في منتصف الليل وذهبت إلى مشرب كنت أرتاده مع زملائي غالباً. في تلك الأمسية، كان نجدت مصادفة هناك، وعندما شاهد حالتي أبدى اهتماماً كبيراً بـي وأراد مساعدتي. لم يكن تفكيري سليماً، وبدأت أحتسي الشراب؛ رغم أنني نادراً ما أفعل ذلك، خاصة حين أكون في تلك الحالة الذهنية. وسرعان ما ثملت ولم يعد بمقدوري أن أقف من دون مساعدة، فأقلّني نجدت إلى المنـزل. لو أنه أراد...". تورّدت خجلاً. "لو أنه أراد، لـ... كان بمقدوره القيام بفعل غير ملائم، لكنه تصرّف مثل رجل نبيل. لم يضع

إصبعاً علي، وبقي سلوكه ضمن حدود التهذيب. عندما استيقظت في صباح اليوم التالي، وجدت أنه قد غادر إلى العمل، لذا عندما رنَّ جرس الباب عرفت أنني يجب أن أفتح الباب. لذا، ارتديت ثياب النوم الخاصة بنجدت وفتحت الباب، فرأيت آدم يزدان بشحمه ولحمه. ولا بد أنه حين رآني على تلك الحال قد توصل إلى استنتاج زائف وجدير بالازدراء. على كل حال، ذهبت إلى المنـزل فوراً بعد ذلك واعتذرت من نامق. بدا من الطبيعي حينها أن يزور نجدت ليواجهه، لكنه لم يفعل أي شيء من ذلك القبيل.

كما تعرف ياكبير المفتشين، عندما قال نجدت في أثناء العشاء إنه يريد أن نعود إلى بعضنا مجدداً، لم يكن يرغب في ذلك حقاً، وإنما كان يريد مني أن أعمل مع آدم يزدان. قال ذلك المساء: يجب أن تفهمي ياليلى أنك لن تجني قرشاً واحداً بالعمل مع هؤلاء الناس؛ ليس في هذا البلد البغيض. ابدئي بالتفكير بعقلانية، وتخلّي عن تلك الوظيفة التافهة في المتحف وتعالي للعمل معنا، فآدم يزدان يبحث عن موظفين، وهو يحتاج إلى أشخاص مثلنا، مثلك . في ذلك الوقت، ظننت فقط أن نجدت يبدو كالمعتاد سخيفاً ومغروراً بنفسه، لكنني عندما أمعنت التفكير في الأمر مجدداً الليلة الماضية، استنتجت أن عرضه بأن نعود إلى بعضنا واقتراحه بأن أترك المتحف لأعمل مع آدم يزدان لا يمكن أن يكونا منفصلين إطلاقاً. فآدم يزدان مهووس بالمحاكمة المرتقبة ياكبير المفتشين، وقلق جداً، ويريد أن يعرف ما ستكون عليه استراتيجية رابطة الدفاع عن إسطنبول. وهو يعرف بشأن جدالي مع نامق، وتكوّن لديه انطباع بأن علاقتنا تتدهور، لذا ظن أنني سأعمل معه ببساطة لكي أغيظ "نامق".

كانت إفادتها حافلة بالتناقضات، لكن ذلك الاسم نفسه ظهر مرة أخرى: آدم يزدان.

"كل هذا جيد، لكنك بقيت متزوجة من السيد دينيزل عشر سنوات. ألم يكن يعرفك؟ كان بالتأكيد يعرف أنك سترفضين مثل هذا العرض".

ردّت بحماسة وكأنها كانت تتوقع سؤالي:

"هذا ما أقصده بالضبط. لم يكن نجدت من يقف خلف ذلك العرض، فقد جاء في ذلك اليوم إلى المتحف ليقلّني، وبدا غير مرتاح وهو يكافح ليخرج من السيارة. وعندما انحنى إلى الأسفل ثم شدَّ قامته مجدداً، رأيت أنه يعاني ألماً مبرّحاً. وحين سألته عمّا جرى قال إنه تعرض لحادثة، لكنني ألححت عليه كي يخبرني فأجاب: تشاجرت مع أحمق في الشارع وضربني على صدري بضع مرات بعصا المشي خاصته ".

فكّرت في الكدمات التي وُجدت على جثة نجدت في أثناء التشريح، والتي بدت بحجم قطعة النقود. وبدا ذكرُها إصاباته أمراً مثيراً للاهتمام؛ لأننا لم نخبرها عن آثار تلك الكدمات مطلقاً. ربما كان آدم يزدان هو المسؤول عن ذلك، لكنْ في الوقت نفسه، ربما كانت تلك الكدمات نتيجة الضرب الذي تلقاه نجدت من نامق...

"كان نجدت يحاول إخفاء الحقيقة ياكبير المفتشين. إذا التقيت آدم يزدان يوماً، فستعرف أنه يتجول حاملاً عصا مشي ذات مقبض عاجي. وإن سألتني عن رأيي، لم يكن من ضربه في ذلك اليوم شخصاً من الشارع، وإنما آدم يزدان؛ بعصاه".

"ولماذا سيفعل شيئاً مماثلاً؟".

"أقول إنه ربما أراد من نجدت أن يقنعني بالعمل معهم، وعندما أخبره نجدت- الذي يعرفني تماماً- أن لا طائل من الأمر، لجأ يزدان إلى أساليب أكثر قسوة لجعله يفعل ذلك. إذ ما كان نجدت ليقدّم لي ذلك العرض مطلقاً، فهو يعرف أنني سأسخر منه". صمتت قليلاً، مسترجعة في ذهنها أحداث الأحد الماضي. "كان هناك شيء غريب بشأن نجدت تلك الليلة؛ قلق أو عصبية، لكنني لم أستطع وضع إصبعي عليه. عندما أفكر في الأمر الآن، أدرك أنه حاول أن يبدو هادئاً لكنه لم يكن مرتاحاً بالتأكيد، لذا انتهى بنا الأمر ونحن نتجادل بعنف؛ كان أسوأ جدال يحصل بيننا طيلة تلك السنوات الطويلة التي عرفنا فيها بعضنا. كان الرجل المسكين يرزح تحت عبء ثقيل جعله ينهار في النهاية".

بدا أن كل ما تقوله يتناقض تماماً مع ما كان نامق قد أخبرنا به سابقاً؛ برمّته. كان آدم يزدان، كما يبدو، قلقاً جداً من المحاكمة الوشيكة، ويقضي على كل شخص يعرف شيئاً عن تعاملاته غير القانونية، ويشير بأصابع الاتهام إلى رابطة الدفاع عن إسطنبول بترك الجثث في صروح تاريخية محددة، ووضع قطع نقدية قديمة في أيديها؛ وجعل نجدت أوّل الضحايا. طبعاً، لم تقل ليلى ذلك، لكن السيناريو لم يكن مستبعداً تماماً.

"إذاً، أتظنين أن آدم يزدان هو الذي هدّد نجدت ثم أمر بقتله؟".

"لا أدري... أردت فقط أن أساعد في التحقيق قليلاً بمشاركتك أفكاري".

"ونحن نقدّر هذا فعلاً. حالياً، ربما لا يبدو هذا مهماً. لكن، صدّقيني حين أقول لك إن هذه معلومات حاسمة. إذ ستنبثق معلومات أخرى، وسنبدأ بوضع قطع الأحجية معاً، وسيكون ما أخبرتنا به بالغ الأهمية".

بدت محبطة، وظننت أنها ستتذمر، لكنها بدلاً من ذلك استدارت

وحدّقت إلى الجامع القديم؛ الصرح الأبرز في الفضاء العثماني. وبعد أن أمعنت النظر إلى قببه الرمادية، وواجهاته الحجرية، وأقواسه الأنيقة، ومآذنه المهيبة، استدارت إليّ فجأة قائلة:

"أنت لست هنا للزيارة فقط، أليس كذلك؟".

قلت بارتباك: "لا. أعرف أنك لا ترغبين في توقع مكان العثور على الجثة التالية، لكن التخمين المحسوب يشير إلى أنها ستكون في السليمانية أو حولها".

"لم أرغب في أن أخيب أمل أيٍّ منا مجدداً، لكنني ظننت أيضاً أنه سيتم وضع الجثة في هذه البقعة. في الواقع، هناك احتمالان آخران بالإضافة إلى السليمانية: جامع بايزيد وجامع شهزاد".

"جامع شهزاد؟". لم يكن هذا الجامع من بين الخيارات التي فكّرت فيها. وكل ما أعرفه هو أنه في الوقت الذي نركّز فيه تماماً على السليمانية وبايزيد، ربما يكون القتلة قد ذهبوا إلى جامع شهزاد، وألقوا ضحيتهم هناك من دون أي عائق. "هل لجامع شهزاد أي أهمية تاريخية أو معمارية؟".

ردّت بغطرسة تقريباً: "طبعاً. ربما يكون المهندس سنان قد قال إنه عمل ثانوي، أو مشروع تجريبـي، لكنه بالتأكيد أحد أهم إنجازاته. فقد كان مكرّساً لابن السلطان سليمان؛ شهزاد محمد، الذي توفي في عمر مبكر. في الواقع، بدأ التشييد قبل وفاة الأمير، وربما كان يُبنى من أجل السلطان سليمان. لكن، عندما قضى ابنه نحبه، كُرّس الجامع له".

قلت غاضباً بعد أن بدأت الحقائق المملة تثير أعصابـي: "حسناً، لا يمكن أن يكون بأهمية السليمانية. بالمحصلة، قال سنان هذا بنفسه".

قالت بلطف: "طبعاً، السليمانية جامع مختلف تماماً". كانت قد حاولت التخلّص من فظاظة نبرتها السابقة؛ رغم أنها لم تتخلص تماماً من كل آثار الاعتداد بالنفس. "قال المعماري سنان إنه أحد أعماله غير المتقنة. على كل حال، سأقول إننا يجب ألاّ نغفل جامع شهزاد".

بدا إبلاغنا أن القصر يجب أن يؤخذ بالحسبان أمراً جيّداً، لكن الوقت كان قد فات آنذاك، وكل ما يمكننا فعله هو التضرّع كي لا يكون القتلة قد انطلقوا نحو ضحيتهم التالية.

"أنتَ محقّ، جامع السليمانية رائع حقاً". لا بد أنها اعتبرت صمتي امتعاضاً ممّا قالته، لذا حاولت استرضائي، وأشارت إلى الجامع الضخم. "إنه تحفة فنية في هندسته، ومثال عن الجمال العثماني. إذ ترمز المآذن الأربع في الساحة إلى السلاطين العثمانيين الأربعة - ومن بينهم سليمان - الذين

جعلوا السلطنة العثمانية والمدينة قوة مرعبة". أمالت رأسها وأمعنت النظر إلى المآذن المتطاولة عالياً نحو السماء الزرقاء الصافية. "هل ترى؟ للمآذن عشر شرفات - تلك الأطواق التي تراها محيطة بالأقسام العليا- بالمجمل؛ ثلاث على كل من المئذنتين اللتين تقعان في نهاية الساحة، واثنتان على كلٍّ من المئذنتين في الوسط. تمثّل كل شرفة سلطاناً عثمانياً، وسليمان هو العاشر". توقفت وحدّقت إلى الجامع بإعجاب. "لم يكن مجرد جامع فقط، وإنما كان مجمّعاً مزدهراً يضم مدرسة دينية ومكتبة ومدرسة إبتدائية ومستشفى ومطبخاً ودار ضيافة. كانت مبانٍ مثل هذه نقاطَ إرشاد معمارية في المدينة، وعلامات مميزة تُشيَّد مبانٍ حولها، ولم تكن لها أدوار اجتماعية ودينية أساسية فقط، وإنما اعتبرت انعكاساً لنظرة العثمانيين إلى العالم. مثلاً، بُني كل مجمّع جامع بعناية ودقة واهتمام فائق بالتفاصيل، لكن لم يُنجز الكثير في المناطق المحيطة بتلك المجمّعات؛ في ما يتعلق بالبيئة أو التطوير الحضري. كانت مسؤولية المعماري محدودة بمنطقة حدود عقار الجامع". كان عيواظ أفندي قد تكلم على نحو مشابه، لكنني رغم ذلك وجدت المعلومة رائعة. "وعلى الرغم من حقيقة أنه كان بمقدور المعماريين المسؤولين عن تلك الأعمال الفنية المدهشة تجميل المنطقة المحيطة بالعقار أيضاً، إلا أن تقاليد المجتمع الذي عاشوا وعملوا فيه ومعتقداته منعتهم من ذلك. كانت طريقة عيش العثمانيين انطوائية ياكبير المفتشين، وكان المواطنون ينظرون إلى العالم الخارجي من حدود مساجدهم وساحات جوامعهم، وكانت الشوارع العريضة، والمتنـزهات الضخمة، والساحات المكشوفة الشاسعة تعتبر ترفاً وغير ضرورية".

"بخلاف معماريّي القسطنطينة وشعوبها إذاً".

قالت بإعجاب: "أنت تتعلم بسرعة". كانت الحبيبة القلقة قد أفسحت المجال لعالمة رابطة الجأش وواثقة بنفسها. "أنت محق تماماً. أَولى الإغريق والرومان أهمية أكبر بكثير لمثل تلك التفاصيل من خلفائهم العثمانيين. خذ ساحة بايزيد الواقعة خلفنا هناك على سبيل المثال؛ فقد كانت في موقع ساحة توري التي يصلها شارع ميس الطويل والمستقيم بساحة القسطنطينية التي عُرفت لاحقاً باسم سمبرليتس في الشرق، وساحة بوفياس المعروفة الآن بأكساراي في الغرب. كانت ساحة فيلادلفيا تقع في ما يعرف الآن بفيزنسيلر، في حين كانت أماستريانون في منطقة ساراشين الآن، وكان المضمار وساحة رئيسة أخرى هي أوغسطين يقعان في منطقة ندعوها الآن السلطان أحمد. وفي إسطنبول العثمانية، لم تكن هناك شوارع جميلة ومسارح هواء طلق أو

ساحات، أو مناطق مزيّنة بتماثيل وأعمال فنية، وكان الناس يجتمعون في مساجد ضخمة مثل السليمانية؛ ويحتشدون معاً في مساحات مغلقة".

كانت المعلومات الوفيرة مدهشة ورائعة.

"لكنّكِ أخبرتني أن السلطان محمد الفاتح هو من أعاد بناء المدينة. في الواقع، قلت إن هناك أوجه تشابه صارخة بين قسطنطين والسلطان محمد".

ابتسمت: "ربما لم أعبّر عمّا يجول في خاطري بوضوح. أعاد السلطان محمد بناء المدينة فعلاً، وقد اضطر إلى ذلك؛ فعندما دخل العثمانيون القسطنطينية وجدوها في حال يرثى لها. وتماماً كما فعل قسطنطين، حشد محمد كل القدرات تحت تصرفه، واستقدم مهنيين مبدعين وأسرى حرب ماهرين من كل بقاع الدولة العثمانية؛ للمساعدة في عملية التجديد، وكي يجعل تلك المدينة المخرّبة والمدمرة عاصمة تستحق اسمه. فقد أُحضرت خمسة آلاف أسرة من طرابزون، وحرفيون يونانيون من أدرنة وبورصه وجيليبولو وفيلبـي، وجُلب أتراك وسلافيون ويهود وأرمنيون إلى هنا؛ إما بدعوتهم أو إرغامهم على ذلك. كان مطلوباً من كل مدينة أن ترسل مئة ثري وحرفي على الأقل إلى العاصمة. ومن الطبيعي أن كثيرين لم يرغبوا في المجيء، لكن لم يكن بمقدور أحد تحدّي السلطان. بدأ مشروع تشييد ضخم، وسرعان ما ارتفعت عاصمة عثمانية جديدة مدهشة من رماد عاصمة الإمبراطورية الرومانية الشرقية القديمة والمتداعية. تابع بايزيد ابن السلطان محمد وحفيده سليم عمل الوالد والجد. لكن، في أثناء عهد سليمان وصلت القسطنطينية إلى أوج ازدهارها". نظرت إلى الجامع مرة أخرى. "وجامع السليمانية من دون شك جوهرة في تاج تلك الحقبة".

استدارت بعيداً عن الجامع، ونظرت إليّ بحماسة شخصٍ يعرف أنه يقول الحقيقة.

"ولهذا السبب أيها المفتش أكّان، ظننت أنكم ستجدون الجثة التالية هنا".

قلت مكتئباً: "لكننا لم نجدها، وربما لم يستطع القتلة وضعها هنا".

"لماذا؟ هل شاهدوكم هنا؟ هل أخبرهم أحد عن إجراءات المراقبة والأمن التي اتخذتموها؟".

قلت وقد بدأ تعبـي ينال مني ببطء: "ربما. إلا إن كانوا - كما قلت - قد تجاهلونا تماماً ووضعوا ضحيتهم في جامع شهزاد".

العشيرة

لم نجد شيئاً مريباً في جامع شهزاد.

فتّشت وأكرم وضابطان آخران العقار كلّه، وبحثنا داخل الجامع وقرب القبور وفي كل مكان في الساحات الخارجية، وفي مدرسة فيفا الثانوية خلف المبنى، وفي موقف السيارات الملحق به، وكل بوصة من مسجد بورمالي؛ لكن من دون جدوى. إذ لم نعثر على جثة أو على أي شخصيات ربما تكون مشبوهة، وبدا واضحاً أنني بحاجة إلى التكلم مع آدم يزدان مرة أخرى.

كانت هناك طريقتان لفعل ذلك، فإما أن نعتقله ونستجوبه في السجن، أو نذهب إليه في زيارة ودّية أخرى. لو كان الأمر منوطاً بعلي لوضعه في زنـزانة فوراً، لكن ذلك سيؤدي إلى تدفق جيش من المحامين إلى مقر قيادة الشرطة، واتصال عضو البرلمان في أنقرة بوزير الداخلية ليسأل عن سبب قيام الشرطة بمعاملة رجل أعمال مرموق ومحترم كمجرم؛ وبالتأكيد سيجعل الوزير يتصل بقائد الشرطة ليعنّفه، ما سيدفع قائد الشرطة للاتصال بممتاز ليأمره بوضع حد لهذه الحماقة فوراً. وما الذي سيثمر عنه ذلك؟ سيخرج معالي السيد آدم يزدان من الزنـزانة ضاحكاً، وسيعود إلى دار السعادة متباهياً؛ معاهداً نفسه ألا يتكلم معنا أو يتعاون معنا مجدداً أبداً. بدا من الأفضل أن أزوره بنفسي، لكن اليوم يوم أحد، ولم تكن لدي فكرة إن كنت سأجده في مكتبه أم لا، ولم يكن لدي رقم هاتفه أيضاً. لذا، اتصلت بعلي هاتفياً، فأجاب بعد الرنّة الثانية وهو يشعر بالنعاس، لكنني حظيت بانتباهه الكامل حين سمعني أسأل عن رقم يزدان.

"سأحضره فوراً ياسيدي".

"لا، لا تزعج نفسك، أنا لست في مقر القيادة، وإنما في الخارج. اتصل بهم فحسب واكتشف إن كان في دار السعادة أم لا. وإذا لم يكن هناك، فاعرف مكانه. يجب أن أتكلم معه على نحو عاجل".

"فوراً أيها المدير".

أنهيت المكالمة واتجهت نحو ينيكابـي. اتصل بـي علي حين كنت أسلك الطريق الذي يؤدي إلى الساحل.

"إنه في طريقه إلى مكاتب دار السعادة ياسيدي، وسيصل إلى هناك بعد نحو عشر دقائق. يقول إنه سيستقبلك هناك".

"شكراً ياعلي، أحسنت عملاً".

"أين أنت ياسيدي؟ لن تتكلم مع ذلك الثعبان الغادر بمفردك، أليس كذلك؟".

قلت بحزم: "أخشى أنني سأفعل هذا. وأريد منك أن تزور أسرة فضلي غموس وتكتشف ما يمكنك عنه؛ خاصة عن علاقته بآدم يزدان. آه، بالمناسبة، يجب أن تستخدم سيارة أخرى، فقد أخذت سيارتك. سأراك في مقر القيادة بعد الظهر".

عرفت أنه يشعر بأنه مُستبعد، لكنه لم يعترض لإحساسه على الأرجح أنه يستحق مثل هذه المعاملة بعد أن غطَّ في النوم.

كانت الطريق الساحلية هادئة، لذا فتحت النافذة وسمحت لنسيم البحر البارد والمنعش بالدخول، ورأيت الأسوار القديمة المتداعية إلى يساري وماء بحر مرمرة الأزرق الداكن العميق إلى يميني. انتابني شعور غريب؛ وكأنني لم أعد أقود سيارة في القرن الحادي والعشرين، وإنما انتقلت في الزمن، عائداً إلى الوراء آلاف السنين وخرجت إلى البحر على متن قارب كنو بدائي. لم تكن هناك مبانٍ أو سيارات حولي، وإنما قوارب شراعية ومراكب وسفن من كل الأشكال والألوان والأحجام... تجاوزت المخارج المختلفة التي تقود إلى المدينة الرئيسة؛ سامحاً لنفسي بالتجول في عالم خيالي تحدّده كومكابـي، وبوابة ميناء كاديرجا، وبوابة حي آيا صوفيا، وبوابة كاتلادي، وبوابة قصر بوكوليون. لكن، عندما وصلت إلى الأضواء الحمراء الساطعة في أهيركابـي، عُدت إلى الوقت الحاضر وإلى حقبتي المعاصرة، وضغطت على المكابح؛ فتلاشى عالم الأحلام، تاركاً إيّاي أمام حقيقة وجود صفوف سيارات تقف منتظرة عند إشارة المرور. وعندما استؤنفت حركة السير، انعطفت يساراً عبر أحد تلك المداخل العتيقة المؤدية إلى المدينة، وتابعت عبر فوضى المباني البديلة والقبيحة التي تتضخم حول القصر البيزنطي الكبير، حتى وصلت إلى مكاتب آدم يزدان. استقبلني شاب أمام البابين الخشبيين الضخمين في نهاية الرواق الذي يظهر على جانبيه صفان متماثلان من الأعمدة الرخامية.

قال وهو يفتح لي الباب: "من هنا ياسيدي، السيد يزدان ينتظرك".

انتظرت أن يدلّني على الطريق المؤدي إلى نقشَي النسرين البيزنطيين، لكن الشاب قادني إلى الجدار؛ حيث يوجد مصعد مخفي بخبرة.

"تفضل من هنا ياكبير المفتشين، فالسيد يزدان في مكتبه".

تحرك بنا المصعد الحديث جداً، والذي يتناقض تماماً مع المحيط العتيق نحو الأعلى؛ إلى الطابق الثاني، حيث لاحظت فوراً عمودين حجريين

مشابهين للأعمدة الستة الموجودة عند المدخل. على كل حال، بدلاً من النسر البيزنطي مزدوج الرأس، ظهر على هذين العمودين شعاران عثمانيان: ختم السلطان الذي كان على شكل شمس ساطعة تغرب فوق ذروة ذهبية، وتحته ترس محاط من الجانبين بنسرين؛ أحدهما أخضر والآخر أحمر، تطوّقهما مجموعة من النجوم، وتظهر فيه حربة وفأس مزدوجة النصل وفأس ذات نصل واحد ومسدس وميزان فوق كتابين وصولجان ومرساة وقوس وبوق وسيف ورمح وقذيفة مدفع، بالإضافة إلى عدّة رموز وأيقونات أخرى لم أعرفها. بدا المجسّمان مصنوعين من الجص، وقد أُنهيت لاحقاً عملية طلاء باليد معقّدة وبالغة الدقة.

"صُنعا في أثناء عهد السلطان عبد الحميد". وكما قاطع السيد آدم يزدان تأملي تمثال جستنيان أمس، أفسد عليّ اليوم مشاهدتي الشعار العثماني. قال ماداً إحدى يديه لمصافحتي: "أهلاً بك ياكبير المفتشين". لم أرَ العصا ذات المقبض العاجي اليوم. "الشعار داخل الشمس خاص بعبد الحميد. في الواقع، لم يكن لدى العثمانيين شارة مميزة. ويقول بعض المؤرخين إن تصميم النسخة العثمانية كان نتيجة حرب القرم. فكما تعرف، أبدت الحكومة الفرنسية في ذلك الوقت رغبتها في الحفاظ على علاقات ودّية مع العثمانيين، فمنحت السلطان عبد الحميد وسام جوقة الشرف . وبدا من الطبيعي حينها ألا يترك البريطانيون الفرنسيين يتفوقون عليهم، لذا قدّمت الملكة فيكتوريا للسلطان هدية هي وسام الإمبراطورية البريطانية . على كل حال، برز عائق. فقد كانت التقاليد تقضي أن يُعرض شعار أو شارة سلطة من مُنِح الوسام على جدار كنيسة القديس جورج، لكن السلطان العثماني لم يكن لديه مثل ذلك الشعار الرسمي، لذا أرسلت الملكة فيكتوريا خبير الأسلحة الأمير تشارلز يونغ إلى إسطنبول لتصميم شعار جديد له، وها أنت ترى النتيجة هنا. في الواقع، اتخذ الشعار شكله النهائي في أثناء عهد عبد الحميد الذي أضاف إليه ختمه، والميزان والأسلحة".

قلت بإعجاب مبالغ فيه: "يبدو أنك تعرف عن التاريخ العثماني بقدر معرفتك عن التاريخ الروماني".

تنهّد قائلاً: "أتمنى لو كانت الحال كذلك. لقد حاولت جاهداً تعلّم التركية العثمانية، لكن لسوء الحظ ذهبت جهودي سدى، والأمر نفسه ينطبق على اللاتينية والإغريقية. لا يبدو أنّ تعلّم اللغات نقطة قوتي ياسيدي. إذ يجب على المرء أن يبدأ في سنّ مبكرة، فبعد سن معينة يرفض العقل ببساطة تقبّل معلومات جديدة ياكبير المفتشين. ياللهول! انظر

إلي، أنا أثرثر على هذا النحو من دون أن أعرض عليك الجلوس، أنا آسف جداً".

"لا تأسف ياسيد يزدان، فأنا أجد كل هذا فاتناً جداً. إن تعلّم أشياء جديدة أمر رائع دائماً".

قال وكأنني قلت شيئاً بالغ الأهمية: "هل هذا رأيك؟". رأيت وميضاً في عينيه؛ من النوع الذي يراه المرء في عيني إنسان يصدّق أنه قوي جداً حين يفكّر في مصير إنسان آخر. "يجب أن تنضم إلينا هنا في دار السعادة حين تتقاعد. ستكتسب معرفة جديدة في كل لحظة يقظة هنا".

قلت: "لِمَ لا؟". وخالجني شعور بأنني سأرى آدم يزدان مختلفاً تماماً عن ذاك الذي رأيته في ذلك اليوم. "على افتراض أنني بقيت حياً حتى سنّ التقاعد".

قال بمرح: "طبعاً ياكبير المفتشين. فهذه البلاد تحتاج إلى أشخاص مثلي ومثلك". وأشار إلى البابين الخشبيين المزخرفين خلف العمود. "تفضّل من هنا رجاء، يمكن أن نتكلم كما يحلو لنا في مكتبـي".

استدار نحو الشاب الذي رافقني إلى الداخل، والذي كان لا يزال واقفاً باحترام بجانب المصعد.

"صالح، هلاّ تتفضّل بأن تجلب لنا ما نشربه. ماذا تودّ أن تشرب ياكبير المفتشين؟ الشاي أم القهوة؟".

"لا بأس بالقهوة؛ قهوة تركية مع القليل من السكر. أرجو ألا تجعلهم يحضّرون أي طعام لي، فقد تناولت فطوري".

"سأتناول القهوة أيضاً، لكن من دون سكر. شكراً لك ياصالح".

كانت الغرفة التي قال عنها إنها مكتبه فخمةً ورائعةً. وكان اللون السائد في القاعة الضخمة هو الأحمر الداكن المتداخل مع لون أصفر جميل.

قال بفخر حين أمعنت النظر إلى ثريا الكريستال الضخمة في وسط الغرفة: "كانت الأرضية في الأسفل مزيّنة بزخارف رومانية، في حين زُيّنت هذه الأرضية بزخارف عثمانية". شعرت بأنني في قاعة استقبال قصر دولمبهجة، ورأيت ستائر حمراء فاتحة مطرّزة بخيوط فضية، ومفتوحة لتسمح لضوء باهت بالدخول عبر النوافذ وبإنارة المطرّزات والنقوش على جدار ثُبّتت عليه أختام إمبراطورية لامعة، ومصغّرات مزركشة رائعة، وأعمال مهيبة ومؤطرة، ويكتمل المشهد المدهش ببساط فارسي من الحرير الخالص الذي يهيمن عليه اللون الأحمر الداكن، وبفسيفساء لختم إمبراطوري على الجدار

خلف الطاولة الجميلة المزخرفة.

شرح يزدان: "هذا ختم عبد الحميد، ويمكن رؤية الختم الأصلي في مدخل آيا صوفيا. كان يحب الفسيفساء العتيقة، وأراد تخليد ذكراه فأمر بصنع لوحة ضخمة لختمه من فسيفساء بيزنطية. وقد اعترض العلماء في ذلك الوقت لكن السلطان تجاهلهم ببساطة".

حظيت إسطنبول دائماً بحصتها العادلة من الحكام الاستثنائيين؛ رجال أثار سلوكهم غير المتوقع قصصاً غريبة ورائعة لا تزال تخلب الألباب وتأسر القلوب حتى الآن.

"من هنا رجاءً، فالمنظر رائع فعلاً".

لم يكن يكذب، إذ بدا المشهد مدهشاً؛ بحر مرمرة الهائج الذي تتلاطم أمواجه من كاديكوي وصولاً إلى هايرسيزادا.

استطعت أن أقول وأنا أشعر بالذهول من زرقة البحر اللامع تحت ضوء الشمس: "إنه جميل. وعندما ينظر إليه المرء ينسى كل متاعبه".

"أنصح أيضاً برؤية المنظر من الشرفة". لم يكن بمقدوره الاسترخاء من دون عصاه المسنودة إلى مكتبه؛ مثل الأشخاص الذين يستخدمون سبحات الصلاة باستمرار، فأمسكها وتابع: "يبدو البحر أكثر جمالاً من الأعلى. ويمكن رؤية بحر مرمرة كله؛ من المنارة في كانكورتاران وصولاً إلى يالوفا؛ ممتداً تحت قدميك". وأشار إلى المقعد أمامي بعصاه. "هل تمانع بجلوسي هنا؟ لا أريد إفساد استمتاعك بالمشهد".

"لا إطلاقاً، تفضل. المنظر جميل، لكن لدينا قضايا أكثر أهمية ينبغي أن نناقشها".

قال وعيناه تلمعان بسعادة: "رائع. على كل حال، يجب أن أغادر بعد نحو ساعة. سأرى صديقاً أحضر لي زوجاً جديداً من الببغاوات".

"لا تقلق. لن يستغرق هذا وقتاً طويلاً. سأطرح عليك بضعة أسئلة فقط". نظرت نحو الأسفل، إلى الطرف الحديدي من عصاه، وتساءلت إن كان مسؤولاً عن الكدمات التي تم العثور عليها على جثة نجدت دينيزل؛ كما زعمت ليلى باركين.

قال بنبرة شخص يتكلم عن مباراة كرة قدم مع صديق مقرّب: "يبدو أن بعض الموظفين لدي قد تشاجروا مع أعضاء رابطة الدفاع عن إسطنبول الليلة الماضية".

"الأمر ليس بهذه البساطة. فقد هاجم أركان وحارسا الأمن الآخران الرجال بمضارب كرة القاعدة".

قال يزدان وهو ينقل عصاه إلى اليد الأخرى: "وماذا كان من المتوقع أن يفعلوا؟". وحين أدرك أنه لم يعد يتكلم مع كبير المفتشين الدمث أكّان الذي زاره أمس تابع قائلاً: "كانوا يحاولون تعليق لوحة استفزازية على عقاري، ومن يدري ما الذي كانوا ينوون فعله أيضاً؟ ربما خططوا لشيء أسوأ في ذهنهم. كان رجالي يحاولون حماية أنفسهم فقط".

"حسناً، لسوء الحظ ياسيد يزدان، لا يبدو الأمر أسود وأبيض على هذا النحو". أصبح تعبير وجهه جدّياً جداً، فتابعت قائلاً: "لقد خطّط رجالك لكل شيء. فقد راقبوا جيّداً الشاحنة المغلقة البيضاء قبل أن تصل إلى هذا المبنى. ولدي انطباع بأنهم كانوا سيهاجمون أعضاء رابطة الدفاع عن إسطنبول حتى لو لم يأتوا إلى هنا".

قوّس يزدان حاجبيه وحدّق إلي باتهام، وبدا أن شهر العسل قد انتهى.

"آمل بالتأكيد ألا تكون قد توصلت إلى هذا الاستنتاج بناءً على أكاذيب واتهامات زائفة سمعتها من ذلك البلشفي العجوز الماكر، نامق قرمان".

كان متوتراً، وقد اختفى هدوء أمس.

قلت وأنا أميل على مقعدي إلى الخلف: "لا علاقة لهذا بالسيد قرمان. في الحقيقة، حين تمعن التفكير في الأمر ستدرك أنك أنت من قادنا إلى مثل هذه الاستنتاجات".

"أنا؟!".

"أجل. فبعد استماعنا إلى ما قلته عن السيد قرمان ورابطة الدفاع عن إسطنبول، وضعناهم على قمة لائحة المشتبه فيهم وبدأنا نراقب كل خطواتهم. المفارقة أننا حين أخضعناهم للمراقبة، ظهر رجالك في سيارتهم الجيب".

"لكن...".

"لا يوجد إذا أو لكن هنا ياسيد يزدان، فقد تم الأمر كله أمام أعيننا. فضلاً عن ذلك، اعترف رجالك بأنّ لديهم مُخبراً بين أعضاء رابطة الدفاع عن إسطنبول، وأنك جعلتهم يلحقون بنامق وفتيانه". هززت رأسي. "لأذكّرك فقط، إنّ انتحال صفة رجل شرطة أو القيام بعمله جريمة".

قال وشفته السفلية ترتعش: "أنا... أتمنى لو كنت أعرف ما تتكلم عنه. من هذا المخبر الذي وُضِع هناك؟".

قلت ناظراً إلى عينيه مباشرة: "لدينا اسم الشخص وعنوانه إن أردت

أن تعرف. وضع أركان الرجل في صفوف رابطة الدفاع عن إسطنبول سراً. هل يمكن فعل شيء مثل هذا من دون معرفتك ومن دون الحصول على إذنك الصريح؟".

تمتم قانطاً: "أركان، أركان، أقسم ياكبير المفتشين إنني لا أعرف شيئاً عن هذا. ليست لدي فكرة عن أيٍّ من ذلك؛ لا بدّ أنّ أركان قد فعل ذلك من تلقاء نفسه". كان قد تخلى أخيراً عن الفصاحة وحس الدعابة. "صدّقني ياسيدي، لو أنني عرفت بشأن هذا لما سمحت به إطلاقاً، فنحن لسنا في غابة! وإذا كنا سنقوم بمثل هذه النشاطات، فما الفرق بيننا وبين نامق قرمان إذاً؟".

كانت الادّعاءات الماكرة ضد الجرّاح لا تزال موجودة.

"سيُطردون جميعاً، وهذا وعد مني. ليس أركان فقط بل المغفّلان اللذان كانا معه أيضاً". ولوّح بعصاه متوتراً. "إنها غلطتي ياكبير المفتشين. ما كان ينبغي لي أن أباشر في عمل الأمن هذا مطلقاً، فالشيء الوحيد الذي جنيته منه كما ترى هو الكثير من المشاكل؛ ومن دون أي عناء من جانبي. تخصصي هو السياحة، فما الذي أعرفه عن الأمن؟ الآن يجب أن أتعامل مع أشخاص مثل أركان".

مرة أخرى، كان يحمي نفسه بإلقاء اللوم على شخص آخر؛ رغم أن الأمر لم يكن سهلاً هذه المرة.

سألت وأنا أحرص على إبقاء بصري على العصا التي يمسكها: "ماذا عن الكدمات التي تم العثور عليها على جثة نجدت دينيزل؟ ففي أثناء التشريح، تم العثور على كدمات على صدره وبطنه بحجم الحلقة المعدنية على طرف عصاك".

أصبح وجهه أبيض، وشحب تماماً في تباين صارخ مع ألوان ديكور الغرفة.

قال وعيناه تعكسان الصدمة التي بدت في صوته: "ما... ما الذي تلمّح إليه ياكبير المفتشين؟ أنني... أنني...؟".

قلت رافعاً راحتي كفيَّ في إشارة مطمئنة: "أرجو ألا تقفز إلى استنتاجات خاطئة، فأنا لا ألمح إلى أي شيء. ربما كان أركان، في حماسته...".

قفز عن مقعده.

"لا، بالتأكيد لا! ربما تدخل أركان في ما لا يعنيه، لكنه لن يصل إطلاقاً إلى هذا الحد. لا، هو ليس من النوع الذي يتجاوز الحدود. نحن نتكلم عن جريمة قتل هنا ياكبير المفتشين، وهذه ليست لعبة، وإنما قضية

إزهاق روح إنسان. لا أصدّق أن أركان قد يفعل هذا؛ فهو يعرف أنني لن أسمح أو أتغاضى أبداً عن مثل هذه الهمجية".

بدا جاهزاً لمزيد من الضغط.

"حسناً، الآن، قبل ثلاث سنوات...".

عرف فوراً ما أشير إليه.

"كانت تلك حادثة مريعة ومؤسفة، لكن تمّ التعويض على أسر الضحايا، وبمبالغ أكبر من الرقم المحدد، وأُسقطت التُّهم. لم يبق إلا أولئك الحمقى في رابطة الدفاع عن إسطنبول الذين قرروا متابعة الإجراءات القضائية".

"أعرف أن جلسة الاستماع إلى الشهود ستُعقد قريباً".

تحوّلت عصبيته إلى غضب واضح.

صرخ قائلاً: "لينظّموا جلسة الاستماع اللعينة تلك! ستصدر المحكمة قراراً لصلحنا مجدداً على كل حال. إذ تفتقر رابطة الدفاع عن إسطنبول إلى الرؤية ياكبير المفتشين، وأعضاؤها مجرد مثيري مشاكل، واستفزازيون يريدون إيقاف التطور في هذه البلاد. وهم يكنّون كراهية عميقة وغير عقلانية للتنمية والتغيير ومنافع رأس المال والاستثمار. لقد استثمرنا مليارات الدولارات في هذا البلد، في العقارات، وماذا حدث؟ بقيت الأموال موجودة هناك في الأرض لثلاث سنوات، ولم يستفد منها أحد. هذا ما تفعله رابطة الدفاع عن إسطنبول التي تفتقر تماماً إلى المنطق أو الضمير".

كانت المنطقة التي وصفها بشغف كما لو أنها كنـز تاريخي، وتضم إرث الإمبراطورية الرومانية والدولة العثمانية، قد أضحت الآن مجرد قطعة أرض لم تعد تساوي شيئاً بعد هدر تلك المبالغ الطائلة التي أنفقها فيها.

قلت غير مبالٍ وحريصاً على ملاحظة ردة فعله وإشاراته: "لا تمثل إعادة فتح هذه القضية أولوية بالنسبة إليّ، ولأكون صريحاً تماماً، إنها ليست محط اهتمامي أو شغلي الشاغل. على كل حال، إذا كانت هناك علاقة ما بين هذه المحاكمة وضحايا الجرائم... إذا كان الضحايا ممن لهم علاقة بلجنتك...".

صرخ: "أود فعلاً أن أعرف من كان يخبرك بهذه الأكاذيب. هل هو ذلك المتطرف الكاذب نامق أم تلك المرأة التي تتظاهر بأنها مثقّفة من نوعٍ ما، ليلى باركين؟ أنا مشغول جداً، ووقتي لا يسمح لي بأن أخطط لقتل أعضاء من تلك اللجنة ياكبير المفتشين. كرمى لله، إذا كنت أريد قتل أحد، فسأبدأ بذلك الجرّاح الجبان".

ها قد وقع في الفخ بكلماته. رأى التعبير الذي بدا على وجهي، فحاول أن يتملّص من تلك الورطة؛ لكن الضرر كان قد وقع آنذاك.

"على نحو افتراضي، طبعاً...".

قُرع الباب في ذلك الوقت تحديداً، ودخل صالح حاملاً قهوتنا، فانتهز يزدان الفرصة وبدّل الموضوع.

قال وهو يحاول أن يبدو مرحاً بالرغم من توتره؛ لكنه فشل على نحو بائس: "رائحتها زكيّة. لا شيء يشبه فنجان قهوة تركية في الصباح".

قلت ببرودة: "بالتأكيد". نهض برشاقة غير متوقعة من رجل في عمره، ومشى نحو الستائر وأحضر طاولة صغيرة مرصّعة باللآلئ، فوضع صالح الصينية عليها.

قال بتأثر: "صالح ابن شقيقي. وهناك عدد كبير من أبناء أشقائي وبناتهم يعملون معي، لكن "صالح" مميز، فهو يكاد ينتهي من دراسة الحقوق، وعندما يفعل، سيصبح مستشار دار السعادة القانوني. ربما سأتحرّر حينها من المهرجين الذين أضطر إلى التعامل معهم. بالمناسبة، هل سمعت شيئاً من هاكان ياصالح؟".

قال صالح؛ خائفاً على نحو واضح من إثارة غضب عمه: "ليس بعد ياعمي. إنه على الأرجح خارج البلدة؛ لأنه لا يُجيب على هاتفه الخلوي".

"كما ترى أيها المفتش أكّان، ندفع لهم ثروة، غير أننا عندما نحتاج إليهم لا نستطيع العثور عليهم". وعندما لاحظ عدم مبالاتي، تكلم مجدداً مع ابن شقيقه. "حسناً، تابع المحاولة واتصل به كل نصف ساعة. يجب أن نتكلم معه، فأنا لا أثق بالمحامين الثلاثة الآخرين. لا أهتم بمكانه أو بما يفعله، كل ما أريده هو أن يعود إلى هنا في أسرع وقت ممكن".

ردَّ بتهذيب مجدداً: "حسناً ياعمي".

سألت: "ألم ترسلوا ممثليكم القانونيين إلى مقر الشرطة؟".

ردّ يزدان، كما لو أنّ سؤالي غصن زيتون: "طبعاً فعلنا. لحسن الحظ، لدينا جيش من المحامين. لكن هاكان - رغم صغر سنه - لامع كثيراً. فهو ذكي جداً، ومن نوع المحامين الذين يمكن أن يطلقوا سراح رجل يلتف الحبل حول عنقه. ولسبب ما، لا يمكننا الاتصال به اليوم. لديه حبيبة روسية، وربما ذهب إلى مكان ما لقضاء النهار معها".

كنت أكثر اهتماماً بقهوتي من اختفاء هاكان.

"هذه قهوة رائعة. أرجو نقل تحياتي إلى الشخص الذي حضّرها".

بدا أن التوتر الجليدي قد بدأ يذوب حين ابتسم بفخر.

"إنّ نازيف خانم هي التي تحضّر القهوة. وقهوتها لذيذة حقّاً. أنا لا أشرب قهوة يحضّرها أحد غيرها". تناول بضع رشفات. "الآن، أين كنا؟".

أجبت بالبرودة نفسها التي تكلمت بها قبل بضع لحظات. "كنت تقول إنك ستجعل... الجرّاح الجبان يلقى حتفه".

كانت نظرة الإحباط واليأس التي بدت على وجهه لا تنسى.

قال مبتسماً بعصبية: "ربما استخدمت التعبير الخاطئ. أنت تعرف ما أعنيه ياكبير المفتشين".

"لا. أخشى أنني لا أعرف. مما سمعته، لقد قلت بصراحة إنك ستقتل ذلك الرجل".

بدا أنني قد تجاوزت الحد هذه المرة. ولا بد أنه أدرك أن جهوده كي يبدو فاتناً واجتماعياً وهادئاً ومسترخياً قد ذهبت هدراً. لذا، شدَّ قامته وشبك أصابعه حول عصاه.

قال بحزم: "يا كبير المفتشين أكّان، أنا أحد أفراد عشيرة كبيرة تعرف العنف. كان والد جدّي معروفاً باسم سيفو الشرس ، وقيل لي إنه كان يغسل يديه بدماء ضحاياه، وكان إنساناً قاسياً جداً. امتلك مساحات شاسعة من الأراضي وعشرات القرى؛ وذلك عن طريق دعوة الأشخاص الذين أراد الحصول على أراضيهم إلى العشاء، ثم خنق كل منهم والاستيلاء على أراضيهم. هذا شيء لا نفخر به، وإنما نخجل منه، ونعتبره همجية مطلقة، لكنني أقول لك هذا حتى تفهم. بعد موت سيفو الشرس ، أصبح جدّي بكر الأعرج شيخ العشيرة، وكان رجلاً مسالماً، لكن بسبب أفعال والده تعلّم كيف يقتل للدفاع عن نفسه وعشيرته وأسرته، كما تعلّم كيف يواجه الموت ويتعامل معه. خَلَفه والدي، وهو رجل عقلاني عرف أن العالم يتغير وأن الدم والسلاح لم يعودا الوسيلة في هذا العالم المتبدّل. قال لي يوماً: بني، يجب أن نغادر هذه الأرض، ونترك هذا المكان وننتقل إلى المدينة . وعندما بدأت المشاكل في المنطقة، انحاز إلى جانب الدولة؛ وأكسبه هذا القرار فوائد جمّة، لكنّه جعله أيضاً عُرضة لغضب المتمردين، فحظيت أسرتنا بنصيبها من الأسى ياكبير المفتشين. في إحدى الليالي، تعرضنا لهجوم ففقدت اثنين من أعمامي، وثلاثة من أبناء عمي، وزوج شقيقتي، واثنين من أبناء أشقائي، وشقيقي الأكبر ريزت. كما قلت، كان والدي رجلاً ذكياً، وأراد أن يحميني من مثل تلك الفظائع، وأن يرسلني إلى المدينة لينقذ أسرته، إن لم يتمكن من إنقاذ العشيرة كلها، لذا أرسلني إلى إسطنبول بعد أن أنهيت المرحلة الابتدائية مباشرة. قال لي حين ركبت الحافلة: آدم، كل آمالي معك،

وأنت من سينقل عشيرتنا إلى المدينة وينقذنا من هذه الكوابيس . في ذلك الوقت، لم تكن لدي أدنى فكرة عمّا يتكلم عنه. عندما وصلت إلى إسطنبول، أقمت مع العم صمويل من ميديات؛ وهو صديق والدي من أيام خدمتهما العسكرية. في الواقع، لم يكن صديقه فحسب، وإنما شريكه وزميله في بعض الأعمال غير القانونية أيضاً. لست أنا من يجب أن يخجل من ذلك، فقد كانا متورطين في بعض عمليات التهريب الصغيرة قبل نحو أربعين سنة. على كل حال، وصلت إلى منـزل العم صمويل الذي كان بيتاً خشبياً صغيراً مكوّناً من طابقين في أحد الشوارع الخلفية من حي مصطفى باشا. اعتنى العمّ صمويل وزوجته الخالة زيلغا بـي وكأنني ابنهما، وعرفت السبب بعد سنوات. إذ كان كل أولادهما قد توفوا صغاراً؛ قبل أن يبلغوا عامهم الأول، لذا اعتبراني هبة من الله، واستجابة لتضرعاتهما. بدأ حبـي للببغاوات في ذلك المنـزل؛ لأن والدي ثيودورا؛ الببغاء التي رأيتها في الأسفل، كانا جزءاً من الأسرة أيضاً. ترعرعت مع العم صمويل الذي كان صائغ مجوهرات خبيراً، ومع الخالة زيلغا التي كانت ألطف امرأة يمكن أن ألتقيها يوماً. نشأت وتعلّمت في كنف رعايتهما، وتحت إشرافهما وحمايتهما، وخبرت الحياة وأصبحت آدم يزدان الحالي. لقد جعلتني دماؤهما ودموعهما ما أنا عليه اليوم، وليس دموع والديّ. عندما كنت طالباً عملت في متجر المجوهرات الخاص بالعم صمويل في السوق الكبيرة في الصيف، واكتسبت معرفة بالتجارة لا يمكن لكلية إدارة أعمال أن تقدمها لي. طبعاً، لم أقطع علاقاتي بهكاري إطلاقاً، لكنني نشأت في بيئة وثقافة مختلفتين تماماً، وقد بقيت صلاتنا الأسرية قوية دائماً. أنشأت أول عمل لي في السوق الكبيرة، واشتريت متجراً من أرمني عجوز أراد أن يغادر تركيا، وفتحت ثاني متاجري في السلطان أحمد، وبعد ذلك تدفقت الأموال. استثمرت معظم ثروة أسرتي في مشروعات تجارية وفي السياحة، ومعظم أفراد عشيرتي في إسطنبول الآن، ولدينا أصول وثروة، وابنتي تدرس في جامعة في لندن، في حين يحضّر ابني رسالة الماجستير في بوسطن. أفهم الآن تماماً ما كان والدي يعنيه حين صعدت إلى تلك الحافلة عندما كنت صغيراً؛ فقد أراد إبعاد أسرتي عن الدم والجريمة والعنف". صمت عن الكلام، ونظر إلى عيني مباشرة، من دون أن يطرف له جفن. "أخبرني الآن ياكبير المفتشين، هل تصدّق حقاً أنني سأجازف بكل شيء بعد كلّ تلك الجهود والكفاح والألم؟ هل تصدّق حقاً أنني سأخون ثقة والدي بـي؟ هل تصدّق حقاً أن رجلاً هرب من الهمجية سيلجأ إليها بنفسه؟".

افتراضات ونظريات

كان الجواب من دون شك هو الإيجاب. وطبعاً، يمكن أن يلجأ يزدان إلى الهمجية، خاصة حين يتعرض العالم الذي بناه بكثير من الجهد والكفاح للخطر. وعلى اعتبار أن العنف جزء من خلفيته، يمكنه إذا شعر بالتهديد أن يقتل من دون أيّ تأنيب ضمير.

لم أعبّر عن تلك الأفكار؛ لأنها ستكون بمثابة اتهام صريح له ولم يكن لدينا بعد دليل كاف للنيل منه. عندما غادرت دار السعادة، كان الشعور الوحيد الذي خالجني عن الرجل هو أنه يخفي معلومات مهمة عنا، لكنني لم أكتشف إن كانت تتعلق بالجرائم أم بتعاملات شركته الشائنة. بدا شيء واحد مؤكداً؛ وهو حقيقة أن كلاً من مرتكبي الجرائم وصفقات آدم يزدان المشبوهة مرتبط بطريقة ما بتلك الحادثة التي لقي فيها خمسة أشخاص حتفهم.

وقفت زينب حين رأتني أقترب. كانت تجلس على مقعد خشبي خارج مقر القيادة مضاء بأشعة شمس الربيع التي تتسلل إليه عبر أوراق شجرة إجاص قديمة وهي تتناول شطيرة.

قلت وأنا أجلس إلى جانبها مستمتعاً بالراحة: "لا تقفي يازينب، فلا داعي إلى هذا. المكان جميل هنا. ماذا تأكلين؟".

عرضت عليّ الشطيرة قائلة: "هل تريد جزءاً منها ياسيدي؟". ملأت رائحة الخبز الطازج والجبن والخيار والطماطم الجوَّ، وبدت شطيرتها لذيذة.

"في الواقع، لن أمانع بتناول لقمة صغيرة، مجرد قطعة صغيرة".

قسمت الشطيرة مناصفة وأعطتني حصتي.

"زينب، ألم أقل قطعة صغيرة؟".

"إنها كبيرة على كل حال أيها المدير. صحة وهناء".

سألت وأنا أقضم لقمة من الشطيرة: "إذاً، ما آخر الأنباء؟ هل استطعت التوصل إلى أي شيء بشأن محاكمة دار السعادة؟".

"سنحصل على الملفات يوم الاثنين ياسيدي. لقد تأخرنا قليلاً في الليلة الماضية، فقد كان الوقت بعد الظهر حين أخبرتني. قرأت عن المحاكمة في الصحف قدر استطاعتي. تزعم رابطة الدفاع عن إسطنبول أن الحادثة لم تكن عَرَضية وإنما عملاً تخريبياً، ويقول أعضاؤها إن آدم يزدان جعل رجاله يدمرون جدران الحوض المتداعية أصلاً حتى يحصل على موافقة على التشييد، ومن الطبيعي أن دار السعادة رفضت الاتهامات. عمل الضحية

الثالثة، الصحفي سادان دوروكا، في الدفاع بنشاط، وكان الناطق الصحفي باسم دار السعادة".

قلت عبر أسنان مطبقة: "ومنحه يزدان شقة مكافأة له على جهوده. تفوح رائحة كريهة جداً من هذه القضية برمّتها يازينب. انظري إلى الضحايا فحسب: إنهم من الصحفيين ورجال الأعمال والمعماريين وأعضاء المجلس البلدي الذين فقدوا جميعاً أي لباقة كانوا يتمتعون بها. لدينا أيضاً أركان الشرطي السابق، الذي يجوب الشوارع ليلاً إرضاءً لمديره فقط. لقد اختفت آداب السلوك يازينب، ولم يعد هناك ما نتشبث به؛ لا شيء. أينما التفتنا، أو نظرنا، وجدنا كل شيء نتناً حتى الصميم".

"لا يسعني إلا أن أتفق معك ياسيدي. فقد تغير الناس، وبالتأكيد ليس نحو الأفضل. لكنني لا أظن أن أحداً بلغ ما بلغه سادان دوروكا في النفاق والرياء، فقد شعرت بالغثيان حين قرأت مقالاته. كان يمدح يزدان والشركة، ويصوّر الرجل بطريقة تجعل المرء يظن أنه بطل من نوعٍ ما. ولم يستثنِ رابطة الدفاع عن إسطنبول أيضاً، فقد وصف "نامق" قرمان بأنه ذو آراء متطرّفة، كما وصف أعضاء الرابطة بأنهم خونة وأعداء التقدم".

كان هناك شيء غريب بشأن ذلك التحقيق، فكل الضحايا متورطون بطريقة أو بأخرى في نشاطات غير قانونية، أو على الأقل غضّوا الطرف عنها. بدا أن لدينا مجموعتين من المشتبه فيهم: رابطة تريد الدفاع عن المدينة وإرثها التاريخي، وشركة سياحة ترغب في الاستفادة من الإرث نفسه- ونهبه عند الضرورة- لتحقيق أرباح طائلة. إذا أردت أن أكون صريحاً تماماً، لم تكن فكرة أن ليلى باركين و"نامق" قرمان مذنبان مقبولة، فنحن الثلاثة نشترك في أشياء كثيرة؛ كما أن محبتهما للمدينة، وإسهامهما في الحفاظ عليها قد أثّرا فيَّ. من ناحية أخرى، إذا تبين أن آدم يزدان هو القاتل، فأنا لا أظن أنني سأشعر بأي أسى. أياً يكن الأمر، بدا مستحيلاً بالنسبة إليّ أن أوافق بأي طريقة على الجريمة كوسيلة لتحقيق غاية؛ بغض النظر عن صدق النية أو نبلها. إن إزهاق حياة إنسان آخر، أي حياة، لا يمكن أن يحقق أي هدف، سواء أكان صائباً أم لا.

سألت متنهداً: "ماذا عن ضحايا الحادثة؟ ماذا قال أفراد أُسرهم وأقرباؤهم عن المحاكمة؟ هل حضروا الجلسة التمهيدية؟".

"لا أظن هذا؛ لأن الصحف لم تذكر شيئاً من هذا القبيل. لو كانوا قد حضروا، لكان الخبر قد نُشر في الصحف بكل تأكيد. وإذا قرروا أن يتكلموا عن دار السعادة وآدم يزدان، فسيتصدر ذلك العناوين. من يدري؟

مع اقتراب موعد المحاكمة، ربما سيغيّرون آراءهم".

"وهل استطعنا وضع أيدينا على لائحة بأسماء أعضاء تلك اللجنة؟".

"لسوء الحظ لا. لم يكن هناك شيء في الصحف أيضاً. لكن، عندما نحصل على ملف تلك المحاكمة، فسنعرف أسماءهم".

إذاً، مرة أخرى لم نكن قد حققنا أيّ تقدّم يُذكر. شعرت بأن الشطيرة جافة ويصعب مضغها وابتلاعها.

"توجد علبة من الكولا هنا إن أردت ياسيدي".

كانت تعرف أنني لا أستسيغ هذا الشراب الكريه، لكن لم يسعها إلا أن تطرح عليّ السؤال حين رأت أنني أبتلع الطعام بصعوبة. أخرجتُ العلبة من كيس ورقي موضوع على المقعد الخشبي وتناولت رشفة من الشراب سيئ الطعم، وعندما وضعتها جانباً لاحظت أن العلبة الأخرى ليست مثل علبتي.

"ما هذا الشراب يازينب؟".

قالت مرتبكة: "إنه مشروب الطاقة ياسيدي، فهو يساعد على إبقاء الذهن يقظاً".

قرأت التفاصيل على اللصاقة، وعرفت أن الشراب يحتوي على كمية كبيرة جداً من الكافيين.

"توخي الحذر يازينت كرمى لله! يبدو هذا خطراً".

قالت وهي تهز كتفيها: "لا تقلق ياسيدي، فأنا غير معتادة عليه، ولن أشرب قطرة واحدة منه حين ينتهي هذا التحقيق".

"جيد، الآن ما الأنباء عن شاحنة رابطة الدفاع عن إسطنبول؟".

"عرضنا الشاحنة على الشهود- حارس الأمن في شقق آيا صوفيا، والرجال في جامع الفاتح- لكنهم لم يكونوا واثقين؛ لأنهم ألقوا عليها سابقاً نظرة عابرة فقط. على كل حال، وجدنا فعلاً آثار دماء على لوحة التسجيل الخلفية".

سألت بإثارة: "دم! من أي زمرة دموية؟ هل هو جديد؟".

"يرجع إلى خمسة أيام تقريباً. حدّدنا الزمرة الدموية واكتشفنا أنها زمرة نجدت دينيزل نفسها، لذا نُجري حالياً بعض التحاليل على الحمض النووي لنتأكد إن كانت تخصّه. سينتهي التحليل بعد يومين".

كان ذلك نبأً واعداً. فإذا اتضح أن عينات الحمض النووي التي تم العثور عليها في السيارة متطابقة مع عينة نجدت دينيزل، فستُغلق القضية. بدت زينب- لسبب ما- غير مبالية على نحو غريب.

"لا تبدين متفائلة كثيراً يا زينب. ألا تظنين أن العينات ستتطابق؟".

قالت ناظرة إلى الساحة بكآبة: "من المبكر جداً قول هذا ياسيدي. لدينا مجرمون طليقون قتلوا خمسة أشخاص في خمسة أيام، ولم يتركوا أي أدلّة أو آثار خلفهم. إذا كانت رابطة الدفاع عن إسطنبول هي التي تقف خلف كل هذا فعلاً، فأنا لا أظن أنها من الممكن أن تترك أي آثار دماء من ضحاياها على مركبتها".

كانت محقة تماماً في ما قالته. لكن مهارة القاتل وشجاعته ورباطة جأشه لا تكون أحياناً العامل الوحيد حين يتعلق الأمر بإبقاء مسرح جريمة نظيفاً من الأدلّة، والبيّنات، والآثار، والبصمات، وشهود العيان. يمكن أن تهدد كل أنواع التطورات غير المتوقعة- ظهور أشخاص في الموقع فجأة، أو تمزق قطعة قماش ملطخة بالدماء وبقاؤها هناك، أو وجود شركاء يفتقرون إلى الكفاءة- عملية خُطط لها بعناية فائقة، كما يمكن أن تكشف أكثر المجرمين ذكاء وجرأة. كنت قد رأيت عدّة قضايا تُحلُّ بضربة حظ، ويمكن أن تكون عينات الدماء التي وجدناها في الشاحنة المغلقة البيضاء ما نحتاج إليه لإغلاق التحقيق.

"حسناً، ربما تتطابق عينة حمض نجدت النووي مع الدم الذي وجدناه. لا تزال البيانات العادية أكثر قيمة من أي عددٍ من الافتراضات والنظريات".

"لم نغفل عن أي تفصيل ياسيدي، وفريق الطب الشرعي كله يعمل على ذلك".

"برو... ذاك، ما اسمه مجدداً؟ ذلك الدواء الذي ذكرته، وقلت إنه يُستخدم لجعل الناس يفقدون وعيهم، وإنه ربما استُعمل مع الضحايا. ما اسمه؟".

"بروبوفول ياسيدي".

"هذا هو. قلتِ إن الشبان في الطب الشرعي سيتوثقون من ذلك".

"آسفة ياسيدي، لكن يبدو أنني لا أحمل أي أنباء جيدة لك اليوم. لم يُعثر على أي أثر للبروبوفول في جسد أي من الضحايا. تمّت كل عمليات التشريح بعد ثمانٍ وأربعين ساعة من الوفاة على الأقل، ما يعني أن أي آثار للمادة ستكون قد اختفت منذ وقت طويل".

بردت همّتها بعد خمسة أيام من التحقيقات، من دون التوصل إلى أي شيء يمكن أن نعمل عليه أو أي أدلّة، وبدت مرهقة.

"لا تيأسي يا زينب، فالقضايا المماثلة لهذه القضية لا تُحلُّ في طرفة

عين. لا بد أن يترك القتلة شيئاً ما خلفهم في النهاية، فهذا ما يفعلونه دائماً".

لم يكن لذلك أي تأثير في معنوياتها، وبرزت حاجة إلى تبديل الموضوع.

سألتُ وأنا أومئ نحو مشروب الطاقة: "هل يشرب علي شراب الطاقة أيضاً؟".

عضّت شفتها، فتمنّيت لو أنني لم أطرح عليها هذا السؤال. كنت قد طرحت السؤال كيّ نغيّر الموضوع، ونتكلم عن شيء آخر، لكن بدا آنذاك أنها في ورطة. فإذا أخبرتني أنه يشربه فستخون صديقها وزميلها، وإذا أنكرت الأمر فستكذب على رئيسها. ابتسمت بعد صمت شابه التوتر ثم قالت:

"يمكنك أن تسأله بنفسك ياسيدي، فقد وصل الآن".

مشى علي بهدوء، وتكشيرته البلهاء المعتادة ظاهرة على وجهه.

سأل: "ما الأمر أيها المدير؟".

قلت: "أعرف ما تفعله لتبقى مستيقظاً".

ضاقت عيناه، ونظر إلي في البداية ثم إلى زينب.

فضحكت زينب بصوت خافت قائلة: "لا تنظر إلي، فأنا لم أنبس بكلمة".

سأل علي غاضباً: "ما الذي يجري؟".

قلت مشيراً إلى علبة الشراب: "هذا. أنت تحقن نفسك بمشروبات الكافيين تلك ثم تمشي في أرجاء المكان نشيطاً جداً، من دون أن يبدو عليك الإرهاق أو التعب، في حين أوبّخ نفسي بقسوة لأنني أتقدم في العمر ولم يعد بمقدوري الاستمرار. هذا ما يجري".

ضحك: "لماذا لا تجرب القليل منه أيها المدير؟ لن يؤذيك ذلك".

قالت زينب: "لا تكن واثقاً جداً ياعلي. لا يُنصح بالإكثار من الكافيين".

قلت: "انظرا إلى من يتكلم؛ ألم تشربـي منه أنت أيضاً؟!".

"ماذا عساي أفعل غير هذا أيها المدير؟ فأنا لا أريد أن أغط في النوم أمام الحاسوب".

أصابت. لم يكن هناك ما أقوله رداً على ذلك.

"أياً يكن، سنناقش هذا لاحقاً. إذاً ياعلي، هل تكلمت مع أسرة فضلي غموس؟".

قال وهو يجلس بجانب زينب: "فعلت ياسيدي". جلس قريباً جداً منها حيث إنهما كادا يتماسان تقريباً. لم يكن سينقضي وقت طويل قبل أن يزور والدها ويطلب يدها للزواج. "لم أتمكن من التكلم مع زوجته؛ لأنها لا تزال في حالة صدمة، لكنني تحدثت مع ابنه تيمور. لقد أنهى خدمته العسكرية، وهو على وشك تولي إدارة عمل والده، ولا أعني متجر الزاوية وإنما التشييد والعقارات ومشاريع البناء واسعة النطاق. إنها القصة المعتادة، تعرف كيف تجري الأمور. يظنون أن شوارع إسطنبول ممهدة بالذهب، لذا يريدون قطعة من الكعكة أيضاً. لم أعرف إن كان الفتى منـزعجاً من وفاة والده أم سعيداً في قرارة نفسه. وسأقول إنه شعر بالدهشة أكثر من شعوره بالحزن، والحقيقة أنه قد ورث ثروة في بضع ساعات فقط. كانت لديه بعض الأشياء المثيرة للاهتمام التي قالها، فقد أبلغني أنه قبل عشرة أيام اجتمع والده مع مقدّر كيناسي، وعلى الرغم من أن الفتى لم يسمع الكثير، إلا أنه عرف أنهم يتكلمون عن آدم يزدان؛ لأن والده جاء بعد عدّة أيام إلى تيمور وقال: يجب أن نفلت من قبضة آدم يزدان، فالرجل يغرق ويريد أن يُغرقنا معه . ذلك كل ما قاله، وهو ليس بالشيء الكثير في ما يتعلق بالتفاصيل. أخبرني تيمور أن الرجال الثلاثة كانوا يحترسون من آدم يزدان، وعندما سألته عن السبب قال إنه لا يعرف الكثير؛ لأنه عاد من الخدمة العسكرية قبل أسبوعين، لكنه يظن أن الرجال الأربعة يعملون في مشروع مشترك، ويزدان هو الذي يقدم رأس المال، لكن الرياح لم تجرِ بما تشتهي السفن، فأوقفت المحكمة عمليتهم. ومن الطبيعي أنه عندما يتوقف العمل في موقع بناء، فإن ذلك يعتبر هدراً للمال. سألته إن كان يظن أن آدم يزدان قد قتل والده، فقال إن ذلك لم يخطر بباله إطلاقاً، وبدأ يفكر ملياً في الاحتمال أمامي. في النهاية، سألني إن كان هذا ممكناً، فحاولت تبديد ذلك الانطباع قائلاً له إننا لم نتوصل إلى مثل هذا الاستنتاج بعد، وإن هناك مشتبهاً فيهم آخرين، لكن الفكرة وصلته، واقترح أن يزور آدم يزدان بنفسه. حذّرته من القيام بمثل هذا العمل، وأخبرته أننا سنعثر على القتلة، وأظن أنني أقنعته في نهاية المطاف. ماذا عن آدم يزدان أيها المدير؟ ما الذي قاله؟".

"مثل تيمور تماماً. إنه يخسر أموالاً طائلة بسبب المبنى الذي لم يُنجز بعد، لكنه يرفض ببساطة أي تلميح إلى أنّ له علاقة بالجرائم، كما أنه واثق من أن "نامق" قرمان وأعضاء رابطة الدفاع عن إسطنبول قد اقترفوا عمليات القتل كلها، وهم بالمقابل يظنون أن يزدان خلف كل هذا".

حكَّ علي رأسه. "إذاً، من الفاعلون؟ آدم يزدان ورجاله، أم نامق قرمان وعصبته الصغيرة؟".

قالت زينب: "لماذا نحصر الاحتمالات بهاتين المجموعتين فقط؟". كانت الفكرة نفسها قد خطرت لي عدّة مرات، لكنها هي التي عبّرت عنها أولاً. "ربما كانت هناك محموعة أخرى قد غفلنا عنها؛ منظمة ما تريد القضاء على يزدان أو نامق قرمان، أو كليهما، أو ربما لا علاقة لها بأي منهما ولديها حساب خاص تسوّيه مع الضحايا؟ ربما هناك تكتل شركات عقاري أو عصابة لتهريب الآثار...".

رنَّ هاتفي قبل أن تسنح لها الفرصة لإنهاء ما تقوله. كان يكتا هو المتصل ليتحدث إليّ بشأن العشاء.

"كيف حالك يا يكتا؟".

"بخير يا نوزت، بخير. ما الخطة لهذه الليلة؟".

"ماذا تعني بقولك ما الخطة ؟ سنذهب إلى تاتافلا لتناول العشاء. لن تتخلّف عنا، أليس كذلك؟".

إذا اكتُشفت جثة جديدة فسأكون الشخص الذي سيُرغم على ترك أصدقائه في وضع حرج...

"طبعاً لا، فقد وعدنا يفغينا".

"رائع، فهي تتطلع قدماً إلى زيارتكما. في الواقع، إذا لم تكونا مشغولين، فلماذا لا تذهبان باكراً قليلاً؟ الطقس رائع، وسنجلس في الظل في الحديقة الخلفية".

"مهلاً، سأسأل ديمير. لا يعرف المرء أبداً ما يدور في ذهنه... نعم، يقول إن ذلك سيكون رائعاً. ماذا عن السادسة تماماً؟".

"أليس الوقت مبكراً قليلاً؟".

قال غاضباً: "ماذا تعني بقولك إنه مبكر؟ سنذهب إلى صيد الأسماك غداً، لذا سنأكل باكراً ونغادر في وقت معقول".

لم أزعج نفسي بسؤاله عن سبب عدم دعوتهما لي... الذهاب باكراً سيناسبني أيضاً؛ لأنني سأنضم بعدها إلى الشباب العاملين في عقارات الجامعين.

"رائع! تبدو السادسة توقيتاً مناسباً. سأراك حينها. انتظر، سأزوّدك بالعنوان".

"لا تقلق بشأن هذا، سنتصل بك حين نصل إلى ساحة كورتولس ويمكنك أن ترشدنا من هناك. إن الخان قرب الساحة، أليس كذلك؟".

"في الشارع خلف الساحة".

"سنراك هناك إذاً".

"أجل، لا تتأخرا".

أعظم المعماريين

لم أتأخر، وعندما مشيت في الرواق المعتم الطويل الذي عُلّقت على جدارَيْه صور للشاب ذي الشارب الكبير يورغو- والد يفغينا، رحمه الله- متّجهاً نحو القاعة الرئيسة في الخان، لم يكن دمير ويكتا قد وصلا بعد.

في الساعات الأربع التي سبقت وصولي إلى تاتافلا، قدّمت تقريراً إلى ممتاز عن آخر التطورات، بالإضافة إلى جعل المدّعي العام يمدد فترة حجز المشتبه فيهم حتى الاثنين، وذهبت بعد ذلك إلى المنـزل وحلقت لحيتي، واستعدت نشاطي، ثم بدّلت ملابسي. كانت يفغينا تولي المظهر الشخصي اهتماماً كبيراً، خاصة من أجل العشاء الذي تراه مجاملة عامة للمدعوين الآخرين، ولو أنني لم أستطع الذهاب إلى المنـزل بعد العمل، لاضطررت إلى شراء ملابس جديدة، والأسوأ أنني كنت سأضطر إلى زيارة الحلاّق. لحسن الحظ، جرت الأمور في العمل بسلاسة، واتجهت إلى تاتافلا مستقلاً سيارتي القديمة المتهالكة في الموعد المحدد، حتى إنني حظيت بالوقت الكافي لأتوقف لشراء باقة من الورود. كانت أمنيتي المتّقدة أن يتوقف القتلة عن العمل في عطلة نهاية الأسبوع، لكنني عرفت أن هذا حلم لا طائل منه، وأخبرت "علي" أن هاتفي سيكون معي، وأنه يجب أن يخبرني بأي تطورات تحدث.

لم يكن هناك أحد في الخان؛ لا نُدل، ولا زبائن أو طهاة... وكان الجو في ليل المساء المعتم والكئيب يُلخَّص بكلمات الأغنية التي كتبها يحيى كمال، وبموسيقاها التي لحّنها منير نورتين؛ الأغنية التي غنّاها مزيّن سنار بنفسه:

"دونولمز أكسامين يفكونديز، فاكيت كوك جيك/ بو صن فاسيلدير إي أومروم، نازيل جيسيرسن جيك..." [33] .

كانت يفغنيا- التي لم أرها في أي مكان- تحب هذه المقطوعات الموسيقية الحزينة.

لاحظت امرأة جالسة بجانب النافذة حين كنت أمشي نحو المطبخ لأبحث عنها. بدا من الصعب معرفة من تكون بسبب أشعة الشمس التي تغمر المكان، وظننت أنها إحدى النادلات أو زبونة تأتي باكراً. كانت ترتدي سترة بنية وثوباً أخضر فاتحاً يكاد يكون أصفرَ، وشعرها البني الفاتح ينسدل برفق على كتفيها. شعرت أخيراً بوجودي فاستدارت نحوي، ورأيت أنها هي؛ الشطر الذي يكمّلني، أجمل امرأة في هذه المدينة القديمة؛

إسطنبول التي يبلغ عمرها آلاف السنين، هذه الحبيبة هي الهبة التي تركها لي الرومان الغابرون...

قالت: "حسناً يا نوزت". كانت ابتسامتها دافئة ورائعة مثل الشمس الغاربة. "قلت إنك ستكون هنا باكراً، لكنني لم أصدّقك. أنا مسرورة جداً لمجيئك باكراً".

عكس الثوب الذي ترتديه جمال عينيها الخضراوين الصافيتين، وبدت القلادة الصفراء الضاربة إلى الحُمرة والقرطان الماثلان لها رائعة على جلدها النقي، كما بدت وجنتاها بلون الورود الحمراء القانية نفسها التي أحملها، وبدت بريئة وحيوية جداً، وتجدّد رغبة المرء في الحياة.

قالت: "كالمعتاد، استطعت العثور على أجمل الورود".

"حصلت عليها من تلك المرأة الغجرية في تقسيم. تلك التي لديها ابنة عيناها جميلتان...".

كانت عيناها تحدّقان إلى عينيَّ، وبالكاد تصغي إلى ما أقوله. بدت نقية، ومملوءة أملاً، وبريئة جداً، فلم أستطع منع نفسي وذهبت إليها وعانقتها.

همست: "اشتقت إليك". كادت الورود تسقط منها نتيجة عناقي. "مضى وقت طويل منذ أن رأيتك آخر مرة".

رائحة الخزامى على جلدها... لون الورود الأحمر القانئ... أشعة الشمس الغاربة الدافئة... الكلمات التي يغنيها مزيّن سنار... بدا لي للحظة أنها كلها تقول لي، بطريقتها الخاصة، بلغتها الخاصة، إن هناك عالماً آخر وراء عالم الألم والجريمة القاسي الذي أعيش فيه عادة؛ عالماً جميلاً وذا معنى...

تنهّدت: "مضى وقت طويل جداً، وقد اشتقت إليك أيضاً".

عندما أعادت رأسها إلى الخلف، أضعت نفسي في عينيها، في تينك الغابتين الخضراوين الداكنتين الشاسعتين... انحنيت لأقبّلها على شفتيها، وعندها تحطّم الحلم...

"يبدو أن نوزت قد وصل إلى هنا قبلنا". كان دمير قد رآنا لكنه تظاهر بأن لا شيء قد حدث. "كنّا قلقين من أن نكون قد جئنا باكراً جداً".

انتهت اللحظة السحرية، ووقفت يفغينا لترحّب بهما؛ تاركة وعداً بعالم أفضل معلقاً في الهواء ويتلاشى ببطء. لم يكن بمقدوري أن أفقد أعصابي مع صديقيَّ لذا كشّرت في وجهيهما.

قلت وأنا أشدّ قامتي لأعانق يكتا أولاً ثم ديمير: "لقد وصلت إلى هنا للتو". لم أعرف لماذا، لكنني لسبب ما كنت دائماً أقرب إلى يكتا منه إلى ديمير. على الأرجح، لأنني نظرت إلى ديمير دائماً كمنافس لي، رغم أنني لست واثقاً من نظرته إلي. "أهلاً، أنا مسرور جداً لمجيئكما".

قال ديمير: "شكراً لكِ لأنكِ دعوتنا. يجب أن أقول إنك أسطورة محلية هنا، ويبدو أن الجميع في هذا الحي يعرفونك. زوّدنا أول شخص سألناه بإرشادات دقيقة؛ حتى أدق التفاصيل".

راقبته، ديمير ذاك الجذل على نحو غريب، بخلاف الرجل الكئيب والجدّي الذي عرفته طيلة تلك السنوات. بدا مسترخياً وهادئاً، رغم أنني لم أعرف سبب مزاجه هذا؛ ربما يكون قد أنهى بنجاح عملية صعبة لأحد حيواناته المريضة.

قالت يفغينا: "شكراً لكما على مجيئكما. أنا مسرورة لأنكما استطعتما العثور على المكان بسهولة".

قال يكتا: "هذا المكان جميل". وبخلاف ديمير، بدا قلقاً وحزيناً، لكنه بذل قصارى جهده لإخفاء ذلك. كان الخان قد أيقظ المعماري النائم فيه مجدداً، فجال ببصره في أرجاء تاتافلا، مُمعناً النظر إلى الجدران واللوحات والثريات والنوافذ والديكور بعين خبيرة. "خان إغريقي أصلي... لم يبق الكثير من الأبنية المماثلة له. إنّ تمكنك من الحفاظ على مظهره الأصلي بهذا الجمال أمرٌ مدهش".

قالت يفغينا: "شكراً. في الواقع، إنها فكرة والدي، رحمه الله. أنا ببساطة أنفّذ آخر رغباته".

قال محدّقاً إلى صور الزبائن القدامى على الجدار: "إنّه خان حقيقي". دمعت عيناه. "هناك قصيدة في كل صورة هنا، ويمكن لكاتب جيد أن يؤلف ببساطة رواية كاملة من التعابير البادية على وجوه كلٍّ من هؤلاء الناس. هل تعرفين هؤلاء الأشخاص كلّهم يا يفغينا؟".

"كيف يمكن أن أعرفهم جميعاً؟ لقد التُقطت معظم تلك الصور قبل أن أولد". نظرت إلى الأسفل ورأت باقة من الأزهار المتنوعة التي يحملها يكتا، وعندها، استيقظ من غفلته وقدّمها لها. "وهذه لك، ليست جميلة مثل باقة نوزت، لكن...".

قالت مبتهجة: "لا تكن سخيفاً، إنها رائعة! لطف كبير منكما أن تأتيا باكراً. الآن، إلى أين نذهب؟ هل نجلس هنا أم في الخارج؟".

قال يكتا وعيناه الزرقاوان لا تزالان شاردتين: "في الخارج". كان يحدّق

إلى أشجار السنط في الخارج مثل رجل في منفى يتوق إلى ألوان وطنه البعيد وروائحه وأصواته. "الأمسيات جميلة في هذا الوقت من السنة، فلنستمتع بالطقس الرائع".

صمت حين أدرك أن الصوت الذي يسمعه لمزيّن سنار.

غوروبا كارسي بو صن باهسلرد كيفينس/ ياسفك إسيند هاروب أول، ياأسك إسيند غونول/ ياليل أكماليدير غوغسوموزد ياهوت غل/ دونولمز أكسامين يوفونديز، فوكيت كوك جيك [34] .

كرّر بصوت مرتعش، وتعبير الأسى في عينيه واضح تماماً: "في نهاية أمسية لن تعود... الوقت متأخر". وضع يده على كتفي قائلاً: "تأخر الوقت حقاً يانوزت".

ما الذي يزعجه؟

قلت: "ما الذي تتكلم عنه بالله عليك؟ لا يزال هناك ضوء في الخارج. هيا، لنوقف هذا الهراء السيئ، ولنجلس في الخارج".

جلسنا إلى أبعد طاولة من ثلاث طاولات تقع خلف أجمة الورود التي تزقزق فيها مجموعة من الدوري بمرح، وحيث يمام ذكر يغازل شريكة محتملة على أغصان شجرة السنط فوق رؤوسنا، في حين تتناقش سيدتا منـزل على شرفة شقة قريبة بشأن أفضل طريقة لتقديم الفلفل المحشو؛ ساخناً مع اللحم أم بارداً في زيت الزيتون. ذهبت يفغينا إلى المطبخ حاملة الأزهار لكنها عادت بسرعة مع الطاهي إحسان الذي كان مرحاً كعادته، ونادلَين يحملان صواني المازة. وفي طرفة عين، امتلأت الطاولة بأطباق الجبن الأبيض، والبطيخ، والخضار الطازجة من الحديقة، والبينيت المملح، والأنشوفة المخللة، والأشنان، وفطيرة حمّص رائعة، والكثير من الخبز الطازج، بالإضافة إلى الشراب. وعندما ظننت أن الطاولة لا يمكن أن تستوعب أكثر من ذلك، رأيت يفغينا تمشي نحونا حاملة أزهارنا في زهرية؛ فوقفنا نحن الثلاثة حين اقتربت منا.

قالت وهي تضع الزهرية في مكان قصي على حافة الطاولة، وعيناها تلمعان فرحاً: "ما أروعكم جميعاً". لم يسعني إلا أن أتذكر مشهداً من ماضيَّ؛ حين انضمت إلينا إلى الطاولة...

في اليوم الأخير من المدرسة الثانوية؛ في حفل إنهاء التخرّج، وفي قاعة مكتظّة، كنا نحن الثلاثة واقفين قرب الطاولة نفسها لنرحب بهاندان حين تدخل وتنير الغرفة بوجودها. رتّبنا نحن الثلاثة أنفسنا فوراً حين رأيناها، لكنها جلست إلى الطاولة الشاغرة بجانبنا. وقفتُ؛ منتظراً يكتا أو ديمير كي

يجلس بجانبها، لكنهما بقيا واقفين أيضاً. لم يرغب أحد منا في أن يكون الانتهازي الذي يخون صديقيه، وعرفت هاندان ذلك أيضاً، وأدركت أنها يجب أن تختار الرجل الذي سيجلس بجانبها، وتترك الاثنين الآخرين ليتعاملا مع الرفض.

قالت مشيرة إلى المقعد بجانبها: "لماذا لا تجلس يا نوزت؟". واستدارت بعد ذلك إلى صديقيَّ بعينين مترقرقتين بالدموع قائلة. "ديمير، يكتا، أرجوكما تفضلا بالجلوس أيضاً".

انتابتني مشاعر متناقضة. فمن ناحية، شعرت بالبهجة لأنها اختارتني. ومن ناحية أخرى، أحسست بالضيق لأن صديقيَّ تعرضا للرفض.

"لماذا لا تجلس يا نوزت؟". أخرجني صوت يفغينا من حفل إنهاء التخرّج، وأعادني إلى تاتافلا. بدت يفغينا مثل هاندان في ذلك اليوم...

كان الجميع جالسين وهم ينظرون إلي، فيما أنا لا أزال واقفاً مستغرقاً في ذكرياتي.

قلت وأنا أمدّ يدي إلى إبريق الشراب: "كنت، سأسكب الشراب. ناولوني كؤوسكم".

قال ديمير الذي كان لا يزال مرحاً على نحو غريب فيما كنت أسكب الشّراب: "تبدو هذه المازة مدهشة. لا أتذكر آخر مرة تناولت فيها فطيرة الحمص".

اضطرت مضيفتنا أن تحذّرنا بتهذيب: "لا تُكثروا من تناول المازة! لم نُحضِر الطبق الرئيس بعد. لدينا سمك طازج من البحر المتوسط".

قال ديمير بسعادة: "لا يسعني الانتظار. لدي دائماً مكان للسمك".

لم يكن هناك داعٍ لأسأل أيّاً منهما عن الشراب المفضل لديه، فقد تناولت الشراب معهما عدّة مرات، وأعرف ما يفضّلانه عن ظهر قلب. رفعت يفغينا كأسها وهزّته برفق.

"أهلاً وسهلاً بكم جميعاً".

قال ديمير رافعاً كأسه: "نخبكم جميعاً".

لم تكن كآبة يكتا قد زالت، لكنه انضم إلينا أيضاً، وقال: "نخب الصداقة؛ الصداقة الدائمة".

قالت يفغينا وهي ترى القنوط في عيني يكتا وتحاول أن تحسّن مزاجه: "ونخب الحياة. آمل أن تبتسم لنا الحياة دائماً".

كان الطبيب البيطري هو من أجاب، وقد تغيّر التعبير على وجهه، وحلَّ أسى عميق مكان الابتهاج، فتكلم بملل مثل رجل جهّز نفسه للهزيمة:

"نخب الحياة... تلك الحياة التي ستمتد طويلاً بعد أن نتحول جميعاً إلى تراب...".

ماذا حدث لهذين الرجلين!؟

أعلنت بعناد: "نخب الحياة؛ الحياة التي تستحق أن نعيشها رغم كل مشاكلها ومحنها. نخب الحياة التي سنعيشها كاملة، وسنستمتع بها قبل أن نتحول إلى تراب".

أقرُّ أنني قد بالغت قليلاً، لكنني أحدثت التأثير المطلوب. أولاً، بدأت يفغينا تضحك، ثم ديمير، ثم أنا ويكتا، ورفعنا جميعنا كؤوسنا مرة أخرى.

قلنا: "نخب الحياة"، وتجرعنا شرابنا.

قال يكتا: "كانا دائماً على هذه الحال". بدا أكثر ارتياحاً الآن. "إذ يحاول كلّ منهما دائماً أن يتفوق على الآخر، وهما مثل زوجٍ من الطواويس المزهوة بنفسها. عندما كنا صغاراً، كانا يقعان دائماً في المشاكل؛ فقط ليتحدّيا بعضهما".

سألت يفغينا وهي تتناول القليل من الجبن الأبيض: "وأنت؟ ألم تتورط في شجارات مطلقاً؟".

قلت: "طبعاً فعل". أردت إخراجه من حالة الكآبة فتابعت قائلاً: "لا تدعي بنيته الضئيلة تخدعك، فالدم الذي يجري في عروقه فاسد حقاً. إذا شعر أنه تعرّض للظلم، فهو لا يسامح ولا ينسى أبداً. يا الله! بإمكان هذا الرجل أن يحمل كراهية بشعة".

قال ديمير: "وهو صبور أيضاً. سينتظر وقتاً طويلاً، وعندما يحين الوقت المناسب، سيثأر لنفسه".

لم يكن الحزن في عينيه قد اختفى تماماً، لكن يكتا بدا مستعداً لبعض المزاح الودّي.

"أنت من جعلني على هذه الحال، أيها العلجوم!".

قلت: "هل تتذكر ما فعلته بذلك الفتى من كاراغومورك؟".

"لا، ماذا فعلت؟".

"ماذا فعل؟ هيا أخبرنا!". كانت يفغينا متشوقة لسماع القصة.

"رمى عليه حجراً فقط، وأصابه بين عينيه مباشرة". اختلج وجهها رعباً. فأضفت؛ محاولاً التخفيف من أثر النبأ: "لا تفهميني خطأ، قلت إنّ من تشاجر معه كان فتى، ولكنه في الواقع كان وغداً من الطراز الأول، ويبحث دائماً عن شجار، وينخرط في المشاكل على الدوام. كان بضعف حجم يكتا".

قال ديمير داعماً كلامي: "هذا صحيح. كان الفتى يشبه الدب في بنيته، ويمكنه أن يبرّحني ضرباً بسهولة؛ فضلاً عن يكتا".

ضحك يكتا مقراً أخيراً بصحّة القصة: "رميت ذلك الحجر اللعين بسببك في المقام الأول! أم إنك نسيت؟ كان قد حصرك في الزاوية، وعلى وشك أن يخنقك". استدار إلى يفغينا وأشار إلي. "وفي ما يخص صديقك هنا، كان مشغولاً بضرب شخص آخر طوال الوقت". هزّت رأسها؛ متظاهرة أن القضية برمّتها قد أثارت غضبها. بدا أن يكتا قد تخلص أخيراً من الغيوم السوداء. "بحقّك يا يفغينا، كنا أطفالاً فحسب، وكان ذلك الفتى يخنق ديمير فتصرفت بطريقة فطرية، وأمسكت أقرب حجر إليّ وضربته به على رأسه".

قال ديمير متابعاً سرد القصة: "تكوّر الفتى على الأرض من دون حراك. في البداية، شعرت بالارتياح، لكنني عندما رأيت أنه لا يتحرك، شعرت برعب شديد".

"في اللحظة التي ضربه الحجر فيها سقط على الأرض، وأتذكر أنني فكّرت حينها: أوه تباً، لقد قتلناه . ذُعرت عُصبة أصدقائه الصغيرة أيضاً، لكن لحسن حظنا وصل الحدّاد ياني بابا إلى هناك في الوقت المناسب، واستخدم بعض الماء والنشادر لإيقاظ الفتى، ثم نقلناه إلى العيادة في آخر الطريق، وهناك تمّ الاهتمام بالجرح البليغ في رأسه. أتساءل يا نوزت، لماذا لم نؤخذ إلى مركز الشرطة؟".

جرى ذلك منذ وقت طويل، حتى إنني لم أكن واثقاً من السبب.

"كيف لي أن أعرف؟ ألم نؤخذ إلى مركز الشرطة؟".

قال ديمير؛ الشخص الذي يتمتع دائماً بذاكرة حادة: "لا، لم نؤخذ؛ فقد كان الفتى خائفاً من والده. قال إن أباه سيضربه على نحو أسوأ إذا اكتشف أنه كان يتعارك مع الآخرين، لذا لم يقدّم أيّ شكوى وانتهت المسألة".

بدا كل شيء مشوشاً، وضائعاً في غياهب الوقت...

سألتُ: "جدّياً، لماذا كنا نتشاجر دائماً مع أولئك الأولاد؟".

قال ديمير: "تعرف كيف هو الأمر؛ مشادات بين أبناء الحي، وتلك هي حال جميع الأولاد".

يمر الجميع بتلك اللحظات؛ حين يتكلمون من دون تفكير، وحين لا يدركون ما يقولونه. كنت على وشك أن أحظى بلحظة مماثلة.

"لكن، لماذا اندلع الشجار في المقام الأول؟ هل كان ذلك بسبب كرة

القدم ومن سيستخدم الحديقة؟".

قال ديمير رافعاً كأسه: "من يدري؟ لنشرب".

كان يكتا قد انكفأ على نفسه مرة أخرى، ولم أتمكن من معرفة سبب اندلاع الشجار مع أولئك الأولاد، وحاولت جاهداً أن أتذكر، ولم أزعج نفسي بالتفكير في ما كنت أقوله.

صرخت: "لا، لم تكن كرة القدم هي السبب، فقد كنا متعادلين مع ذلك الفتى. لقد هدّدناه بشأن شيء ما، لذا أحضر رفاقه إلى بلاط لمواجهتنا. لماذا هددناه؟".

كنت قد اقترفت خطأ فادحاً من دون أن أدرك، ووقعت كلمات يكتا علي مثل حد السيف.

"بسبب هاندان...".

كان الوقت قد فات، فبعد أن فُتح الموضوع، أراد يكتا أن يواجه عفاريت ماضيه ويقهرها.

"كانوا يضايقونها. في الواقع، أنت من هدّده يا نوزت، ألا تتذكر؟ حذّرته من أنك ستبرّحه ضرباً إن رأيته يقترب منها مجدداً".

تذكرت؛ كان يكتا وديمير يقفان خلفي حين واجهت الفتى... تذكرت، لكن بعد فوات الأوان، وبعد أن أصبح طمس تلك الذكرى أمراً صعباً. بقيت الحادثة كما هي، لكن الأولاد الثلاثة الذين اختبروها حينها أصبحوا رجالاً راشدين اليوم، وتلك الأيام الخوالي قد أفسحت مجالاً لحاضر مؤلم وكئيب. لعنت نفسي ألف مرة، فقد جلسنا صامتين وكأن الطير على رؤوسنا، وأردت كثيراً أن تهبَّ يفغينا لنجدتي، وأن تقول أو تفعل شيئاً ما لتعيدنا جميعاً إلى الحاضر ولتعيد جوّ المرح، لكن يكتا تكلم قبل أن تتصرّف.

تنهّد: "غريب كيف أننا نتكلم عنها". حمل صوته الأسى لكنه بدا ثابتاً أيضاً. "تعرف يا نوزت أن غداً ذكرى... وفاتها". لهذا السبب بقي مكتئباً طيلة المساء... "هاندان ويوموت... كان لدي ابن يا يفغينا؛ اسمه يوموت، وعمره تسع سنوات، ولا يزال في الصف الثالث الإبتدائي. قالوا إن عينيه لوالدته وابتسامته لي". سحب نفساً عميقاً ثم قال مشيراً إليّ وإلى ديمير: "هاندان... كانت... صديقتنا نحن الثلاثة. نوزت وديمير... رحلا، غادرا بلاط كي أتمكّن من البقاء معها". حاول أن يبتسم لكن المحاولة باءت بالفشل. "ربما كان مكري ودهائي ما جعلاها زوجة لي". كان من الصعب معرفة ما يفكّر فيه ديمير؛ لأن رأسه مطأطأ. "خرقت عهدنا، فقد كان بيننا نحن الثلاثة عهد غير مصرّح به بأن هاندان خارج الحدود. لم يكن أي منا ليضع

إصبعاً عليها أو يحاول التودّد إليها، وكنت أنا الشخص الذي خرق ذلك العهد". بدا أنه يحاول إقناع يفغينا، لا صديقيه القديمين. "لكن، أنا وهاندان... لم يكن هناك أحد غيرنا في بلاط، فقد تركنا هذان الاثنان وحدنا. أعرف أن ما فعلته كان تصرّفاً شائناً، لكن لم يكن من الممكن أن أراها وهي تتزوج شخصاً آخر. لا أعرف إن كان ديمير أو نوزت سيفعلان الشيء نفسه في حال واجها الموقف نفسه، لكنني فعلت ذلك، وتزوجتها". ابتسم بوهن مجدداً وتابع: "وغداً... غداً ذكرى وفاتهما".

أطبق عليه صمت كئيب، وسكن كل شيء آخر؛ كل شيء. فقد توقفت زقزقة طيور الدوري في الأجمة، وتودّد اليمام إلى أنثاه على شجرة السنط، وكلام السيدتين على الشرفة؛ توقف الكلام والزقزقة والغناء معاً، وأضحت الحديقة في حال أسى عميق، ولم يجرؤ أي منا على الكلام. ولو أن هاتفي لم يرن لبقينا جميعاً واجمين لمدة لا يعلمها إلا الله؛ في ذلك الصمت ثقيل الوطأة.

كانت ليلى باركين هي المتصلة، وبدا من المناسب أن أبتعد عن الطاولة لكنني لم أستطع. لذا، أجبت على اتصالها وأنا جالس إلى الطاولة، من دون أن أزعج نفسي بالوقوف؛ ربما على أمل أن تُخرجنا هذه المكالمة من حالتنا الكئيبة.

"مرحباً أيها المفتش أكّان". بدت غاضبة. "يبدو أن "نامق" سيبقى محتجزاً في السجن، ولن يُطلق سراحه".

قلت مانحاً نفسي بعض الوقت لأستجمع قواي: "عذراً، ماذا تقصدين؟".

"نامق، لن يُطلقوا سراحه. قال المحامون إنه سيبقى رهن الاعتقال حتى يوم الاثنين. هل هذا صحيح؟".

على الأقل، كانت المكالمة قد أخرجت الثلاثة الآخرين من حالة الشرود الصامت، فأشرت إلى الهاتف معتذراً منهم.

"أخشى هذا يا آنسة باركين. وُجدت آثار دماء في مؤخر الشاحنة".

أرهفت يفغينا ويكتا وديمير السمع حين سمعوا كلمة دماء.

"ربما يكون ذلك الدم موجوداً هناك بسبب إصابة ما؛ أنف مكسور ربما، أو جرح، أي شيء".

"أنا واثق بذلك. لا بد من وجود سبب مقنع تماماً، لكن يجب أن تفهمي أن هناك خمس جثث بين أيدينا. أنا واثق أنك تقدّرين حقيقة أن علينا التوثق من بقع الدم تلك. أرجو ألا تقلقي، فأنا حريص على أن يجري تحليل الدم بفاعلية وفي أسرع وقت ممكن. يجب أن نحصل على

النتائج بعد يوم أو اثنين، ما يعني أن السيد قرمان سيخرج يوم الاثنين".

كان رفاقي الثلاثة يرهفون السمع إلى كل كلمة أقولها. بدا جيداً أن أراهم يعودون إلى الواقع أخيراً، رغم أنه لا يمكن قول الشيء نفسه عن ليلى باركين.

"إذاً، أتقول إنه يجب أن يقضي يومين في الاحتجاز؟".

"أخشى أنه ليس لدينا خيار آخر. إذا كان هناك شيء يمكنني فعله...".

"أين سينام؟".

"حسناً، ربما ليست الأماكن لدينا مريحة جداً، لكن يمكنهم أن يستلقوا ويناموا".

"لن يشعر بالجوع، أليس كذلك؟".

"إطلاقاً لا تقلقي بشأن هذا، سأتوثق شخصياً من أن يحظى السيد قرمان بعناية جيدة".

المرأة المسكينة، لم يكن لديها خيار إلا قبول الوضع.

"حسناً أيها المفتش أكّان، نامق أمانة بين يديك".

"اطمئني، سيكون بخير، ولن يحدث له شيء".

شكرتني وأنهت المكالمة.

قالت يفغينا بدهشة: "خمس جثث؟".

عادة، لم أكن أتكلم عن مثل هذه القضايا خارج العمل إطلاقاً، لكنني عندما رأيت تحديق الثلاثة إليّ بذهول، ونسيانهم محنهم، قررت إبلاغهم بالتفاصيل وبما يجري في ذلك الوقت. على كل حال كانوا سيقرأون عن الأمر في الصحف.

"هذه القضية من أكثر القضايا التي عملنا عليها منذ وقت طويل تعقيداً. إذ يُستهدف أفراد معينون ويُقتلون، ثم تُترك جثثهم في مواقع محددة ذات أهمية تاريخية".

قال ديمير وهو يميل إلى الأمام ومرفقاه على الطاولة: "غريب! أتعني أنهم وضعوا الجثث قرب المباني والصروح العثمانية القديمة؟".

"لقد فعلوا ما هو أكثر من هذا بكثير؛ فقد تركوا ما يشير إلى صروح يرجع تاريخها إلى بيزنطية".

"بيزنطية؟".

شرح يكتا: "إنه اسم هذه المدينة الأصلي، قبل اسمها الروماني".

كنت سعيداً باختفاء بؤسه وقراره مشاركتنا الحوار.

قلت مشجعاً إياه: "حسناً يا يكتا، يبدو أنك تملك بالتأكيد معلومات

وافية عن هذا الموضوع".

"حسناً، أنا أعرف عن هذا الموضوع بالطبع، بعد كل تلك السنين التي أمضيتها في دراسة تاريخ العمران في المدينة. ما أريد معرفته هو المواقع البيزنطية التي تركوا الجثث فيها".

"صرح لم يعد موجوداً الآن؛ في الموقع الذي يُظن أن معبد بوسيدون كان قائماً فيه، في سارايبورنو".

"وكيف تعرفون أنهم يلمّحون إلى المعبد؟ قلت للتو إنه لا يوجد معبد من أي نوع هناك الآن".

"من القطعة النقدية التي تركوها...". كانوا يصغون إليّ بذهول. "قطعة نقدية ترجع إلى العصر البيزنطي وُجدت على الجثة. تُركت قطع نقدية أخرى أيضاً على الضحايا الآخرين، يعود تاريخها إلى قسطنطين، وثيودوسيوس الثاني، وجستنيان...".

سألت يفغينا: "كانوا أباطرة رومانيين، أليس كذلك؟".

"فعلاً، لكن ليس هم فقط. فقد عثرنا أيضاً على قطعة نقدية سُكّت في أثناء عهد السلطان محمد. ووجدنا جثة أخرى أمس؛ أُرسل الرأس إلى متحف توبكابي، في حين وُضع الجسد في جامع الفاتح".

جفّت الدماء في وجه يفغينا.

"يا الله! هذا فظيع! كيف يفعل أيّ كان أموراً كهذه!؟".

"هذا فظيع، نعم، لكن أسوأ شيء هو أن عمليات القتل ستستمر كما يبدو، ونحن الآن نحاول اكتشاف المكان الذي سيتركون فيه ضحيتهم التالية".

نظرت إلى يكتا الذي كان غارقاً في مياه بؤسه السوداء العميقة مرة أخرى. "لقد درست الهندسة المعمارية يا يكتا. أين تظن أنهم سيضعون الجثة التالية؟".

"ماذا؟ وكيف لي أن أعرف هذا؟".

"فكّر قليلاً، أي السلاطين بعد السلطان محمد سيكون هدفاً لهم برأيك؟ أين سيُلقون ضحيتهم التالية؟".

عبس وأمعن التفكير في السؤال قليلاً.

"حسناً، بعد الفاتح حكم ابنه بايزيد الثاني، وهناك جامع يحمل اسمه في ساحة بايزيد. ثم جاء بعده السلطان سليم، وصرحه في كارسامبا، ثم القانوني؛ السلطان سليمان". ومضت عيناه. "طبعاً، تتعقّد الأمور حين نصل إلى السلطان سليمان، لأن المعماري سنان ظهر في المشهد آنذاك. فإذا كان القتلة سيشيرون إلى بناء يرجع إلى زمن سليمان، فمن الممكن أن يلجأوا

إلى أيٍّ من مباني المعماري سنان. فهناك مجمّع جامع خاصكي، وجامع شهزاد، وجامع السلطانة ميهريمه، وجامع السليمانية...".

"أيها تختار؟".

سألني مؤنباً: "ما الذي تحاول أن تقوله؟ أتقول إنني أقرأ أفكار القاتل؟".

صرخت ساخطاً: "نحن نفترض فحسب، ولسنا واثقين إن كان الأشخاص المسؤولون عن الجرائم أشراراً حقاً بالمعنى التقليدي للكلمة. لمعلوماتك - وهذا بيننا نحن الأربعة فقط - كان جميع الضحايا متورطين في قضايا فساد من نوعٍ أو آخر، وقد جنوا كلهم الكثير من الأموال من استغلال المدينة وإرثها التاريخي".

اعترضت يفغينا: "لكنهم لا يستحقون الموت غيلة. ليس صواباً أن يشعر المرء بهذا التقدير أو الاحترام تجاه قتلة. لا أهتم إن كانوا يظنون أن أفعالهم مبررة، فهم مجرمون بكل بساطة".

قلت متمنياً أن يهدأ الجميع ونعود إلى صلب الموضوع: "أتفق معك. كنت أحاول فقط إلقاء بعض الضوء على الوضع، ورؤيته من زاوية أخرى"، لكن ديمير انضم إلى جوقة المعارضين.

"أنت لا تتفق معها يا نوزت، فقد قلت أشياء مماثلة من قبل، ولا تزعج نفسك بأن تبدو مظلوماً. كان يكتا موجوداً حينها أيضاً، وهو شاهد على ما حصل!".

"ماذا؟ شاهد على ماذا؟".

"هل تتذكر ذلك اليوم الذي خرج فيه نوزت معنا على متن أغورا؟".

قالت يفغينا بإثارة: "أغورا؟ أتعني الخان القديم في بلاط؟".

"لا، أغورا هو اسم مركبنا. أطلق والدي عليه هذا الاسم لأنه أحب تلك الخانات الصغيرة، وكان الخان المفضل لديه هو أغورا الذي لم يكن يبعد كثيراً عن منـزلنا. هل تتذكر رحلة الصيد تلك يا يكتا؟ جرى ذلك في الخريف الماضي...". كل ما استطعت فعله هو استحضار بعض الصور الباهتة والانطباعات المبهمة. "كان البحر ضبابياً، ولا يوجد أحد سوانا هناك؛ لا مراكب أخرى، أو طيور نورس، لا شيء إطلاقاً. بدا البحر خاوياً تماماً من أي مخلوق حي آخر".

قال يكتا: "نعم، أتذكر الآن. كان المنظر من القارب مدهشاً! شاهدنا الضباب يرتفع من البحر، ويحجب عن الرؤية كل تلك المباني البشعة على البر الرئيس. لم يكن من الممكن رؤية شيء؛ إلا مآذن آيا صوفيا وقبتها

وأبراج قصر توبكابـي. بدا لنا حينها أننا في رحلة نحو مدينة عائمة وغامضة".

أصبح شكل المركب القديم البالي والمقرقر في أثناء توجهه إلى الساحل أوضح في ذهني.

"نعم، أتذكر. أنت محق، كان الضباب كثيفاً جداً في ذلك اليوم، ولم يكن بمقدورنا رؤية شيء تقريباً. كانت إسطنبول كلها مغطاة بضباب أبيض كثيف".

همس ديمير: "كان ذلك الصباح غريباً. لم نرَ أحداً آخر هناك، وبدا لنا كما لو أن مخلوقاً أسطورياً قد استولى على البحر".

لم يكن من الممكن أن أترك ديمير؛ الشخص الأكثر منطقية وحصافة بيننا جميعاً، يخضع لمثل ذلك الهراء المتكلّف.

"كان الضباب كثيفاً حينها، ولم يكن ذاك اليوم يوم حظنا أيضاً. قضينا النهار كله في البحر، ولم نصطد سمكة واحدة".

قال ديمير: "حسناً، أياً يكن. كنا ثملين قليلاً في تلك الرحلة، ثم وقفت وقلت: انظرا كم تبدو هذه المدينة جميلة . كنت غاضباً، وتابعت: إنهم يدمّرون هذا الجمال، وينهبون مدينتنا، ولا يمكننا فعل شيء بشأن هذا ".

"هل قلت حقاً كل ذلك؟". لم أتذكر أنني قلت شيئاً مماثلاً.

قال يكتا: "حرفياً، هذا بالضبط ما قلته. لم أرك مملوءاً كراهية واشمئزازاً إلى ذلك الحد من قبل قطّ. قلت حينها إن أي شخص يؤذي المدينة يستحق الموت".

"آه، أرجوك، لم أقل قطّ شيئاً من هذا القبيل".

قال ديمير رافعاً حاجبيه: "لكنك فعلت، وقد تشاجرنا بشأن هذا. فقد قلت لك حينها إن القتل خطأ وهو كذلك دائماً، فوافقت لكنك مضيت قدماً وقلت إن الجناة يُطلق سراحهم بعد اعتقالهم. قلت: القانون يصل إلى هذا الحد فقط، لكن العدالة لا تتحقق أبداً. الشوارع مملوءة بمحتالين، ومخادعين، ولصوص، ومجرمين لا يخافون إطلاقاً. إذا استطعنا فقط ...".

قلت: "أنتما مجنونان أيها الشابان". لم يبدُ أيٌّ مما يقولانه صحيحاً. "لن أوافق إطلاقاً على اقتراف جريمة، أبداً؛ بغض النظر عن السبب".

"كنت ثملاً يا نوزت. ربما كنا نرى نوزت الحقيقي؛ الشخص الذي ينبثق للعيان حين يخلع بزّته الرسمية".

قلت وأنا أشعر بالحاجة إلى الدفاع عن نفسي، رغم أن أيًّا منهما لم يكن لديه سبب للكذب: "حسناً، ربما تناولت بضع كؤوس، وربما أفرطت في

احتساء الشراب على نحو جعلني أفقد المنطق".

"لقد تناولت بضع كؤوس فعلاً، لكن ذلك لا يُعتبَر سبباً وجيهاً لتفقد أي إحساس بالعقلانية".

قلت ماداً يدي إلى كأسي: "إذاً، كنت مخطئاً. بغض النظر عن عدد البائسين الوضيعين في الخارج الذين يدمّرون مدينتي - مدينتنا - كنت مخطئاً إن قلت إن قتلهم هو الحل". رفعت كأسي. "نخبكم".

لامست يفغينا كأسها بكأسي قائلة: "ليس للموت، وإنما للحياة".

كرّرنا: "للحياة". لكن، عندما وضعنا كؤوسنا جانباً، لم يتركنا الكلام عن الموت والقتلة وشأننا. في الواقع، كنت أنا من أثار الموضوع مجدداً.

"إذاً يا يكتا، في ما يتعلق بتلك الصروح التاريخية، أين تظن أنهم سيتركون ضحيتهم التالية؟".

قال من دون أن يشعر بالإهانة هذه المرة: "لا أعرف المنطق الذي يتّبعه أولئك الأشخاص. لكن، لو كنت مكانهم، كنت سأختار جامع السليمانية الذي يُعتبر ببساطة أروع مباني حقبة سليمان، وذروة فن العمارة، ورمز السلطة العثمانية، وبالتأكيد أحد أعظم إنجازات المعماري سنان من بين مئات المباني التي شيّدها".

سألت يفغينا متشككة: "مئات المباني! لست جاداً! هل بنى هذا العدد حقاً؟".

قال يكتا وهو ينطق كل كلمة ببطء ووضوح: "أربع مئة مبنى. لا أحد يعرف العدد الدقيق بالتحديد، لكن معظم المؤرخين يقولون إنّه شيّد أربع مئة مبنى تقريباً، وليس في إسطنبول وحدها أيضاً وإنما في كل أرجاء الدولة العثمانية؛ من دمشق إلى أدرنه. وجامع سليم الذي يقال إنه أروع أعماله موجود في أدرنه مثلاً. وبالإضافة إلى الجوامع، صمم أيضاً وبنى مدارس دينية، وأضرحة، ودور صدقات، ومستشفيات، وحمّامات عامة، وبيوت ضيافة، وخانات، ومبانيَ تجارية، وقنوات، وجسوراً، ومنازل مزارع، وقصوراً... كلها في الحياة التي عاشها".

قلت متذكراً أحاديثي مع والدتي: "لكنه عاش حياة مديدة أيضاً، وتوفي عن عمر يناهز مئة عام تقريباً".

"توفي حين كان في التسعين من عمره أو نحو ذلك، نعم. ولو عاش وقتاً أطول بقليل، لبلغ المئة بالتأكيد. تعتبر إنجازاته مدهشة حقاً".

قالت يفغينا: "دعونا لا ننسى الدولة العظيمة التي رعته. فقد عاش في أثناء أوج ثروة الدولة العثمانية ونفوذها".

"بالتأكيد. فلو لم يلقَ دعماً من مثل تلك الدولة الغنية، لما حقق ذلك النجاح منقطع النظير. صحيح أنه كان معمارياً مميّزاً، واستطاع برعاية الدولة العثمانية تشييد كل تلك الأعمال المميزة، لكن إذا سألتني عن رأيي، فسأقول إن تحفته الفنية الحقيقية هي هذه المدينة نفسها. إذ يمكن أن يشعر المرء بحضوره وإرثه في كل زاوية من إسطنبول، ليس في شبه الجزيرة فقط، أو ضمن أسوار المدينة القديمة، وإنما في كل مكان أيضاً. فقد بنى مسجداً في بلاط؛ جامع فروح كشودا في أيفانساراي".

أضفت: "لا تنس الجامع في درامان، ماذا كان يدعى مجدداً؟".

"جامع يونس بيك".

أضاف ديمير: "وهناك ذلك الجامع الآخر أيضاً، في إغريكابي بجانب سجن أنيماس القديم...".

"ذلك جامع عيواظ أفندي، لكن هذا ليس كل شيء، فعدد الجوامع التي أنشأها لا يُحصى. لدينا مسجد كارا أحمد باشا في توبكابي، وجامع زال محمود باشا في أيوب، وجامع سنان باشا في بشكتاش الذي خرّبه أشخاص استخدموا أرضه كطريق للعبور، ثم هناك ضريح باربروس باشا في المتنـزه على الطرف الآخر من الشارع؛ بالإضافة إلى الجامع الذي بناه للسلطانة ميهريمه في الساحة في أوسكودار. وهناك جامع شمس أحمد باشا على شواطئ أوسكودار، وجامع الشيخ جلبي في فينديكلي، ونسخة مصغّرة عن آيا صوفيا؛ جامع كيليج علي باشا، في سالي بازاري. هل كنتم تعرفون أن سرفانتس اشتغل فعلاً كعامل في جامع كيليج علي باشا؟

إنّ إنجازات سنان المعمارية لا تُعد ولا تُحصى: ضريح السلطان سليم الثاني في أرض آيا صوفيا، ومآذن آيا، ودعامات سرادق مراد الثالث في قصر توبكابي...". كان صوته قد ارتفع. "اسمعوا، أواجه مشكلة في تذكّر إبداعاته وتسميتها، لكن الرجل جلس في الواقع وفكّر في كل تفصيل في كل مشروع نفّذه؛ في القبب، والقناطر، والمآذن، والمداخن، والأعمدة، والبوابات، والنوافذ، والساعات الشمسية، والمحراب ، والنوافير، والمنابر، والآجر، والخزف، والتصميم الداخلي، والزجاج الملون...

في الواقع، كان شديد الاهتمام بالتفاصيل؛ ما جعله يقع في ورطة تقريباً في أثناء بنائه جامع السليمانية. فقد نشر منافسوه شائعة بأنه لن ينهي الجامع في الوقت المحدد، ووصلت الشائعة إلى مسمع السلطان، فامتطى صهوة حصانه فوراً وذهب لرؤية المعماري وجأر: أيها المعماري المحترم، لماذا أهملت جامعي وشغلت نفسك بدلاً من ذلك في قضايا

ثانوية ؟ ألا تتذكر مصير معماري سلفي المجيد، السلطان محمد الفاتح ؟ ارتعش المعماري سنان مثل ورقة في مهبّ الريح خوفاً من غضب السلطان، وعقد الخوف لسانه. أخبرني، متى سينتهي هذا الجامع؟ أجبني فوراً وإلا ستكون العواقب وخيمة . تمتم المعماري العظيم مطأطئاً رأسه: إن شاء الله، سيكتمل جامع جلالتك بعد شهرين .

استدار السلطان إلى أحد مساعديه وقال له؛ ظناً منه أن المعماريّ قد جُنّ رعباً: أنت، اسأل هذا الرجل متى سيكون جامعي جاهزاً . فعل المساعد ما طُلب منه، وطرح السؤال على سنان المرتعش خوفاً، فأجاب الأخير بكل الشجاعة التي استطاع حشدها: عند انقضاء الشهرين، سيكون الحجر الأخير قد وُضع في مكانه .

أشار السلطان إلى أفراد حاشيته، وأعلن أنهم شهود على وعد سنان قائلاً: سيكون رأسك هو الثمن إذا لم يكتمل البناء بعد شهرين . على كل حال، عندما عاد إلى القصر، فكّر في الأمر مرة أخرى، واستدعى مستشاريه وقال لهم: المعماري مجنون تماماً، هل يمكن إنجاز عمل يستغرق عقوداً في شهرين فقط؟ فقد الرجل المسكين عقله بسبب الخوف. استدعوه، واسألوه مجدداً وتوثقوا من جوابه. إذا كان رده هذه المرة مناقضاً لجوابه السابق، فسيكون تشييد هذا المبنى عملاً شاقاً . وعندما طُرح على سنان السؤال نفسه مرة أخرى، أجاب: وعدت جلالته أنه سيكون جاهزاً بعد شهرين. إن شاء الله سأفي بوعدي، وستتذكرني الأجيال مستقبلاً بإعجاب . عاد مستشارو السلطان إلى القصر، وأبلغوا السلطان بذلك قائلين: يا صاحب الجلالة، الرجل متحمس جداً، ويقول إنه سيكتمل قريباً. وهو يتضرّع إلى الله كي يؤدي المؤمنون صلواتهم في جامع جلالتك قريباً . بعد شهرين، أُنجز الجامع، وسلّم السلطان الذي أدرك أنه ربما أخطأ بحق المعماري وعامله بقسوة المفاتيح إلى سنان قائلاً له: لقد شيّدت بيت الله هذا بإيمان صافٍ وقلب خاشع، لذا يجب أن تفتح أنت أبوابه إلى العالم".

كانت تلك عبقرية المعماري سنان. وهو لم يكرّر أيًّا من أعماله مطلقاً. فكل مبنى شيّده فريد من نوعه، وأصلي بحد ذاته". ظننت أنه قد أنهى كلامه، لكنني رأيت اللمعان في عينيه وهو يقول: "إذاً، ياعزيزي نوزت، لو كنت أنا القاتل، لما أشرت إلى الإغريق أو الرومان أو العثمانيين، وإنما إلى سنان مباشرة؛ لأنه لا يوجد شخص آخر- من بين كل الملوك، والأباطرة، والسلاطين، ورجال الدولة الذين جاءوا وذهبوا- قد مَنح هذه المدينة ما قدّمه لها".

مدينة سنان عاصمة سليمان الفخمة

كان سنان يحدّق إلى بيت الله؛ نحو القبة الرئيسة التي تبدو معانقة السماء، والقبب الأصغر حجماً المنتشرة حول القبة الرئيسة مثل كواكب تحيط بالشمس، وإلى المآذن الأربع التي تسبح في الزرقة المتناهية، وشرفات المآذن المزيّنة بخبرة بأعمال تخطيط معقّدة، والأهلّة فوق المآذن التي تبرز مثل رايات في السماء الشاسعة، والقناطر التي تشبه أقماراً ولن تفقد رونقها أبداً، والأعمدة التي يمكن أن يقضي المرء حياته كلها في ظلها، والجدران المزخرفة بخبرة كبيرة ما جعلها تبدو مغطّاة بأفخر أنواع السجاد، وإلى الأقواس والنوافذ المزيّنة بزخارف جميلة، والأبواب المغلقة بإحكام والتي تبدو مثل مدخل إلى النعيم والسعادة.

حدّق سنان إلى بيت الله، وعندما أمعن النظر إلى تحفته الفنية، هام ذهنه في الماضي وتذكر شبابه، وتراءى له كوخ طيني، وفتى قروي يجري على طول الدروب الطينية؛ فتى يافع حافي القدمين يرتدي أسمالاً، انفصل عن أسرته قبل بلوغه عامه الخامس، من دون أن يعير أحد اهتماماً لدموعه؛ طفل بائس تائه مع فتيان نصرانيين آخرين اختُطفوا ليتدربوا في جيش السلطان، ولد ذليل شَغَلَ نفسه بالنجارة لينسى حنينه إلى أسرته.

حدّق سنان إلى بيت الله. كانت خطواته الأولى في النجارة، واكتشف آنذاك أسرار أنواع الخشب المختلفة، والصعوبات والتعقيدات في التعامل معها. لم يمضِ وقت طويل حتى أتقن حلّ رموز شيفرة الأشجار، وتعلّم بعد ذلك أسرار الحجارة ثم التراب والحديد والزجاج. ولو أنه لم يتعلّم كيفية تطويع الخشب وتشكيله لما أفشت الحجارة والحديد والزجاج- الهش دائماً- أسرارها له. ولو لم يقضِ سنوات من الكدح بين النجّارين، لما بنُي هذا الجامع الرائع مطلقاً. تذكّر الرائحة العطرة التي فاحت حين نحت الخشب للمرة الأولى؛ شذا صمغ الصنوبر، فاستنشق العطر لكنه لم يشعر بالصنوبر في أعماقه في ذلك اليوم.

حدّق سنان إلى بيت الله، في حين وقف السلطان أمامه. كان أسلاف السلطان قد زرعوا شجرة في السهول، وأزهرت تلك الشجرة الصغيرة آنذاك، وامتدت أغصانها لتغطي ثلاث قارات. وبدت مهمة السلطان آنذاك أن ينمّي تلك الشجرة ويجعل العالم برمّته يتفيأ تحت ظلّها. كان أسلافه قد فتحوا هذه المدينة، وحوّلوها إلى ما يشبه الفردوس على الأرض. والأمر منوط به الآن ليحافظ على المدينة ويجمّلها باستخدام الشعر، والموسيقى، وفن

التخطيط، والعمارة، والفنون الجميلة. لم تكن الروعة تُكتسب بالسيف، ولا يكون السلطان الذي لا يقدّر الجمال ويرعاه عاهلاً حصيفاً حقاً، فالسلطان الذي يفتقر إلى الحكمة لا يمكن أن يحكم العالم أبداً.

حدّق السلطان إلى بيت الله، وكبير مهندسيه واقف بجانبه؛ السلطان الذي كان حاكم القارات الثلاث، وحاكم السلطنة العثمانية، وسيد العالم؛ السلطان سليمان القانوني، الوريث الوحيد للسلطان سليم الأول. كان هو السلطان الذي وسّع على نحو مدهش أراضي الدولة العثمانية، وجعل اسمها مرعباً ومحترماً في كل أرجاء العالم. إنه السلطان الذي جعل المعماري سنان كبير مهندسيه؛ ما جعله مشهوراً في كل أصقاع الدولة العثمانية، ومنحه أموالاً طائلة وكنوزاً حتى يتمكّن من بناء العجائب، وزوّده بالسلطة... بدا طبيعياً آنذاك أن يقف المعماري قرب السلطان، مطأطئاً رأسه، ويداه إلى جانبيه؛ مستعداً ليخدم مولاه، وسيده، وسلطانه.

حدّق السلطان سليمان القانوني إلى بيت الله، ولمعت عيناه مثل الألماستين على عمامته. رفع رأسه بفخر ونظر إلى القبة الضخمة، وشعر بقشعريرة رهبة وتوقير تسري في جسده حين نظر إلى المآذن الأربع التي تمثّل الخلفاء الراشدين الأربعة. شكر الله بصوت خافت؛ لأنه مكّنه من بناء دار العبادة الرائعة هذه؛ مثل سلفه السلطان محمد، وجدّه السلطان بايزيد، ووالده السلطان سليم. هدأت مخاوف السلطان، وسكن قلبه، وتلاشت شكوكه، وعرف آنذاك أن اسمه سيذكر إلى الأبد مع هذا الجامع؛ تماماً مثل دولته.

كان السلطان سليمان القانوني يحدّق إلى بيت الله، وكبير مهندسيه واقف خلفه؛ ينتظر حابساً أنفاسه حكم سلطانه. ورغم هدوء المعماري سنان الظاهر، كان ذهنه مضطرباً مثل بحر هائج، أو سماء حالكة تستعد لهطول المطر؛ كما كانت الحال حين ظهر لأوّل مرة في مأوى هاجي بكتاش، وحين أصبح إنكشارياً وانطلق في أول حملة عسكرية له، وحين أطلق تلك السفن الشراعية إلى بحيرة فان، وحين عاد إلى قريته بعد سنوات واسترجع الذكرى المريرة لوفاة والدته.

حدّق سليمان إلى بيت الله، إلى الجامع الضخم الذي سيُحيي اسمه ويخلّده، إلى الصرح المبجّل الذي يبدو أنه يزخرف السماء بأبّهته، إلى الإبداع الأروع لسلالته ومُلكه. حدّق السلطان إلى الأبواب المرصّعة باللآلئ؛ الأبواب التي يبدو أنها تخفي المدخل، ونظر إلى المفاتيح في راحتي كفيه؛ المفاتيح التي يبدو أنها تبشّر بفتوحات مستقبلية. استدار لينظر إلى المعماري

الواقف خلفه وقد طأطأ رأسه، وثبّت بصره على الأرض، ويبدو مثل خادم ينتظر أوامره.

كان سليمان ينظر إلى سنان، إلى الرجل الذي أنجز بناء هذا الجامع الرائع في سبع سنوات؛ كما خلق الله سبع سموات طباقاً، وبعث الحياة في سبعة أيام. نظر السلطان إلى الرجل الذي شيّد مجمّع مسجد فخماً يليق بعروس ملكية، وضريحاً لابنه المتوفى، ومُصلّى لابنته؛ إلى العبقري الذي بنى صروحاً رائعة في كل مكان في المدينة.

خاطب السلطان المعماري:

"تقدم ياكبير المهندسين، هذه المفاتيح لك. لقد شيّدت بيت الله هذا بإيمانٍ صافٍ وقلب خاشع، لذا يجب أن تفتح أنت أبوابه إلى العالم".

في أرض الموتى

قال يكتا: "بيت الله".

كنت واقفاً أمام جامع السليمانية، وبدا الجامع الذي قال عنه يكتا إنه أروع الجوامع التي شيّدها سنان على الإطلاق رائعاً فعلاً؛ في نهاية شارع ضيق تطل عليه مبانٍ خشبية آيلة إلى السقوط وأبنية سكنية بشعة. كان البدر لامعاً؛ قرصاً نقيًّا من الفضة الخالصة. كان يبدو كما لو أن حرفياً ماهراً قد شكّله بشغف، وتلألأت مئذنة المسجد الرابعة في الظلام؛ مثل مصباح وحيد يتدلّى من سماء الليل.

سيقول بعض الأشخاص إن الأمر يتعلق بالحدس، فيما سيقول آخرون إنّه يتعلق بالتجربة، وسيقول غيرهم إنه متعلق بالضوء الغامض المنبثق من القمر، لكنني عرفت في اللحظة التي رأيت فيها تلك الدائرة من الضوء الفضي الباهت أننا سنعثر على جثة أخرى هذه الليلة. نظرت حولي في أرجاء الساحة الكبيرة أمام الجامع، لكنها بدت مقفرة، ولم يكن من الممكن رؤية شيء أو أحد هناك؛ لا أشخاص، أو كلاب شاردة، أو قططة، لا شيء على الإطلاق. ربما كانت هناك بعض الطيور النائمة على أغصان أشجار الدُّلب فوق رؤوسنا، لكننا لم نسمع لها صوتاً أو نرى لها أثراً.

انتابني شعور غريب وأنا أحدّق إلى ذلك الجامع الضخم ومحيطه المهجور الهادئ بعد أن أمضيت الليلة وأنا أتكلم عنه وعن الشخص الذي شيّده. لم يكن ما أثار انتباهي منظر الجامع نفسه؛ الغارق في ضوء القمر الباهت والمتطاول فوقنا، وروعته التي لا تزال على حالها حتى بعد مرور خمس مئة سنة، وإنما إيقاظه ذكرى قديمة لديّ، أضحت زاهية جداً حين رأيته.

كنت قد ذهبت إلى السليمانية للمرة الأولى مع والدي في صباح أحد الأعياد، ووجدنا الجامع ممتلئاً بالمؤمنين. استطعنا العثور على مكان للجلوس في إحدى الزوايا، لكن فقط بعد الكثير من التدافع والتزاحم. ويجب أن أقول هنا إن الصلاة المفروضة لم تكن وحدها السبب في ذهابنا إلى الجامع، وإنما قصيدة يحيى كمال "صباح في السليمانية"؛ إحدى القصائد المفضّلة لدى والدي، والتي لا يزال عدد من أبياتها محفوراً في ذاكرتي حتى الآن.

عندما أصبح لون القمر داكناً، مشيت بصمت عبر بوابات الجامع الرئيسة، ودخلت الساحة، ثم سلكت طريقي في ظلال شواهد القبور التي

تحتضن موتى منذ أمدٍ بعيد، حتى وصلت إلى الحديقة الصغيرة بين ضريحي السلطان سليمان وحبيبته روكسلانا. كنت قد تكلمت مع قائدي الفريقين المتمركزين خارج جامعي بايزيد وشهزاد قبل أن أصل إلى السليمانية، وعرفت أنه تم إيقاف نحو اثني عشر شخصاً وبضع شاحنات مغلقة وحافلات صغيرة. لكن، لا أحد من أولئك الذين تم إيقافهم توافقت أوصافه مع أوصاف المشتبه فيهم. أجريت اتصالاً هاتفياً بعلي حين كنت أغادر تاتافلا- كان مسؤولاً عن الفريق الذي يراقب السليمانية- فأخبرني أنه لم يرَ نشاطاً مشبوهاً يبلّغ عنه أيضاً، وضحك قائلاً: "أنا في أرض الموتى".

وجدته بجانب الضريحين- كما قال تماماً- ورغم أنه بقي واقفاً على قدميه طوال الليل، إلا أنه لم يبدُ متعباً على الإطلاق. عندما اقتربت منه، استطعت تمييز لمعان أسنانه البيضاء الشبيهة باللؤلؤ حين كشّر في الظلام.

"أنا هنا أيها المدير، وقد توثقت من كل شيء. تفوح رائحة عطرة من هذا المكان".

لم يكن يكذب، فرائحة الورود تملأ الحديقة.

"يا الله ياعلي! إنها تصيبني بالدوار".

"أليس كذلك؟ يمكن أن يثمل أيّ كان من الرائحة هنا من دون أن يمس قطرة من الشراب؟".

كنت قد تناولت بضع كؤوس في تاتافلا، ولم تكن رائحة الورود العطرة تساعدني، لكنني لم أشعر بأنني ثمل. لقد احتسيت الشراب في أثناء تناولنا العشاء من دون أن أستمتع بمذاقه أو بمذاق الطعام، وذهني يطنُّ ويفكر باستمرار في الرجال الذين يراقبون الجامعين؛ منتظراً أن يرن الهاتف ويخبرني أحدهم أنهم قد وجدوا جثة. لكن، رغم كل شيء بدت الليلة جيدة، ومع اقتراب الأمسية من نهايتها، انفرجت أسارير يكتا قليلاً وغنى لنا. شعرت يفغينا بسعادة غامرة، ولم تبتهج إطلاقاً حين نهض يكتا وديمير ليغادرا قبل الحادية عشرة، وأحسّت بخيبة أمل حين أخبرتها أنني سأعود إلى العمل مباشرة بعد أن أقلّها إلى منـزلها.

قال علي: "لا أفهم أيها المدير". كان ينظر إلى ضريح روكسلانا. "إذا كان السلطان سليمان وروكسلانا متيّمين بحب بعضهما، فلماذا دُفنا في قبرين مختلفين؟".

"لا أدري ياعلي. ربما كان سبب ذلك نوعاً من المراسم الملكية. لكنني أعرف أن حبيبات السلطان كن يُدفنّ قربه. إن قبر ابنته السلطانة ميهريمه على سبيل المثال يقع إلى جانب قبره".

نظر إليّ علي من أعلى رأسي إلى أخمص قدميّ، وتعبير وجهه يدل على الدهشة والإعجاب، ثم ابتسم: "هل تعرف شيئاً أيها المدير؟ أنت منجم معرفة حقيقي".

عرفت كل ذلك من يكتا... كنت قد أمطرته بوابلٍ من الأسئلة طوال الليل لإبعاده عن ذلك البؤس المرير. وبحلول نهاية الأمسية، تولّى معظم الكلام. لم نسمح له أيضاً بأن يُسمعنا أياً من قصائده؛ لأننا عرفنا أن ذلك سيعيده إلى هاوية الأسى. لذا، تركّز حديثنا حول السليمانية ومبدعه سنان. أخبرنا قصة مدهشة عن السلطانة ميهريمه، جعلت يفغينا تبتهج كثيراً، وأقول قصة؛ لأن يكتا نفسه لم يكن مقتنعاً بأنها صحيحة.

قلت: "هناك قصة مثيرة للاهتمام عن السلطانة ميهريمه ياعلي". مشينا إلى ضريح سليمان، ومررنا داخل الرواق المعمّد، وحدّقنا إلى الداخل؛ لكن الظلام كان حالكاً جداً ولم نستطع رؤية الضريح بوضوح. مال علي من فوق كتفي ونظر إلى الداخل، فأخبرته ما عرفته من يكتا. "تقول الأسطورة إن المعماري سنان كان يحب السلطانة ميهريمه. وطبعاً بالنسبة إلى شخص متواضع المكانة مثل مهندس معماري لم يكن من الملائم إطلاقاً أن يُكِنَّ إعجاباً لابنة السلطان، لذا أخفى الرجل المسكين مشاعره، ودفنها عميقاً في قلبه ولم يخبر أحداً بذلك مطلقاً. في تلك الأثناء، كان السلطان سليمان قد قبل عرض رجل يدعى رستم باشا للزواج من ابنته. ومن الطبيعي أن الزواج بالأميرة جعل رستم باشا يرتقي الصفوف بسرعة، وسرعان ما أصبح خلال وقت قصير أحد الوزراء الرئيسين. عندها، ازدادت أعماله ومسؤولياته كثيراً، ووجد صعوبة في قضاء وقته مع زوجته الشابة. ومع ازدياد غياب زوجها وتوافر المزيد من الوقت والطاقة لها، قرّرت الأميرة الشابة تكريس نفسها للقضايا الخيرية، فأنشأت دور أيتام، وساعدت الفقراء والمحتاجين، وبذلت جهوداً كبيرة في مطابخ حساء المدينة وبيوت الصدقات. وعندما طلبت من المعماري سنان بناء جامع، رأى المعماري في ذلك فرصة له ليعبّر لها عن مشاعره الحقيقية، فاستخدم كل مهاراته ومواهبه، وبنى لها مسجداً في أوسكودار؛ ذاك الموجود بجانب الرصيف. ثم طلبت منه الأميرة بناء جامع آخر، فشيّد المسجد الثاني للسلطانة ميهريمه في إديرنكابـي. على كل حال، كان المسجد الثاني أكثر شهرة؛ لأنه سُمّي تيمناً بها. كما تعرف، ميهر تعني الشمس ويمه تعني القمر ؛ وبكلمات أخرى، اسم الأميرة يعني الشمس والقمر . كان سنان قد عبّر لها عن حبه ببناء أحد المسجدين حيث تغرب الشمس والآخر حيث تشرق. وكانت السلطانة ميهريمه تراقب

بنفسها، مرة في السنة، غروب الشمس ببطء خلف قبة الجامع في إديرنكابـي، وشروقها بين مآذن المسجد في أوسكودار".

قال علي وهو يمرّر يديه عبر شعره: "عجباً!". بدا من الصعب معرفة إن كان يفكر في زينب. "إذاً، كتب الرجل قصيدة بالملاط والحجارة".

"تقول الأساطير نفسها إنه عندما عرف سنان أن الأميرة مدفونة هنا في السليمانية، بنى قبراً له في المكان نفسه".

قال علي ممعناً النظر إلى ساحة المقابر بحماسة: "أتعني أن المعماري سنان مدفون هنا؟".

قلت: "ليس هنا، وإنما في الشارع المجاور".

قال بحزن: "كما تعرف أيها المدير، ما كان هذا ليخطر لي إطلاقاً". بعد سماع قصة الحبّ هذه، أصبح روميو الشاب مهتماً بالمعماري الرائع. ثم تذكرت؛ إن ضريح سنان في إحدى الطرق الرئيسة التي تحيط بالجامع.

سألت بقلق: "لقد أخضعنا ذلك المكان للمراقبة، أليس كذلك؟ أعني حيث يتواجد ضريح سنان؟".

قال: "أين قلت إنه موجود؟". كانت الرومانسية والرقّة قد اختفتا من صوته، وحلّ اهتمام وقلق محلهما.

"أين؟ في الشارع خلف الحديقة. لقد حدّدته على الخريطة؛ شارع المعماري سنان".

قال وهو يطلق تنهيدة: "لا مشكلة هناك أيها المدير، فقد أخضعنا كلا المدخلين للمراقبة". كان هادئاً تماماً، لكن هناك شيئاً ما يزعجه، ولم أرغب في إحراجه. لكن، من ناحية أخرى...

قلت متجهاً نحو المخرج: "هيا بنا، لنذهب ونتوثق من المكان. سيمنحنا هذا فرصة لرؤية ضريح سنان أيضاً".

تحت ضوء القمر الباهت الذي يتسلل عبر أغصان أشجار الدُّلب، خرجنا من حدائق الجامع، واستدرنا حول الزاوية. كان ضريح سنان- وهو صرح رخامي متواضع- موجوداً في زاوية شارع المعماري سنان، ويؤدي إليه طريق قديم وعر يمتد بين أسوار الجامع وعقاراته الخارجية.

"ذلك القبر هناك قبر سنان".

بدا علي خائب الأمل. نظر إلى المبنى الرخامي الصغير المتواضع، ثم إلى جامع السليمانية الضخم.

"إنه صغير جداً، أليس كذلك؟".

غمرني شعور بالحزن والمرارة. "أفترض هذا. لكنني لا أزال أظن أنه

رائع".

وجل علي، وتبين أن هاتفه يرن.

"إنهم الرجال، وأتساءل إن كانوا قد لاحظوا شيئاً".

لم يكن ذلك مفاجئاً، فحبسنا أنفاسنا.

"تكين؟ نعم، نحن نصغي إليك...". سمعت همساً على الطرف الآخر. "ماذا؟ لا أيها الأحمق، نحن من نقف في الزاوية؛ أنا وكبير المفتشين نوزت. لا بأس، نعم، أحسنت، توخَّ الحذر".

بدا فخوراً حين أعاد الهاتف إلى جيبه.

"لقد كُشفنا أيها المدير. اتصل ليقول لي إنهم شاهدوا رجلين عند الزاوية، ولم يستطيعوا معرفتنا في الظلام".

إذاً، كان الرجال يقومون بعملهم كما ينبغي. شعرت بالارتياح وسرت إلى ضريح سنان، وعلي يتبعني قريباً مني.

همس مشيراً إلى شارع المعماري سنان أولاً، ثم إلى منحدر بعيد. "على الحافة تماماً؛ حيث يلتقي الطريقان".

مشينا بضع خطوات نحو الشارع الأعلى، وتجاوزنا الأسوار المكسوة بالرخام حتى وصلنا إلى حيث يوجد ضريح المعماري الذي وُضعت عليه شاهدة على شكل عمامة. رأينا التابوت الحجري في منطقة مكشوفة تحت ستة أعمدة وقبة صغيرة، واستطعت سماع صوت يكتا وهو يخبرني كيف قام سنان ببناء الضريح بنفسه. انحنيت قليلاً إلى الأمام، وتمكّنت من قراءة النقش على الصفيحة المعدنية تحت الحجر التذكاري.

هنا يرقد سنان، أمير المعماريين/ ومبدع أكثر من أربع مئة نصب/ ومشيّد جوامع رائعة في ثمانين موقعاً/ بعد أن عاش حياة امتدت حوالى مئة سنة/ غادر هذا العالم أخيراً، في سنة 996 / ليجعل الله مثواه الأخير فردوساً دنيوياً/ ليقرأ الناس الفاتحة على روحه.

همس علي: "رحمة الله عليه. يبدو أنه كان رجلاً عظيماً، أليس كذلك أيها المدير؟ كان متفانياً ومتواضعاً أيضاً".

وهل كان لديه خيار آخر؟ فقد عاش في ظل حكم سلاطين طغاة، يعد كلامهم قانوناً، ويجب أن تكون طاعتهم عمياء. عاش وعمل خائفاً دائماً من الجزاء والعقاب والموت. بدا سنان رجلاً يشعر بالسكينة؛ رجلاً قانعاً بنصيبه في الحياة. أخبرني يكتا- وتذكرت أيضاً- أن المعماري العظيم عاش أكثر من أربعة سلاطين: سليم، وسليمان، وسليم الثاني، ومراد الثالث. ووفقاً لما أعرفه، في أثناء تنفيذه أوامر السلاطين، كان سنان يكتم ضحكة خافتة

عندما يفكّر في أن إبداعاته ستستمر في إثارة إعجاب المراقبين، وخدمة البشرية في حين تصبح أخبار كل السلاطين مجرد بضعة خطوط وحواشٍ في مجلّدات قديمة منسية يكسوها الغبار.

"ما هذه الرائحة الكريهة؟".

بدا علي مشغولاً بالعطور والروائح الكريهة...

"أي رائحة؟ لا أشم شيئاً".

قال شامخاً بأنفه: "تبدو مثل رائحة ذبيحة متعفّنة أيها المدير، وهي تصدر من خلف هذه المصبّعة الحديدية".

ذهبت إلى حيث يقف علي المتسمّر قرب الشاهدة فوق ضريح سنان. كان محقاً، فالرائحة كريهة، وهي تصدر على الأرجح من جيفة، لكن أين هي؟ هل هي داخل الضريح؟ أهي جيفة قطّة أو كلب شارد نافق أو بقايا طائر نورس أُصيب ووقع بطريقة ما في الداخل؟ لم يكن أيٌّ منا واثقاً تماماً من مصدر تلك الرائحة التي تفوح في ضريح المعماري الرائع. حدّقنا عبر فتحات المصبّعة محاولين رؤية المكان الذي تصدر الرائحة الكريهة منه، لكن الظلام كان حالكاً، وأرضية حجرة الدفن غارقة في الظل. ظننا أنها ربما تنبعث من تحت النعش نفسه، فسلكنا طريقنا حول النافورة إلى شارع فتوى، وبعد بضع ثوانٍ أضحت الرائحة قوية جداً؛ مما جعلنا نظن أن ضرراً حقيقياً سيلحق بحاسة الشمّ لدينا...

صرخ علي مغطّياً أنفه بيده اليمنى: "ما هذه الرائحة!؟ ألا يفترض أن تكون هذه القبور مغطاة؟".

رأيتها آنذاك، على بعد خمسة أمتار على التلة، إلى اليمين...

همست وأنا أخرج مسدسي من قرابه: "علي، انظر هناك! إنها الشاحنة المغلقة البيضاء!".

انتبه علي فوراً وشهر مسدسه، ثم تقدمنا ببطء على الطريق المنحدرة إلى حيث رأينا الشاحنة مركونة عند الزاوية. وعندما وصلنا إلى نهاية الطريق، أصبحت الرائحة الكريهة أسوأ، فحمينا بعضنا واستدرنا عند المنعطف، وسلاحانا جاهزان، لكننا لم نجد أحداً في مرمى البصر. تابعنا طريقنا إلى الشاحنة المغلقة بخطوات حذرة، ونحن نبحث عن أي صوت أو حركة مفاجئة، وأشرت إلى علي كي يفتح الباب الخلفي. سمعنا طقّة خافتة ثم فُتح البابان إلى الخارج.

أضحت الرائحة آنذاك لا تُحتمل تقريباً، وأنيرت الأضواء الداخلية حين فتحنا البابين؛ لكننا لم نعثر على شيء في الداخل... باستثناء الجثة.

حماقات تافهة

وجدنا مفاجأة ثانية بانتظارنا حين فتحنا البابين الخلفيين؛ إذ لم يكن الضحية غريباً عنا هذه المرة وإنما هاكان يمالي، محامي آدم يزدان الشاب والموهوب، الرجل المفقود منذ يومين. عندما تغلبنا على شعورنا بالصدمة وأبلغنا وحدة البحث الجنائي، صعدنا إلى الشاحنة، وألقينا بنفسينا نظرة على الجثة. مثل الآخرين، كانت عنق المحامي قد حُزّت لكن هناك بعض الاختلافات البارزة؛ إذ لم يكن قد سُجّي على ظهره وإنما على جانبه، وكانت ذراعاه مقيّدتين من الرسغين مثل الآخرين، لكنهما ممددتان أمام صدره، وليس فوق رأسه.

لم نكن قد حللنا الأحاجي الأولى بعد، وإذ بالقتلة يقدّمون لنا الآن لغزاً جديداً، ولعبة جديدة... إلى أين يُفترض أن يديه تشيران؟ أول موقع قفز إلى ذهني هو صرح إيمينونو المميز؛ جامع يني، أو الجامع الجديد المشهور بطيور الحمام فيه، والمعروف أيضاً بجامع السلطان وليد، وهو الاسم الذي فضّلته دائماً.

قال علي، وهو لا يزال مغطياً أنفه: "ما رأيك أيها المدير؟ يبدو أن آدم يزدان قد أفلت من الصنارة. هل تظن أنه بريء الآن، بعد رؤية يده اليمنى ميتاً؟".

قلت حابساً أنفاسي لإبعاد الرائحة الكريهة: "لست واثقاً بذلك". بعد أن شممنا شذا حديقة ورود جامع السليمانية العطر، جعلتنا الرائحة الكريهة داخل الشاحنة نشعر بالغثيان.

"ماذا؟ هل تظن أنه أمر بقتل محاميه؟".

ولِمَ لا؟ إذا كان آدم يزدان من يقف خلف تلك الجرائم فعلاً، فلماذا سيتوقف الآن في حين أنه قتل سابقاً- أو خطّط لعمليات قتل- خمسة آخرين؟ لم يكن هاكان يمالي قريب يزدان أو شخصاً يكنُّ له أي عاطفة، وإنما مجرد محامٍ يعمل معه. ألم يقل بنفسه صباحاً إن ابن شقيقه يتم تحضيره ليكون ممثل الشركة القانوني التالي؟ كان يحتاج إلى سبب ودافع حقيقي لقتل محاميه؛ لأن لديه كما يبدو أسباباً منطقية للقضاء على الضحايا الذين تم التخلّص منهم من قبل. ولم يكن من المستبعد تورط المحامي في قضية انهيار جدران الحوض تلك، وربما يكون أحد اللاعبين الرئيسين في تلك المحاكمة. فضلاً عن ذلك، لم يكن من الممكن العثور عليه حين زرنا دار السعادة للمرة الأولى، وربما قرّر يزدان، بعد أن

عاد من موسكو مباشرة... لا، كان لا يزال من المبكر جداً القفز إلى مثل هذه الاستنتاجات، وربما تكون الحقيقة عكس شكوكنا تماماً؛ ربما كان هناك شخص يقضي على كل مساعدي يزدان الواحد تلو الآخر، ما يعني ازدياد احتمال أن يكون يزدان نفسه الهدف التالي.

قلت: "ربما جعل أحداً ما يتولى أمره، وربما كان بريئاً تماماً. وبغض النظر عن الوضع، يجب أن نتحدّث إليه، وبسرعة أيضاً. هل لديك عنوان منـزله؟".

"لديّ رقم هاتفه، فقد تحدثت إليه هذا الصباح. سأتصل به فوراً وأحصل على عنوانه".

خرجت من الشاحنة المغلقة بعد أن أدركت أن فحص الجثة لن يكون ممكناً؛ ليس بسبب الرائحة الكريهة فحسب، وإنما لأنني و"علي" ارتطمنا باستمرار بجوانب الشاحنة وببعضنا في أثناء تحرّكنا في الداخل أيضاً. في الخارج، كان المساء ربيعياً دافئاً. وعلى الرغم من أن نسيم البحر الرطب لم يكن عَطراً مثل حديقة الورود التي كنا قد غادرناها منذ قليل، إلا أنه بارد ومنعش، لذا استنشقت الهواء ملء رئتيَّ، ثم نظرت إلى الأعلى. بدا القمر أكثر سطوعاً من المعتاد؛ لامعاً بابتهاج وكأنه يقول: أخبرتك بهذا؛ أخبرتك أنكم ستعثرون على جثة أخرى . استدرت بعيداً بسرعة.

"علي، انظر إن كانت هناك قطعة نقدية بين كفيه". جلس القرفصاء، لكنه أعاد رأسه إلى الخلف فوراً ونكص على عقبيه.

"الرائحة نتنة جدًّا أيها المدير، وكريهة جداً، وكلما اقتربت منها ازدادت حدّة... كان النهار حاراً، ومع إغلاق الأبواب والنوافذ، بقيت متعرّضة لحرارة أشعة الشمس لوقت طويل. أظن أنها ظلّت في هذا المكان منذ بعد الظهر على الأقل، وربما منذ الصباح... كان يجب أن نعرف، لكننا كنا مشغولين جداً بالتركيز على الطريق الرئيسة لدرجة أننا نسينا هذا الشارع تماماً، ولم نفكّر في أن المعماري سنان سيكون هدفاً مطلقاً... هل ذكرت ليلى باركين المعماري سنان يوماً ياسيدي؟".

"ذكرته، لكنها لم تقل تحديداً إن القتلة سيتركون ضحيتهم التالية بجانب ضريحه. كيف كان لتلك المرأة المسكينة أن تعرف؟".

قال مطيلاً المحادثة؛ ليتفادى على الأرجح اضطراره إلى التعامل مع الجثة: "لكن ياسيدي، لم يكن أيٌّ من توقعاتها صائباً، أو حتى دقيقاً".

"هذا صحيح ياعلي. لكن معظم صانعي القرار في رابطة الدفاع عن إسطنبول في السجن حالياً. لذا، إن كانوا خلف تلك الجرائم، فمن الذي

قتل هذا المحامي؟".

حكَّ رأسه.

"ربما لديهم أصدقاء في الخارج، وربما تكون رابطة الدفاع عن إسطنبول مجرد واجهة لنشاطات سرية أخرى؛ كما زعم آدم يزدان".

في ذهني، بدأت الفكرة تصبح أقل إقناعاً.

"أشك في هذا ياعلي. رأيت أعضاء من رابطة الدفاع عن إسطنبول، وأمثالهم لا يستطيعون إنشاء منظمة غير شرعية وإدارتها، ونضالهم- إذا جاز التعبير- لا يستند على الخداع والتدمير، وإنما هم يكافحون ضد أولئك الذين يستخدمون الغش والنفاق لاستغلال إرث المدينة وتاريخها".

"لكن، إذا كانت هذه حيلة... ستارة دخانية...".

"لم نحصل على أي دليل يثبت أنها ستارة دخانية ياعلي".

سأل علي بعد أن أدرك أنه لم يقنعني ومبدّلاً الموضوع: "أين تعلّمت كل هذه المعلومات عن المعماري سنان أيها المدير؟".

"من صديق لي مهندس اسمه يكتا. لا أظن أنك قد التقيته".

"أتعني الرجل الذي رأيته خارج منـزلك في ذلك الصباح؟ ذاك الذي يبدو- واعذرني على فظاظتي- عابساً؟".

كان قد وصف ديمير على نحو بليغ.

"يبدو مظهره وضيعاً، أليس كذلك؟ لا، ذاك ديمير، وهو طبيب بيطري. المهندس المعماري هو يكتا، وقد أخبرني كل شيء عن سنان". صمتُّ مجدداً ثم قلت: "الغريب أنني عندما سألته عمّا سيود فعله لو كان القاتل، قال شيئاً عن ترك الجثة عند ضريح المعماري سنان".

لم يُدهش علي من صحة توقع يكتا كما فعلت أنا سابقاً.

"ليتنا سألناه منذ البداية، بدلاً من سؤال تلك المرأة، فعلى الأقل كنا سنحظى بشيء نعمل عليه".

ربما سيمنحنا يكتا شيئاً ملموساً أكثر، لكن لم تكن لديّ النية إطلاقاً بتوريطه أو بتوريط أيٍّ من أصدقائي الآخرين في قضية جنائية.

"أياً يكن، ألقِ نظرة على اليدين، هلاّ تفعل. انظر إن كانت هناك قطعة نقدية. إذا لم تستطع، فاخرج من هناك وسأُلقي أنا نظرة".

قال علي وهو يعود إلى داخل الشاحنة: "بالتأكيد لا أيها المدير، سأفعل هذا. كنت أنتظر فقط أن تُنهي قصتك". حاول أن يتجاهل الرائحة لكن ذلك بدا مستحيلاً. حدّق الفتى المسكين إلى يدي الضحية. "الظلام دامس هنا أيها المدير، ولا أرى شيئاً".

أدار اليدين نحو الضوء، ثم قال: "مهلاً، يوجد شيء هنا...".

أخرج قلماً من جيبه وأبعد اليدين عن بعضهما قليلاً، فبدت قطعة نقدية وسقطت على أرضية الشاحنة، فأمسكها ورفعها إلى الضوء.

"تبدو ذهبية، والكتابة عليها عربية". أربكه النص، فسلّمني القطعة. "من أي حقبة هي برأيك؟ أي سلطان؟".

لم يكن المرء يحتاج إلى دكتوراه في التاريخ ليكتشف ذلك.

"من تظن؟ إنها ترجع إلى عصر السلطان سليمان طبعاً. ينتابني شعور بأن السلاطين العثمانيين كانوا يعترضون على سكِّ قطع نقدية باسم المعماري سنان...".

قال حين أخذت القطعة النقدية وأمسكتها من حافتها: "احترس ياسيدي، إذا طمسنا أي بصمات، فستُجن زينب".

"أين هي على كل حال؟ يجب أن نخبرها بمّا يجري".

قال: "تكلمت معها قبل عشر دقائق من وصولنا ياسيدي". وضعت نظارتي وفحصت الأحرف المنقوشة على القطعة النقدية. "كانت مع الفريق الذي يتوثق من الدماء التي تم العثور عليها في شاحنة رابطة الدفاع عن إسطنبول، لكنها قالت أيضاً إنها ستذهب إلى منـزل نجدت دينيزل لاحقاً".

غريب... لماذا ستذهب إلى هناك في منتصف الليل؟

سألت وأنا أرفع بصري: "لماذا؟ ماذا ستفعل هناك؟".

"ذكرت شيئاً عن اللوحات. سألتها عمّا ستفعله لكنها لم تجب، وذكرت أن لديها حدساً لكنها لا تريد أن تخبرني خوفاً من أن تكون الطريق مسدودة، فسخرت منها".

كانت شجاراتهما الصغيرة المثيرة للشفقة قد بدأت تثير أعصابـي.

صرخت؛ متحولاً إلى مزاج كبير المفتشين القاسي: "اتصل بها فوراً. يجب أن توقف أي شيء تفعله، في أي مكان، وتأتي إلى هنا. أما أنت، فاخرج من الشاحنة، ودع رجال وحدة البحث الجنائي يتعاملون مع الجثة".

قال وهو يقفز إلى الخارج ويستنشق الهواء النقي: "شكراً جزيلاً على ذلك".

لم يدم ارتياحه وقتاً طويلاً، فعندما اتصل بزينب لم يتلق رداً. لماذا لم تجب؟ هل حدث شيء ما لها؟ لم يعد هناك شيء مخيف في منـزل نجدت، إلا...

نظرت إلى علي، وبدا أن سيناريوهات خطرة سيئة قد بدأت تتكوّن في ذهنه أيضاً...

قلت؛ رغم أنني لم أكن واثقاً إن كنت أحاول إقناع علي أم نفسي: "ربما لم تسمع الهاتف لأنه في حقيبتها في غرفة أخرى. لا بدّ أنها ستتصل بنا، وإذا لم تفعل فسنحاول مجدداً. اتصل بآدم يزان، واعرف مكانه".

ضغط على الأرقام، وفي سكون الليل جاء الصوت عالياً وواضحاً: "الشخص الذي تتصل به غير موجود. الرجاء ترك رسالة بعد سماع النغمة".

هل كان يزدان نائماً؟ هل أوقف هاتفه عن العمل كي يحظى ببعض السكينة والهدوء، أم حدث له شيء أكثر سوءاً؟ لم يكن الوقت ملائماً لتحديد ذلك، وكان علي ينتظر مني أن أقرر إن كان ينبغي ترك رسالة أو لا. كان القتلة قد تركوا ضحيتين يوم الجمعة، وإذا لم نفعل شيئاً حتى الصباح، فربما سيفوت الأوان...

رنَّ هاتفي وأنهى تردّدي.

أخبرت علي: "لا تتجشّم عناء هذا. إنها زينب، وسنحاول الاتصال بيزدان مجدداً في ما بعد". تنهّد علي ارتياحاً لكن زينب لم تبدُ هادئة جداً.

"مرحباً أيها المدير، هل حصلت أي تطوّرات؟ اتصل بـي علي لكنني كنت أقود لذا لم أجب. أوقفت السيارة واتصلت به لكن هاتفه مشغول".

"كان يتصل بآدم يزدان. لقد وجدنا جثة، وهي تخصّ محامي يزدان. أين أنت؟".

"أنا على الطريق الساحلية متجهة نحو سماتيا، إلى منـزل نجدت دينيزل".

"لماذا؟". خرج صوتي أقسى مما كنت أنوي.

"بسبب تلك اللوحات النافرة ياسيدي".

"لماذا؟ ماذا حدث لها؟".

"لا شيء ياسيدي، إنما... حسناً، هل تتذكر الأماكن التي ظهرت في اللوحات؟".

"ما بها؟".

"حسناً، إذا كانت ذاكرتي جيدة، فإن الأماكن التي تصوّرها تلك اللوحات هي نفسها التي تم العثور على الضحايا فيها".

أجهدت ذهني في محاولة تذكّر الصور من اللوحات، وتذكرت واحدة تصوّر احتفال استقبال أمام قصر السلطان الصيفي في سارايبورنو، وأخرى تُظهر سمبرليتس... لم أتذكر اللوحات الأخرى تماماً، لكن أظن أنني رأيت في إحداها جامع السليمانية المكتظ بالناس، والمآذن الأربع في الساحة المزدحمة

المتطاولة نحو السماء... إذا كانت زينب محقة، فستكون معرفة موقع الضحية التالية مسألة وقت ببساطة.

سألت بأنفاس محبوسة: "هل أنت واثقة؟ هل أنت واثقة تماماً أنها المواقع نفسها؟".

"أنا واثقة ياسيدي، ولهذا أريد إلقاء نظرة أخرى. أُخذت قطع النقود التي تُركت في أيدي الضحايا من ذلك المنـزل، لذا لدي سبب مقنع للظن بأن القتلة يتركون الضحايا في مواقع تظهر في اللوحات".

كنا قد اضطررنا في أثناء التحقيق إلى وضع العديد من الفرضيات التي تبدو منطقية جانباً، وكانت الطريقة الوحيدة لتفادي خيبة أمل كبيرة أخرى هي التوثق من تلك اللوحات مجدداً.

"حسناً يازينب، تابعي العمل، وأبلغينا بالمستجدات في اللحظة التي تتوصلين فيها إلى أي شيء".

"حاضر ياسيدي. آه، قبل أن أنسى ياسيدي، حصلت على رقم هاتف منـزل آدم يزدان إن احتجنا إليه؛ في حال لم تستطع الاتصال به عبر هاتفه الخلوي".

عندما أنهت المكالمة، اتصلت بالرقم الذي زوّدتني به وانتظرت. بدا الصوت النعسان الذي أجاب بعد الرّنة الرابعة مألوفاً.

"مرحباً، كيف يمكن أن أساعدك؟".

"أنا كبير المفتشين أكّان، وأود أن أتحدث إلى السيد آدم يزدان".

"آه، كبير المفتشين أكّان. أنا صالح، وقد التقينا هذا الصباح في دار السعادة".

"مرحباً ياصالح، آسف لإزعاجك في منتصف الليل، لكن يجب أن أتكلم مع عمك".

"لماذا؟ ماذا حدث؟".

"إنه هاكان، هاكان يامالي. لقد قُتل".

صرخ: "ماذا؟ قُتل! من فعل هذا؟ من قتله؟".

"لا نعرف بعد، لكن يجب أن نجد عمك، وبسرعة".

"لم يعد إلى المنـزل بعد".

"حسناً، أين هو؟".

"لا أعرف حقاً. غادر بعدك مباشرة، وذكر شيئاً ما عن عشاء مع بعض الأشخاص".

"من؟ من هم أولئك الأشخاص؟".

بدأ الفتى يشعر بالفزع.

"ماذا يجري ياكبير المفتشين؟ هل عمي في خطر؟".

"لا نعرف، لكن أخشى أنه ربما يكون الأمر كذلك. الآن، مع من كان سيتناول العشاء؟".

كرّر بائساً: "لا أعرف. لكن، لا بد أنه قد سجل ملحوظة عن ذلك في مفكّرته".

"أين هي؟ هل هي معك؟".

"لا، لا بد أنها في المكتب الذي زرته سابقاً اليوم. ستكون على طاولته، فهي هناك دائماً".

"هل هناك أحد في دار السعادة الآن؟".

"حرّاس الأمن الليليون... هل أتصل بهم وأطلب منهم إحضار المفكّرة؟".

كل ما نعرفه هو أن آدم يزدان في هذه اللحظة يرتشف القهوة بسعادة في أحد أفخم مطاعم المدينة، في حين نتلمّس طريقنا في الظلام على غير هدى. من ناحية أخرى، ربما يكون قد... يجب أن نتوخى الحذر.

"اتصل بهم، لكن توثق ألاّ يلمسوا شيئاً، وأخبرهم أنني في طريقي إليهم. سألقي نظرة بنفسي". كان تردده واضحاً. "اسمع ياصالح، ربما لم تسمع بما حصل بعد، لكن ستة أشخاص لقوا حتفهم غيلة في الأيام الخمسة الأخيرة. إنّ القتلة محترفون وعديمو الرحمة، ويعرفون تماماً ما يفعلونه، وقد قتلوا حتى الآن ستة من العاملين مع عمك من دون أي رحمة، وربما اختطفوه. هل تفهم؟ الآن، إذا كان لديهم...".

قال وقد فهم خطورة الموقف أخيراً: "أفهم ياكبير المفتشين، سأتصل بدار السعادة الآن...".

سأل علي: "إذا لم يكن آدم يزدان هو القاتل، فهل سيكون الشخص التالي الذي سيُقتل؟ من هم هؤلاء الأشخاص؟".

لم تكن لديّ أي فكرة آنذاك. هل القتلة من منظمة سرية أبقاها نامق قرمان بعيدة عن أنظارنا بنجاح؟ أم- كما قالت زينب- من مجموعة أخرى غير قانونية فشلنا في أخذها بالحسبان؟ لم تكن لديّ فكرة؛ أي فكرة على الإطلاق، لهذا...

قلت: "لنذهب ياعلي، ربما سنعثر على شيء في دار السعادة".

عندما سلكنا طريقنا إلى شارع فتوى، لم يسعني إلا أن أنظر إلى الأعلى وألاحظ التغير في شكل القمر. كان قد تبدّل، وغاب مظهره المرح اللعوب السابق، وحلّ مكانه مظهرٌ كئيب وغامض، في حين حدّق إلى

الأسفل بائساً؛ إلينا نحن الفانين.

المفكّرة

بدت دار السعادة، المضاءة بصفوف من القناديل الحمراء، وسطحها وطوابقها العليا المنارة بضوء القمر، مثل قصر قديم. يمكن لتفكير المرء أن يوهمه أنه قد عاد إلى أيام الرومان، لكن بزّتي الرجلين اللذين كانا ينتظراننا على السلالم الرخامية وقبّعتيهما لم تكن شبيهة إطلاقاً بثياب حرّاس قصر روماني. كان اتصال صالح قد جعلهما على أهبة الاستعداد.

قلت مظهراً بطاقة هويتي: "مساء الخير، أنا كبير المفتشين أكّان، وهذا المفتش غورمن".

قال الشخص كبير الأنف بلهجة البحر الأسود: "من هنا رجاءً ياكبير المفتشين". وأضاف مشيراً إلى صديقه الذي كان يمضغ العلكة ويراقبنا غير مبالٍ: "اسمي دورسون وهذا طارق، ونحن الحارسان الليليان. كيف يمكن أن نساعدكما؟".

سألت، متجنّباً دعابات لا طائل منها، ومتطرقاً إلى لب الموضوع فوراً: "متى بدأتما العمل هذا المساء؟ في أي وقت وصلتما إلى هنا؟".

"عند السادسة ياكبير المفتشين".

قال طارق ببطء وتأنٍّ: "تكلم عن نفسك ياقرد البحر الأسود، أنا وصلت إلى هنا عند الخامسة. تشاجر روستو مع حميه وطلب مني المجيء باكراً كي يستطيع الذهاب وتسوية الأمر".

سألت على عجل: "هل رأيتما آدم يزدان منذ وصولكما إلى هنا؟".

قال كلاهما وهما يهزّان رأسيهما: "همم، لم نره ياسيدي". وحين أدركا أن هناك خطباً ما اختفى المرح من تصرّفاتهما.

قال طارق: "عندما وصلت إلى هنا، لم يكن هناك أحد إلاّ كمال وروستو". أخرج العلكة من فمه ورماها بعيداً. "لماذا؟ هل حدث شيء ما؟ هل يواجه مشكلة؟".

قال علي: "لا شيء". وأشار إلى المكاتب: "يجب أن نُلقي نظرة على مكتبه".

لم يكن تكتّمنا مفيداً كثيراً، لكن لا يسعهما فعل شيء.

سأل طارق بفتور: "أي غرفة تودّان رؤيتها؟ أتريدان رؤية غرفة الاستقبال في الطابق السفلي أم مكتبه في الأعلى؟".

قلت بفظاظة وأنا أصعد السلالم: "نريد رؤيتهما معاً". لم يكن لديّ وقت للتعامل مع هذين الأحمقين؛ ليس حين تكون حياة مديرهما معلّقة

بخيط. "سيتوثق المفتش غورمن من الغرفة في الأسفل، وسأتوثق أنا من المكتب".

تبعانا على السلالم من دون أي انفعال، وفعلاً أسرع دورسون أمامنا ليفتح البابين الضخمين ويسمح لنا بالدخول.

كانت الردهة كما رأيناها سابقاً تماماً. وباستثناء الضوء الأحمر الباهت الصادر من المصابيح على الجدران، بدت أكثر إغواءً، ومنحت ظلال تماثيل الأباطرة الرومان المكان جواً مثيراً للفضول. هزَّ علي رأسه باتجاه السلالم وهو يقف بين عمودي النسرين البيزنطيين.

"هل أذهب من هنا؟".

"نعم، توثق من قاعة الاستقبال في الأسفل؛ الباب الثاني إلى اليمين. ذهبنا إليها مع يزدان". ثم استدرت وسألت طارق. "قاعة الاستقبال هناك، أليس كذلك؟".

أجاب دورسون: "إنها هناك".

عندما نـزل علي على السلالم، اضطررت إلى إيقاف طارق الذي أراد مرافقته. فالله وحده يعلم ما سيحدث إن وضعنا عملنا بين يدي مثل هذا الأبله...

"طارق، تعال معي. دورسون، يمكنك أن تساعد المفتش غورمن".

دخلت وطارق المصعد.

لم يكن هناك شيء غريب أو غير معتاد في الطابق الثاني. تجاوزنا الأعمدة التي تحمل نقوش شعار الدولة العثمانية القديمة ووصلنا إلى الطاولة.

قال طارق حين مددت يدي لأفتح الأدراج: "إنها موصدة ياكبير المفتشين". وأضاف مُخرجاً مجموعة مفاتيح من جيبه: "السيد يزدان دقيق جداً بشأن مكتبه، وأشخاص قلائل فقط يملكون مفاتيح هذه الغرفة. في الشهر الماضي فقط، طُرد أحدهم لإهماله في هذه المسألة. إذا فُقد أي شيء، فسيتحمّل أولئك الذين لديهم المفاتيح المسؤولية".

ابتسمت بصمت.

"إذا لم نجد ما نبحث عنه، فصدّقني حين أقول إن مشابك الورق المفقودة ستكون آخر مشاكل السيد يزدان". طرفت عيناه بعصبية، وظننت للحظة أنه سيسألني عمّا يجري. "هيا ياطارق، بسرعة، الوقت ينقضي". سمعنا طقّة خافتة حين أدار المفتاح وفتح الأدراج، لكننا لم نرَ شيئاً بسبب الظلام الحالك. "اضغط على زر المصابيح".

أنيرت الثريا الضخمة في وسط الغرفة بحزمة من الضوء. وعندما بدأ اللونان الأصفر والأحمر المهيمنان على الغرفة يلمعان، اندفعتُ نحو طاولة من طراز الملك لويس، وطارق يراقبني بفضول. جال بصري فوق الطاولة كلها، لكنني لم أرَ شيئاً يشبه المفكّرة أو دفتر مذكرات، ففتحت الدرج العلوي. كان يحتوي على دواة، وقلم حبر سائل، ودفتر ملحوظات جديد، ومجموعة من السُّبحات المزوّدة بشرّابات فضية، وعلبة سيجار مغلقة، وولاعة مطلية بالذهب...

"ما الذي تبحث عنه يا كبير المفتشين؟".

لا بد أنني رمقته بنظرة قاسية؛ لأنه أعاد صياغة سؤاله بسرعة.

"أقصد، ربما كان بمقدوري مساعدتك إن عرفت ما تبحث عنه؟".

قلت: "أبحث عن مفكّرة السيد يزدان، تلك التي يكتب عليها مواعيده". كنت واثقاً جداً أنه لن يكون مفيداً في مساعدتي للعثور عليها، وبدأت آنذاك بفتح الأدراج السفلية.

قال: "إنها هناك". وأشار إلى مفكّرة سوداء بجانب مجلة الخطوط الجوية التركية، على الطاولة الصغيرة المزخرفة إلى يسار الكرسي الذي كان آدم يزدان جالساً عليه في الصباح. ألغيت كل الأفكار السلبية في ذهني عن طارق، وذهبت إلى هناك وبدأت أقلّب الصفحات... كانت صفحات آخر أربعة أيام فارغة... السبت... رأيت بالتأكيد ملحوظة من نوعٍ ما، لكنني لم أستطع قراءة خط اليد فسلّمت المفكّرة إلى طارق.

"إليك، هل يمكنك قراءتها؟ ماذا تقول؟".

أمسك المفكّرة ونظر إلى الخطوط التي كنت أشير إليها.

"لنرَ الآن. ببـ... ببغاء. إنها ببغاء يا كبير المفتشين، وكتب أيضاً كلمتي طبيب بيطري كما أظن. الرقم اثنا عشر هنا أيضاً، لا بد أنه وقت الموعد".

كان يزدان قد ذكر شيئاً عن أن طبيبه البيطري قد حصل على زوجٍ من الببغاوات له. وإذا كان قد ذهب ليحصل عليهما، فسيكون آخر شخص رآه على الأرجح هو ذلك الطبيب. لكن أين؟

تمتم؛ وكأنه يقرأ أفكاري: "بلاط؛ كُتبت كلمة بلاط هنا. لديه على الأرجح اجتماع مع طبيب بيطري في بلاط عند الساعة الثانية عشرة".

في اللحظة التي نطق فيها بكلمة بلاط، لم أعد أسمعه. طبيب بيطري في بلاط...

هل يمكن أن يكون ديمير؟ لا، سيكون هذا سخيفاً! عندما رفعت

رأسي، كان طارق يراقبني مذهولاً وقلقاً. لا بد أن الدم قد جفَّ من وجهي.

"هل أنت بخير ياسيدي؟ هل حدث شيء ما؟".

قلت منتزعاً المفكّرة منه، وواضعاً نظارتي: "لا شيء!". كنت أريد إلقاء نظرة بنفسي، فربما أخطأ الأحمق في القراءة...

لسوء الحظ، لم يخطئ بشيء، وآخر كلمة هي بلاط بالتأكيد. ما الذي يعنيه ذلك؟ هل يعني أن طبيب آدم يزدان البيطري هو ديمير؟ وإذا كان كذلك فعلاً، فلماذا لم يخبرني ديمير؟ لكن، ما الذي كان سيقوله؟ كيف سيعرف أننا نُخضع آدم يزدان للتحقيق؟

كان ذلك كله مصادفة غريبة بالتأكيد. بالمحصلة، لم يكن ديمير الطبيبَ البيطري الوحيد في بلاط كلها! نهضت عن الكرسي، وعدت إلى الطاولة مدركاً أنني يجب أن أتوثق من الأمر. فتحت الأدراج السفلية فرأيت أوراقاً طُبعت عليها عبارة دار السعادة ، ومغلّفات، وأختاماً بلاستيكية. وفي الأسفل، رأيت دفتراً صغيراً يضم بطاقات أعمال متعددة. أخرجته ووضعته على الطاولة وبدأت أقلّبه بقلق. كانت البطاقات مرتّبة وفقاً للأبجدية، لذا انتقلت فوراً إلى تلك التي تبدأ بالحرف "د"... الحمد لله، لم تكن بطاقة ديمير هناك.

على كل حال، لم يدم إحساسي بالارتياح طويلاً، وتوقف قلبي عن الخفقان حين أدركت أن البطاقات قد رُتّبت وفقاً للقب الشخص، ولقب ديمير هو جيهان... قلّبت الصفحات بسرعة مرة أخرى حتى وصلت إلى الصفحتين اللتين تحملان الحرف "ج". رأيت اثنتي عشرة بطاقة بالمجمل، ستاً على كل جانب، ولم أضطر إلى التوثق منها كلها، فقد كانت هناك، الخامسة إلى اليسار؛ بطاقة صديق طفولتي، وقد كُتب اسمه عليها بلون أحمر داكن على خلفية فاتحة.

ديمير جيهان. طبيب بيطري.

تراجعت على المقعد إلى الخلف والأفكار تتسارع في ذهني. لم أكن أفكر في ديمير وإنما في يكتا، وما قاله: "لو كنت أنا القاتل، لما أشرت إلى الإغريق أو الرومان أو العثمانيين، وإنما إلى سنان مباشرة..."، وفي الشاحنة المغلقة البيضاء التي وجدناها بجانب ضريح المعماري سنان والتي تحتوي على الجثة... هل هذا ممكن؟ هل فعل هذان الاثنان شيئاً جنونياً جداً؟ لماذا سيقومان بذلك؟ هل أنا السبب؟ هل ألهمتهما بذلك- إذا جاز التعبير- حين قلت إنهم يجب أن يُقتلوا جميعاً؟

يا الله! لا، أصبحت القضية أكثر سخفاً وإثارة للقلق بمرور كل دقيقة. لم يكن يكتا ليتورط مطلقاً في شيء مريع جداً. عندما يشعر شيوعي قديم وناشط متمرّس مثل نامق قرمان بالرعب من الفكرة نفسها، فلماذا سيمضي يكتا قدماً في ذلك ويقترف مثل تلك الفظاعة؟ ودمير؟ لن يفعل ذلك أيضاً؛ فهو بالتأكيد لم ولن يفعل... لكن آخر شخص رتّب آدم يزدان موعداً معه كان دمير. ماذا إذاً؟ هل ذهب يزدان ليراه؛ لأمرٍ مهمّ؟ ربما يكون دمير الطبيب البيطري الذي حصل على الببغاوَين من أجل يزدان، لكن هذا لا يعني أنه سيقتل الرجل. وماذا عن الضحايا الآخرين؟ ما علاقة يكتا ودمير بهم؟ لا شيء، لا شيء على الإطلاق...

قال طارق مبدداً ضبابَ الأفكار السوداء التي أحاطت بـي: "هل كنت تتكلم معي ياكبير المفتشين؟". كان واقفاً أمامي، محاولاً اكتشاف ما أفعله، فأدركت أنني يجب أن أتخلص منه، وبسرعة.

"هلاّ تتفضل باستدعاء مساعدي إلى هنا. هناك شيء يجب أن أناقشه معه".

توقف، غير راغب في تركي في الغرفة بمفردي.

"سيدي، ماذا إن اتصلنا به على هاتفه الخلوي؟".

كنت هناك، في منتصف الليل، حائراً وأعصابـي مرهقة، وذهني منفلت من عقاله مع سيناريوهات لا أحتمل التفكير فيها، ولدي الآن هذا الأحمق الذي ينبغي أن أتعامل معه.

جأرت: "ماذا يفترض بهذا أن يعني ياطارق؟ هل لدينا قضية ثقة هنا؟".

تراجع بعصبية خطوة إلى الخلف.

"لا، على الإطلاق ياسيدي. أبداً! طبعاً لا! إنه مجرد...".

"طارق".

"نعم ياكبير المفتشين، سيدي؟".

"اذهب وأحضر المفتش غورمن، تحرك الآن".

خرج من الغرفة مسرعاً وخائفاً.

نظرت إلى بطاقة دمير مجدداً، وشعرت لثانية أو اثنتين بأن شكوكي سخيفة؛ وبأن ارتيابـي ناجم عن أوهام شرطي قديم، وأن المسألة برمّتها مصادفة... فكيف يمكن لأقدم صديقين لي وأعزّهما على قلبـي أن يكونا متورطين في سلسلة من الجرائم؟ كان دمير طبيباً بيطرياً معروفاً، وقد قصده آدم يزدان طلباً لمساعدته. هناك مجموعة كاملة من بطاقات العمل

التي تخصّ خياطين، وأصحاب مطاعم، ومقاولي بناء، وصحفيين، وأعضاء في البرلمان، وأطباء أسنان، ومتخصّصي نظارات... وديمير، مثلهم، مجرد معرفة عمل. كيف له أن يتورط في الجرائم؟ لكن، حتى عندما حاولت إقناع نفسي بأن لا علاقة له بعمليات القتل، استطعت سماع الشرير داخلي يهمس بالحقيقة المروّعة... إنّ ديمير آخر شخص رآه آدم يزدان المفقود منذ ذلك الوقت. فكّرت في تلك النظرة التي بدت على وجه ديمير حين دخل تاتافلا، وقد ظننت آنذاك أنها بسبب عملية ناجحة أو تحدٍّ مشابه تجاوزه... هل كانت نظرة رضا قاتل اختطف آخر ضحاياه وقتله من دون أن يُلقى القبض عليه، أو حتى يتعرض للإزعاج، ومن دون أن يكون عُرضة للشبهة؟ حاولت إبعاد تلك الصورة عن ذهني، لكنني تذكرت آنذاك مزاج يكتا، فقد قال ببرودة وعدم مبالاة: "الوقت يتأخر". لكنه كان منـزعجاً لأن ذكرى وفاة زوجته وابنه في اليوم التالي؛ ذكرى وفاة هاندان ويوموت، ولذا بدا حزيناً ومكتئباً جداً، فقد انقضت ثلاث سنوات منذ الحادثة...

ثلاث سنوات؟

ضربت الصاعقة بكل قوتها.

ثلاث سنوات... ذلك هو الوقت- وفقاً لليلى باركين- الذي انهارت فيه جدران الحوض في موقع تشييد آدم يزدان. بدأت أذناي تطنّان، وقلبـي يخفق بقوة في صدري. كانت هاندان ويوموت قد ماتا في حادث فظيع، لكن يكتا لم يكشف لي كل التفاصيل قطّ، وقال حين جلست معه لأقدّم له تعازيّ: "كانت حادثة؛ حادثة غريبة لا يمكن أن يتخيّلها المرء أبداً يا نوزت".

أصبحت أتنفّس بصعوبة فنهضت عن الكرسي، لكنني شعرت بالدوار. مشيت في الغرفة متثاقلاً وفتحت النوافذ، فسفعتْ ريحٌ قاسية وباردة وجهي وأنعشتني قليلاً، لكن الانقباض والألم في صدري استمرا. كان القمر يتمدد، وهالته الفضية الرائعة تصبح أروع. سرت عائداً إلى الغرفة، وأخرجت هاتفي واتصلت بليلى باركين التي كانت قد حضرت المحاكمة ولديها الملفات بالتأكيد. وكنت سأقلّها- إذا كان ذلك ضرورياً- وسأذهب معها إلى مكتب رابطة الدفاع عن إسطنبول وأتوثق من الملفات إن كانت هناك. عندما كان الهاتف يرن، فكّرت في ما سأقوله لعلي، ثم فعلت شيئاً خاطئاً تماماً: أخرجت بطاقة عمل ديمير ووضعتها في جيبـي.

لم تكن لديّ أيّ فكرة عن سبب قيامي بذلك، ولم أستطع تبرير أيٍّ من أفعالي، وكل ما عرفته آنذاك أن كبير المفتشين يعبث بدليل. لكن رغبة

جارفة في أن يتحرر صديقي من الشكوك المريعة التي تعصف بذهني انتابتني. أردت إلغاء كل دليل أو بيّنة تشير إلى أنه قاتل، وأن أُخفيها عن وجه الأرض.

"مرحباً ياكبير المفتشين". بدت ليلى باركين نعسة. "هل كل شيء بخير؟ ما الخطب؟".

قلت باذلاً قصارى جهدي لإخفاء فزعي المتزايد: "لا شيء، لا شيء، كل شيء بخير. أعتذر عن إزعاجك في مثل هذه الساعة المتأخرة، لكن ربما توصلنا إلى شيء قد يبرّئ "نامق"".

صرخت: "حقاً؟". واختفى النعاس من صوتها فوراً. "ما هو؟".

"ربما نكون قد وجدنا القتلة".

"هل هم رجال آدم يزدان؟".

"لا يمكنني الإجابة، لكنني أحتاج إلى الملفات الخاصة بقضية المحاكمة".

"أي قضية؟". لم تكن قد استيقظت تماماً.

"القضية التي رفعتها رابطة الدفاع عن إسطنبول ضد دار السعادة. أريد معرفة أسماء ضحايا ذلك الجدار المنهار. يمكنني أن أحصل على الأسماء من المحكمة؛ لكن ذلك سيستغرق وقتاً طويلاً، وأنا واثق أن الملفات موجودة لدى رابطة الدفاع عن إسطنبول. أعرف أن هذا مزعج لك، لكن إذا استطعنا فقط الذهاب إلى مكتب الرابطة...".

قالت بصوت يدل على التوقّع: "لا داعي إلى هذا. لا بد أن لدي نسخاً من كل الملفات هنا. وإذا لم تكن موجودة، فبإمكاني أن أحصل عليها من حاسوب نامق".

كانت هذه الليلة قد قرّرت أخيراً أن تمنحنا نبأ جيداً.

"رائع. هل يمكنك أن تراجعي الملفات وتخبريني بأسماء أولئك الذين قُتلوا في الحادثة؟".

"سأكون سعيدة بهذا. لكن، يجب أن أجد الملفات أولاً. هل يمكنني أن أتصل بك مجدداً؟".

"بالتأكيد. لكن بسرعة أرجوك، كل ثانية مهمة، والأمر عاجل".

قالت: "لا تقلق. سأتصل بك في اللحظة التي أجدها فيها". وأنهت المكالمة ما إن دخل علي الغرفة.

سأل وهو يقف بين الحارسين الليليين: "مع من تتكلم أيها المدير؟".

أجبت: "ليلى باركين". ثم استدرت نحو الحارسين قائلاً: "أيها السيدان، هل يمكنكما أن تتركانا وحدنا لبضع دقائق؟".

وقبل أن تسنح لهما الفرصة للرد، دفعهما علي إلى الخارج وأغلق الباب بعنف. وقف أمامي، وعيناه تتقدان فضولاً؛ متشوقاً لسماع ما قالته لي ليلى باركين.

قلت متهرباً من الموضوع: "المرأة مجنونة بنامق قرمان ذاك، وتتصل ثلاث مرات على الأقل في اليوم لتسأل عنه. لقد اتصلت للتو، وحاولت تهدئتها، لكنني أظن أن المكالمات ستستمر حتى يُطلق سراحه. هل وجدت شيئاً في الأسفل؟".

هزَّ رأسه. "لا شيء. لا وثائق أو مذكّرات. ماذا عنك؟ هل وجدت شيئاًَ؟".

كان مساعدي وصديقي رجلاً يثق بـي ثقة مطلقة وعمياء.

نظرت إلى عينيه وكذبت من دون حياء. "لا شيء. هناك بعض الملحوظات المخربشة على مفكّرته، لا شيء مهم بالنسبة إلينا. ما الذي يجري مع زينب؟ هل سمعت شيئاً منها؟ أنت تدرك أننا أرسلناها إلى منـزل نجدت بمفردها، أليس كذلك؟ آمل ألاّ يحدث شيء ما لها".

قال علي وهو يبدو قلقاً: "لقد خطر ذلك في بالي". لم يكن لحسن الحظ يدرك حقيقة أن مديره قد كذب عليه. "لكن، كنت ستضطر آنذاك إلى المجيء إلى هنا بمفردك ياسيدي".

"لا ياعلي، اذهب وادعم زينب. استقل سيارة أجرة واذهب إليها. وعندما أنتهي من التوثق من هذا المكان، سألتقيكما عند الضريح".

قال متجهاً نحو الباب بحماسة: "كما تشاء ياسيدي. سأتصل بك ما إن أجدها".

حجرة الموت

اتصلت بـي ليلى باركين حين كنت أقترب من الكنيسة البلغارية على شاطئ القرن الذهبـي. لم تكن هناك سيارات في الشوارع حين أسرعت عائداً إلى بلاط؛ إلى حيي القديم ومنـزلي صديقيَّ؛ متشبثاً بأمل أنهما سيقنعانني بأنني أرتكب خطأً فظيعاً بالتفكير على هذا النحو. إذ بدلاً من الدخول في تفاصيل المحاكمة أو متابعة الأدلّة والبينات، كان أفضل شيء أفعله ببساطة هو التكلم مع ديمير ويكتا اللذين ربما خرجا لصيد الأسماك؛ رغم أن الوقت لا يزال باكراً على الانطلاق إلى البحر. كان هناك متسع من الوقت قبل الشروق. لكن، نظراً إلى أن ديمير لا يرد على هاتف منـزله، ونظراً إلى عدم قدرتي على التواصل مع يكتا على هاتفه الخلوي، برز احتمال بأن يكون أغورا قد غادر آنذاك شواطئ القرن الذهبـي، أو ربما كانا يحضّران معدّاتهما في حديقة ديمير وقد ترك يكتا جوّاله في منـزله، أو أوقفه عن العمل ببساطة؛ وهذا مجرد احتمال. بذلت قصارى جهدي لأحافظ على تفاؤلي، ونظرت إلى البحر مطولاً حين قدت السيارة على طول الساحل، لكنني لم أرَ أثراً لأغورا أو أي مركب صيد آخر، واتصلت ليلى باركين آنذاك.

"مرحباً أيها المفتش أكّان. أرجو أن تعذرني على تأخري".

قلت وقد أصبحت الحاجة إلى سماع أسماء الضحايا الذين تم ذكرهم في تلك المحاكمة لا تُحتمل: "لا عليك، هل استطعت العثور على الملفات؟".

"لم أعثر على النسخ الورقية في المنـزل، لكنني وجدتها في الحاسوب، في ملف ثانوي أيضاً".

كنت أدرك تماماً أن في مقاطعتي لها فظاظة كبيرة، لكنني لم أستطع تركها تمضي قدماً في سرد تفاصيل هامشية.

"هل تمكنت من العثور على أسماء ضحايا تلك الحادثة؟".

"نعم. وفقاً للملف هنا، أدّت الحادثة إلى وفاة ثلاثة عمال؛ مشرف اسمه طيّار بيلك وعاملين يدعيان سمسي يورتان وكمال أكيسيك".

سألت بأمل متزايد: "ثلاثة فقط؟ سمعنا أنه كان هناك خمس ضحايا".

"هذا صحيح. خمس ضحايا".

تراجع الأمل مرة أخرى؛ مفسحاً المجال للفزع.

"لم تكن الضحيتان الأخريان من العمّال في الموقع. كانت إحداهما سيدة تجتاز المكان في ذلك الوقت، والأخرى ابنها اليافع".

سيدة وابنها ... كان هذا هو الاستنتاج الذي تضرّعت كي لا تثبُت صحته، والحقيقة التي تمنيت بقوة ألا تكون صحيحة... انتصار المنطق الذي قاد إلى الصدمة واليأس.

قالت غير مدركة التأثير الكارثي لكل حرف أو كلمة تتفوّه بها: "كان اسم السيدة هاندان سانكاكلي، واسم ابنها... دعني أرى... آه، ها هو، يوموت سانكاكلي. لم يكن الطفل المسكين يتجاوز التاسعة من عمره". يوموت... أصغر من آيسون ببضع سنوات... "انهار الجدار وسحق العمال على أحد الجانبين، والسيدة وطفلها على الجانب الآخر...".

كان كل ما قاله يكتا هو أنها حادثة غريبة وغير متوقعة. "حادثة غريبة لا يمكن أن يتخيّل المرء وقوعها يا نوزت، حادثة فظيعة...". بعد كل ذلك الوقت، استطعت رؤية الألم في عينيه، وسماع الاستنكار في صوته. لم يتم التحقيق في الحادثة، وأعلن أنها حادثة صناعية. لماذا لم أتوثق منها بنفسي؟ هل كنت مثقلاً بالعمل في ذلك الوقت وغارقاً حتى عنقي بجريمة أخرى ابتُليت بها مدينتنا؟ لا. أتذكر الآن أنني لم أكن في إسطنبول في ذلك الوقت وإنما في إزمير؛ ألاحق رجلاً قتل سيدتين عجوزين في بشكتاش. وعندما عدت بعد عدّة أيام، كانت الجنازة قد انتهت. لم يقل يكتا شيئاً آنذاك، وربما استسلم للقدر، وقال لنفسه ما أبلغني به بالضبط؛ حادثة غريبة. إذاً، ماذا حدث منذ ذلك الوقت ليتحوّل إلى...؟ لا، لم يثبت شيء بعد، وربما كان كل ذلك مجرد مصادفة. وربما لا يعرف ديمير بالأمر؛ لا يعرف أن الرجل الذي حصل له على الببغاوين هو مالك الجدار الذي انهار ودفن هاندان ويوموت تحته...

قالت ليلى باركين؛ وهي غافلة تماماً عن حقيقة أنني أفكّر في السيدة والطفل ولا أفكّر في العمال: "عمل الرجل في إحدى شركات آدم يزدان. هل يهدّد يزدان أسر العمّال؟".

لم يُذكر شيء من هذا القبيل، لكنها بدت مقتنعة تماماً بأن يزدان هو القاتل، واتهمته فوراً بارتكاب الجرائم. تمنّيت أن تكون محقة، وأن يثبت أنه القاتل، ويكون لدينا دليل لا يُدحض أو يُنكر...

"لا يزال الوقت مُبكراً لنقول إن لدينا حقائق مُثبتة يا آنسة باركين، فنحن لا نـزال نحقق في القضية. شكراً جزيلاً لك على مساعدتك التي لا تُقدّر بثمن، وإذا حصلت أي تطورات أخرى فسأتوثق من إبلاغك بها. تصبحين على خير".

ردّت بفظاظة: "تصبح على خير". لا بد أنها انـزعجت من نبرتي

القاسية، لكنني لم أكترث للأمر، فقد كانت الأفكار تعصف في ذهني، ومشاعري متضاربة. لو لم يكن يكتا وديمير المشتبه فيهما لفكّرت في أنّ الدليل الذي بحوزتي إثبات لا يقبل الجدل عن ذنبهما، اللعنة! لكن الحقيقة تبقى أن مصير اثنين من أعز أصدقائي على المحك؛ صديقَيْ طفولتي. بدا من المستحيل بالنسبة إليّ أن يقتلا أحداً، ولم يكن بمقدور يكتا أن يؤذي ذبابة؛ فالرجل شاعر. ربما كان ديمير قد عمل في أثناء الحرب في البوسنة، لكنه ذهب إلى هناك مع الأمم المتحدة، واعتنى بالجرحى... لا، من المستحيل أن يكونا مسؤولين عن تلك الجرائم. ربما كانت هاندان ويوموت الشخصين اللذين لقيا حتفهما في تلك الحادثة، وديمير طبيب آدم يزدان البيطري، ويمكنني حتى قبول فكرة أن آخر شخص رآه يزدان قبل أن يختفي هو ديمير، لكن لا يمكنني تقبّل فكرة أن يكون صديقاي مجرمين. من وجهة نظر قانونية، لم يكن ديمير ويكتا قاتلين؛ ليس وفقاً للدليل الذي بين يديّ الآن. نحن بحاجة إلى إثبات أقوى وأكثر رسوخاً.

كان ذلك الدليل هو ما أبحث عنه حين أوقفت السيارة وخرجت منها؛ تاركاً مصابيحها منارة. نـزلت إلى الرصيف بسرعة فرأيت أغورا راسياً في مكانه المعتاد. تجاوزت أشجار السنط الأربع التي تحجب رؤية الماء، ورأيت القرن الذهبي مكشوفاً أمامي مثل جدول فضي لامع...

كان أغورا يتمايل برفق في نهاية الرصيف؛ مظلماً وخاوياً مثل القرن الذهبي نفسه. مشيت إليه لأتوثق... لا، لم يكن هناك أحد على متن المركب. في البداية، شعرت بالارتياح والسعادة لأنهما لم ينطلقا لصيد الأسماك بعد؛ ما يعني أن بمقدوري العثور عليهما والتكلم معهما، لكنني أدركت بعد ذلك أنه ربما كان هناك سبب آخر لرسو مركبهما هنا. هل كذبا علي؟ هل رحلة الصيد خدعة؟ هل غادرا تاتافلا ليقتلا أخيراً آدم يزدان؛ إن لم يكونا قد فعلا ذلك سابقاً؟ تذكرت مراراً وتكراراً النظرة التي بدت على وجه ديمير في تاتافلا؛ إما نظرة طبيب بيطري قد أنهى للتو عملية معقّدة، أو نظرة... ثم رنّت كلمات يكتا في أذنيّ؛ مترافقة مع النظرة التي بدت على وجه ديمير... "تأخر الوقت يا نوزت...". شعرت بالرّعب من مجرّد التفكير في ذلك، وأبعدت الصورة من ذهني، وحجبت كلماته عني... ركضت عائداً إلى السيارة، واستقللتها متوجهاً إلى منـزل ديمير.

كان منـزل ديمير- "قصر بلاط"- مثل أغورا؛ مظلماً وخاوياً. ركنت السيارة في الخارج وخرجت منها، ثم ضغطت على زر الجرس على البوابة، مراراً وتكراراً، لكنني لم أتلقَّ رداً، ولم يتحرك شيء في المنـزل. فكّرت في

قرارة نفسي في أنه نائم بالتأكيد ، وتابعت الضغط على الجرس... لم يكن موجوداً؛ تماماً مثلما حصل في تلك الليلة التي أحضرنا فيها بختيار إليه. كدت أتسلق سياج الحديقة، لكنني أدركت أنهما ربما يكونان في منـزل يكتا، فركبت سيارتي وقدتها مسافة قصيرة حتى وصلت إلى المبنى التالي حيث يقع مسكن يكتا المكوّن من ثلاثة طوابق، بجانب أنقاض دار العم ماريو التي أضحت خراباً بعد أن غادر مالكها، بارك الله فيه. وثبت إلى خارج السيارة تاركاً الباب مفتوحاً، وأسرعت إلى البوابة الحديدية. نظرت إلى المبنى من أعلاه إلى أسفله قبل أن أرنَّ الجرس، لكنه كان صامتاً ومظلماً وخاوياً مثل منـزل ديمير تماماً. حدّقت عبر الوشيع، ظاناً أنهما ربما يكونان في الحديقة، لكنني لم أرَ أحداً هناك. كانت أغصان الأشجار قد طرحت أوراقها منذ وقت طويل، والأزهار قد ذبلت وماتت؛ ما جعل الجو كئيباً وموحشاً. ضغطت على زر الجرس مراراً وتكراراً، بدافع اليأس لا الأمل، لكنني لم أسمع أيّ صوت أو حركة من الداخل؛ وأدركت أن الجرس لا يعمل. اتصلت بهاتف يكتا الخلوي لكنه لم يجب. نظرت حولي يائساً وأنا لا أعرف ماذا يجب أن أفعل. عندها، لاحظتها فجأة على الأرض أمام المرأب.

تجاوزت البوابة وفحصتها عن قرب لأتوثق، لم يكن هناك شك؛ إنها العربة التي رآها سيلو المتشرّد قرب عمود قسطنطين؛ العربة التي وصفها في الليلة التي وجدنا فيها جثة مقدّر كيناسي: "كان الرجل يدفع أمامه إحدى تلك العربات، وعليها كيس كبير من نوع ما، وقد رأيت اليد هناك، تبرز من الكيس...".

هل استخدمت هذه العربة لنقل الجثث؟

مثل كل الأسئلة الأخرى التي كانت تدور في ذهني، بقي هذا السؤال من دون جواب أيضاً. ربما كان الجواب واضحاً جداً لكنني لا أريد تصديقه. وبدا لي وكأن ضوء القمر المنعكس عن النوافذ- حين رأى حالتي المؤسفة- يسخر من شكّي. لم يعد بمقدوري تحمّل الشكوك لوقت أطول فتسلقت بوابة الحديقة، وعندما نـزلت في الطرف الآخر، أسرعت إلى العربة، لكن بدا من المستحيل بالنسبة إليّ رؤية أي بقع دماء بسبب الظلام الحالك. تحرّكت إلى المطبخ الموجود في مؤخر المنـزل؛ كنت أعرف البيت جيداً مثل قفا يدي، وأدركت صعوبة الدخول حين رأيت قفلاً على الباب. ذهبت إلى مخزن الفحم خلف شجرة الكرز، وفتحت الباب بهدوء، فصدر عنه صرير، ثم أنرت المصابيح، فرأيت الفأس على الرف السفلي في خزانة

خشبية قديمة متداعية كان العم رؤوف قد صنعها قبل سنوات طويلة، فأمسكتها وعدت مسرعاً إلى باب المطبخ، ثم استجمعت كل قوتي وضربت القفل بها، فانكسر عند الضربة الخامسة. على كل حال، كان الباب الخشبي لا يزال موصداً، لذا كسرت النافذة على الباب باستخدام مقبض الفأس، وفتحت الباب من الداخل. غمرني شعور غريب حين أنرت المصابيح ورأيت المطبخ، إذ كانت المرة الأخيرة التي دخلت فيها هذا المكان حين قدّمت تعازيَّ إلى يكتا بعد مقتل هاندان ويوموت. طغى جو حزين وكئيب على المنـزل؛ من نوع الحزن والكآبة نفسيهما اللذين سادا منـزلي بعد أن فقدت غوزيد وآيسون. لم يكن الأحياء وحدهم من يشعرون بالحزن، وإنما الأثاث والأشياء أيضاً: الخزائن، والطاولات الخشبية في وسط المطبخ، والأطباق، والكؤوس، والإبريق؛ كلها لم تُستخدم منذ مدّة لا يعلمها إلا الله وحده. سحبت نفساً عميقاً، وذهبت إلى الردهة، ثم إلى حجرة الجلوس، وأنرت المصابيح.

لم يكن هناك شيء غير معتاد، وانبثقت سجادة صفراء، وكراسٍ زرقاء، وخزائن كتب تغطي الجدران من الأعلى إلى الأسفل من الظلام. فتّشت الخزائن والأدراج تحت المكتبة فعثرت على عددٍ من الألبومات التي تضم صور الزفاف، وصور يوموت الرضيع، وصوره في أول يوم له في المدرسة، وأول جولة له على الدراجة الهوائية... لم أتحمّل مواصلة النظر إليها، فبدأت بالبحث في الخزائن الأخرى التي احتوت على أطباق، وصحون، وأوعية، وقوارير شراب لم تُفتح بعد... لم أرَ شيئاً غريباً. أغلقت الخزائن، وغادرت حجرة الجلوس وذهبت إلى غرفة النوم. بحثت في خزائن الملابس، والأدراج، والطاولات الجانبية فلم يُثر أي شيء شكوكي... غادرت غرفة النوم واتجهت نحو غرفة يوموت، ووجدت الباب موصداً... لم يكن من الممكن أن أدخلها بالقوة، فبعد وفاة آيسون، لم أستطع دخول غرفتها لأسابيع، لذا مشيت مبتعداً عن غرفة يوموت. وكدت ألج المكتب الصغير حيث يكتب يكتا قصائده، حين لاحظت أن الباب بجانب المكتب- الذي يُفتح إلى الردهة الصغيرة المؤدية إلى المرأب- مفتوح قليلاً. فكّرت في قرارة نفسي أنه ربما استقل سيارته الجيب، فقررت فتح الباب ودخول المكان لأتأكد إن كان قد فعل ذلك أم لا. عندما اقتربت من باب المرأب، شممت رائحة غريبة؛ رائحة كريهة نفّاذة تهيّج المعدة... كانت رائحة أعرفها جيداً؛ رائحة جثة متعفّنة، رائحة كريهة تنبعث من لحم متفسّخ. تسمّرت في مكاني، لم تكن هناك فائدة من أن أخدع نفسي لوقت أطول. كانت رائحة أعرفها من

أحيائي وأماكن الجرائم في كل أرجاء المدينة؛ إنها الرائحة القذرة لوحشية الإنسان ضد أخيه الإنسان. فكّرت للحظة في أن أعود أدراجي وأترك كل شيء على حاله، لكنني لم أستطع. ورغم أنني عرفت ما ينتظرني خلف ذلك الباب، وعرفت أن ما سأراه سيغرقني في الكابوس أكثر، لم يكن لديّ خيار إلا أن أفتح الباب وأنير المصابيح...

أنار ضوء أبيض ساطع غرفة تشبه المشرحة تجعل المرء يتجمد في مكانه. لم تكن سيارة يكتا هناك، ولا يمكن ركنها فيها؛ لأن المساحة في الوسط تشغلها طاولة عملهما المعدنية الضخمة. في الأيام القليلة الماضية، لم تكن الغرفة تُستخدم مرأباً للسيارات وإنما كانت حجرة للموت. كانت مسلخاً تجري منه دماء ضحاياهما - قرابينهما - إلى إسطنبول مثل أنهار على الأرضية الحجرية القاسية. كيف استطاعا الإقدام على مثل هذه الجرائم؟ ولماذا؟ هل فعلا هذا بسببي؟ بسبب تلك الملحوظة السيئة التي قلتها في لحظة كنت فيها غير واعٍ؟ حين قلت - حين كنا على متن المركب - إن كل أولئك الذين ينهبون المدينة ويؤذونها يجب أن يُقتلوا، الواحد تلو الآخر؟ لا، كان ذلك هراء مطلقاً، فهما لم يهتما إطلاقاً بما قلته آنذاك وما عنيته، ولو اكترثا لما فعلا هذا أو وضعاني في مثل هذا الموقف. لقد تعرّضت للخداع والخيانة. شعرت بالغضب؛ لأنهما عاملاني بازدراء وأقصياني من حياتهما مجدداً، ونهائياً هذه المرة. ما الذي سبّب كل هذا؟ فكرة من كانت؟ من غير ديمير طبعاً... كان ديمير من يقف خلف كل ذلك، فالرجل يزدري الإنسان والإنسانية، وهو المسؤول عن الأمر، ولا بد أنه أقنع - خدع - يكتا المسكين. لا بد أن ديمير قد اكتشف بطريقة ما أن الحادث الذي وقع في موقع التشييد وقتل هاندان كان عملاً تخريبياً، لذا بدأ بجمع أكبر قدر من المعلومات عن آدم يزدان، ودخل حياة الرجل حين اكتشف شغفه بالطيور، أو وجده آدم يزدان الذي كان يحتاج إلى طبيب بيطري لببغاواته المريضة. أياً تكن الحال، لم يضع ديمير وقتاً في معرفة العلاقة بين آدم يزدان ووفاة هاندان، ثم أخبر يكتا بما عرفه، وأغواه لتنفيذ خطة للثأر زعم أنها سهلة على نحو مدهش، أو ربما كانت هناك مجموعة مختلفة جداً من الظروف... ما الفائدة الآن على كل حال؟ ما أصابني بالحيرة هو السبب الذي جعل يكتا يخبرني عن المكان الذي سيتركان فيه الجثة السادسة؟ كان قد لـمّح بوضوح إلى أن للمكان علاقة بالمعماري سنان. هل أراد أن يُلقى القبض عليه؟ هل كان يلتمس مني سراً أن أعتقلهما؟ لم يكن يفعل هذا طبعاً، وإنما كان يختبرني ويتحدّاني؛ وكأنه يقول: "اسمع،

لقد أخبرتك عن المكان الذي سنُلقي فيه جثة هاكان يمالي ولم تستطع رغم هذا العثور علينا". لكن، لماذا تحدّاني هو وليس ديمير؟ كان ديمير دائماً الشخص الذي ينافسني ويتحدّاني أو يقبل التحدّي. لماذا؟ ما المغزى؟

لم أكن أعرف السبب، لكن هذا ليس مهماً على كل حال، فالحقيقة واضحة تماماً، والقاتلان اللذان كنا نلاحقهما منذ أيام هما صديقاي؛ صديقا طفولتي... وإذا نحّيت جانباً علاقتنا وذكرياتنا وحبنا وخسائرنا المشتركة، فسأجد أنهما قد ذبحا سبعة أشخاص أمام ناظريّ مباشرة.

كان النايلون الشفاف الذي يغلّف الطاولة قد تلطّخ بدم جاف، والجدران مقلّمة بخطوط داكنة؛ لا بد أنها ناتجة عن الدم الذي تدفق من أعناق الضحايا. رأيت كيساً يحتوي على سكاكين بجانب الطاولة، لكنني لم أرَ أي أثر لبقع دم على أيٍّ منها. مددت يدي نحو إحدى القوارير الزجاجية التي تصطف على رف الخزانة السفلي وقرأت اللصاقة: بروبوفول .

لا يوجد ما يشير إلى أن الضحايا قد عانوا من أيّ نوع من التعذيب أو سوء المعاملة ياسيدي...

إذاً، لقد خدّراهم وقتلاهم. وعندما فتّشت المكان، اكتشفت ما استخدماه لاختطافهم؛ علبتين فارغتين تقريباً من القطن وقارورة بنية من الكلوروفورم. لا بد أن ديمير قد انقض- مسلحاً بقطع قطن كبيرة- على فريسته الغافلة مثل نسر... كانت أدوات الجرائم وطريقة ارتكابها تظهر آنذاك الواحدة تلو الأخرى في ذلك المرأب الرهيب. وماذا بالنسبة إلى القطع النقدية؟ بحثت عنها لكنني لم أعثر على أثر لها، أو على العلبة التي يمكن أن تحتويها. عرفت أنها موجودة داخل المنـزل، في مكان ما؛ على الأرجح في مكتب يكتا. نعم، في المكتب؛ لقد بدأ الشاعر ينظم قصائده باستخدام الجثث بدلاً من الكلمات. وعلى الأرجح، يمكن العثور على مادة مقطوعاته الشعرية في الغرفة التي يكتبها فيها.

دار الذكريات

سجادة قديمة بالية، وجدران تغطيها خزائن كتب، وصورة لهاندان حين كانت شابة بجانب مرآة طويلة، وكرسي عادي، وآلة كاتبة قديمة على طاولة بجانب النافذة؛ بدا مكتب يكتا متواضعاً على أفضل تقدير. كان أول شيء أثار انتباهي حين أنرت المصابيح خريطة شبه الجزيرة القديمة على الجدار؛ إنها الخريطة نفسها الموجودة في مختبر زينب. ومثل الخريطة في المختبر تماماً، كانت بعض الأماكن واضحة وتمت الإشارة إليها: سارايبورنو، وسمبرليتس، وألتين كابـي، وآيا صوفيا، وجامع الفاتح، وقصر توبكابـي، والسليمانية. سبعة مواقع قديمة، وهناك ست ضحايا، لكن رأس فضلي غموس قد فُصل عن جسده، ثم أُرسل الرأس والجسد إلى موقعين مختلفين؛ إنها المواقع السبعة التي عُثر فيها على الضحايا. إذاً، أين سنعثر على جثة آدم يزدان؟ لم يكن هناك ما يشير إلى موقع جديد على الخريطة... وعندما بدأت أفكر في أنهما لم يصلا إليه بعد، لاحظتها معلّقة قرب الباب؛ رمز قوته، ودعامته الثابتة، والغرض الذي لا يتخلى عنه أبداً؛ العصا ذات المقبض العاجي.

كان الوقت قد فات على إنقاذ يزدان، فقد أجهز صديقاي المفترضان على حياته منذ أمد بعيد، وهما الآن على الأرجح يحاولان إلقاء جثته في مكان ما. لكن السؤال الذي يطرح نفسه هو: أين؟ عدت إلى الخريطة وحدّقت إليها مطولاً؛ محاولاً اكتشاف ذلك. كان لا بد من وجود صرح آخر مميز بُني بعد السليمانية؛ حيث تُركت الضحية السادسة الأخيرة هاكان يمالي الذي أشارت يداه على ما يبدو نحو إيمينونو. وأهم مبنى تاريخي هناك هو جامع السلطان وليد، لكن إيمينونو لم تكن ظاهرة على الخريطة.

جلست على الكرسي بجانب الطاولة؛ راغباً في الاستراحة قليلاً، وفي استجماع أفكاري. وعندما حاولت التركيز، لاحظت الأوراق بجانب الآلة الكاتبة، وقد طُبع في أعلاها:

"بيزنطية؛ مدينة الملك بيزاس الأسطورية".

لم أعرف بالضبط ما كان يُعبّر عنه بالهراء الشعري الغريب على الصفحة التالية:

كان بوسيدون ينظر إلى الملك، وذلك طقس الاحتفال، يوم الشكر، لحظة التقدير؛ وقت التوقير. كان الملك قد مُنح، هذه الأرض التي تندفع بفخر في البحر مثل نسر...

ما كل هذا؟ ألقيت نظرة على ما كتبه بعد ذلك، ثم قلبت إلى

الصفحة التالية. رأيت قصيدة أخرى معنونة:

"القسطنطينية؛ عاصمة قسطنطين".

أُقيم احتفال النصر؛ وقت تكريم الشجعان وتمجيد الانتصارات الرائعة. كان قد جاء من غابات الشمال الكثيفة، في أيامٍ ثقيلة الوطأة وليالٍ حالكة؛ متغلباً على الجوع ومقاتلاً بالسيف والنار. لقد أتى قاهراً الدم .

لم أتابع قراءة ما كتب عن قسطنطين وانتقلت إلى قصيدة أخرى على تلك الأوراق البيضاء القديمة:

"درع ثيودوسيوس الثاني الحجرية؛ أسوار القسطنطينية".

في لحظة الخلاص، يوم عرض القوة، ووقت التأبين، اعتمر الإمبراطور - الذي كان مرتدياً أفخم ثيابه - تاجاً مرصّعاً بالياقوت. ..

حتى عندما كنت أقرأ، خمّنت أن شخصاً ما من الماضي الغابر سيظهر في القصيدة التالية...

"مدينة تولد مجدداً؛ قسطنطينية جستنيان".

كان الإمبراطور يحدّق إلى أروع دار عبادة على وجه الأرض: آيا صوفيا؛ المعبد الذي يبدو مثل غيمة غريبة، والذي يحمي القسطنطينية من كل الشرور؛ الصرح المبارك...

لا بد أن القصيدة التالية خاصة بالسلطان محمد الفاتح...

"القسطنطينية؛ حديقة مسرّات السلطان محمد الفاتح".

رفع السلطان ذراعيه عالياً متضرعاً. وكان الضوء المتدفق من السماء فوقه يهمس بإحدى أقدم أساطير العالم في أذنه ...

ثم طبعاً، لا بد أن القصيدة الآن متعلقة بالسلطان سليمان والمعماري سنان:

"مدينة سنان؛ عاصمة سليمان الفخمة".

كان سنان يحدّق إلى بيت الله؛ نحو القبة الرئيسة والقبب الأصغر التي تبدو مثل كواكب تحيط بالشمس، والمآذن الأربع التي تسبح في الزرقة غير المتناهية ...

ماذا يقصد يكتا بهذه القصائد؟ هل كان يكتب قصائد غنائية لمدينته؟ قلبت بانفعال إلى الصفحة التالية، لأرى من سيكون الحاكم التالي، لكن عندما وصلت إلى الفقرة السابعة، لم يكن قد ورد أي ذِكر لسلطان أو إمبراطور:

"إسطنبول مدينتنا؛ حصن الأحلام المحطّمة".

كنا ننظر نحو الخلف إلى المدينة؛ من البحر المغطّى بالضباب، ومركبنا

محجوب عن الأبصار، وإسطنبول غارقة في السديم، ولا يمكن رؤية شيء إلا مآذن جامع السليمانية، وقبة آيا صوفيا، وأبراج قصر توبكابي. بدت المدينة نقية وطاهرة وسليمة، ولا تشوبها شائبة، فيما بياض الضباب الأبيض يغطي كل شيء، وأي شيء يمكن أن يفسد المظهر. كان المشهد شبيهاً بإحدى الأساطير القديمة؛ إذ تنبثق من لحظة عابرة قبل ضوء النهار... مدينة أُنشئت حديثاً؛ بداية جديدة تلمع تحت ضوء الفجر الرمادي... يافعة، ومفعمة بالحياة، ومملوءة أملاً...

عرفت ما كان يتكلم عنه؛ فهو يتكلم عنّا وعن حبنا للمدينة. كنت سأقرأ ما تبقى حين لاحظت علبة تحت كومة الأوراق؛ علبة خشبية صغيرة على غطائها شعار شركة حلويات حاجي بكير الأحمر الشهير. فتحت العلبة... ووجدت في الداخل القطع النقدية المفقودة من منـزل نجدت دينيزل، بالإضافة إلى بعض القطع النقدية الأخرى البيزنطية والرومانية والعثمانية، وأخرى من العهد الجمهوري. ها قد عرفت الآن مكان القطع النقدية... ما لم أعرفه بعد هو مكان وضع جثة آدم يزدان.

نهضت - غير واثق تماماً مما سأفعله - وقرأت عناوين الكتب التي تغطي الجدران، فأثار انتباهي كتاب على الرف الثالث يبدو مألوفاً. مددت يدي إليه وألقيت نظرة عليه، فتبيّن لي أنه مماثل لكتاب القطع النقدية الذي رأيناه في منـزل ليلى باركين. وبعد أن قلّبت الصفحات اللامعة بسرعة، رأيت القطعة التي وُضعت بين كفّي نجدت دينيزل؛ تلك التي تحمل صورة هيكات على أحد الوجهين والنجم والهلال البيزنطيين على الوجه الآخر. والأهم من ذلك أنني رأيت علامة حمراء بجانب الصورة؛ ما يعني أنني سأجد قريباً القطعة النقدية التي يخططان لتركها على جثة آدم يزدان؛ إذا كانا قد تركا علامات بجانب كل القطع النقدية الأخرى التي استخدماها. بدأت أقلّب الصفحات بسرعة... فرأيت علامات بجانب القطع النقدية كلها: قسطنطين، وثيودوسيوس الثاني، وجستنيان، والسلطان محمد، والسلطان سليمان... لم يسعني إلا أن أتوقف وأقرأ الترجمة من التركية العثمانية للنقش على القطعة النقدية التي ترجع إلى عهد السلطان سليمان. الوجه : "الشريف، المفضّل في البر والبحر..."والوجه الآخر: "السلطان سليمان، ابن سليم، القسطنطينية" . تابعت تقليب الصفحات حتى وجدت أخيراً ما كنت أبحث عنه: صورة لقرش [35] واحد سُكَّ في أثناء العهد الجمهوري، وعلى أحد الوجهين كلمة "التركية" فوق نجم داخل هلال وكلمة "جمهوريتي" [36] عند القاعدة، في حين يوجد على الوجه الآخر رقم " 1 " كبير ضمن إكليل

غار، وكلمة "قرش" تحته، وفي أسفل القطعة النقدية نُقش التاريخ: 1935 .

كنا قد وصلنا أخيراً إلى العهد الجمهوري الذي يعني أيضاً أن آدم يزدان ربما يكون القربان الأخير. وبدا أن هناك سبباً منطقياً لقتل يزدان في النهاية؛ لأنه الشخص المسؤول مباشرة عن موت هاندان ويوموت. وعلى الرغم من أهمية كل ما اكتشفته، لم تكن لديّ أي فكرة عن المكان الذي ستُترك فيه جثته، فتابعت النظر إلى القطعة النقدية من فئة القرش، وشعرت أن الجواب الذي أبحث عنه مخفي في تلك الصورة. إذا كان ديمير ويكتا قد اختارا هذه القطعة لتوضع في يد ضحيتهما، فسيُترك القتيل في بناء أو صرح بني بعد عام 1923 ، أي بعد تأسيس الجمهورية... كانت يدا هاكان يمالي تشيران نحو إيمينونو، لكن وفقاً لما أعرفه لم تكن هناك صروح مهمة بُنيت في حقبة ما بعد العثمانيين. فضلاً عن ذلك، لم تكن إيمينونو ظاهرة على الخريطة، أم إن أحد الصروح الجمهورية قد بُني فوق آثار بيزنطية، أو رومانية، أو عثمانية حيث تُركت الجثث لنعثر عليها؟ في هذه الحال، لن نرى علامة سابعة على الخريطة؛ لأن الموقع التالي قد حُدّد سابقاً، فحدّقت إلى الخريطة مجدداً: سارايبورنو، سمبرليتس، ألتين كابـي، آيا صوفيا، جامع الفاتح، قصر توبكابـي، السليمانية... سبعة مواقع تاريخية... لكن، أيُّ واحد منها شهد تشييد صرح رئيس جديد بعد عام 1923 ؟ بدا من الممكن أن أبقى في الغرفة طوال النهار والليل من دون أن أحظى بأجوبة، لذا اتصلت بالشخص الوحيد الذي يمكن أن يساعدني.

"مرحباً؟ أيها المفتش أكّان؟". لم تبدُ منـزعجة وإنما فضولية.

"أعتذر عن إزعاجك مجدداً ياآنسة باركين، لكن شيئاً آخر قد طرأ، وأخشى أننا نحتاج إلى نصيحة خبير".

"بالتأكيد تفضّل".

"المقاطعات السبع - الأماكن التاريخية السبعة - التي وُجدت فيها الجثث...".

"نعم، ما بها؟". كان التوقع في صوتها واضحاً.

"هل هناك أي صروح، أو جوامع، أو كنائس، أو مبانٍ مهمة أخرى بُنيت في أثناء العهد الجمهوري في سارايبورنو، أو سمبرليتس، أو ألتين كابـي، أو السلطان أحمد، أو الفاتح، أو توبكابـي، أو السليمانية، أو حولها؟".

أطبق الصمت حين توقفت عن الكلام لتفكّر.

تابعتُ: "أو دعيني أطرح السؤال على الشكل التالي: هل هناك أي

أبنية مماثلة في إيمينونو؟ جامع السلطان وليد، ربما؟".

"آه، ياالله، لا. بُني جامع السلطان وليد في أثناء الحقبة العثمانية. في الواقع، كانت أطول عملية بناء جامع في التاريخ العثماني، فقد بدأ التشييد عام 1597 ، وفُتحت الأبواب أخيراً للمصلّين عام 1664 ، إن لم أكن مخطئة".

سألت مسعوراً: "ماذا عن محطة قطارات سيركجي؟ متى بُنيت؟".

"تلك أيضاً بُنيت في أثناء العصر العثماني، وأشرف عليها مهندس معماري ألماني عام 1890 ...".

"ماذا عن مبنى البريد الرئيس؟".

"ذلك أيضاً إبداع عثماني، تم تشييده عام 1909 كما أظن. كان المهندس هو فيدات تيك الذي بنى خان ليمان في سيركجي أيضاً. مجدداً، ذلك مبنى من حقبة ما قبل الجمهورية، ولا يمكنني ببساطة أن أتذكر أي بناء رئيس آخر في منطقة سيركجي ياكبير المفتشين. إذا كنا نتحدث عن سارايبورنو وليس عن إيمينونو، فسأشير إلى تمثال أتاتورك، وربما أكون قد ذكرت لك سابقاً أنه أول تمثال لأتاتورك. صمّمه وأبدعه هاينريش كريبل، وهو نحّات نمساوي، وأظن أن الستار قد أُزيح عنه عام 1926 ...".

تذكرت التمثال جيداً؛ أتاتورك في ثياب مدنية، يداه على وركيه، ويحدّق إلى البحر، وتعبير تأمل عميق يبدو على وجهه... ثم خطرت لي الفكرة، وأدركت أنهما سينهيان الأمر حيث بدآه، وسيتركان ضحيتهما الأخيرة معروضة للعالم في البقعة التي عثرنا فيها على الأولى.

"شكراً جزيلاً ياآنسة باركين، فقد أسديت لنا خدمة كبيرة".

"حقاً؟! ماذا فعلت؟".

قلت مضطراً مرة أخرى إلى إنهاء محادثتنا بفظاظة: "لقد ساعدتني معلومتك على تذكر شيء بالغ الأهمية. هناك شاهد آخر يجب أن أتكلم معه بسرعة، عمت مساء".

اتجهت نحو الباب. كان الضوء يتسلل ببطء إلى الداخل، ويمتزج بالظلام، فتصبح الظلال أكثر وضوحاً. عرفت آنذاك ما يجب فعله، يجب عليّ إبلاغ الرجال في مناوبة المراقبة بما توصّلت إليه، وإرسالهم إلى سارايبورنو لانتظار القاتلين اللذين أصبحا الآن في متناول أيدينا...

قاتلين؟!

أطلّت هاندان من الصورة المؤطرة بجانب المرآة، ونظرة ذهول واستنكار على وجهها.

بدا أنها تقول: "أتقول إنهما قاتلان يا نوزت؟ ماذا تفعل كرمى لله؟ هما ليسا قاتلين، أو همجيين، وإنما صديقاك...". لم أعرف بماذا أرد أو ماذا أقول، فأبعدت ناظري عن عينيها الثاقبتين، وأطفأت الأضواء ثم غادرت الغرفة، لتواجهني صورة الطفل يوموت في الردهة.

"ماذا يجري يا عمي نوزت؟ أنت لن ترمي والدي في السجن، أليس كذلك؟ أليس كذلك يا عماه؟".

لم أتحمّل النظر إلى عينيه، فأشحت ببصري بعيداً وذهبت إلى المطبخ، كنت أشعر بحاجة ماسّة إلى تفادي صورتيهما، لكن جهودي باءت بالفشل. فقد كنت وسط عاصفة من الأصوات القديمة؛ أصوات قديمة ومألوفة، وتنافر النغمات يصبح أعلى بمرور كل ثانية.

سأل العم رؤوف، والد يكتا: "ماذا تفعل يا نوزت؟ هل ستسجن صديق طفولتك؟".

سألت الخالة آينيا، وصوتها يشي كالعادة بالحب والدفء: "ماذا تفعل يا نوزت؟ هل سترسل يكتا، ابني الوحيد، يكتا الصغير، ليموت وحيداً وببطء في السجن؟".

سألتِ الذكريات التي تعيش وتتنفس في ذلك المنـزل الذي قضيت فيه ساعات سعيدة كثيرة: "ماذا تفعل يا نوزت؟ هل سترسل يكتا، صديقك وخليلك، ليتعفّن ويموت بين أربعة جدران؟".

جأرت: "ماذا تريدون مني أن أفعل؟ ماذا عساي أفعل؟ لقد قتلا سبعة أشخاص بدمٍ بارد، ذبحاهم! لم يكن يحق لهما فعل ذلك! لا أهتم إن كان الأشخاص الذين قتلاهم أشراراً أم لا، ولا أكترث إن كانت أيديهم ملطخة بالدماء. لم يأتِ أيٌّ منهما إلي! لم يطلبا مساعدتي قطّ! لم يخبراني شيئاً، أو يشاطراني شيئاً! وماذا يفترض بـي أن أفعل الآن؟ أخبروني! ماذا يجب أن أفعل؟".

أعادني صدى صوتي الذي تردد في أرجاء الردهة إلى الواقع.

لم يكن هناك أحد؛ لا هاندان، أو يوموت، أو العم رؤوف، أو الخالة آينيا، وإنما أنا فقط، نوزت؛ الرجل الذي اكتشف للتو أن صديقيه الحميمين مجرمان باردا الدم؛ الرجل الذي كان يطارد أشباحاً فيما أقرب صديقين له قتلا سبعة أشخاص أمام ناظريه. كنت رجلاً عالقاً بين صديقيه وواجبه.

بدأت الجدران تطبق علي، وشعرت بصدري يضيق... لهثت طالباً الهواء، لكنني لم أستطع التنفس جيداً... خرجت من المطبخ إلى الحديقة مسرعاً، ولم أتوقف حتى وصلت إلى شجرة الكرز، فأسندت جسدي إليها وأغمضت

عينيّ وأنا ألهث. وعندما فتحت عينيَّ مجدداً رأيت ذلك الضوء الباهت الكئيب الصادر من البدر في السماء، وسمعت تلك الأصوات المتواصلة القلقة نفسها.

"ماذا تفعل يا نوزت؟".

لم تخفت الأصوات في الحديقة أيضاً، وبدت الذكريات منتشرة في كل مكان، في كل أرجاء العقار: حول النافورة الصغيرة، وعند باب مخزن الفحم، وفي الأحواض الذابلة التي كانت تنتج طماطمَ وفلفلاً، وصولاً إلى شجرة الكرز... حتى إنها كانت تنفذ من أزهار الأقحوان وأجمة الورود المحتضرة. وكان كل ما سمعته هو السؤال نفسه يتردد بصوت خافت: ماذا تفعل يا نوزت؟

لم يكن لديّ رد على ذاك السؤال. ولم أصرخ أو أسأل عمّا يريدونه مني، أو أخبرهم أنني لا أستطيع حمايتهما وأنهما قتلا سبعة أشخاص، وأنني سأرسلهما إلى السجن، وأنهما، نعم، يستحقان ذلك. طرحت على نفسي ببساطة السؤال نفسه:

نوزت، ماذا تفعل؟

ربما كان بمقدوري الادّعاء أن شيئاً من ذلك لم يحدث، وأنني لم أذهب إلى ذلك المنـزل ولم أرَ الجثة، وأن صديقيَّ ليسا القاتلين... بدا ذلك ممكناً. لم يكن هناك شيء يمنعني، ولا أحد يعرف أنني في بلاط، ولدي بطاقة عمل ديمير، ويمكنني العودة إلى دار السعادة وتمزيق تلك الصفحة من مفكّرة يزدان وسينتهي كل شيء. لم يكن العالم سيحزن على الضحايا الذين لم يقتلوا هاندان ويوموت والعمّال الثلاثة المساكين الآخرين بأيديهم، وإنما بقراراتهم وأفعالهم التي أدّت إلى "وقوع الحادثة" وبالتغطية اللاحقة عليها. ولم تكن دماء هؤلاء الأشخاص على أيديهم فقط، وإنما كانوا مسؤولين أيضاً عن تدمير المدينة ونهبها. ولو أنهم بقوا أحياء، لربما تعرّضت المدينة ومدن أخرى لا تُحصى للأسوأ... عندما بدأت الفكرة تبدو أكثر إغراءً، رنَّ الهاتف.

"مرحباً سيدي". كانت زينب هي المتصلة، وكنت قد نسيت أمرها تماماً.

تمتمت: "همم، مرحباً زينب. ماذا حدث؟ كلي آذان صاغية".

قالت بعد بضع ثوانٍ من الصمت: "هل أنت بخير يا سيدي؟ تبدو متعباً".

"أنا بخير، لا تقلقي. أين أنت؟ أين علي؟".

"نحن عائدان إلى جامع السليمانية. اتصل بك علي عدّة مرات لكن هاتفك كان مشغولاً".

"كانت ليلة متعبة. هل وجدتما شيئاً أيها الشابان؟".

قالت قانطة: "لا، لسوء الحظ. لكنني كنت محقة بشأن الرسومات في منـزل نجدت دينيزل. إذ تعرض اللوحات السبع كلها المواقع التي عُثر فيها على الجثث".

كانت للفتاة المسكينة ثقة مطلقة وعمياء بصدق مديرها واستقامته، وها هي تكشف أمامه بسذاجة كل شيء، فيما كبير المفتشين نفسه الذي تثق به مشغول بوضع خطط لخداعها وباقي أفراد السلك.

"لكن، إن صحّ توقعك فسيكون يزدان هو الضحية السابعة ياسيدي، وليس هناك مكان آخر تشير إليه الصور. تظهر سارايبورنو، وسمبرليتس، وألتين كابـي، وآيا صوفيا، وجامع الفاتح، وقصر توبكابـي، والسليمانية في اللوحات، لكننا وجدنا الجثث في تلك المواقع سابقاً. هل هناك احتمال بألاّ يكون آدم يزدان قد اختُطف وقُتل وأن هاكان يمالي آخر ضحاياهم؟".

كنت بائساً، ولم يعد بمقدوري تحمّل الأمر، وجعلتني فكرة الكذب عليها وخيانة ثقتها وثقة علي بـي أشعر بالغثيان. أضحت تلك الأصوات، وذلك السؤال، وتلك الذكريات التي يتردد صداها في أرجاء منـزل يكتا لا تُحتمل. استسلمت في غمضة عين، في لحظة واحدة، استسلمت وأفشيت السر.

"سارايبورنو".

خرجت الكلمة من بين شفتيَّ؛ ربما لأنني عرفت أنني كلما أمعنت التفكير في اتجاهات الأحداث المحتملة الأخرى... ربما لأنني لم أرغب في أن يكون نوزت الآخر، ذاك الذي يبذل قصارى جهده لمقاومتي، هو الفائز... ربما لأنني خفت من نتيجة تلك الشكوك، والذكريات الكثيرة التي تؤرقني...

قلت باقتناع هذه المرة: "سارايبورنو. سيُنهيان الأمر حيث بدآه. سيتركان جثة آدم يزدان في سارايبورنو، بجانب تمثال أتاتورك".

التمثال

سمعت الأعيرة النارية حين كنت على بعد بضعة أمتار عن صرح أتاتورك، حين كنت أقترب من رصيف سيركجي. ارتفع سرب من طيور النورس في الهواء بسرعة حين دوّت الرصاصات الثلاث، وتحطم صمت الليل الهادئ؛ بالإضافة إلى عزيمتي وإحساسي بالواجب اللذين تدرّعت بهما.

"ماذا فعلت؟".

كان شعوري بالشك والندم غامراً، وتخيّلت يكتا وديمير مستلقيين في بركة من الدماء أمام تمثال أتاتورك، بعد أن أرداهما علي من دون أن يتردد ثانية. ولماذا سيتردد؟ ماذا يمكنني أن أتوقع غير ذلك؟ كنت الشخص الذي أوقع بهما، وأرسلهما إلى حتفهما. وعلي، الرجل المسكين، يقوم بعمله وينفّذ واجبه ببساطة. نعم، لقد سرق آدم يزدان منهما سعادتهما، لكن الرجل الذي أجهز على حياتيهما لم يكن إلا صديقهما المفترض.

صرخت: "آه، ياالله! ماذا فعلت؟ علامَ أقدمت؟".

انتقلت صرختي بعيداً في الليل، وتردد صداها في الطرق المقفرة العريضة.

"ماذا فعلت؟".

تردد الصوت في النسيم، وبين أجنحة طيور النورس التي تخفق بقوة.

"ماذا فعلت؟".

استبدَّ بـي الذعر، فضغطت بقدمي على دواسة الوقود، واندفعت السيارة إلى الأمام. على كل حال، لم أكن قد تقدّمت إلا بضعة أمتار حين لاحظت سيارة أخرى تتجه نحوي على الطرف الآخر من الطريق. تنهّدت بارتياح؛ كانت سيارة يكتا الجيب. حمدت الله لأنه لم يحدث شيء لهما. خفّفت السرعة، وحدّقت عبر الزجاج الأمامي حين تجاوزتني سيارته، فرأيته فيها، مرتدياً ثياباً سوداء ومائلاً إلى الأمام، وصدره يكاد يلامس المقود، لكنني لم أعرف إن كان قد رآني أم لا.

ما الذي يجري؟ لم يكن من الممكن أن أتبعه بواسطة السيارة بسبب الفاصل الموجود في منتصف الطريق. حتى إن لم يكن موجوداً، ما كنت سأستطيع اللحاق به. ماذا عن علي وزينب؟ لم يقبضا على يكتا، فهل حدث شيء ما لهما؟ ضغطت بقدمي على دواسة الوقود وزدت السّرعة.

رأيت زينب حين اقتربت من الصرح في سارايبورنو. كانت واقفة بجانب التمثال، وقد أدارت ظهرها نحو الطريق، وهي تنظر في اتجاه تمثال

أتاتورك الحجري. كانت تحمل شيئاً؛ مسدسها على الأرجح... خرجت من سيارتي على الجسر الذي يؤدي إلى مدخل متنـزه جولهان، وجريت نحو الصرح المنتصب في الطرف الآخر من الطريق. رأيت الجنديين المناوبين في الحامية القريبة، اللذين سمعا من دون شك الأعيرة النارية واقفين ومستعدين للتصرف في حال الضرورة.

كنت محقاً، فقد كانت زينب، تسدّد مسدسها إلى... إلى من؟ شهرت مسدسي وانطلقت إلى الأمام.

رأيته بعد ذلك، أمام التمثال، الشخص الذي تصوّب مسدسها إليه؛ كان علي.

أي جنون هذا؟ لماذا تسدد سلاحها إلى علي؟

أدركت آنذاك أن من تسدد إليه ليس "علي"، وإنما ديمير الواقف خلف رهينته معتمراً خوذة، ولحيته الزائفة غير ثابتة في مكانها. في البداية، ظننت أنّ ما أراه خاطئاً، لكنني بعد ذلك تأكّدت أنّه يوجّه مسدسه إلى رأس علي.

كان أول من رآني.

سخر مني قائلاً وابتسامة جليدية مرتسمة على شفتيه: "أهلاً يا نوزت". كان وجهه يتلوّى كراهية. "إذاً، وجدتنا أخيراً، لكن يجب أن أضيف أن الأوان قد فات".

عندما سمعت الأعيرة النارية حين اقتربت من سارايبورنو لعنت نفسي ألف مرة؛ ظاناً أنني سأكون المسؤول عن إرسال يكتا وديمير إلى القبر. لكن، لم يكن ديمير من يقف أمامي، وإنما كان شخصاً آخر؛ وحشاً مجنوناً بالرغبة في الانتقام وإراقة الدماء.

لم أره من قبل على هذه الحال. نعم، كان دائماً منعزلاً ومتحفّظاً ولا يعبر أبداً عن مشاعره. ونعم، لطالما تنافسنا معاً، لكنني لم أشاهده إطلاقاً وهو ينظر إلي بمثل هذا الاشمئزاز. لم يعد هناك شك الآن؛ فهو ويكتا الشخصان المسؤولان عن جرائم القتل. عرفت الآن، من النظرة التي ارتسمت على وجهه، أنه مصابٌ بمسّ من الجنون، وأنه قد طارد ضحاياه الواحد تلو الآخر، وأجهز بقسوة على حياتهم، ونفّذ كل شيء بما عُرف عنه من اهتمام شديد بالتفاصيل، وخطط لكل ثانية وكل تفصيل بإتقان. لكن، لماذا؟ ما الذي كان يسعى إليه خلف إراقة تلك الدماء؟ هل السبب حبه لهاندان؛ الفتاة التي لم يستطع نسيانها قطّ؟ هل بقي يكنُّ لها دائماً حباً سرياً؛ حتى بعد أن تزوجت أفضل أصدقائه؟ لم يكن بوسعه فعل شيء في أثناء

حياتها، وربما كان الغضب والألم اللذان شعر بهما بسبب خسارتها كبيرين، لكن لم يكن بمقدوره أن يؤذي يكتا مطلقاً، ولا حتى بعد مليون سنة، فذلك سيدمر علاقتهما المميزة. على كل حال، عندما ماتت هاندان، بدا أن انفعالاته قد وجدت مخرجاً فجأة.

ويكتا؟ كيف ورّط يكتا في كل هذا؟ كان الأمر واضحاً؛ بالحديث عن الثأر والانتقام لزوجته وابنه.

قلت برفق، متمنياً أن تكون صداقتنا لا تزال تعني له شيئاً: "بهدوء يا ديمير، هوّن عليك. هيا يا رجل، لا حاجة إلى السلاح، يمكن أن نتكلم عن الأمر. هيا، يمكن أن نحل المسألة".

ابتسم بتكلّف وهو يهز رأسه: "لا تمطرني بهذا الهراء يا نوزت، لا يمكن أن نحل شيئاً".

دفع علي إلى الأمام بمسدسه. بدا واضحاً من عنف الدفعة أنّه لا مجال لأي تفاوض.

حذّر علي: "ولا تفكر في القيام بأي حركة أيها المرح، وإلا فسأفجّر دماغك".

بدا عنيداً جداً وعاقد العزم، ولم تكن لدي أي شكوك في أنه سيضغط على الزناد إن اضطر إلى ذلك. كان ديمير الذي أعرفه قد اختفى، واستُبدل به شخص مختلٌّ عقلياً.

قال علي: "آسف أيها المدير". بدلاً من أن يقلق بشأن وضعه، كان الأحمق الشاب مذهولاً من مباغتته على هذا النحو. "أعرف أنني أخطأت، لكنني ترددت حين رأيته. لم أظن مطلقاً أن يكون أحد أصدقائك هو القاتلَ الذي نبحث عنه".

جأر ديمير وهو يضرب رأس علي: "نحن لسنا قاتلين! ألا يرى أي منكم هذا؟ نحن الضحيتان هنا!". وأشار إلى الشخص الممدد عند قاعدة التمثال بمسدسه. "القاتل الحقيقي هناك، ذاك. فهو المحتال الحقيقي!". كان آدم يزدان ممدداً على الأرض بجانب التمثال مرتدياً الثياب نفسها التي كنت قد رأيته فيها في الصباح، وقد حُزّت عنقه. صرخ ديمير: "القتلة الحقيقيون هم آدم يزدان ورجاله، ونحن الضحيتان! نحن! ويجب أن تعرف هذا أفضل من أي شخص آخر يا نوزت!".

أجبت بهدوء قدر المستطاع: "أعرف يا ديمير، وأعلم أنه كان المسؤول عن موت هاندان ويوموت".

أضاف ووجهه يتلوّى ألماً: "وأولئك العمّال الثلاثة المساكين أيضاً. ومن

أجل ماذا؟ المزيد من النفوذ والمال! لقد أفسدوا هذه المدينة يانوزت! ومزّقوها أشلاء! مدينتنا يانوزت! خرّبوا طفولتنا وأفسدوا ذكرياتنا العزيزة. دمّروها يانوزت، سحقوها وحوّلوها إلى غبار".

لم تستطع زينب التي كانت تحاول اكتشاف ما يجري أن تتحمّل لوقت أطول فسألتني:

"هل تعرفه ياسيدي؟".

رددت: "طبعاً أعرفه يازينب!". صرخت بصوتٍ عالٍ متعمداً؛ حتى يسمع ديمير ما أقوله أيضاً. "إنه أحد أفضل أصدقائي". ونظرت حولي مدّعياً أنني لا أدرك ما يجري. "ما الذي حدث هنا؟".

قال ديمير: "دعني أخبرك بما حدث. جئنا إلى هنا لإلقاء جثة هذا الحقير. كانت فكرة يكتا أن نتركه هنا، وقال إن متسابقي المركبات في روما القديمة كانوا يعودون إلى نقطة البداية بعد أن يدوروا حول المضمار سبع مرات، لذا يجب أن نترك الجثة هنا؛ حيث ألقينا الجثة الأولى، لإكمال الدورة. وهذا ما فعلناه. لكنك تعرف يكتا الذي لا يتقن شيئاً، خاصة هذا النوع من الأمور؛ فقد ترك القطعة النقدية في سيارته الجيب". ظهرت ابتسامة ماكرة على شفتيه. "أنت تعرف بشأن القطع النقدية، أليس كذلك؟ لا تظنوا أننا تركناها هناك لنمنحكم أيها الشباب دليلاً، وإنما لنذكّر الصحفيين الذين سيكتبون عن الجرائم بماضي هذه المدينة، وكي يتعلّم البائسون الجاحدون الذين يعيشون في إسطنبول شيئاً عن تاريخ مدينتهم؛ وإن يكن من صحيفة وضيعة. على كل حال، ظهر هذا الحبيب هنا برفقة أميرته الصغيرة هذه- هذا صحيح، هذا الرجل هنا الذي يحدّق إليّ بازدراء واضح للعيان- حين كان يكتا يصعد إلى سيارته ليجلب قطعة النقود، ولم يتمكنا من رؤيتي لأنني كنت خلف التمثال. صرخ السيد الشرطي القوي هنا على يكتا طالباً منه أن يقف، لكن العجوز مدَّ يده إلى مسدس العم رؤوف القديم في السيارة، ولم يتمكن الأحمق عديم الجدوى من فعل ذلك كما ينبغي، وأصيب بارتباك شديد. عندها، ضغط رجلك على الزناد وأطلق ثلاث رصاصات فأصاب يكتا بالأولى. ولو أنني لم أقفز عليه، لكانت الرصاصتان الأخريان قد أجهزتا على صديقنا القديم في الحال".

قال علي، مكافحاً في قبضة ديمير التي تشبه الملزمة: "كما قلت ياسيدي، لو كان أي شخص آخر لقضيت عليه. لكن، عندما أدركت أنه صديقك، توقفت".

أقرَّ ديمير بذلك؛ ناظراً إلى علي باحترام: "هذا صحيح، لقد توقف". ثم

انحنى إلى الأسفل وهمس في أذن رهينته: "أتمنى لو أنك لم ترني في ذلك الصباح. فلولا ذلك، لنجح كل شيء".

لم تعد هناك سادية أو حقد في صوته، ولم يتكلم بفظاظة.

قلت وأنا أخفض مسدسي: "حسناً، ما حدث قد حدث. اسمع، لا سبب لإراقة المزيد من الدماء. ضع المسدس جانباً، فيكتا مصاب، ويجب أن نجده وننقله إلى المستشفى".

انفجر ضاحكاً.

قهقه وهو يمسك بلحيته الزائفة ويرميها في الهواء: "لا تزعج نفسك يانوزت، تبدو مثل أحد أفراد الشرطة الحمقى في أحد أفلام هوليوود السيئة. ألا تفهم؟ الأمر ينتهي هنا".

ما الذي يعنيه؟ ما الذي ينتهي هنا؟ هل سيقتلنا ثم يلوذ بالفرار؟ أم إنه يقول لنفسه إنه محاصر ولا سبيل للهرب؟ تصرّفت وفقاً للاحتمال الثاني.

"هيا يادمير، لا تقل هذا. يمكن أن نجد حلاً، فقد كانت لديك أسباب منطقية؛ كانوا مسؤولين عن موت حبيبيك. سنعيّن لك محامياً جيداً...".

"لا تزعج نفسك يانوزت، سيحكمون علينا بالسجن لمدة خمس وعشرين سنة على الأقل، ولن أقضي تلك المدة في السجن أبداً. لا خمساً وعشرين سنة، أو خمسة وعشرين يوماً، أو يوماً واحداً فقط". كان المرح الزائف قد انتهى آنذاك، وصرت أسمع صوت رجل مجروح؛ رجل يعرف أن لا خيارات لديه. "انتهى الأمر يانوزت، ألم تفهم؟ انتهى، اللعبة انتهت".

عرف أن قراره وعزمه سيُختبران إن سمح لي بالكلام، فدفع "علي" إلى الأمام وأشار بمسدسه إليه. ربما لم يكن سيطلق النار عليه، لكنها مخاطرة لا يمكنني الإقدام عليها. كان من يقف أمامي رجلاً مجنوناً وليس دمير الذي عرفته طيلة تلك السنوات وشاطرته الكثير. لذا، شهرت مسدسي.

قلت متوسلاً: "دمير لا تفعل، أرجوك، يمكن أن نجد حلاً".

قال ساخراً من التماسي: "يمكن أن نجد حلاً؟! هه". لم يصدق كلمة من ذلك، وهمس: "لن يُحل شيء يانوزت". بدا أنه قد انتهى مني، وتغير التعبير على وجهه، وفي لحظة واحدة استدار إلى علي، ثم ذخّر مسدسه. كان يجب أن أتصرّف، إذ لم يكن لدي شك في أنه سيطلق النار.

أطلقت رصاصتين.

ترنّح جسده الضخم في الساحة الصغيرة التي يضيئها القمر، ثم خرَّ

على ركبتيه وسقط على ظهره بجانب آدم يزدان.

حذّرتني زينب حين جريت نحوه: "سيدي، توخَّ الحذر، فهو لا يزال مسلحاً".

كان مسلحاً، نعم، لكن يده ليست على زناد المسدس. نهض علي على قدميه، وحرّر المسدس من أصابعه، فجثوت على ركبتيَّ بجانبه.

صرخت: "لماذا يا ديمير؟ لماذا فعلت هذا؟".

ابتسم.

كانت تلك ابتسامة ديمير؛ الابتسامة التي عرفتها دائماً وبقيت جزءاً من حياتي؛ ابتسامة متكلّفة لكنها صادقة. أدركت آنذاك أنه قد خدعنا جميعاً، وأنّ كل شيء مجرد حيلة ليلقى حتفه. أمسكت يده الممدودة، ووجدتها رطبة بفعل العرق لكنها تبرد بسرعة. وكانت عيناه الباردتان تلمعان في ضوء القمر.

همس وهو يكافح ليستجمع بعض القوة ليتكلم: "لم يكن لدينا خيار يا نوزت، لم يكن لدينا خيار...".

تجمّدت عيناه بعد ذلك؛ وكأنه رأى أغرب منظر. انتظرت أن يتكلم، وأن يقول: "هل تعرف أمراً يا نوزت، ذلك البدر فاتن حقاً". لكن الصمت أطبق على المكان، وبقيت عيناه ثابتتين، وهما تحدّقان إلى أجمل مشهد خارج نطاق رؤيتي...

"مسدسه فارغ يا سيدي".

لم يفاجئني ذلك، فقد كان ديمير محقاً طوال الوقت، فهما ليسا القاتلين وإنما الضحيتان. كان الضحايا قد عاقبوهما قبل أن يحظى ديمير ويكتا بالفرصة لتحقيق العدالة...

أشباح الراحلين

كان يكتا حيث توقعت العثور عليه بالضبط، يضيء وجهه البدر الذي يلمع عبر أغصان أشجار السرو العملاقة المتدلية فوق قبري هاندان ويوموت في مدفن الأسرة في أيوب، على بعد بضع خطوات من مرقدي العم رؤوف والخالة آينيا.

رأيته مستنداً إلى شاهدة قبر هاندان، والبقعة الرطبة الكبيرة على قميصه تحت قلبه تماماً تصبح أكبر بانقضاء كل لحظة. رفع مسدسه حين شاهد الظل يتحرك بين ظلال المقبرة، ورغم أنني لم أظن أنه سيطلق النار فكّرت في أنه من الأفضل أن أتكلم بصوتٍ عالٍ وأعرّفه بنفسي.

"هذا أنا يا يكتا، نوزت".

"نوزت". ابتسم لكنه لم يتزحزح من مكانه، وأدركت أنه يتألم لأنه كشّر. "تعال إلى هنا، فقد كنت أتوقع مجيئك".

تقدمت منه بخطوات ثقيلة، وعبء رؤيتي دميرِ وهو يلقى حتفه - وأنني كنت الشخص الذي أرداه قتيلاً - يثقل كاهلي مع كل خطوة أخطوها.

"أنت مصاب...".

غافلاً عمّا كنت أقوله، نظر من فوق كتفي. "أين رجالك؟ ألم تحضرهم معك؟".

قلت مشيراً إلى مكان بعيد مظلم: "إنهم هناك، عند المدخل ينتظرون أن أستدعيهم. سيارة الإسعاف في طريقها إلينا".

قال متفهماً: "أحسنت صنعاً، سنذهب، لا تقلق بشأن هذا، لكن ليس الآن. أولاً يجب أن نتكلم". نظر حوله إلى قبور أفراد أسرته وقال: "أشعر باطمئنان أكبر هنا".

حذّرته: "أنت تنـزف، وعندما تقف على قدميك مجدداً، يمكننا أن نعود إلى هنا".

ابتسم مستنكراً. "ستحصل لي على إجازة من السجن إذاً، أليس كذلك؟".

قلت متفقاً معه، وباذلاً قصارى جهدي لأجعله يشعر بالأمان: "سنجد حلاً ما. تعال معي إلى المستشفى وأعدك بأنني سأعيدك إلى هنا".

"أعرف أنك ستفعل. لا بأس، سنذهب إلى المستشفى، لكن ينبغي أن أخبرك ببعض الأمور أولاً".

كانت هناك بعض الأمور التي أردت قولها له أيضاً. لذا، جلست القرفصاء أمامه قرب قبر هاندان وتكلمت فوراً.

"لماذا تركتماني خارج القضية؟ لماذا لم تشركاني في الأمر؟". حدّق إلي ببلاهة وكأنه لا يعرف ما يقوله. "هل كانت تلك فكرة ديمير؟".

سأل بدهشة: "ديمير! آه، ياالله! لا، لا تُلقِ اللوم عليه، فقد كان قراراً مشتركاً... قررنا ألاّ نشركك في هذا، فأنت لديك حياة الآن؛ لديك امرأة تمنح حياتك بعض المعنى والقيمة. لذا لم نرغب في أن نورّطك".

"لم ترغبا في توريطي !".

قال وهو يحني رأسه: "أعرف. آسف ياصديقي القديم. لم نشأ أن تعرف قط، فذلك لم يكن هدفنا، وأردنا إبقاءك بعيداً عن كل هذا".

قلت بمرارة: "أتمنى لو فعلتما؛ لو أخبرتماني في البداية، واستشرتماني أولاً؛ ربما كنت سأتمكن حينها من إيقاف جنون ديمير".

غمغم وهو يتلوّى ألماً: "ماذا؟ هل تظن أن الأمر كله فكرة ديمير؟". نظرت إلى عينيه مباشرة. أردت أن أعرف إن كان يتستّر على صديقه، لكنه لم يكن يفعل. "أنت مخطئ يانوزت، لم تكن فكرة ديمير، وإنما فكرتي. كنت الشخص الذي بدأ يفكّر أولاً في أن الحادثة لم تكن بسبب سوء الطالع، وبفضل رابطة الدفاع عن إسطنبول اكتشفت ما حدث في المحاكمة. في البداية، لم أرغب في التصديق. لكنني كلما أمعنت التفكير في الأمر، ازددت اقتناعاً بصحة شكوكي. ولم أتيقن من الأمر فذهبت إلى ديمير وأخبرته بما عرفته، وطلبت منه النصح".

تمتمت: "لم تطلب نصيحتي أنا! أنا من يُفترض أنني أمثّل القانون".

"هل تريد أن تعرف لماذا لم ألجأ إليك يانوزت؟ لأنني لم أرغب في أن أُثقل كاهلك بحزني، فقد كنت تحمل عبئاً كافياً، وفقدت آنذاك زوجتك وابنتك. لم يبدُ صائباً أن تتعرّض لمزيد من الألم، ولهذا ذهبت إلى ديمير".

رأى وجهي يكتئب فحاول التوضيح. "نوزت، تعرف أن ديمير لم يتوقف عن حب هاندان مطلقاً، وأظن أن مشاطرته ما قد عرفته عن وفاتها كانت طريقتي في التواصل معه، والاعتذار منه عن زواجي بها بعد مغادرتكما". أشاح ببصره بعيداً مجدداً. "حسناً، كان يجب أن أعتذر منك أيضاً...".

"نعم، لكن كانت هناك امرأة أخرى في حياتي، وقد تزوجت في النهاية".

تحرّك متألماً قرب شاهدة القبر.

"تزوجت. وما فعلته كان صائباً. لكنني أنا وديمير لم نستطع الإفلات من براثن الماضي، أو نتمكّن من إخفاء الأمر لوقت أطول. لطالما أحب ديمير هاندان، وربما ازداد حبه لها بعد أن توفيت، وربما أصبحنا صديقين حميمين مجدداً لهذا السبب".

كانت كلمات يفغينا تتدفق من بين شفتيه...

"نعم، لهذا أصبحنا صديقين مجدداً، ولم يكن هناك خطب في ذلك. فقد كانت هاندان معنا، وكوّنت دائماً جزءاً من حياتنا؛ في أثناء طفولتنا وشبابنا... بقيت هاندان معنا دائماً".

اختلج جسده وارتعش وسعل بعنف. كان وجهه- مثل شاهدة القبر التي يستند إليها- يفقد لونه، والبقعة الداكنة على صدره تتسع.

"يكتا، أنت في حالٍ سيئةٍ ياصديقي. يمكننا أن نتكلم عن هذا لاحقاً".

أزَّ وهو يهز رأسه رافضاً: "لا، أنا بخير ولا أشعر بشيء. يجب أن نتكلم عن هذا الآن. ساعدني ديمير كثيراً، وأعني أنه قدّم لي يد العون، ولم يستغلّني أو يوجّهني. كنت الشخص الذي تولّى دفة القيادة. طلبت منه أن يتعرّف إلى يزدان، وتوثقتُ من الرجل وعلاقاته، واكتشفت حبّه للببغاوات. لعب ديمير دوره بإتقان، والتقى يزدان في مزاد للطيور النادرة؛ كما خطّطت تماماً. لم يشك يزدان في شيء، وعندما أنقذ ديمير ببغاءه، شعر تجاهه بامتنان كبير، ووثق به كثيراً؛ ما جعله يسدينا معروفاً ويعرّفنا إلى دينيزل الذي منحه أحد ببغاواته. عرفنا بتلك الطريقة أن الحادثة في موقع البناء لم تكن مصادفة، وإنما عملاً تخريبياً بكل بساطة؛ نُفّذ بناء على أوامر شخصية من يزدان. وقد أخبرنا دينيزل بكلّ شيء بعد بضع كؤوس. كان يعرف الحقيقة في أعماقه، وتأنيب الضمير يدفعه إلى الجنون، لكنه شعر بخوف شديد أرغمه على الدفاع عن الأكاذيب التي كتبها في تقرير المستشارين ذاك الذي قدّمه إلى المحكمة".

"القتلى... السبعة الذين قضيتما عليهم، هل كانوا جميعاً متورطين في هذا؟ هل كانوا يعرفون بما يجري؟".

"جميعهم؛ كل واحد فيهم. ولم يكن أيٌّ منهم بريئاً يانوزت. غضَّ مقدّر كيناسي وفضلي غموس الطرف عن المشروع المقترح وسمحا ببدء أعمال التشييد في موقع أثري قديم. وبوصفه كبير المهندسين المعماريين، تورّط تومان أكّان في القضية منذ البداية، في حين استخدم سادان دوروكا عموده في الصحيفة ليدافع عن أعمال البناء، ولم يهتم إطلاقاً بمقتل خمسة أشخاص أبرياء هناك. وكل ما قاله ذلك الوغد هو إن السياحة مفتاح

ازدهار البلاد مستقبلاً. وفي ما يتعلق بذلك المحامي اللعين، هاكان يمالي؛ لم تكن لديه أخلاق أو مبادئ قط، وفعل كل ما بوسعه للفوز بتلك القضية، وقدم رشى للجميع؛ للقضاة، والمدّعين العامين، وكل شخص آخر. وأخيراً، أسوأهم جميعاً، ذلك الوغد الكاذب الشرير والخائن والسافل آدم يزدان الذي حاول الظهور بمظهر رجل الثقافة، لكننا جميعاً نعرف أنه متورط تماماً في فضائح عديدة".

كان جميع الرجال الذين يتكلم عنهم موتى- قتلهم بيديه- لكن كراهيته لهم بقيت كبيرة.

سألت: "إذاً، هل كان الأمر يستحق ذلك؟ هل يستحق إراقة دمائهم على يديك؟". ومضت عيناه بخيبة أمل من الاتهام الذي بدا واضحاً في صوتي.

"أنت لم تفهم يا نوزت. لم يكن للأمر علاقة بالانتقام".

"إذاً، ما سبب إقدامكما عليه؟ ولا تجرؤ على القول إنه بسبب ما يُفترض أنني قلته على متن ذلك المركب اللعين".

قال مطلقاً ضحكة خافتة: "هيا يا نوزت، كنا نعرف أنك لست جاداً، ونعلم أنها مجرد ثورة صغيرة".

تحوّلت ضحكته إلى نوبة سعال أخرى مقلقة.

"يكتا، يمكن أن نناقش كل هذا لاحقاً...".

"أرجوك يا نوزت، يمكن أن تأخذني إلى المستشفى لاحقاً. دعني أُنهي كلامي فحسب...". كانت قوته تتلاشى. "لم يكن الأمر يتعلق بالانتقام، فقد قتلناهم لنمنح حياتينا نوعاً من المعنى؛ حتى يكون هناك شيء نعيش من أجله... لماذا أنت مندهش؟ أنت من بين كل الناس يجب أن تعرف ما أتكلم عنه، فقد تعرّضت لمحنة مماثلة، وانتزع أحد الأشخاص حياتك منك أيضاً. أعرف يقيناً أنك استيقظت في أصباح أيامٍ كثيرةٍ ولم تتمكّن ببساطة من إيجاد سبب للخروج من السرير أو ارتداء ثيابك ومواجهة العالم، وأعلم أنك قضيت تلك الأيام فاقداً الحسَّ وخدراً؛ حين فقدت مشاعرك وأحاسيسك تماماً، وأنّك سألت نفسك حينها عن سبب بقائك على قيد الحياة".

كان محقاً، فقد تحوّلت حياتي بعد أن فقدت غوزيد وآيسون إلى جحيم، وصرت أسأل نفسي باستمرار عن سبب بقائي على قيد الحياة، ولم تعد لديّ رغبة في الخروج من السرير أو مغادرة المنـزل. كان البقاء في البيت شكلاً آخر من العذاب، فقد ذكّرني كل شيء بزوجتي وابنتي: الأثاث، وثيابهما، ومقتنياتهما... بدا المنـزل نفسه مقراً لذكريات لا تُحتمل أرغمتني

على الخروج إلى العالم؛ إلى عالم قاسٍ وشاسعٍ حدّقت إليه بعينين خاليتين من أي تعبير، ومشيت فيه على غير هدى، فاتر الهمة. كان كلّ من العمل والطعام الشهي والشراب الفاخر وشذا البحر خالياً من النكهة ومجرّداً من السعادة أو المرح؛ وكذلك رفقة الأصدقاء. أينما ذهبت، أزعجني السؤال نفسه؛ وكأنه قد غرس نفسه في ذهني. سؤال لم أتمكن ببساطة من تفاديه بعد رحيل زوجتي وابنتي: ما الذي أعيش من أجله؟

"فقدت الحياة كل معنى وهدف بالنسبة إليّ يانوزت. لو كان بمقدوري أن أفعل ما فعلته أنت، وأن أتشبّث بالحياة مثلك، فصدّق أنني كنت سآتي إليك، وأجلب الملفات معي لنُلقي عليها نظرة معاً. لو أن الناس المسؤولين عن الحادثة قد تلقوا العقاب الذي يستحقونه لكان ذلك كافياً بالنسبة إليّ، لكن، عندما اكتشفت أن يوموت وهاندان كانا ضحيتي عمل تخريبي ومكيدة مدبّرة، لم أشعر بأي غضب، وإنما بعجز مطلق بعد أن أُخذت زوجتي وابني مني وأمام ناظري. اختفى كل الفرح من حياتي وأضحت الحياة لا تُحتمل، وعشت في كآبة كاملة، حتى إنّ زجّ أولئك الرجال في السجن، ما كان ليعيد إلي حياتي القديمة، فقد فقدت الرغبة في العيش إلى الأبد. شعرت بذلك في أعماقي، في داخلي، ولم يسعني فعل شيء حيال الأمر، فقد كنت ضائعاً ومعزولاً في أعماق اليأس...".

زعق طائر ليلي في مكان ما بعيد؛ أهو بومة؟ أم طائر كاسر؟ تذكرت ديمير، وصقره حُزن... لا بد أن الصوت قد حرّك الذكريات نفسها لدى يكتا، فقد قال: "لم يكن وضع ديمير مختلفاً أيضاً. في الواقع، ربما كان قد فقد رغبته في العيش قبلي، ووجد عزاءً في العمل ومعالجة حيواناته المصابة. عندما أخبرته أنني سأقتل الأوغاد الذين أفسدوا حياتي، قال فوراً: لنفعل هذا معاً ، لكنني رفضت، إذا لم أرغب في أن يكون جزءاً من ذلك". لا بد أنه رأى نظرة عدم تصديق في عيني حين تابعت الكلام. "أقول الحقيقة يانوزت. رفضت في البداية لكنه أصر وتوسل إلي ألا أتركه خارج الأمر. إذا لم يكن يرغب أن يعيش على ذلك النحو أيضاً".

بدأ بالسعال مجدداً، وهذه المرة استمر سعاله لفترة أطول وكان أعنف. كدت أقترح الذهاب إلى المستشفى مجدداً لكنه رفع يده ليُسكتني.

غمغم وهو يتفوّه بالكلمات بصعوبة: "سنذهب، أعدك، يمكنك أن تأخذني لاحقاً". سعل وتنحنح. "طبعاً، عندما انضم ديمير إلي أصبحت الأمور أسهل. ولو لم يكن معي، ربما كنت سأتوقف في اللحظة التي أجهزت فيها على نجدت دينيزل. ديمير خبير بهذه الأمور، وقد سبق له أن رأى الكثير

من الجثث في البوسنة، وشارك في العديد من المناوشات...". ضحك. "وفي ما يتعلق بـي، كنت مرتبكاً تماماً، ومبتدئاً بائساً. هل تعرف أنني فقدت رشدي حين وضعنا دينيزل في المرأب؟ كان الرجل فاقداً وعيه ولا يدري بما يجري. لكن، في اللحظة التي رأيت فيها دمه يسيل حين حُزّت عنقه، شعرت بالغثيان وأُغمي عليّ هناك".

لم أستطع تعرّفه، فقد كان الشاعر الحسّاس الذي عرفته وقتاً طويلاً قد اختفى، وحل محله قاتل بارد الدم؛ شخص يصف لي بهدوء كيف أجهز على ضحاياه. بدا الرجل يائساً ومثيراً للشفقة، ولم أشعر بالغضب منه أو الامتعاض.

"كما قلت، لو لم يشترك ديمير معي، لما استطعت تحقيق شيء. أنت الآن تعرف على الأرجح أننا حوّلنا مرأبـي إلى ما يشبه غرفة العمليات. ولإنجاز كل شيء في سبعة أيام، الشاحنة المغلقة الصغيرة...".

قلت مقاطعاً كلامه: "مهلاً!". وفقاً لحساباتنا، لقد اكتملت العملية كلها خلال ستة أيام. "ألم تتخلّصا من الجثة الثانية مساء الثلاثاء؟".

"لا، بل مساء الاثنين، عند منتصف الليل تقريباً. أردنا أن تتركّز العملية كلها حول الرقم سبعة، وتلك فكرتي. راقبنا الرجال السبعة شهوراً للتوثق من إنجاز كل شيء كما ينبغي؛ الوقت الذي يغادرون فيه المنـزل، ووقت وصولهم إلى العمل... كان الإيقاع بيزدان ودينيزل هو الأسهل".

لم يعد بمقدوري أن أتحمّل فصرخت: "ألا تشعر بأي ندم؟ ربما يكونون قد قتلوا خمسة أشخاص، لكنكما قتلتما سبعة! ذبحتماهم، وحززتم أعناقهم!".

قال بهدوء: "أنت مخطئ في هذا يا نوزت. هم لم يقتلوا خمسة أشخاص فقط، إذ لم تكن هانداn ويوموت وأولئك الرجال المساكين الذين يكدحون من أجل أجر زهيد من قُتلوا فقط، وإنما قتلوني أنا وديمير أيضاً، كما قتلوا أفراد أسر الضحايا الذين بقوا على قيد الحياة". شكّلت شفتاه الداميتان ابتسامة كئيبة. "ندم! هل تظن أنني لم أشعر بأي ندم؟ طبعاً شعرت به. لكن، صدّقني ياصديقي القديم، إن العيش مع مثل هذا الذنب أفضل من محاولة عيش حياة مجرّدة من أي معنى". ثم رفع مسدس والده القديم وأداره نحو صدره. "لن تستمر حياتي طويلاً على كل حال".

"ماذا تفعل؟".

"ما رأيك؟ أنت لا تظن حقاً أن بمقدوري الاستمرار في العيش بعد كل هذا، أليس كذلك؟".

طبعاً لا. عرفت أنني لن أستطيع إقناعه، لكنني شعرت بأنه يجب عليّ أن أحاول.

"لماذا سأظن هذا؟ الحياة حياة حتى إذا كانت داخل السجن يا يكتا. ربما سيسمحون لك ولديمير بالبقاء معاً هناك".

ارتعش جسده المتألم حين بكى بصمت.

"أرجوك ألاّ تكذب علي يا نوزت. لقد رحل ديمير، وأعرف أنه لا مجال لهروبـي...". لم يحاول حتى أن يمسح الدموع التي سالت على وجنتيه. "على كل حال، انتهت اللعبة بالنسبة إليّ حين توفيت هاندان ويوموت. فعلنا كل ما فعلناه لمنح حياتينا معنى؛ الحياة التي كانت تنسلُّ من بين أيدينا...".

"وهل تظنان أنكما ستمنحان حياتيكما أي معنى بموتكما؟".

"بموتنا وموت أولئك الذين قتلناهم، نعم. لم يكن بوسعنا فعل أي شيء آخر، ألا تفهم هذا يا نوزت؟ كان كل هذا نتيجة يأسنا وضعفنا، وهو تذكارنا وهدية رحيلنا التي نقدمها إلى إسطنبول. إذ لم يكن بإمكاننا أن نذوي من دون أن نصدر ضجيجاً، أو تُسمع أصواتنا، أو أن نفعل شيئاً ليرانا الآخرون، ونعيش فقط لنتنفس؛ لم يكن بمقدورنا ببساطة أن نفعل هذا. لم تكن هناك خيارات أخرى... ماذا عسانا نفعل... قدّمنا دماءنا إلى إسطنبول لتكون تذكاراً؛ شيئاً للذكرى...".

وضع بهدوء ماسورة المسدس تحت ذقنه.

صرخت: "انتظر! لقد وعدتني بأننا سنذهب معاً إلى المستشفى!".

قال: "سنذهب، فديمير ينتظرني هناك، أليس كذلك؟".

صحت يائساً حين تحرّكت إصبعه فوق الزناد: "يكتا، لا تفعل!".

همس، وهو يضغط على الزناد: "آسف يا نوزت، آسف...".

تحطّم صمت المقبرة، وارتعشت شاهدة القبر، وتمايلت أشجار السرو برفق. نبح كلب في مكان ما بعيد، في حين رفرفت الطيور في هواء الليل فوق رأسي. سقط يكتا إلى الخلف؛ على شاهدة قبر هاندان ميتاً.

إسطنبول مدينتنا حصن الأحلام المحطّمة

كنا ننظر إلى المدينة من البحر؛ أنا ونوزت وديمير.

كان الضباب يغلّف البحر، ومركبنا محجوباً عن الأبصار، وإسطنبول غارقة في السديم، ولا يمكن رؤية شيء منها إلا مآذن جامع السليمانية، وقبة آيا صوفيا، وأبراج قصر توبكابي فقط. بدت المدينة نقية وطاهرة وسليمة ولا تشوبها شائبة، وكان الضباب الأبيض يغطي كل شيء، وأي شيء يمكن أن يفسد المظهر. كان الوضع مثل رؤيةٍ من إحدى الأساطير القديمة، تنبثق من لحظة عابرة قبل ضوء النهار... مدينة أُنشئت حديثاً، بداية جديدة، تلمع تحت ضوء الفجر الرمادي... يافعة، ومفعمة بالحياة، ومملوءة أملاً...

كنا ننظر إلى المدينة من البحر... إلى طفولتنا، إلى أولئك الأولاد الذين يجرون بحرية في شوارع بلاط ويسبحون في مياه القرن الذهبي... إلى أولئك الأولاد الذين يتبادلون اللكمات والركلات مع أولاد من الشوارع المجاورة... إلى الخوخ المسروق من حديقة القس الخلفية، إلى الأشباح التي تسكن قصر بورفرجنيتش، إلى التمثال في كنيسة البطريركية، إلى صلوات الأعياد التي تؤدّى في جامع السليمانية، إلى المياه المبجّلة من نبع أيازما... إلى المدافن في أيوب، إلى رائحة الطهي المنزلي الشهي الذي يملأ الشوارع الضيقة... إلى الجيران والأصدقاء الذين يعيشون جنباً إلى جنب ويعتنون ببعضهم، ويرتبط أحدهم بالآخر...

كنا ننظر إلى المدينة من البحر... إلى هاندان... إلى الفتاة ذات الساقين الرفيعتين والطويلتين التي ترتدي بزّة مدرسية سوداء، إلى اليد التي ارتفعت دائماً قبل أيدينا في الصف لتجيب عن سؤال... إلى الفروض المنزلية التي لا تنتهي، إلى وجوهنا التي تنبض ألماً بعد تلقينا صفعات من المدرّس... إلى ذكريات معلّقة في الضباب... إلى أربعة تلاميذ يمشون في شوارع بلاط الضيقة، إلى صداقات لم يكن الحب قد أفسدها بعد... إلى شجاعة ديمير، وإحساس نوزت باللياقة والاستقامة، إلى قصائدي... إلى جمال هاندان الأخّاذ... كنا ننظر إلى هاندان من البحر، إلى عينيها الداكنتين والفاحمتين مثل إسطنبول التي تنبض حيوية في الضباب أمامنا...

كنا ننظر إلى المدينة من البحر... إلى والد نوزت الذي يحب الشعر، ووالدته الشغوفة بالتاريخ... إلى زوجة نوزت وابنتيه الصغيرتين اللتين لقيتا حتفهما بقسوة قبل أن تتذوقا طعم السعادة الكاملة... إلى صقر ديمير

حُزن، ووالده الذي يحدّق إلى زوجته المصابة بالزهايمر بمحبة وإخلاص... إلى والدي الذي ينشد أغنية بعد احتساء بضع رشفات من الشراب، ووالدتي المحبة دائماً... ومجدداً، رأينا هاندان... هاندان دائماً... الفتاة التي أحببناها كلنا... زوجتي وأحلامها غير المتحققة... كنا ننظر إلى يوموت الذي قضى نحبه أيضاً قبل أن يختبر أفراح الحياة وأتراحها...

كنا ننظر إلى المدينة من البحر؛ أنا ونوزت وديمير، إلى قصيدة كتبتها الطبيعة وبناءٍ مشوّه ابتكره الإنسان... إلى ناطحات السحاب؛ تلك الخناجر الحجرية والإسمنتية التي تطعن بصفاقة قلبَ المدينة... إلى الجسور القائمة فوق القنوات المائية مثل أغلال تصفّد المدينة... إلى المساحات المكشوفة التي تتضاءل بانقضاء كل ساعة ودقيقة... إلى الغابات، وكل شجرة وشجيرة وزهرة تذوي ببطء... إلى الناس، وفرحتهم المسحوقة، وحنانهم المنقوص، ورقّتهم المختفية، وآمالهم المحطّمة، وإحساسهم المتأرجح بالاحترام... إلى قبيلة محطّمة مثيرة للشفقة تعتبر على نحو خاطئ الكسبَ والاستغلال سعادة...

كنا ننظر إلى المدينة من البحر؛ أنا ونوزت وديمير، إلى وجوه أمواتنا والحزن في عيوننا. رأينا عجزنا، ويأسنا من خوفنا المتزايد... إلى حياة كانت تنسلُّ من بين أيدينا... كنا ننظر إلى أيامنا المشرقة، وأوقات الصباح المملوءة أملاً، وأمسياتنا المفعمة بالضحك والموسيقى... إلى ذكرياتنا المحتضرة، وأحلامنا الذابلة، وآمالنا المحطّمة...

كنا ننظر إلى المدينة من البحر، إلى بلد الملك بيزاس الأسطوري، إلى عاصمة قسطنطين الإمبراطورية، إلى قلادة الأسوار الحجرية التي بناها ثيودوسيوس الثاني، إلى آيا صوفيا جستنيان الفريدة، إلى قصر توبكابـي الذي حكم منه محمد الفاتح نصف العالم المعروف، إلى جامع سليمان القانوني الرائع... حدّقنا من البحر إلى أولئك القادة الاستثنائيين، إلى النبلاء والمواطنين ذوي السمعة العطرة، إلى العبيد والصوفيين والقدّيسين... إلى النساء: بولهيرا، وثيودورا، وروكسلانا... نظرنا من موقعنا في البحر إلى الأعمال البطولية والجبانة، وإلى الإبداع والتدمير، إلى الذكاء والحماقة، والرأفة والقسوة... حدّقنا من البحر إلى كل جنون الإنسان وغموضه، إلى كل جرأته ومآثره.

كنا ننظر إلى إسطنبول من البحر... إلى الساحات، والأعمدة، والتماثيل، والمعابد، والكنائس، والجوامع، والقصور، والمنازل، والينابيع، والنوافير، وعيون الماء، والقبور، والمدارس الدينية، ومطابخ الحساء، ومباني إيواء المراكب، والموانئ، والمحطات، والجامعات، والواجهات البحرية، والبيوت والشقق، والمنازل الخشبية القديمة المنسية، والأبنية الحجرية المتداعية... إلى الشوارع الضيقة

المرصوفة بالحصى، والطرق العريضة المؤدية إلى الشاطئ، وحدائق الأطفال وأماكن لعبهم المطوّقة بمبانٍ تبرز من كل الاتجاهات... رأينا أفضل الحرفيين، العباقرة منهم، يقودهم المعماري سنان؛ الذين جعلوا من هذه المدينة - برؤيتهم وذكائهم وعرقهم وكدحهم - ما هي عليه اليوم...

كنا ننظر إلى إسطنبول من البحر... إلى مدينتنا إسطنبول، مدينة الأحلام المحطّمة... عاصمة الذكريات المدنّسة والأفراح المشوّهة... عاصمة الأحلام المحطّمة... ملكة الحزن، المدينة الجميلة التي خرّبها الاستبداد، والأنيقة التي أتلفها الرياء والاستغلال، وأرض الرخاء التي ابتُليت بالجشع... حدّقنا إلى مدينتنا، وشوارعنا، وحدائقنا، ومنازلنا، وقبورنا...

كنا ننظر إلى إسطنبول من البحر... أنا ونوزت وديمير...

إلى إسطنبول الغارقة في الضباب...

انتهى

---

[1] بالأمس فقط حدّقت إليك من إسطنبول العالية والمجيدة...

[2] بُني سنة 330 ميلادية؛ بناءً على أوامر الإمبراطور قسطنطين، وإحياءً لذكرى إعلان بيزنطية العاصمة الجديدة للإمبراطورية الرومانية.

[3] يقع في ضاحية الفاتح، وبُني بين عا م ي 1463-1471 بأمر من السلطان محمد.

[4] حي في الجانب الآسيوي من البوسفور، قبالة الحي التاريخي.

[5] شخصية من الملحمة التركية "كتاب ديدي كوركوت: دلي دومرول (دومرول المجنون)". بنى جسراً فوق نهر جاف، وسمح للمسافرين الذين يدفعون ثلاثين قطعة نقدية بعبوره، في حين تعرّض الذين رفضوا الدفع للضرب ودفعوا أربعين قطعة نقدية.

[6] "تستحق معرفة حيّك ومحبّته حياةً برمّتها...".

[7] 1884-1958

[8] (قبل عام 1919) مطرب يغني الأغاني العثمانية والتركية الكلاسيكية.

[9] لبن كثيف ينكّه بالثُوم والشبت والأعشاب.

[10] مازة تحضّر من الباذنجان والطماطم والبصل.

[11] أولى سور القرآن الكريم.

[12] سيم تُضاف غالباً إلى اسم ما للدّلالة على التّحبّب.

[13] شراب يُصنع من لبن وماء وملح.

[14] لقب احترام للسّيّدات.

[15] زواج يعقده إمام وفقاً للشريعة الإسلامية. مقارنة بالزواج المدني (الذي يُسجَّل قانونيًّا)، لا يجري توثيق نكاح الإمام قانونياً.

[16] طبق تقليدي من العجين يوضع عليه جبن ولحم وخضار... ويُخبز في فرن صلصالي.

[17] أسى.

[18] عم: تستخدم للدلالة على محبّة كبار السن واحترامهم.

[19] مصارع

[20] سروال طويل وفضفاض يرتديه الرجال المحافظون.

[21] آي: هلال- يلديز: نجم.

[22] سيد، تستخدم للدّلالة على الاحترام.

[23] "الأخ الأكبر": تعبير تحبّب للكبار والوجهاء.

[24] بوابة الهناء.

[25] روكسلانا.

[26] يفكّر الناس في الشهرة والمجد بوصفهما من أعظم الفضائل/لكن لا كنـز في العالم أروع من السعادة.

[27] البوابة الإمبراطورية، أبعد بوابة في قصر توبكابـي.

[28] البوابة الوسطى (بالتركية).

[29] باب السعد (بالتركية).

[30] الثاني.

[31] (1490-1588) مهندس معماري عثماني شهير صمّم وبنى ثلاث مئة بناء رئيس، ومنها جامعا السليمانية وسليم.

[32] صلاة من السُّنن تُؤدى في الليل.

[33] الوقت متأخر، نحن في نهاية أمسية لن تعود/ هذه، ياعزيزتي، ستكون آخر حفلة، لذا تابعي العزف...

[34] في غروب هذه الحديقة الأخيرة/ المستسلمة للرغبة والخراب أو قلب يحب/ لتُزهر أشواك أو ورود في قلبك/ نحن في نهاية أمسية لن تعود/ الوقت متأخر...

[35] مئة قرش: ليرة تركية واحدة.

[36] جمهورية.